



تاريخ بخاري

من ذاق دم العصور حتى العصر الحاضر

تأليف
ارمينيوس فامبري
Arminius Vàmbery

راجع و قدم له
الدكتور يحيى الخشاب

ترجمه وعلق عليه
الدكتور احمد محمود الساداتي

الناشر
مكتبة نهضة الشرق
جامعة القاهرة

تقديم

مؤلف هذا الكتاب هو المستشرق المجرى المعروف ارمينيوس فامبرى الذى عاش فى القرن التاسع عشر ، واشتهر بكتابته عن البلاد الشرقية عامة والتركىة بوجه خاص ، والذى زار تركيا أكثر من مرة وزار بلاد التركسنان وكتب عن هذه البلاد كتابة العالم الذى يرجع الى المصادر التى تتناول موضوعه ، وخاصة المخطوطات ، وفى الوقت نفسه يدرس دراسة عليية البلاد التى يتحدث عنها .

والكتاب الذى تقدمه اليوم الى المكتبة العربية يتناول تاريخ بخارى (تركستان) قبل الاسلام وحتى عام ١٨٧٠ . يجد فيه القارىء العصر السامانى بدينته العظيمة ثم العهد : السلجوقى ، والأويغورى ، والخوارزمى . ويتحدث المؤلف بعد ذلك عن الغزو المغولى : الجنكيزيين ثم التيموريين . وينتقل الى الأوزبك ، والشيبانيين ، والاشترخانين والمنغيتيين . وبعد هذا يذكر خانات خيوة وخوقند وكاشغر وينهى حديثه بما كان من خضوع هذه المنطقة لأسرة رومانوف .

وأسلوب الكاتب على خالص ، فهو مؤرخ سياسى وحضارى يضع أمام القارىء صورة للحياة السياسية للعصر الذى يتحدث عنه كما تأخذ الأوضاع الاجتماعية والحضارية من جهده الكثير وهى أكثر مشقة فى البحث من السرد السياسى للتاريخ . وفامبرى فى كتابه يمتاز بسعة الاطلاع والصبر على التدقيق وتحمل مناسق الرحلة فى سبيل كشف ما يريد أن يصل اليه من اعطاء قارئه صورة كاملة لكل عصر تناوله . وحسينا أن تتصور أن أكثر المراجع الشرقية التى رجع اليها كانت مخطوطة وقتذاك ولم يكن الاطلاع عليها والافادة منها ميسرتين هذا التفسير الذى نجده

في المطبوعات الحديثة من هذا التراث الشرقي ، عربيا كان أو تركيا أو فارسيا .

لقد ازدهرت الحضارة الاسلامية في التركستان ، وكانت بحارى مركزا من المراكز الرئيسية في هذه الحضارة واذا كنا نحن العرب نعرف مراكز الحضارة في بلادنا ، في بغداد والقاهرة والقيروان وفاس ، فإن علينا أن نذكر بخارى التي كانت قبلة لعلماء هذه المراكز كلها والتي أُنعت فيها حضارة المسلمين فترة طويلة من الزمان امتدت حتى منتصف القرن التاسع عشر . والتذكير بالماضى الحضارى المجيد لهذه البلاد هو الذى حدا بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، لجنة الترجمة والتبادل الثقافى ، أن تنير باخراج هذا السفر الفيس الى اللغة العربية حفاظا على تاريخ حضارتنا العربية الاسلامية .

أما المترجم فهو الاساذ الدكتور أحمد محمود السادانى من أساذة قسم الدراسات السرفية بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وهو يتناز بسعه الاطلاع والجلد على البحث والتدقيق العلى الذى بكلف الكثير من المشقة والجهد . أكمل دراسته النانوية بالقاهرة ثم سافر الى السسا وألمانيا حيث أخذ بدرس بجامعة ميونخ وفيما وعاد الى القاهرة ليدرس من جديد فى كلية الآداب وليظفر آخر الأمر بأعلى الدرجات منها ثم لتتحق بهبة التدريس فيها . وهو يجيد من اللغات الأوروبية الألمانية والانجليزية والفرنسية ، ومن اللغات الشرقية الفارسية والتركية والأوردوية . وله ترجمات كثيرة ساذفة على هذه الترجمة .

والحق انه لم يكن فى هذا الكتاب مترجما فحسب ، فهو عالم مدقق فاحص ملم بالموضوع الذى ينقله الى العربية الماما تاما يكاف يكون قرينا لمؤلف الكتاب نفسه . وهو محب للتاريخ الاسلامى حبا أخذ عليه أكثر وقته فى محاضراته وكتبه ، ولعله أول من كتب تاريخ الهند بالعربية وأول من ألقى عندنا ضوء على تاريخ المغول والمسلمين فى هذه البلاد ،

ونحن في كلية الآداب نعدده الاستاذ المتخصص في هذا القسم من تاريخ المسلمين ، لذلك لم يكن غريبا أن تزخر هذه الترجمة بالملاحظات والحواشي القيمة التي نجدها فيها . فهو قد أضاف الى الترجمة أكثر من مائة حاشية تناول في بعضها شرح النقاط التاريخية التي تركها المؤلف دون توضيح ، وعرض في بعضها الآخر آراء المؤرخين الثقات فيها ، وأثبت في ذلك كله أسماء المراجع الأصلية التي رجع اليها . تم انه حقق النصوص التاريخية التي أوردتها المؤلف وذلك بالرجوع الى المصادر الأصلية التي أورد نصوصها العربية كما وردت في الطبرى وابن الأثير وغيرهما . وحقق الأعلام وأسماء الأماكن راجعا الى المصادر الرئيسة في ذلك عربيه وفارسية وتركيه .

وأشهد أنى راجعت هذه الترجمة وأنا قرير العين بها فانى وجدتها مطابقة للنص خير التطابق ، جارية في أسلوب عربي لا يشعر القارئ بنقل عن لغة أخرى ، انما كأنه هو صاحب الكتاب لا مترجم له ، وكان تزويده الترجمة بهذه الاضافات القيمة التي أضافها خير دليل على تعمقه الموضوع الذى بنقله الى العربية .

بحيى الخشاب

العمد السابق لكلية الآداب بجامعة القاهرة
ورئيس قسم اللغات الشرقية

مقدمة

ان معلوماتنا عن التاريخ الغابر لشعوب آسيا على اختلافها تزداد باطراد تقدم الأبحاث العلمية الخاصة بالأقاليم التي نعيشها في نواحي الجغرافية والسلالات البشرية واللغة . فهذه هي الدولة العثمانية ، برغم اتصالها الوثيق الطويل بكل أجزاء أوروبا ، فان المؤرخين لم يعنوا — لأول مرة — عناية جديّة بالوقوف على أحوالها إلا في القرن الماضي ، وحتى في ذلك الوقت كانت أخبارها عندهم سطحية طفيفة ، فلم يتأكد لديهم ما كتبه عنها پتي دولاكروا Petis de la Croix وكاتمير Cantemir حتى جاء من بعد ذلك هامر وتزنكايزن Hammer and Zinkeisen ووثقوها بأبحاثهم . واستطاع ج. وایل G. Weil بدوره أن يخرج للناس عمله الضخم في تاريخ بلاد العرب ومصر ، وهو لا يتعرض فيه إلا للعصور الماضية . في حين لبث خضم التاريخ الفارسي يفتقر الى مثل هذه الجهود ، حتى انبرى له آخر الأمر الأريب الجنرال مالكولم Malcolm وراح ينقضي الموضوعات التي تناوئها من قبل تيفينوت Thevenot وشردان Chardin ونيبور Niebuhr ويفسرهما بعد أن جاب بنفسه بلاد فارس كلها مرات عديدة دارسا ومتقبا . ولا يزال الاقليم الواقع فيسا وراء جيحون أرضا لا يعرف عنها التأريخ شيئا مذكورا بالقياس الى غيرها . ولقد بدا لنا أول هذا القرن بعض ومضات من ضوء من خلال تلك الظلمة التي تلف تلك المنطقة بأسرها . ومنذ أن هتك سيف الغزو ، حدا ما ، ذلك القناع الذي كان يحيط بتلك البقاع ، لنا أن نتصور بسهولة مدى تهافت المثقفين من الأوروبيين على التعرف على الأحوال الحاضرة لهذه البلاد تعرفا صحيحا ، رغم أن مبلغ علمنا عنها وعن أهلها لا يزال غير أكيد . ولا بأس عندهم من أن يضاف الى ذلك بعض البيانات عن فجر

تاريخ تلك الأمة التي نقطن آسيا الوسطى ، تلك البلاد التي وثقت مجريات السياسة الحديثة من صلاتها بنا برغم موقعها الجغرافي القصى . ولتحقيق هذه الرغبة ، أقدمت ، برغم قلة المصادر وضآلة الامكانيات ، على محاولة الاضطلاع بهذا العمل الذى لا يتخلو من منفة ، ألا وهو تدوين أول تاريخ لبخارى . وكنت أفكر فى الواقع منذ أول شبابى فى شئون هذه المنطقة البعيدة ، حتى لقد أمضيت كل شبابى فى التأهب والاعداد التشييط لهذا العمل ، فضلا عما فتت به من رحلات مضية فى سبيل ذلك . حتى اذا ما اكتسبت لى السنون بان لى أنه لم يكن يجدر بى أن أخطر فأزج بنفسى فى عمل أدبى له مثل هذا الاعتبار البالغ . ويبدو أن القدو هو الذى هيا لى أن أقتحم مناطق لم يسبقنى اليها أحد من قبل ، تقريبا أو على الاطلاق . وها أنذا على الآن أن أسكتشف بالقلم حقولا جديدة كل الجدة مكتفيا فى ذلك ، مع الاعتذار الشديد ، ببيان المراجع القليلة التى لا تجدى بدونها أية طريقه للدرس مهسا عظم .

ينقسم تاريخ بخارى الى قسمين : التاريخ القديم ، وهو تاريخ بلاد ما وراء النهر ، ثم التاريخ الحديث ، وهو تاريخ خانية بخارى . وبرغم أن الفترة التى تختم بنهاية حكم تسور لم تكن فيها آسبا الوسطى موضع اهتمام المؤرخين المتخصصين أبدا ، فلا ينبغى مع هذا أن نهمل شأنها . ذلك أن تاريخ هذه الفترة يصل اتصالا وثيقا بتاريخ داخل العالم الاسلامى عامة فضلا عن تاريخ المسلمين فى المغرب فى بعض الأحيان . ولئن كان مؤرخو تلك الحقبة لم يخصصوا مجريات الحوادث السياسيه ببلاد ما وراء النهر بنفس العناية التى بذلوها لحوادث خراسان والعراق وبلاد العرب ، فاننا مع ذلك قد استطعنا أن نستخلص من عندهم أهم ملامح ذلك الماضى هناك . وعلى سبيل المثال ، تقع فى هذه الفترة العهود التى يصدر فيها السامانيون والأمير تيمور من بخارى وسمرقند المراسيم التى حكموا بها نصف آسيا الاسلاميه (بل كلها فى بعض الأوقات) ، ولكننا لا نجد لتاريخ بلاد ما وراء النهر الخالص فى تلك الآونة قدرا كافيا من العناية . أما الفترة الثانية من تاريخ هذه البلاد ، وهى التى تبدأ بظهور الأوزبك ، فالمعلومات الخاصة بها قليلة جدا . ذلك أن خانية بخارى التى لم يكن لها

اذ ذاك خطورة سياسية تذكر ، كانت قد غدت فى عزلة عن جيرانها الذين لم يكونوا بدورهم يلتفتون فى الغالب الى ما كانت تمارسه بين ظهرانيهم من نشاط ضئيل حيناً بعد حين . وعلى أساس هاتين الفترتين تقسم المصادر التاريخية الى قسمين منفصلين ، هما :

١ (مصادق قديمة مشهورة ، ومنها تلك التى قام بنشرها المستشرقون أو نقلوها الى لغاتهم ، أو التى اعتمدت عليها المخطوطات الأصلية فى تفصيل مسألة بعينها .

ب (مخطوطات جديدة أو غير معروفة جلبها الرحالة حديثاً من آسيا الوسطى ، فهى بذلك غير معروفة عند جمهرة المستشرقين .

أما الأولى ، فالمصادر الآتية هى مما أفدت منه ما استطعت فى تعرضها لتاريخ بلاد ما وراء النهر :

١ - تاريخ الطبرى ، الترجمة التركية التى نشرت حديثاً ، لاسيما فترة غزوات العرب عبر جيحون فيه . ذلك أنه برغم أهمية تاريخ النرتسخى فى هذه الفترة ألا أن حوايلات هذا الكاتب المسلم فى تاريخه الجامع هذا لها بدورها أهميتها كذلك لاختلاف بعض رواياته من جهة ولائفاده بإيراد بعض التفصيلات من جهة أخرى .

٢ - تاريخ بيهقى (١) الذى نشره مورلى وناماو ضمن منشورات المكتبة الهندية بكلكتا عام ١٨٦٢ م .

Captain W. Nassau Lees, W.H. Morley, "Bibliotheca Indica"

وأهمية هذا الكتاب بوصفه تاريخاً لبلاد ما وراء النهر ، هى قسباً يفصله من سيرة محمود بن سبكتكين الأولى ، وما كان من أمر العلاقات السياسية بين السلطان مسعود الغزنوى ، وأمراء كاشغر وسمرقند المستقلين . وهذا الكتاب لا يحوى على كل حال الا أجزاء بعينها من تاريخ آل سبكتكين وهو من تأليف أبى الفضل البيهقى .

٣ - روضة الصفا لميرخوند ، وتكملة هذا الكتاب حتى العصور الحديثة نقلاً عن مؤلفات خوندامير وعلم آراى عباسى وتاريخ صفوى

(١) نقله الى العربية بحسب الخشاب ومصدق نشأت - القاهرة ١٩٥٦

(المترجم)

وتاريخ نادرشاه وكتب أخرى نشرت جميعها مع الكتاب الأصلي في مجلدين في طبعة حجرية بطهران عام ١٢٧٤/١٨٥٧ . كذلك كان في متناول يدي أجزاء من كتاب ميرخوند نشرها فولرز وكاترمير Vullers and Quatremère . ولكنني لم أفد من ميرخوند بخاصة الا من الفصل الخاص بالسلاجقة عنده . ذلك أنه فيما عدا هذا الفصل ، فكل ما ورد عنده قد نقله عن مراجع أخرى معروفة (١) ، وآثرت في ذلك أن أرجع الى المصادر الأصلية نفسها .

٤ - تاريخ جهانكشا لعلاء الدين عظاملك الجويني . والمعروف أن هذا الكتاب هو المرجع الأول الذي اعتمد عليه رشيد الدين ووصاف وحافظ آبرو وغيرهم من مؤرخي المغول . وبرغم ما أورده رشيد الدين ووصاف من التفاصيل التي لا نجدها عنده ، فإن هذا الكتاب لا يزال يعد مرجعا هاما في تاريخ بلاد ما وراء النهر وتاريخ الترك عموما . وقد أفدت من نسخة هذا الكتاب الموجودة في المكتبة الامبراطورية بمدينة فيينا (٢) وهي التي أفاد منها كذلك هامر في كتابه «تاريخ القبيلة الذهبية» Hammer "History of the Golden Horde"

٥ - ظفر نامه لشرف الدين على يزدي . وهو سيرة تيمور المشهورة . وقد نقله الى الفرنسية (نقلا غير دقيق) پتى دولا كروا Croix و نشره بباريس عام ١٧٢٢ . وقد اطلعت في خيوه كذلك على نسخة بالجغتائية لهذا الكتاب .

٦ - مطلع السعدين (السعدان هما عند البعض جنكيز وتيمور وعند غيرهم تيمور وشاهرخ) للشيخ كمال الدين عبد الرازق الذي عاش

(١) أمعن ميرخوند في النقل عن غيره حتى لتراه ينقل من عبارات بأكملها حرفا بحرف . فتاريخه عن جنكيز وحروبه هو على سبيل المثال ، صورة طبق الاصل لماورد عند الجويني بعد أن حذف منها بكل بساطة قدرا من عبارات المديح والاطناب التي وردت في الاصل .
(٢) نشر هذا الكتاب في مجموعة جب التذكارية بليدن ١٩١١ - ١٩٣٧ في ثلاثة مجلدات .

بهرأة وسمرقند ابان فترة ازدهار الحكم التيمورى . ويعد هذا الكتاب من أمتع الكتب العلمية التى كتبت عن فترة يعينها فى تاريخ الشعوب الاسلامية بآسيا . والمجلد الثانى منه ، وهو الذى يتناول الفترة ما بين وفاة تيمور و وفاة أبى سعيد ميرزا ، له أهميته البالغة . ففيه يعرض علينا المؤلف ، باضطلاع الأديب المتمكن وفى تفصيل كامل ، صورة مشيرة لحياة وأعمال خليفة تيمور هذا الذى عرف بشغفه بالعلوم والفنون . وقد ولد عبد الرزاق ، مؤلف هذا الكتاب ، بهرأة عام ١٤٢٣/٨١٦ وتوفى بسمرقند عام ١٤٨٢/٨٨٧ .

٧ - بابرنامه - وذلك عن النص الأصلى المشهور الذى نشره المنسكى (١) . وقد أطلعت بعد ذلك على ترجمة فرنسية ممتازة لهذا الكتاب نشرها بافية دولاكورتى Pavet de la Courteille فى العام الماضى لأول مرة .

٨ - شيبانى نامه - وذلك عن النسخة التى نشرها برين Berezin مع ترجمة روسية لها . والأصل الجفتائى ، ويقع فى ورقات قليلة ، يفصل ، الى حد ما ، فى أصل الأوزبك وتاريخهم وسيرة بطلم شيبانى خان المبكرة منذ بدء تجواله فى حوض سيجون الأدنى . وينتهى هذا الكتاب بسوت شيبانى . غير أن المؤلف يعرض حروب هذا البطل المهمة ونهايته المفجعة عرضا سطحيا عجلا .

٩ - شجر تركى (النسب التركى) لأبى الغازى بهادرخان . وقد نشر الأصل الكونت روماتزوف Count Romazoff فى كاشان عام ١٨٢٥ ، وهذا الكتاب هو فى مجموعه صورة متواضعة من كتاب رشيد الدين ، ولا سيما القسم الخاص منه بأصل الترك . وما يصح أن

(١) نشرت السيدة انيت بفريدج أكمل نص لهذه السيرة عام ١٩٠٥م وهى التى استندت عليها هنا فى بعض التعليقات كما نقلت كذلك الى الانجليزية وأضافته اليه تعليقات كثيرة وشروحا قيمة وظهرت هذه الترجمة بلندن عام ١٩٢٢ (المترجم)

يكون له قيمة تاريخية منه هو تلك الفصول التي تتناول عصر أبي الغازي ومغامراته الشخصية .

١٠ - تاريخ نادرشاه ، لميرزا محمد مهدي خان ، عن نسخة حجرية نشرت في طهران عام ١٢٦٠/١٨٤٤ .

١١ - ناسخ التواريخ ، قاريخ قاجاري ، وهو تاريخ الأسرة التي نحكم ايران الآن . وفيه نجد اشارات قليلة الى بخاري في نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي . ويتضح لنا من المصادر التي استخدمها مالكولم أن مؤرخي الفرس لا ترد عندهم الا روايات قليلة خاصة بتلك الحقبة في تاريخ ايران ، حتى لم أوفق في الحصول عندهم على ما يستحق الذكر .

والى جانب تلك المراجع المهمة أفدت بطبيعة الحال من كل ما يشير الى تاريخ بلاد ما وراء النهر في أسفار الشرق ، مما هو منشور منها وما هو مخطوط ، أو في كتب التاريخ الأوربية وكتب التراجم والرحلات . ذلك أنه لا معدى اليوم لأى كاتب ، يتصدى للكتابة في أى موضوع ، من الاطلاع الواسع على كل ما تصل اليه يده من المراجع التي تتناول الموضوع الذي يعالجه . ولقد كفت القارئ مؤونة الاطلاع على قائمة طويلة بأسماء المراجع كلها ، وهو على كل حال سيطلع على كل واحد منها في موضعه المناسب بهذا الكتاب .

أما مراجع القسم الثاني فهي لا تزيد في الواقع على خمسة لسوء الحظ . وهي أساسا مخطوطات جديدة غير معروفة وتختص بتاريخ بخاري القومي :

١ - كتاب النرشخي . ومؤلفه هو أبو بكر محمد بن جعفر النرشخي . وقد كتبه (في رواية عام ٣٣٧ هـ وفي رواية أخرى عام ٣٣٢ هـ) بعنوان (كتاب أخبار بخاري) بأمر من نوح بن نصر الساماني الذي حكم بخاري باسم الأمير حميد ٣٣١ - ٣٤٣ هـ . وقد ألف هذا الكتاب أصلا

١ - أي قبل الأسرة البهلوية الحالية (المترجم) .

بالعربية ، ثم نقل الى اللغة الفارسية بعد الفراغ من تأليفه بمائة وتسعين عاما . والترجمة الفارسية التي بين أيدينا وهي التي ابتاعها سير الكسندر بيرنز Sir Alexander Burnes في مدينة بخارى عام ١٨٣٢ والتي هي الآن في حوزة الجمعية الملكية الآسيوية لبريطانيا العظمى وايرلنده ، تتناول : أولا ، مبدأ تاريخ بخارى وما حولها . ويبدو فيها أن المؤلف يهتم اهتماما كبيرا بدراسة أسوار بخارى وأبوابها وقصورها وقنواتها ونظام الحكومة فيها وطريقة جمع الخراج بها . والمخطوط يتحدث بخاصة في شيء من التفصيل عن هذا الجزء من بلاد ما وراء النهر أيام السامانيين في عهد ازدهارهم ، وبوجه التحديد ، عن تلك المدينة وما يتاخمها مباشرة حتى لا نجده يذكر مناطق ميانكل والصغد .

وفي القسم الثاني من الكتاب يتحدث المؤلف عن الفتح العربي لتلك البلاد في تفصيل لا نجده عند غيره . وتاريخ القرن الأول للحكم العربي عنده يسوده الغموض والاضطراب ، ولكنه يتحدث عن المقتنع ، النبي المزعوم ، حديثا شائقا يشمل كذلك بعض حوادث تلك الفترة ، ويلى هذا القسم تاريخ السامانيين الذي استطاع المؤلف أن يصل به الى بداية حكم الأمير الحفيد ليتسه من بعد ذلك مترجم الكتاب (الى الفارسية) حتى سقوط تلك الأسرة . وبآخر الكتاب فصل مستقل عن مزارات بخارى وعن الصالحين والعلماء المدفونين هناك . وقد علت كذلك بوجود نسخة من هذا الكتاب في حوزة الأستاذ خانيكوف Khanikoff ومن الأسف أن كلتا النسختين اللتين نقلت منهما كتبنا كتابة رديئة بخط نسخ لا يقرأ .

٢ - شيباني نامه (١) وهو شعر جغتاني حماسي كتبه الأمير محمد صالح الخوارزمي . وهو مخطوط يقع في ٢١٨ صفحة يروى أعمال البطولة التي اضطلع بها شيباني خان ويصفها ، منذ أول ظهوره أمام سرقند حتى زحفه على حاضرة خراسان . وهي لا تحكى بذلك الا حوادث

١ - ذكر المؤلف في الصفحات السابقة كتابا آخر يحمل هذا الاسم ، وهو أيضا سيرة شيباني ولكنها كتبت نرا (المترجم)

لثمانى سنوات من عمره . ولما كان كل ما وصلنا من أخبار الشيبانى مصدره
اما بابرنامه أو كتب التاريخ الفارسية ، وكلها لا تضر له أى ود ، فقد
لقى هذا المؤلف أكثر الترحيب بوصفه أول مصدر موثوق به حقيقة فى
هذا الشأن . ذلك أن الأمير محمد صالح كان يقوم على دنوان رسائل
البطل الأوزبكى . ولئن كان يتحدث عنه ، بطبيعة الحال ، بعبارات
التفخيم والمبالغة ، إلا أنه يعطينا فى الوقت نفسه صورة لا مغالاة فيها
عن الأحوال الخلقية والاجتماعية التى كانت تسود بلاد ما وراء النهر
اذ ذاك ، حتى لآمل بذلك أن أنشر هذا المخطوط الأصيل مع ترجمته
والتعليق عليه فى أقرب وقت . والنسخة التى اطلعت عليها ملك المكتبة
الإمبراطورية فى فينا ، وهى النسخة الوحيدة بأوروبا . ولم أعثر على أخت
لها بآسيا الوسطى كذلك . ويذكرها فليجل Fluegel فى فهرسه
بالمجلد الثانى ص ٣٢٣ . ويبدو أنه لا يلم بالجفائية اذ أن تعليقاته عليها
قليلة ناقصة .

٣ - تاريخ سيد راقم . وهو مجسوة من التواريخ تبدأ من عام
١٠٥٥/٧٠٠ وصل بها سيد راقم الى عام ١٦٠٤/١٠١٣ ثم استكملت من
بعد ذلك حتى عام ١٦٤٥/١٠٥٥ . وبرغم أنها مجرد حوليات فارسية
تؤرخ بعض الحوادث ، إلا أن التعليقات التاريخية على هذه الرباعيات أو
المقطوعات الشعرية لها اعتبارها ، ولاسيما ما يشير منها على الخصوص
الى العلماء والشيوخ المبرزين من أعيان هذه الحقبة ، والذين لم تكن
ندرى من أمرهم شيئاً لولا هذه التضمينات .

ولئن كانت هذه التواريخ فى صورة حوليات ، إلا أنها حين تتصدى
للحديث عن بعض الشخصيات من أمثال تيمور وشيبانى وعبد الله خان
وعبد المنعم خان نراها تفصل من أمرهم فى أمانة تامة . وهذا المخطوط ،
وهو فى حوزتى ، يذكر عرضاً بعض أعيان خراسان ، ولكنه يتناول أساساً
البلاد الواقعة فيما وراء جيحون فهو لهذا يعد من بين المراجع الخاصة
بتاريخ بخارى وبلاد ما وراء النهر .

٤ - تاريخ مقيم خانى ، لمحمد يوسف منشىء (رئيس ديوان
رسائل) مقيم خان ، أحد أولاد سبحاتلى خان . وكان المؤلف قد اتصل

بهذا الأمير حين كان نائبا لأبيه على بلخ . وهذا المخطوط الفارسي كان قد ابتاعه بيرنز في بخارى ، وهو اليوم في حوزة الجمعية الآسيوية لبريطانيا العظمى . ويبدأ بذكر چنكيز خان ، بوصفه جد الاشرخانيين ، وينحدر منه حتى يصل الى أبى الخير جد الشيبانيين . وهذه الأسرة ، برغم أن تاريخها معروف بالتفصيل ، إلا أن هذا المخطوط ، المكتوب بخط التعليق ، يطلعنا على بيانات هامة بخصوص أصل الاشرخانيين وأهم أمرائهم المشهورين مثل باقى محمد خان وامام قتلى خان وسبحانقلی خان ، ثم محمد مقيم خان الذى لم يسقط أبدا أن يرقى عرش بخارى . وهذا المخطوط يتناول فترة طولها مائتا عام . وأسلوبه بليغ الى حد ما وإن لم يخل من الاطناب الشرقى المعهود .

٥ - دخه شاهان (ضريح السلاطين) لمنشى محمد صادق ميرزا الذى كان ملتحقا بخدمة الأمير معصوم فى الغالب . ويبدأ هذا الكتاب بأشودة فى مديح الاشرخانيين المتأخرين ، ويصورهم فى شعره وكأَنهم وهم فى قبورهم بتأملون فى أحوال هذه الدنيا الفانية وفى فضائل الأمراء ويلبى ذلك تاريخ منظوم لأهم وقائع الأمير معصوم مع الفرس والأفغان . وليس لهذا الشعر مع الأسف قيسة تاريخية . أما القسم الثانى منه فهو شعر مناسبات فيل فى بعض الأعياد وفى مولد بعض أبناء السلطان أو حفاده وحفلات طهورهم . وهذا المخطوط الفارسي المنسق المكتوب بخط التعليق قد ابتعنه فى سرفند ، وهو اليوم فى حوزتى .

وكما تتنوع المراجع التى استخدمتها تنوعا شديدا فى طبيعتها ، فكذلك تختلف فصول كتابى هذا فى أهميتها من موضع لآخر على تفاوت .. فالقسم الأول منه ، باستثناء بعض استدالات منقولة عن مخطوط النرشخى ، لا ترى فيه ما يعد جديدا على المستشرقين إلا القليل ، وإن كان أغلبه جديدا على الجمهور . ذلك أن المراجع المخطوطة الخاصة بآسيا الوسطى لم يسبق أن استخدمت على نطاق واسع من قبل كما استخدمت فى هذه المرة . أما القسم الثانى فهو يتناول على كل حال من المسائل مالم يصل اليه العلماء من قبل على الاطلاق ، أو كان علمهم بها ضئيلا . فهى تتعرض لذكر مجبوعات من الأمراء بل ومن أسر حاكمة برمتها لم يدون

من تاريخهم الا القليل بأسيا، وناهيك بأوربا التى لم يكتب عنها بها كلمة واحدة . أما من ناحية اخراج هذا الكتاب فقد جعلت نصب عيني أن ألتزم صفاء الأسلوب وتناسق تناول الموضوعات (١) وعلى أساس التباين الكبير فى قيمة المراجع التى تحت يدي ، لعله كان بمقدورى أن أعسد الى الاسهاب فى بعض أجزاء الكتاب حيث تتوافر المراجع ، فكنت أتبع على سبيل المثال ، فى تفصيل أكثر ، تاريخ السلاجقة لميرخوند أو سيرة تيمور لشرف الدين أو الحديث عن عصر التيسوريين فى مخطوط عبد الرازق القيم . ولكنى لم أخاطر بهذا الصنيع . ذلك لأن قلة المصادر الفوية التى تتناول العصور الأخرى كانت ستؤدى حتما الى الاخلال بتناسق الكتاب. كما سيتجلى واضحا للعيان جفاف بعض الفصول وضآلة شأنها بالنسبة لغيرها ، وكان هذا ما دعانى الى أن أمسك عن تفصيل أية واقعة من وقائع الخانيات المجاورة لبخارى أو تناول شئونها . ولما كان فى حوزتى قدر من البيانات عن تاريخ خوقند وخيوه ، فحين يزداد مقدار ما عندى منها ، فاني عازم على كتابة خلاصة تاريخية عن أجزاء آسيا الوسطى الشرقية والغربية هذه .

وفى الختام أود أن أعبر عن شكرى وامتنانى لكل أولئك الذين عاونونى بمختلف الطرق فى اخراج هذا السفر . كما أشكر خالص الشكر الكولونيل هـ. يول II. yule ، أقدر متخصص فى المسائل الخاصة بأسيا فى العصر الوسيط ، لما أفدته مما استخلصته من رسائله الخاصة أو مؤلفاته القيمة على السواء . كما أشكر كذلك كلا من البارون أوتاكر فون

(١) حرصت على الأخذ بأبسط طريقه ممكنة فى كتابة الكلمات الأجنبية بالحروف اللاتينية ، فاستعضت عن الأخذ بهذه الطريقة أو تلك من الطرائق المقررة فى كتابة الهجاء العربى باللاتينية بأن حاولت ببساطه أن أكتب هذه الكلمات بالحروف الانجليزية التى تجعل نطقها أقرب الى الصحة . من ذلك أرى جعلت dz مقابل انجيم و ich مقابل الجيم المملثة S - للمسين و Z للزاي و th للناء . وعلامة (،) للعين . ولعلى أختلف مع المستشرقين الآخرين عموما الى حد ما حين أكتب الالفاظ العربية على النطق الذى سمعته من أفواه الفرس والترکستانيين .

شلتتا Ottaker V. Sehlechta سكرتير المفوضية والسيد ا. بارب
A. Barb والسيد م. ا. بيرك M.E. Birk والجمعية الملكية
الآسيوية لبريطانيا العظمى والسيد ج. ووسين J. Wussin لأريختهم
البالغة حين وضعوا تحت تصرفى هنا فى بست مواد لولاها لما تيسر لى
أن أصل الى المراجع الضرورية فى عملى .

وها أنذا أقدم الآن ثمار عمل سنين طويلة الي جمهور كريم. ولكم
تمنييت أن يتم هذا العمل وفيه من الخطأ والزلل أقل فدر ممكن . ومها
يكن من شىء فان كتابة تاريخ أى قطر من الأقطار لأول مرة هو دون شك
عمل صعب شاق . ويضاعف من تلك المشقة أن يكون هذا القطر المعنى لم
تنجل عنه ، الا فى الجيل الحاضر ، تلك الظلمة الكثيفة التى ظلت تكتنف
تاريخه لقرون .

المؤلف

پست فى ٢٨ ابريل سنة ١٨٧٢

محتويات الكتاب

- ١ - الفصل الأول : عصر ما قبل الاسلام ... ٣٧٠
- ٢ - الفصل الثاني : غزوات العرب وانتشار الاسلام ...
- ٣ - الفصل الثالث : الفتن السياسية والدينية ابان حكم العرب
٤٦ (٦٦٦) - ٩٦ (٧١٤) ... ٥٧
- ٤ - الفصل الرابع : السامانيون والأمير اسماعيل ... ٧٣
٢٦١ (٧١٤) - ٢٦١ (٨٧٤)
- ٥ - الفصل الخامس : سقوط السامانيين وظهور الترك ... ٩٣
٢٦١ (٨٧٤) - ٢٩٥ (٩٠٧)
- ٦ - الفصل السادس : السلاجقة ٣٩٥ (١٠٠٤) - ٥٢٨ (١١٣٣) ... ١١١
- ٧ - الفصل السابع : الاويغور وأمراء خوارزم ... ١٢٧
٥٢٨ (١١٣٣) - ٦١٥ (١٢١٨)
- ٨ - الفصل الثامن : الفوز المغولي ٦١٥ (١٢١٨) - ٦٢٤ (١٢٢٦) ... ١٦١
- ٩ - الفصل التاسع : الجنكيزيون ٦٢٤ (١٢٢٦) - ٧٦٥ (١٣٦٣) ... ١٨٣
- ١٠ - الفصل العاشر : الأمير تيمور ٧٦٥ (١٣٦٣) - ٨٠٧ (١٤٠٥) ... ٢٠٥
- ١١ - الفصل الحادي عشر : شخصية تيمور - بلاطه وحاضراته ... ٢٣٩
- ١٢ - الفصل الثاني عشر : التيموريون ... ٢٥٩
٨٠٧ (١٤٠٥) - ٩٠٦ (١٥٠٠)
- ١٣ - الفصل الثالث عشر : الأوزبك وشيبياني محمد خان ... ٢٩٥
٩٠٦ (١٥٠٠) - ٩١٦ (١٥١٦)

٣٢٧	١٤ - الفصل الرابع عشر : الشيبانيون
٩١٦ (١٥١٠) - ١٠٠٦ (١٥٩٧)	١٥ - الفصل الخامس عشر : الاشتراخانيون الأول
٣٦١	١٦ - الفصل السادس عشر : سبجخانقلي خان ونهانة
٣٨٧	١٧ - الفصل السابع عشر : بيت المنشيتيين والأمير معصوم
٤٠٥	١٨ - الفصل الثامن عشر : الأمير نصر الله
٤٢٥	١٩ - الفصل التاسع عشر : الأمير مظفر الدين وبيت رومانوف
٤٥٥	فهرس ابجدى عام

مدخل الى الكتاب

حين نقول اننا نستطيع أن تتمثل تقويم آسيا الوسطى عموما فانما ندعى بذلك أمرا لا يمكن أن يقوم أصلا على التأكيد أو التحديد . وكذلك الحال بازاء الدلالة السياسية لعبارة « ما وراء النهر » اذ يكتنفها الغوض بدورها . فهذا التعريف العربى يقصد به البلاد الواقعة عبر النهر أى فيما وراء نهر جيحون وعند شاطئه الأيمن . ولكنك ترى الأمر ، عند التحديد ، يغير هذا المدلول فهذا هو البلخى ، فى مخطوطه الجغرافى (١) يدخل عنده تحت هذا التعريف قسما من الشاطئ الأيسر يحوض النهر الأعلى . وهو وضع سليم لا شبهة فيه من ناحية الحدود السياسية للأقليم . ذلك أنه منذ عهد السامانيين حتى العصر الحديث كانت مناطق الطالقان

(١) ما بلا حفظ من تطابق التوازيخ وتماثلها بتقاويم بعض الجغرافيين العرب القدامى لأقسام بعينها من بلاد آسيا الاسلامية ، قد أوقع علماء أوروبا فى الحيرة ، حتى لم يستطيعوا أن يقرروا من يكون من الجغرافيين القدماء السلافة ، البلخى والاصطخرى وابن حوقل ، هو الذى سبق زميله الى ذلك فنقل الآخرون عنه . وقد تصدى حديثا لدراسة هذا الموضوع العالم الهولندى دى جويه .

I. de Goeje. The Journal of the German oriental Society Vol. XXV PP. 42-95

وانتهى من دراسته بأن ذهب الى ان أبازيد البلخى المتوفى عام ٣٢٢ هـ (٩٣٣ م) هو صاحب أقدم مخطوط جغرافى عربى . ونوجد نسخته من هذا المخطوط فى المكتبة الامبراطورية فى فيينا ، وقد اطلعت عليها ، وبالنسبة لما تحويه من معلومات باللغة القيمة ، فان جميع المشتغلين بالثقافة الآسيوية سوف يسرهم أن يعلموا أنه يبدو من المقال المشار اليه آنفا أن الاستاذ دى جويه مهتم بنشر هذا المخطوط . هذا ومقال الاصطخرى عن آسيا أو بلاد ما وراء النهر (وأقصد هنا الترجمة التى قام بها مورتمان Mordtmann ليس الا نقلا هزىلا عن الأصل .

وطخارستان وزم تعتبر أجزاء مكملة لبخارى برغم وقوع أقسام منها أو وقوعها كلها على الشاطيء الأيسر لجيحون . وتؤكد أبحاثنا التاريخية فى .
الغالب بدورها قيام هذا الوضع ابتداء من عهد السامانيين الذين كانوا هم أنفسهم أصلا من أبناء هذا الجزء من خراسان . وهم حين استولوا على بلاد ما وراء النهر جعلوا من أمارتهم ومن البلاد التى استولوا عليها ملكا موحدًا . وبقي الحال كذلك حتى سقوط دولتهم . وفى عهد الغزنويين الأول : أيام محمود وابنه مسعود ، صار الشاطيء الأيسر لجيحون كله جزءا من خراسان . وبقي هذا الوضع على حاله فى عهد السلاجقة والجنكيزيين ثم التيموريين الذين استطاعوا ، بوصفهم حكاما لإبران ، أن يعيدوا لخراسان حدودها القديمة دون أن يعرضوا مصالحهم للخطر . وفى عهد الشيبانيين والاشترخانيين ، وهى فترة امتدت بثلاثة قرون ، ضم إلى بخارى كل شاطيء جيحون الأيسر من بدخشان إلى چهار جوى . وبقيت الحال كذلك حتى حكم بيت منغيت (باستثناء فترات قليلة) . إلى أن أخذ التفكك والضعف ، منذ وقت قريب ، يدب فى بلاد ما وراء النهر مما أتاح لأمير كابل أن يستحوذ على كل ملحقات بخارى موضع الخلاف هذه . ونخرج من هذا كله إلى أن الحدود السياسية لبلاد ما وراء النهر يرسها خط يستد فى اتجاه مناطق جيحون عند خط عرض ٧١° وخط طول ٣٥° ، أى من بدخشان حتى شاطيء مرغاب الأيسر . وهى أرض كانت تضم فى .
القديم الولايات الآتية :

١ — ختلان أو وخش (١) .

٢ — أوجان أو على الأصح وجان فى الغالب .

(١) يبدو أن لفظ "Okus" اليونانى مشتق من لفظ وخش أو يواخش . وهو اسم ولاية ورافد من روافد جيحون Oxus . على أن البعض يحتج . بأن هذا النهر الذى كان العرب يعرفونه باسم جيحون (Djihun) اسمه مشتق من اللفظ التركى القديم أو كيس Oekues أو أوجيس Oegues . أى النهر ، ولا يزال أهل هذه البلاد يعرفونه كذلك باسم دريا أو آمو بمعنى .
النهر .

٣ - طخارستان ، وقصبتها بلخ ، وأهم مراكزها اليوم قندز
وخولم .

٤ - زم ، وتضم كركى الحديثة واندخوى وميمنة .

٥ - آمل التى عرفت من بعد ذلك باسم آموى ، وهى جهارجوى
الحديثة ، ويحدها من الشرق والجنوب صحراء خوارزم (١) .

ولا يهون كذلك تحديد التخوم الشمالية لبلاد ما وراء النهر على
وجه دقيق .

ففى المصور القديمة كان اقليم أشروسنة الحالى يحد ، على ما ذكره
البلخى ، بفرغانة فى الشرق ، وبكش فى الجنوب ، وبجج فى الشمال ،
ثم بالصغد فى الغرب أو فى الجنوب الغربى تحقيقا . وكانت أشروسنة هى
القسم الجبلى من خانية بخارى الحالية ، الذى يمتد من شرق سمرقند حتى
تيان شان على أسماء مختلفة (٢) . وكانت أهم مراكزه هى بومخت ، وهى

(١) يجب أن يكتب هذا اللفظ (فى اللغات الاوربية) باهمال الواو ،
لا بانباها على ما يفعل مورتمان وغيره من المستشرقين ، وذلك للأسباب
الآتية .

١ (بنطاق اهل ايران واهل خوارزم هذا اللفظ على الحال الذى
ذكرناه ، ولا مجال للقول بأنهم يخطئون فى نطق اسم بلد من
بلادهم اللهم الا اذا سلمنا فى ذلك بأن الفرنسيين أو الانجليز قد
سقطوا الأسماء الألمانية اصح مما ينطقها الألمان أنفسهم .

ب (توجد فى امارسيه كلمات تهمل واوها فى النطق مثل هذا
الاسم ، ومنها : خواء (راعب) ، خواهر (أخت) ، خوار
(حقير) .

ج (نبه بافوت فى معجم البلدان ج ٢ ص ٤٨٠ الى أن المقطع الاول
من هذه الكلمة مفتوح الأول ، أى باهمال الواو ، أما من ناحية
معنى هذا اللفظ فأنى أصر على الرأى الذى سبق أن قلت به وهو
أن خوارزم معناها المحارب .

(٢) أشهر هذه الأسماء هى : بتم (أسفرا القديمة) وآق تار ، وفان ،
التبا (فى الجنوب) ثم جنكر طاغ ، سلطان حضرت طاغ ، وسوز نغيران .

العاصمة (ولا يعرف موضعها) ، ثم سبّد أوسوت (وهى سرود الحالية وتقع فى أقصى الشرق بالجبال) ، ثم ديزق (جزاق جذك الحالية) ، وزمين التى تقع على حدود فرغانة القديمة ، وتناخم اليوم خانية خوقند . والى الشمال ، فيما وراء أشراسنة ، يقع اقليم جج (١) (بوادى سيحون) وفيه مدن كثيرة نجد منها اليوم جخند وبناكت وأترار وسغناق وسيرام وسربان وتراز . ولم أسع شيئا أبدا عن ذلك السور الكبير الذى يذكر البلخى أن عبد الله بن حميد كان قد أقامه بين الجبال وسيحون ليتقى به غارات البدو فى الغالب . وبرغم أن أقدم المخطوطات الجغرافية هذا يضع هذين الاقليمين ضمن حدود بلاد ما وراء النهر فإن تاريخ خضوعهما لتلك العاصمة التى تقوم على شاطئ زرفشان (أى بخارى) يحوطه نفس الغموض الذى يكتنف تاريخ الأقسام الأخرى التى تتبع هذا القطر فى الجنوب . والمعروف أن أشروسنة كانت تتبع بخارى على الدوام . أما جج فغالبا ما تداولتها أيد مختلفة . وفى الفترة السابقة على الفتح الاسلامى لتلك البلاد ، كان يضم شواطىء سيحون دولة مستقلة أصحابها من الترك . وقد ألحقت هذه الأراضى ببخارى أيام السامانيين فى ظل الحكم العربى هناك . واستردت هذه الامارة استقلالها أيام السلاجقة ، وبزغ بها نجم الأمير التركى قدرخان . وبقيت جج ابتداء من الغزو المغولى مثار نزاع بين الخوارزميين فى الغرب والأويغور فى الشرق . ودخل الأمير قدرخان وخلفاؤه من بعده بدورهم ، بعد وفاة جنكيز ، فى حرب شعواء مع بنى جلدته من الجغتائيين بسبب هذه المنطقة نفسها . ولم يستطع تيمور نفسه أن يضم هذا الجزء من بلاد ما وراء النهر الى ملكه الا بعد معارك دامية مع جيرانه فى ناحيتى الجنوب الشرقى أو الشمال الغربى . وتجددت تلك المعارك هناك من بعده فى وحشية زائدة . وبرغم أن الأمراء الأنداء من بين الشيبانيين والاشترخانيين كان يتم لهم الاستحواذ بعض الوقت على كل ذلك القسم من تركستان ، الذى يعرف باسم بلاد ما وراء النهر ، دون منازع ، فإن ذلك لم يحل دون تعرض هذه البلاد مرتين لتخريب المغول من أمراء القلموق والقرغيز الذين كانوا يقيمون عند حدودها .

(١) وهو اقليم الشاش (المترجم) .

والواقع أن وادى سيحون . وقصبت طشقند ، قد ظل منذ منتصف القرن الماضي حتى وقتنا هذا يخضعان في سلام لخانية فرغانة ، وهى خانية نجند الحديثة ، فيما عدا بعض فترات عابرة .

يتضح على ضوء ما بيناه استحالة الاعساد على تقويم البلدان فى الغالب لرسم حدود هذا الاقليم على وجه الدقة . وعلى هذا يمكننا أن نعتبر عن مفهومنا لاقليم ما وراء النهر بلفظ واحد هو « بخارى » أو خانية بخارى ، وهو ما سوف نسير عليه . ذلك أن هذا القطر ، برغم أنه يشتهر باسم بخارى منذ عهد تيباني والأوزبك ، فإن شواطئ زرفشان وكافة المنطقة المستدة جنوبا حتى جيحون وشمالا حتى صحراء قزل قم ، انما تمثل الأجزاء الوحيدة من المنطقة التى كانت على الدوام قسما من اقليم ما وراء النهر الأصلي الموحد منذ فجر التاريخ . ونشتهر المناطق الآتية فيه منذ مدابة تاريخ هذه البلاد :

بخارى ، وهى حاضرة الاقليم منذ عهد السامانيين . ونشير أقدم الكتب الجغرافية الخاصة ببلاد ما وراء النهر الى أن هذه المدينة كانت أيام ازدهارها تعد أعظم مدن العالم الاسلامى كله . والبلدة الداخلية ، التى كان يحيط بها سور له سبعة أبواب ، لم تكن هى مناط شهرتها ، فذلك شأن ضواحيها وما كان يجرى فيها من القنوات العديدة وما كانت تزخر به من المنشآت الفخمة ، الى جوار ما حبتها به الطبيعة من رونق وبهاء . ولقد أشاد الرحالة العرب القدامى بذكر بساتين بخارى الفسيحة وما كان تربتها من أشجار الفاكهة القليلة بعددها المستازة بشارها . وناهيك بشار البرقوق الذى تذيع شهرته منذ ألف عام حتى اليوم ، فهو أفخر ثمر من نوعه بآسيا . ولم تكن بخارى مدينة فخمة تستاز بخصائصها الطبيعية العظيمة فحسب ، بل كانت كذلك سوف رئيسيا تلتقى فيها تجارة الصين وآسيا الغربية ، فضلا عما كان بها من مصانع كبيرة للحبر والديباج والمنسوجات القطنية وأجود أنواع الأبسطة والمصنوعات الفضية والذهبية من كل نوع . وكانت كذلك مركزا مهما للصيرفة يستعمل فيها سكان آسيا الشرقية والغربية سكنتهم بوساطة أهلها حتى لتسمع هناك الى اليوم المثل القديم « أشد يقظة من سمسار بخارى » .

وكانت أهم البلدان الأخرى هي : توائس (طواويس) على مسافة سبعة فراسخ الى الشمال الشرقي من بخارى في طريق سمرقند . وكانت تعرف قبل الفتح العربي باسم كوت (وهو في التركية ، السعيد أو الحظ الحسن) . وكانت موقعا حصينا . وتشتهر بسوقها السنوى الذى كان يقام لعشرة أيام كل عام ، ويزيد عدد زواره على عشرة آلاف نسمة .

وفي الجنوب تقع بيكند ، ثانى مدن بخارى التجارية ، وكان أهلها يتاجرون مع الصين فى الشرق ونواحى شاطئ البحر فى الغرب . وتقع هذه المدينة على طريق آمل ومرو وكانت تشتهر بثرائها العظيم . وفى زمن السلاجقة اهتم أرسلان خان اهتماما كبيرا بتعمير الطريق الذى يصلها بفاراب عبر الصحراء . وكان العرب قد انزلوا بيكند الخراب الشديد فلم تستطع أن تنهض من كبوتها الا لصحوة قصيرة . ولا تزال خرائبها تنساهد حتى اليوم .

وفي الشمال تقع زندين التى تعرف اليوم باسم رندانى . وبها كان يزرع القطن ، كما كانت منسوجاتها القطنية تصدر الى كل مناطق آسيا الغربية . وقد فقدت وردانزى ورامتن ونوركل ما كان لهما من أهميته وأصبحت أماكن غير ذات شأن .

وثانى هذه الولايات كانت تعرف باسم ميانكل - الافليم الأوسط - ونقع بين بخارى وسمرقند . وتشتهر بهذا الاسم منذ أيام السامانيين ولا تزال تعرف به حتى اليوم . وأهم مدنها ، كانت ولا تزال ، كرمبنة . وتقع فى بقعة خصبة . وقد ذاع صيتها فى جميع أدوار التاريخ الاسلامى . ويقال انه قد ولد بها كثير من الشعراء المبرزين وان لم يصلنا من أسائهم شئ . والى الشمال منها تقع نور (نوراته الحالية) ، وهى مزار مقدس يحج اليه الكثيرون . والى الشرق من كرمبنة تقع فرخشة التى ذكرها النرشخى لشهرة أسواقها . وفى ناحية الشمال الشرقى ، على حدود الصحراء ، قامت سرتاق ، تلك المدينة القوية ، مع حصنها الذى كان يقوم على مرتفع يطلع الناظر منه على بساتين فسيحة تحيط به ، وتتأثر بين أشجارها الدور والقصور . وعند الشمال الغربى ، فى نفس البقعة التى

تقوم فيها اليوم غجديوان على وجه التقريب ، قامت من قبل مدينة جند ،
حصن خوارزم الأمامي . وهي تسيطر على كل السهوب الغربية ، ويقطنها
شعب يشتغل بالصناعة والزراعة والرعى . وإلى الشرق منها قامت اشناس
وازقند^١ وسغناق .

وثالث هذه الولايات الصفد . وموضعها المنطقة الجبلية باقليم ما
وراء النهر (وتوصف بأنها امتداد لتيان شان في ناحية الغرب) . وليست
لها حدود معينة في الشرق . ويحدها في الغرب ميان كل وفي الجنوب
كش وفي الشمال اشروسنة . وحاضرة الاقليم سرقند ، وهي بلا شبهة
مركندا التي يذكرها الاغريق عاصمة للصفد . وهذه المدينة تنافس بخارى
على مدار تاريخ بلاد ما وراء النهر . وكانت أعظم المدن فيسا وراء جيحون
قبل عهد السامانيين . ولكنها أخذت تفقد أهميتها منذ أن اتخذ اسماعيل
(الساماني) من بخارى قسبة له ، ويقال انها استردت مقامها من جديد في
حكم الخوارزميين حتى فاقت بخارى بكثير ، لتبلغ من بعد ذلك أوجها
في حكم تيسور .

وبسقوط التيسوريين أخذ نجم سرقند في الأفول ، لتصبح بخارى
من بعد ذلك العاصمة الرسمية من جديلو . ولم يكن أمراء الشيبانيين
والاشترخانيين والمنغيتيون يقصدون سرقند لغير الاصطياف ، لما كانت
تشتهر به من جمال مناظرها الطبيعية . وتشير أقدم الكتب الجغرافية الى
أن جمال هذه البلدة إنما هو كذلك في ضواحيها . ذلك أن حصنها الذي
كان يحوطه سور قوي ، كان يكتظ بالدور المبنية بالخشب والطين الى
درجة صرح معها الاصطخرى بأنه لولا وجود أشجار الصفصاف هناك
لفسد الهواء فسادا شديدا . ولما كانت سرقند ترتفع في موقعها عن
بخارى ، فقد امتازت لذلك بمناخها الصحي المنشط . وإن كان مرد شهرتها
هو أساسا لما يجري من تحتها من ماء غزير — على ما توصف به الجنة
عند المسلمين — في قنوات وجداول عديدة ، تنحدر اليها من الجبال ،

(١) وهي غمر مدينة ازقند التي تقع في شرقي فرغانة .

التي تجاورها ، صوب السهل . ويقول البلخي ان ذلك الماء كله يرد من
نهر الصقند (١) الذي ينبع من التلال التي تعلو الصاغانيان. وكان هناك
خزان يقوم غير بعيد من منبع النهر ، ومنه كان يجري الماء الى فرجاس
(تعرف أيضا ببرجاس وبورجاس) حتى السد . كذلك كان يفيض الماء في
القنوات شرقا وغربا . وكان الخزان الرئيسي أشبه ببحيرة صغيرة تزين
حافتها القرى . وكانت القنوات الرئيسية كفناة بارمش ودكش ، تجلب
الخصب الى متسع من الأرض يقطعه السارى طولاً في ستة أيام . ولما
كانت سمرقند لا تقع رأساً على الطريق الرئيسي الموصل الى الهند ،
واقما على جانب غير بعيد منه ، ولما كانت القوافل تسلك على الدوام
طريق بلخ أو قارشى وبخارى أو نيشابور وآمل ويكنند ، فعلى هذا لم
تكن هذه المدينة أبداً سوقاً للتجارة الداخلية . وانما اشتهرت بوصفها
مدينة المسرات . وقد عرف أهلها بالوسامة والنظافة والتواضع والكرم .
وهذا هو ابن بطوطة ، برغم كلفه بخارى ومزاراتها ، نراه يفضل سمرقند
عليها لما صادف عليه أهلها من جيل الخلال . ومن الغريب أنهم لا يزالون
حتى اليوم على ذلك . فقد لقيت بنفسى من الترحيب وحسن اللقاء في هذه
المدينة أكثر مما صادفت ببخارى . وكان المغول قد قضوا على ما كان
لسمرقند من بهاء عرفت به قبل الفتح الاسلامي وفي أيام السامانيين ، فلم
يشاهد ابن بطوطة منها الا أطلالها . وما عاد لها من رونق أيام التيموريين :
لا سيما على أيدي ألغ ميرزا ، ذلك الرونق الذي أبدع بابر في وصفه
لنا بسيرته (٢) ، ما غدا أن قضى عليه جند الأوزبك الشيبانيين الأجلاف .
ومن الأماكن الأخرى التي كانت تشتهر بهذه المنطقة موضع دبوس
الذي صار فيما بعد حصن دبوسى وبقع الى الغرب من طريق بخارى .

(١) يخطئ مسالك الممالك ، في مخطوط فينا ، ص ١٤٣ فيذكر السند
بدل الصقند (وهو من تحريف النساخ : المترجم) .

(٢) انظر بابرنامه نشر بعريدج ٤٤ ب - ٤٧ ب . وفيها يقول عن
سمرقند : بأنه قل نظيرها في العالم المسكون ، ويصف بساتينها ومنشآت
التيموريين بها ومن ظهر بها من العلماء . كما يتحدث عن موقعها
ويذكر كذلك أن أحسن أصناف الورق هو ما يرد من سمرقند . هذا والمعروف
أن العرب عرفوا صناعة الورق أول ما عرفوه حين فتحوا هذه المدينة (المترجم)

كما كان يقوم فى ناحية الشرق فرجاس وسرواس وفمورى ثم ربود وهى المدينة الجميلة التى بنى بها الاخشيده ، أحد أمراء سمرقند ، عدة قصور . ونذكر أخيرا سروان التى قامت وسط التلال . وبرغم قسوة مناخها فقد سكنها قوم أشداء أقوياء . وفيما وراء هذه المدينة ، وعلى مسيرة عشرة فراسخ منها ، تقع زردكرد محطة النصارى المشهورة أيام السامانيين .

ورابع هذه الولايات كس التى تعرف اليوم باسم شهرسبز (١) . وكان أغلب سكانها حتى عهد السامانيين من العرب ، من قبيلة بكر ابن وائل . وكانت مدينة حصينة لها أربعة أبواب هى :

١ - دروازۀ اهنين (البوابة الحديدية) .

٢ - دروازۀ عبد الله .

٣ - دروازۀ قصابان (بوابة القصابين) .

٤ - دروازۀ شهرستان (بوابة المدينة) .

ومحصول الفاكهة فى هذه المدينة كان يفوق فى كثرته محصول كل أجزاء بلاد ما وراء النهر الأخرى ، وذلك لطريقة الرى الفذة التى كانوا يستخدمونها فى الغالب . على أن هذا الحال لم يستد طويلا . ويخترقها نهران يجريان حتى وادى نخشب ، وهما نهر قصابان ونهر خوش . وكانت كس عامرة بالقرى ، ومنها ورد وبالا وبدرين ورسوم وسام ، وبها تلال كانت لها نفس الأسماء اشتهرت بأنها كانت آخر ملاذ المقتنع وأوزغان وجارودان وغيرهم .

والولاية الخامسة . وهى نخشب ، كانت على الدوام محطاً رئيسياً على الطريق بين بلخ وبخارى . ولكنها كانت أقل خصباً بالقياس الى مناطق بلاد ما وراء النهر التى ذكرناها . ذلك أن الأنهار التى كانت تجرى إليها من كس ، كانت تفيض فى رمال هذه المنطقة صيفا ، فكان عباد السكان

(١) وبها زاد نيمور . وعنى بتعميرها حتى فكر فى اتخاذها مقصداً له (المترجم) .

حتى في شربهم على مياه الآبار . وأطلق على نخشب اسم قارشى أى -
القصر ، بواسطة الأمير المغولى قبق الذى بنى فى هذا المكان قصرا عام
٧٠٨هـ ١٣١٨م فصار من بعد ذلك علما على المدينة كلها . ومن أشهر
أماكنها كذلك برك وكشى (١) . وإلى جانب المناطق التى ذكرناها نذكر
كذلك المناطق الواقعة عند منابع جيحون مثل وخش وختلان وجفنايان
(ويذكرها الاصطخرى باسم الصاغانيان) وكلاب ، وإلى الشمال الغربى
منها قامت فيسا بعد حصار شادمان واشتهر أمرها . ولسوء الحظ أن تكون
معلوماتنا عن كل هذه المنطقة الجبلية ضئيلة مضطربة حتى لا نعرف فى
عصرنا الحاضر عن جغرافيتها الا القليل . وما يسكن الجزم به فى ذلك كله
هو أن . بد أو ترمذ كانت أقدم معبر على جيحون فى طريق الهند .
والغالب أنها كانت أيام السامانيين مدينة عامرة بها مسجد جامع (مما
يدل على وفرة سكانها) وسوق كبيرة أرضها مرصوفة بالحجارة . وفقدت
هذه المدينة من بعد ذلك أهميتها فى عهد المغول ، وتحولت حركة العبور
عندئذ الى كيليف وخوجه سالدو .

والتقسيمات السياسية لبلاد ما وراء النهر الحالية ، التى كانت
تعرف فى عهد التيموريين باسم خانية بخارى ، قد تعرضت للتغيير
والتبدل باستمرار منذ أيام الأوزبك . فلم يبق على حاله الا وجه الاقليم
عسوما . وتقوم به اليوم الولايات الآتية ، التى تنقسم كل واحدة منها
بدورها الى تومانات ، أى أقضية ، وهى :

(١) مما بلغت النظر أن المغول قد تركوا فيما وراء بلاد النهر
الأصلية - أى عند الشاطئ الشمالى لجيحون - أنارا لحكمهم هناك أكثر
مما تركوا بلاد ما وراء النهر نفسها . فالأماكن المذكورة آنفا ، بالقياس الى
أسمائها ، لا بد أنها كانت أصلا مستعمرات مغولية : أندخوى التى كانت
تعرف باسم اندخود (هى فى المغولية أندنا . - خود = الطوالع المتحدة) -
وكذلك ججكتو والمار (مسمنة الحالية) بل أنهم تركوا كذلك أنرا حيا منهم
فى أشخاص السكان المغول الذين يقطنون التلال الواقعة الى الجنوب الشرقى
من هراة (المؤلف) .

انظر فى ذلك H.C. von der Gabelentz. Ueber die Sprache der
Hazaras Z.D.M.G Bd XXS. 326-28 (المترجم)

- ١ - بخارى وضواحيها كضواحي بهاء الدين وشهر اسلام وميتين وميرى قلل .
- ٢ - قضاء بخارى ، مع بلدان وردنزي ووقفند ورامتن وونغازى وخير آباد .
- ٣ - ميان كل وقصبتها ، كرمينه ، مع بلدان ضياء الدين ومير خاخرجه ونور آتا وينكى كورغان .
- ٤ - كنه كورغان مع بلدان قراسو وينجشنه وجلك .
- ٥ - سمرقند مع بنجقند وقراتيه وسويود وأمقند .
- ٦ - حصار مع شير آباد .
- ٧ - شهرسبز مع حصن كتاب وجراكجى ويكى باغ .
- ٨ - قارشى مع فيض آباد .
- ٩ - اباب مع قصبتها كرخى .
- ١٠ - چهارجوى .
- ١١ - قراقول مع بتيك والجيڪ .

واضيف الى هذه كلها نواحي جرت وزمين واوراتيه وغللت
تبعها حتى زمن ~~التي~~ ~~من~~ ~~التي~~ ~~من~~ بخارى منذ الفتوحات الروسية
الآخيرة على كل حال .

والمنطع على معالم بخارى الحديثة وحوالها قد يسيل الى الظن بأن
ما كتبه الجغرافيون القدماء عنها فيه الكثير من المبالغة والوهم ، وذلك
لأن ما بات يسود بلاد ما وراء النهر كله من الانحلال ، وما غدا يخيم
على مواضع الفخار السابقة فيها من البؤس والشقاء . بل ان مدينة بخارى
نفسها ، العاصمة ومقر الحكومة ومنتدى العلماء ومركز التجارة والصناعة
المشهور ، قد غدت من أقذر الأماكن في كل آسيا الوسطى وأشدّها عفونة .
وعدد سكانها اليوم ينيف على الثلاثين ألفا ، وأغلبهم من العنصر الايراني
الذي يرد اليه الفضل في شهرة المدينة الصناعية والتجارية . وآثار هذه
المدينة ، التي تنبىء عما كان لها من فخامة وروعة في الماضي ، لا تجدها الا

فى ابنية بعض المساجد القديمة وبقايا قصور ترجع الى ما قبل الفتح الاسلامى. وتعد قارشى ثانية مدن خانية بخارى من حيث أهميتها التجارية والصناعية وعدد سكانها . ويليهما فى الأهمية سمرقند التى تزخر بالخرائب التى تشير خصوصا الى أضرحة مئات من الأولياء . وتشتهر هذه المدينة بمواكها ومصنوعاتها الجلدية ومنسوجاتها القطنية وما تصنعه من الحلوى ، ثم سرجها الخشبية المشغولة بالمينا . ويقدر فيجنكو Fedjenko عدد سكانها بثلاثين ألفا وعدد مساجدها بستة وثمانين وعدد مدارسها بثلاث وعشرين وحوالياتها بستة وأربعين وثلاثمائة وألف ونزلها بسبعة وعشرين ولما كانت سمرقند وكنه كورغان ، حيث تصنع أحسن الأحذية فى الخانية ، قد صارت الى -وزة النفود الأجنبية ، فعلى هذا تعد كرمينة ثالثة مدن بخارى . وهناك نسة أماكن أخرى قليلة لها ماتشتهر به . فمن ذلك حصار التى تشتهر بمداهما الماضية الممتازة وشفرات السيوف ، ثم جهازرجوى التى تشتهر بأسواق الخيول فيها . وقراقول وبها سوق واسع يعرض فيه الرقيق الفارسى . ونجد من بعد ذلك جيلة قري صغيرة فى الشمال تتناز بحيرها القوية المنازة النشطة حتى لا تستطيع الحنير المصرية بأذانها الطويلة أن تصبر على منافستها .

ووجه بلاد ما وراء النهر ، وهى النصف الشمالى من هذا المجال الذى يطلق عليه عموما اسم آسيا الوسطى ، هو فى الأصل على هيئة سهل يستند من سلسلة التلال الشرقية التى تعتبر امتدادا لتيان شان والنى ما تكاد تصل قريبا من سمرقند حتى تأخذ فى الانخفاض الشديد لتبلغ من بعد ذلك شواطئ بحر الخرز . وباستثناء الهضاب القليلة التى تتخلله وبعض المناطق الطفلية التى يعرفها الأهليون باسم « تكير = جاف » أى الأرض الجذباء ، فإن تربته تتكون أساسا من الرمال السوداء أو الصفراء . فلا يصلح للزراعة ، فى الحقيقة ، الا منحدرات التلال وشطآن الأنهار والقفوات . والحال فى آسيا أن الأرض حين تترك وشأنها فانها لا تنتج شيئا مذكورا . لذلك كان استمرار قيام الحروب فى منطقة بعينها لسنوات عشر ، كفيلا بأن يحول أشد أراضيها خصوبة الى صحراء جرداء . بل ان أعظم الجهود تضيق فيها هباء ، اذا ما ظهرت بها شقوق الرمال . وهذه

تكون عادة ضيقة ، وانما بعيدة الغور ، وتتخلل هذه العواثق الرملية كل المناطق الزراعية ، وتوجد حول بخارى وسمرقند . وفى الطريق الموصل بين بخارى وسمرقند يمر السائر لعدة أميال فى رمال جرداء هى صحراء ملك التى تقع فى قلب الأراضى الزراعية .

وتقول الرواية ان هذه الصحراء كانت بحيرة مالحة لثلاثمائة عام حلت . ومع هذا كله فقد كانت خصوبة أراضى بخارى وأراضى الخانيتين الآخرين مضرب المثل ، لما كانت تنتج أرضها من ثمار متنوعة ممتازة . فبخارى تنتج الجبوب والفاكهة والفصح والحريز والخضاب، وكلها لانظر لها فى الجودة ، ويصدق القول نفسه كذلك على أنعامها . فقضلا عن حبولها التى كانت تشتهر بكل آسيا ، فان بعيرها كان يمتاز فى نوعه على كل سلالات ذلك الحيوان النافع بجنوب شرقى آسيا . وناهيك بضأنها الذى لم يكن له ضريب فى العالم كله . ومناطق التلال ، عند الشرق والجنوب من سمرقند ، غنية بالمعادن التى أهمل أمرها ولم يسع أحد من قبل الى اكتشافها . وبذكر البلخى منها الحديد والنوشادر والزئبق والصينج والرخام والذهب والتفط وانقار وزيت الزاج وضرب من الحجارة كان يستخدم فى الوقود ، ولعله هو الفحم الذى كُشف عن وجوده الروس بتلك المنطقة .

وخصب اقليم بخارى ، القاحل فى أغلبه نوعا ما ، مصدره فى المحل الأول هو بلاشك ذلك النهر الذى كان يعرف أولا بنهر الصغد ثم بنهر كوهك من بعد ذلك ، وهو اليوم نهر زرفشان « نأثر الذهب » . وقد أمدنا أخيرا العالم الألمانى الدكتور رادلوف Radloff والجواب الروسى فجنكو ببعض المعلومات عن منابع هذا النهر . ويقول فيجنكو ان هذا المهر يعرف عند منبعه فى التلال باسم نهر فان . ومنها يخرج فيتفرع الى روافد أربعة تجرى على ارتفاع سبعة آلاف قدم فوق سطح البحر لتندفق من بعد ذلك الى السهل باسم زرفشان . ويتفرع هذا النهر عند الشمال الشرقى من سمرقند الى روافد متعددة تجرى غربا وصوب الجنوب الغربى متجهة الى اقليم السهوب . وأكبر هذه الروافد يجرى عند الشمال

الغربي من سمرقند مارا بينجشنه وخاطرجه حتى يصب في بحيرة قراقول. في حين ينتهي رافد آخر أصغر منه الى بحيرة تقع عند حدود صحراء خلطه بين خواجه أبان وقرية خاكسير . ويجري ثاني روافد هذا النهر الكبيرة الى الجنوب الغربي من سمرقند مارا بكته كورغان وبخارى صوب الصحراء .

وماء هذا الرافد غزير جدا ، فهو يغذي عددا كبيرا من القنوات الطبيعية والصناعية . ويأتي بعد زرفشان في الأهمية نهر شهرسبز . وهو يتلىء بالماء فقط حتى قارشى . ولو اهم الصوم بشأنه ، ولو قليلا ، لأفاد كل المنطقة المتاخمة له فائدة عظيمة . وقد دلت التجربة على أن مداومه سقى الأرض هناك لعدة سنين يكسوها بطبقة من الغرين هو سر خصوصيتها . وترى الحال نفسه كذلك بالنسبة لمياه جيحون . وان كان بخارى نفسها لا تفيد منه فائدة تذكر ، ذلك أن شاطئه الأيسر من ترمذ الى جهارجوى غير مسكون ، اذ أنه يرتفع في الغالب عن سطح الماء ارتفاعا ملحوظا حتى ليتعسر بذلك رى أراضيه ان لم يستحل ، والمناخ في ذلك الاقليم يناسب الزرع ، وان كان لا يسكن أن يوصف بالاعتدال الا أنه لبس قاسيا ، وتفاوت درجات الحرارة به يمكن تصنيفه اجسالا على الوجه الآتى :

• المناخ معتدل حتى النقطة التي يفف عندها امتداد الليل الشرقي . أما في الأراضي المنخفضة ، ولا سيما في مناطق السهوب ، مثل بخارى وكركى وقراقول فتتفاوت درجات الحرارة والبرودة الشديدة فيها مما يجعل الجو غير محتمل على وجه العموم . وباستثناء بخارى فالجو هناك ليس بغير صحى في كل وقت . وانتشار الأمراض هناك تسببه العادات المردوأة وعوز الكساء أكثر مما يسببه تأثير الجو .

والحديث عن وفرة محاصيل خائية بخارى يصدق كذلك على الأقاليم المجاورة لها من ناحيتى الشرق أو الغرب على السواء . وهذا هو سر السرعة المذهلة التي تفيق فيها هذه البلاد من دمار الحروب . ويشير البلخى الى هذه الحقيقة حيث يلاحظ أن أى جيش مندرج لا يتاح له أن

يسترد قواه بسرعة كما هي الحال في بلاد ما وراء النهر . وهو يضيف الى تقريره هذا أن عدد المدن في بلاد ما وراء النهر يصل الى ثلاثمائة ألف . وهو عدد فيه مبالغة . ولا يسنع هذا القول بأن عدد سكان بلاد ما وراء النهر ، وبخارى على الخصوص ، كان في الزمن السالف أكثر منه الآن بكثير . فعند الفتح العربي كانت قبائل عربية عدة تنزل في كل مدينة ، وكانت الدور مع ذلك تتوفر للسكان حتى كان الرجل يركب لعدة أميال ، صوب الجنوب أو الشمال على السواء بين صفوف من الدور . والغالب أن الثلاثمائة والستين مسجدا ، التي لا يزال البخاريون يتحدثون عنها حتى اليوم ، كانت فائضة بالفعل هناك

وأسباب الغزو الموعلى بخارى بالخراب الشديد . ولكن لم تسف بضع سنين على ذلك حتى عادت تستوعب ستة عشر ألفا من الرجال (١) فضلا عن ألف طالب علم كانوا يترددون على مدارسها ، ولما يفس ربع قرن بعد على تخريبها . واستعادت بخارى صيتها القديم في عهد الاشرخانيين ، خصوصا أيام امام فلي خان ، ولكن لفترة قصيرة . وأخذ عدد سكانها يتناقص بالتدريج بعد سقوط هذه الأسرة فلم يزد في العصور الحديثة على خمسة وثلاثين ألفا . وما يقال في ذلك عن العاصمة يصدق كذلك على الافليم كله ولا بد أن عدد سكان بلاد ما وراء النهر كان فيما سبق خمسة أو ستة أضعاف ما هو عليه اليوم ، ذلك أنه برغم تلك الجيوش العظيمة التي ظلت منذ قيام الخلافة تتدفق ، دون انقطاع في الغالب ، صوب غرب آسيا حتى وادي النيل ، ومنها ما كان من المرتقة ، ومنها ما كان قوات غازية مستديسة ، وهذه جميعا كانت تجلب من مناطق السهوب هناك ، فان شوطى جيحون وسيحون كان لها بدورها قواتها . وهذه جميعا لا يمكن

(١) يتحدث وصفاف ، الذي نقلنا عنه ، عن السكان عموما . على أننا يجب أن ندخل في اعتبارنا أن الإحصاءات الشرقية من هذا النوع إنما تشير الى عدد الرجال القادرين على حمل السلاح ، إذ لا بلغت فيها أبدا الى عدد النساء والأطفال (الإهل والعيال) .

بطبيعة الحال أن تتوافر الا في اقليم مكتظ بالسكان . وأغلب سكان بلاد ما وراء النهر كانوا من الايرانيين . وكانت الفارسية هي اللغة السائدة في بخارى وفرغانة وخوارزم ابان حكم العرب والسامانيين والسلاجقة والأمراء الخوارزميين حتى زمن الغزو المغولي ، وحلت محلها التركية هناك من بعد ذلك كما سنرى . وكما تغيرت اللغة فكذلك تبدل كثير من عادات السكان هناك الى درجه كبيرة . ولطالما أشاد الجغرافيون العرب الأوائل بما كان عليه الأهليون من رجحان العقل والصراحة والسخاء وحسن الضيافة . ولم يبق لهم اليوم من ذلك كله الا الصفة الأخيرة التي لا تزال فاشية في الريف دون المدن ، في حين لاتجد أثرا للصفات الأخرى في أى مكان . ولقد ظلت موجات العناصر التورانية تتدفق على بلاد ما وراء النهر أجيالا مما عرض أحوالها الاجتماعية والسياسية لهزات عنيفة . ولم ينتج عن غف الغزو مجرد جذب وديارها المزدهرة — كما يحدث في كل مكان — بل أدى ذلك أيضا الى القضاء على كثير من الصفات الانسانية النبيلة بها .

الفصل الأول عصر ما قبل الإسلام

بينما أزاحت أغلب أقاليم آسيا النقاب عن بداية تاريخها وكشفت عنه وسط ضباب الأساطير والخرافات الداكن الذي كان يكتنفه ، ترى بخارى تربط مبدأ قيامها كدولة بقصة خرافية لا يستبعد احتمال وقوعها بالقباس الى ما لأرضها من مميزات طبيعية . وهذه القصة تجرى على الوجه الآتى .

« كان بخارى في القديم خواء سودها البرك والمستنقعات (١) فيها الغاب والأحراس أما أنهارها وغدرانها فكانت تغطيها ثلوج سلسلة الجبال الشرقية التي تجاور سرقند الحالية ، وتقضي كل عام على أراضي الالهيم الواسعة ، ولم تكن هذه الأراضي تصلح للزراعة وانما كانت أكثر نعمة المحيادين والسماكين .

« حمى قدم اليها من تركستان البعيدة الصيادون فاتخذوا من أرضها مسكنا مسيئا مناما لهم . ثم مهدوا بذلك لقيام فرى بكرمود وبروانه واسوانه

(١) هذه المستنقعات والبحيرات كانت عند حوب الجنوب الغربي مما وراء تركنتى فرج القديمة وقراقول الحالية . والظاهر انها كانت عند لمسافة عشرين فرسحا طولا وتشتهر عن كافة اجزاء خراسان الأخرى بمزاره اسمها كها وطبورها المائية . بل لقد كان القوم يقبلون عليها أيام حنكيز خان ليصيدوا السمك بها ، وقد بعث جفناى واوكساي ، الى اييهما حنكيز خان ذات مرة بحمسين حمل بعير من هذه الطيور المائية هدبة له ، وكان ذلك من محض هوا . فصل واحد . ولا تزال بحيرة وراقول تزخر حتى اليوم بالأسماك .

ونور (١) . واختار هؤلاء من بينهم أميرا ونوه عليهم ، وكان يدعى أبرزى . فسكن بيكند ، أى مدينة الأمير . ذلك أن بخارى حاضرة الملك الحالية لم تكن قد قامت بعد . وأمعن أبرزى هذا فى الاستبداد شيئا فشيئا بازدياد سلطانه حتى اضطرت الطبقات الغنية ، بسبب عسفه ، الى القرار الى الأقسام الشمالية من الاقليم التركى حيث بنوا مدينة جموكيت أو جسكنت ، ومعناها فى لسان تلك الأيام « المدينة الطيبة الجميلة » (٢) أما الطبقة الفقيرة فحين شعرت بعجزها عن الوقوف فى وجه هذا الأمر المستبد ، استعدت عليه الأمير التركى صاحب البلاد التى تجاوز أرضهم ، وكان يدعى قراجورين ، فسير اليهم جيشا وعليه ابنه شبركنور . فأوقع أبرزى فى أسرهِ ووضعهُ فى كيس ملىء بالأشواك انطلقوا يدرجونه حتى أسلم الروح .

« وبعد الخلاص من هذا الظالم اسندعى شبركنور الأترياء من منقاهم وسح لهم بأن يجعلوا من أنفسهم طبقة من النبلاء عرفت باسم « خيدات » ، فى حين صار الفقراء الذين بقوا هناك هم الرعية . ويقال ان شبركنور حكم قرابة ثلاثين عاما . وخلفه من بعده أمير يدعى سَكجكت (؟) ينسب اليه تعمير مدينتى رامتن وفراخسه بالمنشآت ، وحين أتى هذا الأمير بخطيبته ابنة امبراطور الصين ، أودعت هذه الأميرة فى مدينة رامتن الأوثان التى كانت قد أتت بها ما كان يخصها » .

والمرجع التاريخى (٣) الذى نقلنا عنه ذلك ، يسضى فى روايته فيقول

(١) يصعب تحقيق هذه الأسماء والأعلام عند الترئخى بسبب رداءة خط المخطوط .

(٢) جمكنت هو حتى اليوم اسم مكان غير مشهور بسحون الأدنى ، ويرد هذا الاسم علما على بخارى فى فصل آخر عند الترئخى . ويرجح العلامة شبيجل Fr. Spiegel ، وذلك فى رسالته بفضل بكابنها الى ، أن هذه الكلمة هى بعننها هزوارشى جم كنت = (التى صنعها جم) . وبعلق على ذلك فى الوقت نفسه بأن جم كوت ، وفق رواة أبى الفدا ، وهى الى تكتب فى السنسكريتية « ياما كوتا » كانت تعتبر أقصى الحدود النريفية للعالم المسكون .

(٣) الترئخى .

بأن حاكم بخارى ، الذى كان يعاصر ظهور الاسلام، كان يدعى «بندون» . وقد خلد ذكره بتجديد القلعة التى أقامها افراسياب ، أوسياوش (١) فى رواية أخرى . وحفر اسمه على لوحة حديدية ثبتت بأعلى بوابة القلعة . وقد شاهد هذا الأثر صاحب مرجعنا هذا ، بعد مرور خمسمائة عام على اقامته . وكانت يد الخراب قد امتدت اليه والى القلعة على السواء .

وتقول الأسطورة : ان القلعة انهارت عدة مرات وبندون قائم على بنائها دون سبب ظاهر . وحين استنار الحكماء فى هذا الأمر أشاروا عليه باقامة أساطين حجرية سبعة ترمز الى السيارات السبع . ومن ثم استقامت القلعة ورسب ، ولم يهاجمها ملك من بعد ذلك الا وهلك عند أسوارها .

وترك بندون من بعده ولدا يدعى طغشاد ، وكان حدثا ، فانفردت بستون الملك زوجته التى بدعوها مصدرنا «خاتون» (٢) . ويقال ان حكمها استمر خمسين عاما ظهر العرب أثناءها بهذه الديار . وذاع صيت هذه السيدة لحكمها واجلال الناس لها . وكانت تغادر حصنها كل يوم بعد الشروق فتتصد بوابة ريغستان — التى صارت تعرف فيما بعد بسوق العلافين — فتجلس فوق عرش ومن حولها رجال البلاط والأعيان وتقيم العدل بين الناس . وكان يقوم على حراستها فى الحضرة كل يوم مائتا شاب ينسطقون بالذهب ومعهم سيوفهم الذهبية كذلك . وكانوا يستبدلون بغيرهم فى كل يوم . وعلى هذا الوضع كانت تتبع لكل قبيلة أن تشارك فى أداء هذا الواجب أربع مرات كل عام (٣) . وبهذه السيدة انتهى الحكم

(١) نقول الأسطورة ان سباوش بن كيكائوس هرب من ايران عبر جبال فجاى بخارى حيث أكرم افراسياب وفادته وزوجه من ابنه . وأراد سباوش ان يترك من ورائه أبراً فأقام مدينة بخارى . وقيل ان منسى هذه المدينة هو افراسياب نفسه .

(٢) يقول أغلب أصحاب المعاجم ان حانون كلمة فارسية . رقى رأى انها لفظة تركية مستمدة من الأصل «خت» بمعنى الخلط والادغام .

(٣) لا بد أن كان بامارة بخارى على ذلك تسعون قبيلة ، وبعبارة أدق تسعون من الأسر المرموقة فى الغالب .

الفعلى لأول أسرة حاكمة فى بخارى . فقد حفظ الحكم الاسلامى على من
بقى من أعضائها ألقاب الامارة دون النفوذ والسلطان .

واحتفظ طغشاد باستقلاله الى حد ما مدى ثلاثين عاما نظير اعتناقه
الاسلام . وقد اشتبك فى حروب مع الترك ، وعلى الخصوص مع من كان
يدعى وروان أو دردان . والغالب أنه شن هذه الحروب بتحريض من العرب
الذين ثبتوا ابنه على العرش من بعده تكريما له . وكان قد سى ابنه هذا
قتيبة تيمنا باسم القائد العربى المعروف . وحكم قتيبة هذا فى الوقت الذى
كان يقوم فيه أبو مسلم فى خراسان . ولم يبد منه أى ولاء حقيقى لا
العرب ولا لدينهم على السواء بخلاف ما كان عليه أبوه من قبل . وكان
يتظاهر بالاسلام ليمارس طقوس المجوس من بعد ذلك فى الخفاء حتى
قتل بالزندقة بأمر أبى مسلم عام ١٦٦ (٧٨٢) وأجلس مكانه ابنه ننان أو
بنيات وكان يتظاهر بدوره بالنمسك بالاسلام ، وما لبث أن جهر من بعد
ذلك بدينه القديم حتى أصبح من أعظم أنصار « المقتنع » النبى المزعوم
الذى سنتحدث عنه فيما بعد بالتفصيل . وحين بلغ الخليفة المهدي أمره
أن تسيير اليه كوكبة من الفرسان فتباغته بداره فى فرخشة وتقطعه اربا .
ولا يصل إلينا من بعد هذا الحادث شئ يذكر عن هذه الأسرة الحاكمة
القديمة فى بخارى . وآخر من ورد ذكرهم من أمراء هذا البيت هو أمير
يدعى أبو اسحق (١) وذلك بمناسبة بيعه ضيعة كانت له الى اسماعيل
السامانى على جعل سنوى يدفع له قدره عشرون ألف درهم . ومات هذا
الامير عام ٣٠١ (٩٠٤) ، وعاش أبناؤه من بعده فى بؤس وشقاء (٢) .

(١) يقال انه كان حفيدا لنيناب أو بيناب .

(٢) كان احمد بن الليث يرى فى مجرد السلطة الاسمية التى كان
يمارسها وريث أسرة بخارى القديمة شوكة فى جنبه حتى سأل اسماعيل
عن سر الاحتفاظ به . وبينما كان الأمير السامانى الكبير يجادل عامله فى
ذلك ، أقدم اليهما أبو اسحاق بنفسه ، هنالك سأله اسماعيل عن مقدار
ما تغله أرضه كل عام . وحين أجابه بأنه يحصل منها على عشرين ألف
درهم بشق النفس تعهد له بأن يدفع له هذا المبلغ كمعاش سنوى فبان
عليه البشر وقبل العرض مسرورا .

والى هذا البيان التاريخى ، الذى لا يبدو بحال ما تافها برغم ضآلته ، نضيف ملاحظة تعيننا ، هى وما ينبثق من أضواء خافتة هنا وهناك ، على الامام بعض الشئ بحقبة ما قبل الاسلام ببلاد ما وراء النهر . فقد قام لدينا الدليل ، بالمحل الأول ، فى أقدم آثار الفرس ، وهو الوندidad ، بأن الأراضى التى تقع على الجانب المقابل من جيحون سكنها فى عصر ما قبل التاريخ أناس ينحدرون من أصول إيرانية خالصة .

والفصل الأول من الوندidad ، الخاص بالتكوين ، والذى تناوله كثير من العلماء فى العصور الحديثة بالشرح والتعليق يتناول ستة عشر مكانا ظهرت فى الوجود بقوة أهورامزدا . فنجد هناك تحت رقم ٢ : كاو مع صغدا ، وهو الصغد أو صغدية الحديثة . ونجد ٣ : مورو وهو مروي المعروفة من قديم . ٤ : نجدى وهو بكتريا . ٥ : نساو وهو نسا يكسر التون أو امالتها (١) . ٦ : هرويو وهو هرى أو هراة . ٩ : ورخانة وهى هيركانة (٢) ، ثم ١٦ : راغة الشرقية والمعتقد أنها جيحون (٣) .

وبرغم أن دراسة هذه القائمة المهمة ونحقيق ما بها من أسماء المواضع يفتح المجال لآراء كثيرة ، الا أنه من الثابت أن الباحث الذى يريد أن

(١) من رأى شبيجل فى مجله اخبار ايران العديدة (Iranische Altertumskunde 194) أن هذا المكان لا وجود له الآن . ومذكر كذلك أنه كان يقع بين مروي وبخدى ، وقد ندمس كذلك بالقرب من اردشوى وشهرستان ومبمنه .

(٢) أحدث بما فررته مراجع وليمه بأن ورخانة هى هيركانة . وكان من خاطرى أن ورخانة لا بد وأن تكون هى فرغانة ، وذلك على أساس انى أعد كلمة هيركانة بدورها من أصل تركى . وهيركانة هى تحريف يونانى للفظ كوركن أو كورغن وهو نهر بجرى فى جبال الكرد ونصب فى بحر الخزر . وكلمة كورغن هى خرجان (اسم مدينة وولاية) عند العرب . ولا يزال التركمان يعرفون اطلالها حتى اليوم باسم كورغن ، وهناك أيضا بركة كورغن حولو ، وتعرف كذلك الأراضى التى تقع عند حدود هذه البركة باسم كورغن وهو الاسم الذى تعرف به خوارزم - خبوه الحديثة - نى أقدم المخطوطات الجغرافية .

(٣) يعين خانيسكوف (Khanikoff, Mémoire sur l'ethnographie) هذا المكان عند درجة ١٦ درجة الى الشرق من راغة (Spiegel. Iranische Altertumer p. 195) فى حين يجعل شبيجل نفسه هذا الموضع تحت رقم ١٢ ولا يقول عنه بأنه سيحون بل يراه نهر رها فى ميدبا .

يتقصى نشأة الثقافة الإيرانية لن يبلغ غايته في جنوب إيران الحديثة وغربها حيث تجذب أنظاره الآثار والنقوش السامرية ، بل عليه أن يلتصقها في شرق تلك البلاد وشمالها الشرقي . وكان الاغريق قد سنعوا عن قيام الحياة المتحضرة بآسيا الوسطى ، وبقيام دولة قوية هناك كذلك ، وذلك قبل زحف الاسكندر بزمان طويل . ولعلهم كانوا قد علسوا بذلك كله في بلاط الاكسينيين (١) . وفي بكتريا ظهر زرادشت بدينه الجديد بعد أن رفضت أن تستجيب له ولا به أتروبانته ، آدربيجان الحديثة ، موطنه . ومن هذا الاقليم ذى الألف مدينة ، كما يسميه چستين Gust n ، نفذت عبادة النار الى الصغد وخوارزم وانتشرت فيها . ومن معبد نوبهار المشهور ، الذى يذكر المقدسى أن أسرة البرامكة كانت تقوم بالسدانة فيه قبل هجرتها الى بغداد ، حلت أنوار المذهب الجديد الى فارس القديمة وميديا . وهكذا نجد مهد الملحمة التى تؤرخ إيران القديمة — وهى الى شرع فيها حزنه الأصفهاني والدقيقى وأتمها من بعد ذلك الفردوسى الشاعر الفذ — لا فى الغرب والجنوب وانما فى المناطق الشرقية من إيران الحديثة .

وما ورد عن الحروب مع توران وأفراسياب أقوى أمرائها ، لبس له فى الواقع من الناحية التاريخية الا قصة يسيرة . على أن علم السلالات البشرية انما يجد شواهد مهمة فسا ورد فى « كتاب الملوك » من تفصيلات عن اللغة والرسوم والعادات وعن هيئة أعداء إيران ومظهرهم . وهى صورة قد نطسّن الى ما تجبله لنا من مقومات الحياة القديمة فى إيران . وقدم الحضارة البعيد فى هذه الأمصار يؤكد لنا بطريقة حاسمة الكاتب العربى أبو الريحان البيرونى ، أحد أبناء آسيا الوسطى والباحث الناقد الوحيد فى تاريخ آسيا الوسطى القديم . وهو يتحدث الينا ، فيما يتحدث ، عن التقويم الخوارزمى القديم الذى كان يراه أدق من تقويمى الاغريق والعرب على السواء . ويعطينا كذلك بياناً عن اللهجة القديمة للصغد

(١) انظر مقال بتوقيع مستعار لراولنسون Sir. Henry Rawlinson, Quarterly Review, 1868 p. 488.

ولخوارزم ، وذلك حين يربط بين أسماء الشهور الاثني عشر والأيام
التلاثين لكل شهر وعلامات منطقة البروج — وهو جدول علمي في أغلبه
بلغه الزند وصورته في ذلك أدق بكثير مما يحتفظ به البارسيون . كذلك
نراه يتحدث عن النقوش الخوارزمية التي قبل ان غزاها هذا الافليم
الأولين من العرب قد عنوا بالاطلاع عليها (١) .

وهذه حبيبا كانت في الغالب مكتوبة بلغة الزند ، وهي لغة عاشت
بالأرجح على ضفاف جيحون أكثر مما عاشت بابران . ولم يأت القرن
الثاني الهجري حتى كانت هذه اللغة القديمة وأبجديتها بمنطقة جيحون قد
عفى عليها النسيان . ونحن نسع عن نقشين غامضين لم يصل أحد الى حل
رموزها ، وهما يرجعان الى عصر ما قبل الاسلام . ويرجح أنها كتبا بلغة
الزند أو بلغة بكتريا پالي . وأحد هذين النقيشين كان يقوم على بوابة
سرند المتصفحة بالحديد . وحين دمرها الحريق ضاع معها هذا الأثر . أما
النفث الماني فيقول الترغزي بأنه كان بعلو مدخل القصر الملكي القديم
في ربستان بخارى . ويحتل أنه كان يحوى أكثر من مجرد ذكر اسم
مؤسس القصر كما يشير هذا الكاتب . وأيا ما كان شأن هذه الاستنتاجات .
فالثابت أن لهجة آسيا الوسطى الفارسية الحديثة تحوى من بقايا
الفارسية القديمة ، قيل أن تتسرب اليها العناصر السامية والتورانية ، أكثر
ما تحويه اللهجات الفارسية الأخرى مجتمعة ، وذلك رغم أن أصحاب
اللهجة الأولى لبثوا قرونا عديدة على اتصال وثيق بالغالبية التورانية
صاحبة السلطان هناك . في حين لم يكن غيرهم من أصحاب اللهجات
الفارسية الأخرى في أقصى الجنوب يتصلون بجيرانهم من الساميين الا
لماما ٢ .

(١) المصادر السابوق ص ٤٩١ .

(٢) ان لهجة آسيا الوسطى التي يتحدث بها التاجيك لم تلقى اهتماما
مذكر من اللغويين الايرانيين . ولهذه اللهجة خصائص كثيرة في تركيبها
اللفظي والفاظها على السواء بذكرنا بلغة الفردوسي . والضمير والفعل فيها
على للملاحظ ، نجد أثر التركيبة فيهما دون اثرها في الفارسية الحديثة
مكتسب .

حين تقارن بين ملامح الايرانيين الشرقيين الطبيعية وملامح
الاييرانيين الغربيين نجد التقارب ووجه الشبه بينهما ظاهرا . فسحن
التاجيك الغلجا والوخانيين والجمشيديين والبراسوانيين قوام سكان
ايران الشرقية ، تجد عندهم من ملامح الجنس الايراني أكثر مما تجد في
التقوش التي تصور سحن العصر الساساني (١) .

وما يقوله العلامة الجغرافي خانيكوف من أن مجال الشعب الايراني
الأول هو في الوديان الخصبة بين الهندكوش وسلسلة جبال بغمان وكوه
بابا ، مقبول حين نسد مهد الشعب الايراني ، المفروض هذا ، حتى المناطق
الخصبة بشواطئ كوهك أو زرفشان . أما الطريقة التي انتشر بها الجنس
الايراني من المناطق سالفة الذكر هذه صوب الجنوب والغرب فهو موضوع
دراسة يخرج عن دائرة بحثنا . فما يعنيها هو أن نقف على مدى انتشار
عناصر بلاد ما وراء النهر الايرانية صوب الشمال وصوب الشرق . ولئن
كنا لا نجد لنا من معين في سعيها هذا الا مجرد جدول جغرافي ، فانما
نستمد من أسماء الأشخاص عونا قويا بدورها حين ندخل في اعتبارنا أن
السكان المتحضرين الذين سكنوا الجانب الأقصى من جيحون كانوا دائما
من الايرانيين .

وأقدم المستعمرات هناك كانت تلك الرقعة من الأرض التي تمتد
من اخسيكت القديمة عند حدود فرغانة الشرقية حتى بخارى . وهذه
الرقعة التي تضم أغلب أراضي بلاد ما وراء النهر الخصبة تتخللها أنهار
وقنوات طبيعية وصناعية عديدة . ونجد عند البلخي ، في مخطوطه
الجغرافي ، بيانا بأساء جبالها وغدرانها وأنهارها فضلا عن مدنها ونواحيها
وقراها . وجميع هذه الأسماء فارسية قديمة في أصلها . وحال دون انتشار
الحضارة من هذا المركز الى ما بعد بخارى غربا تلك الكثبان الرملية عند
خوجه أبان التي تعد امتدادا لصحراء خلطه ؛ وظهرت قراقرول (البحيرة

(١) انظر في ذلك بحث خانيكوف القيم الذي سبقت الإشارة اليه .
وهو يرى في التاجيك أنقى صفات الجنس ، في حين يرى راولنس أن هذه
لا تتوفر الا عند الوخانيين سكان بدخشان الذين لا يزالون على الفطرة .
أما في آسيا الوسطى فإن الغلجا هم أقدم العناصر الفارسية (الايرانية)
بالبلاد .

السوداء) وكذلك بيكند (مدينة الأمير) من بعد كما ينبىء بذلك اسمها التركيان . وانشرت حضارتهما صوب السال فيما وراء خجند (خوتن جند أو حوب جند = المدينة الجميلة ؟) حتى شاش (وهذا الاسم هو من أسماء سيحون كما يعرف به كذلك احدى المدن التى تقع على ساطئه) و بناكت (بكسر الباء أو امالتها ، وهذا الاسم هو ، على ما يحتمل مشتق من كلستى بناء كت ، أى الملجأ والملاذ) ، فى حين انتشرت هذه الحضارة فى السرف وبعض وديان الجبال الشامخة . ولا مرأ فى أن حسن وترفان وغيرها من أسماء الأماكن الأخرى اننا نشير الى قيام الاسعرات الأولى هناك (١) .

كان الابرايون . وهم الكلفون بالمدينة بطبعهم . يسقرون ماوسعهم الأرض بامكانياتها وبعد عنهم خطر غارات التورانيين حدا ما . وأيا ما كان من ميل قوم الغريزى الى ممارسة الحرف والفنون الجميلة أو من تأثرهم بحضارتهم الصينيين أصحاب الابداع ، فالثابت المعروف أن تجارة الحرير ، التى كانت تقوم بين امبراطورية الصين ورومية أيام القيصر أغسطس ، قد وجدت بين أبناء آسيا الوسطى من يقبل على الاشتغال بها فى غيرة جند ، ولم يكن هؤلاء من التورانيين على وجه اليقين . ويروى الترشيخى أن نجار بيكند كانوا هم الوسطاء بين الصين والبحر الغربى (قزوين)^٢ .
« تقول المصادر البيزنطية ان أهل بخارى وصغديا كانوا فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين يسكرون بقوافل الحرير العظيمة عبر

(١) برى آبل ريموسات ، Abel Remusat, Hist de la Ville Khoten ، ان لفظ ختن هو بحرف للفظ السنسكرى كو - ستانا ، أى بلاد الارض . ويرى أهل آسيا الوسطى أنه مشنى من اللفظ الفارسى « حوب نن » أى الجسد الجميل ، يشيرون بذلك الى عرف الرجال الوسما وبع عن اتصال هذا العرف الوثيق بكشمير أن صارت مدن ختن تسمى بطابعها الخاص على مدن تركستان الشرقية الأخرى .

(٢) لا اجزم بأنه هو بحر قزوين برغم ذكرى له ، ولا بعد كذلك ان يكون المقصود هنا بحر آرال ، ذلك أن مخطوط البلخى فى القرن الثالث الهجرى يذكر ان بحر خوارزم ، أى بحر آرال ، كان متصلا ببحر الخزر ، أى قزوين .

الامبراطورية الساسانية الى شرق بلاد الامبراطورية الرومانية . وحين شق العرب من بعد ذلك طريقهم عبر جيحون ، وجدوا هناك نشاطا صناعيا وزراعيهما . والثابت المعروف أننا لم نعثر على آثار مثل آثار برسبوليس وسوس أو كتابات مسمارية تدل في جلاء على ماكان لأسبا الوسطى من حضارة قديمة .

وليس لنا أن ننسى أن المدنية الايرانية قد تعرضت منذ العصور الأولى لغارات التورانيين فيما وراء جيحون . ففى الوقت الذى أقام فيه الايرانيون مدنها على ضفاف جيحون وسيحون واستقروا فيها ، كان بدو التورانيين فى ذياك الوقت البعيد يتجولون ، على وجه اليقين ، فى مناطق السهوب المجاورة لها .

وليس ثمة دليل نستدل به على الوقت الذى بدأت فيه غارات التورانيين الأولى على المناطق الزراعية ببلاد ما وراء النهر . وقد تؤكد سلطانهم واستقرارهم هناك ابان الاحتلال المغولى لتلك البلاد . وما نعلمه عن عرق هؤلاء البدو الذين كانوا يتجولون على حدود السهوب قليل ، اذ كانوا يعرفون بالغز حينما عند الشمال من سيحون وحينما آخر عند الشمال من جيحون . ويذكر البلخى كذلك فى تقويته أن البدو عند الشمال من جاج ، آخر مناطق الحضارة والاسلام ، كانوا يعرفون بالغز ، فى حين ظلت المصادر الفارسية لعدة قرون متأخرة تعرف بالغز بدو الترك الذين أسروا السلطان سنجر بالقرب من أندخوى الحديثة . ولا نلص الا قدرا ضئيلا من الصواب فى القول بأن الترك كانوا قد انطلقوا عام ٧٠٠ ق.م (١) عبر جيحون ، وهو الحد القديم الذى كان يفصل بين ايران وتوران ، فبلغوا حدود الهند .

(١) يقول راولنسن فى مقاله الذى اشرنا اليه من قبل ، فى هذا الكفاية لبيان أنه على مدى ألف عام فيما بين عام ٧٠٠ ق.م ، وعام ٣٠٠ م تدفق من سيحون قبائل من السيث ، تنتمى الى نفس العرق الذى ينتمى اليه قبائل الروس والغيتن واللاب والمجر والأوربيين ، فاجتاحت مناطق آسيا الغربية ، وبلغ فريق منها الهند فى حين سار فريق آخر منها الى سوريا وآسيا الصغرى . ولا اعارض هذا القول من حيث الناحية التاريخية =

وما وصلنا بعد ذلك من أخبار السيث المعاصرين للرومان والسكا المعاصرين للأغريق ثم الهياطلة أو الهون البيض الذين كانوا يعاصرون

والكى أحادثه اللغوية ضيعه محاذله . فما أورده هذا المؤلف على أنه
كسبب لكتابات المورانيه هو موضوع شك بالغ . ولا مناص لى من أن أعلن
بأن صراحة أنى أم أحد الا قليلا جدا من التورانيه فيما اكتشفه أوبرن
ويورنس ومورتمان . Uppert, Norris and Mondmann. وقالوا عنه
بأنه المؤلف تورانيه . وما بحث يدي فى هذه اللحظة مما كتبه هؤلاء هو فقط
بحث عن نفوس معاربه من الطبعة الثانية نشره مورتمان فى المجلد الرابع
من مجلة المورانيين الألمانية . Zeitschrift der deutschen morgenlaendischen
Gesellschaft وسأورد هنا الشواهد التى احتج بها على تماثل الألفاظ التورانية
بمسبها لأقيم بذلك الدليل على مدى سطحية هذه النظرية كلها عنده ،
وال عدا المستغل باللقوبات الإبراسه هو غير ممكن من فقه اللغة التورانيه ،
وهو فى ص ٩ يقارن كلمه انجو - - فرس بالكلمه التركيه نكيز . فلماذا
لا يقارنها باللغه التركيه اتكين = البحر المصوح . أو لعل السيد مورتمان
قد اكتسب أن الكلمه الاخيره مشتقه من اللفظ التركى القديم « آنجا » بمعنى
الاسماع أو الامداد . فار انرا = أن يرغب بالكلمه التركيه أوبنامق ،
وهو اسماء الطالع ليس معناها « أن يرغب » بل « أن يمنع » . وفى ص ١٥
يقارن كلمه ارك = قاطن بالكلمه التركيه أوتورمق = أن يسكن والأصح
« اركورمق » . أن يجلس . وهل أراد بذلك أن يقارن الأصل « ارك »
بالأصل « اولور » . وفى ص ١٨ يقارن اراكا = واسع مع الكلمه التركيه
أوروز . طوبل فلماذا لا يقارنها مع كلمه « اجس » = مفتوح ، عريض ،
ومارن كذا كلمه ايراس = القلعة بالكلمه المجرية Var = الحصن .
« الكلمه التركيه » « اربس » - بلده . ولا حاجة بنا الى القول بأن اللفظ الاول
مشتق من اللفظ الفارسى « بارو » ومعناها الخزان أو المتراس ، وأن الكلمه
الثانيه من لفظ مجرى أصيل نقله المصنفون عن المجرىين حين كانوا ينزلون
على مصافى النهر . ويقارن كذلك فى ص ٢١ اوبدوا = أن يعود
بالكلمه التركيه « طومق » . أن يمسك . وفى ص ٢٤ يقارن حث باللفظة
التركيه كورمك . ولعل السيد مورتمان قد نسي أن هذه اللفظة
« كورمك » أصلها « أن يحمل أو أن يرفع » ، وانها ترتبط أساسا بكلمه « كوج »
التي هى « أما كلمه كورمك » . أن يحضر فهي لا تفي بالفرض ذلك لأن
المصنفه الأصلية هم كورمك . ان وُدَى للمجموع . وفى ص ٢٥ يقارن ا
« باللفظه التركيه » ايرمق . ومن اللطيف كذلك مقارنة اللفظه التركيه
أناير المدمع بالى ، واج . ناكى - - عدو . والمعروف أن هذه الكلمات
مشتقة من أصلين مختلفين تمام الاختلاف . فالأصل « اى » يدل على
الفتح أو الشقى فى حين يدل « ناو » و « ناك » على معنى « الشقى أو التعسف »
« ناو » . فبالألفاظ المختلفة من عصور قبل التاريخ ، ينبغى على الباحث
ألا يروح من ذلك الى اللغة التركيه أو الى لهجة من لهجات الترك الحديثة .
بل يطلع على « يد قوبلسى » أقدم كتاب كتبه الترك بعد اسلامهم الجماعى
المعروف « . وحسن هذا الاحسن لا يزيد عمره على تسعمائة عام فى الغالب .

البيزنطيين ، ومن أخبار يوى — جى الصين كذلك ، نجد فيه جمل مما يؤيد صحته . ذلك أن الترك الذين تدفقوا فى القرن الثانى قبل على بكتريا ، وكانوا يعرفون باسم أو آخر من تلك الأسماء التى تطلق عليهم ، كانوا قد أقاموا لهم دولة ، على أنقاض دولة الإغريقية ، ظلت قائمة حتى منتصف القرن السادس الميلادى على رينو .Reinaud (١) . ونجد ما يؤيد هذه الدعوى فى وجود كلمة بفتح الباء أو امالتها ، فضلا عن الشواهد التى نجدها فى أسماء الملسكة بكتريا .

وبلخ هذه ليست الا بالى أو بالى التركية القديمة ، ومعناه أو العاصمة . وهو الاسم الذى كان يطلقه الترك على مقر أميرهم المغول مثل ذلك من بعد ذلك بعدة قرون فكانوا يعرفون مقر خاى باسم خان بالى (وهى التى يعرفها الأوربيون باسم Kambalu, c, يفصدون بذلك مدينة الخان .

وثمة دليل آخر على وجود العناصر التورانية منذ عصر مب الجنوب من جيحون نجده عند الجغرافيين العرب الأوائل الذين بأن تركا من قبيلة خلى (٢) (والأصح خلجى أو خلى = سيف) . أزمان متقدمة على شواطئ هلمند . ولعلمهم كانوا من بقايا الس أطلق اسمهم على سكستان أو سجستان ، وهى سيستان الحالية وكذلك نجد على الشاطئ الآخر لسيحون دليلا آخر على العناصر التركية فى زمن مبكر هناك وذلك فى تسمية العاصمة ذلك اللفظ الذى لا يقوم أدنى شك فى أصله التورانى . ونظ

(١) politiques et commerciales de l'Empire romain
ie orientale. Paris 1863, P227.

(٢) ذكروا باسم خلى بتعميم الكسر والأصح تعميم الفتح
ود نقارن هذه الكلمة بالكلمة التركية « قلىج » أى السيف (١)
وبنسب اليهم بعض المؤرخين بيت الخلجيين الذى حكم بالهند فى
السابع والمان الهجريين وكان لأصحابه فنوحات عظيمة هناك

كلمة ييقند (يسكند) التى ذكرناها من قبل . وآمو الذى يعرف به
الأهلون جيحون هو بدوره لفظ تركى كذلك ومعناه النهر . ولئن لم يكن
من اليسير أن نجزم بأن الترك ، أول ظهورهم ببلاد ما وراء النهر ، كان
لهم من السلطان نصيب أو كانوا مجرد جند مرتزق عند الأمراء الإيرانيين ،
الا أننى مع ذلك أميل الى الأخذ بالرأى الأول وذلك للاعتبارات الآتية :

أولا : أن الترك ، بوصفهم طبقة ممتازة من المحاربين ، كانوا يصلون
الى السلطان حيثما ظهروا — وهى قاعدة نجد لها أمثلة كثيرة فى القرون
الوسطى وفى الأزمنة الحديثة على السواء .

ثانيا : هذا الرأى تظهره الصلات التى قامت بين الامبراطورية
البيزنطية والترك فى الشرق الأقصى . ذلك أنه حين أدرك سكان الصغد
أن تجارة الحرير ، وهى التى كانت تدر عليهم أرباحا طائلة ، تتعرض
للتعاقب بسبب سياسة الفرس ، استنجد أمير الصغد التركى ، أولا
وقبل كل شئ ، بالخان الأعظم ديزابول (١) .

وحين تبين لهذا الخان بدوره عجزه عن اقرار الأمور سلما مع ملك
الفرس ، اتصل بجستينيان الثانى امبراطور القسطنطينية . واضطر السفير
التركى ، لكى يتجنب المرور فى الأراضى الفارسية ، وهو فى رحلته من
بلاط ديزابول الى شواطئ السفور ، الى أن يسير بجذاء شاطئ قزوین
الشمالى مخترقا مسرات القوقاز السرية التى لا يعرفها الا القليلون . وتؤيد
هذه الواقعة ما يقال ان هذا الأمير التركى القوى كان يحكم فى جبال
التاى وعلى شواطئ سيحون . ويدل اسم أمير صغديا ، الذى ذكره
الاغريق باسم مانياك ، على أنه بدوره لم يكن إيرانيا بل هو تورانى .

(١) هذا الاسم الذى ورد عند المؤرخين البيزنطيين على هذا الرسم
هو فى الغالب الرسم اليونانى للفظ التركى ديزاول أو ديزاول المشتق من
الأصل ديز/مك أو تيز/مك أى أن ينظم أو بهيى . فهو المنظم أو المهيى
(فى المعركة مثلا) . فهو بذلك يدل على المنصب الرفيع ، نظيره فى ذلك
اللفظة الجديدة « يساول » تطلق على جندى الحرس الملكى فى الصين ،
فهى مشتقة من الأصل ياز/مق أن يصف أو يهى .

فما نياك كلمة تركية معناها الأمير أو النبيل أو رفيع المقام . ولا يزال هذا اللفظ ، على تحوير بسيط فيه ، يروج عند القرغيز ، حيث يعرف أمراؤهم باسم ما ناب (١) .

ثالثا : تردد الكتابات التاريخية الأولى عن بلاد ما وراء النهر ذكر وجود الترخانيين ، وهم أصحاب مرتبة تركية رتبة معروفة . وكانوا يحكمون في سمرقند وبيكند ووفكند وقد تغلب العرب عليهم جميعا الواحد بعد الآخر .

ومع كل ما ذكرناه فإن مبلغ علمنا عن أحوال الترك في وسط آسيا قبل العهد الإسلامي هو ، بكل أسف ، جد قليل بوجه عام . ولو كان المسيحيون البيزنطيون قد أوتوا من العلم والميل إلى المعرفة مثل ما أوتى العلماء المسلمون في القرون الأولى من الهجرة ، لأفاد العلم نائذة جليلة من تلك الرحلة التي قام بها السفير البيزنطي زمارخوس حين زار بلاد ديزابول في القرن السادس الميلادي . ولقد حال دون تحقيق هذا القصد جهل المسيحيين وغطرسة الاغريق ، فلم يترك لنا سفير جستنبان هذا إلا مجرد بيان مضطرب عن العادات والأعياد بدلا من أن يطلعنا على صور من حياته مع ملاحظاته عليها وأمنلة من لغات هؤلاء البرابرة .

أما عن أحوال سكان آسيا الوسطى الدنبة الأولى ، فقد لاحظنا من قبل أن عقائد زرادشت كانت هي ديانة السكان الإيرانيين القومية ويتضح ذلك جليا فيما حول بلخ . وحين نذكر المقاومة الشديدة التي قابل بها السكان الإيرانيون الحملات الإسلامية من بعد ذلك سوف لا نعجب حين نجد أن تعاليم زرادشت كانت قد انتشرت من بيوت البار في بلاد ما وراء النهر صوب الشرق ، فبلغت من بعد ذلك منازل بدو الترك عند تيان شان ، كما انتشرت كذلك صوب الشمال الغربي حتى شواطئ بحر

(١) انظر في ذلك رادلوف M. Observations sur le Kirghis par M. Radloff Journal asiatique, extrait No. 9 (1863) حيث يقول « المانابيون عندهم يتوارثون كما يتوارث سلاطين القازاق » . وإن لم تخنى الذاكرة فقد سمعت بدوري لقب ما ناب بن القراقلق .

آرال . وتعرضت الزرادشتية قبل فجر التاريخ الى ضربة سديدة حتى في بلاد ماوراء النهر نفسها وذلك بفعل البوذية التي قدمت من الشرق . وهو أمر ترى ذكره واضحا في قصص الشاهنامه . ويكتب في هذا الشأن العالم المتخصص (١) في تاريخ ايران القديم وهو يتناول «كتاب الملوك» بالدرس فيقول « منذ ذلك الحين » ، أي منذ وفاة كيخسرو ، « تأكد لدينا أن التورانيين كانوا يعبدون الأوثان . وكان ملك التورانيين يدعى بغو نجاد ، أي من ينتسب الى بغو ، وأنه كان يكتب بأبجدية بغوية بما يسير بما لا يدع الشك الى أصله البوذي » .

ويحتسب كل الاحتمال أن النضال بين البوذية والزرادشتية في بلاد ما وراء النهر اتخذ صورته بين عرقين لا بين عقيدتين فحسب . وكان أولياء العفيدة الأولى التورانيون الذين نلقوها في النبت . وبازائهم طلق الآرايون بدافعهم في حبه طبيعته عن ديانتهم المومية .

ولا يعلم التاريخ الذي أطلق فيه الاسم النوراني « بخاري » على المدينة الإيرانية القديمة « جوكوت » . ذلك أن « بخار » (٢) لا يزال حتى اليوم علما معولبا على المعبد أو الدير البوذي . وعلى ضوء ما كان من أثر اتسار نفوذ الصينيين ترك الشك ، فبما بن صحراء جوبي حتى بحر فزوب ، ذلك النفوذ كان يقوم قبل المسيح وإبان حكم أسرة هان ١٦٣ ق.م -- ١٩٦ م ، فإن لنا أن نستنج أن العقائد البوذية قد وجدت لها أتباعا على ضفاف زرقشان في القرون المسيحية الأولى (٣) .

(١) يؤكد شيبجل في مقال ظهر له في مجلة Auslan بعنوان (تركستان السرقية) ، أن القنائل الى الركبة من نبان شان كانت تعبث النار في القرن السابق الميلادي .

(٢) انظر مقال للامناذ شيبجل في 663, p. Iranische Altertumkunde.

(٣) يذكر الكتاب المسلمون استقفا مماتلا لهذه الكلمة مؤكدا أن بخار هو في لغة عبدة الأوثان معناه « مجمع العلم » أي مدرسة ، ولا يزال الترك حتى اليوم يطلقون كلمة بخاري بظفا صحبها على خلاف الفرس الذين يظفونها بأماله الباء نحو الكسر .

وقد يتصل بهذا ما سبق أن ذكرناه عن مقالة النرشخي وما ورد بها بشأن ابنة امبراطور الصين وما كان ضمن بائنتها من أوثان عرضتها في رامتن .

ولا تنسى كذلك أن نشير الى تقرير الجوايين البوذيين فاهيان وهيون — سنغ ، وما ذكراه عن ازدهار البوذية في تركستان الشرقية في القرن الخامس الميلادي ، ذلك الازدهار الذي لا يستبعد امتداده كذلك حتى مناطق جيحون . وقد وجدت آثار البوذية آخر الأمر بلاد ما وراء النهر عند الفتح الاسلامي . ذلك أن العرب ، حين فتحوا بيكند ، كان من بين ما استولوا عليه بها من الأوثان صنم عظيم الحجم من الذهب الخالص استرعى انتباههم ، اذ كان له عينان من جوهر ثمين . وقد بعثوا به الى الحجاج . بل لقد بقيت آثار البوذية بين سكان آسيا الوسطى حتى بعد انتشار الاسلام . ويحكى لنا النرشخي أنه كان يقوم ببخارى في كل عام سوقان كبيران للدمى أو التصاوير . وكان ما يباع في أحدهما تصل قيمته الى خمسين ألف درهم .

ويرى الكاتب العربي أن مرد ذلك هو الى العادات السائدة أيام كان أهل بخارى يمدون الأوثان ، اذ كانوا يشترونها من هذه الأسواق .

ان الصورة التي نرسها عن الأحوال الدينية في آسيا الوسطى قبل العصر الاسلامي قد يزيد غموضها عما هو عليه حين نهمل الإشارة الى مسيحية النساطرة التي نفذت في وقت مبكر الى داخل آسيا وبلغت الأراضى المتاخمة لسيحون وجيحون . ويلاحظ (١) العلامة الكولونيل هـ. يول H. Yule بحق في مؤلفه القيم « الخطا والطريق اليها » أن قصة نشاط القديس توما التبشيري ، الذي امتد حتى الصين ، هي بيان انتشار عقيدة المسيح في القرن الثالث بين الفرس والميدين والصينيين ، هذه كلها يجب أن لا تقبل على علاقتها .

(١) انظر ص ٨٨ من مقدمة ذلك الكتاب .

ويصدق ذلك الى حد ما على القرن التالي لذلك حين أخذ شابور يضطهد المسيحيين ، وحين قامت الأسقفيات البابوية في طوس ومرو عام ٣٣٤ م ، وقد رفعت هذه الأخيرة عام ٤٢٠ م الى ابراشية . هذا كما أدت مطاردة الامبراطورية البيزنطية للنساطرة المنشقين على الكنيسة — تلك المطاردة التي قامت بسبب الخلافات المذهبية المريرة — الى أن انطلق هؤلاء بلبتسون مجالا لنشاطهم في الشرق القصى . وقد مهدت كراهيتهن للميزنطيين لكسب عطف الساسانيين عليهم . ولا بد أن جهودهم التبشيرية قد صادفت قبل ظهور الاسلام قدرا ملحوظا من التوفيق في الجهات التي أدى فيها النضال بين البوذية والزرادشتية الى أن لم يعد لأيهما من سلطان على عقول الناس ، فهياؤا بذلك الفرصة للتأمل والتبصر في أمر دينهم .

هذا هو ما كان عليه الحال بآسيا الوسطى على وجه التخصيص . وكانت المسيحية يبلاد ما وراء النهر قد اتخذت لها مركزا في سمرقند حيث أنشئت بها أسقفية بابوية ، وذلك فيما بين عامي ٤١١ و ٤١٥ م على ما ذكره السريان وفيما بين عامي ٥٠٣ و ٥٢٠ م على ما يقول به يول . كذلك نرى كوساس يتحدث البنا بدوره عن المسيحيين عند شواطئ جيحون في منتصف القرن السادس الميلادى . ووجد العرب بدورهم المسيحيين في بخارى . وبذكر النرشخي ذلك بجلاء فيما كتبه عن الكشكوشان . ولم يكن هؤلاء ، على ما تقول الرواية ، من العرب أو من أهل البلاد ، ولم يكونوا كذلك من المسلمين أو من عبدة النار ، فهم قوم قدموا من الغرب واشتغلوا في الغالب بالتجارة وكانوا موضع تقدير كبير من البخاريين . وحين أمر قتيبة البخاريين أن يتنازلوا عن نصف ديارهم لمهاجرى العرب أخرج الكشكوشان كلهم من ديارهم وأقاموا لهم دورا جديدة بظاهر المدينة حيث كانوا يسلكون بساتين جبيلة فيها الجواسق ، وقد بيعت هذه كلها بأسعار عالية حين نقوا من بعد ذلك من الاقليم كله .

ويستبين في يسر ما سلف ذكره أن الحكم الاسلامى حين ثبت أقدامه في مدائن بلاد النهر بعد الفتح الاسلامى ، لم يستطع هؤلاء

الكنسكوشان (أى المنجولون) أن يحتفظوا بكيانهم معه . فلم يكن للمسيحيين فى القرن الثالث الهجرى الا جالية واحدة مهبة كانت تظن مناطق سرقند الجبلية ، وكانت هذه تدعى زرد كرد (١) . وعاش هؤلاء آمنين زمنا طويلا فى شرق تركمنان على كل حال . ولئن صار لهم السلطان على سائيتهم من المسلمين أبام حكم المغول البوذيين الا أننا نجد أن المسيحيين صاروا قلة ضئيلة بأواسط آسيا أواخر القرن الثالث عشر الميلادى (٢) .

بعد هذه المحاولة التى بدلتها ، لازاحة ققاب الغبوض الكثيف الذى كان يحجب عنا شواهد الحاضنة القومية والاحتشائية ببلاد ما وراء النهر ابان العهد السابق للحكم الإسلامى بها ، ينبغى أن لا يعجب أحد حين برأنا من بعد ذلك عاجزين عن أن نورد شيئا عن الحياة السياسية فى تلك البلاد اذ ذلك . وبرغم أن الحروب والعلاقات السياسية التى قامت بين السامانيين والامبراطورية الرومانية الشرقية فى القرن السابع على المذبح العربى قد وصلت ما بين آسيا والغرب حدا ما ، الا أنه فى هذه الفترة نفسها لا يصل إلينا من أخبار تلك الأرض التى نفع وراء جيحون ما نستطيع أن نتخذ منه بداية لمادة تاريخية . فنحن نعلم حتما أنه ابان حكم بهرام الخامس الذى بدعوه البيزنطيون باسم « ورائس » اندفع خان الترك أو خادائهم فى حبس

(١) انظر مخطوط البلخى الجغرافى بدار الكتب الأهلية بمصر ص ١٤٥ .

(٢) ينكر المؤرخون المسلمون هذه المسألة . ولكننا نجد عند الكواويل بول مى كتابه *Travels of Marco Polo, London Vol. I p. 17* ما باني : « يذكر الأمير سعاد صاحب العسس بأرمينيا فى رساله له صدرت من سمرقند عام ١٢٤٦ . . او عام ١٢٤٧ . . انهى اليك اننا وجدنا كثيرا من المسيحيين منتشرين فى الشرق كله ولهم كنائس جميلة شامخة قدبهم حسنة العمارة . وقد خربها الترك جميعا . ونحن ميل المسيحيين بمن ندى حله النجى الحالى (أى خنكيز) استقبلهم بالاكرام ومعهم حربة العداة وأصدر أوامره بصنع الخافى أى أدى بهم سواء بالقول أو الفعل . وهكذا تلقى العرب الذين الحقوا المهانة بهم الصاع صاعين » . (المؤلف) .
شهد العالم المستشرق بارنولد فى كتابه عن تاريخ الحضارة الإسلاميه ص ٨٦ بنسماح المسلمين وأن المعتصم العباسى تشدد فى عتاب بعض من تعرضوا لمعابد المجوس بلاد الصغد (المترجم) .

قوامه مائة وخمسون ألف مقاتل الى بلاد ما وراء النهر وخراب خراسان، حتى تصدى له الملك الفارسي فهزمه وأنزل به خسائر شديدة وطرده الى ما وراء جيجون . ولا يقتل هذا الحادث في غموض تفصيلاته عن الحرب التي وقعت بين فيروز ، الذي يعرفه الاغريق باسم بيروسس (كسرى أبرويز) وأمير الترك الذي يطلق مؤرخو الفرس عليه ذلك الاسم الايراني الجميل « خوستنواز » أي طيب السجيا ، وهو اسم ينير الى صفات التتار النبيلة أكرم ما يشير الى شخص بعينه . وتذهب الرواية الى أن فيروز هذا كان قد فاضل ما أسداه هذا الأمير التركي له من جميل ، حين عاونه على إرفاء العرش ، بأن هاجم بلاد ما وراء النهر . ونزلت الهزيمة بفيروز ، لكن خوستنواز أكرمه وعفا عنه ، وطلب اليه افرار السلام بينهما .

ولم يهدأ للسك الساساني بال حتى عاد الى حرب عدوه من جديد بحسب حياته وأنشاع جيشه في معركة حاسمة . ولم نخبرنا المراجع الفارسية عما اذا كان خوستنواز هذا كان خائفا بالفعل على كل القبائل التركية في آسيا الوسطى أم كان مجرد أمير على بعض الأراضي فيما وراء جيجون . ولا نسمع عند النرسجي والطبري الا عن بعض أفراد من الطرخانيين كانوا يحكمون في بيكنند ورامتن ورازدنري وسسرفند وقرعانه عند قدم العرب . ولا نفصح هذه المصادر عما اذا كان هؤلاء مستغلين في بلادهم أو كانوا تابعين للحاقان . والأصل في لقب طرخان (١) معناه السحج أنه علم على أمثال هؤلاء الأمراء والرؤساء الكبار . وبدون أن ناربج المتح العربي ينبر الى قيام الاستقلال المتبادل هناك . ذلك أن طرخان سسرفند حين اشتبك في الحرب مع قتيبة اضطر الى الانسحاب حاد خلفاء من بني جلده في تركستان وفراغانة .

وغمي عن البان أنه لو كان هؤلاء النورانبون الأسداء قد تكتلوا دما في الدفاع عن بلادهم لاستطاعوا على الأقل أن يجعلوا نجاح حملة من

(١) وهو من ألقاب الشرف المركبة القديمة ، ويميز صاحبه بالاعلاء من الضرائب . وقد ورد في اقدم الوثائق التركية لقب طركو بمعنى « براءة الحماية أو براءة العظمة » وفي المغولية (Kowalewsky p. 1768 a) طرخالحو بمعنى « أن يمنح أى شخص امتيازاً » .

المحاربين العرب أمرا مشكوكا فيه برغم ما كان عليه هؤلاء من حمية دينية .

ومهما كان من أمر انقسامهم أو اتحادهم ، وأيا ما كان حالهم من الاستقلال أو التبعية ، فالثابت المؤكد أن الترك كانوا في القرنين السادس والسابع الميلاديين يسودون مواطن كثيرة ببلاد ما وراء النهر . ولقد كان تيار الهجرة التركية الجديد الهابط من سهوب الشمال كفيًا من ناحيته بأن يطغى حتى يدفع السكان الإيرانيين الأصليين هناك إلى دائرة نفوذ الترك لولا أن ظهر الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) في الوقت نفسه بدعوته في بطاح جنوب غربى آسيا ، تلك الدعوة التى أحدثت انقلابا جديدا ساد أكثر من نصف هذه القارة المترامية الأطراف .

الفصل الثاني غزوات العرب وانتشار الإسلام

٤٦ (٦٦٦) - ٩٦ (٧١٤)

لم يكد الإسلام يقيم عمد الأساس لصرحه الأشم في آسيا الغربية حتى اندفع كتائب المغامرين العرب المظفرة الى بلاد ما وراء النهر عبر الطرق التي سلكها الاسكندر المقدوني من قبل - ففي عام ٦٦٦/٤٦ سمر زياد بن أبي سفيان القائد المقدم ربيع بن الحارث من العراق الى خراسان. ولسبب ماشاع من الذعر على اثر سقوط آخر الملوك الساسانيين - نم لهذا القائد التغلب على كل عدو لقيه في ايران الشرقية . وما زال يمضي الى غايته حتى خفقت راياته المظفرة فوق بلخ . واذ كانت هذه المدينة على الدوام باب بلاد ما وراء النهر الجنوبي ، فلا عجب أن نرى هؤلاء العرب يستهويهم ما عرف عن بلاد الصغد من الثراء فيغزونها . والغالب أنهم اقتحموا هذه البلاد حتى شواطئ جيحون دون خطة مبيتة للغزو . وأدى ما حصلوه من كنوز هدم البلاد الوفيرة وما صادفوه بها من نجاح الى أن رأبنا معاوبة ، على اثر موت زياد عام ٦٧٠/٥٠ بعد ذلك بأربع سنوات ، يبعث بعبيد الله بن زياد هذا على رأس حملة جديدة الى بخارى .

وكان للغزو هذه المرة خطة مرسومة . ذلك أن عبيد الله بن زياد هاجم أول ما هاجم مدينة بيكند الغنية قسبة الحكومة ومركز التجارة . وتم له اخضاعها بعد نضال طويل ، ليسير من بعد ذلك الى بخارى ومعه غنائم عظيمة وفي ركابه أكثر من أربعة آلاف أسير . وقد وقع هذا كله أواخر عام ٦٧٢/٥٣ . هناك استنجدت الملكة خاتون ، التي سبق أن تحدثنا عنها ، بجيرانها الترك فدهموا العرب وهم في شغل بحصار المدينة وأعداد

مجانيتهم . ولكن عبيد الله بن زياد انبرى لهم وأخذ يدفعهم عنه فى شجاعة حتى ليقال كذلك انه أوقع الهزيمة بهؤلاء الكفار . ولكنه اضطر هذه المرة الى العودة الى مرو دون أن تخضع له بخارى (١) . وحمل المسلمون معهم عند رجوعهم الكنوز والأسلحة والسياب وأدوات الذهب والفضة . وكان من بين ذلك نعال للملكة مرصعة بالحجارة الكريمة قومت بعشرين ألف درهم ، وقد خلب منظرها لب أبناء الصحراء العربية أصحاب الفطرة حين اطلعوا عليها . وأنزل هؤلاء الغزاة الخراب بكل المناطق التى مروا بها فى تقهرهم حتى اقتلعوا الأشجار التى صادفتهم فى طريقهم .

ويروى المؤرخون العرب أن الملكة خاتون رأت أن تنفذ بلادها من الدمار الذى كان يتهدهدها فصالحت عبيد الله على جزية سنوية مقدارها ألف ألف درهم تعهدت له بدفعها . ولم يكدر ثلاث سنوات على ذلك حتى انطلق العرب بقيادة سعيد بن عشان يتعرضون للملكة خاتون من جديد . وعبثا حاولت هذه الملكة أن تدفع عنها بالهدايا قائد هؤلاء العرب محتجة بما بينها وبين عبيد الله من عهد . فقد رد القائد العربى هديتها اليها ولم يلق بالا الى ما كان بينها وبين سلفه من عهد ثم جد فى مهاجمة المدينة . وقت فى عضد الملكة طول النضال مع تمرد الرعية فطلبت الصلح من جديد . وحين سألها سعيد أن تبعث اليه برهائن ضامنا لتنفيذ ماصالحا عليه ، بعثت اليه بثمانين من أعيان بلادها ممن كانوا على رأس الخارجين عليها فتخلصت بذلك من أشد أعدائها خطرا عليها . وحين تم الصلح طلب القائد العربى المنكبر من الأميرة أن تقدم اليه بنفسها ، فطلعت عليه فى زينتها الملكية ، وكانت نادرة الجمال على ما يقال (٢) ، فشغف بها حب

(١) بقول الطبرى أن عبيد الله بلغ فى زحفه طشقند .

(٢) يتعرض أحد العرب أو المسلمين لهذه الملكة فيقول انها كانت أبام زوجها على علاقه غير شرعيه بأحد أنساعها ، ومنه رزقت يا ابنها طغشساد ، وحين مات زوجها حاول البعض أن يجلسوا فائد الجيش على العرش ، لكنها نجحت برغم ما قام من الفتن فى أن تضمن العرش لابنها غير الشرعى هذا .

ملك عليه زمام قلبه وجرى ذكره في الأغاني التي لا يزال أهل بخارى يرددونها حتى اليوم (١) .

وأخر القائد العربي الأمور في بخارى إلى حد ما ، ليتجه بجيوشه بعد ذلك إلى بلاد الصغد قاصداً مدينتي الصغد وسمرقند . ولم يكن على سمرقند إذ ذاك ملك مستقل ، وإنما كان يحكمها طرخان تركي هو طرخان الصغد وهو الذي هاجمه العرب وتغلبوا عليه آخر الأمر . وحين نزل سعيد بخارى ، وهو في طريقه إلى خراسان ، طلب إليه أهلها أن يعيد إليهم الرهائن التي كان قد أخذها معه ، فوعدهم أن يفعل ذلك عند الشاطئ المقابل من جيحون . وحين ذكره هناك بما وعدهم به ، استسلمهم حتى بلغ مرو . وما زال يستسلمهم من مرو إلى نيسابور إلى الكوفة حتى انتهى المطاف بأعنان بلاد ما وراء النهر هؤلاء إلى أن انتقلوا من شواطئ زرفشان البهجة إلى صحراء بلاد العرب المحرقة ليقوموا هناك من بعد ذلك على خدمة المنصرين العائدين . وفي المدينة « المنورة » جردهم سعيد من سيوفهم ومناطقهم المرسعة بالحجارة الكريسة وثيابهم وجواهرهم لينزل أبناء الأمراء السهم هؤلاء من بعد ذلك إلى مرتبة الرفيق . وأثار هذا الصنيع نائزتهم حتى أجبعوا أمرهم على أن يسوتوا كراما حتى لا يعيشوا عبثة ذل ومهانة . وأدت بهم شهوة الانتقام إلى أن باغنوا سعيداً في داره فقتلوه ثم أهلكوا أنفسهم . وكان ذلك في خلافة يزيد بن مروان .

ما كاد العرب يعودون إلى ديارهم وبطلقون يروون للناس ما ببلاد الصغد الواسعة الغنية من عجائب حتى كانت بخارى قد استناعت أن تخلع

(١) بحاني الرشدي حكاية عجبته عن أول لقاء بين خاتون وسعيد ، فمقول

« أراد سعيد أن يسير فزع أمره بخارى فأمر بمن يدعى عبد الله بن حزم أن يجلس في وسط خيمته يحوطها النيران . وكان عبد الله هذا عريض المنكبين سمداً حمراء العنبر والشعر ، مراد لهيب النار من هذا الاحمرار على سورد لم يألفها أهل بخارى حتى ورع الملكة بدورها من هول هذا المظهر وانطلقت هاربة فلم تحمل على العودة من حديد إلا بمسقة » .

عنها نيرهم مرة أخرى ، واضطر مسلم (١) بن زياد خلف سعيد في خراسان ، أن يسير بالجند الى جيحون من جديد . هنالك استنجدت الملكة مرة أخرى بجيرانها في الصغد . ويقال انها تلقت كذلك عوناً من ترك الشمال بلغ مائة وعشرين ألف رجل . ولم يفت هذا العدد الضخم على كل حال في عضد العرب ، الذين كانوا يؤمنون بحسن طالعهم ، فضربوا الحصار على بخارى دون الهجوم عليها حتى يققوا أولاً على عدد أعدائهم ويبيان مواقعهم فيها . وعهد مسلم بن زياد الى قائد من خاصته يدعى المهلب باستطلاع أحوال العدو . وحين اعتذر هذا القائد بأن هذه المهمة هي من شأن من هم دونه في المرتبة لم يقبل الأمير عذره هذا ، فاختر المهلب رجلاً من كل فرقة (٢) وانطلق بهم جميعاً سرا في الليل .

و حين أخبر مسلم باقي الجند في الصباح بما عهد به الى المهلب سرى التذمر بينهم وقالوا له لقد أتحت بصنيعك هذا للمهلب الفرصة ليختص نفسه دوننا بأثمن الغنائم ، وأنه لو كان قد أتيح لنا القتال لكنا السابقين الى ذلك بلا جدال . واستبَدَّ الجشع بفريق منهم حتى خرجوا بالفعل في طلب المهلب ولحقوا به . وقد نبههم الى أنهم بصنيعهم هذا قد أفسدوا عليه خطته اذ أنهم يسترعون بقدمهم هذا اتباع العدو مما يعرضهم جميعاً للفشل . وأحصى المهلب من صار معه من الجند فكانوا تسعمائة . وما ان هياهم للقتال حتى دوت طبول العدو الذي أفلح في أول هجوم له أن يقتل أربعمئة من جند المسلمين ولاذ بالفرار من بقى منهم من بعد ذلك في هلع زائد . وأحيط بالمهلب نفسه ومن بقى معه من أتباعه التليين . وصاح المهلب بصوته القوي مسنغيثاً وهو في غيرة اليأس ، فسمع في معسكر العرب ، على رواية الترشيخي ، وكان على مبعدة نصف فرسخ منه . وحين

(١) يذكره الطبري باسم أسلم ، والغالب أن ما ذكره الترشيخي الأصح ، وهو الذي نقلناه عنه .

(٢) تذكر النسخة الفارسية لفظ « علم » .

أسرع الى تعجده (١) على التوفريق من بنى قومه وعليهم عبد الله بن جودان وراهم ورفاقه مقبلين عليهم سرى الأمن في نفوسهم واشتد ساعدهم من جديد . وما غدا أن أقبل بقية جند العرب فقاتلوا الترك حتى هزموهم . وبلغت الغنائم من الكثرة حتى خص كل جندي ما يقوم بعشرة آلاف درهم . واضطرت الملكة خاتون بطبيعة الحال أن تعلن خضوعها للمنتصرين من جديد وتعقد الصلح معهم .

وآب العرب من بعد ذلك الى مرو لا لتركوا سكان بلاد ما وراء النهر المنكوبين وشأنهم ، وانما ليعدوا حملة جديدة بقيادة قائد أدى حذره وشجاعته وقوة جلده الى اطفاء آخر بصيص لحضارة ايران القديمة كان يرمض في هذه المنطقة التي ظهرت فيها هذه الحضارة أول ما ظهرت ، ويفرس من بعد ذلك تعاليم النبي العربي في وديان تيان شان المترامية الأطراف .

كان هذا القائد هو قتيبة بن مسلم الذي أمره الحجاج بفتح بلاد ما وراء النهر عام ٧٠٤/٨٦ . ولما كان قد عزم على أن يمضي في فتح هذا الاقليم ونشر الاسلام فيه ، لا أن يغير عليه ويتنهب ما فيه ، فقد كان عليه أولاً أن يسيطر سيطرة تامة على بلخ الجنوبية . هنالك جمع جنده في مرو فأخذ يذكرهم بأيات الله وأحاديث نبيه ثم نزل عن المنبر وامتنطى فرسه ، فلم يكذب يصل حدود بكتريا القديمة حتى أقبل عليه أهل بلخ مرحبين وساروا في ركابه الى مدينتهم . وفيها قرأ قتيبة الخطبة باسم أمير المؤمنين ثم قام بجولة عند جيحون ، وعاد الى مرو بطريق جهارجوى (٢) الحالية . ومن هذا الموضع بدأ قتيبة عام ٧٠٥/٨٧ وقائعه في بلاد ما وراء النهر ، وكان أول مكان غزاه هو بيكند .

(١) يقول النرشخي ان عبد الله بن زياد طلب غنائه في الوقت الذي انطلقت فيه صحبة المهلب فارهبت القوم . هنالك قال عبد الله بن جودان للأمير « عافاك الله ، انك تبدو وكأنك لا تدري من أهوال الحرب شئنا » وهو توبيخ مناسب صدر من ضابط الى قائده .
(٢) على رواية الطبري فان قتيبة ، وهو في طريق عودته الى مرو ، فتح كومسك ووارمش ، ولكنه تعرض من بعد ذلك لهجمات ترك الصفد وفرغانة الذين ائتلفوا عليه .

بلغ قتيبة حدود الصحراء فإذا به يفاجأ بقوة عظيمة تحيط به وتحاصره حتى مضت أشهر دون أن يدري أحد من أمره شيئاً . وها هو ذا الحجاج يقيم صلاة الجماعة يسأل الناس فيها ربهم أن يكتب السلامة لذلك المجاهد في سبيله والأخطار تهدده . على أن قتيبة لم يجر في خاطره أى تفكير في الهرب برغم ما كان فيه من حرج . ولم يفلح البخاريون بدورهم في حمله على الرجوع عنهم مع ما كانوا عليه من نفوق ساحى في العدد وما انطلقوا يذيعونه من الشائعات عن موت الحجاج فلم يجدهم ذلك كله سبلاً لتلقاء ما كان عليه قتيبة من شجاعة خارقة وإقدام (١) . واشترك الفريقان في قتال انتهى بهزيمة الترك ، ففر فريق منهم وقد ملئ رعباً ونسب سلسله ، في حين لاذ فريق آخر بمدينة بيكند الحصينة القوية . وحوصرت هذه المدينة لتوها فسقط بأيدي العرب بعد قتال عنيف . فقد تأخر العرب أول الأمر على حصارها خسين يوماً دون أن يصلوا إلى به نتيجة ، حتى أفلحوا آخر الأمر في فتح نغرة أسوارها . وهناك بذل قتيبة الوعد بالمكافأة السخية لأول جندي يفتح النغرة ، على أن تكون هذه لأولاده من بعده ان هو قتل . وكان لهذا أثره في نفوس الجند حتى نه للعرب الاستيلاء على الحصن .

على أن قتيبة لم يكذب بعد عن المدينة حتى جاءه الأخبار بخروج أهل بيكند وقتلهم ورفه بن نصر وكان قد تركه عليها . والواقع أن العرب هم الذين جروا هذه الكارثة على أنفسهم ، اذ يمال ان، ورفة كارقدهل الي داره فنيات جيالات لم يصبر أبوهن على ما لحقه من تدنيس شرف أسرة فقتل المعتصب . وأيا ما كان الأمر فقد أثار ذلك الصنيع ثأره قتيبة ، وهم ممن لا يعرف لغضبهم حدود حين يغضبون ، فأسرع بالعودة الى المدين وأمر بنهبها وإحراقها وبقتل كل من بها من البالغين وسبي النساء والأطفال فلم يسح حتى لذلك الزعيم التركي الأعور بها أن يفقدى حياته .

(١) كان لقتيبة عين فارسي المولد يدعى نندر ، وكان يجسس بدور عليه لحساب البيكديين . ولما وقف قتيبة على حقيقة أمره ، حين أبى ال بأخبار كادبه ، أمر به فقتل لوقته .

وتحبرنا الرواية أن أهل بيكنند كان أكثرهم ، وهو الواقع ، من التجار الذين كانوا يمارسون التجارة مع الصين وبلاد أخرى من بلدان العالم . ولم يكن هؤلاء بالمدينة إبان الحرب ، فحين آبوا إليها افتدوا أولادهم وزوجاتهم . وأخذت هذه المدينة تتجدد من بعد ذلك شيئا فشيئا ، فكانت بيكنند هي المكان الوحيد الذي عاد الى سيرته الأولى بعد الخراب الذي أنزله الغزو العربي بالاقليم كله . وكان سقوط هذه المدينة ذا أهمية بالغة بالنسبة للعرب ، إذ هي بمثابة الباب الجنوبي الغربي لبلاد ما وراء النهر ، فضلا عن أنها كانت أروج مواضع هذا الاقليم بعد الصفد ورامتن . وما وقع من غنائمها بأيدي الغزاة كان عظيما . وكان من بين هذه الغنائم معبد للأوثان به تسائل عديدة من الذهب الخالص والفضة تزن أربعين ألف درهم . وكان لأحد هذه الأوثان عينان من الجواهر في حجم بيضة الحمام (١) وقد بعث قتيبة الى الحجاج بياطين الجوهريتين مع قدر كبير من الغنائم فكتب اليه مثنيا عليه .

ولنا أن تصور مبلغ ما كان عليه بدو الصحراء البسطاء من لهفة الاستحواذ على كنوز المغلوبين المكسدة . وكانت الأسلحة أعظم ما استهواهم منها ، فأجودها ما كان يصنع في تلك البقعة من آسيا . وبرغم استيلائهم على ما كان بمخزن أسلحة بيكنند الكبير منها واقتسامهم لها فيما بينهم ، فقد اشتد طلبهم عليها حتى كان الرمح يباع بسبعين درهما والدرع بمائتين والترس بما يزيد على ذلك . ولئن كان العرب في غير حاجة الى محاربين جدد ، إذ كانت قبائل بني تميم وبكر وعيد القيس التي اضطلعت بأكبر قسط في فتح بلاد ما وراء النهر تبلغ وحدها مجتمعة واحد وأربعين ألف رجل (٢) الا أن ذلك لا يعنى أنهم كانوا أصحاب تفوق في العدد . (١) كان أهل بيكنند يقولون ان هاتين الجوهريتين قد اتى بهما اليهم

طائران من بلاد نائية .

(٢) على رواية الطبري ، كانت قوات العرب بخراسان على عهد قتيبة كالأنى : بنو علي وقوامهم تسعة آلاف رجل ، وبكر وأميرها هاشم بن المنذر وقوامها سبعة آلاف ، وبنو تميم وقوامها عشرة آلاف ، وعبد القيس وأميرها عبد الله بن جودان ومعه أربعة آلاف ، ومعهم سبعة آلاف من الكوفيين وبطن آخر من عبد القيس ومعه أربعة آلاف ، فجميعهم بذلك واحد وأربعون ألفا .

ولعل هذه الحقيقة هي التي جعلت قتيبة يتقدم ببطء في فتوحه برغم ما صار له من السيطرة التامة على سهوب تركستان الجنوبية ، حتى لنراه لا يعمد الى مهاجمة بخارى رأسا ، اذ كان قد رسم سياسته على أن يعزل هذه المدينة عن حلفائها من الترك فتعجز بذلك عن الدفاع عن نفسها . وعلى هذا فقد بدأ باخضاع الامارات الصغيرة المستقلة، وردان (وردانزي الحالية) ورامتن والصغد ، ليضمن من بعد ذلك نجاحه في حملته على بخارى حين يهاجمها . وكانت هذه الخطة مما رسم الحجاج له . وتم له عام ٦٩٨/٨٩ اخضاع كش (شهرسبز) وقخشب (قارشى) (١) . وتقدم من بعد ذلك بسنوات عشر يهاجم وردان ليواجه عند ذلك ، وهو ينفذ خطته هذه ، أحداثا لم تكن في حسبانها بادره الأمراء الترك بها . فقد أجمعوا أمرهم فيما بينهم وخرجوا وحلفاؤهم ليعترضوا طريقه . وهكذا انطلق أمراء بلاد ما وراء النهر والصغد جميعا ليشدوا من أزر بخارى هذه المرة . وانضم اليهم كذلك صاحب فرغانة ومن يدعى قورمغان (٢) قادما من الشرق الأقصى ، وهو الذى تقول عنه المراجع انه كان ابن أخى امبراطور الصين . وبهذا يبدو أن زعماء الترك قد أدركوا مدى ما يتهددهم من أخطار فعدوا العزم على أن يدفعوا الغزاة العرب عنهم مؤتلفين .

ويصف الطبرى مبلغ ما ركب قتيبة من الغم فى حصار وردان ، فيقول : ان العرب حين أحيط بهم من كل جانب وأيقنوا بهلاكهم أخذ نساؤهم يولولن فى فزع شديد ويشقن جيوبهن . وحال بين العرب وبين الهزيمة آخر الأمر أن ذهب قتيبة يشد من أزر الجند ويحرضهم على القتال ويستنهض همم رجال القبائل « للقضاء على هؤلاء الترك » . وكان يخص

(١) يذكره الطبرى باسم قوريجانوف ، وكلا الاسمين محرف فى الغالب . وعلى ضوء العلاقات التى قامت مع امبراطور الصين على ما يظن ، فيبدو ان المقصود بذلك شخص من المفلو أو الأويغور . ولا يكون له هذا الاسم القريب فى الغالب .

(٢) يذكر النرشخى هذا المكان باسم وردان ووردون ، اما الطبرى فيقول عنه وردانجواد . ويعرف اليوم باسم وردانزي .

بنتسجيعة قبيلة تسيم بصفة خاصة . وقد ندب شيخها وبيع بن تبي الاسود قائدا من فواده يدعى خزيمة فكان أول من ألقى بنفسه على العدو (١) . ولئن كان لدينا أكثر من سبب للشكك فيما زعاه الطبرى من نصر حاسم ، فالمؤكد على كل حال أنهم نجحوا في تحطيم حلقة الحصار التي كان الترك قد ضربوها من حولهم . وأيا ما كان الحال فانهم لم يستطيعوا أن يخلصوا مسا كانوا قد وقعوا فيه الا بطرائق دبلوماسية . فحين وضع لفنية عجزه عن خوض غمار الحرب من جديد عسل على قصم عرى الائتلاف القائم بين أعدائه . وبلغ غايته بعد أمد قصير لما هو ثابت معروف عن الترك اذ براهم لا يصبرون مؤتلفين أمدًا طويلا .

وكان أمير الصغد (٢) قد خرج الى الحرب فى حشد كبير من انجند . لم يبلغه غيره من خلفائه ، فكان حمله على التخلي عن أصحابه هو بطبيعته الحال من الأهلية بسكان . وعهد قبيصة بهذه المهمة الى نبطى من حاصنه بدعى حيان اسطاع فى احدى الماوشات أن يبعث سرا الى هذا الأمير التركي برسالة حذره فيها بأن حلفاءه انما يتتوون اعتصاب أملاكه عند رحيل العرب عن هذه البلاد . فكان مما قال له فيها ان العرب لا يحسبون الافامة فى هذه البلاد الا صبفا ، وانهم عند حلول الشتاء لابد متراجعون عنها ، ولا يغيب عن باله ان أصحابه وهم القادمون من السال سوف لا يتركون بلاد الصغد البديعة هذه عن صب خاطر ، فأولى به والحالة هذه أن يصلح العرب ، ويعتذر لأصحابه من ذلك يخوفه من الامدادات التي سبرها الحجاج لنجدة العرب بطريق كنس ونخشب ، وأن له آت يقول لهم ذلك لمجرد الاعتذار وهو آمن من ناحية العرب . وسواء كان هذا الصغد على بساطة أم كان الأمر أبعد غورا من ذلك ، فقد وقع فيما

(١) يظهر من مقال الطبرى ان العرب البدو كان لهم فى كل قبيلة رئيسان أحدهما هو شيخ القبيلة أو رئيسها ، والثانى هو أميرها فى الحرب . وكان وكيع هو شيخ تميم .

(٢) بذكر الترسخى والطبرى (طرخون) على انه اسم علم - وطرخون أو طرخان هو من الغاب السرف عند التورانيين - انظر فى ذلك هامس ١ ص ٥١ .

دير له على كل حال وصالح العرب سرا على ألفى ألف درهم يدفعها لهم كل سنة . وما ان كف عن القتال حتى اضطر الباقون من بنى قومه الى الانسحاب بدورهم . وبهذا نجا قتيبة من ذلك الخطر الذى ظل يتهدهه أشهراً أربعة .

ولك أن تدرك هنا أن ترخان سمرقند قد خدع بدوره كذلك فى تفاوضه مع أعدائه . فهاهو ذا قتيبة ، برغم تصالحه معه ، يتذرع بضرورة الاسراع فى بناء المسجد الذى نص عليه فى العهد ، وبدلاً من أن يبعث اليه بالبنايين فى ذلك سير اليه أربعة آلاف من جند العرب بأسلحتهم فنزلوا المدينة . وحين أراد الترخان أن يرد على هذه الخيانة سقطوا عليه وعلى أتباعه وقتلوهم جميعاً . وفى رواية أخرى ، أن رجاله ناروا عليه لقبوله دفع الجزية للعرب فقاموا عليه وخلعوه ، وحين تبدى له مدى ما جره على نفسه من العار بذلك قتل بنفسه بسيفه . وتعرضت سمرقند من بعد ذلك للنهب . وكان من السبايا ابنة ليزدجرد ، آخر ملوك الساسانيين ، سيرت الى الوليد . ويقال ان ما كان بهذه المدينة من أوثان وغيرها من الأشياء المصنوعة من الذهب قد بلغ وزنه أكثر من خمسين ألف مثقال .

وآن الأوان لجند العرب من بعد ذلك أن يأخذوا نصيبهم من الراحة التى كانوا جديرين بها ، فرجع بهم قتيبة الى مرو ففقدوا الشاء بها . وبهذه المدينة تزود قتيبة بسدد قوى تقدم به فى الربيع التالى اغزو بخارى ، وقد عهد العزم على أن يفوم بعمل حسم على به ذكره وذكر أسلافه . وكان الملكة خاتون ، على رواية الترشيح ، ما نزال نمارس الحكم فى هذه المدينة الملكية على ضفاف زرفشان ، وهو أمر لا نستطيع أن نقطع به اذ تكون بذلك قد تقدمت فى السن الى درجة غير مقبولة ، وعلى أى فان القابض على زمام الحكم هناك ، كائنا من كان ، قد تبين له عدم جدوى المقاومة . ولقد غزا المسلمون بخارى ثلاث مرات من قبل ونشروا دينهم بها ، ولكن أهلها كانوا يرتدون الى عقيدتهم القديمة غضب رحيل الغزاة عنهم فى كل مرة . وها هى تفتح أبوابها للمرة الرابعة لاستقبال الفاتحين

ومعهم تعاليم نبهم ، تلك التعاليم التي قوبل أول الأمر بمعارضة شديدة ثم أقبل القوم من بعد ذلك عليها في غير شديدة ، حتى لتري الاسلام الذى أخذ شأنه اليوم يضعف فى جهات آسيا الأخرى ، وقد غدا فى بخارى اليوم عام ١٨٧٣ على الصورة التي كان عليها أيام الخلفاء الراشدين .

ولئذ اتخذ نضال فتية مع اتباع بوذا وزرادشت المتعصبين صورا متعددة واستغرق زمنا طويلا . ولم تكن التغييرات السياسية التي اضطلم بها العرب هناك مثار مناعب كثيرة لهم فى الغالب . فقد تركوا حكم المدينه بأبدى الخدات (الأمير) حاكمها الأول على أن بترك معه فى الحكم عامل من قبل الخليفة يأتى فى المنزلة من بعده . ولم يلبث عامل الخليفة هذا أن رفى الى مربه الامارة فبما بعد وصار صاحب السلطان الفعلى وأهمل أمر الخدات التركى

و كان على الخدات كذاك أن يدفع حزية سنوية قدرها مائتا ألف درهم الى الخانة وعشرة آلاف لأمر خراسان ونصف صافى دخل الحصانات العامة الى العرب المقيمين بالمدينه . وكان هذا كله هو عسوما أخف وطأة . و قد رخص بعض الفانحين المسامين على بخارى الاسلامية فيما بعد . ولا شك أن البخاريين الأباة كانوا قد أدركوا فى الوقت نفسه أنهم لا طافة لهم بالطرق التي كانت تستخدم لحبلهم على اعتناق الاسلام .

وحين أدرك الفاتحون أن كثيرين ، من دفع به خوف الفتح الى اعتناق الاسلام ، يارسون طقوسهم الدينية القديمة بحماس أكثر من ذى قبل فى سكون الليل أو فى نكتم بالغ (١) أمروا بأن يساكن كل واحد من أهل بخارى فى داره أحد العرب . وبهذا صار الشريك الجديد عينا على الأسرة التي يساكنها ، يراقب سلوك هؤلاء الذين دخلوا فى الاسلام وبقههم فى أمور دينهم وينبىء ولى الأمر عن يرتد منهم عن الدين .

- ١- فى بيت نار تحت سطح الأرض يعرف ببيت نار مفان ، أى بيت نار المجوس .
- ولا يزال هناك حتى اليوم مسجد يعرف باسم مسجد المفان أى مسجد المجوس .

ورصدت كذلك جوائز مالية لمن يظهر تمسكه بدينه من الأهلين ، فكان كل من يصلى الجمعة منهم بمسجد قتيبة الذى بنى عام ٧٤٢/٩٤ يصيبه درهمان . وفى هذا المسجد الجامع وفى غيره من دور الصلاة ، التى كانت قد أقيمت فى ربغستان ، كان المصلون يقيمون صلاة الجماعة يؤمهم الأئمة . وكان القرآن يقرأ بالفارسية (١) لا بالعربية تيسيرا على الناس ، وهو أمر لو جرى اليوم لاستبد الفزع بالمسلمين الذين يعتقدون --- على رأى شائع بينهم --- أن ترجمة هذا السفر العظيم هى جرم عظيم . على أن نضال أنباع زرادشت بازاء نعاليم الاسلام التى دخن عليهم كان فى الغالب عنيفا مستميتا .

ومن بين ما وصلنا من القليل من أخبار تلك الفترة أن المسلمين لبسوا سنين طويلة لايجرؤون على الظهور بغير أسلحتهم سواء فى المسجد أو الأماكن العامة . ولم ينسح حظر حمل السلاح على الأهلين ، حتى بدخلوا فى الاسلام ، من تكرار وقوع الصدام العنيف بين الفريقين مدة طويلة وقد عرف أعيان بخارى بنفائهم الشديدة للعقيدة الجديدة . وحين دعوا الى المسجد ردوا على هذه الدعوة بسيل منهر من الحجارة أثار من ثائرة العرب حتى سقطوا عليهم ونهبوا قصورهم وأعلوا فيها التحارب والدمار . واستخدمت انتقاض هذه الأبنية فيما بعد فى بناء المساجد حتى كانت أبواب كبر منها نحيل -- على رواية النرشخى -- بصاوير ونفوش، وثنية . والعجيب أن هذه الأبواب قد لبثت على حالها هذا قرابة قرون، ثلاثة مسا لا يلبق بالمسلمين من أهل السنة (٢) . وحين رأى الموم أنهم لم

(١) لا نجد حتى اليوم (١٨٧٣) إلا مسموحا طمع على الحجر فى بومباى وبمخال سطوريه بترجمة فارسيه له . ولا نجد من نقل عنه إلا بسطاء الأركسمانيين اذ لا يقبلون المسلمون العرب .

(٢) يذكر هذا الحديث نفسه عند بعض من أرخوا للمسلمين فى الهند وغيرهما . والواقع أن المسلمين لم يعمدوا فى القام إلى تحارب معساة . غيرهم راسمخدام موادها فى اقامه مساجدعم . وكل ما فى المسائله أنهم اسمخدامها وبنوهم من بقايا المسماة هناك فى اقامه مسماهم . وعمدوا الى نعضه ما قد يوجد بها من علامات الويسه بطبقة من الحص سقطت بعمل الزمن (المترجم) .

يحققوا أهدافهم برغم ما عبدوا اليه من هذا الأجراء الشديد ، انزعوا بخارى من أيدي أهلها وقسموها بين العرب . فصار للبصريين ذلك الجزء الذى كان يبتد من بوابة العطارين حتى الحصن . وصار لليمنيين قسم آخر ، فى حين اسحوذ آخرون على قسم من ضواحيها وفيه الكنيسة المسيحية التى اتخذوا منها مسجدا لهم . وعملت سمرقند نفسها على هذا المنوال . وألزم كل واحد من أهلها أن يسلم ما بيده من سلاح . وكان كل غريب بها — كما يقول الطبرى — توسم يداه بخاتم لمدة مفروضة . ومن كان يخرج من بئته فى الليل يقتل .

لم يصبر قتيبة حتى نستقر الأمور فى بخارى فانتقل صوب الشرق منهم ما بداه من الفئوح . فعزا فرغانة عام ٩٥ هـ (٧١١ م) وهى خانية خوفد الحالية ، ابنجه من بعد ذلك الى مسر تترك فى تركستان الشرقية التى نعرفها باسم التتار الصينية . هنالك هاجم أمراء الأويغور ، وقد يسر له تفرق كلنهم التغلب عليهم جميعا ألواحد بعد الآخر برغم استنجاد كسر منهم بالقلسون الذين كانوا ينزلون فى جنغاريا الشمالية . ويقال ان العرب قد باعوا فى عزوهم هذا ولاية فاندو . وبرغم أن تعاليم النبى العربى لم تستطع أن ترسخ أقدامها فى كاشغروختن وترفان الا بعد مضي زمن طويل ، اذ لبس البوذية والمسيحية ولها أتباع عديدون بهذه المناطق اعدة قرون من بعد ذلك ، فهناك حقبة مشهورة ، هى موضع فخر عدد أهالى تركستان ، مفادها أن ترفاق قد سارع أهلها الى الدخول فى الاسلام أول ظهور العرب عليهم . على أن ذلك لا ينفى وجود أشد البوذس نسسكا بعقدنهم فى ودان نبان شان .

من هذا الموضع ، الذى غدا آخر حدود الاسلام الشرقية ، آب فنبية الى مرو بطريق فرغانه . دعاه الى ذلك موت الخليفة الوليد . وختى فنبية مغبة غضب الخليفة الجديد سلسان بن عبد الملك عليه ، وكان بعلمه

(١) در عطاران هى العبارة التى وردت فى الاتصال . والظاهر أنها كانت عند الجنوب الغربى الى جوار بوابة فرانول حيث بقوم السوم هناك حتى العطارين .

مدى كراهيته له فبادر بإعلان خروجه عليه. ويبدو أن قتيبة إنما دفعه أباه إلى سلوك هذا المسلك حين كشف عن محاولة الخليفة الجديد استمالة فريق من جنده إليه يعد أن فشل في التغرير بأمير خراسان القوي نفسه . وكان قتيبة حتى في ثورته هذه بصيرا يتدبر العواقب . وحمل رسوله كتابين آخرين إلى جانب كتاب التهديد الذي بعث به إلى الخليفة . أما الأول فكان يعرض فيه ولاءه وأما الثاني فكان يسخر فيه من يزيد بن المهلب ، وكان قتيبة يخاف منافسته له بوجه خاص . وفي الكتاب الثالث أعلن قتيبة أنه لن يتردد في الجهر بالخروج على الخليفة إذا ما بعث بيزيد مكانه . ولما كان قتيبة قد توقع بحق ، تقرب الخليفة ليزيد وملازمته له ، ففد أوصى رسوله بأن يتقدم إلى سليمان بالكتاب الأول حتى إذا ما رآه يدفعه إلى يزيد فليقدم إليه الكتاب الثاني كذلك فإذا ما جعل يزيد يقرؤه فليدفع إليه بالثالث (١) .

ووجد الرسول يزيد بالفعل عند الخليفة ، فسار على ما رسمه له أميره . ولم يبد سليمان للرسول شيئا وأذن له في الرحيل بسلام . ولم سلك الرسول يعود إلى بلده حتى كان قتيبة قد فرض في نفسه أن الأمور قد انتهت بالفعل على الوجه الذي ظنه ، أول الأمر ، أو لعله كان قد أخبر بذلك قبل عودة رسوله ، فرفع راية العصيان . على أن أمه خاب إلى درجة كبيرة في ذلك الجند الذي سار بهم فاحرز أعظم الانتصارات الباهرة الكثيرة واستحوذ على الأموال الطائلة . ولو كان قد استمع إلى نصيحة أخيه عبد الرحمن حين نصحه بالمسير إلى بلاد ما وراء النهر وإقامة ملك مستقل له بها لكان قد أفاد من روح التمرد والثورة وحب المغامرة التي كانت تغلب على أهل تلك البقاع . ولكنه أصر على البقاء في مرو

Weil, Geschichte der Chaliphen vol 1 P.5 565
Mannheim 1856

(١) انظر
(المؤلف) .

كتب قتيبة إلى سليمان كتابا يهنئه بالخلافة ويذكره ببلائه وطاعته لعبد الملك والوليد وأنه على ذلك أن لم يعزله ، وكتب كتابا آخر يعلمه بفتوحه وهيبته عند ملوك العجم وينم أهل المهلب ويهدده بالخلع إن هو استعمل يزيد ، وكتب كتابا ثالثا فيه خلعه - ابن الأثير ج ٥ طبع ليدن (المترجم) .

معتبدا على ولاء جنده له . وفى مرو وفق قتيبه يحدث الى قومه
ويبصرهم بحسن ادارته لحكومة خراسان وما ينتظرهم من بؤس وشقاء
اذا ما صار الأمر الى خلفه العاجز الفاجر . وعشا أخذ بذكرهم بأنه قد
ضسهم الى جيشه فقراء معوزين فأغناهم بكنوز أمراء الترك والفرس . بل
لقد ألهمت كلماته هذه من حماس أولئك الذين تأمروا عليه وعلى رأسهم
وكيع بن الأسود وحسن بن اياس . وحين بان له غدرهم فحاول أن يتمكن
من ابن اياس ، سقط عليه المتآمرون وقتلوه بعد نضال مرير سقط فيه
أغلب اخوته وكانوا على رأس عدد قليل من الموالين له الذين أسرعوا
بدافعون عن داره (١) . وهكذا قضى فى شهر ذى الحجة من عام ٩٦ هـ
(٧١٤ م) وهو فى الرابعة والسبعين من عمره المليء بالحياة ، ذلك الرجل
الذى أقام للإسلام دوله قوية عظيمة فى الشرق وأجهز على دين زرادشت ،
ذلك الدين الذى أنخته الجراح فى القادسية والنهروان ، وغرس مكانه
تعاليم الاسلام فى أرض كانت على الدوام أخصب القاع حمية وتحسنا
لهذه العقدة الجديدة .

(١) يروى انطبرى تفاصيل نهاية فتية المؤلة فى اسلوب مؤثر جداب
وينول : ان جنده الذين ساركهم الصعاب وركب معهم الأخطار هجروه .
وكذلك بنو قومه الذين أغناهم ، بل وأقاربه الذين نفروا بطبيعة الحال من
فكرة الخروج على الخليفة ، فلم يبق الى جانبه حتى آخر ساعات حياته الا
نفر قليل ، فأحيط بداره من كل جانب واشتعلت النيران فى مرابط دوابه
حتى لم يجد فرسا يركبه فقاتل أعداءه وهو على قدميه . وفطن للهشم بن
المتخل وكان ممن يعين عليه فأنشده هذا البيت :

أعلمه الرمبة كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى

وأصابه اول الأمر سهم من رجل يدعى جهم تم اجهز عليه من بعد ذلك

آخر سيفه . (المترجم)

الفصل الثالث الفتن السياسية والدينية إبان الحكم العربي

٩٦ (٧١٤) - ٢٦١ (٨٧٤)

كانت بخارى وتركستان كلها تعد ضوايا مدة الفتح العربي مجرد أقسام من ولاية خراسان . فكانت الحاضرة المشتمخة على ررفشان ويكند الغنية وفرعانة بلد الصاعقة ، هذه جميعا كانت تخضع لما يصدر إليها من مروتاهجهان « مرو ملكة الدنيا » . وكان على بخارى أمير وعلى سمرقند أمير . ولكن هذين الأميرين كانا على سلطان محدود يخضعان في كل أمورهما لحكومة خراسان . فتاريخ بلاد ما وراء النهر ، منذ ذلك الوقت ، هو تاريخ حكومة الأمراء العرب الذين كان يندبهم الخلفاء في دمشق في تعداد احكم تلك الولاية الشرقية التي تقوم عند حدود دواتهم (١)

وام تسترد هذه الولاية استقلالها السياسي حتى أقام السامانيون عرشهم على الجانب الآخر من جيحون فلم يكونوا يملكون بولانهم للحلفاء الا مجرد اعتبارات دنية . وكانت فترة الحكم العربي التي امتدت قرنا ونصف القرن سلسلة متصلة من الفتن ، والمنازعات الداخلية والاضطرابات بسبب سلوك أمير خراسان نفسه أو بما كان يثيره منها سكان تلك الولاية الذين لم يركنوا الى الهدوء أبدا . وقد تسكن حكام خراسان في وقت ليس بالطويل من أن يجبعوا لأنفسهم بروات طائلة يدفعهم الى ذلك الجمع السديد ملهم الى التراء الشخصي من ناحية ، وحرصهم على

(١) من السواد على ما أصابته الحكام العرب من الخط الواسع بخراسان ، ما تذكره الطبري بأنه في سنة رابع بن الليث نهب المنردون أمير سمرقند ، فوجدوا فيها ما يفرب من ثلاثة آلاف ألف درهم .

تدعيم مراكزهم فى بلاط الخليفة بالبذل من ناحية أخرى . هذا كما ان بعد تلك الولاية بعدا شاسعا عن مركز الخلافة قد أغرى حكامها بالاستقلال بما بأيديهم من ملك . وقد وجد هؤلاء الحكام فى أهل هذه البلاد المحاربين بطبعهم استعدادا لمناصرة كل ثائر بدورهم . وفى هذا تعليل ظاهر للمتاعب التى تعرض لها الخلفاء فى خراسان من أول الأمر ، وسبب المصاعب الشديدة التى واجهتهم فى اقرار الأمور فيها لفترات طويلة .

ولقد اختار الخليفة سليمان ، يزيد بن المهلب عام ٧١٥/٩٧ مكان قتيبة الذى جنى عليه فى الغالب ما أصاب من توفيق باهر ، كما رأينا من قبل ، فأورده مورد التلف . واتجه عامل الخليفة الجديد أول ما اتجه الى التخلص بطبيعة الحال من عمال قتيبة ، فأبعدهم عن مناصبهم أول الأمر ثم صادر أملاكهم من بعد ذلك وألقى بهم فى الحبس . ولم يجرؤ أحد طوال مدة حكم سليمان على التعرض لما كان يرتكبه يزيد من مظالم . حتى اذا ما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز راح يكيل لابن المهلب بما كاله به سليمان لقتيبة من قبل ، اذ كان قد أثار شكوكه بما صار له من النفوذ والثراء البالغ فى مدى عامين . وحسين تأكد له اعتزام عامله هذا على الخروج عليه ، رأى أن يسبقه فى خططه ويفسدها عليه ، فعهد بخلع يزيد الى قائده مسلمة وكان يقود الجند فى حرب الروم اذ ذاك . وكتب الخليفة فى الوقت نفسه الى يزيد يستدعيه (١) ، فلبى الدعوة ، حتى اذا ما بلغ

(١) كان كتاب الاستدعاء على هذا النص الآنى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى يزيد بن المهلب » اعلم يا يزيد أن سليمان كان عبدا من عبيد الله أنعم الله عليه ثم قبضه واستخلفنى ويزيد بن عبد الملك من بعدى ان كان ، وان الذى ولانى الله من ذلك وقدر لى ليس على بهيسن ، ولو كانت رغبى فى انخاذ أزواج واعتقاد أموال كان فى الذى أعطانى من ذلك ما قد بلغ بى أفضل ما بلغ بأحد من خلقه ، وانا أخاف فيما ابتليت به حسابا شديدا ومسئلة غليظه الا ما عافى الله ورحم ، وقد بايع من قبلنا فبايع من قبلك واستخلف على خراسان وأقبل » .

الطبرى حوادث سنة ١٠١ هـ . وأنبه هنا الى أنى أثبت فى مثل هذه المواضع النصوص على ما وردت فى أصولها العربية بمصادرها الاولى .
(المترجم)

البصرة ألقى القبض عليه وزج به فى السجن ، فلم يطلق سراحه حتى مات
 عمر عام ٧١٩/١٠١ . وظال الصراع بين يزيد ومسلمة فى عهد الخليفة
 يزيد بن عبد الملك حتى غلب ابن المهلب على أمره وقتل . وقد اتخذ مسلمة
 مكانه فعهد بحكم بخارى وسمرقند الى سعيد بن عمرو الخراسي .

واذ كانت فرغانة قد انضمت عنها حكم العرب اذ ان هذه الاضطرابات
 الأخيرة ، فقد سير سعيد الجند لحرب أميرها ، وكان يدعى خاجج (١) وظلب
 الحرب بينهما سجالاتا بعض الوقت حتى قفصوا عليه آخر الأمر ، ثم عادوا
 الى بخارى بغنائم وفيرة . كذلك ركن الترك الى الثورة من جديد ببلادما
 وراء الديار ، وهم الذين لم يعرفوا الى الهدوء سبيلا ، ولعلنا نرى هذا
 المثال دسح سنين فى عهد الخليفة هشام ٧٢٤/١٠٦ استولوا فيها على
 سمرقند ، الأمر الذى أدى الى تسيير جيش عربى كبير اليهم ، وقد سير
 اليهم خالد بن عبد الله أمير خراسان اذ ذاك أخاه أسدا وكان مسالما أكثر
 منه . الحرب فجهيد ، دون جدوى ، فى اقرار الأمور هناك ثلاث سنين
 اضطرب من بعدها الى الزايج بخسائر كبيرة . واضطرب هشام لهزائمه
 الى نزاع بأخيه فعزاه وندب مكانه أسرش (٢) بن عبد الله فلم يكن حفله
 أحسن من حفل سلفه .

هجم ترك سمرقند بناصرهم خواقين فرغانة وتركستان الشرقية قوة
 يزيد على مائة ألف رجل فاضطر جندب أمير خراسان الجديد أن يخرج
 اليهم بنفسه . وندب على مقدمة جيشه مسور بن أبى بكر الدارمي فسار
 فى عشرة آلاف رجل الى سمرقند عن طريق بيكند ، فى حين سلك جندب
 نفسه طريق بلخ . ولم يجرؤ خاقان سمرقند على التعرض لقوات العرب

(١) هنا نرى الكتاب العرب يطلقون اسم القبيلة كذلك على ذلك الأمير
 — انظر هامشنا على هذا فى الفصل الاول .

(٢) يروى الطبرى أن أسرش خسر أول الأمر ألفا من رجاله وكانوا
 من بنى سميم التى كانت تنزل ببخارى . وقيل انه هزم الترك من بعد ذلك
 ثم رجع الى بخارى ، وهو تعارض لا يفسر الا بأنه فشل فى مهمته .

الرئيسية وكان يلتف حول رأيه مائة وعشرون ألفا على رواية الطبري ، ولكنه انقض في عنف بالغ على مسور وكان قد اغترض طريقه ، فانزل به هزيمة قاصمة سقط فيها القائد العربي نفسه وكل من كان معه من الجند فلم يفلت منهم أحد . وبكى جندب بكاء مريرا حين بلغه نبأ هذه الكارثة وظل يردد قوله تعالى « انا لله وانا اليه راجعون » . ولم يفته أن يجتمع جيوعا من المدن الكبيرة في خراسان وطخارستان حتى اذا ما تم له جمع جيش بلغ أربعة وثلاثين ألف جندي ، انطلق يهاجم الترك من جديد فزيمهم هزيمة حاسمة (١) . وقد ترك عندئذ نصر بن سيار عاملا له على سمرقند ثم آت مظفرا الى مرو حيث مات بعد قليل . وخلفه أسد بن عبد الله على خراسان . وكان على أسد هذا أن يزيج من طريقه غربه الخوارزمي بن سريح ولكن الأجل وافاه بليخ وهو في طريقه اليه .

ولئن كانت قوة الترك قد تضعف الى حد ما عقب تلك المعركة التي هزمهم فيها العرب ، الا أن ذلك لم يمنع من وقوع بعض الاضطرابات في بلاد ما وراء النهر حتى عهد بحكومة خراسان الى نصر بن سيار وكان شديد المراس قوى السكينة . وهذا الرجل الذي نيز بعلم الهبة والحد ، كان كما رأينا من قبل عاملا على سمرقند حتى اختاره بحكومة خراسان هساف قبل وفاته عام ١٢٥/٧٤٣ بزم قصير (٢) . ولا أدل على كفايته من أنه

(١) كان الخافان اذ ذاك منهمكا في مهجة سمرقند . وكنت روحا المسلمين وطعنوا فيهم فاجتمعوا فيها . وبهذا يكون جندب قد جاء في الوقت المناسب . وقد عم من وراء هزمته للترك فنانهم وفرة .

(٢) يروي النرسجي ان نصر بن سيار نزل بخارى وعمر في طريقه انزل خوارزم ونى هناك بابنة طمساد . وحدث وهو جالس امام نسمه في شهر رمضان ومعه طمساد ان وفد عليه رجلا من اعبان بخارى يسكنون اليه من ظلم طمساد ايما هو وامير بخارى الفضل بن عمر . واذا كان هذان الرجلان قد اعتنقا الاسلام على يد نصر فكان يهتّم بأمرهما اهتماما كبيرا ، تحدث من قوره الى طمساد بهذا الشأن . هنالك جرى في خاطره ما طمساد انما يطعن فيهما حتى ينتهي بهما الحال الى التلف ، فعزما على السار دنا ، وسقطا عليه وعلى الفضل أمام خيمة نصر . وأصيب طمساد بجروح ممثلة ، فقدم اليه نصر وسأله استكى عليه . وعهد الى طبيبها الخاص قراجه بتطعيمه ، ولكم أسلم الروح . ونقل النرسجي هنا ما لاحظته « البزار » من ان خدم طمساد استخرجوا عظامه من جسده بعد موته .

استطاع أن يحتفظ بمنصبه هذا في ظل خمسة من الخلفاء على التوالي ، وهم : هشام والوليد ويزيد وابراهيم ثم مروان بن محمد آخر بني أمية الذي توفي عام ١٣٣/٧٤٩ ، فلم يخلع من منصبه في الواقع الا على يد أبي مسلم عام ١٢٩/٧٤٦ حين سقطت الدولة الأموية ، وكان من اتباعها المخلصين . وأول ما ركن اليه نصر في حكومته الجديدة هو العمل على اخضاع بدو الترك في بلاده ما وراء النهر وفرغانة اخضاعا تاما . وكان هؤلاء هم أغلب المحاربين من بين السكان ، كما كانوا مشار متاعب كثيرة للمعرب . وأصابه التوفيق في حملته هذه التي بلغ بها حدود فرغانة الشرقية وتخطاها الى كاشغر . ولم يكتب له الفوز في ذلك لقوة جيشه فحسب ، وانما لما كان عليه كذاك من لين العريكة وميل الى العدالة ، واعلم ما كان يتحلى به من هذه الصفات الحسنة هي التي عوقت أبا مسلم الخراساني (١) من أن يكسب كل بلاد ما وراء النهر لصفه . وكان أبو مسلم هذا صبي سراج فصار مؤسس دولة

(١) كان أبو مسلم يدعى أصلا عبد الرحمن بن مسلم ، وقد نسب نفسه الى خراسان . وهو من قبيلة بني عجل ، وكان في شبابه سراجا . وكان قد صحب فريزما من متعصبى الشيعة في خراسان خرج معهم الى الحج . وفي مكة وكل اليه محمد علي بن عبد الله ، زعيم العباسيين أمر الدعوة لبيتى العباس لما أدركه عنده من الذكاء والشجاعة ، وأوصى الزعيم العباسي اصحاب أبي مسلم بمعاونته ومساندته عند الحاجة . ورجع أبو مسلم الى خراسان ، وانتظر حتى انبرى الكرمانى يعادى نصر بن سيار في العلن ، وكان الكرمانى هذا أميرا قويا في جنوب فارس . حتى اذا ما بدأ لأبى مسلم رجحان كفة الكرمانى بادى بالانضمام اليه . فلم يعلن الحرب على نصر بن سيار فحسب . بل جهز كذلك بحرب الأمويين ودعا أهل خراسان الى أن يبايعوا العباسيين . ولبى دعوته أول الامر ألف رجل ساروا معه . ثم غدت شيعته تزداد قوة حتى بدا لنصر بن سيار أن لا سبيل الى مقاومته . وحين تراخت الخلافة في انجاده اضطر الى الانسحاب من الميدان حيث مات في موضع بظاهر طهران الحالية . ووجد أبو مسلم في قحطبه : أمير أصفهان ، ظهيرا قويا ، فقد فتح باسمه جرجان وقم وقاشان وأصفهان أغلب بلاد فارس . فضلا عن أنه كان يعمل القتل في كل من كان يصادفه من اتباع الأمويين في كل مكان ، ويعلن أن أبا مسلم هو عامل العباسيين الشرعى . واستمر قحطبه في زحفه من بعد ذلك حتى بلغ الكوفة حيث وقعت المعركة الفاصلة بينه وبين الأمويين على ضفاف الفرات . ولئن كان قد قتل هو في هذه المعركة الا أن ما أحرزه جنده من نصر باهر قد أتى بالعباسيين الى عرش الخلافة

ان انضواء أتراك ما وراء النهر هم وأتراك خوارزم فى يسر تحب
 راية العباسيين السوداء ، بل وتحمسهم كذلك لدعوتهم انما يستبين فى
 اجلالهم البالغ لذكرى أبى مسلم (١) اجلالا تلبسه حتى اليوم عند الأوزبك
 والتركمان بدورهم . على أن المراجع التاريخية نقول بلا لبس بأن سكان
 هذه البلاد من الايرانيين ، اى التاجيك ، قد حاربوا تحت راية نصر بن
 سيار وبقوا على ولائهم للأمويين أمدا طويلا . وما أبداه نصر بن سيار
 من المقاومة ، لا بازاء القوات التى واجهها فحسب ، وهى التى كانت
 تتفوق عليه فى عددها ، بل وكذلك فى وجه الدعايات التى كان يبثها أبو
 مسلم ، هذه كلها موضع تقديرنا واحترامنا . ذلك أن الموت . الذى فاجأه
 وهو فى انسحابه ، هو وحده الذى أنبى حكم الأمويين فى خراسان .
 ولا بدعنا ذلك من أن تشهد لأبى مسلم اذ نجح نجاحا مذهلا فى أن
 يكسب لصفه ، فى وقت قصر ، أتراك بلاد ما وراء النهر . حتى ذهب
 الفصص التى تجدها الى يومنا هذا نجري على لسان الأوزبك والتركمان ،
 يقرنه بالخليفة على (بن أبى طالب) لجرأته وما أنشأ به من عجيب الفعل
 وبالشئ أى فان شخصية أبى مسلم القوية هى التى جعلت الناس لأول مرة
 يسمرون بتفوق الترك فى آسيا الغربية (٢) ومن عجب أن الأقدار التى
 هيأت لراية العباسيين السوداء أن ترفرف عالية بعون من السواربيين ،
 قدرت لها فيما بعد أن تمرغ فى التراب بعض أحد الأمراء النورانيين
 كذلك .

ولئن سيطر على بلاد ما وراء النهر سيطرة تامة رجال من أمثال نصر

(١) اطلعت فى آسيا الوسطى على مخطوط يفصل حياة أبى مسلم
 وفعاله (انظر كتابى : travels in : p. 37 Chagatische Sprachstudien .
 Central Asia p. 358

وأضيف الى ذلك فقط أن التركمان كانوا بعبورونه واحدا من بنى
 جلدتهم حباه الله بصفات الرسل فانفذ بذلك العقيدة الاسلامية من التلق
 وفى الأغاني الشعبية الحماسية التى غناها شعراء الترك فى مدحه ، جعلوه
 بطلا ، كرستم ، أفنى عمره فى حرب المشركين من الفرس .

(٢) يذكر مخطوط أبى مسلم الذى أشرت اليه فى الهامش السابق أن
 الجيش الذى هزم به قحطبة الأمويين كان فى أكثره من الأتراك ، وهى
 واقعة بفسرها ما كان لأبى مسلم من نفوذ بالغ فى خراسان وبلاد ما وراء
 النهر .

ابن سيار وأبى مسلم ، الا أن الاسلام كله كان قد تعرض لهزات عنيفة سبب الصراع المذهبي الذي أثاره الشيعة والخوارج من جهة ، وبسبب تغيير أسرة الخلافة من جهة أخرى ، ذلك التغير الذي استند على دعوة دينية وقام عليها . ولم يكن من الطبيعي مع هذا كله أن تبقى نفوس أهل تركستان المضطربة بسأى عن التأثير بتلك الفتنة . وكما اتخذ الشعوب القومية المكبوت في إيران من حماس الشيعة المذهبي سترا يتستر به لمحاربة نفوذ العرب ، فقد توسل كذلك أهل بلاد ما وراء النهر بالدين المتخلص من استبداد العرب . وتجلى أول مظهر من مظاهر هذا الشعور في بخارى ، اذ انطلق أهلها ينادون بالثورة انصارا لمذهب الشيعة ، على ما فعل بنو جلدتهم بإيران . وحدث ابان حكم أبى مسلم في خراسان أن رفع علم الثورة شيعي متعصب يدعى شريك بن الشيخ المهدى داعيا الى مبايعة خليفة من العلويين ، وكان يقول ، في دعوته : « لقد أنزل بنا بنو مروان المذلة والهوان والجدل الذي كفانا أمرهم . وما على هذا اتعنا بنى العباس ، على أن نسفك الدماء ونعيل بغير الحق ، ولا يكفينا ذلك كله الا خليفة من أهل البيت » وما يستوعى النظر أنه لم ينضم اليه أغلب سكان العاصمة الواقعة على زرفشان فحسب بل انضم اليه كذلك من الزعماء عبد الجبار بن شعيب وأمير خوارزم .

ويحتفل أن الحركة التي تزعمها شريك كان يسندها جيش قوى . وحين وقف أبو مسلم على أمرها بعث من فوره الى بخارى بالقائد زياد بن سباح . إلى رأس عشرة آلاف من الجند لقي بهم العصاة بظاهر المدينة في معركة استمرت سبعة وثلاثين يوما نزل فيها بالمواجمين خسارة جسيمة بسبب ما كان عليه اتباع شريك من نفوق في العدد . على أن انصار الشيعة هؤلاء ما لبثوا أن اضطروا بسبب الجوع الى التخلي عن مركزهم القوى ، فأخرجوا منه ليتوجهوا من بعد ذلك الى نوقند ، وهى مكان يشتهر بوفرة فاكهته . وهناك نزلت بهم الهزيمة كذلك وأعمل فيهم القتل . وترك زياد نوقند والنار تستعر فيها ، فلم يعرج على بخارى ، وانما استمر فى سيره الى سمرقند . ولعله انما فعل ذلك ليستأصل شأفة الشيعة بها وكان عددهم قد تزايد هناك الى درجة كبيرة .

ولئن كان الشيعة قد أخذت أنفاسهم فى تركستان وآمن كيان الاسلام من خطر التشيع فى الشرق القصى ، فقد هبت ثمة زوبعة عاتية أخرى استمرت قرابة ربع القرن وكادت تقتلع جذور الاسلام الغضة ، ولما يمتض قرن من الزمان ، على غرسها هناك ، وهى التى ارتوت فى سيلها ترربة سهوب تركستان الصحراوية الرخوة بالدماء الغزيرة . ونسنت تلك الزوبعة فى ظهور المقنع ، النبى المزعوم ، الذى يشتهر باسم « النبى المقنع » الخراسانى . وكان قد جهر أول الأمر بدعوته فى بلاد النهر عام ١٥٠/٧٦٧ فكانت دعواه هذه بداية نضال استمر أكثر من خمسة عشر عاها وأتار فتنة نلت آثارها تلتسن لقرون كثيرة فيما بعد .

كان المقنع ، أو هاشم بن حكيم (١) ، كما كان يدعى فى الأصل ، من أهل حزة بافليم مرو . وقد عرف فى نسابه بذكائه الخارق وداع عه اطلاقه على معارف الأسرار (السحر) . وكان أبوه فائدا فى خدمه أبى جعفر الروائى البلخى . وقد نفل المقنع المصب نفسه أول الأمر عند أبى مسلم (٢) . ولا ندرى آكان ما صادفه من نجارب فى آسبا العربيه ابان الخجافه بخدمه حليفه الخلافة العتيد هذا . هو ما دكى حاله وأوهامه . اد كانت هذه هى الفترة التى راجت فيها البدع من كل نوع فى العالم الاسلامى (٣) أم أن الأوفات المؤثرة التى كان يعيش فيها قد انفل بها حتى بات يخيّل اليه أنه قد غدا وله قدرات علوية . وانسا المابت أنه قال

(١) كان حكيم ابنا لربان فى مرو يدعى عطاء Weil, History of the Khalifs Vol. II p. 101.

(٢) بقول وابل انه كان حاجبا لأبى مسلم .

(٣) كان عهد الخليفة المهدي ، كما يلاحظ الطبرى بحق ، هو الفترة التى راحت فيها الأراجيف الدييية . وهو يحكى فزعا عن أداس أنكرأ الرسول والقرآن . وراوا الزنادقة معصومين فلا يظلم عليهم بالصلاة أو الحساب وهو يقول ان هؤلاء الزنادقة كانوا أسد كفرا من اليهود وعبداء الأوبان وعبداء النار . اذ ان هؤلاء لهم ما يصعدون فيه على الافل . فى حين يؤكد هؤلاء الزنادقة ان العالم لا بداية له او نهاية ، وأن الناس والدواب يطهرون فى الدنيا كما يظهر النبات فلا يعلم أحد شيئا عن كيفية مجيئهم أو ذهابهم ، وأنه لا حياة بعد الموت ولا عالم غير هذه الدنيا .

بصفات النبوة عنده نبي عهد أبي مسلم . ولما كان يعلم تمام العلم أن أبا مسلم لا يتلقى أى سلطان بجانب سلطانه فقد ركن فى البداية الى الهدوء حدا ما . حتى اذا ما مات أبو مسلم واغلب زمام النظام والطاعة فى خراسان . رأى أن الفرصة بذلك قد واثته ، فانطلق يجهر بنبونه . ولكن لما عدا أن قبض عليه وسير فى القيد الى بغداد . ولا نعرف الوقت الذى قضاه هناك على وجه التحديد ، وكل ما نعلمه أنه رجع من هناك ، كما رجع الباب (١) فى العصور الحديثة ، وقد فويت أوامره فى بعثته النبوة فجميع حواره ، ثابا اتباعه السريين من جديد وراح يروج لدعوته فى حاس بالغ .

حين ظهر المنع بين اتباعه لأول مرة ، وكان ذلك حوالى عام ٦٧٠/١٥٠ وسألهم عن نفسه فأجابوه بأنه هو هشام بن حكيم ، رماهم عند ذلك بالاحتيال . قال لهم انه انسا هو الهيم ورب العالمين . وأنه يدعو نفسه بسا بساء من الأسساء . وأنه ظهر من قبل فى صورة آدم ثم فى صورة ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وأبى مسلم ، وهو اليوم على الصورة التى يرونها . وحين سألوه كيف بلغ هؤلاء درجة النبوة فقط فى حين بلغ هو درجة الربوبية ، أجابهم بأن هؤلاء جميعا مجرد متجسدين فى حين أنه هو روحانى كامل فدير على أن يتخذ الصورة التى تترأى له . وبقي أول الأمر فى نواحي مرو وبعث رسله من هناك الى تركستان يدعون الناس الى الدخول فى مله بهذه الدعوة « بسم الله الرحمن الرحيم ، من ه شاه بن حكيم ملك الملوك ، الحمد لله الأحد الذى نحول فيما مضى نبي صورته آدم ونوح وابراهيم وموسى وعسى وأبى مسلم . هو أنا المنعرب

(١) كان الساب الذى أنار مذهبه الجديد الاضطراب فى فارس كلها . وقد دعوته بدوره كذلك بعد اياته من بغداد . وكما كان المنعرب يبعث بضالائه الى أساعه وهو فى ملاده الصحارى دون أن يوصل بهم ، فكذلك دفع الباب ، بابعه الى اربكاف فعال عانه فى الجراه فى حين كان هو لعدة سنين سجنا فى قلعة جرح . المؤلف .

والبابية ظهرت فى منتصف القرن التاسع عشر أيام السلطان افغانى ناصر الدين شاه الذى مضى بشمس « الباب » ، ومن بعده تطورت الدعوة لالبابيه . الحساب .

القدرة والعظمة والحق ، فبادروا الى وآمنوا بى والتفوا من حولى .
واعلموا أن لى ملك الدنيا والعظمة والقدرة ، ولا اله غيرى ، فمن تبعنى
دخل الجنة ومن عصانى دخل النار » .

وكان من أثر فورة التشيع العدائية التى عمت العالم الاسلامى فى
ذيك الوقت ، وما صاحبها بخاصة من اضطرابات بسبب تغيير الخلافة
القائمة ، أن شجع ذلك كله الى حد كبير الطبقات الدنيا بتركستان على
الارتداد عن الاسلام ، لتقبل جموعهم من بعد ذلك على اعتناق دعوة
المقنع ، وكانت نفوسهم ما تزال بها رواسب قوية من عقيدة المجوس
القديمة . وحين حاول حميد ، أمير خراسان اذ ذاك ، أن يقبض عليه
انطلقت قرى كثيرة تدعوه لياوى اليها . ولم يقتصر الأمر عند هذا فحسب
بل لقد صار له كذلك كثير من الأنصار من المبيضة (سفيد جامكان) عند
الجانب الآخر من جيحون فى بخارى وسمرقند وكش ونخشب (١) ، حتى
عزم على الزوج الى هناك حين شعر بأن لا سلامة له فى المقام عند مرو .
وبرغم ما كان من تشديد الحراسة بمواضع عدة من النهر حين عرف ما
اعتزم عليه ، فقد تمكن آخر الأمر من عبور الماء بسلام فى ستة وثلاثين
من اتباعه آوى بهم الى حصن مكين من حصون كش يقع على جبل
سام (٢) . وفى هذا المخبأ الحصين أقام ذلك النبى المزعوم وقد بقى يخفى

(١) طلب اليه أحد أنبائه أن يأتيهم بمعجزة فأخرج لهم من أحد الآبار
جسما مضيئا على هيئة القمر . ولا يزال « ماه نخشب = قمر نخشب » مجازا
رائجا عند الشعراء الفرس . والعجيب أن النرشخى ، وهو الذى أفاض فى
الحديث عن المقنع ، نراه لا يشير الى هذا الحادث .

(٢) يذكر العبرى هذا الحصن باسم نواكت ، ولما كان الحصن المقصود
يقع عند الشمال من كس (ذلك اننا نعلم أن القائد العربى داود الذى كان
عليه أن يسير من هذا الحصن الى بلخ كان عليه أن يمر بكش فى طريقه)
فلا بد أنه كان أما حصن يمنى أو حصن كتاب . وكلاهما حصنان قويان
مهمان عند الشمال من شهرسبز الحالية .

هذا ويذكر الأستاذ وايل هذا الحصن باسم سنم فى كتابه
History of the Khalifs vol. II p. 103.

وجهه بقناع أخضر ، أو ذهبى على بعض الروايات حتى سى بالمقنع (١) . وعاش فى مخبئه هذا طوال الحرب الدينية التى استغرقت أربعة عشر عاما فلم يغادره أبدا . وحين انسحب من حياة العلن كان يدير شؤونه فى الغالب بواسطة نوابه الأقوياء . وكانوا هم قواده فى الوقت نفسه . وكان على رأس فتنته ، التى انطلقت شرارتها الأولى أول ما انطلقت من قرية غير بعيدة من بخارى ، عربى من بخارى يدعى حكيم ومعه ثلاثة من نادى الجنس هم : حشرى وبغى وكيردك (٢) . وهاجم المبيضة من أتباعه أحد الساجا . فقتلوا مؤذنه وخمسة عشر من كانوا به من المصلين ، فأشاعوا بصنيتهم هذا ، فى مهاجمة المسلمين ، العرب والفرع فى كل تركستان .

هالك انطلق أمير بخارى حسين بن معاذ فى أول محاولة لدفع هذا الخطر المتزايد . فسار بكل القوات التى كانت تحت امرته ومعه أهل بخارى وعلى رأسهم القاضي عامر بن عمران ، فقصدها جميعا قرية ترشخ ، وكان اتباع المقنع قد ركزوا أهم قواتهم بها . وأراد القاضي أول الأمر أن يوقع الهزيمة بالهزيمة ، فحين شأب فى مساعده تاه القتال . وانتهت أول هزيمة فى صالح العرب ، على رواية الترشمى ، حتى قيل ان سبعائة من المبيضة سقطوا فى الميدان . على أن ذلك لم يؤثر فى الموقف الا القليل على كل حال . وسرعان ما بان عجز القوات المحلية ببلادها وراء النهر عن مواجهته الثوار ، وبات على أمير خراسان أن يقوم باجراء حاسم فى هذه المسألة .

لم يقف نشاط المقنع السرى ، — وهو الذى كان يحيط نفسه بهاله من القداسة اعتقد الناس معها بأنها من نور الله — عند الدرجة التى صار

- (١) يحكى الترشمى والطبرى أنه كان بسدل هذا النقاب على وجهه ليخفى به عينا مفقودة . وحين نرد هذا القول السابق الى كراهة المسلمين له (وهو أمر محتمل) فاننا نستطيع أن نقول : لعله أراد بذلك أن يتهج الخليفة (على بن أبى طالب) الذى كان يسير فى القالب وعلى وجهه حجاب يبدو فى تصاوير الشيعة له .
- (٢) يذكر الطبرى أمين سر المقنع باسم طخارجى ، كما يذكر قواده الثلاثة باسم سرخومى وحبوب وغيك أو كياك ، وقد أوردت هنا الأسماء التى ذكرها الترشمى فهى أوثق فى كل ما يحكى عن المقنع .

معها اتباعه لا يحجبون عن ركوب أشد الأخطار والتعرض للسوء عن طيب خاطر انتصارا لدعوتهم ، حتى استطاع ذلك المتنبئ أن يقوى من مركزه في ناحية أخرى وذلك بتحالفه مع الترك . وشارك في نصرته هذه الدعوة شيخ من شيوخ القبائل التركية يدعى خلخ أو قلق (١) ومعه ألوف من بني قومه . ولا يعزب عن البال أن اسلام الترك في تلك الآونة لم يكن فوق النسبها ، فضلا عما كان يتيح لهم انضمامهم الى المنع من فرس موالية للسلب والنهب . وكانت جسوعهم هي التي وقفت في الحقيقة في وجه القوات العربية طويلا . وبأمر مشدد من الخليفة المهدي سير عبد الملك أمير خراسان اذذاك القائد جبرئيل بن يحيى الى بخارى ، فسا زال في كَرَّ وحرَّ مع قوات المبيضة أمام سمرقند (٢) حتى أسقط في يده . وبات في عجز تام ، لتهب لنجدته من بعد ذلك قوة من بلخ قوامها سبعة آلاف من الرجال يقودهم عقبة بن مسلم . على أن هذا القائد لم يلبث أن نكص على عنبه بعد أن توسط الطريق وذلك بتدبير ناجح (٣) عند العدو اليه ، على رواية الطبري . بل ان القوات العربية ، ومعها الامدادات التي بع بها أمير خراسان وقوامها أربعة عشر ألف رجل تجسعت كلها في نرمد ولم يكن لها قبل بأنواع المنع المتعصين . حتى أييد كثير منها . وأصيب العرب بهزسة شديدة قبل أن يعبروا جيحون نفسه . وما غدا مركز جبرئيل

(١) هذه الأسماء هي وفق ما بأيدينا من وثائق . ولعل لمفظ خانج (بالصم) هو تحريف للمفظ خلخ (بالكسر) التركي القديم أو الألفوري ، وهو ينطق في التركية الحديثة قلج . وكان خافان خوفند الذي هزم سعيد ابن عمرو الحرشي عام ١٠١ هـ / ٧١٩م يحمل اسما تركيا مشابها لهذا الاسم .

(٢) لا ينبغي فيما بين أيدينا من مصادر ان كاتب سمرقند بأبدى المبيضة أو بأبدى المسلمين اذ ذاك . ويقول الترشيحي بالقول الاول حين يذكر ان جبرئيل بن يحيى كان يقيم مضاربه أمام سمرقند ، في حين يسر الطبري الى عكس ذلك اذ يؤكد أن حرب العرب أمام سمرقند انما كانت لدفع جيش المبيضة المهاجمين لهم .

(٣) تفصيل الأمر ان رسولا كان قد سبر الى المنع على ان يسقط بأبدى عقبة . وحين أسر الرسول وجدوا معه رسالة بحوى التهئة بانتصار قائد المنع على جبرئيل وأن الجنس الظافر بنوى بعد انتهاب سمرقند الزحف جنوبا للقاء عقبة . واعتقد عقبة في صحة الرسالة فخاف من ازدياد قوة عدوه وفعل راجعا من فوره .

ابن يحيى أن دق غابة الدفة أمام سمرقند وقد منعت عنه كل الامدادات والمساعدات وقطع اتصاله ببلخ وبسرو على السواء .

ونجح هذا القائد في الاستيلاء على حصن فرسخ القوى بعد جهود كبيرة . فقد استطاع العرب أن يحدثوا نفبا كبيرا في سور الحصن بعد حصار دام أربعة أشهر استخدموا فيه العرادات والألغام والنار وكل ما بأيديهم من وسائل ودواب (١) . ومنه نفذ العرب الى المكان فوعدوا الميضية فيه بأن يرفقوا بهم ان هم عادوا الى حظيرة الاسلام وسلموا زعماءهم وأسلحهم الى الخليفة ، هناك سار هؤلاء الميضية ، وحكيم على رأسهم ، في ركب طويل الى معسكر العرب ، وهم يخفون أسلحتهم تحب بياهم ، على ما يقال . واقتيد حكيم نجب بصر أصحابه الى خيمة جبرئيل ، فيما ان طال مكثه بها حتى تسرب الشك الى نفوس أصحابه . وحين انبرى حشرى (٢) يسأل ابن جبرئيل عن طول غياب صاحبه فرد عليه بأن أطاح برأسه ، انطلق هؤلاء الثائرون المنعصبون (٣) فتنادوا بالنار وقد تهوروا أسلحتهم من تحب ثيابهم . وتجدد القتال بين الفريقين في عنف بالغ سكن فيه أصحاب المنع من أن يخلصوا أنفسهم من الأسر الذي وقعوا فيه . وبهذا ضاعت على جبرئيل نيرة انتصاره الأول . وبرغم صدق مقال النرسي في أن بغى ، قائد المنع ، قد لقي مصرعه في هذا القتال وأن صاحبه كيردك قد فر بفروجه الى المنع ، الا أن ما اظهره الميضية من مقاومة

(١) يذكر النرسي العرادات . ولعلها هي العجلات الحربية التي ورد ذكرها في الإنجيل ولها على حراتها صف المناحل الحادة .

(٢) حكى النرسي أن حشرى كان قد ركب الى ابن جبرئيل في خفاف دهمه كانت الملكة خابون . وهو بذخ لا يصادفها أبدا في الدور الاملاهي بتاريخ آسيا .

(٣) حكى النرسي في حديثه عن هذه المسألة بما يدل على مدى تعصب أصحاب المنع ، وما كان عليه العرب بدورهم من الفسوة والعنف . وبعد أنى بعد المعركة الى ابن جبرئيل بامرأة وقعت في الأسر ، وكانت أرملة لجندي يدعى سيرو . وحين سألها جبرئيل عما اذا كانت نقر بأن ابا مسلم هو أبو المسلمين جميعا ، فانكرت عليه ذلك محتجة بأنه قد قتل زوجها ، امر بها فقطب اربا بالسيف وقتل ابنها كذلك وكان معها .

عنفية وما مارسوه من النفوذ والسلطان ببلاد ما وراء النهر من بعد ذلك يضعف ما ذكره المؤرخون المسلمون حين بالغوا فى وصف انتصارات العرب . فالثابت أن قوة المقتنع قد أخذت فى الازدياد من بعد ، وأن الاسلام قد تعرض بدوره الى محنة شديدة تبعا لذلك .

لم يكن مستغربا والحالة هذه أن يستبد القلق بالخليفة المهدي حتى قدم الى نيسابور بنفسه . فعزل عبد الملك عام ٧٧٧/١٦١ ونصب مكانه معاذ بن مسلم الذى بادر من فوره فجمع جيشا كبيرا أنزله الصحراء فيما بين مرو وبخارى على ضفاف جيحون ، ورصد ثلاثة آلاف عامل لتجهيزه بما يحتاج من السلاح ، لينضم اليه من بعد ذلك سعيد الحرشي أمير هراة الشجاع ويسرعا معا لنجدة العرب عند سمرقند . على أن المبيضة باغتواء فى سهل بيكند وهو فى طريقه . ولا تؤيد الحوادث ما ذكره الطبرى فى الغالب من انتصار المسلمين ، ذلك أن معاذ ارتد على اثر ذلك الى بخارى عجلا بدلا من أن يعاود سيره فى طريقه . وقد احتج هذا القائد على ما جرى من الفشل ، بسوء تصرف أمير بخارى حين أصر على اصطحاب ألوف كثيرة من رعوس الماشية معه برغم الحاحه الشديد عليه بالعدول عن ذلك . فقد أسالت كثرتهم لعب الترك وشجعتهم على ما أقدموا عليه من العدوان . ولم يكن لهذا القائد العربى من بعد ذلك الا أن يقبع فى بخارى فى انتظار قرصة موالية . وقد ذكرنا من قبل أن الفلاحين ، وأبناء الطبقة الدنيا ، كانوا قد انضوا فى أغلبهم تحت لواء المقتنع ، كما انضم اليهم كذلك بدو الترك الذين كانوا يعيشون على السلب والنهب . وكان من أثر الاضطراب والفوضى التى اشاعتها الحرب هناك أن ساد الذعر بين أهل هذه المنطقة من الايرانيين المسالمين حتى باتت دعوة المقتنع ولا مقام لها على شواطئ زرفشان حيث السكان اشد ميلا الى الحضارة الاسلامية وأكثر اتصالا بها .

وسرعان ما أخذ الناس يتصيدون هؤلاء المبيضة حيث يلتقونهم ، وحين دبّت الفرقة فى معسكر هؤلاء عند سمرقند سارع معاذ الى هناك فى محاولة ثانية استطاع فيها أن يسيطر على المدينة . وتفرق هؤلاء على

أثر مقتل قائدهم . فترك من بعد ذلك معاذ فائده جبرئيل بن يحيى على سمرقند وانطلق هو بقواته الرئيسية ليهاجم الحصن الذى امتنع فيه المقتنع على ما ذكرنا من قبل . وكان المقتنع قد استقر فى قلعة الحصن الداخلية فى حين أنزل خيرة من جنوده المتاريس المحيطة بها . ويسوق إلينا الرشخى حديثا شائقا عن المقتنع وهو فى عزله هذه ، فيقول انه كان هناك خمسون ألفا من الأتباع يرابطون بظاهر باب الحصن وكلهم فى شوق ملح الى اجتلاء طلعة زعيمهم ولو لمرة واحدة . على أن المقتنع أبى عليهم ذلك وبعث اليهم بعلامه ومعه رسالة قال فيها . نبيء عبادى أن موسى أراد بدوره أن يرانى جهرة أنا الله فغشى بصره من شدة أنوارى فلم يرانى فمن يرانى بحرق بنورى « ورد عليه أتباعه بأنهم يبدلون حياتهم عن طيب خاطر فى سبيل تحقيق ما تصبو اليه نفوسهم من التطلع اليه .

ولم يجد المقتنع بدا بازاء اصرارهم ، من أن يحقق لهم رغبتهم بالخروج اليهم فى يوم معلوم عند بوابة الحصن . وفى هذا اليوم اسطف نساؤه داخل الحصن ويبد كل واحدة منهن مرآة تنعكس على صفحتها أسعة الشس الغاربة ، بندير منه . وحين أحكم هذا الانعكاس الى غابته أمر المقتنع ففتحت أبواب الحصن . هنالك غشى الضوء القوى ، الناشئ عن هذا الانعكاس ، أعين أتباعه المتحمسين حتى خروا سجدا وهم بتصباحون ويسألونه أن يسمع عنهم هذا النور اذ أن طول نظرهم اليه سوف يوردهم مورد التلف والهلاك . ولبثوا على سجودهم هذا حتى بعث اليهم بعلامه ليقول لهم على لسانه بأن الله قد رضى عنهم ووهبهم نعيم الدنيا .

أحاط معاذ مكسن المقتنع بجيش قوى أكثره من العرب ليحاول من بعد ذلك أن يحمله على الاستسلام دون قتال . وحين قدم رسول معاذ الى المقتنع فسأله عن شخصه وما يبغيه منه ، أجابه الرسول بأنه وقد ادعى لنفسه صفة الربوبية فلا بد والحالة هذه أن يحيط بكل شئ علما فلا يسأله . وقد حكى الطبرى هذا السلوك الجريء الذى صدر عن مسلم فى معقل المقتنع ، وهى رواية تقابل بكثير من الشك . وأجاب المقتنع على

دعوة معاذ بأنه قد عقد النية على المضي في دعوته الى النهاية برغم ما نزل باتباعه من المصائب . هنالك حزم معاذ أمره على اقتحام الحصن بكافة السبل وضرب القائد العربي الحصار حول الحصن ، لكن حلول الشتاء (١) ، وله قسوته الشديدة في منطقة مدينة سبز ، اضطره الى تسيير الجند الى بلخ بأقصى الجنوب ليحتسوا فيها من برده وصقيعه . وأدى طول الحصار الى أن زاد قلق المهدي ونقد صبره بازاء هذه المسألة شديدة الخطورة ، حتى عزل معاذ بن مسلم ، من منصبه بعد أن أمضى عامين فيه ، واختار مكانه أمير خراسان سعيد الحرشي وكان على ادراك تام بسجريات الحوادث هناك . وظهر الأمير الجديد همة ونشاطا فاق بهما سلفه ، فبدأ بإقامة الدور لجند العرب هناك حتى تستطيع بذلك أن تواصل حصار المكان . ومع هذا كله فقد كان عليه أن يرضى عامين آخرين عند أسوار هذا الحصن القوي قبل أن ينسلم له خصمه . وكان كزم ، احد اخوة المنفع (٢) هو أول من استسلم له ومعه ثلاثون ألفا من الرجال . وأدى تضيق الحصار على أتباع المنفع مع ما باتوا يعانونه من الجوع الشديد الى أن استسلموا جميعا ، دون قيد أو شرط ، ومعهم ثلاثة آلاف وثلاثمائة من المنعصين من أهل كش الذين كانوا يرون في المسلمين ألد أعداء لهم . ولبت المنفع وحده معتصبا بالقلعة الداخلية وكانت تقوم منيعة على قبة صخرة .

ونقول الرواية ان المنفع ، ابان أيامه الأخيرة هذه ، جسع زوجاته حول الطعام بعد أن كان قد انصرف عنه أخلص خلصائه وسدت طرق الفرار في وجهه . هنالك دعاهن الى شراب أعده من نبيذ خلطه بالسم ، فشربن منه جميعا الا واحدة منهن تدعى بانوكه (٣) كانت قد عرفت بسر المسألة

-
- (١) تشبه شهر سبز وما حولها سمرقند في مناخها . وكلا المكانين يقع على منحدرات جبال كره نو حيث الشتاء قارس طويل .
 (٢) يذكره الطبري باسم كردش . وننبه هنا الى أن هذه الكلمة في الكتابات التركية القديمة وفي وسط آسيا تشير الى معنى القرابة .
 (٣) هذا الاسم هو الذي ذكره الطبري ، وهو ليس علما على كل حال فهو مشتق من الكلمة الفارسية « بانو » بمعنى سيدة .

فكسكب الشراب في عبها وظهرت بالمور . فكانت من بعد ذلك هي الشاهد الوحيد الذي استطاع أن يروى تفاصيل اللحظات الأخيرة للنبي المزعوم، وعلى ما رواه من يدعى أبو علي محمد من أهالي كس ، فعلا عنها ، أن المقنع بعد أن مات كل زوجاته قطع رأس غلامه ، وكان هو الوحيد من الذكور بين خدمه المباشرين ، ثم اندفع الى فرن مستعر كان قد أوفد ناره لثلاثة أيام خلت ، فلم يخرج منه أبدا . ويقال انه كان قد أطلع نساءه على ما كان قد اعترم عليه من قبل ، فقال لهن انه سوف يقبل على ارتكاب ذلك آخر لحظة . فجعل بذلك ورهن أمام الله على الذين تخلوا عنه ، وانه سوف يكون له الغلبة آخر الأمر ، على كل حال ، وذلك بعون من الملائكة الذين سيأتي بهم معه . وأضافت بانوكه الى ذلك انها قد راقبت الفرن مدة طويلة ولكنه لم يخرج منه . وكانت بانوكه هذه هي التي فنحت أبواب القلعة للقائد سعيد الحارثي بعد أن وعدا بعشرة آلاف اكه من أموال المقنع . وقد اسنولى العرب على كل ما كان بالقلعة من أموال النبي المزعوم . وبهذه الخاتمة السعيدة لملك الحارثي التي طالت عدة سنين نخلصت حدود الاسلام الشرقيه من محنة شديدة .

ليس لنا الا أن نسلم بما يلف تعاليم المقنع من فلام كنسب كذلك حقيقة ما كان ينتوبه بشأن الدعوة الى مذهب جديد . والظاهر أنه فكر أول الأمر في أن يضن غفيدة مذهب التناسخ ، كما أنه لم يكن عموما متأثرا بالآراء الدينية الهندية القديمة فحسب بل وبالفارسية منها كذلك ، وان كان من الصعب أن نعجزم بأي شيء في هذا الموضوع على كل حال . وها هو ذا الترشيح الذي فصل لنا أمر هذا المذهب الغريب الذي أذاع الفتنة في بلده ، بعد مرور ثلاثمائة عام من ظهوره ، فراه يتهم أتباع المقنع بنفس التهم التي يلصقها المسلمون المحدثون بالدروز في لبنان والبابيين في ايران . من ذلك ما أخبرنا به عن امتناعهم عن أداء الفروض ، ومناداتهم بشيوعية النساء بينهم ، واعتبارهم أن قتل المسلم هو تقرب الى الله . وهذه كلها هي وكل ما كتبه المؤرخون المسلمون عن المقنع تقوم على الأوهام في الغالب . وما يؤسف له أن يكتنف الغموض تعاليم المقنع برغم أن مذهبه ظل قائما من بعده لعدة قرون ، اذ بروى مترجم كتاب الترشيح أنه كان

هناك عام ١١٢٨/٥١٢ اتباع للمقنع اعتنقوا الاسلام من باب التقية ، وكان هؤلاء فى نواحى كش ونخشب وفى بعض القرى بظاهر بخارى مثل قرية كوشكى بونار .

وبالقضاء على المقنع انتهى أمر الشكوك الدينية فى تركستان ، وانحسرت موجات الفتن الدينية بالتدريج . ومع ذلك لم تستطع الدولة أن تقضى على الاضطرابات السياسية التى كان يثيرها سكان بلاد ما وراء النهر المحاربون بطبعهم ، الا فى فترات قصيرة ، برغم ما كان عليه الخلفاء العباسيون الأوائل من شدة وحزم وما كانت عليه حكومة البرامكة من كفاية كانت موضع التقدير والثناء الكثير . وفى آخر حكم الرشيد نرى رافع بن الليث ، حفيد نصر بن سيار ، يخرج على الخليفة . ولئن لم يفصح هذا الثائر فى ثورته هذه عن عزمه على الانتقام لمقتل جده بسبب وقوفه الى جانب الأمويين ، الا أن فعلته هذه قد عجلت بنهاية أعظم الخلفاء العباسيين (١) . ويقال ان رافع ، وكان جنديا شابا جميل الطلعة ، انما عمد الى العصيان لما أنزله به الخليفة من العقاب الشديد لعلاقة غير شرعية كانت بينه وبين إحدى النساء (٢) . فقد أصدر هارون الرشيد أمره الى أمير خراسان ، الذى أنفذه بدوره الى سليمان عامل سمرقند ، بأن يطوف برافع المدبنة وهو على حمار فى وضع عكسى (٣) ، وأن تطلق زوجته منه ويرمى به فى السجن . واستطاع رافع أن نفلت من هذا العقاب المشين

(١) يقال ان هارون الرشيد اصابه مرض الموت اثناء سيره من بغداد الى خراسان ، وكان مى طريقه لاختاد نورة رافع .

(٢) كانت هذه السيدة زوجه لمى بدعيه يحبى بن الاشعث . وكانت قد ارتدت عن الاسلام ، وبهذا طلقت من زوجها . وقد حملها من بعد ذلك رافع على العودة الى حظيرة الدين من جديد ثم بنى بها ، فعاد صنعه هذا عملا مشينا .

(٣) كان عقاب القواد على هذا النمط سائعا بين المسلمين زمانا طويلا ، فهذا هو مراد الثالث يدين أحد قواده بتهمة الجبن بعد موقعة واردة فيأمر بقص نصف لحيته وأن يطوف به فى المعسكر بشباب النساء على حمار ووجهه الى ذنب الدابة .

بالهرب ، ليعود من بعد ذلك مستخفيا ، ويستغل ما كان من كراهية الناس
لعلى بن عيسى لجوره وظلمه ، فلا يجد صعوبة فى حمل أهل سمرقند على
الثورة على على ثم على هارون الرشيد نفسه من بعد ذلك (١) . وكان
التركستانيون قد شكوا الى الخليفة مرات عدة من ظلم على هذا الذى كان
يفلح فى كل مرة فى تهدئة سخط الخليفة عليه بما كان يبذله من المال وقد
كان على ثراء واسع . وحين عقد الخليفة العزم على عزله ، وكان يعرف
مدى ما بلغه عامله هذا من نفوذ وسلطان ، عهد بأمره الى القائد الاقربقى
هرثة بن أعين بعد أن رتب الأمر معه وحذره منه . وتقدم هرثة بقواته
ونفاهر هدفه المساهمة فى القضاء على ثورة رافع . وحين ظن على بن عيسى
أن لا خطر عليه فى ذلك ، فقصده الى هرثة ، ناو له هذا كتاب الخليفة (٢)
بعزله ثم قبده وسيره الى بغداد . هذا فى حين كان رافع ابن الليث قد
قوى شأنه فى سمرقند ، وكسب كل بلاد ما وراء النهر الى صفه ، ونزل
بجندته فى بخارى . وحين سار اليه هرثة فعبر جيحون وجد نفسه يقف
وحيدا وقد تخلى الناس جميعا عنه ، اذ كانوا قد هابهم ما بلغه رافع من
القوة .

وأدت هذه الأحوال الى أن خطب المأمون ود أسرة السامانيين فى
سبيل القضاء على رافع . فقد فشل القائد حزبية بن حازم فى رد الثوار
الى طاعة الخليفة ، ونسج عن قتلهم هذا أن اسفر بتركستان تلك الأسرة
التي يدين لها أقاليم جيحون ، وتاريخ بخارى المستقل بخاسة ، بأزهى
عصوره .

(١) انظر هامش ص ٦٩ .

(٢) كان نص كتاب هارون الرشيد كالاتى : « بسم الله الرحمن
الرحيم ، يا على بن عيسى ، يا ابن الزانية ، رفعت من قدرك ونوهت باسمك
واوطأت سدة العرب عقبك وجعلت أبناء ملوك العجم خولك واتباعك ، فكان
حزائى أن خالفت عهدى ونبلدت وراء ظهرك أمرى حتى عنت فى الأرض
وظلمت الرعية واسخطت الله وخليفته بسوء سيرتك وظاهر خيانتك ، وقد
وليت هرثة بن أعين نغر خراسان وأمرته أن يشد وطاقته عليك وعلى
ولئك وكتابك وعمالك ، ولا يترك وراء ظهوركم درهما وحقا لمسلم ولا معاهد
الا أخذكم .» حتى ترده الى أهله ، فلا تعرض نفسك للتي لا تسوى وأخرج
مما يلزمك طائعا أو مكرها . (الطبرى حوادث عام ١٩١) المترجم .

الفصل الرابع السامانيون والأمير إسماعيل

٢٦١ (٨٧٤) - ٢٩٥ (٩٠٧)

حين كان أسد بن عبد الله (ناصر المظلومين) أميراً على خراسان استنجد به أحد أعيان (١) بلخ من بقايا الزرداشتين، ويدعى سامان، ليعينه على عدو له كان قد أخرجه من المدينة. واهتم أسد بأمر صاحبه حتى رده إلى بلده ليقابل سامان هذا الصنيع من بعد ذلك بالدخول في الإسلام (٢)، ويسمى أول من رزق به من الأبناء باسم أسد الذي ناصره. ورزق أسد بن سامان هذا بأربعة أبناء هم نوح وأحمد ويحيى والياس كانوا جميعاً من حزب العرب على ما نهج عليه أبوهم من قبل حتى أوصى المأمون بهم أمير خراسان (٣)، بحق، بأنهم أصحاب نسب عريق وأنهم جديرون بأعلى المناصب. واستعان بهم الخليفة في فتنة رافع كما أشرنا من قبل، وسرعان ما أدت معونتهم إلى إخضاع رافع ليكافئ المأمون من بعد ذلك أولاد أسد

(١) ينسب سامان نفسه إلى بهرام جوبين الساساني، ومن هنا يشتهر بين العرب بعرفه النسب.

(٢) إن قيام سامان الونني بالأمر في بلخ لمدة طويلة بعد الفتح العربي إنما يدل على مدى التقدم البطيء الذي أحرزه الإسلام بين الزرداشتيين (المؤلف). بل الأجدر أن يحمل ذلك على تسامح المسلمين الذي يتضح في معونة أمير خراسان لسامان، ذلك التسامح الذي نهى به باربولد في كتاب عن «ناريخ الحضارة الإسلامية» ص ١٦ (ترجمة حمزه طاهر) حيث يقول أن المستعصم عاقب بعض المسلمين عقاباً شديداً لتعرضهم لمعبد من معابد المجوس بالصغد. (المترجم)

(٣) بسمان بن عباد وهو ابن عم الفضل بن سهل وزير المأمون ذي الرياستين، الرئاسة المدنية والرئاسة العسكرية.

على صنيعهم هذا كل بدوره ، فأقطع نوح سمرقند ، وأقطع أحمد فرغانة ، وأقطع يحيى جاج (طشقند) وأقطع الياس هراة ، وقد أقرهم الخلفاء من بعد المأمون على ما بأيديهم من أرضين . وحين مات نوح صارت سمرقند لأخيه ليخلفه من بعد ذلك عليها ابنه نصر ويقره الخليفة الواصل على ذلك ببراءة منه . وأدى ما أسبغه العرب على السامانيين من التكريم الى تقوية جانب هذه الأسرة الناهضة ، كما أدى تمكين الصلات بهم الى ازدهار أحوال بلاد النهر بدورها . فقد أخذ النظام يسود كافة الأقاليم حول سيحون وجيحون ، تلك البلاد التي كانت تعاني معاناة شديدة من الاضطرابات ، وبات من الواضح أنه سوف يشرق عليها عهد جديد في ظل السامانيين .

كان نصر بن أحمد على صفات عالية ، ولكنه كان في طبيعته ضعيفا متشككا حتى كاد يقنط من تثبيت عرشه تلقاء ما أثاره الطاهريون من الاضطرابات (برغم أن سلطانهم كان في طريقه الى الزوال) من ناحية ، وخروج يعقوب بن اللث بخراسان من ناحية أخرى ، لولا ما كان من سند أخيه الأصغر اسماعيل لأزره ومداومة معوثته له . وكان اسماعيل هذا قد ولد بفرغانة في شوال من عام ٢٣٤/٨٤٨ ، ومات أبوه وهو في الخامسة عشرة من عمره فتعلق بأخيه الأكبر في حب خالص واجلال لم يتطرق اليهما أدنى تغيير حتى حين انقلب عليه نصر يحاربه . وأول ما ذاع صيت اسماعيل كان ببخارى ، وكان اذ ذاك في الخامسة والعشرين من عمره . ذلك أن أهل هذه المدينة كانت قد شاعت فيه فرقة الفرق التي كانت تسود اذ ذاك شرقى الدولة الاسلامية ، ولاح الخطر على أشده في تناحرهم وانقسامهم . وحين غزا حسين بن طاهر أمير خوارزم هذا الاقليم عام ٢٥٩/٨٧٢ فأعمل السلب والنهب في بخارى كلها (١) ، استنجد فريق من أعيان هذه البلاد

(١) من ذلك أنه أمر الناس . محتجا بجمع الخراج ، بأن يقدموا اليه ما عندهم من العملة الاشرفية ليسبدها لهم بعملة فضية . وحين اضطر الى الهرب ليلا فجأة فترك أمواله من ورائه ، اقتسمها جميع الفقراء فيما بينهم فتبدل حالهم بذلك . وصار كل من يصيب من الثراء من بعد ذلك يكنى « بشريك حسين بن طاهر في ماله » وذاعت هذه الكنايه هناك زمنا طويلا .

بنصر الساماني في سمرقند على ما نصح لهم به عبيد الله الفقيه وكان من العلماء المرموقين . وعرض عليهم نصر أن يبعث اليهم بأخيه اسماعيل ، وسيره الى بخارى من فوره . وحين علم العدو بقدومه عرض عليه الصلح ، لتدخل بخارى من بعد ذلك في حوزة السامانيين وتجري الخطبة فيها باسم نصر بدلا من يعقوب بن الليث . ودخل اسماعيل المدينة دخول الظافرين ، عاملا لنصر عليها ، في غرة رمضان من عام ٢٦٠ هـ ، وقد زينها أهلها تكريما له .

وبرغم ما كان بين فرقها من الخلاف فقد استقبلوه جميعا بترحاب بالغ واثروا الذهب والعطايا الثينة بين يدي ذلك الضيف الذي سبقه اليهم ما ذاع عنه من الصفات العالية . وحق لبخارى ما فعلت حين عدت هذا اليوم من أعابها ، فقد تم لبلاد ما وراء النهر بل وتركستان كلها وحدها في تلك المراءاة التي رسم بها الخليفة المعتمد نصرا أميرا على بلاد ما وراء النهر وجعل له كل البلاد الممتدة من شواطئ جيحون حتى أقصى بلاد المشرق .

وبرغم الظروف الدقيقة التي ظهر فيها اسماعيل أول الأمر ببخارى ، فإنه ما غدا بعد قليل أن صار محبوبا من الجميع . على أنه عانى مشقة بالغة في استرضاء أخيه نصر وكان الخلاف قد بلغ بينها أشده . ذلك أن اسماعيل كان قد أقام له نائبا عنه ببخارى ، حين غاب عنها بعض الوقت ، فاستفجع (١) نصر ذلك منه حتى رغب في عزله لولا توسط بعض المخلصين بينهم في ذلك . فسمح له بالقدوم الى بخارى على ريب كثيرة في نفسه . وفيها استقبل اسماعيل من جديد بظاهر الاجلال والتكريم من الجميع . اذ كانوا بآمالون فيه ، وهو المعروف بحزمه وعدله المطلق ، أن يضع حدا لنشاط قطاع الطرق ، وكان خطرهم قد استفحل في غيابته حتى كان منهم

(١) يقول ميرخوند في تاريخه للسامانيين ان مبدأ الخلاف مع نصر كان بسبب الصداقة الخالصة التي كانت بين اسماعيل ورافع بن هرثمة . وكان هناك من الدساسين من ادخل في روع نصر ان اسماعيل كان يتآمر مع رافع لخلعه عن عرشه .

ما يقرب من أربعة آلاف يعيشون في الأرض فسادا فيما بين رامتن وباركت فحسب . هنالك بعث اسماعيل بجنده لنوه فأبادوا أغلبهم . وما بقى منهم على قيد الحياة ساقوهم أسارى الى سرفند . ولم يكد ننهى من هذا الأمر حتى جاءت الأخبار بعبور طاهر بن الحسين جيحون في آفس من الخوارزميين وجهنه بخارى ، فأسرع اليه وهزمه هزيمة حاسمة ، فكانت حربه هذه هي أول فرصة بانت فيها سجاجته السخسبة . وزاد من نعلن جنده به من بعد ذلك سخاؤه عليهم وبره بهم (١) .

عزم اسماعيل بعد أن آب الى بخارى على أن يسك بزمام الحكومه وبحزم سير الأمور فيها ، ولكنه واجه عندئذ كثيرا من العقبات . فقد رى أعبان هذه المدينة التى تقع على ضفاف زرفسان فى قيام النظام ما يقضى على المصالح الى كانوا يفقدون منها فى ظل ما كان من القوضى فى السابق ، فناموا بذلك يناهضونه ويعارضونه . هنالك حرم اسماعيل أمره على التخلص منهم . فسيرهم الى سرفند بدعوى إيفادهم الى أخيه نصر فى مهمة ، فألقى بهم فى الحبس على بديئر مرسوم . على أن هذا الاجراء لم يوفر لاسماعيل ما كان ينسده من الاستقرار فى حكومته . ذلك أن أخاه نصرا نفس عليه ما تصابه من التوفيق حتى أدت به تسكوكه ، وكان على غير أساس ، الى أن يخلق سببا للنزاع معه ، فانهسه بالعصير فى دفع الحراج اليه . وكان دخل بخارى اذ ذاك يصل الى خسائه ألف درهم نصيب اسماعيل منها كان أقله . وحين تقاعس اسماعيل عن ارسال مال أخيه من خراج المدينة برعم الحاحه عليه انهى النزاع بين الأخوين الى الحرب فى النو .

هكذا نجد عام ٢٧٢/٨٨٥ أن نصرا ، وكان سهل الاستفزاز ، يتقدم الى بخارى فى حبسه . فادا باسماعيل . وقد أخذ على غره . يفر الى بكند عبر ناراب حيث تؤيد رسولا له يدعى حويه الذى صديقه وحليفه رافع بن اللبث (وكان تائرا اقطاعيا فصار عاملا للخليفة على خراسان) . وسارع

(١) كان من بين صداداه لجنده كساوى من الكمان وكاتب بعد اد دالك بواسطة أسبا امين من الحرير .

رافع بدوره فعبّر جيحون وانضم الى اسماعيل . وفيما كان هذان الحليفان يهيئان قواتهما المؤتلفة لمهاجمة خصمهما ، عمد نصر الى خدعة استطاع بها أن يقطع اتصال خصومه بالجزء المسكون من بخارى عند توائس (طواويس) ، فاذا بهم يجدون أنفسهم وقد باتوا معزولين في الصحراء . وأدى شح المحاصيل في ذلك العام وقلة المؤن بالتالى الى أن قل عدد الجند بدوره فلم يعد يبق منهم معهم الا ما تدعو الضرورة اليه . ونظر رافع فيما قد يؤول عليه الحال اذا ما عمد الأخوان الى التفاهم من جديد ثم قاما عليه معا ، فعدل عن موقفه فجأة وتقدم يتوسط في الصلح بين نصر واسماعيل (١) ، حتى نجح في ذلك ، على أن يكون اسماعيل مستقبلا مجرد جاب لخراج بخارا ويعهد بإدارة حكومتها الى غيره . حدث ذلك عام ٢٧٣/٨٨٥ م ، ليتجدد الخلاف القديم بينهما مرة أخرى من بعد ذلك على أداء ذلك الخراج ، ولما يمض خمسة عشر شهرا بعد على الصلح . وبادر نصر بالعدوان على عادته ، وكان له جيش قوى يقوده أبو الأشعث وتعززه امدادات قوية من خوقند . وكان اسماعيل قد احتاط لذلك فجلب نجدات من خوارزم استطاع بها في النصف الثاني من عام ٢٧٥/٨٨٨ أن يهزم أبا الأشعث في واقعة حاسمة . وكاد نصر نفسه يلقي حتفه على يد جماعة من الخوارزميين في هجوم لهم ، لولا أن ردوا عنه في صعوبة آخر لحظة ، فرمى نفسه من على سرجه واستسلم ، ليقدم اليه

(١) يرد مبرخوند فيام الصلح بين الاخوين الى سبب آخر ، فنجد في ترجمه Depremery ص ١١٥ أنه « حين قدم حمويه بسفارته شخص رافع بنفسه الى ما وراء النهر وعبر نهر جيحون قامت في نفس حمويه المخاوف من أن يتمكن رافع بجيشه هذا من اخضاع ما وراء النهر لسلطانه ، وقرر في نفسه انه بعد أن يهزم نصرا سوف يلتقى القبض من بعد ذلك على اسماعيل ثم يهبه من بعد ذلك الامارات التى كان يطمع فيها ، فيجسده بعد ذلك لسلطانه ، وفي ذلك عار كبير . هنالك أعمل ذهنه لافساد ما رجح وقوعه ، فتقدم الى رافع ونصحه أن يعمل على قيام الوثام بين الاخوين ، حتى لا يتعرض هو نفسه للمتاعب في أرض غريبة عنه لو تم هذا الأمر من وراء ظهره . ووقعت نصيحة حمويه موقعا حسنا في نفس رافع حتى بعث برسله الى نصر والى اسماعيل يبينون لهما أنه من الخير أن يقوم الوثام بينهما . وما زال بهما حتى نزلا على رأيه ، ومن ثم قفل راجعا بدوره الى خراسان .

عند ذلك أخوه اسماعيل عجلا ، فور ساعه بالحادث ، ويتلقاه بأعق آيات الاحترام . فقد تقدم اليه وقبل أطراف الوسادة التي كان يجلس عليها وقال له « أيها الأمير انها ارادة الله التي شئت أن أراك اليوم وأنت في الأسر » ليحييه عند ذلك نصر فيقول له « بل هي ارادتك أنت اذ خرجت على سيدك وأذنت بذلك في حق الله عز وجل » . هنالك أقر اسماعيل له بجرمه وسأله أن يصفح عنه . وفيما كان هذا الحديث يجري بين الأخوين (وصورته لا تستبعد لما عرف به السامانيون من النبل وكريم الخصال) . أقبل اسحاق أصغر الاخوة ولبث على فرسه يشاهد ما كان يجري ، لينهره اسماعيل عند ذلك اذ ظل على صهرة جواده ولم ينزل عنه في حضرة أخيه الأكبر رأس الأسرة . فاذا باسحاق يعتذر عن خطئه بحرون جواده ويسارع بالترجل ، ثم يقدم على نصر فيقبل قدميه ويقف بين يديه في خضوع تام . وتابع اسماعيل حديثه الى أسيره فعرض عليه أن يسيره من فوره الى قصبته قبل أن يحلها أبناء الحادث ، فلا تتعرض بذلك هيئته فيثا وراء النهر الى شيء من المهانة . وبدت الدهشة على نصر تلقاء ذلك اذ لم يكن ليصدق أن خصمه قد يسح له بالسير الى مئتره ، ليعلنه عند ذلك اسماعيل بأنه ليس له الا أن يضع نفسه طوع أمره فيحقق له كل ما يرغب فيه .

هنالك جرت دموع نصر من فرط التأثر ، وقد أبدى أسفه لما تسبب فيه من اراقة الدماء ، ثم امتطى جواده واتجه به الى سمرقند ، وقد صحبه أخوه أول مراحل الطريق . وقضى نصر من بعد ذلك أربع سنوات بسمرقند في هدوء حتى وافاه أجله في الثاني والعشرين من جمادى الأولى من عام ٢٧٩ هـ / ٨٩٣ م .

بسط اسماعيل سلطانه على كل خوارزم وبلاد ما وراء النهر عام ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م وذلك عقب وفاة أخيه ، فعهد بحكومة سمرقند الى أحد أبناء نصر ، واتخذ من بخارى قصبة له . وبها تقبل من الخليفة المعتضد بالله براءة التقليد والبنود والخلع المعتادة . وكان اسماعيل يرى في خضوعه لأمر المؤمنين استجلابا لرضاء الله عليه ، وان كان يعرف تماما

مدى ما لبلاد بغداد من سلطان عليه فى الواقع . كما كان الخليفة يدرك بدوره تمام الادراك أن البراءة التى أذن فيها لاسماعيل باجراء الخطبة وضرب السكة باسمه لم تكن الا مجرد تقليد محض . فقد كانت الخلافة اذ ذاك تنوء تحت أعباء من كل نوع ، فلا تكاد تماسك نفسها الا اعتمادا على شبكة من المؤامرات والسياسات الصغيرة التى كانت تحببها . وقد عاش خلفاء الرسول الضعاف هؤلاء فى رعب وفزع من تلك الدول الجديدة التى كانت تقوم فى القسم الشرقى من دولتهم ، حتى لنجد الخليفة المعتضد يفوض الى الأمير اسماعيل شؤون بلاد ما وراء النهر ويلقبه بلقب حامى الملة والمدافع عن الخليفة من أعدائه ، ليكتب فى الوقت نفسه فى السر الى عمرو بن الليث الثائر السابق وأمير خراسان اذ ذاك ، يأمره بحرب اسماعيل وخلعه (١) .

ولم يكن اسماعيل ليأبه لشيء من هذا كله ، بطبيعة الحال ، حتى رأيناه ينطلق عقب ارتقائه العرش يتقرب الى الله بغزو النصارى عند طراز التى تقع عند الشمال من أراضيهِ وعلى مقربة من حضرة تركستان (مدينة تركستان) الحالية ، فأنزل بهم الهزيمة واتخذ كنيسهم مسجداً (٢) ثم عاد من بعد ذلك الى بلاده ومعه من الأسلاب الطائلة ما بلغ بها نصيب كل رجل من رجال جيشه ألف درهم . ورغب اسماعيل ، حين عاد الى بخارى أن ينصرف الى تنظيم حكومته لولا الحرب التى سرعان ما نشبت بينه وبين عمرو بن الليث فاستنفدت كل جهوده طوال سنوات سبع . وكاف الخليفة

(١) إجابته الخليفة الى طلبه وحرصه على حرب اسماعيل . ولعله كان فى الوقت نفسه قد أقر اسماعيل على بلاد ما وراء النهر وحرصه على عمرو . Hist. of the Khalifs Vol II. p. 485 .

(٢) يذكر النرشخي هنا « الكنيسة الكبيرة » كما يذكر معابد البارسميين باسم « بيوت النار » وبهذا يغلب على وجه الجزم أن الأمير التركى الذى غزاه اسماعيل كان نصرانياً ، وأن الكنيسة التى حولها اسماعيل الى مسجد كانت للنساطرة المسيحيين . وفى كتاب : ColoneI Yule : Cathay and the Way thithr ما يبين بوضوح قيام أسقفية نسطورية فى نواحى مدينة تركستان الحالية حتى القرن الرابع عشر الميلادى . وهذه الفرقة قد ظهرت فى هذه النواحى منذ القرن الرابع الميلادى على ما هو معروف .

قد حرض عمرا على هذه الحرب كما ذكرنا من قبل . وكان عمرو بعد أن هزم رافع بن هرثمة قد بات يرى في السامانيين ، وقتهم الصاعدة ، مع محبة الناس لهم ، منافسا له لا بد من القضاء عليه بأي ثمن . وأدرك عمرو في قيام صلات المودة بين رافع واسماعيل ما يدل على فتور اسماعيل نحوه ، فأخذ يتحين الفرصة للاشتباك معه . حتى اذا ما بلغه ترحيب اسماعيل بأحد أتباعه حين فر من عنده الى بخارى ، عمد أول الأمر الى حرب الرسائل معه ، ولمح له لم يكن مستعدا لغيرها . وحين رد اسماعيل عليه ردا غنيا اصطنع المسالمة وناشده أن يعدل عن قيام النزاع بينهما ، وبين له أن الخليفة قد عهد اليهما بما بأيديهما من بلدان فهم بذلك قرناء أخرى بهما أن تقوم الصداقة والاخلاص بينهما ، واعتذر اليه بأنه لن يجعل للوشاة سبيلا الى افساد ما بينهما من ألفة أبدا ، وأنه لم يقصد الى ما فهمه مما كان قد صرح به اليه ، كما سأل كذا أن يتناسى ذلك كله وتعهده له بعدم التعرض له مستقبلا فله أن يمارس سلطانه هادئ البال (١) .

وتلقى اسماعيل هذه الرسالة ، وكان قد سار بجنده فنزل على شاطئ جيحون ، وقد حملها اليه رسل عمرو وعلى رأسهم شيخ يسابور المشهور . فكشف ما بها من مكر وخداع ورد عليها ردا فاترا قصيرا ، ليأمر عند ذلك الصفاري الداهية قائده على بن شروان بالزحف الى بخارى على أن لا يتعرض لأهلها بسوء ما وسعه ذلك وأن بجهد في كسبهم الى صفه بالمودة دون قتال . وما ان سمع اسماعيل بذلك حتى عبر جيحون لساعته . وبدأ على بن شروان الهجوم ببجائقه القوية ، واستتات الفريقان في قتال عنيف انتهى بفوز اسماعيل . وهكذا استطاع أبناء الصحراء هؤلاء ،

(١) تقول بعض المصادر الأخرى أن اسماعيل هو الذي سعى أول الامر للصلح ، وكتب الى عمرو : « انك قد وليت دنيا عريضة ، وأنا في يدي ما وراء النهر ، وأنا في نفر ، فاقنع بما في يدك وأتركني مقيما بهذا الثغر ، فأبى اجابته الى ذلك .

ويذكر النرخي قائدا آخر يدعى محمد بن الليث كان قد وجه وجهه الى أخرى ومعه خمسة آلاف من الجند . ويذكر « زينة التواريخ » أن عمرا كان عنده سبعون ألفا واسماعيل عشرون ألفا .

بركائبهم الخشبية الغليظة أن ينتصروا اقتصارا حاسما على جيش عمرو ويوقعوا في أسرهم قائديه بشرا وعلى بن شيروان . وهنالك تبتد شهامة اسماعيل بازاء أعدائه على ما هو مألوف عنده ، فلم يسير في أسره جيش عدوه كله ، على الرسم المعتاد ، وانما حمل هؤلاء الرجال بالهدايا وأطلق سراحهم ليعودوا من بعد ذلك الى ديارهم . وحين أعرب رجاله عن دهشتهم بازاء صنيعه هذا كان جوابه : « ما نصنع بهؤلاء المساكين ، فلندعهم يعودون الى بلادهم وهم من بعد ذلك لن يخرجوا لحربنا أبدا » .

وحين وصل عمرو بن الليث أخبار هذه الهزيمة وكان بنيسابور ، بلغ به الحنق والغيط مداه وملا عليه الانتقام من عدوه كل تفكير . وحين طلب الى اسماعيل أن يفك اسار قائديه فرفض ، سار في جيش جديد الى بخارى . وكان اسماعيل بدوره على أهبة تامة لهذا الأمر ، وكان قد استمال اليه الولايات المتاخمة له . فعبر عند ذلك جيحون من فوره وهاجم حصن بلخ وكان عمرو يتحصن فيه . وحين لم يفلح في حمل سكان بلخ على تسليم عمرو اليه فعزم على قتالهم ، بادره عمرو بالخروج اليه واشتبك معه في معركة شديدة انتهت بهزيمة عمرو هزيمة حاسمة ، حتى لم يستطع الفرار من الميدان ومعه رجالان من رجاله الا بمشقة بالغة . على أنه سرعان ما وقع في الأسر ، فأتوا به الى اسماعيل يوم الأربعاء التاسع من جمادى الآخر عام ٢٨٨/٩٠٠ (١) . وبلغ باسماعيل التأثير غايته حين طلع عليه خصمه الأسير . حتى اذا ما هم عمرو بالنزول عن دابته ليحييه منعه اسماعيل من ذلك ، وقال له انه من واجبه اليوم أن يكرمه . وما غدا أن أنزله قصرا له

(١) بروى كتاب زينة التواريخ قصة طريقه مما أصاب عمرا من غير معاجاة ، فيقول أن عمرا جلس أول مساء له في الأسر على الأرض فأخذ يراقب أحد حراسه وهو يعد له وجبة بسيطة في صفحة مما يستخدم لسقى الخيل ، ولم يكن عنده غيرها ، وما أن وضعها على النار حتى قدم كلب فأدخل رأسه فيها فانحسر فلم يستطع فككا فانطلق بها هاربا . ولم يملك عمرو مع هذا المنظر الا أن يمتن في الضحك . وحين أنكر عليه حارسه ذلك أوضح له ان تابعه كان قد شكاه في الصباح بأن ثلاثمائة بعير لا تكفى لحمل أدوات مطبخه ، وها هو كلب واحد ينطلق بصفحته وبطعامه ..

فى سواد قريب وزاره مرة أخرى بعد مرور أيام أربعة ، وبذل ما فى وسعه ليخفف عن غريمه السابق هذا من وقع ما نزل به . وحين جرى الحديث بينهما عن كيفية وقوعه فى الأسر ، روى عمرو قصته فقال ان جواده كبا به وهو فى طريقه الى الفرار ، فما ان خلص منه حتى أفرش الأرض من فرط التعب والجهد ، فلم ينتبه الا على قدوم فارسين شرعا ومحجها فى وجهه ، فاستعظهما وهو رجل شيخ كبير حتى عدلا عن قتله ، وأخذتهما الشفقة به فأركبه أحدهما خلفه . وحين اجتمع الناس من حوله فسألوه عما يحمل مما غلا ثمنه أطلعهم على جواهر كانت معه تقدر بشائين ألف درهم فأخذوها منه كما اتزعوا منه كذلك خفه الثمين . وأوضح عمرو : انه حين وقفوا على حقيقة أمره ، عامله القوم بكل اجلال ، وفق أوامر اسماعيل ، حتى ردوا اليه أكثر ما أخذ منه . وكان لشهامة اسماعيل وقع كبير فى نفس عمرو حتى أفضى اليه بأنه كان قد أخفى فى بلخ حمولة تسعة أنن من الذهب . وقد أمر اسماعيل باحضار هذا المال ورده عليه (١) .

ما من شك فى أن ذلك الأمير السامانى الكريم لم يكن ليكف عن مداومة عطفه البالغ على غريمه الذى وقع فى قبضته ، لولا أن كتب اليه الخليفة المعتضد بالله ، عند سماعه باتتصاره ، يأمره بأن يسير اليه عمرو محتجا بأنه بوصفه أميراً للمؤمنين هو وحده الذى له أن يعاقب المذنب . مع أنه هو نفسه الذى حرضه على تلك الحرب . ولنا أن تتصور مدى وقع هذا الأمر فى نفس اسماعيل . وان كان لم يملك ، بدافع من ورعه ، أن يتجاهل مطالب أمير المؤمنين مع علمه التام بدسائسه ومؤامراته . ونفذ

(١) تقول بعض الروايات أن اسماعيل منعه أبائوه من قبول هذا المال وقال له « من أين لك ولاخيك هذا المال والدنيا كلها تعرف أن أبائكم كان صفارا ، وان هى الا أيام قليله تلك التى بسم لك الحظ فيها ، بتأمرك فى الواقع ، فبلغت الى السلطان . وقد صار لك هذا المال بجورك وظلمك . واليوم تريد أن تخلعه عنك وتلقى به على ، ولست أنا ممن يخدعون بزخرف القول » . والمعروف أن اسماعيل لم يكن أبدا ليتحدث الى أعدائه بمثل هذه اللهجة العنيفة . والغالب أن هذه القصة من وضع بعض المؤرخين الشرقيين هى وذلك الخرافة التى تعزو اكتشاف أموال عمرو عند بلخ الى أحد الجوارح ، وقد ذكرها دهرمارى فى كتابه المشهار اليه فى السابق

Idfrémery p. 121

اسماعيل أوامر الخليفة فأتى بعمره الي بخارى و شوجد . ولم يجد اسماعيل في نفسه القدرة الكافية ليصارح خصمه شخصيا بأمر الخليفة المؤام . وأشار عليه من بعد ذلك بالاستسلام الذي لا مناص منه على مرارته ، وطلب اليه الصفع ، وسأله عما يرغب فيه . هنالك أوصى عمرو اسماعيل بأولاده وأتباعه المخلصين ثم سار الي بغداد تحوطه أبهة الأمراء . وسلمه الخليفة عند وصوله بغداد الي طواشيه صافى (الخرمى) فرمى به في السجن ، ففضى به عامين حتى أمر المكتفى من بعد ذلك بقتله في جمادى الأولى من عام ٢٩٠/٩٠٣ (١) .

بادر الخليفة عقب وصول عمرو الي بغداد بارسال البراءة الي اسماعيل بولاية خراسان ، وكانت تمتد اذ ذاك شرقا من بسطام . شاهرود (الحالية) حتى بلخ ، وشمالا من كين الي سيستان والعراق ومازندران حتى جيحون . وقدم رسول الخليفة ومعه الخلع الفاخرة فاستقبله اسماعيل بالحفاوة والترحاب وأهداه بدوره الهدايا السنية . وما ان شرع اسماعيل في الاحتفال بتقليده أمور هذه البلاد حتى جاءته الأخبار بزحف محمد بن زيد العلوى أمير طبرستان على بلاده . وحاول اسماعيل أول الأمر أن يرد هذا الأمير عنه سلما ، حتى اذا ما فشل في ذلك سير اليه محمد بن هارون بالجند . وبدأ القتال أول الأمر في صالح العلوى ، حتى اذا ما اندفع فيه من بعد ذلك دون تبصر أو تثبت انقلب الحال فخرس عرشه وأضاع حياته . هنالك عهد اسماعيل بطبرستان الي قائده المظفر الذى قابل صنيع سيده هذا من بعد ذلك بالتعكر له والخروج عليه . على أن اسماعيل سرعان ما استرجع هذه الامارة منه ، بعد أن دفع ذلك التأثير حياته جزاء ما قدمت يداه ، وبعث بأبى صالح منصور ابن أخيه عاملا عليها .

عاد اسماعيل من العراق ليسرع عام ٢٩١/٩٠٣ م بالخروج من جديد الي حدوده الشمالية عند مدينة تركستان وكان الترك قد أخذوا يتهددون

(١) أهدى اسماعيل ، رسول الخليفة مائة ألف درهم . وأدى به توقيره للخليفة مع فرط تقواه الي أنه كان يصلى ركعتين لله شكرا قبل أن يتسلم كل خلعة من الخلع المهداة اليه .

بالغزو . والواقع أن الترك كانوا على الدوام مصدرا للمتاعب لبلاد ماوراء النهر . وقد ظهروا في هذه الواقعة في جموع كثيفة على ما تقول الرواية العربية (١) . على أن حشودهم هذه لم تمنع اسماعيل من أن يوقع الهزيمة بهم ويشتت من شملهم ، ثم يعود من بعد ذلك الى بخارى محملا بالأسلاب . وبهذه المعركة ختمت سلسلة الحروب التي اضطلع بها هذا الساماني الكبير ، منذ أن ولي العرش ، واستطاع بها أن يضم ولايات غنية كثيرة الى ما ورثه من ملك عند جيحون ، ويجعل بذلك من بلاد ما وراء النهر دولة قوية حين لم تكن أيام العرب الا مجرد أيلة تتبع امارة خراسان .

غدت بخارى في الواقع هي حاضرة كل ولايات آسيا الوسطى . ذلك أن سلطان الحاكم المقيم عند زرفشان قد بات يمتد شمالا حتى مشارف الصحراء الكبرى ، وشرقا حتى وديان جبال تيان شان ، وجنوبا حتى الخليج الفارسي وحدود الهند الشمالية (٢) ، وغربا الى ما وراء العراق (العجمي) حتى مسيرة يومين الى دار الخلافة . وهكذا كان عمال اسماعيل هم أصحاب الأمر في مرو ونيسابور والري وآمل وقزوين وأصفهان وشيراز وهرات وبلخ . ونجح اسماعيل أولا في توحيد ايراني الشرق مع بني جلدتهم في الغرب . وبدا اتحاد هذه الولايات ، بفضل ملكته الادارية واتصاراته الحربية ، أشد رسوخا مما كانت عليه الدولة العربية التي لم تظهر موثقة العربى الا لفترة قصيرة ، وذلك بعد معارك الفتوح الأولى .

ولكى ندرك كنه ذلك النصر السياسى يجب أن لا يغيب عن بالنا أنه ابان المائتين والخمسين عاما التي اهضمت منذ الفتح العربى ، أخذت الأفكار الفارسية الاسلامية تحل محل الثقافة الفارسية القديمة في كل من ايران (١) ينقل دفرمارى عن ابن الأثير أن معسكر الترك كان يضم سبعمائة سراق كبير مما لا يستخدمه الا الرؤساء ، وعلى هذا قرر المؤلف عظم جيش الترك .

(٢) يذكر النرشخى « السند والهند » وهو تخطب منه ، اذ المعروف ان محمود الغزنوى هو أول من مد سلطانه الى ما وراء جبال سليمان (المؤلف) فتح العرب اقليم السند فقط في أواخر القرن الأول الهجرى ، أى قبل قدوم محمود بثلاثة قرون - وبقيت دولتهم هناك حتى فتوح الغزنويين (المترجم)

وبلاد ما وراء النهر . ومرد ذلك كان الى أن العقيدة الاسلامية لم تقض القضاء كله على الشعور بالقومية بين الفرس ، ذلك أن عمال الخليفة من العرب كانوا مكروهين من الأهلىن على خلاف العمال من أهل البلاد أنفسهم . وهذا هو السبب الحقيقى الذى مكن لحفنة من العسكريين ، حين تمردوا على الخليفة ، من أن ينجحوا فى تأسيس دولة جديدة لهم . وفى هذا كله تفسير للسهولة التى استطاع بها اسماعيل أن يؤسس له دولة مستقلة كان قيامها هدفه الحقيقى منذ أول الأمر برغم ما كان يظهره من الخضوع للخليفة .

ولم تعد بخارى مجرد حاضرة له فحسب ، وهى التى كانت لها على غيرها من المدن ، وانما صارت كذلك مركزا لكل النشاط والحركات الفكرية التى ظهرت من بعد ذلك فى القسم الشرقى من بلاد الدولة الاسلامية .

وحين قضى العرب على كيان إيران القومى ، بعد واقعة القادسية ، واجتاح أبناء الصحراء العربية هؤلاء بلاد فارس ، بقى بصيص غير خاب من ذرات الحضارة الفارسية تحت المعابد فى إيران الشرقية وبخاصة عند بلخ وفى بلاد ما وراء النهر ، ليدكى من نارها السامانيون من بعد ذلك حتى أشرقت اسلامية خالصة فى اتجاهها ، ولا يصعب مع هذا تتبع منشئها فى بيوت النار الزرادشتية .

ان بخارى التى اشتهرت أيام الزرادشتيين بأنها « مثابة العلوم كلها » اشتاقت كذلك لاسترداد صيتها القديم فى ظل الاسلام . وسرعان ما أصبحت تعرف باسم « بخارى الشريفة التقية » ، وهو لقب ليس لها اليوم منه نصيب . وكان النشاط العقلى السائد فى ذاك الوقت وقفا على علوم الدين . وبهذا كان أوائل المشاهير الذين ازدادت بهم تلك المدينة التى تقع على نهر زرفشان هم من الأولياء الذين لا تزال قبورهم هناك أعظم المزارات حتى اليوم (١) . ومن هؤلاء أبو حفص البخارى المولود عام ١٥٠/

(١) انظر الجزء الخاص بمزارات بخارى فى القسم الأخير من تاريخ النرشخى . ويقع قبر أبى حفص البخارى فى الجبانة التى تعرف باسم تل خواجه . وتحوى تلك الجبانة كذلك مقام الشيخ بيدار ، ويروى عنه أنه لم تغمض له عين مدى أربعين عاما كان يقضى لياليها كلها متبهلا .

٧٦٧ ، وكان من العلماء الذين تزعموا الحركة الفكرية في مدينة بخارى
 زمنا طويلا . وهو من تلاميذ الامام محمد شيباني ، وقد شهد له بأنه كان
 أقدر تلاميذه . ومات أبو حفص عام ٢٢٧/٨٤١ ، وترك من بعده ذكرى
 خالدة لنشاطه العقلي تمثلت في تلميذه عبد الله الفقيه الملقب بالبخارى (١)
 شيخ المحدثين المسلمين الذي ولد عام ١٩٤/٨٠٩ في بخارى . ويعد كتابه
 الكبير « جامع الصحيح » أعظم مرجع للحديث في الثقافة الاسلامية كلها .
 ويذكر ابن خلكان أن أكثر من سبعين ألفا من طلبة العلم درسوا هذا
 الكتاب على هذا الشيخ ، وأن هذا الكتاب يحوى ستمائة ألف حديث
 أنفق البخارى ستة عشر عاما في جمعها وتصنيفها . ومات في نواحي
 سمرقند عام ٢٥٦/٨٦٩ . ويأتى من بعده محمد السبدمونى العلامة قاضى
 القضاة فى عصر اسماعيل ، ومات عام ٣٠٤/٩١٦ م ، ثم محمد بن الفضل
 أعظم فقيه فى عصره ، وغير هؤلاء ممن صارت بهم بخارى ، ومدن العالم
 الاسلامى الأخرى تحسدها على وجودهم بها (٢) . ويقول مقرظو اسماعيل
 ان صنيت بخارى بهؤلاء العلماء هو الذى حدا بالأمير السامانى الكبير الى
 أن يتخذها حاضرة له بدل سمرقند . ومهما يكن فقد عرف اسماعيل نفسه
 بالتقوى (٣) والاستمساك بالشرق وبرعايته للعلماء (٤) حتى قدم اليه
 كثير منهم من أماكن بعيدة ليستكملوا دراستهم فى مدرسته أو ليقضوا
 حياتهم فى التأمل والبحث بدار كتبه التى حبس عليها الجبوس .

(١) هو أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى (المترجم)

(٢) يورد كتاب « ذكر علماء بخارى » وهو الذى نقل عنه النرشخى ،
 أسماء بضع مئات من الأولياء المدفونين ببخارى وما حوالها . وأكثر من
 نصف هؤلاء عاش فى عهد السامانيين .

(٣) مما يروى عن تقوى اسماعيل أنه كان حين يسمع اذان الصلاة
 وهو يركب فى شوارع المدينة ، كان ينزل عن دابته حتى يفرغ المؤذن
 من أذانه .

(٤) مما يدل على بذل اسماعيل للشيوخ أن محمد بن الفضل البخارى
 مات عن أربعمائة ألف دينار .

ويحدثنا التاريخ عن يدعى حاشد الصوفى وكان أميراً على المقام بدمشق ، قدم بخارى ليقضى بقية أيامه فى عزلة وتأمل دينى . وبقي هناك حتى مات عام ٢٤٦/٨٠٩ (١) . وما عدا هذا الشعور القومى الذى بعث من جديد بايران فى ظل السامانيين ، بالإضافة الى انعطافاته الدينية ، أن خطأ أول خطوة لحياء اللغة الفارسية وآدابها من جديد ، فانتعش اللسان الفارسي المتناسق مرة أخرى فى عهد نصر واسماعيل بعد أن كان حكام العرب قد حرموه على الناس لأكثر من مائتى عام . وعلى خلاف ما حدث عند شعوب آسيا التى دخلت فى الاسلام فى وقت متأخر فدخل فى لغاتهم ، مع الثقافة الاسلامية ، قدر كبير من الكلمات والمصطلحات العربية ، فإن الشعر الفارسي قد احتفظ أول الأمر ببقائه تاماً ، ذلك النقاء الذى هو سر الجبال فى أشعار أبى الحسن الرودكى وأغلب أشعار الفردوسى الخالد الغنائية . ومن أسف أن هذه الظاهرة القومية ما نلبث أن تختفى ، فنرى الآداب الفارسية فى ظل السلاجقة وقد زحرت بالاصطلاحات الكثيرة الدخيلة التى استعادت من غيرها من اللغات . ولا مراء فى أن السامانيين الأوائل ، بما بذلوه من جهود موقفة بازاء لغة ايران الأصلية ، جديرون بكل ثناء أكثر من غيرهم من الأمراء أصحاب اللسان الفارسي ممن حكموا آسيا حتى اليوم (٢) .

كان اسماعيل (أو الأمير اسماعيل على ما كان يلقبه المؤرخون الشرقيون باعتبار استقلاله الظاهر عن بغداد) هو الرجل الوحيد الجدير

(١) يروى عن حاشد هذا أنه عندما بلغ جيحون ألفى بكل متاعه فيه فلم يحتفظ منه الا بمشيط (على رسم الدراویش اذ داك) كتب على وجه منه آية من آيات الذكر الحكيم فى حين خط على الوجه الآخر هذه العبارة « الكفارة عن الذنب أصعب من ارتكابه » .

(٢) نتجاهل المؤلف هنا التطور الطبيعى للغة ولعله لو فكر فى دخول السرس فى الاسلام وذويوع القرآن بينهم وجريان آياته على ألسنتهم لقال بما يقول به علماء اللغة ، والفرس أنفسهم ، بأن من الطبيعى أن تدخل الألفاظ العربية اللغة الفارسية وتصبح اللغة الفارسية الاسلامية متميزة عن سابقتها السلوية . لغة قوية الفرس فى الوقت نفسه . (الخشاب)

بهذه الحقبة المشهورة فى تاريخ آسيا الوسطى . فلم يكن فى شجاعته دون مؤسسى دول الصفارين أو الديلمة أو البويهيين ، كما كان يشتهر فوق ذلك بتقواه وعدله ورحمته وميله الى العلم . ولقد ترمى الى سمعه ذات يوم أن جياة الخراج فى الرى يطففون بموازين ثقيلة زائفة ، فبعث برسوله من فورده ليأتيه بتلك الأثقال فى حرز الى بخارى ويوقف الجابى عن عمله ويعلق ادارته حتى تصب الأثقال على حقيقتها وتعاد الى هناك . وثمة قصة أخرى مشيرة تروى عنه ، اذ دخل على ابنه أحمد وهو فى الدرس فسمع مؤدبه وهو يسبه ويقول له : لا بارك الله فيك ولا فيمن ولدك ، هنالك لم يملك اسماعيل الا أن يسرع بالخروج من الغرفة كما دخلها ثم يستدعى ذلك المربى ويهدىء من روعه ويصله . وظلت ذكرى اسماعيل حية فى خراسان وفى ايران بطبيعة الحال كذلك لعدة قرون من بعده ، وذلك بمثل هذه الفعال وغيرها مما كان يروى عنه ، ويغرم الشرقيون جسيما بأن يزدوا فيها . فلا عجب أن نرى اسمه يذكره تاجيك بخارى حتى اليوم مقرونا بالتبجيل الذى يصفونه على الأولياء عندهم .

أشرنا من قبل الى كلف اسماعيل بتلك المدينة الواقعة على زرفشان وتفضيله لها على غيرها . وهو وان لم يستطع أن يبلغ بها ما بلغه تيمور ، مثلا ، بسمرقند ، الا أن ذكراه ستبقى ماثلة على الدوام فى أذهان سكان بخارى الأصليين بوصفه الأمير العظيم الحقيقى الوحيد من أصلاب الايرانيين . ونذكر من بين المنشآت التى أقامها اسماعيل ، أولا ، ذلك القصر الذى يقع على ريغستان . وكان قد شرع فى بنائه أصلا قبل الاسلام ، حتى جاء اسماعيل فقام بتوسيعه وزخرفته ليصير بذلك مقرا للأمير الحاكم وكبار رجال الدولة . ويأتى من بعده قصر موليان الذى أقامه على ضفاف القناة التى تعرف بهذا الاسم فى بذخ يليق بعظمة الأمراء . ويشتهر هذا القصر بروعة بنائه . وكانت تحيط به الحدائق والمروج وأحواض الزهر وفيها النافورات والفسدان الجارية . وعانى اسماعيل

مشقة شديدة لمدى الماء (١) الذي جلب اليه في قنوات أجروها ، بدقة ،
اليه من النهر الذي يجري بأعلى المدينة . كذلك مد اسماعيل أسوار المدينة
وحصنها ، وكانت هذه قد بناها الحاكم أبو المباس الطوسي في عهد
الخلافة المايدي (٢) .

ويتال ان عدد المدارس الجامعة بخاري كان في عهد اسماعيل يزيد
على ثلاثه في كل مدن آسيا ، حتى لنرى بلخ وهي التي تعرف بقبة
الاسلام ، لم تستطع أن تبرز لتنافسها الا بعد ذلك بكثير . وأخذت هذه
المدينة التي تقوم على شاطئ زرفشان (٣) ، والتي نغدت قلب نصف آسيا

(١) يجلب الماء اليوم غير نقي الى بخارى من زرفشان (الذي يجري
الى الشمال منها) بواسطة قنوات رديئة لا تفصل بالوعات الأقدار . في
حين كان يحمل الماء لتلك العاصمة القديمة لبلاد ما وراء النهر أمام
السامانيين ما لا يقل عن احدى عشرة فناء عريضة هي : ١ - جوى موليان ،
وكانت تعترى في أجمل أجراء بخارى وبوم على ضفتيها القصور الجميلة
وسط الرياض . وهذا الجزء من المدينة كان يعوف باسم موليان ، اذ كان
اسماعيل قد وقفه على الملأ (أى رجال الدين) ٢٠ - رود شابور ،
وشتهر عموما باسم شفير غيام أو كيا فيرجام (على ما ورد في كتاب
الممالك والممالك) وهي تنسب الى أمير من السامانيين كان معجبا للصيد
عاش عند بخارى وأجرى تلك القناة بها ٣٠ - قرقان العليا ٤٠ - قرقان
الرود . ٥ - جارجتفرد ، وهي طويلة جدا ٦٠ - سمتجن وهي كبيرة
كذلك ٧٠ - بيقانرود ٨٠ - فرايوز العليا (وذكر كتاب المسالك
والممالك فراوان السفلى وفراوان العليا بوصفهما قرينين بظاهر بخارى)
وبعد من مائها الضواحي ٩٠ - فرايوز السفلى ، وتعرف أحيانا باسم
زيمون ١٠٠ - كيف أو كفا ١١٠ - رودزر . وجميع القنوات هي من
صنع الانسان ، على رواية النرشخي صاحب هذا الثبوت ، الا الخامسة فقد
كانت مجرى طبيعيا في الاصل .

(٢) أقيم سور المدينة بسبب توالى غزوات الترك عليها ، وكانت
اقامته عام (٨٧٣/٢١٥) ، ثم عمر عمارة كبيرة عام (٨٤٩/٢٣٥) أى قبل
زمن اسماعيل . وجدده من بعده قليح التامقاني عام ٥٦٠ (١١٦٤) حتى
خربه جنكيز خان تخريبا تاما عام (١٢١٣/٦١٠) .

(٣) حكم بخارى من قبل أخيه مدة عشرين عاما ، ثم حكم من بعد ذلك
سبع سنين ببلاد ما وراء النهر ثم سبعا أخرى في خراسان ، فجميعها أربعة
وثلاثون عاما .

الاسلامية ، تزدهر ويعلو قدرها يوما عن يوم بوصفها قصة المال والعلم
ومركز انتاج الحرير الذائع الصيت كذلك . ولقد جنى اسماعيل خير
الثمار من وراء حروبه الطويلة وان لم يستد به الأجل طويلا لينعم بالملك ،
فقد نزل به الداء في قصره الواقع على قناة مويايان فنصححه طبيبه أن يغادر
المكان لرطوبته الى مصطاده في زرمان ، حيث وافاه الأجل به بسد قليل
مساء الثلاثاء من سفر عام ١٢٩٥/٩٠٧ وهو في الحادية والستين من عمره ،
بعد أن حكم أربعة وثلاثين عاما قضى بضع سنين منها عاملا لأخيه على
بخارى ، وكان في باقيها حاكما مستقلا على القسم الشرقي من آسيا
الاسلامية .

الفصل الخامس سقوط السامانيين وظهور الترك

٢٩٥ (٩٠٧) - ٢٩٥ (١٠٠٤)

ان الدول والأسر الحاكمة ، فى الشرق والغرب على السواء ، كانت على الدوام تستطيع أن تحتفظ بما تكون قد بلغت من مجد وعظمة ماقوت عيها روح التكاف والاتحاد بين أبنائها فهدتهم الى العمل المشترك لخير الصالح العام . وحين كانت هذه الظاهرة تغيب فان مواهب الأفراد ، مهما بلغت من السمو ، كانت لا تجدى ، مع هذه الأوضاع ، الا قليلا . لهذا نرى بيت السامانيين يأخذ فى الانهيار السريع منذ أن راح بعض رجائه ، ومعهم بعض أعيان دولتهم ، يتجاملون ما يجب عليهم من اطاعة أوليائهم واحترامهم لهم ، حتى انطلقوا يدبرون من المكائد ما كانوا يرومون من ورائها الى اغتصاب الحكم لأنفسهم .

وما من شك فى أن قيام حاكم قوى ببلاد ما وراء النهر ، يحزم أمر جوع الترك هناك ، له تفعة العظمى ، ولا سيما فى تلك الفترة التى ساد فيها الاضطراب بهذا الجزء من آسيا بسبب ضعف الخلفاء . ولكننا نرى خلفاء اسماعيل من السامانيين قد صاروا ، الا تقريبا قليلا منهم ، مجرد دعى لا حيلة لها بأيدي رجال دولتهم ، حتى صار الحال بالترك الى الصدر يعد أن كانوا مجرد خدم وأتباع . وسرعان ما تزايدت قوتهم ، فلم يتسكنوا من القضاء على السامانيين ببلاد ما وراء النهر فحسب ، بل لقد انطلقوا كذلك ينشرون نفوذهم فى كل ناحية حتى استولوا على عروش آسيوية أخرى كثيرة ، وهم يذكرون دعواهم ، التى لا يزالون عليها حتى اليوم ، بأنهم أبناء جنس يتفوق على غيره من سائر الأجناس .

ولقد خلف اسماعيل ابنه أحمد وكان خلوا من الحزم في الإدارة والتمرس بالحروب وان لم يخل من بعض فضائل أبيه . وأول ما فعل هذا الأمير حين أمسك بزمام الحكم هو أن قبض على عمه أمير سمرقند وحبسه ببخارى اذ كان يتوقع تأمره عليه في الخفاء ، ومن ثم انطلق الى طبرستان ليعاقب بارس الكبير عامله هناك اذ كان قد بلغ الى ثراء فاحش (١) باغتصاب أموال الناس وظلمهم . هنالك لجأ هذا العامل الى بغداد بعد أن أذن له المكتفى بذلك ، فلم يغضب الأمير أحمد الساماني لهرب عامله بقدر ما غضب لخروج أمواله من يده . وندب أبا العباس بن عبد الله مكانه على حكومة خراسان ، وكان رجلاً قديراً ما غدا أن التف الناس حوله حتى لم يستطع الناصر الأطروش (٢) العلوى أن يناوئ الحكومة السامانية هناك . وعاد أحمد الى عاصمته من بعد ذلك ، ولكن حبه للفتوح لم يدعه يركن هناك الى الراحة طويلاً ، فقد تطلع الى فتح سيستان فزحف عليها عام ٢٩٨ - ٩١٠/٩١١ بجيش كبير عليه أقدر قواده لحرب المعدل الصفارى بأبهرها ، فهزمه وحمله معه أسيراً الى بخارى بعد أن عهد بحكومته الى ابن أخيه أبى صالح منصور . وكان أبوه في الحبس فأخرج منه وأعيد بدوره الى منصبه السابق .

وفيما كان أحمد يضطاد على شواطئ سيحون عام ٩١٣/٣٠١ جاءته الأخبار باستيلاء الأطروش العلوى على طبرستان وطرده لأبهرها صالح منها . وبلغ بالأمر الساماني التأثير عند سماع هذا الخبر حتى ليقال انه دعا الله أن يوافيه أجله ان كان قد كتب عليه ضياع ملكه . وكأن الله قد استجاب لدعائه ، فقد عاش بعض الوقت في خوف من أقرب أتباعه اليه

(١) يروى مير خوند أنه هرب الى بغداد في أربعة آلاف من الجنود ومعه أمواله الكثيرة . ومات الخليفة المكتفى وهو في طريقه الى هذه المدينة ، فطمع خلفه المقتدر في هذا المال وقتله بالسهم .

(٢) اسمه الاصلى الحسن بن على وأبوه الحسين بن على ، وكان ينشر دعوته بين الدياليم منذ عام ٢٨٧ (٩٠٠) حتى هدى كثيراً منهم الى الاسلام وكانت استمالته للناس وسيلة لفاتحه الحقيقية في زيادة نفوذه الديني . ككل العلويين . انظر Defrémery, Histoire des Samanides p. 136 (Weil vol II. p. 613)

حتى كان ينام وعلى بابه أسدان يقومان على حراسته . وأغفلوا احضار
الأسدين ذات ليلة وهو في مضاربه ، فاتهز غلماناه هذه الفرصة وهجموا
عليه وقتلوه في ليل ٢٣/٢٤ يناير من عام ٩١٤ (١) . وقد حكم ست
سنوات وأربعة أشهر وسبعة أيام ولقب بالشهيد بسبب مقتله على هذا
الوجه .

وخلفه على العرش ابنه أبو الحسن نصر (ولقب فيما بعد بالسعيد)
وكان اذ ذاك حدثا في العاشرة من عمره . وحين دخل عليه أعيان بخارى
لنهنته تملكه الرعب وصرخ في وجههم اذ كان قد تبادر الى ذهنه أنهم انما
قدموا اليه ليقتلوه كما قتلوا أباه من قبل ، وما زالوا به حتى هدأوا من
روعه . وسار الحكم في السنوات الأولى من عهده بالوصاية . وسرعان
ما علا نجمه من بعد ذلك حتى أشاد بذكره المؤرخون الشرقيون أكثر مما
أشادوا بغيره . ولم يكن هذا الأمير السعيد ، وكان يشتهر بهذا اللقب ،
خلوا من المواهب ، كما صادفه كذلك توفيق ملحوظ في كل أعماله . على
أن تألق عهده كان في الواقع أقرب الى ومضات لهب يخبو أكثر منه الى
ضوء ثابت مستقر . فهو برغم امتلاكه التام لكل بلاد جده ، بل وضافته
لأراض جديدة اليها (٢) ، فانه لم يبلغ بحكمه الطويل الى تقوية الدولة
السامانية واستقرارها . فقد كان عليه أول حكمه أن يدفع عن نفسه خطر
عمه اسحاق الذي كلن يطالب بالعرش ومن ورائه حزب قوى يساند
بدعوى أنه كان أكبر أعضاء الأسرة الحاكمة سنا . ولم يستطع حمويه قائد
الأمير السعيد أن يوقع باسحاق الا بعد أن واجهه في حرين أسره من
بعدهما وساقه الى الحبس في بخارى حيث قضى بعد قليل . هذا كما شجع
الثائر حسين (٣) الأمير منصور بن اسحاق على العصيان فتأدى بالثورة في

(١) Weil, p. 614. - ٧ جمادى الآخرة عام ٣٠١ هـ : المترجم

(٢) يذكر مالكولم في كتابه History of Persia ضمن ذلك اصفهان
وقم (من مدن الري)

(٣) هو حسين بن علي مروردي وكان يطمع بأبام الأمير أحمد في ولاية
سيستان فلما خرجت من يده عمد فيما بعد الى العصيان - حبيب السير
ثان ص ٣٥٧ تهران ١٣٣٣ ش (المترجم) .

نيسابور . على أنه لقي أجله وحمويه في طريقه إليه ، لينصرف القائد الساماني من بعد ذلك الى التأثير حسين نفسه . وتطوع بالقضاء على هذا التأثير أمير هراة اذ ذاك أحمد بن سهل وكان من أشياع السامانيين المخلصين . وحين حمل حسين أسيرا الى بخارى عفى عنه الأمير الساماني بعد قليل وقلده منصبا في بلاطه (١) . وكان الأمير نصر غالبا ما يخلف وعوده . وما ان عدل عما كان قد وعد به أحمد بن سهل حتى ثار هذا عليه عام ٩٢٠/٩١٩/٣٧٠ وما لبث حمويه أن خرج اليه على كل حال فحاصر هراة وأوقعه في أسره ثم بعث به الى بخارى حيث مات في الحبس .

وأهم هذه الحملات جميعا على كل حال هي التي كان على نصر أن يسيرها الى العلويين في طبرستان . ولم يكن هؤلاء قد أفاقوا فحسب مما نزل بهم من الهزائم منذ أن مات الأمير أحمد ، بل لقد استطاعوا كذلك أن يمدوا نفوذهم فعلا الى جزء من خراسان وذلك بفضل جهود قائدهم الشجاع ليلي بن النعمان على الخصوص . وتقدم هذا القائد من بعد ذلك بطريق دامغان حتى بلغ نيسابور ، ليسير اليه عند ذلك حمويه ويرغمه على الارتداد . وقد قتل أثناء انسحابه عام ٩٢١/٣٠٩ . وبمقتل هذا القائد العلوي لم يعد الهدوء الى طبرستان ، فقد ظل اشياع العلويين يظهرن هنا وهناك بها من حين الى آخر . وها هو ذا الخليفة يستنجد كذلك بالأمير الساماني للضرب على أيدي عماله الخارجين عليه ومنهم غلامه السابق فاتك الذي كان قد استولى بالفعل على مدينة الري . وكان الأمير السعيد يرى نفسه كفوًا لمواجهة كل هذه المشاكل بفضل يقطته التامة حتى راقب باقتباه تام أبعد حدود دولته ، فضلا عما كان يكتنه له الأمراء

(١) طلب الأمير السعيد ماء ذات يوم فجاء له به في أنية عادية ، فتعجب من ذلك حسين وقال لابن حمويه « ان أباك هو أمير نيسابور ، وبها تصنع الأنية الجميلة فكيف لا يبعث ابوك بشيء منها الى الأمير » هنالك اشتد غضب ابن القائد المشهور ورد عليه بأن أباه حين يبعث بالهدايا من خراسان انما تكون عادة من أمثاله ، هذا وفخار نيسابور يذاع صيته حتى اليوم .

السامانيون من الاحترام البالغ مع طاعتهم التامة له (١) . وقد استمر حكمه ثمانية وعشرين عاما ، وكان على فضائل ملكية عالية . وما بذله لأعظم شعراء عصره أبي الحسن الرودكى جدير بأن تسير بذكره الركبان ومات بالدون في سن مبكرة وهو في الثامنة والثلاثين من عمره في شعبان من عام ٣٣١/٩٤٣ (٢) .

كان نصر قد جعل ولاية العهد من بعده لابنه الأصغر ، لكن الملك صار بالفعل الى أخيه الأكبر نوح الذى أدت به صفاته العالية الى أن لقبه الناس بالأمير الحميد . وقد بدأ حكمه بما يدل على شهامته حين عفا عن أبي الفضل محمد أكبر أشياع خصمه الأمير السابق وندبه لحكومة سمرقند . وحروبته الكثيرة والفتن التى صادفتها ، وجميعها هى مدار تاريخ حكمه ، على ما كان الحال عليه عند اسلافه كذلك ، هذه كلها بدأت أواخر عام ٣٣٢/٩٤٣ بحربه مع ركن الدولة الديلى وكان قد استولى على الري . وكان قائد الأمير السامانى اذ ذاك هو أبو على حفيد الأمير محتاج وكان شجاعا طموحا . ولئن فشل فى أول حرب له مع ركن الدولة بظاهر

(١) يدلل ميرخوند على مدى احترام السامانيين لأمرهم وطاعتهم له بهذه الحكاية : « حين حاول ما كان بن كاكويه أن يضع يده على خراسان بالقوة ، سير القائد الكبير الأمير على محتاج لحربه . وفيما كان هذا القائد فى حضرة الأمير لينلقى منه أوامره قبل رحيله ، لاحظ عليه بعض أتباعه شدة انزعاجه . وحين أنهت المقاتلة ودخل الأمير ، أخرج على محتاج من بين ثيابه عقربا كانت قد لدغته فى أكثر من موضع بجسده . ولما بلغ الأمير ذلك فسأله عن سبب عدم خروجه من حضرة حين شعر بذلك ، أجابه بأنه اذا لم يكن التابع ليعنمل بضع لدغات مثل هذه فى حضرة أمير فكيف له أن يحتمل طعنات السيوف فى غيابه . »

(٢) ابوالحسن الرودكى هو أقدم شعراء الفرس ولا يزال موضع التعظيم فى آسيا الوسطى . وهو يميز بفريخته الخصة ولفته الفارسية الخالصة ويقول هامر ، نقلا عن شراح البمينى ، فى تاريخه للشعر الفارسى ، أن الرودكى نظم أكثر من ألف بيت من الشعر جمعت فى مائة دفتر وأنه كان يعيش فى أبهة وعظمة حتى كان يسبر وبين يديه مئتان من الفلمان ، ويحمل متاعه الفخم اربعمئة بعير .

نشر ديوانه مع دراسة وافية الأستاذ سعيد نقبى فى طهران .
(الخشاب)

الرى بسبب خيانة الجند الكرد له (١) ، فقد عاد الى هناك فى العام التالى من جديد وأرغم عدوه على الفرار وأقر الأمور فى تلك الولاية . وأطمع أبا على صنيعه هذا هو وصنيعه الآخر فى الغالب — حين حقق له رغبته فى مساعدة وشمكير الزيارى على الاستيلاء على حكومة طبرستان — فى أن يطالب فى كثير من الصلف والغرور بحقوق لا وجه له فيها جزاء له على فعاله هذه . وحين وجد حكومة خراسان تصير الغبره ، وكان يحسب أنها ستؤول اليه ، أعلن الخروج على أميره وانضم الى ابراهيم السامانى ، عم نوح وخصمه ، فوضعا أيديهما معا على العراق ثم على خراسان من بعد ذلك . وأمر ابراهيم بقراءة الخطبة باسمه فى كل مكان ، فى حين ترك نوح بخارى ولجأ الى سمرقند . وكاد يفقد عرشه على وجه اليقين لولا أن حاله الحظ فذب الخلاف بين خصميه . وتبع عن هذا الخصام أن عاد الوثام بين الأمير وعمه ابراهيم من جديد ، ليعود نوح من بعد ذلك الى بخارى مرة أخرى وكان أهلها على ولاء تام له . وسعى أبو على بدوره فى العودة الى رحاب أميره حتى اشترك معه فى حربه لركن الدولة . وما لبثت العلاقات أن عادت الى التوتر بينهما من جديد حتى انتهى الأمر بأبى على الى انضمامه الى ركن الدولة فى ثورة جديدة على نوح . وحصل أبو على ، بتأييد من ركن الدولة ، على براءة من الخليفة باستقلاله بحكومة خراسان . وفى مساجدها أمر عام ٣٤٣ هـ بقراءة الخطبة باسم الخليفة المطيع . كما استطاع بمساندة الديلمة ، وكانوا قد بسطوا نفوذهم حتى شيراز ، أن يدفع السامانيين الى ما وراء حدودهم القديمة ببلاد ما وراء النهر .

ومات نوح ، أو الأمير الحميد ، عام ٩٥٤/٣٤٣ بعد أن حكم ثلاثين عاما فخلفه ابنه عبد الملك الملقب بالرشيد ، وكان اذ ذاك فى العاشرة من

(١) يبدو من هذا أن الكرد الذين يسكنون اليوم منطقة فى خراسان تمتد من نيسابور تجاه استراباد بامتداد حدود ايران الشمالية ، لم يكن السامانيون هم الذين جلبوهم من بلاد الكرد الأصلية كما يدعى بذلك الفرس المحدثون ، وإنما كانوا يقيمون هناك من قبل ذلك وكانوا يكونون على الدوام قسما رئيسيا من قوات خراسان .

عمره . وجهد هذا الأمير بدوره عبثا في أن يحتفظ بنفوذ السامانيين في غربي الدولة ، فلم ينجح أشعث بن محمد ، وكان من خيرة قواده ، الا في مصالحة الديلم وركن الدولة على شروط معقولة دون أن يستطيع حملهم على الولاء للأمير . وكان عبد الملك على شغف شديد بالتريض والفروسية حتى كانوا كثيرا ما يلقبونه بأبي الفوارس . ووافاه أجله على أثر سقوطه من فوق جواده (١) ، بعد أن حكم سبع سنوات ، في الثامن من شوال عام ٣٥٠/٩٦١ . وخلفه أخوه منصور بن نوح الملقب بالأمير الشديد ، أي العادل . وما دفع بالدولة الى طريق التدهور بعد ما ذاع من صيتها انما كان في الواقع بسبب سلوك البتكين . وكان البتكين هذا في الأصل مملوكا (٢) ما زال يرتقى بجدده حتى بلغ منصب الوزارة بعد أن ولي نيسابور . فهو بدلا من أن يساند الدولة ويحفظ عليها كيائها — وكان قادرا على ذلك — انطلق يهاجم أميره في جيش كبير . ولئن كان نهر جيحون قد امتنع عليه عبوره بفضل فريق قوى من أتباع الأمير منصور حتى آب الى غزنه (٣) ، الا أن التوفيق حاله في محاولته الثانية حتى اضطر الأمير أن يصالحه على أن يصير له نيسابور على خراج سنوي قدره خمسون ألف دينار يؤديه . وانهت حروب منصور مع ركن الدولة الى ما يشبه ما انتهت اليه مع البتكين . فدولة الديلم ، هذه التي كانت تسيطر على ما يقرب من نصف

(١) كانت سقطته هذه وهو يمارس لعبة جوكان أي « البولو » وكان اللاعبون فيها يضربون الكرة وهم يركضون يخيلهم وعليهم أن يقذفوها في ضربتين خلال حلقنين مثبتتين بأوتاد ، الواحدة خلف الأخرى . وتستلزم هذه اللعبة مرونة في الجسم أكثر مما تستلزمه لعبة جريد التركية ، وكلتا اللعبتين قد بطلت ممارستها .

(٢) البتكين كلمة مركبة من « الب » بمعنى البطل وتكين بمعنى المسمى . والكلمة الأخيرة وصحتها تكن أو تكن أو تين لاتزال تروج كاسم علم بين التركمان . فحين تسأل الواحد منهم عن اسمه مثلا ، يجيبك « أوراوتكن من » يعني « أنا أدعى اوراوت » وتجد لفظ تكن يلحق بكثير من الاسماء التركية ، مثل قرة تكن ، نوشتكين ، اينالكتين ، سبتكين بمعنى مثل أو شبيه .

(٣) يقول النرشحي أن البتكين كان قد قضى قضاء مبرما على قوات منصور عند بلخ ، ولكنه مع ذلك ارتد بعد قليل الى غزنه .

إيران ، كانت من القوة بحيث لا يقوى بيت السامانيين المتدهور على الدخول في نزاع معها . و انتهى منصور آخر الأمر الى مصالحة ركن الدولة وبنى بحفيدته ابنة عضد الدولة . وقد وقع ذلك كله عام ٣٦١ / ٩٧٣ .

وعاش منصور في سلام ابتداء من ذلك الوقت حتى مات ببخارى في الرابع من شوال عام ٣٦٥ / ٩٧٦ (١) بعد أن حكم خمسة عشر عاما . ولا يتمكن ابنه نوح بن منصور ، الملقب بالسعيد أبي القاسم ، من أن يصل الى حقه في ارتقاء العرش الا بعد أن اجتاز أياما عصيبة ودخل في عراقا شديد كان كله مدخرا له . وفي ذياك الوقت صار تفوذ السامانيين الكبار الى الحضيض على وجه التحقيق .

كل ما فعله خلفاء وشكير في جرجان وطبرستان هو أن نادى باستقلالهم بما بأيديهم من أرضين ، كما بسط عضد الدولة يده على العراقيين وفيما كان زعماء هذه الطائفة القوية يجدون في تحقيق مآربهم الخاصة ، اما بخروجهم على أميرهم أو بتطاحنهم فيما بينهم ، كان وزير أبي القاسم بتشاحنهم وتحاسدهم يذلون ما في وسعهم لتحطيم ما بناه للدولة من سلطة عهد بها اليهم . وأخطر هذه المنازعات هو ما قام بين ألباس تاش الملقب بحسام الدولة وأبي الحسين سيمجور . فقد نصه أبو القاسم أبا العباس نائبا له على خراسان عام ٣٧١ / ٩٨٠ / ٩٨١ . وكان هذا على خلق قويم ونبل ، على خلاف غريمه الذي عرف بالجنش والد ونجح سيمجور بالغش والخديعة في أن يحل أميره الضعيف آخر الا على عزل عامله المخلص ، ليبلغ بتاش الغضب عند ذلك حتى عمد السلاح ليدفع به غريمه عنه . وتم له بالفعل طرد أبي الحسين خراسان بفضل معونة فخر الدولة الديلي (٢) . ولكن سيمجور ما لبث عاد اليه من جديد ومعه مدد قوى من كرمان لم يستطع تاش معه أن يهزم أمامه ، ففر الى خير اصدقائه فخر الدولة بجرجان حيث مات مأسوفا .

(١) هذا التاريخ هو ما ورد عند الترخي وهو عند ميرخوند ١١ ر (٢) وجد فخر الدولة أنه لزاما عليه أن يعين تاش في حربه ، ف سبق له أن عاونه بدوره في حربه مع مؤيد الدولة .

من الجميع عام ٣٧٩/٩٨٩/٩٩٠ . وكانت الصداقة القائمة بين تاش وفخر الدولة متينة مكيّة . ومما يشير الإعجاب أن تاش كان قد استقبل فخر الدولة حين لجأ اليه ابان محنته في السابق فبذل له الكثير من الحماية ، ولم يتردد فخر الدولة بدوره من بعد ذلك في المبادرة الى انقاذ صديقه حين صادفه سوء الطالع وتعرض للخطر ، ليحيطه من بعد ذلك كذلك بكل مظاهر الأبهة ببقية حياته . ولم يتح لأبى الحسين أن يستمتع طويلا بما بلغه من التشريف من وراء غدره وخيائته ، فقد أصيب بالفالج وهو بين يدي إحدى جواريه ومات قبل خصمه بعام واحد ، وترك حكومة خراسان لابنه أبى على . وكان أبو على هذا يزيد في سوء الخلق على أبيه . فلم يكد يتولى أمر حكومته الا بعد أن سلك أخط سلوك بازاء نوح . وبدا واضحا منذ أول الأمر أنه انما يهدف الى القضاء التام على السامانيين ، لا يضيره في ذلك أن يسلك كل سبيل لتحقيق غرضه . وكان الأويغور (١)

(١) ان كل ما بأيدينا من معلومات يوتق بها عن الأويغور لا توجد الا في المخطوط الموجود بال مكتبة الامبراطورية في فينا بعنوان « قوداتقوبيلق اى العلم السعيد » وهو يتعرض لأداب السلوك والأحوال السياسية والاجتماعية في المجتمع التركي في عصر تاليغه . وتنحصر أهمية هذا الكتاب في ناحيتين ، اهمهما انه مؤرخ عام ٤٦٢ (١٠٦٩) فهو بهذا يعد أقدم الوثائق التركية التي بين ايدينا . وقد كتب المؤلف القسم الأول من كتابه هذا عند اقصى حدود الاراضى التركية في نواحى كمول . أما القسم الثانى فقد كتب في الشعر . وقد ثبت أن هذا الكتاب هو أول ما كتب في التركية ، فهو بهذا وثيقة معتمدة تمدنا بمعلومات عن الأحوال الأولى لتلك القبائل التركية التي انتشرت الآن في أماكن مترامية الأطراف ، وتعاوننا معاونة جلية في تتبع تطور الترك التاريخي العام . والناحية الثانية هو اننا نعلم من هذا الكتاب أن الأويغور كانوا منذ وقت باكر على قدر غير ضئيل من الحضارة التي غلب عايتها فيما بعد المؤثرات المسيحية والإسلامية . فهي لم تكن أبدا نتيجة لهذه المؤثرات الإسلامية تلك التي يلاحظ اثرها واضحا في احياء اللغة الفارسية التي اخذت بها الثقافة الايرانية الحديثة في الانتشار . ومن اراد الاطلاع على معلومات أكثر عن الأويغور فليرجع الى كتابي *Figürische sprachmonumente und Kudatku Bilik Innsbruck* (المؤلف) . كتب الاستاذ فامبرى هذا قبل اكتشاف نقوش أورخون وأواخر القرن الماضى ، وهي تتحدث عن الترك في القرن السابع الميلادى وعن حضارتهم فهي بهذا أقدم وثيقة عنهم أنظر في ذلك « و . بارتولد . تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٤ وما بعدها الترجمة العربية لأحمد السعيد القاهرة ١٩٥٨ » (المترجم)

اذ ذاك يسكنون بأقصى الشرق فى الاقليم الذى يعرف الآن بتركستان الشرقية ، وهم قبيلة تركية كائت أول من انفصل عن جموع البدو الرئيسية التى تمثل الجنس التركى ، فاتخذت لها موطنها عند سفوح جبال تيان شان

ونجد عند هؤلاء الاويغور أول آثار لرسم اجتماعية وسياسية نشأت تركية خالصة . وبرغم ظهور ولايات صغيرة لهم متفرقة ، أو العهد المسيحى الباكر ، كانت تنتشر حول المنطقة الواقعة بين مقاطعة كانسو الحالية والحدود الشرقية لخوقند ، الا أن قيام أول دولة أويغورية قوية بالمعنى المفهوم انما يرجع تاريخه الى وقت اضمحلال السامانيين . والظاهر أن ايليك (١) خان كان هو أول من وحدهم ولم شتاتهم . ويأتى من بعده بغرا أو قره بغراخان (٢) ، ويشتهر بجهاده حتى استطاع أن يحمل ألوفا من البوذيين والمسيحيين على الدخول فى الاسلام . فقد جمع كل القبائل التركية المختلفة تحت تاجه لينطلق بهم من بعد ذلك فى فتوحات صوب الغرب أمل من ورائها أن يضيف الى أملاكه بعض الأراضى مما بقى فى حوزة السامانيين حتى دخل فى نزاع مع تلك الدمية الذى كان يحكم بخارى فتحالف عليه مع أبى على خصيم أبى القاسم الخارج عليه .

وفىما كان أبو على يعمل فى هدوء ضد نوح بخراسان ، زحف بغراخان فى جيش كبير من كاشغر الى ضفاف زرفشان وقد انضم اليه ترك خوقند . وخرج اليه أول الأمر ايننج (٣) الحاجب ولكنه هزم وسير أسيرا الى تركستان . هنالك عهد نوح بقيادة جيشه الى فائق ليقابل هذا القائد

(١) ايليك ، أو ايلك كما رسمه بعض من سبقتونى خطأ وهو لفظ اريفرى معناه الأمير أو الحاكم أو الرصى ، فهو بهذا ليس باسم علم ، نظراً . فى ذلك كلمات تركمان أو ترخان أو خاتون أو غيرها من الألقاب التى سمي بها العرب والفرس الحكام الترك اذ ذاك . ونحن نستخدمه هنا بدورنا حين لا نتأكد من الاسم الأصيل .

(٢) بغرا ، وعلى الأصح بقرا أو بخرا ، هو اسم الناقة فى اللغة التركية الشرقية ولم يكن من المستغرب قبل انتشار الاسلام بين الترك أن يطلقوا اسم حيوان على ضريح أو شخص .

(٣) أخطأ ديفرمارى حين ذكره « اينانيج » وهو لفظ تركى يدل على الصدق والاخلاص .

عند ذلك صنع سيده معه بأحط أنواع الخيانة والغدر ، حتى اذا ما استولى بغراخان على سمرقند ، لم يكن على الأمير الساماني الا أنه يهرب متنكرا في صحبة عدد قليل من خلصائه . والتبس أبو القاسم المعونة من كل وجه ، وحين اتجه أول الأمر الى أبي على تظاهر له هذا المخلوق الدنيء بالسذاجة واعتذر اليه بأن امارته هي بدورها مهددة . على أن الحظ ما غدا أن حالف أبا القاسم من جديد وهو في محنته هذه ، اذ لم يجتسل بغراخان سوء مناخ بخارى قفصى . وبهذا استطاع أن يعود من جديد الى حاضرتة ، وكانت قد بقيت على ولائها له . على أنه كان عليه ان يسعى الى محالفة حلفاء أقوياء ليواجه بهم غريميه ، أبا على وفائق ، اللذين حلا محل الأمير الأويغوري الراحل في عدائه له . ووجد أبو القاسم ضالته المنشودة في مؤسس الدولة الغزنوية . وكان سبكتكين يحكم اذ ذاك كل المنطقة الواقعة بين غزنة وضاف ، السند ، وقد ذاع صيته فوق ذلك بما جمعه من الثروة في غزواته الهندية المتعددة (١) . كان سبكتكين على اتصال وثيق ببيت السامانيين ، فاستجاب لذلك لأبي القاسم في رضا وغبطة حتى سار الى جيحون في جيش كبير ومعه مائتان من الفيلة ليقتل على هذين العاصيين ، وحن النفي بأبي القاسم عند كسب بادر بالنزول عن دابته برغم انه كان يكبره بسنوات كثيرة وقبل ركابه في احترام بالغ .

جاء تحالف أبي القاسم مع سبكتكين بأعظم النفع له ، حتى لم يستطع أبو على أن يصمد أمامهما برغم مساندة أمراء جرجان والعراق له مساندة قوية . وقد شارك محمود أباه سبكتكين في حرب أبي على هذه التي وقعت في سهل هراة . وفيها هزم هؤلاء الخارجون على الأمير هزيمة حاسمة واضطروا الى الفرار الى نيسابور ، ليلخل أبو القاسم مدينة بخارى من بعد ذلك دخول الظافر رينعم عاى سبكتكين الشبغ بلقب ناصر الدولة وعلى ابنه محمود بلقب سيف الدولة ، وما ان أب

(١) الرشخى . ويجعل آخرون غزوات الهند وفقا على محمود وحده « المؤتف » وهو قول ليس له سند من التاريخ ، والثابت أن محمودا كان قد شارك أباه أول الأمر غزواته الهندية (المترجم)

مبكتكين الى غزنة حتى برز أبو على من جديد ، وكان قد لجأ الى بلاط
الديلم ، فانتهاز فرصة خلو الميدان من صاحب غزنة وهاجم نيسابور . على
أنه أخطأ في حسابه خطأ كبيرا . ذلك أن شئون هذه الولاية كانت قد
صارَت بعد استرجاعها الى محمود ، وهو الذى أخذت فعالة تفصح عما
ينتظره من مجد مقبل بلا مراء . وكان أن أخذ محمود على غرة ، حتى لم
يستطع أن يخبر أباه بتلك الغزوة ، فاضطر الى الفرار تاركا كل متاعه
لخصمه . وما غدا سبكتكين أن ظهر فى الميدان آخر الأمر فلقى أبا على
عند طوس وهزمه هزيمة حاسمة وذهب من بعد ذلك يطارده حتى خوارزم
وهناك تبدت شهامة أبى القاسم الفائقة اذ أخذته الشفقة على أبى على
فكتب الى عبد الله شاه خوارزم يوصيه به خيرا . على أن شاه خوارزم لم
يلتفت الى ذلك ووضع ضيفه فى الأغلال . وأثار هذا الاخلال بواجب
الضيافة ثائرة الأمير مأمون بن محمد (لغاية فى نفسه) فهاجم الشاه
وهزمه ووضع فى نفس الأغلال التى كان فيها أبو على . وصحب مأمون
أبا على معه الى جرجان ، وجيئ بالشاه الأسير من بعد ذلك فقتل فى أحد
الاحتفالات العامة (١) . ولم ينته حال أبى على بدوره الى نهاية حسنة . فقد
عفا أبو القاسم عنه أول الأمر بتوسط مأمون ، ولكنه عاد فرمى به
فى السجن من بعد ذلك بتحريض من بعض رجاله . وما غدا سبكتكين أن
أبدى رغبته فى أن يحتفظ به عنده ، ومات فى سجنه هناك عام ٣٨٧/٩٩٧
وظلت حكومة أبى القاسم تهددها غزوات الأمير التركى ايليك (٢) بعض
الوقت ، وذلك بتحريض من فايق ، وكان قد استدعا من كاشغر ، ولكن
سبكتكين كفاهها هذا الخطر . ومات نوح بن منصور أو أبو القاسم ، كما
كانوا يلقبونه ، فى هدوء عام ٣٨٧ بعد أن حكم اثنين وعشرين عاما .

وخلفه ابنه أبو الحارث منصور ، وكان غرا خلوا من التجارب
فارتكب الغلطة الكبرى بمنازعته محمود بن سبكتكين القوى وخليفته

(١) يذكر ميرخوند أن أبا على قد أُلْعِ اقلاما تاما عن تناول الشراب ،
ولكنه بهذه المناسبة سمح لأول مرة « ان يززعزق قاروة النبذ الهشة كيان
امتناعه السهاق »

(٢) انظر هامش رقم (١) ص ١١٦ .

على أن محموداً ، لما كان يكتنه من شعور حسن لبيت السامانيين ، ما لبث أن تغاضى عن فعله هذا الأمير وتجنبه . وسرعان ما وقع أبو الحارث فريسة لحقد أحد رجال بلاطه عليه ، ويدعى بكتوزن ، وكان قد برم به ، فدعاه هذا الى داره وسمل عينيه (١) . وأجلس مكانه أخوه عبد الملك وكان طفلاً صغيراً . وقد ساند به بكتوزن وفايق ، أقوى رجلين فى دولته حتى نجح فى تهديئة ثائرة محمود بعد ما لحقه من الاهانة على يد الأمير الساماني السابق من قبل ، وكان هذا الأمير الغزنوى قد أخذ نجمه يعلو . وسرعان ما سقط عبد الملك فريسة لغدر ايليك (٢) خان بدعوى حمايته له . فقد قدم هذا من كاشغر الى بخارى ، دون أن يدعوه أحد الى ذلك ، لدفع عن جاره المحبوب أعداءه ، على حد قوله ، وما غدا أن كشف عن غرضه الحقيقي حين قبض على أهل بخارى الذين كانوا قد خرجوا لاستقباله وألقى بهم فى الأغلال ، ثم دخل المدينة نفسها عام ٣٨٩/٩٩٩ وألقى بعبد الملك نفسه فى الحبس حيث مات (٣) . وحاول المنتصر (٤) ، ثالث أبناء أبى القاسم ، أن يستنقذ للسامانيين ما بقي لهم من دولتهم بعد أن تمكن من الهرب من السجن الذى كان ايليك خان قد رمى فيه مع الأسرة كلها . فقد انطلق الى خوارزم بصحبة جارية صغيرة له وفى خاطره أن يمشق الحسام مع فقر من أتباعه المخلصين فى وجه من اغتصبوا عرشه . وتلقاه كثير من أتباع أسرته السابقين بعطف بالغ ، ومنهم شمس المعالى قابوس بن وشمكير ، ولكن ذلك وحده لم يفده بنفع يذكر . ومع ذلك فقد نجح مرتين فى أن ينزل الهزيمة يقوات ايليك خان . ولكن انتصاراته هذه لم تكن فى الواقع الا بمثابة ومضات متقطعة صدرت عن شمس السامانيين

-
- (١) بكتوزن هو لفظ أويغورى معناه (الأمين العادل) .
 (٢) كان عبد الملك قد ارتد الى بخارى مع فايق بعد أن هزم محمود جيش السامانيين هزيمة عامة عند مرو . وكان هذا الجيش قد جمع من كافة أنحاء بلاد النهر .
 (٣) سجن فى أزكند على رواية ميرخوند (وقد اخطأ ديفرمارى فى رسمها) وهى اليوم قرية عند مرغولان فى خجند .
 (٤) هو أبو ابراهيم

الغارية ، فلم يكن له فى حقيقة الأمر قبل بالوقوف فى وجه ايليك خان وهو الذى امتد ملكه ، بعد فتحه لبخارى ، من داخل الصين حتى بحر الخزر . وظل هذا الأمير الساماني يتنقل فى طبرستان وسيستان وخراسان وحوله قلة من قدامى خلائه حتى نجح عام ٣٩١/١٠٠١ فى الاستيلاء على نيسابور . وسرعان ما أخرجه منها من جديد نصر بن محمود ، حفيد سبكتكين ، فأخذ من بعد ذلك يضرب فى الأرض حتى غدر به رجائه فأوقعوه فى شرك ايليك خان حتى أحيط به . وسيق افراد أسرته واتباعه اسارى ، وتمكن هو من الهرب ليلقى من بعد ذلك حتفه فى مضارب قبيلة بنى بهيج حيث قتله من يدعى مهروى . وقد قتل القاتل بفعلته هذه بعد قليل .

هكذا قضى آخر الأمراء السامانيين فى ربيع الأول من عام ٣٩٥/١٠٠٤ . وبسوته انقضت أسرة كانت منذ وقت باكر صاحبة السلطان فى أجزاء بعينها من بلاد ما وراء النهر وفرغانة ، ثم ظلت ابتداء من الأمير نصر — أى قرابة مائة وخمسة وأربعين عاما -- تحكم كل آسيا الوسطى . ويعد أمراؤها بحق أصحاب حكومة قامت على التقاليد الدينية والاجتماعية التى كان يعدها المسلمون فى القارات الثلاث فى قرون سابقة أقرب ما يكون الى ما كان عليه السلف الصالح فى عصر الاسلام الذهبى ، حتى لا تزال حكومتهم هذه موضع تقدير وتوقير عظيم الى اليوم . فحين صارت حاضرة الخلافة ومدن آسيا الغربية الأخرى مسرحا لنشاط المذاهب والفلاسفة على اختلاف مللهم ونحلهم ، كانت بخارى وبلخ وسمرقند ، تحت حكم السامانيين ، هى الملاذ الأثير عند العلماء المسلمين الحريصين على الاستمسك بأدق دقائق الشرع والسنة . وبهذا ازدهرت علوم الدين فى كل آسيا الغربية على الصورة الرائعة التى عرفتھا مكة والمدينة نفسها . وشبيه بهذا ما صار لبخارى من السيادة السياسية كذاك على مختلف قبائل آسيا الوسطى تلك السيادة التى حافظ عليها حكام زرفشان حتى العصور الحديثة . وتعظيم سبكتكين العظيم لبخارى ، ذلك التعظيم الذى سار عليه فى العصور المتأخرة الأفغان والهنود والأوزبك ، انما قد بدأ أيام مجد السامانيين الذين ظهروا كخلفاء لآخر أسرة ايرانية

حكمت فى أرض الحضارة الايرانية القديمة . وناهيك بما تركه هؤلاء السامانيون لخلفائهم على عرش بلاد ما وراء النهر ، من تثار الترك ، من تراث لا ينكر شأنه . ولا نعجب بعد ذلك كله حين نرى بلاد ما وراء النهر ، بعد سقوط السامانيين ، تحتاجها أعظم فوضى واضطراب . ذلك أن هذا الاقليم كان منذ وقت باكر مسرحا لنشاط قوميتين مختلفتين فالإيرانيون ، وهم أصحاب حضارة قديمة ، لم يفقدوا باعنائهم الاسلام الا قليلا من شعورهم القوى بقوميتهم على ما ذكرنا من قبل . وهم كانوا ما يزالون على ميلهم الى الاشتغال بالتجارة والعلم وكل ما يمارس فى السلم عامة . وكانت القاعدة الحرية والقوة الفعالة بالتالى تمثل فى القسم الأكبر من السكان فى الغالب ، وهم الترك . وكان لهؤلاء - سيىء - منذ وقت باكر حتى كانت لهم أكبر مناصبها فى الغالب . وأخذت قوتهم تتزايد بالتدريج آواخر عهد السامانيين ، حتى اذا انقضت هذه الدولة لم يعد الأمر بالنسبة لهم الا أن صاروا يحكمون باسمهم لا باسم غيرهم ، وقد تم بذلك الاستقلال لهم .

وكانت بخارى العاصمة تخضع من الناحية النظرية لايلىكخان وهو فى كاشغر . على أن سلطانه لم يكن له فى الحقيقة وجود يذكر فى مناطق كش وسرقند وخوقند حيث صار الناس يتصرفون على هواهم . فمنهم من ائتلف مع غيره ليطردوا ايليىكخان من بلادهم ، ومنهم من راح يستعين بالسلطان العظيم محمود . وكان الوقت مواتيا كل مواتاة لجندى شجاع حازم يهتبل هذه الفرصة . وظهر هذا الجندى على مسرح الحوادث قبل وقوع الطامة الكبرى . وسرعان ما بان أثر تفوذه فى مجريات الأحوال السياسية ببلاد ما وراء النهر .

الفصل السادس السلاجقة

٣٩٥ (١٠٠٤) - ٥٢٨ (١١٣٣)

ان مجرى التاريخ فى آسيا الوسطى كان منذ أول عصوره يتأثر الى حد كبير بالدور الذى تلعبه فيه قبائل بدو الترك الذين يعرفهم العرب والفرس باسمهم العرقى « الغز » وكانوا منازلهم فى الصحراء الواسعة والسهوب التى تبدأ عند حدود الصين وتستد حتى شواطئ بحر الخزر . وظلت هجرات هؤلاء الترك الى شاطئ جيحون لا ينقطع سبيلها صوب الجنوب الشرقى ، خصوصا عند خجند وتركستان الشرفية ، وذلك قبل الغزو العربى بوقت طويل ومن بعده ، وفى أيام السامانيين بوجه خاص . وحين انهارت قوة السامانيين انطلق ترك الشمال فى حرية مع قطعانهم ينشدون المراعى فى الأجزاء المسكونة من خانية بخارى .

ان أصل السلاجقة يحيط تاريخه بالغوض خرافات كثيرة . ويظهر منه أن سلجوق ، وسيلجيق (١) على الأصح ، ابن تيمقاد وسوباش ، الذى

(١) ان قواعد اللغة التركية قد امنهنت كلها فى رسم كلمة «سلجوق» على هذا الوجه ، فهى اما سيلجيق أو سالجوق ، ذلك أن مقطعى جيق وجوق يعيدان التصغير ، ويستعمل الأول مع الكلمات التى تقع الياء فى مقطعها الأخير ، ويستعمل الثانى مع النى تقع الألف أو الواو فى مقطعها الأخير . ورسم الكلمات التركية التى وصلتنا عن طريق العرب والفرس شديد الغلط لجهل هؤلاء التام بالتركية عموما . وهم لا يستطيعون حتى اليوم نطقها نطقا صحيحا (المؤلف) . يذكر نارتولد فى كتاب « تاريخ النترك فى آسيا الوسطى » ص ١٠٠ أن النطق الصحيح هو «سالجوك» كما وجده فى كتاب محمود الكشغرى (المترجم)

كان قائدا لجيش أمير يدعى بغو أو بوغو (١) كائا قد أخرجنا من ديار بالسهب لجرائم ارتكباها ، فكان عليهما بذلك أن يجربا حظهما في غربة عليهما . هنالك هاجر سلجوق ومعه ألف فارس وألف بعير وخمس ألف رأس من الماشية فنزل عند المشارف الجنوبية للصحراء الى جند (٢) ، فاستقر بها ودخل واتباعه جميعا في الاسلام (٣) . وبدأت غيرة الدينية فيما بذله من جهود لحماية سكان المناطق المجاورة له الآمنين غارات بنى جلدته من الكفار . وأخذت قوته تتزايد من يوم الى آخ وذاع صيته ، وغدا بالأطه ملاذا للمضطهدين جميعا حتى قصده المنت آخر الأمراء السامانيين يسأله أن يعينه في حربه مع ايليك خان . و سلجوق لما كان يكابده الأمير الساماني من العناء فخرج معه لمح صاحبه ، لينتهى به الحال على أثر ذلك الى الاستيلاء على منطقة بأسـ

(١) بغو ، معناه الغزال ، وقد أشرنا من قبل الى عاده اطلاق أسـ حيوانات القوية أو الجميلة على الاشخاص . . ونشير هنا كذلك الى هذا اللفظ كان يطلقه الفرس والآتراك النرفيون على البوذيين (المؤلف يذكر الاستاذ حمزة طاهر في مقال بمجلة الثقافة عدد ٤٦٩-٢٣-١٢- أن السلاجقة يعرفون رئيسهم باسم بغو وقائد الجيش باسم سوبا وبلاطهم باسم اينال وأن الأسماء التي اشتهروا بها أبناء سلجوق مثل طه وجفري وجاولي هي في الواقع القبا وليست أعلاما (المتر-

(٢) يذكر ابن خلكان أن جند كانت على مسيرة عشرين فرسخا بخاري . ولم أعر على ذكر لها في أقدم المراجع الجغرافية : المؤلف .
انظر تفصيلات عنها في « بلدان الخلافة الاسلامية ، ترجمة بشـ فرنسيس وتوركسيس عواد ، ص ٥٢٩ - الخشاب

(٣) أسماء السلاجقة الأول ، موسى وميكائيل وأسرافيل تشبه ش كبيرا الأسماء المذكورة في الانجيل حتى لبدو من ذلك أن المسيحية قد احرزت من النجاح في آسيا الوسطى أكثر مما يشير اليه المؤرخـ المسلمون . وعلى هذا الاعتبار فهناك احتمالات كثيرة بأن بدو الترك . انفصل عنهم سلجوق كان فيهم من أتباع النساطرة أكثر من أتباع الشام أو البوذية ، ويؤيد هذه الدعوى ما يذكره الجويني . بكتابه جهانكشا مؤ أن بعض القبائل التركية مثل النايما وقنجل كانوا على المسيحية ويؤ هذه الحقيقة من بعد ذلك قائمة أسماء القادة العلانيين الذين بعثوا من به الخان الأكبر الى البابا افينيون يعلنون ولاءهم له بوصفهم مسيحيين مؤم وذلك عام ٧٢٩ (١٣٣٨) . ويفصل يول Yule امر هذه السفارة في الد الثاني من كتابه .

من أخصب بقاع الخاينة صار بها أحد أمراء بلاد ما وراء النهر المستقلين مما أثار عليه فائرة الأمراء الآخرين وحسد لهم وبغضاءهم .

وليس لدينا من التفاصيل الوثيقة في الغالب ما نقف منه على مدى ما بلغه سلجوق من نفوذ ببخارى وهو الذى عاش حتى تقدمت به السن . وكل ما نعلمه على وجه اليقين أنه جهد غاية الجهد فى تنشئة حفيديه طغرل وجفرى (١) تنشئة عسكرية حتى لئراهما بعد موته يشتبكان فى حروب متلاحقة مع أقدر الأمراء بآسيا الوسطى اذ ذاك من أمثال ايليك خان فى بخارى وبغراخان فى كاشغر . بل لقد بدا من أمر هذين الفرعين الصغيرين فى شجرة قبيلة سلجوق ما ينبىء بأنهما سوف يبلغان فى الوقت المناسب بجنسهما الى ذروة القوة فتنتشر بطونه فيما بين قلب الصين شرقا وشواطئ البحر الأبيض المتوسط غربا ، وفيما بين بحر آرال شمالا والخليج الفارسى جنوبا ، ويستظل بحمايته أمم من أعرق الأمم صاحبة الماضى القديم بل وشيوخ الاسلام أنفسهم . ولقد مضى الأخوان مؤتلفين تربطهما أوثق أواصر الاخلاص المتبادل على أهداف واحدة ، فصرفا حياتهما أول الأمر فى الهرب من وجه خصومهما اتقاء لعداوتهم ولما كان لهم من قوة وتفوق لينقلبا من بعد ذلك الى تدعيم مركزيهما بقوة السلاح . وبرغم اقامتهما فى منازل الحضر فقد بقيا على استمسك قوى برسوم البدو وعاداتهم ، وبذلك كان من اليسير عليهما أن يترحلا من موضع الى آخر ، بل وأن يبعثا ، حين يدهمهما خطر شديد ، بزوجاتهما وأولادهما ومتاعهما جميعا الى مخابىء آمنة فى الصحراء ، ثم ينطلقا من بعد ذلك وحدهما معتمدين على حيولهما الصغيره يغامران فى الحرب (٢) . وبهذا استطاع الأخوان أن

(١) طغرل وجفرى هما لفظان بريكان ، والأول مصغر دوعراول ، أى القصاب ، وهو مشتق من فعل « دوعرامق » أى أن بدبح ، أما الثانى فمعناه اللامع أو المألوف من مصدر حقمق : أن يلح . واحطأ المستشرقون الأوربيون خطأ سنيقا حين يربطون كلمة طغرل مع كلمة دوعرو : المستقيم ، وحين ظنوا خطأ أن (جفر) هو لفظ (جعفر) محرف .

(٢) لا يزال انترك بنصعون حروبهم حتى اليوم على هذا التقليد . ولعن هذا هو الذى جعل البعض يخلط فيجعل السلاجقة منهم .

يقيما أساس قوة السلاجقة المستنبلة تحب بصر فائح فوى مثل محمود الغزنوى الذى أقلقه أشد الفلق ظهور جموع أبناء الصحراء المخوفين هؤلاء وتزايد قوتهم ، حتى وجد نفسه آخر الأمر ولا قدرة له على كبح جماحهم أو إبعادهم عن مسرح الحوادث (١) . وحدث أن دخل عليشكين أمير سمرقند وخليفه إيليك خان فى نزاع مع فدرخان بن بغراخان كاتسفر وخليفته ، لكلفه بالفتوح ، فما كان من محمود ، لصداقته مع فدرخان إلا أن عبر جيحون مع جيشه فطرد إيليك ، وعقد النية فى الوقت نفسه ، لكى يحصى حليفه من خطر السلاجقة ، أن يقطع الأخوين السلاجوقيين منازل فى خراسان لعله ييسر له بذلك ، بعد أن يبعدهما عن بنى جلدتهما ، أن يغلبهما على أمرهما . وارتأى الأخوان أول الأمر أن يسجيا لرجاء السلطان الغزنوى الكبير ويتقبلا ما يبذله لهما من مودة حتى سميرا الى بلاطه عنهما إسرائيل وكان يلقب ببغو . وحين علما بما لفى عنهما من سوء المعاملة ، حتى ليذهب البعض الى القول بأنه مات فى سجن محمود ، عقدا العزم على البقاء حيث هما فى موضعهما السابق ببلاد ما وراء النهر ، برغم ما كان بينهما وبين جيرانهما من العداء ومع عليشكين بوجه خاص وكان قد عاد فى الوقت نفسه الى سمرقند .

هنالك حاول إيليك خان أن يغدر بهما من جديد فانطلق بيذر بذور الشقاق بين السلاجقة ولكنه خاب فى مسعاه هذا كما قتل حين هاجمهم علنا بقواته وكان عليها الب قرا . ولئن كان هذان الأخوان قد أرغما على

(١) ما يقال فى هذا من أن إسرائيل حين قدم الى محمود فى سماره ، سأله هذا وهو يعرض عليه خططه لغزو الهند ، عن عدد السلاجقة من رجال الحرب ، هنالك انتزع إسرائيل سهما من جعبته وقال لمحمود « اطلق هذا السهم يانيك مائة ألف فارس منهم » فقال له محمود « فاذا أردت أكثر من ذلك » فقال إسرائيل اذن فاطلق هذا السهم الثانى بأربك خمسون ومائة ألف « فقال محمود فاذا أردت أكثر فقال إسرائيل « فارسى قوسى هذا الى توران يانيك مائتا ألف منهم » ، هذه القصة تعد من الخرافات ، وقد دأبت عند كل المؤرخين الشرقيين والغربيين تقريبا . ذلك أن الحديث عن الأقواس والسهم لم يكن عادة مما يدور فى السفارات السلمية على رسوم ذلك الوقت .

الارتداد أول الأمر الا أنهما سرعان ما جمعا أمرهما فأبادا فواب البفرا وقتلاه هو نفسه ، ليجلبا على نفسيهما بفوزهما الساحق هذا عداوة غدو جديد من بعد ذلك هو أمير خوارزم الذى هاجمهما فى قوة ساحفة عند الشاطيء الأيمن لجيخون فى الصحراء الواقعة بين بخارى وخبوه ، وأنزل بهما هزيمة شديدة أرغما من بعدها على الارتداد فى عجلة زائدة (١) .

هنالك لم يملك حفيدا سلجوق الشجاعان بازاء هذه الأحوال الا أن يودعا ذلك الاقليم الذى يقع بين جيخون وسيخون مع أراضيه التى ورثاها عن آبائهما وينطلقا بطريق أقصى حدود صحراء الهيبس الى خراسان ، حيث قدر لهما بأرض ايران القديمة ذات الصيت الذائع ، أن يجنيا ثمار نشاط شبابهما بعد معارك دامية ومثيرة تبعث على الاعجاب . وقد حصدا هذه الثمار عن آخرها .

ففى عام ٤٢٢/١٠٣٠ وكان قد مضى عام على وفاة السلطان محمود ، نجد السلاجقة عند الغرب من مرو ، على تلك الأرض التى يعيش فيها التركمان اليوم ، والى جوار مدينتى نسا وأيوود (٢) ، وهى المنطقة التى انطلقوا منها ، يتحرشون بامارة خراسان الغنية فى غارات متلاحقة هى فى عنفها على غرار ما يضطلع به التركمان اليوم (٣) . ويقال انهم بعد أن وضعوا

(١) لم تكن هزيمة السلاجقة بسبب ضعف اسلحتهم بقدر ما كانت بما دبره الخوارزميون من مكر وخداع . ذلك ان أمير خوارزم تظاهر أول الأمر بصداقته للسلاجقة فأنزل الأخوان وأتباعهما منازل ببلاده ليعزلهم بذلك عن بنى جلدتهم على الضفة اليسرى لسيخون . ولم يتوقع السلاجقة السوء من وراء ذلك إذ كانوا يعلمون بعداء أمير خوارزم لمسعود خليفة محمود الفزنوى ، فظنوا بذلك أنه يحتاج لمساندتهم له بازاء مسعود .

(٢) لا تزال مدينتا ايورود ونسا تقومان الآن عند حدود ايران الشمالية وان هان شأتهما كثيرا . وهما تتعرضان على الدوام لغارات التركمان . ويمر بهما طريق القوافل بين ديرغوز وخبوه .

(٣) كان السلاجقة هم أول قوم من الترك استقروا عند حدود ايران الشمالية الشرقية كما هو معروف مشهور . وقد كان هناك بدو ينزلون الى جوار مرو ابان الحكم العربى وفى عهد السامانيين ولكنهم لم يكونوا من الترك . وكذلك كان الحال عند شمال غرب ايران كما أن غز الترك عند الشمال من بحر الخزر لم ينعثروا الى بلخان (فى صحراء الهباطلة) حتى بداية القرن العاشر الميلادى .

أيديهم على خراسان بعثوا بوفادة الى السلطان مسعود بن محمود وخليمه
يعلمون ولاءهم وإخلاصهم له ، ويسألونه أن يسمح لهم بالاقامة بخراسان
ويقول أغلب المؤرخين أن مسعودا رد عليهم ردا غليظاً ورفض طلبهم في
فتور أثار كبرياء طغرل وجغرى حتى بعثا بأسرهما وقطعاهما الى داخل
صحراء قراقورم الرملية العظيمة واستعدا مع رجالهما من المحاربين لينتزعا
بالقوة ما رفض الغزنويون الذين امتنوههم أن يمنحوهم اياه سلسا . ومن
المشكوك فيه غالبا على كل حال ، أنه ، حتى ولو كانت الحوادث قد جرت
على غير ذلك الوجه ، فإن أبناء الصحراء هؤلاء المنطوريين على النهب كانوا
سيركنون الى الهدوء وأمام أنظارهم تقع خراسان بمدنها الغنية . فلم
تعرض لغاراتهم هذه منطقة ايران الشمالية الغربية وحدها فحسب بل وعلى
الدوام كذلك كل بقعة في الاقليم الذى يتاخم السهول التى ينزل بها
البدو . وكانت خراسان تتعرض لأول مرة لمثل ذلك على كل حال .
ويسنين مدى التلف الذى أصابها على أيدي هؤلاء الجيران المشاغبين فى
التسكاوى المرة التى كان يعب بها الخراسانيون الى بلاط مسعود ، حتى
ثارت ثائرة السلطان الغزنوى المتكبر فبعث بقائده بكتغدى (١) مع
جيتن ضم ألف بعير نحصل السلاح ومائة تحمل الذهب وعديدا من
الفيول ليلقى بها أبناء الصحراء المخوفين هؤلاء . على أن أبناء الجنوب
المرهقين من الغزنويين الذين قدموا من المناطق الواقعة فيسا بين هيلمند
والسند عجزوا كل العجز عن نزال هؤلاء البدو الأشداء ، فنزل
الهيمة بكتغدى فى أول معركة ، حتى رأى مسعود أن يقود الجيش
بنفسه . وحين انعقد مجلس الحرب فى نيسابور فاتته الى الدخول فى
الصلح مع السلاجقة (٢) رفض هؤلاء ما عرضه مسعود عليهم لما كان
من سلوكه المهن فى حقهم حين تقدموا اليه يخطبون وده .

(١) يكغدى ، هى كلمه تركية نسر الى الاصل الملكى .
(٢) ننازل هذا الغزنوى عن كثير من كبريائه حتى اقترح أن يرتبط
برباط المصاهرة مع جنود الصحراء الخشنيين هؤلاء ، فعرض أن يزوج الامراء
السلاجقة السلافة من أميرات غزنويات تلاب ، ولكنهم رفضوا طلبه بطبيعته
الحال .

وركن السلاجقة الى الهدوء شتاء عام ٤٢٣/١٠٢٣ ليعاودوا من بعد ذلك غاراتهم فى الخريف على نطاق أوسع من ذى قبل . وتردد مسعود فى الاضطلاع بقيادة الجيش فعهدها بها الى سوباشيه (١) (فائده العام) ، فلم يكن بأكفاً منه ، اذ عجز بدورته عن وقف الغارات المفاجئة التى كانت نفذ عليه من الصحراء ، كما عجز كذلك عن منع انسحاب التركسان المفاجئ من صفوفه . وظلت خراسان تتعرض بلا انقطاع للسلب والنهب مدى سنوات ثلاث حتى طرد السوباشي من المناطق الشمالية منها واستولى جغرى بك على مدينة مرو الزاهرة الغنية وأصبح بذلك السيد الفلم على كل شمال خراسان . ويقول ميرخوند ان سكان مرو حين أدركوا ما أصاب الغزنويين من الضعف التام استجابوا للزعماء الأتراك وفتحوا لهم أبواب مدينتهم وانضوا تحت لوائهم . ودخل الأخوان عاصمة خراسان القديمة فى موكب فخم واقتسما الحكومة فيما بينهما ، فاضطلع طغرل بك بشئون الادارة وأخذ جغرى على عاتقه مهمة الدفاع عن الأقليم . على أن ما أحرزه هذان الأخوان من النجاح ما غدا بعد قليل من الوقت أن تبدد بازاء الجهود القوية التى بذلها مسعود ليسترد ما فقد من سلطان . فقد تقدم الى مرو بطريق بلخ عام ٤٢٩/١٠٣٧ على رأس جيش ضم سبعين ألف فارس وثلاثين ألفا من المشاة ، ليتدبر السلاجقة عند ذلك أمرهم ويروا الحكمة فى الانسحاب من أمام عدوهم لما كان لقواته من التفوق عليهم . واستطاع مسعود بذلك أن يسترد مدينتى بلخ ونيسابور ولكن الى حين . ذلك أن هذين الأخوين ، وكان كل منهما يعمل فى ناحيته ، ما ان واثمتا الفرصة فجبا شتات قواتهما معا ، حتى اقبرى جغرى من الصحراء عند دامغان فأخذ يستأنف أعماله العدوانية فى عنفه . وقريب من هذا الموضع وقعت معركة حاسمة بين السلاجقة والغزنويين فى رمضان من عام ٤٣١/١٠٣٩ هزم فيها

(١) سوباشي لفظ اويغورى معناه قائد الجيش ، وبرسم Vullers هذا اللفظ فى كتاب السلاجقة لميرخوند الذى نشره (ص ٢٨) سياشى ويقول فى الهامش ان سباشي أصلا هى سياشى أى قائد الجيش . واشتقاق هذه الكلمة نجده فى معجمى عن الاويغورية Uigurisch Sprachmonumente

مسعود هزيمة تامة لاذ من بعدها بالفرار الى غزنه . وقد وافاه أجله بعد ذلك بقليل (١) .

بهذا صار الأخوان لا ينازعهما أحد اقليم خراسان ، ذلك الاقليم الذى يعد قاعدة كل العمليات الحربية فى آسيا الاسلامية ، وغدوا قادرين على أن يضعا الأساس لمجدهما المقبل دون أن يتعرض لهما أحد . وأقوى مراكز السلاجقة كانت بلخ فى الشرق ونيسابور فى الغرب . ومن هذين المركزين أخذ نفوذهما ينتشر فى تزايد . وحين دعيا الى خوارزم ليطفئا نار الفتنة التى قامت هناك بين الأمير وقائد جيشه (٢) ، استوليا على الاقليم كله دون صعوبة تذكر وضماه الى ملكهما ليتقدما من بعد ذلك عبر بقايا ملك البويهيين حتى يبلغا آذربيجان ، وتنفذ من بعد ذلك مقدمة الجيش التركى عام ٤٤٦/١٠٥٤ يقودها طغرل بك الى داخل الامبراطورية الرومانية (٣) .

وبرغم أن أبناء الصحراء الجسورين هؤلاء كانوا فى غاراتهم على أرض القياصرة يهدفون الى السلب والنهب أكثر مما يهدفون الى الفتح ، فإن ما أحرزوه من فوز على روما العظيمة اذ ذاك — وهى التى كان اسمها موضع هبة واجلال فى آسيا القديمة — قد أعلى من هبة السلاجقة وزاد فى شهرتهم زيادة بالغة . ويقال ان طغرل كان قد اعتزم أداء فريضة الحج

(١) وقعت هذه المعركة عند دندانقان . وعلى اثرها أصر مسعود على الهجرة الى الهند فوثب عليه غلماناه فى الطريق وخاعوه ونادوا مكانه بأخيه محمد . وظل مسعود فى محبسه بقلعة كبرى حتى قتله ابن أخيه ، الأمير أحمد عام ٤٣٣ هـ (انظر فى ذلك تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم اول ص ١٠٤ ، ١٠٥) .

وارجع أيضا الى تاريخ البيهقى ترجمة الخشاب ونشأت ص ٦٨٨ وما بعدها . (المترجم)

(٢) ثار قائد جيش خوارزم على أميره حتى اضطره للاستنجاد بالسلاجقة وقد أعاد جفرى الأمير الى عرشه على أن يكون تابعا للسلاجقة .

(٣) يقول جيبون Gibson, Murray 1862, vol. VIII, p. 541 نقلا عن مصادر يونانية ، أن طغرل كان قد بعث رسولا الى القسطنطينية يطلب الى قيصر الروم الجزية والخضوع .

وحشى يعمل فى الوقت ذاته على تأمين طريق الحجاز ، وكان نحف به الأخطار منذ زمن طويل بسبب القوضى التى كانت تسود بغداد . وما غدا أن ظهر هذا الأمير السلجوقى لتوه بطاشره الخلفاء كهاتح وكتابع منواضع من . خدام الخلافة (١) . وما ان أوقع بالملك الرحيم الديلمى وساعد فى اجلاس القائم بأمر الله على عرش الخلافة حتى انطلقى عام ١٠٥٨/٤٥٠ وراء عمه النائر اينال (٢) . وصحبه فى حملته هذه ألب أرسلان بن جفرى بك وكان أبوه قد مات بموطنه قبل ذلك بقليل . وسرعان ما انتهى طغرل من أمر عمه ابراهيم ليعود من بعد ذلك الى بغداد ويطلق سراحه من سجنه (وكان قد عزل ابان ذلك) ويعيده الى العرش .

واستقبل أمير المؤمنين « ظل الله فى أرضه » ، قائد جموع النرك الجسور هذا استقبالا حافلا لأول مرة عام ١٠٥٩/٤٥١ . وقد حرص الخليفة فى أول لقاء له معه على أن يسدل البرقع على وجهه ، وقد قنع طغرل بتقبيل يده فى خشوع . على أن ما اصطنعه «ائم بالله من مظاهر الملوكة انما كان يقوم فى الواقع على خواء ، فقد اضطره طغرل الى أن يزوجه ابنته . وفيما كان طغرل يعد العدة لزواجه هذا فاجأ الردى بالرى عام ١٠٦٣/٤٥٥ وهو فى السبعين من عمره ، الملىء بالأحداث ، والعالم السادس والعشرين من حكمه . وكان خلفه ألب أرسلان جنديا مهابا كثرؤا ، استأنف فتوحات عمه فى همة وتوفيق متزايد . ويخبرنا بعض مقرظيه الشرقيين أن رأسه من أعلى قلنسوته حتى أدنى لحيته كان تبلغ الياردتين طولاً (٣) ، فى حين يذكر آخرون أنه كان شديد الاعجاب ببطولة الاسكندر وعلى (بن أبى طالب) فثابر على دراسة سيرتها . وكان ألب

(١) فى أول لقاء بين الزعيم النركى والخليفة ، ظهر هذا والبرقع على وجهه وقد القى قباء العباسيين الأسود على كتفيه وفى يده راية الرسول ، وأخذ طغرل بهبة أمبر المؤمنين فتقدم اليه على قدميه فى خشوع ، ولم يجرؤ من بعد ذلك على الركوب حتى دعاه الخليفة الى ذلك .

(٢) لعله الأصوب بكسر أوله وهو اسم لا يزال ينسب فى آسيا الوسطى

(٣) انظر تاريخ السلاجقة لميرخوند ، نشر فولر ص ٤٦ .

أرسلان هو أول زعيم تركي فاد فرسان الترك عبر الفرات وأخضع أراضي غرب آسيا القديمة المقدسة لذلك الجنس الذي لا يزال يحكمها حتى اليوم (١) .

يخبرنا بعض المؤرخين الشرقيين أن فيصر روما ، رومانوس ديوجينيس كان قد أخذ منه الحماس والاعتداد بالنفس مأخذهما حتى عزم على أن يغرس الصليب بنفسه في مقر الخلافة بمدينة الاسلام المقدسة ويحرق المصاحف فلا يرجع حتى يبلغ سمرقند (٢)، ولا يصعب تقصى حفيظة هذه الأخبار . على أن أبناء الصحراء الغلاظ هؤلاء ، وقد جربوا قوتهم مع تلك الدول المنهارة في ايران والعراق ، لم يستطيعوا أن يكبحوا جماح أنفسهم عن الاشتباك مع الامبراطورية البيزنطية التي كانت لا تزال تشتت اذ ذاك بقوتها واثرائها . ولم يستطع الجيش البيزنطي ، ومعه الفرنجة والنورمانيون أن يصد هجمات الترك العنيفة ، فنزلت به هزيمة مروعة ، ووقع رومانوس نفسه في الأسر (٣) . وعامل ألب أرسلان أسيره في شهامة

(١) ابن حلكان (الترجمة التركية - اسنابول ١٢٨٠ هـ) م ٢ ص ٢٢٢ . ويقول جيبون « عبر الفرات على رأس فرسان الترك فدخل قيصرية قسبة كبديكية ، وقد جذبه اليها معبد سان باريل بها وما اشنهر من أمره وما عرف به من ثراء »

(٢) أراد ألب أرسلان تسوية المسائل سلميا ولكنه لم يوفق في ذلك وللرسائل المتبادلة بين الطرفين أهميتها . وان كانت لا تدل على أن المسيحيين البيزنطيين كانوا يفوقون في الحضارة جموع التتار بكثير . ويقول ألب أرسلان في رسالته الى رومانوس ، على رواية ميرخوند « وبرغم كفافه جندك فانك نواجه أميراً انتصاراته شائعة ذائعة ، فاذا كنت ندمت على بعجلك فقر بالجزية واقلع عن العدوان ، وسيفرك عند ذلك السلطان على كل ما يدرك من أرضين ولا يلحق بك أذى ، والا فستجلب الخراب على رأسك » وأجاب رومانوس ، برواية جيبون ، « اذا كان البربري يرغب في السلم فليترك الأراضي التي يحتلها لجند الرومان ويسلم مدينته الري ففصره بها صمنا على احلاصه » .

(٣) كان جندی من حرس السلطان العاصم قد حمل علمه ، رحب به إليه صربة ثانية صاح به « عف فأنا امبراطور الرومان » هخذ على ذلك أسيرا .

زائدة (١) ، وكانت هزيمة الرومان هذه فاتحة لسلسلة طويلة من الانتصارات التركية على الدولة البيزنطية بلغت غايتها بعد ذلك بخمسمائة عام باستيلائهم على القسطنطينية . وبعد أن أرغم التركي المظفر بيزنطة على دفع الجزية له أخذ ينشر الخراب والدمار في طريق عودته الى قصبته نيسابور مارا بكرمان وطبا عبر الصحراء (٢) . وفيها استقبل حال وصوله ابنة خاقان (٣) سمرقند الأكبر فزفها الى ابنه ملكشاه باحتفاء باهر (٤) وجعل ولاية العهد من بعده لابنه هذا ، كما أقام من أبنائه الآخرين وذوى قرباه حكاما على مختلف امارات الدولة الواسعة ليخرج من بعد ذلك الى خوارزم عام ١٠٦٥/٤٥٨ فقبضى هناك على بعض الثائرين عليه . وفعل مثل ذلك بعد هذا بسنين اذ سار لحرب شمس الملك أمير بخارى القدير . وفيما هو في مسيره هذا راح ضحية لفرط ثقته في نفسه ولا تقام جندي كان قد امتننه (٥) ، وذلك ثاني المحرم من عام ١٠٧٢/٤٦٥ . وقد مات في

- (١) اجلس الب أرسلان أسيره على عرش الى جواره وعامله باحترام بالغ . وزوج ابنة ملكشاه من ابنة رومانوس ، وقد أقيمت احتمالات فخمة بزواج الأمير التركي بالأميرة المسيحية .
- (٢) أخطأ فولرز ومالكولم في كتابة هذه الاسماء فذكروا كما فرت ، وكادرت ، اعتمادا على مراجع فارسية خاطئة . وقد سلك الب ، أرسلان هذا الطريق ليخضع أخاه كرد أمير كرمان وكان قد خرج عنه على ما يقال .
- (٣) لما كان لقب خان لم يحمله أبدا الا الأمراء المستقلون فيمكننا بذلك أن نجزم مطمئنين بان سمرقند وما بفي من القسم الشرقي من آسيا الوسطى لم يكن بعد قد صار الى تحوزة السلاجقة بالفعل .
- (٤) حين دخلت العروس نيسابور كان يتقدم موكب هذه الأميرة الجميلة ألف غلام والف جارية يحمل كل واحد منهم الهدايا الثمينة وينثرون المسك والعنبر والصبر في طريقها .
- (٥) كان الب أرسلان قد توقف بعض الوقت باقليم رم (أو ولاية رم على الاصح) عند حصن صغير على مقربة من الموضع الذي قرر عبور جيحون عنده . واستغرق الاستيلاء على هذا الحصن وقتا طويلا مما حدا بالسلطان الى أن يستدعى اليه القائد بوسف خوارزمي ويعينه على ذلك تعينا شديدا ثم بأمر بصلبه ، هنالك قرر هذا القائد أن ينتقم لنفسه قبل موته فسقط على الب أرسلان بخنجر في يده . وحين هم خدم السلطان بقتله منعهم الب أرسلان من ذلك ثقة منه في نفسه ثم اطلق سهما على خصمه ولكنه لم يصيبه . وقبل أن يتمكن السلطان من اطلاق سهمه الثاني انقض عليه الخوارزمي من جديد وأصابه بجرح قاتل .

الرابعة والأربعين من عمره والعام الثاني عشر من حكمه . وكان ألب أرسلان ثاني عاهل في بيت سلجوق برز كجندى ممتاز وحاكم حازم . وانه لمثال فذ في التاريخ الاسلامى أن نرى ملكشاه ثالث هؤلاء الحكام على صفات سلفيه حتى استطاع أن يزيد في نفوذ أسرته وقوتها بنفس المقدرة التي كانت لأسلافه وبنفس النجاح الذي صادفوه .

كان عصر ملكشاه هو الذي بلغ فيه السلاجقة أوج عظمتهم على التحقيق . ولقد أتيج لهذا السلطان أن بثت عرشه الذي ورثه ، ولكن بعد أن ظل سنوات خمسا يكافح تأمر عمه كرد عليه ، حتى اذا ما تمت له الغلبة عليه سار الى سمرقند عام ٤٧٠/١٠٧٧ ليهاجم في شخص صهره أقوى خصوم أسرته . وكان هدف ملكشاه الذي وضعه نصب عينيه أبدا هو تدعيم سلطانه في دولته الواسعة ، وقد استطاع أن يحقق هدفه هذا الى درجة كبيرة بفضل نصائح وزيره القدير نظام الملك (١) حتى كانت الأعوام العشرون التي حكم فيها من أزهى عصور التاريخ الاسلامى بانتعاش الحضارة فيها وتعميم السلام والرخاء . ويدين العلم والشعر والصناعة والعمارة بازدهارها جميعا ، في ايران ، الى هذا الأمير العظيم أكثر مما تدين به الى أى واحد من خلفائه . ويقال انه قد جاب اثنتى عشرة مرة أملاكه الواسعة من اليمن حتى جيحون . وكان الأمراء يتنافسون على شرف الالتحاق بخدمته ، بل ان الخليفة المقتدى ، وكان من صنع يديه ، رأى الشرف الأكبر في أن يأذن له هذا الأمير بطلب يد ابنته (٢) . ولما كان

(١) وقد ضمن نصائحه هذه في كتابه المعروف « سياست نامه » المنرجم

(٢) نستطيع أن نفهم على مدى ماكان عليه السلطان السلجوقي من السراء والابهة بما كان عليه جهاز ابنته من البذخ . وكان يسير وراء هذه الأميرة وهى تدخل بغداد مائة وثلاثون فصيلا من الابل « الفصيل ما بين عشرة جمال وخمسة عشر » محملة بأرقى أنواع الحرير الرومى وسبعه وأربعون من البغال أطواقها وأحراسها من الذهب تحمل اثنى عشر طبقا كبيرا من الفضة ملبئة بالحجارة الكريمة من كل صنف ، ويأتى من بعدها آخر الأمر ثلاث وثلاثون من ابل الركوب سروجها من القماش المذهب وتحمل مزيدا من الجواهر المتنوعة كذلك .

« لكل شيء » إذا ما تم « قصان » على الحكمة الشرقية المأثورة ، فإن ملكشاه عزم غاية جهده على أن يتلافى في حياته قيام الشقاق بين خلفائه من بعده ، فقسم دولته بين مختلف أقاربه ، فجعل الأناضول لسليمان شاه ، وهو الذى حكمت أسرته غازان كذلك ، وسوريا لأخيه توتوش عدو الصليبيين ، وخوارزم لتوتشكين غرجه ، وكان غلاما رقى بجده الى قيادة الجيش العليا وأسس بعد ذلك بيت الخوارزميين ، وحلب لآق سنقر (١) ، والموصل لجفرمش ، ودمشق لقبولش ، وفارس لخمارتكين ، كما جعل لابنه سنجر حكومة خراسان وبلاد ماوراء النهر .

ولم يغن ملكشاه حذره هذا الدولة السلجوقية من أن تنتهى الى نفس المصير الذى تلاقيه الأجناس الحاكمة الشرقية عموما ، فلم يكدر يوسف الثرى عام ١٠٨٥/١٠٩٢ ويرقى ابنه بركيارق (شديد اللعنان) العرش ، حتى قام الخلاف على أشده بين أبناء الأسرة العديدين ، وسرعان ما سقطوا فريسة للقواد وغيرهم من أقرباء الأمير الراحل . وبرغم طول الفترة بين ذلك الوقت وموت السلطان سنجر عام ١٠٥٢/١٠٦٠ وهى التى تبلغ أكثر من نصف القرن ، فإن حوادثها لاتصل اتصالا مباشرا بتاريخ بخارى الا فى القليل . ذلك أن آخر سلاطين السلاجقة هذا كان هو الوحيد من بينهم الذى أبدى بعض الاهتمام بمجريات الأحوال ببلاد ماوراء النهر طوال مدة حكمه غير المألوف فى طوله حتى امتد قرابة أربعين عاما ، كما اهتم بدوره اهتماما كبيرا كذلك ، دون بنى قومه كلهم فى الغالب ، بتقلص سلطانهم فى تلك البلاد التى كانوا قد ورثوها وبذل كذلك الجهد لتلافى ذلك .

وما يشير العجب حقا أن نرى أسرة شيوخ القبائل التركية هؤلاء يعجزون كل العجز فى أن يحتفظوا بكيانهم بنجاح فى موطنهم القديم فيما وراء جيحون ، وهم الذين بلغوا الى تمكين تفوذهم فى كل أنحاء الشرق

(١) أقسنقر ، أو أقسنقر على الأصح ، (وليست أقسنجر كما ترد كثيرا ، وكما ذكرتها بدورى خطأ فى معجمى عن اللفظة الجفتائية) هى لفظ تركى يستعمل كذلك كاسم علم ومعناه « الصقر الأبيض » .

الاسلامى أمدا طويلا ، بل وفى أفريقية نفسها ، وأسقطوا كثيرا من العروش القديمة وأقاموا أسرا حاكمة كثيرة . فمنذ اللحظة التى طرد فيها حفيدا سلجوق الشجاعان على أيدي خصومهما فنزحا مع قطعانها وأتباعهما الى حدود ايران الشمالية ، بدأ نفوذ السلاجقة ببلاد ما وراء النهر يتقلص بنفس النسبة تماما التى أخذت بها فتوحاتهم تعم ايران وعريستان ، وتندفع اندفاعا مطردا نحو الغرب . ولقد أراد مؤرخو السلاجقة ، وكانوا فى الغالب من الفرس والعرب ، أن يزيّدوا فى تفخيم عهد ألب ارسلان وملكشاه فمدوا حدودهما الشرقية الى ما وراء خوقند وادعوا أن سكة كاشغر كانت تحمل اسم ملكشاه ، وهى وقائع ليس لها ما يؤيدها فى الغالب على كل حال .

ويصف الترشيحي دواما ، فى تاريخه الخاص ببخارى ، شمس الملك ، الذى أشرفا اليه من قبل ، بأنه كان أعظم السلاطين وأقواهم ، وأن بلاده كانت تمتد الى ما وراء خجندة ، وأن منشأته العامة ، من دور للضيافة وحمامات ومدارس وغيرها ، قد ظلت جميعها قائمة من بعده لعدة قرون ، وأنه قد مات حوالى حوام ١٠٨٧/٤٨٠ ولا يزال مزاره يقصده أهل الورع من سكان بخارى . ولم يكن خليفته أرسلان خان ، ختن السلطان سنجر ، دونه فى المقام ، وقد حمل نفس القابه من بعده ، وظل أهل بخارى يذكرونه بالتعظيم كذلك . ومات هذا الأمير عام ١١٣٠/٥٢٥ ودفن فى مرو . وعلى هذا فلم يكن للسلاجقة الا مجرد السلطان الاسمى فى بخارى وسمرقند وفرغانة ، وأن السلطة الفعلية بتلك البلاد كانت فى الواقع بأيدي الأمراء الوطنيين أو الأمراء الأويغوريين الذين كانوا يحكمون فى تركستان الشرقية (١) .

(١) يصف المؤرخون الشرقيون الامراء الذين كانوا يحكمون اذ ذاك فى تركستان الشرقية بأنهم أصلا من قره ختاي ، وهو الاقليم الذى بصم اليوم ولايتى شانسى وكانسو الصينيتين ويسلكون معهم كذلك كل الترك الذين كانوا يعيشون فى الشرق الأقصى . ولانوافق على هذا الرأى ، ذلك ان واهد اللغة الاويغورية المذكورة فيما سبق تدل قطعا على أن الترك الذين -لنا يعيشون بفرغانة وتمتد منازلهم حتى الصين ، كانوا على وجه اليقين، قبيلة ممتازة يختلفون كل الاختلاف عن اخوانهم فى الغرب والجنوب . =

ان جبرى بك وطرل بك السلجوقيين الأولين اللذين بلغب رايابها
المظفرة بلخ شرقا وأواسط أرمينية غربا لم يدر بخلدهما أبدا الالتفات الى
الأقاليم الواقعة فيما وراء جيحون . حتى جاء الب ارسلان فأخضع
الامبراطورية البيزنطية ثم حاول من بعد ذلك أن يثبت سلطانه فى بلاد
ما وراء النهر سلما أول الأمر ، فارتبط فى سبيل ذلك برباط المصاهرة
مع سليمان خان سمرقند .

ولم تبد هذه الوسيلة ذات نفع على كل حال ، ا وجد ألب أرسلان
نفسه مضطرا بعد ذلك بسنوات قليلة الى أن يعبر جيحون بجيش كبير فى
حملة كلفته حياته . وتابع ملكشاه الحملة ضد ختنه حتى غلبه آخر الأمر ،
وان كان من المشكوك فيه أن نفوذه امتد عند ذلك حتى فرغانة ، ذلك أن
الناربخ يذكر لنا اسم خضرخان بأنه كان معاصرا لملكشاه يحكم فى تركستان
وبياريه فى القوة والأبهة (١) .

= وكانت لهم لهجة تركية واحدة هى لهجة قوتا دغويليق ، وكانت هذه
لا تستصى على الأقوام كذلك فى سرق بلاد الأويغور وغربها . ولم تنحط
هذه اللهجة الا حين أخذ الأويغور يختلطون بغيرهم من الترك حوالى القرن
السابع الهجرى . وما كتبه المؤرخون النريقون لا ينفى وراينا هذا بطبيعة
الحال . فالجوينى ، وهو الذى نبه كل المؤرخين المتأخرين ، ساك تحت
اسم الأويغور أو الأتراك الأويغور كل القبائل التركية التى كانت تنزل عند
المالط وبشبالق على الخصوص وهى التى يعرف رئيسها باسم « ادى
قوت » اى رب السعد ، وكاهنها باسم « كام » وهذان اللفظان وكل ما عرف
به الجوينى ، ومن قبوعه ، الأوبغور ، تجده فى كتابى عن شواهد اللغة
الأويغورية . "Monuments of Uigur Language" وذلك نقلا عن
مخطوط كتب قبل ذلك العهد بخمسين ومائة عام لأوغور كاشغر ، مما
يؤيد رأبى بقوة فى أن لغة بشبالق كانت هى بذاتها لغة كاشغر . وما
نميز به الأويغور عند الجوينى عن بنى جلدتهم فى الغرب هو أنهم فى نظر
المسلمين كفار ، على المسيحية أو الشامانية ، فى حين كان بو حلدنهم
فى الغرب على التوحيد يدينون بدين الاسلام ويتحرون من الاختلاط
باخوانهم الوثنيين . وعلى هذا فاننا حين نطلق كلمة « الأويغور » على قسم
من أقسام الترك فى الشرق فانما نعنى بذلك كل القبائل التى تكون
سلسلة السلالات البشرية فيما بين الصينيين والفرس فى فرغانة .

(١) استرعى انتباه جيبون قيام وجه الشبه بين خضرخان وملكشاه
فى أحوالهما ، فكان من الطبيعى أن يقول بأن ملكشاه قد نظر الى ما بلغه
من قوة هائلة فى الغرب فلم يقبل أن يقوم له فى الشرق منافس قوى مثل
هذا .

وبقدر ما أظلمته بنود السلاجقة من أرضين حتى غدت ترفرف في زهو على آسيا الغربية ، فإن حملاتهم على عنفها ، كتلك التي شنّها السلطان سنجر لم تثمر في الشرق الا قليلا أو لا شيء على الاطلاق . ولئن كانت بخارى والقسم الغربي من خانياتها قد اعترفت حقا بسيادة السلاجقة على الدوام ، الا أن القسم الشرقي من بلاد ما وراء النهر لم يعترف بسيادة هؤلاء الأمراء الذين كان مركز سلطانهم يقع في الحقيقة بایران . ولم يكن هناك من أدرك هذه الحقيقة كما أدركها السلطان سنجر الذي كان يرى في خراسان والجزء الشرقي من العالم الاسلامي أحب البلاد الى نفسه . وسار هذا الأمير سييء الطالع عام ٥٢٤/١١٢٩ لحرب محمد أمير سمرقند وابن سليمان خان سالف الذكر ليرغمه على الدخول في طاعته ، فحاصر سمرقند ، وكانت اذ ذاك حصنا خامل الذكر ، حتى اضطرها الجوع وانتشار الوباء الى الاستسلام . على أن سنجر ما غدا أن عفا عن محمد ، بعد أن سيره أسيرا الى خراسان ، ثم أعاده الى عرشه . وكانت هذه الواقعة أول حرب لسنجر ببلاد ما وراء النهر (١) .

وأما الثانية فقد جانبه الحظ فيها . ذلك أن سمرقند عادت الى العصيان من جديد عام ٥٣٥/١١٤٠ . وبرغم أن أحمد زعيم الثوار بها كان يلزم فراشه بداء النقرس ، فإن غلمانه وكانوا اثني عشر ألفا ، اضطلعوا بالدفاع عن المكان ، ولئن كان النصر قد كتب لسنجر فعهد بحكومة المدينة الى نصر ابن ذلك الثائر أحمد الا أن هذه المعركة قد أدت به الى الاشتباك في حرب جرت عليه الكوارث من بعد ذلك و انتهت بالتالي الى القضاء التام على نفوذ السلاجقة ببلاد ما وراء النهر في الغالب .

كان الاويغور الذين أشرفا اليهم في الفصل السابق يحكمهم أمير

(١) يذكر كتاب جيهانكشا أن بخارى كانت كذلك قد خرجت على سنجر بزعامة من يدعى تامكيچ خان فلم يذهب السلطان السلجوقي الى سمرقند الا بعد أن أطفأ تلك الفتنة .

يدعى كرخان (١) . وعلى رواية جيهانكشا ، وعنه نقل المؤرخون الآخرون في الغالب ، فإن كرخان هذا كان قد قدم من داخل خطاي (الصين الشمالية) فاستقر أول الأمر مع جموع أتباعه عند الحافة الشرقية لسهوب القرغيز . حتى إذا ما شمر بكراهية البدو له تابع رحلته جنوبا فنزل بمدينة ايميل . ولم يجب السلامة التي يشدها في منزله الجديد هذا كذلك حتى استقر به المطاف آخر الأمر في بلاساغون (٢) فحارب قبائل قنغلي والتبجاق والقرلنق القوية وانتصر عليهم ، ليمد من بعد ذلك سلطانه على قسم من الاقليم الذي يعرف باسم ختاي وعلى مدينتي بشبالق والمالق ثم يهاجم امارتي كاشغر وختن ، وكاتسا تتحاربان معا ، فيخضعهما لسلطانه ثم يسير في فتوحاته من بعد ذلك بالتدريج صوب الغرب في اتجاها فرغانة وبلاد ما وراء النهر . هنالك خاف سنجر من تزايد قوة جاره الشرقي في هذا فتناق الى كبح جماحه . ولم يكن كرخان بدوره أقل ميلا الى القتال ، ولم تكن الفرصة كذلك غير بعيدة المنال .

كان الاقليم الواقع عند الشمال الشرقي من خوقند ، موطن التبجاق والقره قرغيز ، يسكنه بطون بعينها من بدو القره ختاي . وكان سجر قد أثقل كاهلهم بما فرضه عليهم من الخراج . وكان شبوخ قره ختاي حريصين على أن يقيموا للسلطان ما يبلغ خمسة آلاف من الابل وعشرة آلاف من الغنم ليرضى . وحين رأوه لا يقنع بذلك استنجدوا بكرخان الذي استجاب لهم وسارع بغزو بلاد ما وراء النهر عام ١١٤١/٥٣٦ حيث أنزل بالسلطان سنجر هزيمة ساحقة ركن من بعدها الى الفرار تاركا من

(١) وليس كورخان كما ذكره المؤرخون الشرقيون الذين تابعوا الحوناني في ذلك ، وهو يقول ان هذا اللفظ في لغة قره ختاي معناه خان الخانات ويستدل على ذلك بكلمة كوركان الأوفورية بمعنى الحامي أو المدافع وهو قول لا يوفق به وما يذهب اليه كذلك كلاپروت Klaproth, Journal Asiatique 1828 p. 292 في هذه المسألة لا يقوم على سند .

(٢) بلا ساغون يذكرها المغول باسم جوبالق ، أي المدينة الجميلة ، كما ذكرها ميرخوند على وجه الصحة . وفي خريطة آسيا في القرن الرابع عشر التي حققها بول في كتابه القيم Jule, Cathay تقع بلاساغون عند آل شمال من أورمجي الحديثة .

ورائه نساءه وكل متاعه ، فلم يصحبه الا ثلثائة من رجاله (أخذ عددهم يتناقص بالتدريج حتى انتهى الى خمسة عشر) عبر بهم سيحون في مشقة بالغة . وقدرت خسائر السلاجقة في هذه المعركة بثلاثين ألف رجل . وبهذه الهزيمة انتهت الى غير رجعة شهرة سنجر العسكرية وهو الذي كانوا يعدونه يوما الاسكندر (المقدوني) الثاني ، وضاع معها كذلك كل نفوذ للسلاجقة ببلاد ما وراء النهر .

وتوالت المصائب على سنجر بعد هذه الهزيمة ، وكتب عليه أن يركبه العار اذ سقط أسيرا بأيدي بدو التركمان عند أندخوى فأمضى عندهم ثلاث سنوات في شقاء وبؤس بالغين . ولئن أفلح آخر الأمر في الهرب من محبسه هذا الا أن ما عاناه من الارزاء الجسام كان قد ذهب بعقله ، ووافاه أجله في السادس والعشرين من ربيع الأول من عام ٥٥٢/١١٥٨ . وخلفه محمود خان ابن أخيه فحكم ست سنوات من بعده . وكان هذا الأمير على قرابة مع بغرا خان كاشغر من ناحية أمه . ومع هذا فقد احتال هذا « الخان حتى سمل عينيه بواسطة أحد الخارجين عليه .

وفيما كانت خراسان نفسها قد سقط جزء منها بأيدي الخوارزميين ، واسنولى أمراء الغور (وبلادهم في القسم الشمالي من بلاد الأفغان الحالية) على جزء آخر منها (١) ، وانطلق لصوص جموع الغز يجتاحون جزءا ثالثا منها ، كان كرخان قد ثبت سلطاته على الجزء الأكبر من فراغانة وبلاد ما وراء النهر .

هكذا انتهى حكم أول أسرة تركية في بلاد ما وراء النهر . ومن عجب أن نرى أصحابها لم يساهموا في عهدهم بأي نصيب على الإطلاق لرفع شأن موطنهم القديم من الناحية السياسية أو في تقدم مواطنيهم الحضارى . فهؤلاء السلاجقة ، وهم أنفسهم من الترك ، كانوا يتفاخرون بما استولوا عليه من أرضين في آسيا الغربية ، ويرون ذلك الاقليم

(١) كتب الشاعر انورى مربيته المشهورة « دموع خراسان » بسبب ما أصاب هذا الاقليم من الدمار اذ ذاك . ونقلها الى الانجليزية في ترجمة جيدة بالمروكوويل
E. H. Palmer and J. Cowell : The tears
of Khorasan.

الصغير على جيحون غير جدير باهتمامهم فى الغالب . وقد حكم أعظم أمرائهم فى تلك الحقبة من الحضارة التى بدأت اللغة الفارسية تراحم العربية ، كلغة الأدب ، وذلك فى ايران وتوران . واذ كان السلاجقة من أعظم رعاة الشعر والعلم ، فقد رأينا لذلك طغرل بك وملكشاه وسنجر جميعا يعملون على احياء لسان ايران اللطيف الجميل ، ولم تكن هذه الأسرة الحاكمة تستخدم اللغة التركية الا بوصفها لسان الحياة العامة . وكانت هذه اللغة تعزز بدورها بنهضتها الأدبية فى قسم آخر من آسيا (١) . ونظير ذلك نجده كذلك عند أمراء خوارزم الترك والأمراء الاقطاعيين الأقوياء من مدن بلاد ما وراء النهر . ذلك أنه برغم أن الحكومة كانت كلها فى الغالب بأيدي الترك الا أن السكان الترك المستقرين هناك كانوا على قلة عددية نسبية .

(١) وذلك فى تركستان الشرقية حيث نظم ذلك الشعر الاخلاقى والسياسى « قوداتقوبيليق » عام ٤٦٠-١٠٩٦ أى قبل موت سنجر بما يقرب من مائه عام .

الفصل السابع الأويغور وأمراء خوارزم

٥٢٨ (١١٢٣) - ٦١٥ (١٢١٨)

ظلت بخارى ، مركز الثقافة القديمة وفنون السلم ، هي وسمرقند ، التي ذاع صيتها في الآفاق بسا حبتها الطبيعة من جبال وفتنة ، تتعرضان على طول الزمن للخطر بسبب أطماع جيранهما في الشرق والغرب ، وكانوا جميعا رجال حرب وشغب ، وظلت هاتان المدينتان ، طوال الفترة التي انقضت بين سقوط السلاجقة والغزو المغولي موضع النزاع الأول بين جارين طموحين هما كرخان الأويغوري في الشرق والخوارزميون في الغرب . ولقد تحدثنا من قبل عن مبدأ ظهور كرخان وتحدث الآن عن الخوارزميين بقدر ما يسمح به المقام معنيين بوجه خاص بذلك القدر من تاريخهم الذي يتصل اتصالا مباشرا بسياساتهم بأزاء بلاد ما وراء النهر . كانت خوارزم ، وهي اليوم خانية خيوة الحديثة ، في زمن السلاجقة مجرد اقطاع يخضع في إدارته لحامل الطشت (١) (طشتدار)، وعلى هذا الاعتبار أقطعها ملكشاه لقائده نوشتكين غرجة . وخلفه ابنه محمد قطب الدين عام ١٠٩٧/٤٩١ فحكم خوارزم ثلاثين عاما . وحين بدأ نجم السلاجقة في الأفول لم يعد هو وغيره من الأمراء الاقطاعيين في هذه الدولة العظمى ولهم ما يربطهم بالبيت الحاكم عموما الا الولاء الاسمي . واتخذ هذا الأمير لنفسه لقب خوارزمشاه (أمير خوارزم) ، ولم يعد بعد حامل

(١) أي الخادم الذي يقدم لسيده « الطشت » ويقوم على وضوئه . وقد أخطأ ماكولم في كتابه عن تاريخ فارس حين ذكره بأنه الساقى وهو في الفارسية « جشنة كير » .

الطشت عند أمير خراسان السلجوقي إلا بقدر ما هو عليه اليوم خان خيوه بالنسبة للسلطان برغم أنه يتلقى نفس اللقب منه (١) . وخلف قطب الدين ابنه أئسز وكان كفواً ممتازاً واسع الأطلاع ، أذاع من صيت أسرته برعايته الفذة للآداب (٢) وعمل في الوقت نفسه على الافادة من ازدياد قوته ليتحرر من سلطان سنجر أميره وظهيره . وبقدر ما كان يظهره من الاخلاص والولاء لسنجر فترة موأاة الحظ له (٣) ، بقدر ما أبدى له من البغضاء والعداء الشديد حين قلب له الدهر ظهر المجن . ولقد خرج أئسز على أميره ثلاث مرات وغزا خراسان ، وكان سنجر يعفو عنه كل مرة في سماحة تامة . وكان سلوك الخوارزميين هذا من الخطورة بمكان . ذلك أنهم بغاراتهم تلك التي قاموا بها انما مهدوا السبيل في الواقع لعدو ثالث مشترك ليحقق أهدافه . وكان هذا هو كرخان الذي استولى على كل بلاد ما وراء النهر بعد أن هزم سنجر أول مرة ثم سير من بعد ذلك فرقا من جيشه عليها أوتوز أحد قواده الكبار فغزا بها خوارزم وأزل بها ضربات شديدة ثم عاد الى سمرقند محسلاً بالأسلاب .

(١) يطلع سلطان اسنانبول على خان خيوه لقب « حامل الكأس السلطانيه » وما يستلقت النظر في غير قليل ان أبناء تابع السلاجقة السابق هؤلاء قد استطاعوا ان يحافظوا على امتيازات أسرهم برغم انقطاع سلسلتهم لعدة قرون .

(٢) الشاعر رشيد الدين الطواط الذي ذكره هامر في كتابه عن تاريخ بنون الفول الفارسية Hammer-Purgstall : Geschichte der persischen Redekuenste كان له مكانة مرموقة في بلاط أئسز وغالباً ما هبجا السلطان سنجر (ص ١٢٩ - هامر) حتى أقسم ان هو سقط في يده حيا بعد معركة هزازاسب أن يقطعه الى سبع قطع . وخين سقطت هذه المدينة اختفى الطواط . حتى فكر منتخب الدين حاجب سنجر في ان يخفف من سحق سيده على الشاعر . فعرض عليه مآزحاً ، بأن يعتبر أن ذلك الشاعر هو ذلك الطواط الطائر الصغير الهزيل البائس ويكتفى بقطعه الى نصفين بدلاً من سبع، هناك ضحك السلطان وعفا عن الشاعر

(٣) حين كان سنجر ببخارى وهو يقضى على ثورة تمفج ، عزم بعض المتآمرين على أن يباغتوه وهو في الصيد ويقتلوه وتمثلت هذه المؤامرة لأئسز في الرؤيا فاستيقظ فجأة ، وركب حصانه فوصل الى مكان الأمير في الوقت المناسب وأفسد على المتآمرين خططهم ودهش سنجر لهذه الرؤيا بقدر ما أظهر امتنانه لأئسز على اخلاصه له .

وجهد أتمز ما وسعه ليغسل ذلك العار الذي لحق به ، فسار عام ١١٥١/٥٤٦ الى جند وانضم الى كمال الدين (١) نائب السلطان هناك وكان قد تحالف معه سرا في حرب الأويغور الكفار (٢) . لكن بجهوده ذهبت أدراج الرياح واضطر الى أن يتعهد لعدوه بدفع جزية سنوية مقدارها ثلاثون ألف دينار . وبرغم أطماعه الواسعة فإنه لم يستطع أن يتخلص منها فتركها عبئا ثقيلا على كواهل خلفائه من بعده .

ومات أتمز بخبوشان عام ١١٥٦/٥٥١ فخلفه ابنه ابل أرسلان . والظاهر أنه قام بمحاولة جديدة لتحرير بيت خوارزم من عبء الجزية التي فرضت عليهم تلقاء كرخان ولكنه فشل في ذلك كما فشل أبوه من قبل .

ويقال ان بلاد ما وراء النهر بعت بوقد من أهلها عام ١١٥٨/٥٥٣ الى ايل أرسلان تستنجد به من مظالم أمير سمرقند واعتداءاته ، وكان من اتباع كرخان . وأسرع ايل أرسلان الى هناك في قوة كبيرة . وفتحت له بخارى أبوابها سلما ، الا أنه لم يستطع بعد ذلك أن يواجه ذلك الجيش الذي حشده له عدوه بظاهر سمرقند ، وكان يضم كل التركمان النازلين فيما بين قراقول وجند ، فعاد الى بلاده دون أن يحقق شيئا مما خرج له . وهكذا بقي الأويغور وفي حوزتهم الجزء الأكبر من بلاد ما وراء النهر وفرغانة ، على ما كانوا عليه من قبل ، في حين كان على الخوارزميين أن يقنعوا بذلك الاقليم الواقع عند حدود بخارى الغربية (٣) . وساد الهدوء

(١) كان كمال الدين صديقا حميما للشاعر الطوط . وحين خان أتمز اتهم الشاعر باشتراكه في هذه الخيانة حتى ركبته المهانة بعض الوقت .

(٢) بينا من قبل كيف أن لفظ « الكفار » بأدق مدلوله الاسلامي لا يمكن أن يعمم على كل الأيغور ، فأغلبهم ، وفيهم كرخان نفسه ، كانوا على المسيحية بخاصة ، ومن هؤلاء قبيلة النايمن التركية وكان أفرادها جميعا من النصارى على ما يقال .

(٣) يؤكد الجويني ، وهو يميل في الغالب الى الخوارزميين ، أن ايليك تركمان حين علم بقسود ايل أرسلان استسلم له من فوره ، كما التمس السمرقنديون بدورهم صف الأمير كذلك وهو قول غير صحيح . ذلك أن بخارى وسمرقند كانتا تقران بسيادة الخوارزميين طالما كانت قواتهم تحتل المدينة ، ولم يكن للخوارزميين أيام ايل أرسلان وتكش الا مناطق بخارى الغربية ، أي بلدان آموى وقراقول وجند في ناحية الشمال الغربى .

بين هذين الاقليمين المتجاورين ست سنوات دعم فيها ايل ارسلان حكومته في خراسان وذلك بعد أن طرد محمودا (آخر سلاجقة خراسان) عن عرشه وسلم عينية .

وتجدد العدوان بين الفريقين مرة ثانية عام ١١٦٤/٥٦٠ حين اتهم الأويغور بغزو أراضي أمير خوارزم . هنالك سير ايل ارسلان قائده أيار بك الى آمويه على أن يلحق به هو بنفسه بعد قليل . ولكنه لم يكذ يسير اليه حتى كان الأويغور قد هزموا جيش أيار وسقط ذلك القائد نفسه في الأسر ، واضطر ايل ارسلان بدوره الى الفرار . وداهمه المرض وهو في تراجعه هذا وقضى به في العام نفسه . وكان ايل ارسلان قد عهد الملك من بعده الى أصغر أبنائه العالم القدير سلطان شاه ، ولكن ابنه الأكبر تكش (١) رفض أن يتخلى عن حقه الطبيعي في وراثة العرش . وما أن ضمن تكش عون الأويغور له بعد أن وعدهم بأن يدفع لهم الجزية المفروضة في مواعيدها ، حتى انطلق يحارب أخاه حريا دامت عشر سنوات تم له من بعدها ابعاده عن العرش والجلوس عليه مكانه ليصبح من بعد ذلك أعظم أمير بين بنى جلده ، ويضيف الى امارته الصغيرة ضئيلة الشأن ، عند مجرى جيحون الأدنى ، أراضي جديدة امتدت حدودها جنوبا حتى الهند والخليج الفارسي وغربا حتى الفرات وشمال الفولجا . وقد بدأ تكش حكمه بانتهاج سياسة الصداقة مع الأويغور . ولم يكن حرصه على المحافظة على وعوده لهم الا لما كان يشعر به من الضعف بازائهم اذذاك .

والغالب أنه وضع نصب عينيه أن يعمل على تثبيت عرشه أولا ، وأن يمد نفوذه من بعد ذلك صوب الغرب ليصبح من بعد ذلك قادرا على

(١) ويكتب بالكسر لا بالفتح الذي رسمها به كاتر مير العلامة خطأ في هامش ترجمته المشهورة لكتاب رشيد الدين عن المغول في ايران ، وهي لفظ تركي قديم معناه ، قتال أو حصار أو موقعة . ومصدر دو كشمك ، معناه أن يحارب أو يدخل في معركة .

متابعة خطته الشرقية في حرية أكبر . وتم له تحقيق غرضه الأول بعد حرب اتصلت ثمانى سنوات مع أخيه سلطان . وعاونته على بلوغ غرضه الثانى معاونة ملموسة اضطراب الأمور في بلاط طغرل بن أرسلان آخر السلاجقة في فارس . فقد استنجد به ثائر من أتباع الأمير السلجوقى يدعى قتلغ اينانج (١) ، فلم ينجح في الاستيلاء بضربة جريئة على عرش ايران فحسب ، بل هاجم كذلك الحشاشين ، أولئك الفدائيين المتعصبين ، في حصنهم القوى المعروف باسم أرسلان كشا (مروض الأسد) ، واضطر الخليفة العباسى ناصر الدين الى محالفته بعد أن هزمه ، وان كان هذا الأمير العباسى المتكبر ما لبث بعد قليل أن نبذ هذا الحلف فى غضب شديد .

هكذا نجح تكش في أن يقيم له دولة لا تقل في اتساع رقعتها عن دولة السلاجقة الأول أو دولة السامانيين ، برغم ما كان من ميل أتباعه الى اثاره الفتن ، بل وميل أبنائه بدورهم اليها كذلك . ومع هذا كله فإنه لم يتوقف عن دفع الجزية الى جيرانه الشرقيين حتى لنراه عند موته الذى وقع فى العاشر من رمضان عام ١١٩٩/٥٩٦ بعد أن حكم ثمانية وعشرين

(١) قتلغ اينانج « المؤمن السيد » هو ابن عطابك ايلد ركوز (الشريف على الناس) كان قد تنكر اشد التنكر للسلطان طغرل ذى العقل الراجح برغم سوء حظه ، وكان هذا الثائر قد سجن من قبل لمحاولته الاعتداء على شخص السلطان وحين عفا عنه من بعد ذلك وكرمه قابل ذلك بالذهاب من فوره الى خراسان وكتب الى تكش ليمنه بفوزه يحارب بها سيده . ويقال ان طغرل ركب حصانه فى هذه المعركة وهو نمل وتقدم قواته متدرا بدارع كان يتلألا وهو يلوح بدبوسه الثقيل فى الهواء وينشد من شعر الشاهنامه ما يستنزل به الخراب على رأس أعدائه . وسقط منه دبوسه وهو فى انفعاله هذا فأصاب فرسه فى ساقها فكبث به ورمته من فوقها هنالك أسرع قتلغ اليه وقتله . وأمر تكش بأرسال رأسه الى الخليفة بفقداد وكان يضم له عداء شديدا وقد رثاه أحد الشعراء حين رأى رأسه المنقطوعة فقال :

ما أغرب أطوار الزمان ايها الملك
وما أسرع ما تحجب السحب هالات المجد فى السماء
فراشك التى كانت بالأمس تطاول الجوزاء
ها هى قد سقطت اليوم على الحصباء .

عاما ، يوصى أولاده بأن « يتجنبوا كل نزاع مع كرخان وأن ينظروا اليه كمتراس قوى يقف في وجه عدو جبار بعيد حتى قيام الساعة » ولئن يكن من الصعب أن نقرر بأن هذا التنبؤ الذي يشير الى الغزو المغولي قد جرى حقيقة على لسان هذا الأمير الخوارزمي القوى أو هو من وضع المؤرخين المتأخرين ، الا أن الثابت المعروف أن ابنه وخليفته محمد قطب الدين لم يكن هو ذلك الرجل الذي يحقق وصية أبيه . فقد كان هذا الأمير شجاعا من أولى العزم ، حتى أدى به طموحه الذي لا حد له وما كان يشعر به من الخزي بسبب التزاماته نحو جار هو في نظره همجي جلف (١) ، الى أن بات يرتقب الفرصة ليشتبك مع كرخان ويفض ما بينهما .

وما ان اضطلع هذا الأمير الخوارزمي بشئون حكومته حتى عوقته الحوادث عن أن يزيج عن كاهله ما يثقل نفسه من أمر الجزية . فقد غزا خصمه شهاب الدين ، أمير الغور ، طوس وما حولها وأنزل بها الخراب والدمار الشامل . وخرج اليه محمد فوجد نفسه يدخل في حرب طويلة المدى قدم فيها الأويغور لمساعدته ، في حين انضم أمير سمرقند الثائر الى شهاب الدين بدوره وعبر معه جيحون عام ١٢٠٧/٦٠٠ في جيش يزيد على سبعين ألف رجل . وكان أمير خوارزم قد جمع ، في عجلة ، ما يقرب من عشرة آلاف فارس فقط . ولكنه مع ذلك انتصر على خصمه انتصارا حاسما ، بفضل شجاعة الأويغور مناصريه ، حتى اضطر شهاب الدين الى الفرار تاركا كل متاعه من ورائه (٢) ، ولم يستطع من بعد ذلك أن يفيق

(١) أكرر هنا الرأي الذي ذكره في المقدمة بأن سكان خوارزم كانوا اذ ذاك غالبيتهم من الفرس أو ان الأمراء الخوارزميين برغم أنهم أنفسهم من الترك أصلا ، الا ان نفوسهم كانت قد أخذت تتشرب ثقافة الفرس وحضارتهم بالتدريج حتى باتوا ينظرون الى غيرهم من الترك نظرتهم الى الهمج .

(٢) رأى شهاب الدين أن المعركة لاتسير في صالحه فاعتصم بأحد الحصون . ولكن الأويغور أحاطوا بذلك الحصن وسرعان ما فتحوا ثغرة في أسواره . وادت بأمر سمرقند غيرته الدنيئة ، وكان من أحلاف كرخان (بضم الكاف) ، الى أن بعث في السر الى شهاب الدين يطلب اليه الا يتوانى في انقاذ نفسه على الأقل ، ولو أدى ذلك الى ترك كل متاعه للكفار . وكان الأويغور الذين شرعوا في دخول الحصن من النصارى في الغالب .

من أثر هذه الضربة (١) . ومات عام ٦٠٣/١٢٠٥ . واستولى محمد بذلك على هراة وكل اقليم الغور . وتم له من بعد ذلك القضاء على فتن شتى بخراسان وكذلك حتى بسط نفوذه على ايران كلها . وهناك بدا له أن الأوان قد آن ليفرغ من أمر توران .

قابل شاه خوارزم صنيع كزخان معه حين أعانه في حربه مع شهاب الدين الغورى بكبرياء متعمد بدلا من الاعتراف له بجيميله . وحين ظهر رسل الاويغور ببلاطه عام ٦٠٦/١٢٠٥ ليطلبوا بدفع الجزية السنوية ، شعر هذا الخوارزمى المخلص أنه لم يعد له طلاقة يتحمل هذه المذلة بعد ، وعزم على رفض أدائها . وحرص هذا الأمير على ألا يظهر بمظهر المخالفه لوصية أبيه علنا ، فغادر قصبة ملكه فور وصول رسل الاويغور وترك على حكومته أمه فى الظاهر . وأصدر كل تعليماته سرا فى ذلك الى وكيله محمد ماى . واستقبلت ترخان خاتون ، أم السلطان ، رسل الأويغور بترحاب عظيم وردتهم مكرمين الى بلادهم ، وكأقت تسير فى ذلك وفق سياسة زوجها الراحل فى دقة تامة . على أن رسول خوارزم لم يكذب بل بلاط الأويغور ويعلن حقيقة رأى أميره فى هذه المسألة حتى رأى كرخان ، وقد أخذت منه الدهشة لذلك ، أن يستعد من فوره لمهاجمة الأمير محمد . ولم يتأخر هذا الهجوم فى الواقع كثيرا . فقد خرج أمير خوارزم الى بلاد ما وراء النهر بدعوى استنجد أهلها به من مظالم الأويغور وعسفهم فغزا بخارى فى العام نفسه . وقد انحاز الأهليون الى صفه وفتحت له تلك العاصمة أبوابها . وسارت الأمور بسرقة على هذا الوجه كذلك . ذلك أن أميرها اذ ذاك السلطان عثمان ، وكان أميرا عالى النفس اشاد بذكره كل المؤرخين السرقيين ، كان على عداوة مع كرخان اذ رفض أن يزوجه ابنته ، فلم يتردد فى الترحيب بتقديم السلطان محمد الذى رضى بمصاهرته

(١) ضاعت بسبب ذلك كثير من الاراضى من يد شهاب الدين حتى اقبلت غزته قصبته نفسها ابوابها فى وجهه الى أن استطاع بهمة قواده بالهند ان يسترد أكثر أملاكه من بعد ذلك وقد أعناله أحد الهادكة فى سببر شعبان من عام ٦٠٢ وهو فى طريقه من لاهور الى غزنه وكان فى نيسه أن بار لما أصابه من الغرب (المترجم) .

تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية اول ص ١٢٠ .

فأصبح بذلك حليفا له وصحبه في حربه في الشمال ، تلك الحرب التي سار إليها بعد أن عهد بحكومة سمرقند الى ترتيبه وكان قائدا خوارزميا قديرا . وحين بلغت كرخان هذه الانباء بعث بأوامره الى قائده الأكبر تايئكو وكان بطراز عاصمة الشاش ليستعد للمقاومة الشديدة . ولكن الحظ تخلى هذه المرة عن الأويغور وهزم جيشهم هزيمة حاسمة ، وسقط تايئكو (١) نفسه في الأسر بعد أن أصيب بجراح بالغة . ولنا أن تتصور مدى ما زاده هذا النصر في كبرياء السلطان وما أكد به ثقته في نفسه حتى اتخذ لنفسه عقب ذلك لقب « اسكندر الثاني » و « ظل الله على الأرض » . واستبدت به حمى النصر وهو في طريق عودته الى خوارزم بعد أن استولى على أترار حتى قسى قلبه . فأمر بأسيره الجريح تايئكو فألقى به في اليم .

ظل هدف السلطان محمد بالاستيلاء على تركستان بعيد المنال برغم كل هذا الذي فاز به . ذلك أنه لم يكدي يبارح شواطئ سيحون حتى كان كرخان ، برغم تقدمه في السن ، اذ كان اذ ذاك في التسعين من عمره ، قد ظهر بشخصه مع جيشه عند اترار فاستردها ثم سارع من بعد ذلك بتسيير بعض فرق من جيشه فحاصرت سمرقند من جديد . هنالك أسرع السلطان محمد الى بلاد ما وراء النهر ، وكان عليه في الوقت نفسه أن يقضى على فتنة قامت في جند . وحين علم الأويغور بقدومه رفعوا الحصار عن سمرقند وتراجعوا صوب الشمال (٢) . وانطلق الخوارزميون في اثرهم

(١) فيما كان تايئكو (وليس تايئكو كما ذكر D'Herbelot جريحا على الأرض ونقوم على العناية به احدى جواريه . هم أحد الجنود بعدلج رأسه ، لولا أن ولولت الجارية وافصح عن اسم الجريح ، فأخذ أسيرا وسير الى السلطان (المؤلف) . ويرد اسم هذا القائد (تايئكو) عند حبيب السير نان ٦٤٤ (المترجم) .

(٢) يرد الجويني سبب اسراع الأويغور بالتراجع الى أن كرخان كان قد انزعج لخروج كوجلوك عليه عند المساق فاضطر الى جمع شتات قواته وقد تصح هذه الدعوى نوعا ما ، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نقول أن الجويني كان على بينة من أمر قيام التفاهم بين محمد وكوجلوك ، فهو يقول في أحد المواضع بان هذا الاتفاق قد تم بينهما اثناء حرب محمد الأولى . في حين يذكر في موضع آخر انه وقع قبل الحرب الثانية .

يطاردونهم حتى اشتبكوا معهم عام ٢١٠/٢١٣ غير بعيد من بناكت . فى حرب قاد فيها الغريمان جيشيهما بنفسيهما ، واستمر القتال لعدة ساعات وكانت نتيجة آخر الأمر سجالا ، على ما يؤكد على الأقل المرجع التاريخى جهانكشا ، وان كانت مجريات الحوادث تشير فى الغالب الى هزيمة الخوارزميين ، فقد انضم القائدان الخوارزميان ترتبه واسيهب الى صفوف العدو ، كما أن السلطان محمد نفسه ظل مقتودا فى معسكره لعدة أيام بعد الواقعة (فقد وجد نفسه وسط قوات عدوه فجأة ، ولم تيسر له الهرب الا لأنه كان قد اعتاد عند خروجه للحرب أن يرتدى زى خصومه فى المعركة) . على أن اسراع كرخان بالانسحاب ينتهى بنا الى نتيجة تخالف ما سبق ، وهو ما يحتمل فى الغالب ، ولا سيما اذا ما ادخلنا فى اعتبارنا واقعة ظهور خصم ثالث جديد على مسرح الحوادث يهدد ظهوره الأمير الأويغورى الشيخ بأشد الأخطار ، اذ كان من المتحمسين لأهداف السلطان محمد . وكان هذا هو كوجلوك خان بن تارينغ خان أمير قبيلة التايان التركية (١) وكان قد تراجع من ييشبالق غربا بسبب تزايد قوة جنكيز خان فالتس المأوى عند كرخان حتى أصهر اليه . ولكنه ما لبث أن انضم الى تابعه الخارج عليه هناك وثار عليه بدوره . ورتب كوجلوك خان خطته على فتح جبهة فى الشرق ليضعف بذلك من قوة خصمه ، فتحالف مع السلطان محمد على أن يهاجم الأمير الخوارزمى عدوهما المشترك من ناحية الشرق فى حين يهاجمه هو من الغرب . فاذا نجح محمد فى دحر غريبه صارت له من بعد ذلك كاشغر وخن فيضهما الى أملاكه ، فاذا كان كوجلوك هو السابق يكون له عندئذ مطلق الحرية ليمد حدوده حتى شواطئ سيحون . واستقبل السلطان محمد رسول كوجلوك بسمرقند ثم دخل فى حربيه الثانية وكله ثقة بنجاحه . ولقد كان فى مقدور السلطان محمد ، حين تغير الحال بعد معركة بناكت ، أن يواصل زحفه الى تركستان الشرقية على ما اتفق عليه من قبل ، ولكنه اكتفى بحدوده السابقة عند أترار وآب من بعد ذلك الى خوارزم راضيا فخورا . وكان

(١) كوجلوك لفظ أويغورى معناه « الرجل القوي » .

كرخان في شغل شاغل عن ذلك كله ، اذ أرغمته سعة المساحات التي اغتصبها كوجلوك على أن يرتد عجلا ، ليضاعف القدر عند ذلك من ضرباته له ، فقد قامت الفتنة بين جنوده أثناء تراجعهم حتى تحرشوا تحرشا شديدا برعاياه أنفسهم . وما ان بلغ كرخان بلاساغون (١) حتى أقفلت أبوابها في وجهه ، وظل أهلها يدفعونه عنها ستة عشر يوما أملوا خلالها أن يقدم اليهم السلطان محمد ، وكانوا يرون فيه حاميا لهم ، فيطرد كرخان عنهم . وما لبثوا آخر الأمر أن استسلموا له لتنزل بهم عند ذلك مذبحة بشعة سقط فيها خمسة وسبعون ألفا منهم . ولا عجب أن تؤدي هذه الحوادث الى انقضا ض كثير من أصدقاء كرخان عنه ، لينتهز كوجلوك عندئذ هذه الفرصة ويهزمه هزيمة حاسمة انتهت باستسلامه له . وحين صار كرخان في كنف من عاش بكفنه (٢) في السابق ، التمس منه منصبا صغيرا له ولكن كوجلوك أكرم مثواه . ومات كرخان ، آخر أمير تركي قوى في الشرق ، وهو في الثانية والتسعين من عمره بعد أن حكم واحدا وثمانين عاما الشعوب التركية التي كانت تقطن المنطقة المتسدة فيما بين القسطنطينية وجيخون .

وجد السلطان محمد نفسه بعد موت كرخان وليس له من خصم يتهدهه سواء في توران أو في إيران . ولكنه مع ذلك لم يركن الى الهدوء ، اذ راحت أطباعه تدفعه دفعا ليمضي في سبيل الفتح قدما . وفيما كان عائدا الى حاضرتة قاده سوء طالعه وهو مخمور الى أن أمر بقتل مجد الدين البغدادى ونفذ فيه الحكم لساعته . وكان مجد الدين هذا متصوفا يوقره الناس أشد توقير قدس أعداؤه له عند السلطان (٣) وحين أفاق من خماره

(١) ان ما تدل عليه مجريات الحوادث من أن كرخان تمكن في تراجعه من شواطئ سيحون ، أن يتجنب المرور في المناطق الخاضعة لكوجلوك ، حتى وصل الى بلاساغون قبل وصول خصمه الى كاشغر ، يستبين منه جليا أن هذه المدينة لاتقع عند الشمال من كومل على ما يدعيه بول Jule وانما تقع على مبعده في الغرب الى ما وراء المائق .

(٢) يقول الجويني أنه بنى بابنة كرخان الجميلة وكانت تقوم في الحكم مقامه عند غيابه .

(٣) يقول مبرخوند أنه اتهم بعلاقته الوثيقة بأم السلطان .

أنبه ضميره أشد تأنيباً فبعث الى الخاقاه التي كان ينزل بها الشيخ عادة بجفنة مليئة بالذهب والجواهر لتفرق في الاخوان تكفيراً عن ذنبه . لكن نجم الدين (١) شيخ الخاقاه رد الهدية وقال له . « لا الذهب يجدي ولا الجواهر ، فلا كفارة عن دماء ولينا المقتول الا أن تهرق دماء السلطان ودمائى ودماء ألوف كثيرة من المسلمين » ويرى ميرخوند في هذه الكلمات تنبؤاً بالخراب الذى أنزله المغول من بعد . ويؤكد أن هذا الجرم كان السبب الأول فى سقوط سلطان خوارزم ، ويضيف الى ذلك ذنباً آخر لا يغتفر حين خلع الخليفة ناصر الدين ، وهى فعلة لامة عليها المؤرخون المسلمون لوما عنيفاً .

كان المعروف تمام المعرفة أن العلاقات بين خلفاء بغداد والأمراء الخوارزميين كانت على الدوام على غير ما يرام . ذلك أن الحكام الخوارزميين كانوا يتوقون الى الاضطلاع بالدور الذى كان للسلطنة بإزاء خليفة المسلمين من قبل . وحين أعرض الخليفة عما كانوا يعرضونه عليه من الحماية دخلوا معه فى عدااء سافر فى الغالب كما حدث فى عهد نكش ، فى حين تأير القوم من بعد ذلك فى بغداد على التآمر عليهم مستترين تحت ستار الصداقة الكاذبة . فمن ذلك مثلاً أنه حين مات شهاب الدين أمير الغور عام ٦١١/١٢١٤ وعزم السلطان محمد على فتح غزته فشخص اليها وجد فى متاع السلطان هناك رسائل يحرض فيها الخليفة الأمير الراحل على حرب الخوارزميين وقد بع البه فيسا بعد براءة لقبه فيها بالسلطان . هنالك ثارت ثائرة السلطان محمد وأعلن فى اجتماع هام خلع الخليفة وتنصيب العالم علاء الملك الترمذى مكانه ، ثم سار لساعته الى بغداد ليقيم مكان الخليفة العباسى الضعيف . على أنه ما ان تقدم وراء همدان حتى عوقه زمهرير الشتاء وكثافة الثلوج فى وديان الجبال عن المضى . ويبدو أن القدر أبى أن يضطلع مسلم بما جعله من نصيب هولاءكو

(١) قتل نجم الدين كبرى أثناء الفزو المغولى ، ولا يزال اهل حيوه بعظمونه حتى اليوم كما يحج الى مزاره فى اورغنج القديمة الوف من المسلمين فى كل عام .

فقد اضطّر الخوارزمي المتطّرش أن يعود من حيث أتى ضجرا لعدم تمكنه من تحقيق هدفه (١) ، ليقابله من بعد ذلك رسول من لدن خيرخان نائبه على أترار ومعه رسالة يفضى إليه فيها بأنه قد نجح فى القبض على أربعمائة من عيون جنكيزخان كانوا قد قدموا أترار فى لباس تجار من المسلمين (٢) ، وأنه فى انتظار أوامر السلطان بهذا الصدد . وانساق السلطان وراء عواطفه ، وكانت قد وصلتته رسالة من چنكيز (٣) أثارت ثأثرته فأمر بقتل هؤلاء الأسرى . وحين آب الرسول الى أترار نفذ خيرخان أوامر سيده لساعته ، برغم أن هؤلاء الأسرى كانوا حقيقة من المسلمين ، وكانوا موضع رعاية من چنكيز لشواطهم التجارى الواسع فى أراضيه . وانا لئرى الجوينى على حن حن يقول : « ان دمهم أهرق ، ولكن كل قطرة منه قد كفر عنها بسيل جارف من الدماء ، وان رءوسهم

(١) لا يزال الطريق عبر همدان وكرمنشاه يعد من أخطر المسالك شتاء وغالبا ماكنت اسمع ابان اقامى هناك عن أناس اصابهم التلف هناك أو تجمدوا حتى ماتوا .

(٢) ليس من السهل القول بأنهم كانوا تجارا مسلمين فى الواقع . وبلاحظ الجوينى أن الغول لم يكن عندهم مدن كما لم يكونوا يمارسون الزراعة ، لذلك كانوا يعتمدون فى كل شىء على النجارة ، حتى رعو التجار أحسن رعاية . وكان للتجار من قبل مركز فى خجندة سببر منه قوافلهم الى منغوليا تحمل الى الخان الهدايا من نسيج الديباج والكتان وغير ذلك من الأشياء اللطيفة . وحين تقدموا بهداياهم الى جنكيز أمر بحصرها ودفع لهم فيها ائمانا مجزية برغم احتجاجهم . وكان يشجعهم ليرددوا على بلاده حتى وعدهم بكل حماية فى مقدوره .

(٣) يخبرنا مير خوند عن سفارة كان قوامها محمود يلواح (والاسم الأخير يستعمل خطأ كعلم ، وهو أصلا يولاوج وهو فى الأيفورية بمعنى الرسول أى السفير) وعلى خواجه البخارى ويوسف خواجه الارارى ، بعث بها چنكيز الى السلطان محمد مع هدايا نفيسة منها أوان فضية تحوى مسك التبت وبلاد التتار والعقيق والديباج ونسيجا نادرا لحمته من الصوف الأبيض والأخضر ، فأكدوا له فى اخلاص أن چنكيز أمير المشرق يود ان يعيش فى سلام ووثام مؤتلفا مع السلطان محمد أمير المغرب ، وأنه يحبه كولده وبرى سلامته عزيزة عليه . وبرغم ان الخوارزمى المتطّرش اشماز أول الامر عند ذكر هذا المعطف الأبوى ، فقد توتقت الصداقة آخر الامر بين الاثنين وظل چنكيز على اخلاصه على الدوام . وقصة ميرخوند هذه كلها تبدو لى من قبيل الخرافة على كل حال .

قد سقطت ولكن كل شعرة فيها قد كلفت مئات الألوف من الناس حياتهم » .

وأتيح لواحد من هؤلاء الأسرى أن يهرب ليروي عند ذلك قصه ذلك الهول للأمير المغولي الذي لم يطلق العنان أول الأمر لسخطه ، بل أوقف رسولا يطلب باسمه إيضاحا لهذا الأمر . وحين ألقى بهذا الرسول بدوره فى الحبس ثم أعدم ، لم يستطع جنكيز أن يمسك نفسه من بعد ذلك عن أن يشهر سيفه نحو الغرب وهو الذى عقد له لواء الظفر والنصر ذىالك الوقت فى الشرق . وهكذا كان السلطان محمد بسلوكه هذا هو المسئول الأول عن تلك المصائب وذلك الدمار الذى يستحيل إصلاحه . والذى أنزله الغزو المغولى ببلاد ما وراء النهر والعالم الاسلامى الشرقى كله وتعدى ذلك الى جزء من أوروبا . ذلك أنه — كما سنرى وشيكا — منذ اللحظة التى أحرز فيها المغول ما أحرزوا من فوز ونجاح عند شواطئ سيحون انتعشت آمالهم ، فشد ذلك من أزرهم ودفعهم قدما فى مسالك الفتوح المستدة أمامهم .

الفصل الثامن الغزو المغولي

٦١٥ (١٢١٨) - ٦٢٤ (١٢٣١)

تتكون المناطق التي تسكنها الأجناس التركية في العصر الحاضر من صقعين متميزين من الأرض . أحدهما يمتد جنوباً من شواطئ المحيط المتجمد الشمالي الثلجية ، والآخر يتجه شرقاً من الأدرياتى ، وهما يتداخلان معاً في القسم الشرقي من آسيا المعروف بصحراء جوبى (١) .

وفي هذه الصحراء كان المغول ، وهم شعب (٢) يشبه الترك حداً ما في اللغة والسحنة ، يقيمون منذ زمن موغل في القدم ، ويعيشون عيشة بؤس بدوية وسط اقليم جذب موحش لا يلقي أحد من جيرانهم اليهم بالاً . بل لقد ظل اسمهم غير معروف قروناً طويلة في حين كان ذوو قريابهم من الأتراك يتحكمون بنفوذهم القوى في مصائر آسيا الغربية .

(١) جوبى لفظ مغولى معناه « الصحراء الجبلية الخاوية » ولا يستعمل علماً إلا في القليل ، نظير لفظ « الصحراء » التي هي في العربية المكافئ المفتوح وهي ليست علماً كذلك .

(٢) أوجه الشبه في الجنس بين المغول والترك تزداد وضوحاً كلما اتجهنا شرقاً من مناطق الترك الغربيين إلى العثمانيين وقد اختلطت دماء أهلى الروملى والأناضول وأذربيجان اختلاطاً قوياً بدماء عناصر سامية حتى لم نعد نرى في سماتهم أى أثر لسمات الترك القومية البدائية . والتركمان والأوزبك والنوغاي والقرغيز هم أقرب الناس في سحنهم إلى المغول . ولا يختلف البروت والقبجاق عنهم إلا اختلافاً يسيراً في لون الجلد . وبرغم ضعف ما بين التركية والمغولية من الصلة في ناحية النحو ، إلا أن ثلاثة أرباع الألفاظ في اللفتين واحدة عموماً .

وقد أنجب هذا الجنس عام ٥٤٩/١١٥٤ (١) بطلا يدعى تيمورجى (٢) ، برهن على أنه صاحب أطماع و ارادة حديدية وعزم مكتته كلها تمام التمكن من أن يطوع طبيعة بنى جلده البدائية . الخشنة الى أداة صالحة أمدته بتلك القوة التى اجتاحت بها العالم الى ما وراء حدود مراعيه بكثير ، حتى يمكن أن يقال كذلك بأنها أشاعت الانقلابات فى آسيا كلها . وما بين أيدينا عن شباب چنكيز المبكر لا يعدو قصصا قليلا . فهو لم يظهر على مسرح التاريخ الا بعد أن تجاوز الأربعين من عمره ، حيث نجد اسمه يذكر مقرونا باعتدائه على بنى جلده وعلى الأمراء الأتراك القريبين منه على السواء ، فانتصر عليهم جسيما ليتخذ لنفسه من بعد ذلك لقب جنكيز ، أى القوى الجبار (٣) .

كان أونغ (٤) خان أمير قبيلة كريت (٥) هو أول خصم ذو شأن غلبه

(١) هذه هى السنة التى تنبأ فيها المنجمون المسلمون بهبوب عاصفة مدمرة تقدم اليهم من ناحية الشرق . وحين لم يقع ذلك أخذ الناس يسبحون منهم . والمفروض أن هذه النبوة قد تحققت من بعد بمولد جنكيز الذى اقترن بملك العاصفة المدمرة التى كان عليها أن نجتاح الأرض .

(٢) نابع فى ذلك الجوينى ، وهو يذكره باسم تيمورجى لاتيموحين . (٣) برغم أنى تابعت المسسرقين فى رسم لفظ جنكيز ، الا انه لابد من أن أسجل ملاحظة لى ، فأقول ان هذا اللفظ على ما رسمه الترك والفرس بكسر أوله أو امالته مع الجيم المثلثة والجاف الفارسية هو من ناحيه الاشتقاق هو الأصح بلا شبهة .

ذلك أن هذا اللفظ : اويغورى صرف يتكون من مقطعين : جنك بمعنى مستقيم او ثابت أو قوى ، وكيز بمعنى جبار ، فيحمل كله على معنى الشديد القوى أو الجبار .

(٤) أونغ لفظ اويغورى معناه الشخص المستقيم . (٥) كريت معناه العاصفة عند أبى الغازى وان كان اشتقاقه غير معروف ومع هذا فأنا أميل بدورى الى أنه تحريف فارسي لكلمة كيريت بمعنى كلب الصيد ، وأسماء أغلب القبائل التركية وأسره مأخوذة من أسماء الحيوان . فنجد مثلا لفظ منغيت (وهو عند أبى الغازى يعنى الغابة الكثيفة) يتكون من مقطعين : منغ = مريض ، وايت = الكلب . تم اوبرات (ورسومها البعض ايرات) = الحصان الرمادى ، وقنقرات وصحتها قنقرات = الحصان الكسنائى الخ .

جنكيز . فقد هزمه عام ٥٩٩/١٢٠٢ ثم أودف هزيمته له بفلبته الخاطفه على قبائل أوريات وقنقرات والنايسان التركية التي كانت تنتشر عند الغرب من منازل المغول . وفيها كانت تروج البوذية والمسيحية والاسلام مما يسر لها قدرا من الثقافة العامة كان يزيد على ما كان عند المغول في الغالب ، وان كانت قدراتهم الحربية دون قدرات قوات جنكيز بكثير ، تلك القوات التي كانت تدرب بصرامة دراكونية (١) .

ورسم المغولي المظفر سياسته على ألا يشرع في غزو جديد بعد فوزه هذا حتى يتم له ادماج القبائل التي أخضعها في قواته اخضاعا تاما وتنظيمها وفق قواعد الياسا (٢) لتصبح أداة صالحة لتحقيق خطته المستقبلية . وكان تقدمه في ذلك بطيئا ولكنه كان ثابتا مكيئا . فلم يأت عام ٦٠٢/١٢٠٦ حتى كان قد نجح في اخضاع كل بدو صحراء جوبي على وجه التقريب واتخذ من حصن قراقورم مقرا له . واتصل حوالى ذلك الوقت بالأويغور . ومن شيعتهم الشرقية استعار لقومه البدو عقيدة وأبجدية طوعت لغتهم للكتابة .

وكان هؤلاء الأويغور في الغالب يقومون على بيت المال عند جنكيز وخلفائه ، ومنهم حجابهم وعمال دواوينهم كذلك . وخضع أمير هؤلاء الأويغور الشرقيين ، وكان يدعى ايدى قوت « رب الحظ » للمغول من تلقاء نفسه هو وقومه جيسيا ، وكان أغلبهم من المسلمين . هنالك غسره جنكيز بعطفه فوجد فيه بذلك كسبا عظيما له ، كخليف أمين ، في حروبه مع الصين وحروبه مع بلاد ما وراء النهر على السواء . أما الأويغور الغربيون ، ولا سيما مسلمو الترك في كاشغر وختن فقد ذهبوا مذهباً يغاير ما ذهب اليه اخوانهم الشرقيون على كل حال . ولبت جنكيز لا يجرؤ

(١) دراكون مترع اغريقى عرف بصرامة قوانينه حتى ليقال انه كان يدونها بالدم (المترجم) .

(٢) أصلها دزاصاق فذكرها الفرس والعرب « ياساى » ترخيما . وهي دستور جنكيز الذى دونه له الأويغور ، وهي مزيج من القوانين الموضوعية على إرادة الخان المغولى وأنفع العادات القبلية . وقد ذكرها تفصيلا الجوينى في كتابه جهاتكشا ص ١٧ وما بعدها أول - مجموعة جب ١٩١١ لندن (المترجم) .

على مهاجمتهم حين كانوا مؤتلفين تحت تاج كرخان القوى . حتى اذا ما رقى العرش كوجلوك وجر على نفسه عدااء العالم الاسلامي كله بسبب مشاعره المعادية للاسلام (١) ، بدا لجنكيز أن الفرصة قد أصبحت مواتية له ليضرب ضربته في الغرب ، وكان قد عاد لتوه مظفرا من حرب له في الصين . فسير لذلك جيشا مغوليا عليه قائد له يدعى جبه هاجم كوجلوك . وحين رأى هذا أن أحلافه قد تخلوا عنه في ساعة العسرة ارتد أمام خصمه ولاذ بجبال بدخشان حيث وقع في الأسر هناك وسلم الى المغول . ومالبت أرسلان خان أمير المالمق في الشمال أن استسلم بدوره الى المغول طواعية وكان على عدااء قديم مع كوجلوك . وبهذا صار جنكيز وله السلطان المطلق على كافة الأراضي الممتدة من حدود صحراء جوبي الشرقية الى منحدرات جبال تيان شان الغربية والسبد بلا منازع على مدن كثيرة يسكنها سكان مسلمون يشتغلون بالزراعة وعلى قبائل بدائية عديدة أبنائها من رجال الحرب . ومن العسير أن نقول : لعله كان يقنع بما بلغه فلا يستبر في سيره المظفر لو لم يكن هناك مجال لدعواه التي تذرع بها لمهاجمة الأمير الخوارزمي السلطان محمد علي ما أشرنا اليه في الفصل السابق . فالواقع أنه قد وجد نفسه يقف على أبواب دولة سمع العجيب الكثير عن سعة رقعتها وثرائها وحضارتها . وهذا هو أميرها وقد طار صيته ، فهو يرى فيه بذلك خصما جديرا به وعدوا بليق بسيفه من كل وجه .

كان عام ٦١٥/١٢١٨ هو الذي خرج فيه الفاتح المغولي لحرب الأمير الخوارزمي . وصحبه في هذا الغزو أبنائه جغتاي واوركتاي وجوجي ورؤساء القادة وقوة قوامها ستمائة ألف من خيرة جنده ، وقد انضم اليه ايدى قوت الأويغوري وسجينا كنيكين أمير المالمق . وسلكت القوات

(١) كانت روجة كوجلوك مسيحية ، وكانت بجهد في حمل مسلمي كاشغروختن على الدخول في ملتها ، في حين كان زوجها يحاول أن يحملهم قهرا على اعتناق مذهب البوذي وقاومهما المسلمون في ذلك مقاومة شديدة . اسنشهد فيها جلال الدين أمام ختن وعصبة من المؤمنين .

الزاحفة طريقها عبر وادى ايلى وشمال فرغانه صوب اترار . وتجمعت أمام هذا الحصن لتتطرق فرق منها من بعد ذلك فى الاتجاهات الآتية :

بقى قسم منها ، عليه ابنا جنكيز ، جغتاي واوكتاي ، لاختراع اترار ، فى حين انطلق قسم آخر ، يقوده جوجى ، يمينا عبر صحراء قزل قم على طريق جند . وتقدم القسم الثالث وفوامه خمسة آلاف رجل وعلبه الك نويان وستوبغا^(١) ، بحذاء شاطيء سيحون الايمن متجها الى بناك فى حين اصطلح جنكيز نفسه بالعملية الرئيسية فصار بخيرة جنده الى بخارى قلب آسيا . وعلينا أن نتعرض يقدر من العناية لتلك العمليات المنفصلة . اضطلع بها هذه الفرق الأربع من الجيش المغولى فاجتاحوا آسبا الوسطى . فى أربعة تيارات مدمرة متسيرة ، ونبدأ بأول هذه العمليات عند اترار .

كان يحتل هذا الحصن حامية قوامها خمسون ألف رجل عليهم خير خان ، الذى أشرنا اليه من قبل ، يعاونهم عشرة آلاف رجل يقودهم قراجة وزير السلطان محمد . بهذا كانت القوة المدافعة على جانب كبير من الكفاية ، ومع ذلك بقول المؤرخ ان الذعر استولى على المسلمين حين ظهر المغول واكتنفوا المكان . وعلى ضوء هذه البداية يحدد لهذه الحامية أنها ظلت تقاوم الغزاة مقاومه مجيدة طوال أشهر خمسة . ولعله كان بمقدورها أن تستمر فى مقاومتها لمدة أطول لولا وقوع الخلاف بين قائديها . فخير خان ، وهو الذى بفع عليه الوؤر الأكبر فى شأن مقتل رعايا جنكيز ، كان قد اختار أن يسمر فى المقاومة أو يسوت دون ذلك ، أما فراجة فقد باز له عدم جدوى المقاومة حتى أفصح منذ البداية عن رغبته فى الدخول مع عدوه فى مفاوضات . وقد انتهى أمره بأن انفصل عن زميله وذهب ورجاله الى المغول ذات ليلة ظلماء . وحين عرض على أبناء جنكيز صبيحه اليوم التالى ، عنفوه على تركه لمراكزه وأفصحوا له عن شكهم فى أمره وهو الذى لم يتورع عن خيانة سيده وراعيه فى فذالة ، ثم أمروا به وبرجالة فقتلوا جميعا . وواصل خيرخان مقاومته فى شجاعة الأسد . وهلك رجال الحامية جميعا ، وكانوا يبرزون للقتال على دفعات موقفة قوام كل واحدة منها خمسون رجلا ، وناعوا حياتهم بثمان غال . وحين سقط آخر اثنين (١) ويدعى ايضا سوداى او سونتاي أو سوبوتاي .

سهم على وجه التحقيق الى جانب خبر خان ، هبط هذا القائد ، على ما يقال ، من أسوار الحصن الى أسطح الدور ، فأخذ يدافع عن نفسه بسفوفه بالحجارة ، وكانت تناوله اياها جارية له ، فكان يذف بها أعداءه الحائقين عليه والذين صمموا على أسره حيا بأى ثمن . حتى اذا ما فرغت الحجارة من يده وأحيط به ووقع فى الأسر حمله أوكتائى ، كرمز لانتصاره عليه ، الى القصر الأخضر (كوكسراى) فى سرقند حيث قتل على أثر ذلك بأن صبب الفضة المذابة فى أذنيه تذكيرا له بجشعه الذى أودى بحياة التجار المنكوبين . وهكذا سقطت أترار ، مفتاح التركستان النسالى الغربى ، بأيدي المغول فأزالوا الحصن كله وقتلوا السكان جميعا هناك . ثم تابعوا سيرهم بعد ذلك جنوبا الى سرقند .

كذلك كتب لجوجى بدوره الفوز فى حربه عند جند . فقد هاجم أول الأمر سغناق ، وتقع عند مشارف الصحراء وتربطها بجند قناة . وكان المغول قد بعثوا برسول يدعى حسن حاجى يطلب تسليم المدينة ولكن أهلها سقطوا عليه وقتلوه . وأثار هذا العمل نائرة جوجى فاجتاح المكان ولم يعف أحدا من أهله من القتل أخذوا بالتأثر . ثم عهد بخرائب المدينة الى ابن حسن حاجى الرسول المقول وعاود سيره الى جند بطريق أوزكند واشاس . وخضع أول المكائين سلما فى حين أخذ الثانى فسرا . ونزل جوجى بعسكره عند جند فى الرابع من صفر عام ٦١٦/١٢١٩ فأثار نزوله هناك الاضطراب والفرع بين الناس على أشده ، حتى انسحب قتلخ خان حاكم المكاف فى هلع الى خوارزم تاركا المدينة فى فوضى شاملة . وحين ظهر جنتييور ، رسول جوجى ، أمام بوابة المدينة لينذر أهلها بما سوف يفل عليهم من الخطر ، ويدعوهم الى أن يوفروا على أنفسهم مقاومة لن تنفعهم شيئا ، لم يكتب له أن يتجنب المصير الذى لقيه حسن حاجى عند سغناق الا بمشقة ، فتجحجج ، بفرط حذره ، فى النجاة بحياته . ولم يكك هذا الرسول يتسحب من هناك حتى ظهر الجيش المغولى عند الأسوار بمجانيقه وسلاله فاستعد لاقتحام المكان . ويقال ان حامية المدينة كانت على جهل تام بفنون القتال حتى نند أفرادها ينطلقون ، فى دهشة ، الى المغول وهم يحتالون على تسلق أسوارها الملساء ، وكان الأمر لا يعينهم فى شئ . وقضت القوات

الغازية على ما توهموه من توفر الأمن عندهم اذا أعلوا السلب والنهب بالمدينة ثم خربوها . وقتلوا كذلك كل من كان يحمل السلاح من الأهليين ؛ ثم ساقوا الفلاحين المسلمين الى ظاهر المدينة فبقوا فى الأسر أياما نسة ردوا من بعدها الى بيوتهم بعد أن جردوا من كل شئ فلم تبق لهم الا حياتهم .

باحتلال جوجى للقسم الغربى من بلاد ما وراء النهر قطع كل اتصال بين المحاربين الخوارزميين وتلك المناطق الغنية على شواطئ الأنهار والتي يسكنها فى الغالب أقوام مسلمون . وعمد القائدان الك نويان وستوبغا فى الوقت نفسه الى الهجوم على بناكت وخجندة فى قوة صغيرة فوامها خمسة آلاف رجل . وسارع ايلركو (من قبيلة قنغلى) فائد المكان الأول الى الاسلام مع حاميته كلها دون قيد أو شرط .

ولقيت بناكت نفس المصير الذى لقيته جند من قبل ، فقتل كل من كان يحمل السلاح من أهلها ضربا بالسيف أو رميا بالسهم ، واسرق من بقى منهم من بعد ذلك أو ضم قسرا الى الجيش المغولى ، لتتلفى من بعد ذلك خجندة الضربة النالية . وكان حصن هذه المدينة قد أقيم فى مكان يتفرع عنده سيحون الى فرعين . وأندى هذا الحصن مقاومة عر موفعة . لموقعه الطبيعى من جهة ، ومن جهة أخرى لشجاعة قائده تيبور ملك الذى يقول عنه المؤرخون الشرقيون بأن ربتم لو كان حيا لاتخذ منه أستاذ له (١) .

ووجد الآنكو نفسه ، وهو يدير عمليات الحصار ، أنه قد أسنط فى يده برغم أن خمسين ألفا من الرقيق وعشرين ألفا من المغول كانوا يهاجبون المكان تحت امرته . وكان الرقيق يسرون فى عشرات ، وعلى كل فرقة منهم رقيب من المغول ، فيجلبون الحجارة من جبال تقع على مسرة ثلاثة فراسخ .

ولم يف فى عضد تيمور قلة الحامية التى بين يديه فاحال على بناء اثنتى عشرة سفينة غطاها باللباد المبلل بنوع من الغراء (١) مصنوع من

(١) (يحمل له سيفه) على ما ورد عند الجوينى فى جهانكشا .

الخل والجير فاتخذها وقاء من نيران العدو ، حتى استطاعت قواته بذلك أن تقترب من الشاطئ لدرجة مكنتهم من اطلاق المزيد من سهامهم على خصومهم من خلال الثغرات بين هذه السفن . وبذلك استطاع تيمور أن يضطلع بالدفاع مدة طويلة ، حتى اذا ما تبين له عدم جدوى الاستمرار في المقاومة أمر بسبعين سفينة شحنها بكل ما أمكنه حملة من متاعه وانحدر بها مع النهر هاربا بطريق جند الى الصحراء ومنها الى خوارزم . وطارده المغول على طول الشاطئ طول رحلته الجريئة هذه . وحين صادف سلسلة من الحديد تعترض طريقه في النهر عند بناكت حطها الى شظايا بضربة واحدة منه على ما يقال . حتى اذا ما نزل عند بركليك كت كان عليه أن يشتبك في قتال جديد يفوق وصف شجاعته فيه كل حد . ونجح آخر الأمر في أن يبلغ خوارزم آمنا (١) . واستولى قادة المغول على خجندة ثم ساروا بجيشهم الى سمرقند حيث كان عليهم أن يذهبوا للاجتماع بقائدهم وتلقى أوامره .

وكان جنكيز خان نفسه ، ومعه ابنه تولى ، قد أحزما اقتصارات أخرى باهرة لا تقل عن هذه . ولا يتضح لنا خط سيره في الطريق الذي زحف فيه من أترار جنوبا الى بخارى . وكل ما نعلمه أن أول مكان ظهر فيه كان سرتاق (٢) عند الشمال من بخارى . وبوغت سكان هذه البلدة الصغيرة اللطيفة بظهور المغول عندها قادمين من الصحراء وكأنهم قد

(١) حين بان لتيمور ملك استحالة الإقامة في خوارزم اسرع في اللحاق بالسلطان محمد وكان يهيم على وجهه فأسدى له خدمات جليلة ، ثم مالبت أن تتركه الى دمشق متنكرا في زي الدراويش . واشتاق الى موطنه وهو هناك فاستطاع العودة الى فرغانة برغم مصادفه من عراقيل في الطريق . وهناك عرف بأن ابنه ، وكان قد تركه طفلا ، قد شب ، وأن باتو حباه بعطفه ورد اليه أملاك أبيه . هنالك سارتيمور ملك الى خجندة فلنى ابنه وحين سألته ان كان يستطيع أن يتعرف على أبيه اذا مالقيه ، أجاب الابن بالسلب معتذرا بأن أباه قد تركه وهو طفل لا يدرك . وحين استدعى الابن عبده تعرف على سيده . فورده . وما غدا خبر رجوعه أن شاع غبطة ضمنية لانتقام المغول .

(٢) وهى ليست زرنوق كما وردت عند ميرخوند . ويذكرها الجوينى ايضا باسم زرنوق وهى قريبة من سرتاق المذكورة في معجم البلخي الجغرافى .

سقطوا عليها من السماء ، فلم يدركوا مدى الخطر الذي أقبل عليهم وأخذوا يستعدون للمقاومة فعلا . حتى اذا ما أقبل عليهم رسول المغول ، على الرسم المعتاد ، وبين لهم ما سوف يتعرضون له من سيوف العدو ونيرانه رأوا آخر الأمر أن السلامة في الاستسلام . أما من كان يحمل السلاح منهم فقد ضم الى الجيش الفاتح قسرا ، كما سوى حصن المدينة بدوره بالأرض ، وأما السكان المسلمون الذين كانوا قد خرجوا الى ظاهر المدينة بخيولهم ونبالهم فقد أذن لهم بالعودة الى ديارهم سالمين . وما غدا المغول من بعد ذلك أن أطلقوا على المدينة اسم قتلئ بالئ « المدينة السعيدة » بدلا من سرتاق .

وكان نور هو ثاني موضع استولى عليه جنكيز في منطقة بخارى . وكان الطريق الذي سلكه اليها غير معروف من قبل ، وكان أدلاؤه فيه هم التركمان . وظل هذا الطريق يشتهر بعد ذلك لمدة طويلة باسم طريق الخان . وقضى حرس الطليعة الليل في غابة جيلة بظاهر نور حيث أخذ رجاله يصنعون سلالم الحصار . وكان يقوده طاهر بهادر ، وهو مسلم وتركى فى الغالب . وحين فرغوا منها حلوها ، مسترضين ، فوق سروجهم الى أسوار نور .

وكان الأهليون قد أغلقوا أبواب مدينتهم عليهم ، وقد أبى فريق منهم أن يصدق قدوم جنكيز اليهم ، في حين ظلّ فريق آخر يعتقد أن السلطان محمدا لا بد قادم لنجدتهم ، ومهما يكن ، فحين بعث جنكيز بقائده طاهر يخبرهم بأن المغولى الجبار فى طريقه اليهم وأنه سوف لا يتعرض لهم بسوء ، الا أن ينزل ببلدهم ، ما لم يمدوا الى مقاومته بالقوة ، فتحوا له أبواب المدينة من فورهم . هنالك أمر الأهلين أن يحملوا الى ظاهر المدينة كل ما عندهم من المؤن الزراعية وأدوات الزراعة وكل ما عندهم من الحبوب والماشية ودواب الحمل . حتى اذا ما فعلوا ذلك كله انطلق الجند فدخلوا المدينة وأخذوا ينتهبون الدور دون أن يتعرضوا بالسوء لأحد من النورين على الاطلاق . وحين سار وفد منهم الى معسكر جنكيز قابلهم بترحاب بالغ وسألهم عن مقدار ما كان يفرض عليهم من مال الخراج . فلما أخبروه بأنه خمسمائة وألف من الدنانير طلب اليهم أن يؤدوا ذلك المال الى رجاله

المقدمة من جيشه وصرفهم وهم راضون . وأسرع جنكيز من بعد ذلك من نور الى بخارى فنزل بظاهرها أوائل المحرم من عام ٦١٧/١٢٢٠ وبدأ من فوره يعالج مناريس حصنها الخارجية . ولم تكن بخارى ، وقد بلغها في الغالب أخبار المجازر التي جرت من قبل تسهيدا لمعركتها الكبرى ، غير مستعدة بالكاد لهذا الهجوم العنيف الذي كان عليها أن تواجهه . وكان بداخل أسوارها عشرون ألف رجل عليهم كوكخان (وكان من مهاجري المغول أو من الاويعور في الغالب) وسوينج خان وكشلي . ومن الصعب أن تتصور مدى ما كان هؤلاء يظنون أنهم قادرون عليه بازاء المغول الذين كانوا يتفوقون عليهم بسئات ومئات . على أية حال فقد بادروا بالهجوم على أعدائهم ولكنهم سحقوا عن آخرهم الا قليلا منهم استطاعوا أن ينفروا الى المدينة ، لبسارع الأهليون عند ذلك ، وقد أخذ منهم الرعب مأخذه ، بارسال وفد من أعيانهم يسألونه الصفرح . وصحب هذا الوفد الفاتح المغولي في دخوله المدينة .

ولف نظر جنكيز إلى زارجه فيها المسجد الجامع الفخم ، وكان السامانيون قد بذلوا فيه كثيرا من الأموال ليدو في أروع صورة ، فدخله بفرسه ووقف بازاء المنبر . وظنه أول الأمر قصر السلطان . حتى اذا ما قيل له بأنه دار عبادة نزل عن دابته ورقى بضغ درجات بالمنبر ثم دعا المغول الذين كانوا يقفون من خلفه الى أن يطعموا خيولهم وكان العلف قد أعد . ولنا أن تتصور كيف تلقفوا الاذن لهم باعمال النهب في المدينة بسرة بالغة ، وكيف سقط من بعد ذلك هؤلاء الهمج علي مدينة بخارى البائسة . وسحر بابهم ما كان عليه عاصمة آسيا الوسطى هذه من الترف ، فلم يكتفوا بنهب كل دار وكل قنطرة بل حملوا معهم كل ما صادفهم من أنواع المتاع فلم تفلت من أيديهم الآثار المقدسة مع قلة قيمتها المادية . كما مزقوا المصاحف واتخذوا من أوراقها فرسا لدوابهم ، وجعلوا من فطراتها وصناديقها مذاود لخيولهم . وسبق كبار الشيوخ والعلماء البارزون ليقوموا بخدمة الجند في مجالس الشراب أو ليؤدوا لهم الرقصات ، وفق رسم المغول ، على توقيع الآلات الموسيقية ، وكان من هؤلاء الفقهاء الأجلاء من دفع به كذلك ليسوس البغال .

هذا هو ما وصل اليئا من تدوين المؤرخين المسلمين فى هذا الشأن .
وقد يكون هناك بعض المبالغة فى وصف ما عمدا اليه المغول من امتهان
شعور القوم الدينى ، الا أنه ما من شك فى أن بخارى قد تعرضت لمعاملة
بالغة القسوة ومرت فى تجارب مريرة حتى خلال هذا الغزو الأول .

لم يسكت جنكيز خان بالمدينة الا ساعات قليلة ثم خرج الى المصلى
بظاهر السور حيث كان الناس جميعا قد جتمعوا له ، فسأل عن أعيانهم .
فبرز له من بينهم ثمانون ومائتان فيهم تسعون ومائة من أهل المدينة
وتسعون من الغرباء هم تجار فى الغالب . هنالك التفت اليهم وأخذ يدد
فى شدة بما يرتكبه السلطان محمد من مظالم ليقول لهم من بعد ذلك :
« اعلّموا أنكم قد اقترفتُم كثيرا من الآثام وأن وزرها انسا يقع على
أفرائكم ، واذا سألتنوني عن آكون أنا الذى أخاطبكم فاعلموا أنى أنا
سوط الله الذى بعثنى اليكم لأنزل بكم عقابه ، وأريد منكم النقرة التى
باعكم خوارزمشاه اياها فانها لى ومن أصحابى أخذت وهى عندكم . (١) »

ولم يمته من بعد ذلك أن يعهد الى حرس نصفه من الأتراك والنصف
الآخر من المغول ليقوم على حراسة أعيان المدينة حتى لا يلحق بهم ضرر
أو أدى . وظلت الأمور تجرى على هذا الحال حتى ظهر بالمدينة فقر من
جند السلطان محمد كانوا محتبئين بها ، فأزعج ظهورهم جنكيز وأمر
بالقبض عليهم وتسليمهم له . على أن أهل بخارى كانوا أبعد ما يكون عن
أن يلبوا رغبة ذلك الفاتح ، فلم يستروا عليهم فحسب بل وساندوهم كذلك
فى غاراتهم الليلية هى وما كانوا يدبرون من التآمر بالعدو فى السر ، حتى
نفد صبر جنكيز آخر الأمر فأمر باشعال النار فى المدينة . ولما كانت أبنية
بخارى أغلبها من الخشب ، لم تمض أيام قليلة حتى تحولت كلها الى رماد .
اللهم الا بعض مساجد وقصور مبنية بالحجارة ظلت قائمة بين خرائبها .
واققلب هذه المدينة العامرة الى كومة من الأطلال على زرفشان ، ومع هذا
فقد ظلت الحامية بالقلعة يقودها كوكخان تدافع عنها فى بسالة جديرة

(١) ابن الأثير ٢٣٠/١٢ (الترجم)

بالاعجاب . وعمد المغول الى استخدام كافة الوسائل الممكنة لاختضاع ملاذ أعدائهم الأخير هذا ، حتى دفعوا بالبخاريين أنفسهم الى تسليق سلالهم الأسوار ، ولكن لم يجدهم ذلك كله قتيلا . ولم تسقط القلعة الا بعد أن امتلأ الخندق المحيط بها بجيف الرجال والدواب . هالك سيق المدافعون الأبطال الى الموت . وتعرض السكان المسلمون بدورهم الى البلاء بسبب هذه المقاومة الفذة ، فقتل منهم ثلاثون ألفا واسترق من بئى منهم ، خاصتهم وعامتهم على السواء ، الا الطاعنين فى السن منهم . وهكذا انتهى حال أهل بخارى الى أحط درجات البؤس والسقاء وفرقوا فى الأرض وهم الذين داع صينهم زمنا طويلا بما كانوا عليه من كلف بالثقافة وشغف بالقنون ، وما شاع عنهم من مكارم الأخلاق . وأفلتت فلة قليلة من السكان من هذا الخراب الشامل . وبلغ واحد من هؤلاء فى قراره خراسان ، وحين سأله الناس هناك عما صار اليه أمر مدينته أجابهم عن ذلك بأن أنشد ذلك البيت البليغ من الشعر الفارسى الذى اشتهر من ذلك الوقت .

آمدند وكدند (١) وسوختند
وكشتند وبردند ورفتند

قدموا فدمروا وأحرقوا
وقتلوا ونهبوا ثم رحلوا

ويصف ابن الأثير هذا الحال فيقول :
« كان يوما عظيما من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان »
وتفرقوا كل أيدي سبا وتمزقوا كل ممزق ، واقتسموا النساء أيضا ،
وأصبحت بخارى خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس ، وارتكبوا

(١) ذكر هامر بورجنال فى كتابه عن تاريخ القبيلة الذهبية ص ٨٠
« كندن » بمعنى أن يحفر أو يقطع وبمعنى خندق كذلك .
وهذا صحيح . ولكنه يأنى كذلك بمعنى أن يخرب وأن يهدم وهو
المعنى المقصود هنا

من النساء العظيم والناس ينظرون وييكون ولا يستطيعون أن يدفعوا
شيئا مما نزل بهم . فمنهم من لم يرض بذلك فقاتل حتى قتل ، ومن
فعل ذلك واختار أن يقتل ولا يرى ما نزل بالمسلمين الإمام ركن الدين
امام زاده وولده والقاضى صدر الدين خان ، ومن استسلم أخذ
أسيرا » (١)

وجاء الدور بعد بحارى على سمرقند أكبر مدن بلاد ما وراء النهر
وأعظمها فى عهد الخوارزميين . وكان أمير خوارزم قد ترك عليها ، قبل
أن يفر منها حامية قوية عشرة ومائة ألف مقاتل منهم ستون ألفا من الترك
 وخمسون ألفا من التاجيك مع عشرين من القيلة . وكان جنكيز يعلم هذه
التفصيلات بالدقة . بل لقد كان فى حسابه حتى قبل أن يغادر أترار أنه
قد يخوض حربا شديدة فى سبيل الاستيلاء على حاضرة عدوه السافقة .
وعلى هذا فقد رتب خطته على أن تلتقى كل قواته المتفرقة فتجتمع عند
سمرقند ، فبدأ على ذلك باخضاع كل المناطق المحيطة بها اعضاءا تاما
ليعزل بذلك خصومه الأقوياء فيها ويضعفهم . ولما قت خطته هذه كل
فجاح . فقد جد فى السيرة ومعه أسرى البخاريين ، وكان قد اعتزم أن
يستخدمهم فى اجتياح سمرقند . ومن لم يستطع من هؤلاء الأسرى أن
يذاوم على سبره السريع فسقط على قارعة الطريق من فرط الانهاك كان
يقتل لساعته دون رحمة أو شفقة . وحين بلغ ظاهر حاضرة الخوارزميين
الفخمة ، وجد جنده من حوله فى كثرة بالغة حتى سير معهم ثلاثين ألفا
بقيادة تهييه وسوتناى ليطاردوا السلطان محمدا .

ولم يستطع حصن المدينة أن يصبر على المقاومة أكثر من أيام ثلاثة
سقط من بعدها . وكان فى حساب جنكيز أنه لن يخضع له قبل بضع
سنين . فقد برزت الحامية المجيدة أول الأمر يقودها القائد الشجاعان
الب خان وشيخ خان برلاس خان فأنزلت بالمغول خسائر كبيرة ، حتى
اضطلع جنكيز بنفسه بالقيادة فى اليوم الثالث وهاجم المدينة على رأس
جنوده . وسرعان ما نجح المغول فى الاستيلاء على أبوابها . ولقد اندفع

(١) ابن الأثير ٢٣٩/١٢ ، ٢٤٠ (المترجم)

الخورازميون يحاربون في اليوم الثاني في بطولة وتحس زائدين حتى شاعت الفرقة بين قادتهم قرب المساء ، اذ قال فريق منهم بالتسليم وأوفدوا في ذلك فعلا الى جنكيز شيخ الاسلام وبصحبه عدد كبير من الشيوخ يسألونه أن يغفو عنهم ، في حين ارتد الفريق الآخر الى القلعة وواصلوا القتال في اليوم التالي .

وعلى أى فقد استطاع المغول أن ينفذوا الى المدينة بطريق بوابة نازكياه فأخرجوا منها أهلها حتى ينصرفوا الى نهبا دون أن يتعرض لهم أحد . ولم ينف من هذه الغارة الأولى الا شيخ الاسلام وخمسون ألفا من المدنيين من شملتهم حماية الغازي المغولي . واستمرت القلعة على دفاعها تستنفذ جهود المحاصرين ، حتى اذا ما لاح لألب خان اقتراب المعركة من نهايتها برز في جراحة مع ما يقرب من ألف من أبطاله فشقوا طريقهم وسط صفوف المغول . ولم يستسلم من الحامية الا القنظليون وفريق من الترك كان المغول قد وعدوهم بالغفو عنهم ان هم فعلوا ذلك بوصفهم من بنى جلدتهم .

وأراد المغول أن يؤكدوا لهم ما وعدوهم به فحلقوا لهم رؤوسهم على رؤسهم . حتى اذا ما أقبل المساء قتلوا منهم ثلاثين ألفا وفيهم أمراؤهم أولوق باريشسن وبغان وسرك خان مع عشرين قائدا آخرين . ووقع ذلك كله في ليلة واحدة . وسويت مدينة سمرقند العامرة وحصنها كذلك بالأرض ، كما جرد الأهليون بدورهم من كل ما يملكون ليلاقوا من بعد ذلك نفس المصير الذي لاقاه اخوانهم البخاريون من قبل . ومن استطاع منهم أن يهرب أعيد الى المدينة من جديد على وعود كاذبة . وأرغم القادرون منهم على حمل السلاح على الانضمام الى الجيش المغولي قسرا . وسير مهرة البستانيين من أهلها الى الشرق الأقصى ليزينوا عاصمة المغول الصينيين المستقبلية بتزوهات على نمط مغاني سمرقند .

أما مهرة الصناع ، لا سيما نساجو الحرير والقطن منهم ، فقد ألحقوا بخدمة زوجات جنكيز وأقربائه ، بوصفهم أرقاء ناعمين ، أو سيروا مع الخان المغولي نفسه الى خراسان . ومنهم من أرسل كذلك الى جفتاي

وأوكتاي ، ولدى جنكيز ، وكانا اذ ذاك في طريقهما الى خوارزم . هذا هو ما صار اليه أمر سمرقند عام ١٢٢١/٦١٨ وهى التى وصفها الجغرافيون العرب بأنها كانت أعظم بقاع الأرض تألقا وازدهارا .

هكذا خضعت بلاد ما وراء النهر كلها لجنكيز الا مواضع قليلة عند الجنوب من سمرقند خرج بنفسه لاحتلالها بعد أن أراح جنده بعض الوقت وأطلق خيله لزعى فى مراعى وادى زرفشان الغنية بعد سيرها الطويل المضنى . فقصده أولا نخشب (قارشى) ففتحت له أبوابها فأتخذها مركزا لقيادته فى الصيف ، ثم تقدم منها الى ترمذ حيث أقيم على جيحون المعبر للمسافرين صوب الجنوب الى بلخ والى الهند . وفى هذا المكان كانت تقوم تحصينات قوية تركز على نهر جيحون اعتمد عليها أهله فى مقاومة عدوهم وان لم يستطيعوا بطبيعة الحال أن يصمدوا أمام أولئك المغول الذين أخذ منهم الزهو والحماس مأخذه بما أحرزوه من نصر وما أخضعوه من أكثر من حصص واحد حصين (١) .

وحين اجتاحت المدينة وأحصى أهلها جميعا ، فرفوا من بعد ذلك بين الجند ليتولوا قتلهم جميعا . وبروى الجوينى أن سيدة توسلت الى الجندى الموكل بقتلها أن يطلق سراحها نظير جوهرة كبيرة كانت قد ابتعتها . هنالك عند المغولى الى شق جوفها بدلا من اطلاق سراحها . وحين بان له صدق قولها صدرت الأوامر على الفور بشق أجواف الموتى بحثا عما عساه يكون بها من الجواهر .

ولم يبق بعد سقوط ترمذ الا مناطق فنغراب وسامان (٢) فاجتاحها المغول بالحديد والنار ، لينطلقوا من بعد ذلك الى البلاد التى تقع عند مشارف جيحون وسيحون ، وكانت تعتبر اذ ذاك الثغور الأممية التى

(١) حفظ التاريخ لنا هذه الاسماء فى بيان الضحايا الذى حواه تقرير جنكيز عن انتصاراته . وهو الذى يمت به الى ركن الدين ابن السلطان محمد ونائبه على العراق ليخبره بنفصيل ما أحرزه الجيش المغولى من الانتصارات

(٢) تضم هذه منطقته شهربز او كوش وكان بها حصن سام أحد مراكز

ثورة المقتن

كانت تدفع عن حضارة الاسلام فى آسيا غارات البرابرة . وقد تعرضت هذه بدورها للدمار الكامل على أيدي هؤلاء الغزاة . وبهذا أصبح هذا العدو البربرى المتعصب المتعطش للدماء قادرا على أن يمضى فى طريق التخریب الذى كان يضطلع به وما من أحد يجسر على اعتراض طريقه . وليس من موضوعنا أن نتحدث عما ارتكبه المغول من الجرائم البشعة فى بلخ ، كعبة الزرداشتيين القديمة، (وكان بها مائتان وألف مسجد ، وكانت تدعى قبة الاسلام) وما ركنوا اليه من العنف فى اخضاع طالقان وهرات ، مدينة مرور الرود التجارية الكبرى ، ومرو وما كان بها من مدارس جميلة البناء ، وما فعلوه بنيسابور ، وما ارتكبوه من جرائم عديدة بمدينة الرى الضخمة وفى شيراز وأصفهان ، فهذا كله لا يتصل بتاريخ بخارى الخاص . ولهذا فنحن لا نتعرض له ونصرف عنه لنرى كيف انتهى أمر الأمراء الخوارزميين ، ونستعرض من بعد ذلك ما نجم عن ظهور جنكيز وأهم أسباب نجاحه .

كان السلطان قطب الدين محمد قد انطلق عائدا الى خراسان ، وذلك عقب أن أصدر أوامره بقتل التجار الذين كانوا يستمتعون بحماية المغول لهم . وأسكره ما حققه فى حكمه الطويل من النجاح فانصرف الى الملاذ نشطا فى غير تبصر بالعواقب ، وأخذ يمضى أوقاته فى اللهو واقامة المآذب ، الى أن بلغ بخارى فى الثامن من شعبان عام ٦١٢/١٢١٨ فأقام مضاربه بين المروج الخضراء ليستمتع الاستمتاع كله بهذا الفصل من السنة .

لا تدع للآلام الى قلبك سيلا .
فأنت لابد مغادر الدنيا كرها عن قريب .
فاستمتع بالربيع وبهائه حتى ينقضى
فمن ترابك سوف تنمو الحشائش آخر المطاف (١) .
ورحل من بخارى الى سمرقند حيث بلغته أولى الأنباء عن تحركات.

(١) انظر هامر - بورجشتال : صور لعظماء حكام المسلمين
Portraits of Great Moslem Rulers vol VI P, 180.

عدوه ، أى بتقدم الفرق المغولية التى كاتى يقودها جوجى فى رحنها من أترار الى جند .

وفىما كان فى طريقه الى جند ليقف على جلية الأمر بتقسه علم أن هذا الجيش يسير فى أثره جنكيز نفسه فى قوة كبيرة . ولم ينته ذلك عن عزمه على مهاجمة الجيش الأول من فوره . وسرعان ما تكشف له ما كان يشاع عن شجاعة عدوه التى لا تقاوم . وبرغم تفوقه على أعدائه فى العدد فانه لم يفلت من الهزيمة الساحقة الا بفضل بطولته ابنه جلال الدين (١) ، فانسحب من بعد ذلك الى سمرقند (٢) هناك انقلبت ثقته الجارفة السابقة بنفسه الى خور وهلع لما أشاعه هذا الخطر الداهم فى نفسه من الرعب والاضطراب ، فانطلق هاربا عبر جيحون الى خراسان . وأراد أن يستجم أياما قليلة فى مضاربه بواضى نيسابور الحبيب الى قلبه ويستمتع مودعا بالمسرات والمتع التى ظل يكلف بها لسوء حظه حتى وقت المحنة . ولكنه ما كاد يسمع باقتراب القائدين المغوليين جبه وسوتاي من مكانه حتى غادره من فوره . وبرغم مطاردتهما له فى عنف ففد اسنطاع أن يهر الى آبسكون التى تقع قريبا من استراباد الحالية وذلك بطريق الرى وجبال مازندران الوعرة . ومن هناك سار الى جزيرة فى بحر الخزر (٣) (يحتمل أن تكون هى جزيرة أوغرثسالى) . ولئن كان قد أفلت من انتقام عدوه

(١) ويقب بمكوبردى أى مبعوث السماء . وقد أخطأ المستشرقون فى سمته منكبرى ، وعلى هذا قال هامر برجستال بأن معناه « أفطس الأنف » وذلك نقلا عن معجم جفتائى لفضل الله خان طبع بالهند والمقطع الأول منه يفسره الكتاب نفسه على أنه مرض يصيب الأنف ومنحار الخيل بعبارة أدق . وعلى هذا ينتهى لقب هذا الأمير الخوارزمى المشهور الى معنى غير شاعرى هو «من يسبل المخاط من أنفه» وذلك على ماذهب اليه أسلافى . (٢) يقال انه ركب ذات يوم الى خندق سمرقند فانتقد طريقة العمل فيه وقال للعمال «لو أن التتار قذفوا فيه بسياطهم فحسب لردموه بها» هامر : عظماء حكام المسلمين ص ١٨٠

(٣) يذكر الكثيرون أن الجزيرة التى لجأ السلطان محمد إليها تقع قرب الشاطئ الايسر لبحر الخزر ولكنى أرجح فى هذا مخطوط مسالك الممالك الجغرافى القديم . ووفق الخريطة الملحقة به فان آبسكون تقع على مقربه من استراباد الحالية وبهذا تكون الجزيرة المعنية هى أغوردجالى أوجيركن الحالية

البربرى الا أن الحزن كان قد ركه لما أصاب أسرته اذ كان أفرادها جميعا قد وقعوا فى أيدي المغول .

ومات فى الثانى والعشرين من ذى القعدة عام ١٢٢٧/٦١٧ فقيرا شريدا حتى لم يجدوا ما يكفونته به الا ثوبه الذى كان يرتديه . وكان قد اخنار افلاق شاه وريثا له وكانت يقوم اذ داك على حكومة خوارزم ، ثم ما لبث أن عدل عن ذلك وجعل ولاية العهد من بعده لابنه جلال الدين . ووجد جلال الدين أنه ليس له ما يرثه ، فيما عدا الصولجان ، الا السيف . فحمله يدافع به عن نفسه فى مقاومة بأسلة . فارتد عن خوارزم وهراة وغزنة ، وجبى له قوات جديدة من بعد ذلك استطاع بها أن يوقع بالمغول خسائر جسمية فى موقعتين موقعتين ، فأثار بذلك من فلق جنكيز وسخطه وكان اذ داك مستغلا بحصار طالقان . هالك اندفع الزعيم المغولى الى غزنة بطريق باميان وكابل فى عجلة زائدة حتى لم يتح لجنوده فسحة من الوقت ليطبخوا طعامهم .

وبرغم جده فى السير على هذه الصورة فقد بلغ المكان لينياً عند ذلك بأن جلال الدين قد غادره الى ضفاف السد لأربعة عشر يوما خلت . ومن ثم تابع المغول سيرهم عجلين حتى أدركوا الأمير الشريد فحملوا عليه فى عنف بالغ . هنالك دافع جلال الدين عن نفسه بشجاعته المعهودة فأنطلق فى ضراوة الأسد ينقض تارة على جناح عدوه الأيمن وطورا على جناحه الأيسر أو على قلب جيشه حتى تمكنوا منه آخر الأمر فحاصروه فى ركن من أركان الميدان . وقتل من تحته فرسان فوثب على ثالث قفز به فى ماء السند من علو يزيد على ثلاثين قدما وبلغ الشاطئ الآخر من النهر فى سلام . وأراد المغول أن نطلقوا وراءه بعد ما رأوا فعلته الجريئة هذه ، ولكن جنكيز منعهم من ذلك . وبلغ به العجب والاعجاب بنجاعة عدوه مبلغه حتى التفت الى أولاده وقال لهم « ان أبا مثل أبيه (أى السلطان محمد ، وكان جنكيز يكن له قدرا كبيرا من الاعجاب) لجدير بمثل هذا الابن » . وغلب أتباع جلال الدين على أمرهم . وجيء بالغطاسين فاستخرجوا متاع السلطان من الماء وكان قد قذف به فى السند ، كما

جئىء بكل أفراد أسرته أمام الغازى القاسى الذى أمر بكل الذكور من بينهم فقتلوا حتى الأطفال الذكور قتلوا فى حجور أمهاتهم . وهكذا انتهى فى عام ١٢٢١/٦١٨ حكم آخر الخوارزميين (١) . وبه ختم عهد أسرة حكمت ما يقرب من مائة وأربعين عاما فى عظمة وقوة تضارع ما كان عليه السلاجقة . وعاد جنكيز من بعد ذلك الى بلاد ما وراء النهر ، ثم انجه من هناك الى موطنه بعد اقامة قصيرة بسمرقند ، فعقد الفورلتاى (٢) عام ١٢٢٤/٦٢١ وفيه قسم مملكته الجبارة بين أبنائه على الوجه الآتى :

صارت الصين ومنغوليا من نصيب أوكتاى ، وهو الذى رسمه أبوه خليفة له . فى حين كان من نصيب جغتاي قسم من منازل الأويغور حتى خوارزم ، بما فى ذلك تركستان وبلاد ما وراء النهر . أما جوجى فكان قد مات فى ذلك الوقت ، وبذلك صار باتو سيدا على خوارزم وصحراء القبجاق عند سر دربند ، فى حين نصب تولى على خراسان وبلاد فارس والهند . وبرغم بلوغ جنكيز السبعين من عمره فقد خرج مرة أخرى لحرب قبيلة تنغوت ، وكانت قد ثارت عليه ، ولكنه مات أثناء هذه الحملة عام ١٢٢٦/٦٢٤ بعد أن ترك من ورائه بكل آسيا آثار النار والحديد التى أشاع بها ، بشغفه بالحرب ، الدمار الشامل فى كل القارة كلها . وتشتت أبشع صورها فى بلاد ما وراء النهر حيث قضى على حضارة أجيال ، وصار أهلها الى همجية موهلة أنسوا معها ماضيهم السابق وضاع بها كل أمل لهم فى المستقبل . ولم يتعرض أى جزء من أجزاء آسيا كلها لما تعرضت له الأقاليم الواقعة على جيحون وسيحون من القسوة والعنف بسبب غارات جسوع المغول عليها . فحروب أبناء الصحراء المتوحشين هؤلاء الأولى كانت حروبا مدمرة ، ولا سيما ما كان منها عند خجندة وبخارى

(١) أعنى بذلك نهاية حكم الخوارزميين ببلاد ما وراء النهر . ذلك ان جلال الدين كانت له أيام زاهرة بایران ، فقد فتح كل الجزء الجنوبي من فارس مع آذربيجان وانتزع اغلب سوريا من السلاجقة . ولكن شجاعته تضاعفت آخر أيامه على غرار ما حدث لأبيه من قبل ، وانصرف الى اللذات حتى سقط تحت رماح المغول الذين كان قد سبرهم منكوحان لغزو ایران بمياده جرمافوم .

(٢) هو مجلس شورى المغول (المترجم)

وسمرقند . اذ كانت هذه هى أول مواقع يتصلون فيها بطرق التجارة والرخاء الزراعى التى أثارت جشعهم فتسابقوا يشبعون غريزة السلب والنهب التى كانوا عليها . وكانت بلاد ما وراء النهر ، الى جانب ذلك كله ، هى المنفذ الذى تدفقت منه سيول المغول ، فيما بعد صوب القولجا والقرات والسند والخليج الفارسى . فلا عجب اذن أن نرى ، فى مدى خمس سنوات من هذه الحروب ، طرق آسيا العظيمة ، التى كانت بواسطتها تنقل حاصلات الصين والهند الى آسيا الغربية وأوروبا ، وقد هجرت ، وأن الواحات التى اشتهرت بخصبها قد باتت جرداء مهلهة أو نرى آخر الأمر أن تجارة الأسلحة والجواهر والحرير وتقوش الميناء ، التى كان صيتها يذيع فى العالم الاسلامى ، قد انهارت الى الأبد .

فالبلدان خيم الخراب عليهما ، والفلاحون كانوا قد قتلوا جميعا أو أرغسوا على الانضمام الى الجيش المغولى قسرا ، والصناع قد سيقوا بالألوف ليقوموا على تزيين موطن الغازى وتجميله بالشرق الأقصى . ولم يكن ما أصاب العلم فى هذا الدمار الذى نزل بآسيا الوسطى دون ذلك كله . وهناك مثل عربى من أمثال القرون الوسطى يقول ان العلم شجرة جذورها بمكة ولكن ثمرها يؤتى بخراسان . وقياس ذلك على حاضر هذه البلاد اليوم قد يثير منا العجب ، ولكن علينا ألا ننسى أن الفترة التى بلغت فيها الحضارة الاسلامية الآسيوية أوجها من الازدهار ، وكان ذلك بالضبط فى نفس القرن الذى وقع فيه الغزو المغولى ، كان لبلاد ما وراء النهر فيها دور ملحوظ . فسمرقند وبخارى وجرجان طالما نافست نيسابور (أهم مراكز الثقافة الايرانية) ومرزو (التى طارت شهرة مدارسها فى الآفاق) ، منافسة مجيدة فى هذا المضمار ، وفى أوقات كثيرة كان لها القدح الملقى فى علوم البلاغة وفى النحو والشعر والطب .

لقد قضى الغزو المغولى بكل أسف على الحياة الثقافية فى آسيا الوسطى . وبرغم أن بلاد ايران والعرب استطاعت بالتدريج أن تعيق ما نزل بها من المصائب ، بل وأن تعاود كذلك نهضتها الثقافية من جديد فى ظل الجنكيزيين ، الا أن سمرقند وبخارى لم يتيسر لهما أبدا أن تستعيد سابق نشاطهما العقلى ، وصارت الحياة الفكرية فيهما وقفا على الاشتغال

بالثقة والتصوف والبدع . ومرت ذلك بالدرجة الأولى الى أن المعون كانوا قد قضموا على السكان الأيراقين الأصليين في هذه البلدان ، فكان في صنيعهم هذا القضاء على رواد الحضارة والتجارة والصناعة ، في حين أطلق النيران للترك بلا رقيب أو حسيب . هذا وقد لبثت اللغة القومية لعهد السلاجقة فارسية -غالبية في بعض البلاد التركية الخالصة مثل خيوة الحالية وخوقند . وقد يكون برابرة الترك الذين قدموا من الصحراء الى هذه المدن ، قد أفلحوا بعض الوقت أن يزلزلوا بالتدريج من استمساك السكان بقوميتهم . على أنه من المؤكد دون شبهة أن الغزو المغولي قد عجل في القضاء على هذه القومية الى أبعد حد ، وكان هو كذلك العامل الأكبر في اندثار النفوذ الإيراني ببلاد ما وراء النهر ، وهو أمر ينظر اليه على أنه أخطر ما أنزل چنكيز بأقاليم جيحون من الأضرار .

وما بلغه ذلك الفاتح المغولي من النجاح إنما يرد بلا مرأى الى ما كان له هو نفسه من القدرات ، وما كان عليه رهطه من نظام اجتماعي ، أكثر مما يرد الى ما كانت عليه الأحوال السياسية واختلاف الأجناس اذ ذاك بآسيا الاسلامية بعامة وبلاد ما وراء النهر بخاصة وقتئذ . أما الأمر الأول ، فبرغم ما اتهم به المؤرخون المسلمون المعاصرون ، اذ ذاك ، چنكيز من مبالغته في استعمال القسوة وكلفه بالتخريب والتدمير ، فمما لا ينكر أن هذا الغازي المغولي لم تكن له صفات الجندي الكبير فحسب، بل وكانت له كذلك مواهب الفاتح والمشرع بأدق معاني هذه الكلمة . فبشريعته الياسا (مجموعة القوانين) استطاع أن يقيم له نظاما حريا مكينا لم يكن له نظير بآسيا الاسلامية حينذاك ، وأن يفضي به على الاضطراب الذي كان يسود حكومة الأمراء الخوارزميين ، وينادي بقيام المساواة بين الناس جميعا ، بصرف النظر عن اختلاف عقائدهم وطبقاتهم ، الأمر الذي أكسبه محبة الناس أكثر مما رأى المؤرخون أن يشيروا اليه . ويقول الجويني ان چنكيز قد جعل فدية المسلم أربعين مثقال من الذهب وفدية الصيني ثمن حمار واحد فقط ، في حين تقول مصادر أخرى بعكس ذلك تماما ، فتؤكد أنه وخلفاءه قد جروا على عدم التفرقة اطلاقا بين المسيحيين والمسلمين والبوذيين . وقد اختار چنكيز

كثيرا من المسلمين حكاما له ببلاد ما وراء النهر وخراسان ، وعهد الى كثير من البوذيين بأعمال ديوانه ، ونعلم كذلك أن حفيده قوبلاى قد بعث بالنصرانى الأجنبى ، ماركوبولو ، فى سفارة خاصة له من داخل الصين الى كرمان .

أما عن أحوال المغول الاجتماعية فإن قارىء التواريخ الشرقية سوف يصدف بتكرار وصف المغول بأنهم همج أجلاف ورجال حرب «هم فوم يغلب عليهم البكاء فى أعيادهم ويغمرهم السرور فى حروبهم . يطيعون فادتهم طاعة عبياء ، ولا يضجرهم البرد أو الجوع ، ولا يعرفون الراحة أو اللهو ، بل و ليس لهم من لسانهم من الكلمات ما يكفى ليعبروا به عما يريدون . وهم يعدون سلاحهم بأيديهم ويحملونه ، تجمعهم نفس واحدة وروح واحدة ، لا يهتسون بالطعام أو الثياب ، ولا تعرف الرحمة طريفها الى قلوبهم فلا ينورعون عن انتزاع الطفل ، الذى لم يولد بعد ، من بطن أمه . ويعبرون المياه العميقة بمساعدة مثن يبلأونها بالهواء أو يسكون بعارف خيولهم وذبولها وهى تسبح .. الخ .. » . ولئن كان لنا أن نفترض بأن مجريات الأحوال ببلاد ما وراء النهر نفسها لم تكن تبعد كثيرا عن تلك التفصيلات التى سبق ذكرها ، الا أنه يبدو من المحقق أن سكان المدن الايرانيين ومعهم رجال الحرب من أهل هذه البلاد ، لم يكونوا على ضعف شديد ورخاوة بالقياس الى المغول فحسب بل ولا قبل لهم كذلك بمقاومتهم على الاطلاق . يضاف الى ذلك أن الترك ، وهم الذين لم يكونوا أبدا على استعداد للائتلاف مع الايرانيين فى اخلاص ، وكانوا أهم جند السلطان محمد كذلك ، كانوا يضيئون باستبداد آخر الخوارزميين بهم من ناحية ، فضلا عما كانوا عليه من ميل فطرى الى السلب والنهب ، من ناحية ثانية ، مع تأصل مشاعر العشيرة فى نفوسهم من ناحية ثالثة . وهذه العوامل كلها مجتمعة قد استحشتهم فى مواضع مختلفة للانضمام الى چنكيز ، فانضموا الى صفوف العدو الغازى طغناء مخلصين بدلا من أن يحاربوه . فلا عجب إذن ، والحالة هذه ، أن كانت انتصارات الفاتح العظيم باهرة حاسمة فى اقليم بلاد ما وراء النهر الذى كان يسودم الانقسامات والفتن .



الفصل التاسع الجنكيزيون

٦٢٤ (١٢٢٦) - ٧٦٥ (١٣٦٣)

ان الصورة التى يضعها التاريخ تحت نظر القارئ للقرنين اللذين حكم فيهما الجنكيزيون بلاد ما وراء النهر لتصور منظرا ملطخا بالدماء يشير الرعب فى النفوس . فهى تاريخ فوضى شاملة عاصفة وافراط فى الظلم والبغى بلا حدود ، وقتل وتدمير على التوالى ، برغم أن ما بقى لدينا من تاريخ هذه الفظائع قليل (١) ، وذلك لعدم وجود مدونات بين أيدينا لتاريخ بلاد ما وراء النهر (٢) اذ ذاك . فلا معدى لنا والحالة هذه من أن نقنع بشأن المعلومات الخاصة بهذه الفترة بما يمكن أن نستخلصه من مدونات المغول فى الصين وفارس .

فى عهد جنكيز فصلت بخارى وسمرقند ، هلتين . « الدرتين الغاليتين » فى العالم الاسلامى الغربى ، عن جيرانهما فى الجنوب العربى ، وهما اللذان يرتبطان معهم برابطة الدم والثقافة والعقيدة ، وألحقنا قسرا

(١) يقول آبل ريرومات بحق فى كتابه « ملاحظات على تاريخ المغول الشرقيين لزرتن .
Abel Resumat "Observations sur l'Histoire de Mongoles. Orientaux de Sannangsetzen" Paris Imprim. roy. 1852 p. 12

لم تصل أيدينا بعد الى ما قد نأمل معه معرفة شئ عن تاريخ أسرة جفتاي وابناء حوجى ، ذلك ان مايروى عنهم ، هو ليس مما كتبه مورخون يوتو بهم وما وصلنا من الأحاديث عنهم مضطرب مشوش .

(٢) يذكر هامر - يورجس - مال من بين مراجع كتابه عن تاريخ القبيلة الذهبية ، كتابا فارسيا باسم تاريخ تركستان ، ولكنى لم أستطع أن أعثر عليه أبدا .

بذلك الفهم من الدولة المغولية الذي اشتهر باسم « خانة چغتاي » والذي قال عنه البعض انه كان يضم كل مناطق الأويغور ، في حين قاله فريق آخر عنه انه كان يضم الاقليم الواقع بين جبال التاي وآموى على جيحون ويحوى خليطا من السكان تجمعهم الهمجية في صعيد واحد . وكان چغتاي ، ناني أبناء چنكيز وهو الذي حكم أسرته بلاد ما وراء النهر حتى ظهور تيمورلنك ، فيسا عدا فترة قصيرة . يعد أفدر فقيه في التشريعات التي وضعها أبوه . وأبدى هذا الأمير المغولي مله الى أن يضم جراح هذا الاقليم التي كانت تقطر دما . نظم البريد بين هذه الولاية التي ألحقت بملكه ومصطاده في المالك حتى تقف بنفسه على كل شأن من شئون حكومتها . وبرغم كلفه بالشراب، وهي العادة التي نفشت في الغالب بين خلفاء جنكيز ، يقال انه كان يطلع بنفسه على كل أمر صغير أو كبير من أمور دولته . وكان عادلا منفييا في حكمه (١) ، التزم أساسا قيام المساواة التامة بين أصحاب العقائد المختلفة والعروق المانعة في دولته ، ونظر اليهم جميعا نظرة واحدة ، فعهد بحكومة بلاد ما وراء النهر الى مسلم هو مسعود بك وهو ابن محمود يلواج الذي اضطلع بدوره بـنصب شبيه بذلك في الصين . وربط چغتاي كذلك ضريبة الرؤوس على سبع فئات (٢) وفق ثراء كل شخص ، وأعفى منزا رجال الدين على اختلاف

(١) ما يقوله اغلب العلماء الأوربيين ، وقد بيعتهم بدوري في ذلك في بحثي في الدراسات الجفتائية Tchaghataian Studies بأن سكان آسيا الوسطى أطلقوا على لهجتهم القومية اسم «جغتاي» لغرض جبههم واحلالهم لابن جنكيز، يبدو انه خطأ. ففي المحل الاول ان أهل آسيا الوسطى أنفسهم لم يطلقوا اسم جغتاي لاعلى بلادهم ولا على لغتهم ، وانما كان ذلك من صنع الفرس الذين كانوا يسكنون على شاطئ سيحون أي بايران . أما سكان بلاد جغتاي أنفسهم فكانوا يطلقون على بلادهم اسم تركستان ، وعلى لغتهم « التركية » ثم ان جغتاي كان مكروها من المسلمين . . باستمساكه الشديد بالياصا وتعصبه للبوذية ، ففي عصره حرم قتل الحيوانات المستأنسة والاستحمام في الماء الجاري نهارا وجعل القتل عقوبة من يقدم على ذلك ، وقد شق ذلك على المسلمين اذ كان يعوقهم عن اقامة شعائرهم .

(٢) تبعت في ذلك قول هامر . أما الجويني فيقول ان محمود يلواج ربطها ببلاد ماوراء النهر على عشر فئات في حين يقول دوهسون D'ohsson بأنها كانت على خمس عشرة فئة .

عقائدهم (١) . وأخذ الفلاحون والصناع يعودون بالتدريج الى مزاوله
حرفهم وكانوا من قبل قد عمدوا الى الاختفاء هربا من أهوال الحرب .
ولئن كان من الصعب أن نجزم بأن جهاز المغول ، من عمال الدولة ، في
سيطرته على مختلف البلدان قد روعى في اختياره ما يكفل استعادة الثقة
الى نفوس الناس ، الا أننا نستطيع أن نقول ان الأحوال ما لبثت بخارى
أن عادت الى سيرها الطبيعي على كل حال .

وأول حكام المغول في بخارى كان بغابوشا ، وأولهم بسمرقند ، كان
جنج — سان تايغو . ويقال ان خرائب بخارى سرعان ما حل محلها منشآت
جديدة ، بل لم يأت عام ١٢٣٤/٦٣٢ ، ولما يبض خمسة عشر عاما على
تخريب المكان ، حتى كانت المدرستان اللتان أقامهما مسعود بك وسرقوني
بك تزدهمان بألوف الطلبة يدرسون فيهما مختلف صنوف المعرفة . وكان
مسعود بك هذا موضع ثقة چغتاي ، وكان ، على اسلامه ، مخلصا للمغول
بدوره كل الاخلاص . وكان له وزير يدعى هجير . ولا شك أن حكومته
كانت تضر الخير كله لبلاد ما وراء النهر ، وان لم تفد من ذلك شيئا
بالفعل . وكانت أيام خلفائه كلها حروب متواصلة . أما عهده هو فكان عهد
سلام متصل لولا ما اعترضه من فتنة اضطلع بها دعى ديني تتعرض لسيرته
في شيء من التفصيل .

في عام ١٢٣٢/٦٣٠ ظهر فجأة بقرية تاراب ، على مسيرة ثلاثة فراسخ
من بخارى صانع غراييل يدعى محمود (٢) عرف بضعف الادراك والبلاهة ،
فادعى أن الجان والأرواح توحى اليه ، وأنه ذو قوة علوية خارقة .
ويقول الجويني في هذا ان النساء كن يشتغلن بالسحر بتركستان وبلاد ما

(١) قيل ان اليهود قد استنوا من هذا الاعفاء . وبدوا ان هذا الفول
هو من وضع المؤرخين المسلمين الذين كانوا يكونون لليهود كراهية شديدة .
اذ يبدو بجلاء على الدوام ان حكام المغول بفارس والصر الترموا قيام المساواة
التمامة في المسائل الدينية .

(٢) يسهر في كتب التاريخ كذلك باسم محمود التارابي — حبيب
السير الحواندمير ، المثلث — تهران ١٣٣٣ شمسي صفحات ٧٩، ٧٨ (المرحم)

وراء النهر منذ زمن موغل في القدم ، فكانت الساحرات يدعين علاج المرضى ويسارسن الرقية والتعاويذ بدعوى أنها تطرد الأمراض . وظهر محمود كواحد من السحرة ، فأفضى بسره بادىء الأمر الى أخته التي انطلقت بدورها تذيع على الملأ أمر قوته حتى كان الناس يحملون اليه زرافات من أماكن بعيدة كثيرة . ويقول مصدرنا انه رد البصر الى الأعلى بأن نفخ التراب في عينيه . وما لبثت شهرته أن طارت من تاراب حتى بلغت العاصمة ، وزاد من ذبوع شهرته أن قام أحد الشيوخ ويدعى شمس الدين ، وكان له قدر من الاعتبار ، فقال ان أباه (وكان من العلماء المشهورين) قد ترك ورفة فيها أن المهدي المنتظر سوف يظهر في تاراب وقد زاد ذلك في وهم هذا الدعي زيادة كبيرة . وسرعان ما وجد صانع الغرايل المتعصب هذا نفسه وقد أصبح على رأس حزب كبير ليس عليه الا أن يأمره فيثور في وجه المغول . وأقلقت هذه الحركة الروحية بالحاكم بخارى وغيره من عبال الدولة ، فبعثوا يستشيرون في ذلك مسعود بك اذ داك بخجندة ، وعمدوا في الوقت نفسه الى دعوة هذا المتنبى للقدوم الى بخارى ، وحرصوا في دعوتهم هذه على أن يتسلقوه حتى قالوا له ان السكان مسوقون لرؤيته والتبرك به . وكانت خطتهم أن يسقطوا عليه في بعض الطريق حيث يكون بمعزل عن رهطه ويقتلوه . ولكنهم لم يكادوا يبلغون المكان المرسوم حتى كان محمود قد وفف على نواياهم في الغالب ، فاستدار الى من كانوا قد ندبوا لمرافقته منهم وواجههم في ثبات سا دبروه له وهددهم بأن يصيبهم بالعصى ان هم حاولوا التعرض له بسوء .

ولا يصعب ادراك مدى تأثير سلوك المتنبىء هذا على المغول ، وهم من يعتقدون في الخرافات الدينية ، فكان أن استقبلوه ببخارى فعلا استقبالا حافلا وأنزلوه بقصر السلطان سنجر حيث هرع الناس أفواجا ليتطلعوا اليه . وبلغ من فرط ولاء الناس وخضوعهم له أن أخرجوا له ألسنتهم وعرضوا عليه أن يجثثها من منبتها اذا يشاء . وتفاقم خطر هذا الدعي حتى هب الشيوخ يستحثون المغول على الخلاص منه . ولم ييسر الزحام حول مقامه للقوات أن تصل اليه ، فتمكن من الهرب الى تل قريب ، وقد أشيع

عنه أنه طار في الهواء الى هناك . ولا تعجبين لصدور مثل هذا القول ، فان الانسان حين يتمكن منه مثل هذا الوهم ويتعصب له تراه على استعداد كامل لتصديق كل شيء من هذا الضرب . هنالك أصدر هذا الدعي في المساء أوامره الى أتباعه بأن يحملوا أسلحتهم ، يفقد حان الحين لقل الكفار . وهكذا وجد نفسه يدخل المدينة من جديد على رأس حشد من أشياعه المتعصبين له كنبى وحاكم معا . فجعل من شمس الدين محمود الذى آثرنا اليه من قبل ، صدرجهان ، أى شيخا للإسلام ، وأباح للناس نهب الأغنياء وحرصهم على ذلك . وأخذ يؤكد لأتباعه فى مبالغة عطيه ما هو عليه من قوة وعظمة ، وكان هؤلاء يطيعونه طاعة عمياء ، حتى قال لهم « ان جيسى جند خفي لا يرى ، وهو يربط فى الهواء على الدوام.. انظروا الى أولئك الرجال فى الخضار وهؤلاء فى البياض ، انهم ليفدون الى بمجرد اشارة منى » وحين أخبر أحد الحاضرين بأنه قد شاهدهم فعلا انطلق الجميع عند ذلك يؤمنون على قوله . وادعى هذا المتنبي كذلك أن الأسلحة تصله عن طريق الهواء ، وان كان قد عمد فى الوقت نفسه الى الاستيلاء بالقوة على بضائع لبعض تجار من شيراز كانوا قد دخلوا المدينة ومعهم أربعة حمير محملة بشفرات السيوف . كما أمر يوم الجمعة أن تقام الصلاة وتقرأ الخطبة فيها باسمه ، وصادر فى عنف بالغ أملاك الأثرياء واختص نفسه بأكبر نصيب منها . وكان يقضى وقته فى المجون مع أجمل النساء ، وكانت داره تغص بهن . وما غدا أعيان بخارى ، الذين كانوا قد فروا منها ، أن قدموا الى كرمينية فانضم اليهم بها فرقة من جند المغول وزحفوا جميعا الى بخارى . وخرج اليهم محمود بدوره ومعه علامه السابق فى صناعة الغرابيل ، وكان كلاهما لا يحمل سلاحا ، فسارا على رأس جموع المتعصبين من أشياعهما ليظهرا للناس ما هما عليه من القداسة والعصية . وحين أوشك الهجوم عليهم أن يبدأ هب عاصفة لى هذا المتنبي وشيعته بسحابة من التراب حجبتهم جميعا عن أنظار أعدائهم . وكان فى وقوع هذا الحادث الكفاية ليرتد المغول على أعقابهم ، وهم الذين كان لهم بالخرافات الدينية اعتقاد قوى ، لينطلق البخاريون عند ذلك فى أثرهم ويمكنوا من قتل عدد عظيم منهم . وحين عاد هؤلاء على أثر انتصارهم

هذا وجدوا الميدان قد خلا من نبيهم اذ كان قد هلك فى القتال . واتخذ
اخرته مكانه من بعده ، ولكن زعامتهم لم تدم الا اسبوعا واحدا . فقد
ظهر القائدان المغوليان ايلدر فويان وجنكين قورجى من جديد ومعهم
قوة كبيرة أرغما بها هؤلاء المتعصين على الفرار فى أول لقاء . وأراد
هؤلاء المغول الحاقون أن يصبوا جام نفستهم على بخارى ، للمره الثانية ،
لولا أن نجح مسعود فى أن يمسكهم عن ذلك . فقد ألح عليهم أن يرجئوا
هذا الأمر حتى يستأذن فى ذلك الخان الأعظم . وبتوسطه هذا قدر
لبخارى ان تنجو من الدمار هذه المرة .

كان هذا هو الحادث الوحيد الذى قطع على بلاد ما وراء النهر حبل
هدوئها الحزين بعد الغزو المغولى . ومات أوكتاى خان الدولة المغولية
الأعظم عام ١٢٤١/٦٣٠ ، ولحق به بعد فترة قصيرة أخوه الأكبر چغتاي ،
ليدب النزاع من بعد ذلك بين المغول حول ارتقاء العرش . وبهذا النزاع
جر الجغتائيون على البلاد التى كانوا يولون أمرها قدرا عظيما من الشقاء
ودلك بتحزبهم الشديد من جهة ، وبما كانوا عليه من وحشية وميل شديد
الى القتال من جهة أخرى . [وترك چغتاي من بعده أسرة كبيرة . وماوصلنا
من أسماء أبنائه هو ييسو وبورى ويبدو وبسبغا ، وكانوا جميعا من بين
الحضور بالقرلتاي عند تنويع قيوق . ويبدو أنه لم يكن يميل الى أى
واحد منهم ، حتى اختار خلفا له حفيده الصغير قره هولاكو (١) وجعل
الوصاية عليه لأرملته ابوسكون . وأول مافعلته هذه السيدة هو أن أمرت
بقتل مجد الدين الطيب وهجير وزير زوجها وكان أثيرا عنده . ولم تلق
عليها فى الحقيقة تبعه موت زوجها الا لتخلص منها اذ كانت تخشى
أن يقف فى سبيل اطماعها . واتخذت لها من بعد ذلك وزيرا ومشيرا هو

(١) يذكره هامز بورجستال ، باسم قره أو غلان ، فى حسين يرد فى
مخطوط الجوينى الذى اعتمدت عليه باسم قره اولاك . ومن الصعب أن
نقرر أى الرسمين هو الأصح . ذلك أنه لما كان ليس بأيدينا ايه وثيقة تاريخية
مكتوبة بالمغولية نسير اليه ، فلا مندوحة لنا بذلك من أن نرجع الى الكتاب
الفرس الذين يكتبون بالعربية ، وهم الذين عانوا كثيرا من المشقة فى كتابة
الأسماء المغولية . وبأتى من بعد ذلك صعوبة أخرى ، ذلك أنه حتى حين يبدو
أن النقل عن المغولية قد وقع بصورة مرضية ، فان إهمال النساخ من بعد
ذلك كثيرا ما أدى الى تحريف هذه الاسماء تحريفا شديدا .

حبش عميد (١) وكان قاسيا طموحا ، ومع هذا فلم تستطع هذه السيدة أن تحتفظ بالعرش الا في فترة الاضطراب التي تلت موت أوكتاى . اذ اغتصب قيوق لنفسه كل ما كان لاوكتاى من نفوذ وأبعد كل خصومه وأولهم جميعا هذه السيدة ابوسكون نفسها ، ونصب ييسو (٢) عام ١٢٤٧/٦٤٥ رئيسا لأسرة جغتاي ، فأشاع القوضى والاضطراب لا في المالك فحسب بل وفي الخانية كلها كذلك ، حتى اضطر مسعود بك نفسه الى الهرب من وجهه فلاذ بياتوخان القبيچاق . وكان ييسو سكيرا عريدا ولكنه لحسن حظ رعاياه المسلمين اتخذ له وزيرا وناصحا منهم هو العالم الورع خواجه بهاء الدين المرغلانى الذى يشيد بذكره الجوينى ويشى عليه كل الثناء . ومن أسف أن هذا الوزير سرعان ما تلقى مصيره على غير انتظار بأيدي غريمه حبش عميد برغم ما كان يبذله له من صنوف المودة . ذلك أنه حين انقضت السنوات الثلاث التي حكم فيها قيوق وأصبح منككو (٣) هو الخان الأعظم رد قره هو لاکو وابوسكون الى منصبيهما السابقين . وعاد حبش عميد الى الوزارة بدوره ، فكان أول ما فعله هو أن ألقى ببهاء الدين ، ذلك الرجل العظيم ، في السجن . وبرغم الالتماس الحار الذى رفعه هذا الوزير الى الأميرة فان حبش عميد أمر به أن يطوى فى اللباد ويوطأ بالأقدام ويركل حتى تنهشم عظامه كلها (٤) . ورفض ييسو أن يعترف بسلطان منككو فنتج عن ذلك أن فقد عرشه . وهنالک اجلس منككو حليفه قره هولاکو على العرش الذى كان جده قد أوصى به له ، وأمره فى الوقت نفسه أن يقتل غريمه ييسو من فوره . ولم يكن هولاکو

(١) وكان أصلا من التجار المسلمين ويدعى قطب الدين - بارتولد تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٩٧ ، ١٩٨ (المترجم)

(٢) هكذا ورد عند الجوينى فى مخطوطه ، وهو ما نقلته عنه ، ويذكره دهبسون ييسو ، ويسوى انظر كذلك . Defrémery (Histoire des Khans, Mongols du Turkestan.) Journal Asiatique T. XX 402

(٣) يخطئ هامر ودهسون وغيره من المستشرقين فى رسم هذا الاسم ومعناه فى الأوبغورية ، الخالد . ويتركب من منك = السماء ثم الصفة كوه . وهو فى العربية مقابل «باق»

(٤) حين رأى ابواب النجاة من نقمة خصمه تسد فى وجهه وجه البه بضعة سطور صب عليه فيها اللعنات .

ليتردد في تنفيذ ذلك لو لم يفاجئه هو نفسه الموت قبل ذلك . وبسوته قبض على زمام الأمور في حانية چغتای أرملنه أورغنه النى تسكن من قتل عريم ووجها السابق ، وحكمت هناك حكما سعيذا دام عشر سنوات . كانت اورغنه واحدة من بين رينات المغول الثلاث اللائى يقول عنهن وصاف : انهن ثلاث آيات في الجمال واللفظ والكياسه والعظمه ، ونيس لهن نظير بين المغول في ابداع الحلقة على احسن الصور (١) . وكن اخوات لبعض أمراء المغول في بلاد القبيجاق وفارس وبلاد ماوراء النهر وزوجات لآخرين منهم .

كان ما عاتته بلاد ما وراء النهر من محن وما نعب به من أمن أيام الجغتائيين ، على ما بينا من قبل ينصل أساسا بالظروف التى يتعرض لها العرش الملكى فى الصين بسبب الوراثة . فقد لبث أورغنه الحكيمه تحكم فى سلام طالما كان منكبو على قيد الحياه . حتى اذا ما مات عام ١٢٥٩/٦٥٨ قام الحرب بين أريق بغا وقويلاى وعانت بلاد ما وراء النهر منها معاقه شديده تبعها لذلك كما جرت العاده . ذلك أن أريق بغا كان قد اختار الكو زعميا لأسرة چغتای فى حين وقع اختيار قويلاى على ايشكا بن بورى . وبز الكو منافسه آخر الأمر فطرد أورغنه وأرسخ أقدامه فى المائق ، فى حين وقع ايشكا فى أسر اريك بغا أثناء تحواله باقليم شن سى . وقابل الكو عون نصيره له بأسوأ نكران . ذلك أن اريق بغا حين وجد قويلاى يضيق عليه الخناق استنجد بحليفه فى محنته هذه ، لكن الكو رفض طلبه رفضا صريحا فى فتور برغم ما كان تحت امرته من قوات تربو على مائة وخمسين ألف رجل . ولم يكتف بهذا حتى ألقى القبض على عمال اريق بغا الثلاثة الذين كان قد عهد اليهم بجمع المكوس ، فصادر ما معهم من الأموال وقتلهم ، ثم انطلق من بعد ذلك يعلن انضمامه الى قويلاى . هنالك ثار اريق بغا لخيانة ذلك الذى احتضنه من قبل فانطلق الى حربه غير مكترث بالأخطار التى كانت تهدده فى ناحية المشرق . وفما كان فى شغله هذا فى الغرب ، انقض قويلاى على قراقورم

(١) انظر : هامر — تاريخ القبيلة الذهبية ص ١٦٢ نقلا عن وصاف .

واتنزعها منه . ولكنه عزى نفسه ، عما قفده من أرضين ، باتتصاره على الكو الذى فر من المالك الى كاشغر ومنها الى ختن حتى سار آخر الأمر الى سسرفند . وفى اربى بعاً شتاء عام ١٢٦٣/٦٦٢ فى المالك ، وفيها اشتط فى معاملة أتباع الكو ، كما أشاع الخراب والدمار فيما حوله من بلاد حتى نزل بالناس مجاعة مخيفة هلك فيها ألوف من الخلق . وأدى ما كان يججح اليه اربق بعاً من القسوة الى أن انصرف عنه خبره رجاله بعد أن ضاقوا ذرعاً بعسفه . وحين أحس بما صار اليه من الضعف الشديد تبجعة لذلك ، وأدرك أنه فى موقفه هذا لا يقدر على أن يدفع عنه خطر أى هجوم قد بوجهه اليه الكو ، أثر آخر الأمر أن يصلحه على أن يحتفظ لنفسه بالاقليم الذى يتبع الجغتائين . وكان يقوم بالوساطة بين هذين الطرفين الأميرة أورغنة ومسعود بك .

واستجاب الكو بدوره الى هذا الاقتراح ، وعسد فى سبيل تدعيم هذا الصلح الى الزواج من الأميرة أورغنة المعزولة . وبهذا خيم السلام فترة من الزمن على بلاد ما وراء النهر . وهناك استعين بجهود مسعود بك مرة أخرى ليحمر الخزانة الخربة من جديد ، وكان على سكان بخارى وسسرفند العاملين النشيطين أن يتحملوا نصيب الأسد فى ذلك كما هى العادة . وبفضل استقرار الأمور اذ ذاك سرعان ما اسنطاع الكو أن يتخلص من غرسه الثانى الأمير قايدو ، وهو حفيد من أحفاد أوكتاي كان يسعى لنوكيد حقه فى الجزء الشمالى من بلاد ما وراء النهر ، أى باقليم تركستان . ومات الكو عام ١٢٦٣/٦٦٢ بعد وفاة زوجته (١) المحبوبة رمن قصير ، فندب قوبيلاي عند ذلك مبارك بن قراهورلاكو أميراً على قبيلة الأولوس الجغتائية . وبظهر من اسم هذا الأمير أنه كان على الاسلام . وكان كذلك لطيف المعتز على أتم ما ينبغى لأمبر . ومع هذا فإن الخان الأعظم، برغم ماكان عليه من التحرر الفعلى فى المسائل الدينية ، لم يكن

(١) نقول وصاف ان الكو كان يرى أن أورغنه قد ارتكبت انما عظيمًا فى عطفها على مسلمى بلاد ما وراء النهر ، وأنها لقيت حتفها بسبب ذلك ومن ثم أراد أن ينتقم لموتها بانتهاب بخارى وسمرقند . ولكن مسعود نجح فى أن يحمله على العدول عن هذا الأمر .

يرتاح في الغالب كل الارتياح الى هذا الأمير الذي نبذ عقيدة آبائه فندب في السر وكيلا له هو الأمير بوراق أحد أحفاد چغتاي . ولم يكد هذا الأمير يستقر ببلاط مبارك شاه حتى نشط يتآمر عليه ، فأحل جنده من طاعتهم له وأزله عن عرشه ، ثم سار لتأديب قايدو وكان قد ظهر من جديد عند حوض سيحون الأدنى . ولم يكن قايدو — وكان له من الأبناء أربعون — وهو يشعر بالثقة في قوته ، ليهدف الى الاستيلاء على تركستان وبلاد ما وراء النهر فحسب ، بل ويطمح كذلك في تاج قوبيلاي الملكي نفسه . وكان قوبيلاي بدوره يهدف من وراء تثبيت بوراق على عرش المالك الى أن يكون له حليف أمين هناك يقف في وجه قايدو . وما غدا أن تكشف له أنه قد أخطأ في حسابه هذا ، اذ انطلق بوراق منذ أول الأمر يظهر المودة لخصم قوبيلاي هذا حتى اقتسما فيما بينهما صناع الأسلحة في بخارى وسمرقند (١) وما غدت الحرب أن وقعت بعد وقت قصير بين قايدو ومنككو تيمور أمير القبيلة الذهبية ، ليحاول بوراق عند ذلك أن يفيد من هذه الفرصة ، فحمل السلاح في وجه قايدو . غير أن هذا الأخير ما لبث أن أنهى نزاعه مع منككو تيمور وأنزل من بعد ذلك بحليفه الذي خانه ضربة مميتة في وقعة عنيفة على شاطئ سيحون اضطر من بعدها بوراق الى أن ينسحب عجيلا من تركستان الى بلاد ما وراء النهر . وحين رأى جند بوراق أن أملهم قد خاب فيما وعدهم به أميرهم من النهب ، عزموا على الحصول على الأسلاب بأي ثمن ، فسقطوا على مواطنيهم انفسهم . فقد أمر بوراق ، في قسوة بالغة ، سكان بخارى وسمرقند أن يتركوا متاعهم وينجوا بحياتهم من المدينة ، لينطلق اليها الجند من بعد ذلك وينتهبوها . وأفلحت دموع الأهلين وضراعتهم آخر الأمر من

(١) كانت بخارى تصم اذ ذاك ، على روايه وصاف ، ستة عشر الفا من السكان كان يفتسمهم زعماء المغول فيما بينهم كما يفتسم الماشية ، فكان يخص قبيلة باتو منهم خمسة آلاف ، ويتبع الأميرة سيوك كيكي ، أم هولكو ، ثلاثة آلاف . أما الباقون فكانوا رقيق الخان الأكبر . وكان الأهليون هم على الدوام أو ضحايا أعمال العدوان المستمرة التي كانت تقع بين أمراء بيت جنكيز ، فنحن نعلم ان هولكوحين أراد أن ينتقم من الهزيمة التي أصابته على أيدي بركة ، أمر بقتل عدد كبير من رعايا هذا الأمير ببخارى .

أن تحدد من قسوة ما فرض عليهم ، فتركوا وشأنهم على أتالوة باهظة يدفعونها ، وتعهد صناع الأسلحة بها أن يعملوا ليل نهار في صنع أسلحة جديدة للأمير . وما غدا بوراق أن اسرود قدرته على القتال بعد وقت قصير غير أن قايدو ، وكان يؤثر السلم ، ما لبث أن بعث إليه بالأمير قبيجاق أوغول ، وكان صديقا حسيما لبوراق ، ليتفاوض معه ببلاد ما وراء النهر . واستقبل بوراق الأمير قبيجاق بحفاوة بالغة وشربا معا كأس السلم المعتاد ، وفيه يخلط الدم بالذهب الممهور وبهذا صارا حليفين (١) (أندا) . وعلى هذا حل الوفاق من جديد بين بوراق وقايدو في خريف عام ١٢٦٧/١٢٦٩ . ودام الاختفال بالسلم سبعة أيام في السهل الواقع الى الشمال من سيحون (٢) ونص الاتفاق على أن يكون لبوراق ثلثا بلاد ما وراء النهر ، ويكون الثلث الباقي من نصيب أولوس اوكتاي وهو الذي يضم خجندة وما حولها حتى سمرقند . ولم يرض بوراق بهذا الوضع واشتكى بأنه بذلك يصبح أسوأ حالا من أي أمير جنكيزي آخر . ولما كان قد استند في شكواه خاصة الى عدم وجود مراعى لقطعاته بأراضيه ، فقد وتب الأمر على أن يعبر جيحون الى خراسان فيعوض ببعض الأراضي هناك ويتاح بذلك الفرصة في الوقت نفسه للريف المنهك المخرب ببلاد ما وراء النهر ليستعيد قوته ويتمكن أهله على الأقل من جمع محاصيلهم في سلام . وعهد الأميران الى مسعود بك لينطلق الى الريف وراء الفلاحين المشردين ويحضهم على الرجوع الى أراضيهم . ولم يطق بوراق صبرا ، على الانتظار ، اذ كان يأمل في الحصول على أموال كثيرة اذا ما هاجم أباقا حاكم فارس اذ ذاك . وحين رغب في المضى في هذا الأمر لساعته برغم سوء

(١) اندا في اللغة المغولية بمعنى حليف وهو من يرتبط برباط الصداقة مع آخر على قسم (انداغه) وما بلغت النظر أنه في حين كان المغول القدماء يخلطون الدم بالذهب المسال في كأس السلام ، فإن المحريرين القدماء بدورهم حين يتحالف الواحد منهم مع أخيه ، كان يقطع وريدا في ذراعه ويشرب كل واحد منهم في رأسه من دم أخيه ، وقد راعى الاتراك هذا التقليد في نحالفهم مع المجر كما نرى في تاريخ بتشوى Petchevi's Hist. (٢) يخطيء دهبسون في تسميته هذا السهل باسم سهل تالا ، فهذا اللفظ ليس باسم علم وإنما هو في التركية بمعنى السهل ولا يزال يستعمل بهذا المعنى في شرق آسيا الوسطى .

الأحوال في البلاد المجاورة لجيحون ، فاحسب عليه مسعود بك ، أمر بجلده سبع جلدات جزاء جرأته هذه . ولئن كان بوراق سرعان ما ندم على فعلته وهو في سورة غضبه ، إلا أن ذلك لم يمنعه على كل حال من تنفيذ ما عزم عليه فمضى في أعماله العدوانية لتوه (١) .

يبدأ بوراق بإفاد مسعود الى أباقا وكان اذ ذاك بمضى الشتاء في مضاربه بمازندران ، وكان ظاهر هذه السنارة هو الاتفاق على بعض المسائل المالية ، أما هدفها الأصلي فكان الوفوف على حقيقته استعدادات أمر فارس المغولي الحربي . وما لبث أباقا أن نبين بعد مضي بعض الوقت حقيقة هذه السفارة فأمر بالقبض على وزير الحفثائين ولم يحج مسعود من هذا الأمر إلا بسحس الصدفة . وسرعان ما أوفد بوراق بعثة أخرى لتعمل على استناله نكودار الحفثائي الى صفه . وكان هذا الأمير بهم بلاط المغول بفارس . ولكن هذه البعثة فشلت بدورها . اذ أن أباقا منع بيفظته هذا الأمير من تنفيذ خطته في النفاذ من القوفاز والأقاليم الواقعة شمال بحر الخزر الى شواطئ جيحون . وكان بوراق في الوقت نفسه يد استنطاع أن يهيء جيشه للقتال ثم عبر جيحون عند آمويه وأقام معسكره عند مرو . وصحبه في هذا الغزو كثير من أمراء بيت أوكتاي ممن كان قابدو فد أمرهم بالانضمام اليه . وبدأ هذا الجيش سهاجة أخى أباقا وفائده ، وكان يدعى بوحي (ويعرف كذلك باسم نينين وتوشين ونمشين) وكان برابط في شرق خراسان عند هراة وبادهيس . وقد ارتد هذا القائد عن موافقه حين تأكد لديه تقوى قوات حشمه عليه . وظل بوراق بطارده حتى وقعت في يده خراسان كلها . ولكن الشرفة ما غدت أن شاع في قواته حتى انصرف عنه نصف الجيش (٢) . وهالان استنطاع

(١) لم يكن مسعود في الواقع وريثا بالمعنى المصهور وإنما كان أصلا من ولاية المغول ببلاد ما وراء النهر كما كان أبوه حاكما على بكن — تاريخ الترك لبارنولد ص ١٨٥ ، ١٨٨٦ (المترجم)

(٢) كان أول من اسحب هو قسجاف صديق بوراق القديم ، فقد أثاره وفاحة جلايرتي . ولم يتنه عن عزمه وعد بوراق له بانزال أسد العقاب بذلك القائد . ونبهه في ذلك بجابات ، وكان من أحفاد قيوق خان .

أباقا بالحيلة أن يجعل هذه الحرب التي حائف خصمه استباح في أولها تنتهي به إلى مصير سيئ. فقد استدرج بوراق إلى كمين (١) لهم بجدة معه استبسال قائديه مرغاول وجلايربي الفائقة ، فنزل به صربة شديدة وجر عبر جيحون بمشقة بالغة ، وأصيب هو نفسه كذلك إصابة شديدة على أثر سقوطه من على فرسه . وهكذا دخل بخارى وهو في محنة ، محطم الثؤاد والجسد ، فأمضى الشتاء بها في محاولات فاشلة ليأر لنفسه من حليف غادر كان هو السبب فيما نزل به من المصائب . ومات في ربيع عام ١٢٧٠/٦٦٩ ، وقد قضى بالسم على رأى غالب .

تخلصت بلاد ما وراء النهر بسوت بوراق من مشاغب جائر نكد ، ولكن متاعبها لم تبلغ مع ذلك ذروتها بعد . فقد اسسرت الحرب الأهلية بين بيتي أوكتاى وجغتاي حتى عمت أهوالها كل المدن الواقعة على زرفشان ، وانكسر مرة أخرى كل ما كان قد استرده السكان من مظاهر التقدم الحضارى (٢) . وبموت بوراق صار قابدو مرة أخرى السيد المطلق في كل من تركستان وبلاد ما وراء النهر . وندب نيكباى بن سربان أميراً لقبيلة جغتاي ، فأثار بصنيعه هذا أبناء بوراق حتى انضموا

(١) جرى التدبير على الوجه الآتى : - حين بعث بوراق سلاص من حواسيسه لطلب على مدى فوه خصمه ، فسقط هؤلاء بأيدي العدو . عدوا حتى أقرروا سيمهم تم التي بهم في القيد في انتظار الموت . هنالك قدم فارس وقد عطاها القبار فتأمل الأمر أن حموع الأعداء قد غرت البلاد من ناحية درسد . اصاحات البولابات الغرمة بالحدود والنار . وأثار هذا المشهد اعظم استنراب من الممسكر - وكان ذلك كله في الراع من تدبير أباعا - حتى أخذ العموم بنجاح. ثوب عن رحوب الاربداد عرباً في الليل . وذاع هذا الخبر بسهم . وصدر الأمر باسم الام الجواسيس النلايه ، لكن أباقا أسر الى الضابط المكلف بذلك بأن يفسح المجال لهرب واحد منهم . وحين بلغ الجاسوس الهارب ممسكر بوراق وأعلن هناك عن عزم العدو على الانسحاب ، انطلق بوراق من فوره بطارد عدوه وهو يعتقد أنه يرتد ، لبرز عند ذلك رجال أباقا من مكاهم وحيطوا بجند عدوهم وبقطعونهم شذر مذر .

(٢) يمول دهبسون بحق في كتابه عن تاريخ الممول م ، ص ٥٢١ أن البلاد التي كانت تنعرض لغارات الترك والمغول لم تعرف الرعاء أبدا ، ذلك أن هؤلاء كانوا يرون ما تغله هذه البلاد من ثمرات هو من حفيهم فلا يدعونها لأصحابها أبدا .

الى أبناء الكو في اشعال نار الفتنة ببلدان ما وراء النهر العتيقة . وما غدا نيكباى نفسه أن ثار على سيده ، ولكنه هزم وقتل عام ١٢٧٣/٦٦٧ . وخلفه ثقايمور ، وجاء من بعده دوا بن بوراق (١) فالتحم مع قايدو ، كان هذان قد ائتلفا مخلصين معا فلعله كان قد أتيح بذلك لهذه الخانية أن تعيش بعض الوقت في سلام .

ولكن الحرب ما غدت لسوء الحظ أن اشتعلت بينهما لثالث مرة . ذلك أن أباقا لم يكن لينسى أبدا غزو الجغتائيين لخراسان . ولم يكن على وزيره شمس الدين الجوينى (٢) ، أخى المؤرخ الجوينى الذى قلنا عنه كثيرا ، الا لينتھز فرصة مواتية للانتقام ، حتى حرضه على دخول بخارى مع جيشه عام ١٢٧٣/٦٧١ ، فعمل فيها السلب والنهب ذات اليسن وذاب الشمال وأسر من أهلها خمسين ألفا ، وقد اندفع فى موجة التخريب حتى أحال المدرسة المسعودية المشهورة الى كومة من الرماد ثم رحل آخر الأمر عنها . وخرج اليه يطارده القائدان جبه وقابان حتى استخلصا منه بعض الأسرى . على أن هذين القائدين نفسيهما ما لبثا بعد أعوام ثلاثة من هذا التاريخ أن خربا كل الأماكن حول هذه المدينة حتى صار هذا الاقليم المنكود صحراء جرداء ، الى أن استطاع مسعود بك بإدارته الفائقة أن يبعث فيه الحياة من جديد .

ولم يكن دوا لسوء الحظ هو الرجل الذى يسكن لبلاد ما وراء النهر أن تشد على يديه السلم وكانت فى حاجة قصوى اليه . فقد كان حكمه الطويل بالنسبة لغيره من سبقوه -- من عام ١٢٧٣/٦٧١ -- ١٣٠٦/٧٠٦ حقة من حروب دموية مستسرة استطاع بها هذا الأمير ، الذى يعد أشد

(١) وندى كذلك بوا أوبى

(٢) كان شمس الدين مدفوعا فى ذلك بحمده الشخصى . وحين بعث بوراق بمسعود الى بلاط اباقا ، ذهب شمس الدين الى مسعود فاجتمع به قبل سفره . وبرغم ما أظهره شمس الدين لمسعود من التوقير حتى قبل ركابه وأدى له رسوم الخدمة المعنادة ، فان مسعودا قال له « أنت الوزير الاول ، الحق أن القلب لهو أكبر من مظهرك » -- دهسون -- نفلا عن تاريخ المنقول ارشيد الدين م ٣ ص ٤٢٣

الأمراء الجغتائيين طموحا ، أن يفضى على منافسه بيت أوكتاى له ويوجد مرة أخرى المناطق الشمالية لسيحون مع أملاك بيت جغتاي . وكان ثلث هذه المكاسب مصائب جديدة نزلت على بلاد ما وراء النهر . وكانت الأعمال العدوانية بين قايدو وقوبيلاي قد دلت لمدة عشرين عاما تجرى على شواطئ جيحون وسيحون حتى اعتزم قايدو ودوا أن يسدا — مؤتلفين معا — ميدان المعركة حتى بلاد الخان الأكبر تيمور (١) ، وهو الذى خلف قوبيلاي . حتى اذا ما عاد دوا من غارة له على لاهور بالهند سار بجيشه مع جند قايدو وقد انضم اليهما أربعون أميرا من أسرتهما ، فاتجهوا جميعا لغزو الصين . استمر بالجيوش الامبراطورى فيما بين قراقورم ونهر تامير . وكان قايدو قد خاض غمار احدى وأربعين حربا انتصر فيها جميعا ، ولكنه هزم فى هذه الواقعة الثانية والأربعين ، ونزل به الداء ومات وهو فى طريقه سائدا الى بلاده (٢) . هنالك أقيم ابنه جبه أميرا على بيت أوكتاى وذلك بفضل نفوذ دوا . وعمد دوا وجبه اذذاك الى مصالحه الخان الأكبر تيمور . وما عدا الخصام أن وقع بينهما فنحاربا عام ١٣٠٣/٧٠٣ فى موقعة دارف بين سمرقند وخجندة فاز فيها دوا . وأصاب جبه قدرا من التوفيق من بعد ذلك ، ولكنه عاد الى معاداة الخان الأكبر حتى وجد نفسه آخر الأمر ولم يبق له الا أن يعلن خضوعه لدوا . واستقبله هذا بترحاب حتى تعود تركستان من جديد الى خانية جغتاي وكانت قد انتزعت بالقوة من أبناء أوكتاى .

ومات دوا عام ١٣٠٦/٧٠٦ فخلفه ابنه قونجوق فلم يعمر طويلا ، لتسقط الحكومة عند ذلك الى أيدي من يدعى تاليقاوه ، وهو أمير جغتائي من أبناء مواتغان الذى كان قد قتل عند باميان . كان هذا الأمير ثانى أمير مغولى على عرش بلاد ما وراء النهر قد اعتنق الاسلام . ويبدو أنه تغالى فى تجمسه لعقيدته الجديدة ، اذ ثار عليه القواد المغول فى بلاطه فقتلوه

«١» وهو غير سمورلنك (المترجم) .

(٢) يقول وصاف ان قايدو قد انتصر كذلك فى هذه المعركة وأنه مات مريض طبيعيا وهو فى طريقه الى بلاده محملا بالغنائم

فى احدى المآدب وأجلسوا مكانه « كيبك بن دوا » وكان أميراً شجاعاً مستقيماً . وواصل جبهه بازاء الابن نفس العدوان الذى كان يواجه به أباه ، فجز بذلك الوبال على نفسه . فقد انتهى أمره الى أن نزلت به الهزيمة من جديد ، وضاعت بذلك آخر فرصة لحفظ تركستان بأيدي أحفاد أوكتاى . ولأسباب غير مفهومة ، وبرضاء كيبك ، أجلس الجغتائيون عند ذلك أخاه الأكبر ، ويدعى اسن (١) بغا على العرش . ودرج اسن بغا فى مدارج التقدم عام ٧٠٩/١٣٠٩ . ولا نراه من بعد ذلك حتى عام ٧١٦/١٣١٦ الا زعيماً للأولوس الجغتائيين . ويبدو أنه قد اشتبك فى حروب مع الجيتو أمير فارس المغولى كانت لنتائجها أهمية كبرى بالنسبة لبلاد ماوراء النهر . وناصب اسن بغا العداء تقاجى أحد قواد جيش الخان الأكبر بإياتتو فباء بالخسران فى ذلك . وأراد أن يعوض ما أصابه من الخسائر فى الشرق فعزم على غزو خراسان . وعبر لذلك بجيشه جيحون عام ٧١٥/١٣١٥ وبصحبه عدد كبير من الأمراء ، فهزم الأمير ياساول حاكم خراسان عند مرغاب ، ومازال يطارده حتى نهر هراة .

وبهذا استولى على كل هذا القسم من خراسان ، وظل جنده يذيقون الأهلى المنكودين كل أهوال الاحتلال المغولى لأربعة أشهر . وأغلب الظن أن لبشهم هناك كان يطول لولا أن زحف الخان الأكبر على اسبيككول فاضطر اسن بغا بذلك الى الارتداد عن خراسان . وسرعان ما كان على بلاد ماوراء النهر أن تكفر — لسوء الحظ — عن غارة حكامها هذه .

ونهج أمير فارس المغولى (الذى اتخذ لنفسه فيما بعد اسم خدا بنده (٢) ، أى عبد الله) نهج أباقا من قبل بازاء الغزو الذى قام به بوراق ،

(١) يذكره دهسون « ايسن » وهو خطأ فهو لفظ تركى معناه القوى ، السليم .

(٢) خداينده هو الأمير المغولى الوحيد من حكام فارس الذى لا يزال يذكره بالتبجيل سكان أذربيجان من الترك لما كان عليه من العدل . وقد جمعت كثيراً من الحكايات عنه من أفواه العامة حين كنت أقوم بالكشف عن بقايا تمثال فى سلطانية . وكان هذا الأثر فى وقته له أهمية كبيرة .

فلم يهدأ له بال حتى أنزل العقاب بذلك الذى اجتراً على غزو أراضيهِ .
 وكان لاسن بغا أخ يدعى « يساور » على علاقة سيئة به ، وكان هذا الأخ
 قد اعتنق الاسلام ولاذ ببلاط أمير فارس المغولى فرحب به . وخرج يساور
 هذا الى حرب أخيه وقد أمدّه الجايتو بفرقتين قويتين من الجند عبر بهما
 جيحون عام ٧١٦/١٣١٦ وكسب بهما الحرب . ولاذ اسن بغا بانقرار
 لتعرض عند ذلك بلاد ما وراء النهر من جديد لأفطع ضروب الدمار . فقد
 أخرج سكان بخارى وسمرقند وترمد من ديارهم ونفوا منها والشتاء
 القارس فى عنفوانه حتى هلك ألوف منهم فى الطريق . وما يلبث اسن بغا
 أن يختفى عن مسرح الحوادث ليأخذ مكانه السابق كيك وينزل العقاب
 بهذا الأخ العاصى الذى جلب البؤس البالغ والشقاء الكثير على الناس ،
 وقد وافاه أجله عام ٧٢١ هـ .

أخذ نجم المغول بآسيا الغربية فى الأفول بسرعة ابتداء من ذلك
 الوقت . وذهبت أدراج الرياح كل الجهود التى بذلها أبو سعيد ليقيم من
 جديد أسرة حاكمة فى ايران والعراق . فهؤلاء المغول باعنائهم الاسلام
 ورسوم حضارة آسيا الغربية ، انما قد تخلوا بذلك عن القوة الوحشية
 التى كانوا قد قدموا عليها من مواطنهم القديبة فى الصحراء ، فأمدتهم
 بقدرة لا تبارى . فصبحوا من بعد ذلك كالليوث التى سقطت معارفها
 ولم يعد يهابها أحد . وعلى مثال ما حدث فى عهد السلاجقة حين كان
 حكام الولايات من الأمراء يستغلون ضعف ملوكهم لتحقيق مآربهم
 الخاصة ، رأينا كذلك أمراء أرباخان — خليفة أبى سعيد — يعلنون
 خروجهم عليه ويشرعون فى تقطيع أوصال الدولة التى قامت بسواعد
 تولى وهولاكو .

وجد الاستبداد العسكرى تربة ملائمة له على الدوام فى بلاد ما وراء
 النهر وتركستان . واستطاع التجنكيزيون أن يشبثوا أقدامهم هناك طويلا
 لما كانوا عليه من الشراسة أصلا ، وما بعثه ظهورهم لأول مرة من الرعب
 فى نفوس الناس . وسرعان ما أخذت الأسرة الحاكمة هناك بمضى الوقت

تفقد بدورها ما كان لها من سلطان أول العهد بها . ولم يطل عهد الأمراء من ذوى النفوذ من بين أعضائها الذين جلسوا على العرش منذ كييك حتى كابلشاه (١) آخر الجغتائيين . ولم يكن من عداهم من ضعاف الأمراء الا مجرد دمي بأيدي وزراءهم من ذوى الطموح . ويشير تاريخ هذه البلاد فى هذه الفترة الى غارة قام بها على خراسان علاء الدين ترماشيرين فلقى الهزيمة عند غزنه عام ٧٢٦/١٣٢٥ وارتد على أثرها عجلا عبر جيحون . وتحدث الرحالة العربى ابن بطوطه عن ترماشيرين هذا ، وكان قد قضى عامين فى ضيافته ببخارى ، فوصفه بأنه كان مسلما غيورا ورعا بلغ من تدينه أن سمح لأحد الشيوخ أن يعنفه بشدة فى احدى الحفلات العامة ويتلقى حديثه هذا بدمع الدم والتوبة .

وقد ضحى هذا الأمير بعرشه وحياته بسبب اسلامه ، اذ قتل بتدبير

١ - أورد دهبون جدولا كاملا بأسماء الجغتائيين الذين جلسوا على عرش بلاد ماوراء النهر ، مع تاريخ ولايتهم ، على الوجه الآتى : ١ - جفتاي (لم يذكر تاريخ ولايته) ، ومن المعروف أنه ولى الحكم عام ١٢٢٢م)
 ٢ - قراهورلاكو ١٢٢٤ - ٣ - يسو مانكو (ذكرته باسم بيسو) ١٢٤٧
 ٤ - أرغونا أو أورغانا ، بالوصاية ، وهى أرملة قراهورلاكو ١٢٥٢ - ٥ - الكو ١٢٦٠ - ٦ - مباركشاه ١٢٢٦ - ٧ - بوراق ٨ - نيقاي ١٢٧٠ - ٩ - بوقاتيمور ١٢٧٢ - ١٠ - دوا ١١ - قونجوق ١٣٠٦ - ١٢ - تاليقاوه ١٣٠٩ - ١٣ - اسن بفا ١٣٠٩ - ١٤ - غيبك ١٥ - الجيكداى ١٣٢١ - ١٦ - دواتيمور ١٧
 ترماشيرين - ١٨ - بوسان ١٣٣٠ - ١٩ - جنكشى ٢٠ - ييسون تيمور - ٢١
 على سلطان ، من بيت أوكناى - ٢٢ - فولاد - ٢٣ - محمد - ٢٤ - قاسان ١٣٣٣
 ٢٥ - دانشمنجه ١٣٤٦ - ٢٦ - بايان قلى - ٢٧ - تيمورشاه - ٢٨ - قتلوق تيمور ٣٩
 الياس خوجه ١٣٦٢ - ٣٠ - قابيلشاد . ولا يذكر من أتى بعد هؤلاء من الأمراء اذ كان حكمهم الصورى يختلط فى التاريخ بحدوث تيمور النى سنفسلها فى الفصل التالى . ويذكر ميرخوند فى كتابه عن تاريخ الجغتائيين أمراء من هذا البيت ظهروا من بعد ذلك بين الجته وغيرهم من المغول الذين وحدوا انفسهم شمال فرغانه بزعامة يونس خان . ويبدو أن قوله هذا خطأ ذلك أن هؤلاء الجته والمغول المعنيين كانوا من أبناء بيت قايدو . (المؤلف) .

(انظر معجم الانساب والاسر الحاكمة ، ترجمة الدكتور زكى محمد سليم ، وآخرين ص ٣٧٠ ، فى بنى جفتاي ، خانات ما وراء النهر) الخشاب

خليفته بوزان^١ بجوار سمرقند^٢ . وكان بوزان مسلما في الظاهر فقط .
وأُنزل هذا الظالم بسكان ما وراء النهر من ضروب الخسف ما جعلهم
يستجدون بالأمراء المسلمين في الأقاليم المجاورة لقطرهم . هنالك بدأت
هذه الحروب التي برز فيها التاجيكي (٣) المشهور حسين كرت بدور
مهم إذ كان يتوق الى استخلاص خراسان من ارباخان . وشجع حسين
ما أحرزه من انتصارات متوالية فغزا أندخوى وشبورغان وهي مناطق كان
يسكنها ترك من قبائل ارلات وايردى ويتبعون بخارى . ووقف هؤلاء
الترك في وجه حسين لكنه هزمهم ، حتى استجدوا بأمرهم فربح
— أو بوزيرهم الأمير قزغان على الأصح — الذي نجح في قهر حسين
كرت .

والأمير قزغان ، هذا التابع القوي صانع الملوك ببلاد ما وراء النهر ،
يستحق أن نتحدث عنه، إذ كانت أفعاله دليلا على ضعف آخر الجفتائين .
فقد ولي قازان بن يساور العرش عام ٧٣٣/١٣٣٢ ، وكان ظالما يميل لسفك
الدماء حتى قال عنه ميرخوند « لقد تمكن ذلك منه حتى كان رجاله جميعا
يوصون قبل أن يحضروا قرلتايه (أي مجلسه) » . ونشر هذا الأمير الفزع
في الاقليم دون أن يجرؤ أحد على الوقوف في وجهه حتى اتخذ من قزغان
وزيرا له . وعمل هذا الوزير على التخلص منه ، فكسب الجيش لصفه ثم
ثار في وجهه . وكسب قازان أول وقعة وذلك عام ٧٤٤/١٣٤٣ ، أو بعد
ذلك بعامين على رواية ميرخوند . وفي هذه الواقعة أصاب قزغان سهم في
احدى عينيه فأتلفها . على أن هذا الجفتائي لم يستطع أن يدعم ما أصاب
من فوز ، واضطر الى التراجع الى قارشى فأمضى الشتاء بها . وأشاعت
قسوة الطقس هناك الموت بين خيوله ودوابه حتى نفق أغلبها . وحين

(١) يقول ابن بطوطة ان بيزان هلبا (ونحن نسميه بوزون) هزمه خليل
بن يساور وقتله . بل يقال ان خليل قُتل كذلك حتى المالح وهزم الجيش
المغولي عند طراز هزيمة حاسمة . ويبدو أن ولي العرش ببخارى ثار على
السلطان حسين كرت الذي كان قد عاونه في كل مشروعاته ، ولكنه هزم
وحمل أسيرا الى هراة حيث لقيه الرحالة العربي آخر عام ٧٤٧ (١٤٧٢)
voyage d'Ibn Batoutah Paris 1885 vol. III p. 48-51.

(٢) على رواية صاحب مطلع السعدين ، فان ترماشيرين نزل به المرضى
في تخشب عام ٧٢٧ (١٣٢٦) - وبهذا يكون قد مات حتف أنفه .

انطلق في الربيع من بعد ذلك يهاجم خصم أسبيب بالهزيمة ، ومات بعد أن حكم أربعة عشر عاما . ولم يكن يدور بخلفه فزغان أن بمسك بماليد الحكم اذ كان يفضل أن يستمر في الاستنماع بالطراد فلا يزوجه نىء .
 ابداً فذلك اجلس على العرش الأمير دائشمنجه أوغلان ثم خلعه من بعد .
 الماء باميين وأجلس مكانه بيا نغلى . ولعله كان يصي قدها في نصب هذا الأمر .
 وتبلغ ذاك على هذه الصورة لولا أن قتله صهره بغلن تيسور ذات يوم وهما في الصبد . وخلفه ابيه عبد الله في محبه ولكنه لم يبلغ الى نفوذه ، فلم يقدر على حماية نفسه أو حماية سادته بازاء أبايعهم من الأمراء الذين كانت قوتهم تنزايد يوما عن يوم ، حتى تلبه على أمره آخر المطاف الأمير حاجى سيف الدين برلاس . واضطر هذا الأمير بدوره الى الهرب من وجه تغلق تيسور وكان قد قدم من المالح الى خراسان عجلا ليضع حدا لحالة الفوضى المائسة هناك . ولكنه لم يتعرض للجانب الآخر من جيحون حيث كان ابن أخيه نيسور الذى لم يقدر له أن يطرد خلفاء حفناى (١) من على عرش بلاد ما وراء النهر فمسب بل ويدك كذلك كل ماء الحكومة المغولية المتعفن فى آسيا . ولم يفعل ذلك كله دون أن يعرض هذا الافليم ، اسوء الحظ ، لطوفان من دماء آلاف الضحايا .

وقبل أن ننهى الحديث عن هذه الحقبة المحزنة من تاريخ بلاد ماوراء النهر ، لا بد لنا من أن نلقى بعض الضوء على الأحوال الاجتماعية والحضارية التى سادت فى هذه الحقبة . وفى هذا الدمار الذى قام به المغول اتم يزدهر من العلوم الا العلوم الشرعية وفروعها . وفى أيام الجغتائيين الأول كان السيوخ فى تركستان يستتعون بفنهم معلوم من الحماية وذلك بفضل مبدأ التسامح الدينى (٢) من جهة ، والاعتماد فى هبة

(١) قلت هنا عن قصد ، خلفاء حفناى . ذلك أنه برغم تقلص سلطان الحنكيزيين بآسيا نقصا تاما ، فلا يزال حتى اليوم أسره بحكم بلاد ما وراء النهر تنتهى نسبها من بعيد الى احفاد الفاتح جوجى .

(٢) أبلغ شاهد على هذا التسامح نجده فيما كان من احرام هؤلاء المغول المخربين النهابين لأماكن معلومة مقدسة فى تركستان . ويرد مثل هذا الدليل عند ابن بطوطة فى التفصيلات القيمة الدقبة التى ذكرها عن ضريح شمس بن عباس بالقرب من سمرقند .

رجال الدين من كل طليقة من جهة أخرى . وكان بكل مدينة فى الغالب واحد أو أكثر من الأولياء ممن كان المسلمون يلوذون بهم وقت الخطر . وبهذا صار رجال الدين يدورهم حماة لمن يعيشون فى دائرتهم ، حتى لنرى ، ابتداء من ذلك الوقت ، صدر الشريعة ورؤساء القضاة بل وكل من يشتهرون بالورع والتقوى يستمتعون فى بلاد ما وراء النهر بنصوذ لم تعرف له البلاد الإسلامية الأخرى نظيرا . ولا يزال هذا النفوذ يقوم هناك حتى اليوم برغم أن هذه البلاد قد ظلت قرونا كثيرة يحكمها أمراء آل سمركاند وكانت المناصب الدينية وقفا على طبقات من العلماء من أسر معينة وكأنها العروش فى توارثها . وأشهر هذه الأسر كانت أسرة ستاجى وأسرة خاوند . ومؤسس الأسرة الأولى هو جمال الدين ستاجى ، وكان فقيها وشاعرا صوفيا استوطن خجندة عام ٦٢٨/١٢٣٠ ومات عام ٦٤٠/١٢٤٢ ابن غزو چنكيز خان . وثانى تلك الأسر كانت تقطن بخارى . وأشهر أبنائها مولانا كمال الدين ابن العالم والمفتى المشهور الأمير شمس الدين خاوند . ويشتهر بكتابة « منهاج المذكرين » وهو كتاب قيم فى التراجم . واه كذلك عدة دواوين من الشعر . مات عام ٦٧١/١٢٧٢ فى أول يوم انطلقت فيه قوات أباقا سالف الذكر تنهب بخارى . ونذكر من بعد ذلك خاوند شاه فخر الدين والملا تاج الدين العالم مؤلف « بستان المذكرين » وقد مات عام ٧٣٠/١٣٣٥ . وبعد أن دخل الجغتائيون المتأخرون فى الاسلام نجد كتب الحديث تروج أيام ترما شيرين ، كما نجد هؤلاء الأمراء ، باعتنائهم الاسلام عن قرب ، تدفعهم غيرتهم الدينية الى رعاية هذه الحركة الروحية لا يألون جهدا فى ذلك . ولقد رأينا كيف يتقبل أحفاد الفاتح المغولى بكل خضوع زجر الشيوخ المحافظين لهم وتعنيفهم إياهم بمسجد عام فى مواجهة رعاياهم ، وهم من بعد ذلك يتولاهم الخجل لما كان قد وقع منهم ويستغفرون لذنوبهم على مشهد من الملا جميعا ، لتدرك عند ذلك مكنون النداء الذى وجهه أعظم شاعر صوفى فى الشرق ، بمثنويه الرائع ، الى ذلك الصوفى المتحمس الذى كان فى طريقه الى بخارى ليلتمس ، مخدوعا ، الراحة هناك لنفله وعقله

المنهك الرهق . وكانت نفس هذا الشاعر الكبير قد ضاقت ذرعا بمثل
هذا الموضوع المصطنع السطحي الذي يتعارض مع لب العقيدة :

بخارى مبروى ديوانه
لايق زنجين زندانخانه :
أذهب أنت الى بخارى ، أفهلي بأك من
أترالك أهلا للقيد والحبس ؟

الفصل العاشر الأمير تيمور

٧٦٥ (١٣٦٣) - ٨٠٧ (١٤٠٥)

أدى غزو الترك لآسيا الوسطى الى حدوث انقلابات عرقية مختلفة كان أهمها رجحان كفة العناصر التركية على غيرها فى جميع أجزاء بلاد ما وراء النهر . فلقد قدم الترك الى هذا الاقليم أصلاً بوصفهم أصدقاء وحلفاء لمغول الوديان الشرقية عند تيان شان وجبال التاي . وسرعان ما استقروا على ضفاف جيحون حيث وجدوا اخوانا وبنى جلدة لهم كانوا قد سبفوهم الى هناك (ما وسع تركى أن يفعل ذلك) ، وكان لهؤلاء نصيب مما كانت تسبغه الأسرات الحاكمة هناك من التشريف والتقدير على المحاربين الممتازين . ولم يكن الترك دون المغول بكثير فى ميلهم الى السلب والنهب والقتل اشاعة الدمار ، وبهذا لم يجدوا صعوبة فى أن يوائموا أنفسهم مع الجغتائيين . وقد نزل هؤلاء عند أطراف الأراضى التى ورثها چغتاي بأقصى الشرق والشمال منها ، وكانوا لا يطيقون ما يست الى بقايا ثقافة ايران القديمة بأدنى سبب ، وماغدا أن صار زعماء الترك ببلاد ما وراء النهر نوابهم وعمالهم ، بل وامتزوجوا بهم فى الغالب ، كما سنرى فى التو ، بل ان الجغتائيين المتأخرين بلغ تأثرهم بالترك الى أن باتوا لا يكسادون يعون اللغة المغولية ، وصارت التركية هى لسان البلاط والمجتمع عندهم . ولم يعد لخلفاء چنكيزخان أيام قوتهم ونفوذهم من خدام أهلا لثقتهم الا الترك . وحين أخذ سلطان هؤلاء الأمراء فى الاضمحلال جهد هؤلاء الترك أنفسهم فى كل مكان ليغتصبوا مكان سادتهم السابقين ، فتفسخت بذلك دولة چغتاي ، واستأثرت قبائل جلاير

وسولدوز بالسلطة لنفسها عند شمال سمرقند ، فى حين عمد بيت برلاس فى الجنوب ، عند كش ونخشب ، الى رفع راية الاستقلال بدورهم فوق أنقاض دولة المغول .

ينتمى تيمور بك (الذى يعرف فى أوروبا باسم تامرلان أو تامرلنك) الى فرع كركن (١) من بيت برلاس سالف الذكر . وأول ما رأى النور تيمور كان فى مساء الثلاثاء الخامس من شعبان عام ٧٣٦ / ١٣٣٥ فى قرية من قرى كش تعرف لفرط اخضرار نبتها (٢) باسم شهرسبز

١ - كانت العلاقة بين الأسرة الأصلية وفروعها البعيدة بين بدو آسيا الوسطى ، على ما ذكرته فى كتاب رحلاتى أكثر توثيقا فى الازمه المتقدمه بطبيعة الحال . وكانت قبيلة نمور هى قبيلة برلاس ، أما فرع أسرته فكان كركين أى المسلح . وكان الأجداد بكلابروب Klaproth . وكثير ممن سبقونى أن يوفروا على أنفسهم مشقه تفسير هذا اللفظ بأنه كوركين أو كورخان فقالوا أنه هو الحار الأعظم .

٢ - ان ما قال به وابل وغيرهما من المسسرقين ، اعتمادا على ميرخوند وشرف الدين ، بأن تيمور من أصل مغولى ، هو خطأ مزدوج . فقصة انحدر تيمور من نسل قراجة بوبان محص خرافة ، ذلك ان جهانكسا الذى اعتمد عليه رشيد الدين ووصاف وميرخوند وغيرهم اعتمادا كبيرا فى أخبارهم ، لا يتضمن أى أساره الى ذلك الورير المزعوم لحنغاي . وما قبل عن تيمور أنه مغولى سببه أن الفرس طلبوا طويلا يعدون خانية حنغاي عند الجانب البعيد من جيجزن جرجاء مكملا للدولة الممولى ، وهو اسم طبعى بنى على غلبة رسوم المغول هناك ، فضلا عن اسماء السوم التى انحدره الأويغورية - المغولية على الدوام فى كتابة المركبة اذ ذلك . ويعبر كلافيجو Clavijo سفير هنرى السابع ملك فسناله الى بلاط تيمور (ان أراضى الدولة المغولية عند سمرقند تعرف باسم معلوبا ، ولغتها هى المغولية . وهى تستعصى على الأفهام على كل حال عند ذلك النماطىء (سأطىء حنجون) والأبجدية المستعملة عند الجانب السمرقندى من النهر (يعنى الأبجدية الأويغورية) لا تفهمها هذا الجانب (يعنى الضفة الفارسية) . وعند الامبراطورية (تيمور) كثر من الكتاب ممن بقروا هذه الأبجدية المغولية (Narrative of the Embassy of Ruy Gonzalez de Clavijo to the court of Timour at Samarkand. A. D. 1403 — 6 Translated by Clements R Markham F. R. G. S. London Hackluyt Society 1859.

(أى المدينة الخضراء) ، (١) وقد أطلق اسمها من بعد ذلك على المدينة كلها . وكان أبوه تورغاي (٢) (طير الدج) شيخا لقبيلة برلاس . وعلى هذا ندبه الأمير فزعان على اقليم كش ونخشب . وبقي نورغاي تابعاويا للأمير حتى وفاته . وكان الشاب نيمور ، وهو الذى ظهرت شجاعته وفروسيته منذ حدثته ، قد نشأ أبوه لا على النمساك بسنن الاسلام الفويمة فحسب ، بل وأشرب فيه كذلك مشاعره السياسية التى كانت تهب الى نقويض أركان الدولة المغولية . وحتى حين نضن بثقتنا فى قول مداهن ظاهر التملق وهو المؤرخ شرف الدين فلا نزال مع ذلك نجد ما يؤكد أن نيمور كان منذ شبابه الباكر وأطماعه تلهيه ومشاعره تتوق به نحو عظمة مستقبله . فهو يقول فى سيرته « أخذت منذ الثانية عشرة من عمرى أستوعب كتب الحكمة العالية والقوة الخارقة ، كما حصلت نفسى على الآباء والرزانة بازاء من حولى . وحين بلغت الثامنة عشرة كنت شديد الاعتزاز بما بلغته من المهارة فى الصيد وألعاب القروسية . كما كنت أمضى وعى فى قراءة القرآن ولعب الشطرنج وهوايات أخرى مختلفة (٣) » . ولا عجب إذن أن نجد أباه يقدر فيه الرجولة حين بلغ العشرين من عمره فحوصه بحصن (أول) ، ليتقرب هو من بعد ذلك بدوره الى زعيم يرى أنه يستطيع نحت لوائه أن تتخذ طريقه الى المعارك والمخاطر الى كان ينوق

(١) يذكر نابز فى سيرته (بابرنامه) أن جدران الدور وشرفاتها فى هذا البلد كان يغطونها فى الربيع النباتات المتحرثة ليسانعة وغسرها من صموغ النبأ الأخرى . (المرحوم)

(٢) ول من بارمازى كما ذكره وابل Weil Geschichte der Khulifen vol II p 21

(٣) عراب هذا الكتاب هو (وروكان تيمور) أى مراسيم تيمور (توزوك فى التركية تعنى مرسوم أو قانون ، والآلف والبناء هى علامة الجمع فى العربية) وبهذا فهو يبدو لأول وهلة مجموعة من القوانى أسبابه بياصا حنكيز . ولما كان نيمور بروى فيه كذلك تفصيل حياته الفحيبة ويوضح بواعب أهم فعالة ، فبمكن كذلك وصف هذا الكتاب ، باطمئنان ، بأنه سيرته . وأول نسخة منه أحضرها الماحور دافى Dav. من الهند الى أوروبا وتقع فى ٤٤٠ صفحة بحجم الثمن ، وهى بالفارسية نقلا عن الاصل بطبيعة الحال . أما الاصل الحفثاتى فقد وجد فى مكتبة جعفر حاكم اليمن . وقد ترجم الاصل الى الفارسية أولا ، ثم نقله من بعد ذلك الى الانجليزية س . ستبوارت C. Stewart عام ١٨٣٠ (أنزل كتاب مرخام Markham الذى أشرت اليه من قبل ص ١٥ من المقدمة)

الى خوضها بكل جوارحه . وكان هذا الزعيم هو الأمير فرغان سالف الذكر . وكان تيمور قد أوفد اليه في مهمة عام ١٣٥٦ . وأعجب هذا بالشباب اعجابا شديدا حتى زوجه بحفيده أولجاي تركمان خاتون ابنة ولده صلاحخان (١) ، وصحبه معه قائد ألف (منكباشي) في حربه الثانية مع حسين كرت بخراسان . وفاز هذا الأمير في حربه هذه ، ولكنه سرعان ما اغتيل من بعد ذلك . وما لبث تيمور أن فقد أباه فركبه بذلك غم مزدوج . ولم يكن أمامه عندئذ الا أن يتحالف مع الأمير حسين حفيد فرغان المقتول فيحاولا معا الانتقام من قتلة ولي نعمته . على أن المعارك التي وقعت بسبب ذلك لم تنته الا الى زيادة الفوضى ببلاد ما وراء النهر الى درجة عظيمة . حتى رأينا (٢) تفلق تيمور أمير أولوس اذ ذاك ، وقد طهر له أنه لا بد من اتخاذ اجراء حاسم لحماية مصالح أسرته من الدمار التام ، يسير جيشا كبيرا أكثره من الجته (٣) ، من المالح الى سمرقند وقد عزم على تقوية عرش آبائه بطرد الحكام الشائرين من الأمراء .

وأدى ظهور هذا الأمير بينهم الى أن عاد فريق من الثوار الى طاعته في حين هرب فريق آخر الى خراسان ، ومن بينهم جاجي سيف الدين برلاس (وهو الذي صار شيخا على قبله بعد وفاة تورغاي) . أما الشاب تيمور فقد قصد الى بلاط الجغتائين فرحبوا به وأقروه على ولاية كشمير . وظل الهدوء يخيم في الظاهر على بلاد ما وراء النهر مابقي تفلق تيمور بها . حتى اذا ما غادرها الى المشرق عاد الزعماء المشاغبيون الى العصيان من جديد حتى اضطر الى اخضاعهم مرة أخرى بقوة السلاح . وبقي فاتح آسيا ، فيما بعد ، على ولائه له . وحين ظهر تفلق ، على رأس جيشه ، في سمرقند وأقام ابنه الياس خوجه نائبا له عليها ، اختار تيمور ، بوصفه

(١) وليس مصلح خان كما ذكره خطأ Petit de la Croix D'Herbelot عن مخطوط غير صحيح . وهذه الكلمة معناها في التركية البيت أو الوطن .

(٢) وليس تجلق كما رسمه وايل وهامر وغيرهما . فكلمة تق معناها في التركية العلم أو الراية فهو حامل الراية .

(٣) الجته وليس غته كما رسمها وايل خطأ) . هو علم كان يعرف به كل عرق كان يقطن حدود منغوليا . ولم يبق منهم اليوم الا البروت . ولا يزال هؤلاء المغول يعرفون حتى اليوم في آسيا الوسطى باسم جته مغول أو مغول الحدود ، نسبة الى كلمة جت التركية بمعنى الحد .

أخلص أتباعه ، ليقم الى جوار ابنه ناصحا له . ولنا أن ندرك هنا في سر أن تيمور، وهو الذي جعل سلوكه هنا على الدوام رهنا بسياسة تنظيم كل الوسائل لتحقيق هدف بعيد له ، لم يكن ليرضى على الخصوص بمنصبه كمؤدب للأمير مغولي ، فبدأ من فوره بمنازعة وزير ذلك الأمير ، ليغادر من بعد ذلك بلاط سمرقند في السر وينطلق في نفر من أتباعه الى الصحراء التي تمتد فيما بين خانية بخارى وخيسوه الحالية وبحر الخزر . وكانت هذه هي الفترة التي كان عليه أن يواجه فيها أقصى المحن ، في مجال مغامراته ، مواجهة شريد عليه أن يصبر على كل ما يلاقه من أخطار ومتاعب في قفار موحشة .

ويحكى تيمور ببساطة محبة في سيرته كيف أن زوجته الوفية أولجاي ومعهما الأمير حسن ، وكانا قد التقيا به في الصحراء ، ظلوا جميعا يضربون في القلاة شهرا بأكمله لا يجدون طعاما أو شرابا أكثر أوقاتهم حتى وقعوا آخر الأمر أسارى أحد التركمان ، وكيف حبس هذا التركماني زوجته المحبوبة في حظيرة مليئة بالحشرات . ولا مراء في أن هذه كانت تجربة قاسية لذلك الرجل الذي كان على نصف آسيا أن تخضع يوما لسلطانه . وفي نار تلك المحنة صهر تيمور (ومعناه الحديد) فخرج منها أساسا بتلك العزيمة الصلبة التي هيأت له ذلك المستقبل اللامع . وما ان تمكن هو وأصحابه من الهرب من الأسر حتى ذهب الى كش في السر ، فجمع من حوله بعض رفاقه القدامى في السلاح وأصحابه السابقين ، فتجول بهم قليلا حول شاطيء جيحون ثم أغاروا جميعا على سيستان ، ليصادفه من بعد ذلك التوفيق هناك حينما ما ويتخلى عنه حين آخر ، فتراه يستولى يوما على حصن من حصون البلوجيين ليردوه عنه من بعد في يوم آخر . وأصيب تيمور في إحدى وقائعه هذه بجرح في ساقه تخلف عنه عرجه طول حياته ، ومن ثم أطلق عليه الفرس اسم تيمورلنك أي تيمور الأعرج (١) . وفيما كان يقعد باصابته هذه استطاع رفيقه حسين أن

١- ان دعوى العالم العربي أحمد بن عربشاه ، وهي المبينة على الحق ، بأن تيمور كان أصلا من رعاة الغنم ، فضبط وهو يسرق بعضا منها وأصيب بضربة سببت له العرج طول حياته ، قد وجدت من بصدقها بين أعداء الغازي التتري الذين تمكنت عداوتهم له في أنفسهم .

يستولى على بلخ ، فتبعه تيمور الى هناك . وزاد عدد رجاله الى خمسمائة وألف فرأى أنه قادر بهم على الوقوف في وجه القوات التي بعث بها الياس خوجه لتطارده . ووقع أول لقاء بين الطرفين عام ٧٦٥/١٣٦٣ عند الشاطئ الأيسر ليجيئون بالقرب من كندز ، وانجلى عن انتصار تيمور انتصارا كاملا على قوات يزيد خمسة أضعاف على قواته ، وانسحاب رجال الياس خوجه الى الجانب الآخر من النهر . ومالبت تيمور على اثر ذلك أن انطلق يطارد الجته بلا هوادة ، كما أخرج الچغتائيين جميعا من بلاد ما وراء النهر . وساعده على تحقيق هدفه هذا بسهولة موت تغلق تيمور اذ ذاك ، وكان ابنه بدوره قد عبر سيحون وذهب الى الملقى ليستولى على عرش أبيه . وما ان ترك آخر أمراء المغول أراضي بلاد ما وراء النهر حتى دخل تيمور مدينة سمرقند فاستقبله أهلها استقبالا حافلا ، وفيها لحقت به زوجته ابان الاحتفالات التي تلت ذلك ، وكانت حتى ذلك الوقت تعيش مستورة . هكذا بات تيمور ويده مقاليد الأمور كلها وقد صار سيد بلاده . وكان في مقدوره أن يستولى على عرش سمرقند من فوره لولا ان رأى أن هناك من المصاعب ، مالا بد له من أن يتغلب عليه أولا ، ومن الأعداء من لا مناص له من استمالتهم الى صفه كذلك ، قبل أن يتمكن من تحقيق هدفه هذا . وبدا له أن حقد شائئيه عليه لا بد يزداد اذا ما اتخذ لنفسه لقب السلطنة ، فحسم هذا الأمر بأن عزم على أن يقيم عضوا من أعضاء الأسرة الحاكمة نفسها على عرش الچغتائيين الذي تركه الياس خواجه بلا وريث ، فدعى القرلتاي ونصب قابيلشاد سلطانا لينصرف من بعد ذلك يريد من فوره في قوته ونفوذه ويسير قدما في خطته لتحقيق أطماعه .

كان من المتوقع أن الجته سوف لا يرضون بأخراجهم من بلاد ما وراء النهر . والواقع أن تيمور لم يكد يقضى عطلة الشتاء في سمرقند حتى سمع بغارات جنود العدو يقودهم الياس خواجه ، فطير الخبر من فوره الى صديقه الأمير حسين الذي سار اليه بقوة كبيرة . وأقام تيمور مضاربه بين چيناس وطشقند ، في حين عبر حسين سيحون والتقى بالعدو وجها لوجه . وأفلح الجناح الأيمن ، وعليه تيمور ، أن يرد العدو ، في حين

كاد الجناح الأيسر وعليه الأمير حسين أن يغلب على أمره ، لولا أن تمكن
 تيمور بعبريته الحربية وهيمته من أن يحول دون الهزيمة القاضية . وأدى
 هذا الحادث الى وقوع جدال عنيف بين القائدين كان بداية نزاع انتهى
 بعد بضعة سنوات من القتال الى سقوط الأمير حسين وانفراد تيمور
 بالسلطان كله . وقد اضطر الجيشان المؤتلفان الى الانسحاب من
 قتال الجته بعد أن خسر ألفي قتيل في حربهما معهم . هنالك تراجع حسين
 الى قصبته ، سالى سراى على الجانب المقابل من جيحون ، فى حين عاد
 تيمور الى قارشى . أما الجته فقد تقدموا دون عائق صوب الجنوب
 فحاصروا سمرقند ، ولولا أن تفشى الوباء فى دوابهم حتى اضطروا الى
 النكوص على أعقابهم ، وهم يحملون متاعهم بأنفسهم ، لأعملوا السلب
 والنهب فى المدينة ، على رسم المغول بلا مراء .

ولو كان قد أتيح القيام بهجوم مشترك عند ذاك على هؤلاء الجته
 لكسرت شوكة المغول لأمد طويل ان لم يكن الى الأبد . ولكن وقوع
 الانقسام بين الزميلين السابقين قد نتج عنه هوة سحيقة وجد تيمور نفسه
 مضطرا معها الى محاربة حسين ومراقبة تحركات الجته فى الشمال بعين
 يقظة فى الوقت نفسه . وبرغم ما كان حسين يستطيع أن يجنده من قوات
 تفوق قوات خصمه ، اذ كانت أملاكه أعظم من أملاك تيمور وأتباعه أكثر
 عددا ، الا أن الشواهد تدل على أنه كان يقدر خطورة خصمه . فقد
 انطلق أول الأمر يخادعه بالدس والوقعة فى السر ، حتى اذا ما تبين له أن
 تيمور ليس بالرجل الذى يسهل ايقاعه فى شراكه ، سير الى آخر
 الأمر فرقا من جيشه وعليها قائده الأمير موسى لتعبر جيحون وتهاجمه .
 ورد الأمير موسى على كل حال ، ليزحف عند ذلك حسين من سالى سراى
 ويعبر جيحون بجيشه كله ويقيم مضاربه عند الشاطئ الآخر من النهر
 بسوضع يدعى بتيك جيكجك . وهال تيمور تفوق عدوه البالغ عليه
 فى العدد ، فارتد أولا الى قارشى ثم الى بخارى من بعد ذلك حتى
 يستوثق من مدى ما سوف يمد به حلفاؤه هناك من العون . على أنه
 ما لبث آخر الأمر أن أيقن بأن عونهم له لن يكفى فى دفع العدو .
 فاستقر رأيه عندئذ على أن ينحاشى قتاله ببلاد ما وراء النهر فى ذلك

الوقت وأن يتجنب طلبه له وذلك بالخروج الى غزو خراسان . هنالك زحف حسين من فوره الى بخارى ، وكان أهلها جميعا من التاجيك الذين يعرفون على اللدوام بجبنهم . وتقدم هؤلاء للقاء عدوهم . وبرغم ما كانوا عليه من حسن التسليح فسرعان ما أحاط بهم فرسان حسين ودحروهم في أول لقاء ، فلم يكن هناك من بعد ذلك قوة على وجه الأرض تستطيع أن تدفعهم الى الاشتباك مع عدوهم من جديد . وبهذا صار لخصم تيمور بلاد ما وراء النهر كلها تقريبا ، في حين أمضى تيمور نفسه الشتاء يعد العدة ، نشيطا ، للمعركة التالية ، لنجده من بعد ذلك يظهر في الربيع عند جيحون في طريقه الى طشقند في قوة متناهية في الصغر ولكن أفرادها من خيرة الجند الذين استطاعوا في مجموعة من العمليات الجريئة (وفيها برز ابنه الشجاع جهانكير في صورة رائعة) أن يشقوا طريقهم وسط جيش الأعداء عند قارشي وسمرقند . وكان تيمور يهدف من وراء ذهابه الى طشقند أن يستحث حليفه هناك ، كيخسرو ، وكان من بيت جلاير ، على مساعدته مساعدة جدية . وكتب له التوفيق في مسعاه هذا حتى زف ، كيخسرو ابنته الى ابن تيمور ، وأمدته بقوات استطاع بها أن يهزم خصمه ويرد قواته عبر جيحون ، ثم يطارده من بعد ذلك حتى سيحون ١ .

كان في انتصار تيمور هذا الكفاية ليلقن خصمه درسا قاسيا في حكمة التمسك بأهداب السلم . فضلا عن أن تحالفه مع بيت جلاير ، وهو من اتباع الجته ، قد ملأ قلب حسين برعب لا يقوم على غير أساس . هنالك بادر حسين بعرض الصلح على تيمور فتقبل عرضه بقبول حسن ورحب به . ذلك أنه هو نفسه لم يكن ليرتاح لرؤية الجته يزجون بأنفسهم في شئون بلاد ما وراء النهر بعد أن دخلوها بقوة السلاح ، أو لأن نفسه ،

(١) كان جيش حسين يبلغ اثني عشر ألف مقاتل وكان يحتوى بحصن قارشي . وقد هاجمه تيمور في ثلاثة وأربعين ومائتين من الرجال فحسب . وقد عبر هؤلاء الأبطال خندق الحصن في جنح الليل على قطعة من الخشب لا تتسع الا لثود واحد ، ثم تقدموا وتيمور على رأسهم فتسلقوا الأسوار وقتلوا الحراس ثم نجحوا من بعد ذلك في طرد الحامية منه .

كما يقول مؤرخوه ، قد طارت شماعا عند رؤيته المؤمنين يقتل بعضهم بعضا أو يسرق، بعضهم البعض الآخر . وأيا ما كان واقع الأمر فإن الصلح لم يعقد بين الدرفين فحسب ، بل أن تيمور قد بادر كذلك بعبور جيحون وأعان حسين على إخضاع أحد عماله الخارجين عليه في بدخشان . ولم تزل الرابطة تقوى بين الأميرين حتى رأيتاهما يسيران معا لغزو كابل ، وكان حسين يرغب ضمها الى ملكه . ومع هذا فإن السلام لم يدم بينهما طويلا . ذلك أن تيمور لم يكذب يغادر بدخشان ليدفع غزوا للجنه هددوا به مجرى سيحون الأعلى (وقد نجح في ذلك) حتى انطلق حسين ينفخ في الناس فتحرش بتيمور من جديد واضطره الى حربه . وفي هذه المرة لم يزحف تيمور على بلخ بمفرده ، فقد انضم اليه أهم اتباع حسين السابقين دفعهم الى ذلك — على حد قول شرف الدين — أنهم كانوا قد ضاقوا ذرعا بدسائس أميرهم التي لا تنتهي ، أو لأنهم ، وهو الغالب ، قد أغراهم صعود نجم تيمور المتزايد . وبرغم ذلك كله فقد قاوم حسين عدوه في اصرار بالغ فلم يستسلم له الا حين سقطت بلخ آخر معاقله . هنالك انحدر من اسوارها الى معسكر عدوه وتضرع اليه أن يبقى على حياته ، وقد أعلن اليه ، على حد قول ميرخوند ، عزمه على السير الى البيت الحرام ليزدرف هناك دموع الندم ويستغفر ربه عما اقترفه من ذنوب كثيرة . وأبى على تيمور كرمه الا أن يعفو عن أخى زوجه المحبوبة . غير أن من حوله لم يقروه على ذلك لفرط ما كان قد لحقهم من الاهانات على يديه حتى صمموا على قتله . ولهم يجد الطاح تيمور الكثير عليهم شيئا ، فاضطر آخر الأمر الى أن يسلم اليهم من كان رفيقا له في شبابه وصديقا ، هم غربا فاشلا من بعد ذلك فأُتزل من برج كان قد لجأ اليه آخر لحظة وسبق الى الموت عام ٧٧١/١٣٦٩ .

بهذا أصبح تيمور ولا مناقس له . فقد تم له بجذ السيف ابعاد كل أعدائه الخارجين عليه عند حدوده الشرقية بما فيهم الجته . وعلى هذا فقد جرى في خاطره ، بحق ، أن الوقت قد حان لينهى ذلك الحكم الاسمى الذى كانت تمارسه تلك الدمية التي كانت مجرد سلطان صوري ، وأن يضع على مفرقه تاج بلاد ما وراء النهر الذى كسبه بشق النفس .

وكما تظاهر نادر (١) ، من بعد ذلك ببضعة قرون، بقدر من القصد والحياء الشرقى المصطنع قبل أن يتقلد التاج ، — وهو الذى كانت سيرته أشبه بسيرة تيمور — فكذلك لم يرض تيمور لنفسه أن يرقى الى أرفع منصب دون تثبيت القرلتاي له فى ذلك . وضم هذا المجلس ، حين عقده ببلخ لهذا الغرض ، أعيان الدولة الجغتائية السابقة مع أقران تيمور فى السلاح ورفاقه فى شبابه ، ومعهم شائئوه السابقون . ويذكر المؤرخ ، من بين هذه الأسماء البارزة ، الأمير شيخ محمد بايان ، من بيت سولدق والأمير الجايتو (٢) ، والأمير كيخسرو من بيت ختلان ، والأمير داود من قبيلة دوغلات ، والأمير سربغاى من بيت جلاير والأمير جاكو من قبيلة برلاس ، والأمير زنده هشم وغيرهم من المشهورين (٣) . وعلى الرسم التركى القديم أجلس تيمور على لباد أبيض بمكان مرتفع . وبعد أن حمد الله وأثنى على نبيه واعظه السيد بركه ، نودى به أميراً على بلاد ماوراء النهر فى العاشر من رمضان عام ٧٧١/٨ أبريل ١٣٦٩ . هنالك فرق تيمور العطايا الفاخرة فى أتباعه الذين كان قد كسبهم لصفه برفقه وتسامحه ، وفى كثيرين كذلك ممن كانوا يعادونه . حتى اذا ما تم له تثبيت سلطانه على هذا الجانب من جيحون ، عبر النهر الى سمرقند فاتخذها حاضرة له . وظلت هذه المدينة ، منذ ذلك الوقت حتى وفاته ، منتجة ومستراحة بعد متاعب الحروب العديدة التى خاض عمارها . واليها كانت تحمل الأسلاب العظيمة والأموال الطائلة التى سقطت بأيديه فى بلاد آسيا المختلفة العديدة . وأول ما اتجه اليه تيمور بعد أن أمسك بأعنة الحكم هو محاولة اقرار الأمور من جديد فى ذلك الاقليم الذى كان يعمه الفوضى . وكان تيمور برغم غيرته الاسلامية البالغة ، يعجب أشد الاعجاب بمجموعة قوانين چنكيز . وهذه ، وهى نتاج تورانى سياسى بارع ، كانت بلا مراة

(١) هو نادر الافشارى شاه ايران الذى خلف الصفويين (المترجم)

(٢) لا أستطيع أن أعلل قراءة دولاكرو Petit de la Croix لهذا الاسم على أنه أولاجى ايتو *

(٣) كان من بين هؤلاء زنده هشم أمير شبورغان ، وكان قد ثار مرات عديدة فى وجه تيمور ولكنه أخضعه ، وبلغ بما لقيه من المعاملة الكريمة الى أن صار من أخلص أتباعه .

أصلح لأحوال الشعوب التركية التترية من تلك القوانين السامية الخالصة المستمدة من القرآن والسنة . ومن هنا نستطيع أن ندرك بسهولة كيف حرص تيمور حرصا بالغاً على التمسك بالياصا تمسكا شديدا وأصر عليها برغم معارضة شيوخ المسلمين في ذلك (١) . كما نقل بأمانة كل قوانين الفاتح المغولية الخاصة بالنظم العسكرية في البلاد واحتفظ بالرتب العسكرية المغولية كرتبة تومان أغاسى (قائد عشرة الآلاف) ويوزباشى (قائد المائة) وأونباشى (قائد العشرة) .

أما نظام الحكومة فقد بقى على حاله اللهم الا قوانين المكوس فقد عدلت على وجه يوائم الى حد ما نص عليه الشرع الاسلامى . وأما القواعد التى كان يجرى على أساسها منح الرتب فقد اقتبست هى ومراسم البلاط الى درجة كبيرة مما كان الحال يجرى عليه عند الأسر الحاكمة الأولى وعلى رأسها السلاجقة والخوارزمشاهية . فعن الخوارزمشاهية أخذت رتبة بكهربكى ، أى أمير الأمراء ، وهى تعادل فى العصر الحديث رتبة المشير ، وشارتها علم أحمر طويل . أما رتبة تومان أغاسى ، فشارتها « انتوك » وهو رمح طويل بطرفه ذيل حصان ، ورتبة يوزباشى وشارتها طبلتان من طبول الموسيقى يحملها تابعه (٢) على جانبى سرجه . وكان الموظفون المدينون يلزمون ، أثناء اضطلاعهم بواجباتهم ، بمعاملة الأهلىين بالعدل والانصاف مع رعاية مصالح التجارة كذلك .

(١) يتهم ابن عربشاه بوجه خاص تيمور بدون حن بأنه جعل الياصا فوق القرآن . فالمعروف أن التشريعات الاسلامية تصلح لحكومة دينية أكثر مما تصلح لحكومة عسكرية، فلا مجال لها بذلك مع الياصا فى الغالب (المؤلف) هذا القول يجانب الصواب ، وكان الأحرى بالمؤلف أن يرجع أولا الى تاريخ الفتوحات الاسلامية التى دوخ بها العرب بنظمهم الفرس والروم . ومع هذا فقواعد الباصا الأساسية لا ينكرها الاسلام فى أغلبها . والمعروف كذلك أن الاسلام ، وهو دين وحكم ومدنية ، قد أبقى على كثير من النظم التى وجدها بالبلاد التى فتحها وأخذ بها . (المترجم) .

٢ - نزال هذه الرسوم تقوم حتى اليوم . ولا يظهر أى فرد من بين كبار أصحاب الرتب من الأوزبك بالميدان أو يسرح الا و قدمه تابسه بلى طبوله .

وكان على القواد أن يحرسوا بدقة على سلامة رجالهم . وكان على كل فارس أن يجهز بفارسين قوين وقوس وجعبة مليئة بالسهم وسيف ومنشار وفأس من قفوس الحرب وخيوط مع عشر من المسال . وكانت الخيام تعد في الميدان بحيث تتسع الواحدة منها لثمانية عشر رجلا . ويفرض كذلك في كل ضابط أن يكون ملما بقواعد أساسية بعينها للتكتيكات الحربية . ولا يزال هذا النظام يلزم به اليوم كل فارس أوزبكي أو قائد تركماني في تعليمه (١) .

أما الجندي العادي فكان يلزم بالطاعة التامة لرؤسائه . وكان عليه أن يندفع بحماس في القتال ، على أن يعامل عدوه بلطف اذا ما استسلم اليه واسترحمه . وفي الجملة كان الجندي التيموري أبعد ما يكون عما وصفه به أعداء تيمور بأنه كان مجرد غول شرس . وعلى ما ورد في تروكات تيمور لم تكن الادارة المدنية لهذه البلاد أقل احكاما ونظاما عن الادارة العسكرية . فكان على رأس هذه الادارة ديوان ييكي (كبير الحجاب) يعاونه ارزيكي (الحجاب) وأربعة من الحجاب . وكان أحد هؤلاء الوزراء يوكل به شئون الخراج والكوس والشرطة . أما الثاني فكان يناط به أمر مدفوعات الجند وتموينهم ، في حين كان يختص الثالث بسجلات واحصائيات الجيش والموارث ، والرابع بنفقات البلاط السلطاني . وكان كبار الموظفين يوكل بهم تنفيذ القوانين وجمع الخراج في رفق بالناس ما وسعهم ذلك . والمفروض أن استخدام السوط كان ممنوعا منعا باتا ، حتى لنرى تيمور يقول ان الحاكم الذي يهاب الناس سوطه أكثر من شخصه غير جدير بمنصبه .

ولم تكن إعادة تنظيم حكومة بلاد ماوراء النهر بالأمر اليسير ، وهي التي مضى عليها أكثر من قرن في فوضى شاملة . وكان من الطبيعي أن يجري هذا الاصلاح بالتدريج . على أن تيمور كان قد اتجه منذ البداية

١ - جرى الرسم على أنه حين كان يعطى البيلوي الشاب خيمة خاصة به أي حين يبلغ رشده ، كان يمثل أولا امام جمعية من اعيان القوم فيختبرونه في المسائل التي تتعلق بالعقيدة والاداب وثريية الماشية أو القروسية أو يلقي هو بحديث في ذلك كله

الى اشباع نهمه فى الفتوح ، وهدف الى مد حدوده كما هدف فى الوقف نفسه الى اقرار الأمور الداخلية فى دولته . وقد اضطر أول الأمر بطبيعة الحال الى أن يكفى نفسه خطر أشد أعدائه وهم الجتة ، وكانوا لا يزالون ولهم نفوذهم فى موطنهم القديم حتى لم يكن ليستبعد منهم أبداً أن يقدّموا على غزو بلاد ما وراء النهر من جديد . وبأدبرهم تيمور نفسه بالهجوم ، فما أن ظهر بينهم عام ٧٧٢/١٣٧٠ حتى استسلموا له طواعية ، ليعود من بعد ذلك الى سمرقند . وما غدا كبك تيمور أميرهم الجديد أن شق عصا الطاعة من جديد على كل حال . وبرغم أن الجيش الذى بعثته سمرقند كان قد أفلح فى قمع هذه الفتنة ، الا أن تيمور لم يقتنع بنصر قائده حتى خاض بنفسه غمار حرب جديدة مع أعدائه القدماء ، فاجتاح منازلهم وأعمل السلب والحريق فيها يمينا وشمالا ، ثم عاد آخر الأمر الى موطنه محملا بالغنائم وفى ركابه عدد عظيم من الأسرى .

وما أن انقضى على ذلك أربع سنوات حتى جسع قمر الدين أمير الجتة جيشا كبيرا من جديد عند كوك تيه ، فخرج اليه تيمور فى جيش كثيف بدوره . ودارت الدائرة على الجتة ، وفر قمر الدين من الميدان تاركا متاعه وحريمه وفيهم ابنته الحسنة دلشاد أغا ، فوقع ذلك كله بأيدي الفاتح المنتصر . وبنى تيمور بهذه الابنة على أمل أن تؤدى تلك المصاهرة الى انضمام عدوه له . ولكنه لم يبلغ بذلك الى ما كان يرمى اليه وهو ضم القسم الشرقى من دولة چغتاي السابقة اليه ، حتى وقعت حرب خامسة هزم فيها قبر الدين هزيمة حاسمة اضطر على اثرها الى الفرار من هذه البلاد الى غير رجعة . وقد وقع ذلك آخر عام ٧٧٨/١٣٧٦ .

وفيما كانت الحوادث تجرى بما سبق ذكره كان بطلنا يتجه بتفكيره كذلك الى ناحية أخرى هى خوارزم . فسلوك بازائها سياسة عدائية أدت الى وقوع الحرب معها . فقد ادعى بغير حق (١) أن كت وخیووک (٢)، بل

(١) اخطأ كتاب سير تيمور ومعهم وابل فى كتابه عن تاريخ الخلافة بان ص ٢٣ ، فى اعتبار خوارزم من بين أملاك الجغتائيين . ذلك أن خانية خيوه كانت فى زمن المغول تعد جزءا قائما بذاته فى ملك جوجى
(٢) كانت خيوه تعرف فى القديم باسم خيووک ، وهو لفظ من أصل تركى كان غير معروف زمن السلاجقة .

وبالحقيقة كل خوارزم كانت فيما مضى جزءا قائما بذاته في أملاك
 الچغتائيين الموروثة ، وعلى هذا فان أميرها حسين صوفى ، — وكان من
 قبيلة قنغرات — يلزم بدفع الخراج له . وأوفد تيمور الى هذا الأمير أول
 الأمر تواجى (١) علقمة ليؤكد له باسمه صحة دعواه هذه. ولكن حسين رد
 عليه بأنه انما استولى على هذا الاقليم بسيفه ، فهو بهذا لن يتخلى عنه
 الا بقوة السلاح . ولم يعوق تيمور عند ذلك عن غزو خوارزم لفوره الا
 توسط الشيخ جلال الدين ، وكان من أعيان كش ، فى محاولة جديدة
 لحل هذه المسألة سلميا . وفشل الشيخ فى وساطته هذه على كل حال
 كما فشلت وساطة له من قبل ، ليزحف عند ذلك تيمور الى خوارزم فى
 ربيع عام ٧٧٣/١٣٧١ بجيش كبير . ووفد اليه وهو على أهبة الرحيل
 رسل أمير هراة الجديد لتعلن ولاءها باسم هذا الأمير وتقدم اليه ، فيما
 قدمت من الهدايا ، فرس الحرب ذائع الصيت كنع أوغلان (الرفيق
 الأسمر) الذى تغنى بذكره الكتاب الشرقيون . وسلك تيمور فى زحفه
 بطريق بخارى ثم عبر الصحراء عند كت (قريبا من هزاراسب) . وقد
 استولى على هذا المكان بعد حصار شديد ، ثم انطلق من بعد ذلك الى
 خوارزم ، حصن حسين صوفى . وبرغم دفاع كيخسرو أمير ختلان فقد
 سقط ذلك الموضع بعد معركة فى السهل هزم فيها الخوارزميون . ومات
 حسين ابان الحصار فنارح أخوه يوسف صوفى الى طلب الصلح وقد
 راقه فى الغالب أن طلب تيمور يد ابنة أخيه الأميرة الجميلة سيوين (٢) لابنه
 جهانكبير ، وذلك تدعيما لما قام بينهما من تحالف . وأجاب يوسف خصمه
 الى ما طلب عن رضا وسرور ، وبهذا صار فى مقدور تيمور أن يستدير
 عائدا الى وطنه وهو قرير العين بما حقق من نتائج ومكاسب . على أنه
 لم يكد يشرع فى العودة حتى رأينا يوسف ، بتشجيع من الغادر كيخسرو ،

(١) هو فى الأصل نباحي (وليس تويجى كما قرأه هامر وغيره خطأ)
 وهو لقب العامل المنوط به شؤون التعبئة ، وهو مشتق من المصدر التركى
 تيمك = أن يجد .
 (٢) وتنطق فى التركية الحديثة ، سويون ، بالامالة ، معناها الجميل
 أو اللطيف .

لا يرفض الوفاء بوعده بخصوص المصاهرة فحسب ، بل ويثور كذلك في وجه تيمور . هنالك اضطر تيمور الى حربه مرة ثانية عام ١٣٧٢/٧٧٤ ، وانتهت هذه الحرب بانتصار تيمور كذلك .

وتبع ذلك أن زفت الأميرة آخر الأمر الى ابنه ، وقد أتت معها بأثاث فاخر . واحتفل بالزفاف في سمرقند احتفالا فخما . ولكن الأجل لم يطل بالأمير جهانكيز من بعد ذلك الا عامين ، كما لم تستمر الهدنة بدورها بين الفريقين الا قليلا . هنالك اضطر تيمور الى أن يخوض غمار حرب ثالثة ثم رابعة مع خوارزم . وفي المعركة الرابعة نادى يوسف بفكرة غريبة مفادها أن يتبارز هو وتيمور على انفراد فيوفر بذلك وقوع الصدام بين الجيشين ، فكتب في ذلك الى خصمه يتساءل الى متى تظل الدنيا كلها تغرق في الآلام والبؤس بسبب رجلين ، وأن من صالح الإنسانية ومصلحة بلديهما بالتالي أن يتلاقيا وجها لوجه منفردين ويجربا حظهما معا ، على حد قول القائل :

حين تخضب سيوفنا بالدماء

فالسعيد من سوفه يكتب له البقاء .

وقد سر تيمور بهذا الاقتراح أيما سرور . وبرغم معارضة سيف الدين برلاس (١) له في تمريض حياته الغالية للخطر، فقد كان هو أول من برز للقاء خصمه وأخذ يناديه بصوت عال ليخرج اليه . لكن يوسف لم يظهر له أثر اذ ركبه الذعر والوجل وندم على اقتراحه . وآثر يوسف القتال بجنده في المعركة فهزم ، ومات بحصن خوارزم عام ١٣٧٩/٧٨١ في نفس الوقت الذي كان فيه تيمور يحاصره . ووقع بأيدي الفاتح هناك كنوز طائلة نقلها الى كس . وحمل معه كذلك كثيرا من مهرة الصنائع

(١) نسي تيمور نفسه عند ذلك لفرط تحمسه حتى شتم في ذلك السيخ سيف الدين برلاس وعنه على اعتراضه اذ عد ذلك تطاولا منه عليه وشكا في شجاعته .

وأرباب الحرف ، وعددا كبيرا من العلماء ، كما شيد هناك قصرا تذكارا لاتصاراته هذه . ثم أمضى الشتاء من بعد ذلك في حضرته طلبا للراحة من عناء العمل وأخذ في الاستجمام والاستمتاع بها .

وبرغم أن خصوم تيمور وصهره الأمير حسين والجنة المبعدين عند حدوده الشمالية الشرقية قد تتطلب منه اخضاعهم همة بالغة واستنفد جهودا طائلة، فقد كان عليه مع ذلك أن يتحمل مزيدا من المشاق حتى تم له اخضاع أعدائه في خوارزم الغربية . ذلك أن الأخوين الصوفيين كانا ، الى جانب مواردهما الكثيرة ، يستطيعان الاعتماد على عون خانات القبيچاق لهما ، وبالخصوص على عون حكام « القبيلة الذهبية » وهو الاسم الذي كانت تعرف به دولة جوجي عادة . وكان حكام خوارزم قد تحالفوا مع حكام سراي على تيمور منذ زمن طويل ، فكان في سقوط الخوارزميين النذير الأكبر لحلفائهم . ولم يكن تيمور ، بعد أن عاد مظفرا من خوارزم وقد بانت آسيا الوسطى كلها تخضع لسلطانه ، ليعسر عليه أن يدرك آخر الأمر أن هذه البلاد التي تقع على شواطئ سيحون وجيخون غدت لا تكفي أطماعه ، وأنه قد بات وفي مكنته أن يرسم في سر خطا چنكيز الذي كان يرى فيه مثلا أعلى في الحرب . وما يمنع هذا المحارب ، وهاهو ذا الحظ يحالفه في كل خطاه ، أن يطمح الى دور « فاتح العالم » وهو الذي أخضع كل توران له . ولو كان ذبوع عبقرية الحرية لم يؤلب عليه أعداءه وحساده ، فانه لم يكن على كل حال ليعدم سببا يبرر به اعتداءاته ، حتى لتراه في ترجمة حياته لا يفتأ يردد قول الشاعر : « اذا كان هناك رب واحد فحسب فكذاك يجب أن لا يكون هناك الا سلطان واحد . وما تكون الدنيا بأسرها بالقياس الى طموح أمير عظيم ! » بل اننا لنجده كذلك يقول في سيرته « في كل اقليم يسود العسف والظلم ، يصبح من واجب كل أمير كائنا من كان أن يقتل أرباب الفتن ويعزو هذا الاقليم وذلك لصالح السلام العام والأمن . وعلى كل أمير مظفر أن يخلص الناس من الذين يستبدون بهم ، وهذا هو الذي دفعني الى فتح خراسان والى تخلص ممالك فارس والعراق والشام (دمشق) من الفوضى التي كانت تسودها » . وما كان تيمور ليلبغ درجة غزاة العالم لولا ما كان له

من عبقرية عسكرية لاتنكر الى جانب مواهبه الشخصية الغالية . هذا بالإضافة الى ما تهيأ له من جيش ثابت حسن التدريب ، أفراد على الطاعة العمياء وقواده على أعلى درجات الكفاية . وكان أكثر الجند الذين ساروا تحت راياته هم أنفسهم الذين كانوا معه أول حياته فحاضوا معه مغامراته الخطرة يوم كانت الأيام تتقلب عليه .

وكان قوادهم من أمثال جهانكير برلاس وسيف الدين برلاس وآقبا وعثمان عباس ومحمد سلطان شاه وقمارى وتبان بهادر وأوروس بغا وپير حسين برلاس وحمزة ابن الأمير موسى ومحمد فزعان وسريك أتكه ومظفر اوچقرا ، ممن برهنوا على مالهم من كفاية حرية سواء حين كانوا يحاربون في صفه أو حين كانوا يناصبونه العداء . على أن أهم ظرفين مهدا له بلوغ غايته هما :

أولا : حالة الفوضى التي كانت تسود آسيا .

ثانيا : الروح الحرية القوية التي كانت تسود تركستان .

هذا وكانت آخر آثار الوحدة القومية قد اختفت هناك بانهيار قوة المغول وتفكك ذلك الاقليم كله الى امارات عدة أصحابها أبعد ما يكون عن أن تقوم الألفة بينهم ، متحاربون فيما بينهم بأشد قسوة وعداء . وفي مثل هذه الأحوال كان ليد قوية مثل يد تيمور ، يظاهرها روح جسور وطالع سعيد ، أن تأمل في بناء تلك الدولة التي امتدت من نهر ارتش (بسبيريا) الى الكنج ومن صحراء جوبى الى بحر مرمة .

لقد أحطنا تامة بفعال تيمور في موطنه اذ كانت هذه على اتصال مباشر بموضوعنا في الأكثر . أما حروبه الخارجية فسوف نتعرض لها بغير تطويل ، وان كانت هي في حد ذاتها جديرة بالتفصيل بوصفها قوام أزهر حقبة في تاريخ بلاد ما وراء النهر . ذلك أن المنهج الذي التزمناه في كتابنا هذا يجعلنا نكتفى بأن نحصى نتائج هذه الحروب دون أن نتعرض لتفصيل وقائعها وحوادثها . وهذه ، على كل حال ، تضمنها

مؤلفات هي اليوم في متناول أيدي الشعوب الأوروبية منذ زمن طويل (١) .

كانت أولى فتوحات تيمور ، فيما وراء حدود آسيا الوسطى ، هي عند الشمال ، في بلاد خلفاء جوجي . ويمكن أن يقال ان أصحاب هذه البلاد قد جلبوا على أنفسهم سيف الغازي بتلك الفتنة العمياء التي أدت الى قيام الحرب الأهلية فيما بينهم .

فقد حدث أن لاذ بتيمور عام ٧٧٧/١٢٧٥ ، وهو في حربه مع الجنة ، الأمير تختش (٢) بعد أن طرده عن عرش آبائه هناك الأمير المخوف أوروس خان . وصادف اضطراب الأمور في هذا الاقليم هوى في نفس تيمور ولازم أغراضه أتم ملاءمة ، فاستقبل تختش بحفاوة بالغة وصحبه معه الى سمرقند بعد أن غسره بهداياه ، ثم عهد اليه من بعد ذلك بحكومة أترار وسربان ، وهما ولايتان في تركستان الحالية ، فصار بذلك في وضع

(١) من بين سير تيمور الى غدت في متناول القراء الأوروبيين ما يأتي:
أولا : الترجمة الفرنسية للكتاب الفارسي الذي ألفه شرف الدين يزدى .
وبرغم تحيز المؤلف الظاهر لهذا الغازي التتري فإن كتابه يحوى أوسع التفاصيل عن حياة تيمور وفعاله ، وقد نقله الى الفرنسية نقلا غير دقيق لسوء الحظ Petis de la Croix ونشره عام ١٧٧٢ . نانيا : الترجمة الانجليزية لرواية ميرخوند عن حياة تيمور وقد قام بها دافيد برايس D. Price ونشرها عام ١٨٢١ في كتابه Mohammedan History وليس كتاب ميرخوند في ذلك الا صورة لما ورد عند شرف الدين على كل حال . نالنا : هامر في كتابه عن تاريخ الدولة العثمانية Hammer, History of the Ottoman Empire رابعا : مالكولم في كتابه عن تاريخ الفرس Malcolm, History of Persia خامسا : وايل في كتابه عن الخلافة العباسية في مصر Khalifate of the Abbasides in Egypt سادسا وأخيرا : دوهير بيلون في المكتبة الشرقية D Herbelot, Bibliothèque Orientale.

(٢) ولمس نوهشمس كما ذكره كثيرون ممن سبقوني نقلا عن الرسم العربي والفارسي الخطيء . وتختش لفظ جغتائي حديث يقابل لفظ منعكرو القديم ومعناه ، الخالد أو الباقي . هذا وكان ممن صحبوني في رحلتى بأواسط آسيا حاج من خوفند دفعت به تقواه الى أن يبدل اسم ابنه ، وهو تخنا ، باللفظ العربي المقابل له وهو (باق)

يستطيع به أن يدفع عن نفسه خصمه القديم ، وكان قد سير في أثره ابنه الأكبر توخته كايا بجيش ليطارده . ولم يحالف الحظ تختمش على كل حال ، فقد أصيب بالهزيمة بعد محاولتين فاشلتين له ، واضطر على أثر ذلك الى أن يلوذ بتيemor للمرة الثالثة فقدم اليه جريحا ممزق الثياب . هنالك رأى تيمور أن واجب الضيافة يقضى عليه أن يسير الى حرب أوروس خان بنفسه . على أن البرد والرطوبة في الصحراء الموحشة منعا لقاء الجيشين حتى اضطرأ أن يقيما هناك أشهرا متواجهين دون أن يستطيعا القيام بأى حركة .

وخرج تيسور الى خصمه فى الربيع التالى عام ١٣٧٦/٧٧٨ ، اكراما لضيافته ، فواتته الظروف هذه المرة وتم له القضاء على أوروس خان وابنه توخته كايا . وبهذا لم بعد ينافس تختمش الا تيمور ملك ابن أوروس الأصغر . ومن الواضح أن هذا الأمير لم يكن يستطيع أن يقف أمام جيوش أعدائه المتحدة ، وقد هزمه تيسور بالفعل عند قراتال وأسره ثم قتله . هنالك ثبت تختمش أقدامه من جديد فى بلاده ثم انطلق من بعد ذلك بقواته فاستولى على كل خانية القبجاق وأخضع المامائ ثم اندفع من بعد ذلك فى داخل روسيا حتى بلغ موسكو فأحرقها عام ١٣٨٤/٧٨٦ وتركها رمادا . وأسكره ما أحرز من نجاح فتأسى أيادى تيمور السابقة عليه وأراد أن يجعل من نفسه فاتحا للعالم ، فعزا عام ١٣٨٧/٧٨٩ تهاوى قزوين الغريبة وأسرع من هناك فهاجم تيمور نفسه (١) وكان منهمكا اذ ذاك فى فتح اقليم آذربيجان . هنالك أسرع ميراثشاه بن تيمور فعبر نهر كور اليه ورد مقدمة جيشه . وحين رأى تيمور خصمه يرتد فى ذعر بالغ آثر أن يعالج المسألة ببساطة ورضى بالصلح معه على القول المأثور «الفتنة

(١) يسير هامر - بورجستال فى كتابه عن تاريخ القبيلة الذهبية ص ٣٤٠ الى أن السبب الأول لقيام العداء بين تختمش وتيمور هو مقتل الأمير حسين حفيد قزغان (وليس اسفغان) وهو أمير من بيت جفتاي وينسب هامر وجنابى الذى نقل عنه أن الأمير قزغان لم يكن جفتائيا على الاطلاق بل هو تركى عدو للمغول .

نائمة لعن الله من أيقظها» (١) . ولم يعمد تيمور الى ذلك الا ليرتقب فرصة تواتيه من بعد ذلك ينفس فيها عن استيائه ، وقد واثته هذه من بعد ذلك بعامين . ففي شتاء عام ١٣٨٩/٧٩١ ، والثلج يغطي الأرض بطبقة كثيفة تغوص فيها أطراف الخيل ، بارح تيمور سمرقند ليلتقى بتختمش ، وكان فد هاجم حدوده الشمالية ، فهزمه شر هزيمة عند شواطئ سيحون ، ثم أنزل به من بعد ذلك ضربة أخرى في الربيع التالي عند الشاطئ الأقصى لذلك النهر. ولم تطفئ هاتان الواقعتان من ظمأ تيمور للانتقام ، فخرج من جديد شتاء عام ١٣٩١/٧٩٣ على رأس جيش كبير تام الاعداد ليهاجم تختمش في بلاده نفسها .

ولاقى الخيول النصب بسيرها ومناوراتها طوال شهور ستة عبر سهوب جنوب سيبيريا الجرداء. ولم يكن سير الجيش فوق هذه الأراضي شديدة الانبساط تامة الاستواء ، في مشقته ونصبه دون الحملات المشهورة عبر الجبال العالية (٢) . وظل هؤلاء الجند وقد نال منهم الجوع والتعب يذرعون الأرض كلها طلبا لعدوهم حتى التقوا به آخر الأمر في شهر مايو عند شواطئ يايك (اورال) الخضراء . هنالك قامت عدة مناوشات مشيرة بين الفرسان من الفريقين ، وتحارب الجيشان آخر الأمر معا بشجاعة لثلاثة أيام ركب فيها الفريقان الهول حتى غدر بتختمش رجاله في النهاية فهزم ولجأ الى الفرار . وقد جد تيمور في أثره بداخل روسيا حتى قيل انه بلغ في مطاردته له مدينة موسكو .

وَأدرك أهل هذه المدينة ، كما يلاحظ جيون بحق ، أن حماية أيقونه العذراء المعجزة لهم لن تفيدهم في كثير ، فذهبوا ، في حذر وفطنة ،

(١) أخطأ المؤلف حين حسب هذا الأثر من آي الذكر الحكيم (المترجم)

(٢) لم يكن على جيش تيمور أن يواجه جوا بالغ القسوة فحسب ، بل كان عليه كذلك أن يفاسي الجوع والحرمان من كل وسائل الراحة . فقد انقصت جراية الجندي في اليوم الواحد الى فنجان واحد من الحساء الحمصي ، وقد اضطر تيمور آخر الأمر الى وقف زحفه وأخذ ينظم حملات للصييد على نطاق واسع أفادت الى حد ما في تلطيف حدة الجوع وعساونت بذلك على معاودة الزحف من جديد .

يتوددون الى بطل بلاد ما وراء النهر . وعاد تيمور الى وطنه بعد هذه الحملة التي استغرقت احد عشر شهرا ، ومعه عدد كبير من الأسرى (وفيهم أسرة خصمه ونساؤه) وكل كنوز الشمال وجواهره ، فخورا بأنه قد أصبح ينطوى تحت لوائه قسمان من أهم أقسام مملكة چنكيزخان السابقة ، فلم يبق منها ما هو خارج عن سلطانه الا القسم الثالث وهو الذي بحوى ابران والعراق وجزءا من الهند . وها هو ذا قد اطمأن كل الاطمئنان الى استقرار الأحوال عند حدوده الشمالية ، وبهذا رأى أن قد آن الأوان ليووجه كل اهتمامه صوب الغرب .

كان تيمور قد بدأ فعلا فى فتح الأقاليم التي تتكلم الفارسية (أى خراسان وايران) قبل أن يتم اخضاع تختمش بوقت طويل . فقد سير ابنه ميرانشاه ميرزا عام ٧٨٢/١٣٨٠ وبصحبه نفر من القواد الأكفاء لفتح خراسان ثم لحق به هو بنفسه بعد قليل سالكا الطريق الذى مهد له ابنه المقدم . وهناك كان على الغازى الكبير أن يواجه أسرتين حاكستين منفصلتين . ففى الشمال كانت تحكم أسرة سربدار (١) ، وكان قد قام بينها وبين تيمور نوع من الصداقة أيام كانت تحيط به المتاعب والضيق . وقد استسلم أفرادها له دون مقاومة . أما الجنوب فقد كان يحكمه أسرة كرت (الذى ذكرناه من قبل) وكان قد سبق لتيمور حربها فى شيابه . ولم تر هذه أن تحسم الأمر مع تيمور سلما ، فقد آثر عميدها غياث الدين پير على أن يعتشد على سيفه دون شهامة تيمور ورحابة صدره ، فانطلق بهمة

(١) هذه الأسرة ، التي استولت على خراسان الشمالية الشرقية بعد سقوط المغول ، كان أفرادها قد قدموا من العراق . وهم نسل من يدعى شهاب الدين الذى ينتسب من ناحية ابيه الى الامام الحسين ومن ناحية امه الى خالد اليرمكى . وكان لشهاب الدين هذا خمسة أبناء هم امير الدين وعبد الرازق ووسيط الدين وناصر الدين وشمس الدين . ولم يغم حكم هذه الأسرة بخراسان الا لمدة خمسة وثلاثين عاما واشتهر من بين أعضائها: ١ - عبد الرازق وحكم عاما واحدا وشهرين ، ٢ - مسعود وحكم سبعة أعوام ، ٣ - شمس الدين ٤ - توغان تيمور - ٥ - كسب حيدر ، ٦ - يحيى كرتى ، ٧ - حسن دامغانى ، وأخيرا مؤيد عبد الرازق الذى استسلم لتيمور طواعية .

يدافع عن أراضيها التي كانت تمتد اذ ذاك من جبال الهندكوش في الشرق ومرغاب في الشمال حتى الاقليم الصحراوي عند شاهرود .
على أن جهوده كلها باءت بالفشل . فقد سقطت حاضرت هراة بعد مقاومة عنيفة ، أما المدن الأخرى مثل كبوشان وطوس ونيسابور وسبازور ، وهى جميعا من مراكز العلوم والفنون المشهورة ، فقد فتح أبوابها للغزاة اذ آثر أهلها أن يجعل تيمور منها مراكز لحامياته على أن يحلها الدمار الى خرائب . وهكذا استسلم للغزاة بلاد الأفغان وبلوخستان وسيستان فضلا عن خراسان ، وبهذا وجد نفسه عام ٧٨٨ / ١٣٨٦ وقد أصبح مطلق اليدين ، لينجيه من بعد ذلك الى العراق وبلاد فارس الأصلية .

كان يحكم اذ ذاك بساطق ايران سالفه الذكر أسرتان منفصلتان ، فالأجزاء الجنوبية ، وهى فارس وأصفهان كان يحكمها آل المظفر ، فى حين كان الإبلخانيون يسيطرون على العراق وأذربيجان . وأدت بشاه شجاع ، عميد الأسرة الأولى ، حكته الى أن بجنب أبناء الأراضى الجنوبية المرفهين لقاء جنود بلاد ما وراء النهر الأشداء فاستسلم لتيمور من تلقاء نفسه . وقوى من رباط السلم بين الفريقين زفاف ابنة شاه شجاع الى الأمير پير محمد ، ابن جهانكير الراحل . أما السلطان أحمد ، ابن الشيخ عويس جلاير ، فلم يرض بما ذهب اليه شاه شجاع ، اذ وقر فى ذهنه أن فرسان الأكراد ومحاربى آذربيجان كفيلون بالوقوف فى وجه هجوم قوات تيمور فأقبل على الحرب . وانهالت عليه ضربات منذ البداية حتى اضطر الى ترك عاصته القوية الحصينة سلطانية الى بغداد ، فى حين عبر عدوه المنتصر نهر أراكس فجثا تحت قدميه كل القوقاز الشرقى بضربة واحدة ودخل مدن نخجوان ولريوان ونفليس وشروان فاتحا .

، واضطرت جيلان بدورها الى الخضوع . برغم مناعة موقعها وبرغم ما كان يحيط بها من مستنقعات عميقة وأحراش فطرية كثيفة ، كما حمد تيمورس أمير أرمينية ، بعد سقوط حصنه . وإن المشهور ، لسلطان الشرق الأقصى المهاب أن تركه على بلاده تابعا له .

كانت أسرة القره قيونلو (الخروف الأسود) وأصفهان البلد الثائر ،
 هما وحدهما اللذان تعرضا لسيخط الفاتح التترى فى هذه الحملة . فقد
 فتدت هذه الأسرة أقوى حصنين لها وهما: حصن أخلاط وحصن عادل
 جواز .

أما اصفهان فقد أهلك تيمور من أهلها سبعين ألفا لقتلهم ثلاثة آلاف
 من جنده غدرا (١) . وماذت هذه المذبحة الشنيعة بالرعب نفس زين الدين
 ابن الشاه شجاع حتى عدل عما كان ينتويه من خلع نير الخنده اسمور
 الذى كان قد ارتضاه من قبل . كذلك قدم آل المظفر بدورهم الى شيراز
 فأعلنوا خضوعهم لتيمور الذى عاد من بعد ذلك الى سمرقند مظفرا عام
 ١٣٨٩/٧٩١ فركن هناك الى الاستجمام والراحة بعد النصب ، فطفق يقيم
 الحفلات ويعقد مجالس السمر ويخرج للصيد تجديدا لقواه واستعدادا
 لبعاء جديدة يضطلع بها . وقطع عليه استجمامه هذا حربه مع تختمش
 التى فصلنا أمرها من قبل . وعاد من هذه الحملة ليضطلع بما يعرف بحرب
 « السنوات الخمس » فى الغرب وهى التى رام بها القضاء على
 الاضطرابات السائدة هناك ، اذ ذاك ، وليجنى ، فى الحقيقة ، ثمار كل
 حروبه السابقة باخضاع ايران والعراق اخضاعا تاما .

فما ان أبل من مرض قصير كان قد ألم به عام ١٣٩٢/٧٩٤ حتى
 عبر جيحون عند آمويه على رأس جيش عرمرم حسن التدريب فزحف على
 طول حدود ايران الشمالية حتى بلغ استراباد لتأديب الثوار فى مازندران.
 ولم تستسلم له آمل الا بعد قتال عنيف . وهذه المدينة ، وهى أهم موضع
 فى مناطق ايران الجبلية ، كانت مركز الحشاشين الغلاظ المتعصين (٢). وقد

(١) لقد نهض اذ ذاك حداد ، كما فعل كاوه فى القديم ، (كان كاوه
 حدادا حمل لواء الثورة فى فارس القديمة ، وتشتهر فى تاريخ ايران رايته
 السى يعرف باسم درفش كاويان (المترجم) يستحث أهل أصفهان على الثورة
 ومباغطة الحامية التيمورية . ونتج عن ذلك أن أقام تيمور أهراما من رءوس
 سبعين ألفا من السكان رمزا لانتقامه منهم .
 (٢) لا يزال الذين يتآمرون فى السر يعرفون حتى اليوم باسم
 العدائين ، والقدائى هو من يضحى بنفسه فهو شهيد .

نزل بأبطالها جزء دفاعهم الجسور عنها مذبحه بنسعه بعجز عن وصفها حتى قلم المؤرخ الشرقي .

ومن اليسير كل اليسر أن ندرك كيف خيم سكون الموت على ذلك المكان بعد نزول هذه الكارثة به . وهاجم تيمور من بعد ذلك بأسلحته المخضبة بالدماء لورستان وخوزستان عبر همدان وبروجرد ودزفول . وما أن استولى على قلعه سفيد (القلعة البيضاء) ، ذلك الحصن الجبلي القوي ، حتى انطلق يهاجم شاه منصور المظفرى بعنفه المعناد . وكان هذا الأمير قد استطاع فى غيبة تيمور أن يوحد امارات آل المظفر الخمس تحت لوائه ويعد له جيشا قويا . على أن ذلك كله لم يكن ليفى فى وجه ذلك التتري ، والتتري يغمره ، فوقعت بين الفريقين معركة عنيفة عند بتيلة انقض فيها شاه منصور على رأس فرسانه ، فى ضراوة الأسود ، على صفوف التركستاقيين الحاشدة فحطم كل ما صادفه من عوائق حتى وصل الى مكان تيمور نفسه .

ودق مركز تيسور (١) ، اذ لم يكن يحيط به أكثر من أربعة عسر من الجند أو خمسة عشر ، لولا أن أسرع حفيده شاهرخ ميرزا فجمع من حوله زمرة من الجند المرند وألقى بنفسه فى طريق العدو ، وقطع رأس شاه منصور فى مبارزة واحدة ثم ألقى بها من بعد ذلك تحت أقدام جده محييا كالعادة بقوله « فلتطأ حوافر فرسك رءوس أعدائك على الدوام » . وما لبث العدو أن نزلت به الهزيمة الحاسنة ، وفيها هلك آل المظفر جميعا الا اثنين منهم ، كانت أعينهم قد سلبت من قبل ، فحملا الى سمرقند . وقد وقع بأيدي تيسور متاع شاه منصور كله . وما ان فرق البلاد المفتوحة بين قواده حتى عاود زحفه عام ١٣٩٣/٧٩٥ ليخضع العراق العربى من جديد .

(١) يقول شرف الدين أن شاه منصور كان قد افترس من بيمور حتى وجه اليه ثلاث ضربات من سيفه وقعت على خوذته ، وفد حاول تيمور أن يدفع عن نفسه هتلا انهجوم المفاجئ لولا أن حامل حربيه كان بعيدا عنه . . ولم يتمكن من النجاة دون اصابات تذكر الا بفضل حامل ترسه عادل آق طاش وحارسه الخاص قمارى .

ولم يستطع الايلحاني أحمد جلاير أن يجنب بلاده في هذه المرة شر الدمار . ذلك أن «تيمور» بعد أن استعاد آذربيجان وتم له اخضاع بلاد الكرد ، عبر دجلة في فارب السلطان نفسه واستسلم له بعدد دون اطلاق سهم واحد . ولم يستطع سلطانها الطريد أن ينجو من سهل كربلاء ، ذى الذكريات الأليمة (١) ، الا بفضل فرسه العربي التي مرقت به كالبرق الخاطف تاركا من ورائه نساءه وأولاده لیسقطوا جميعا أسرى بأيدي الغازي .

وهكذا سقطت مدينة الخلافة للمرة الثالثة بيد فاتح تنرى بعد قتال خفيف الى حد ما . وبرغم ما أبدته المواقع القوية الأخرى في الجزيرة ومردين وديار بكر وتكریت من مقاومة زائدة فإن رايات هذا الغازي المنتصر ما غدت أن اجتاحت مظفرة كل ارمينية وبلاد الكرج . على أن أصداء الفرح بالنصر ما غدا أن قطع «جميعها بوادی منك كول (الألف بحيرة) اللطيف وصول الأنباء بأن تختمتس ، وهو الذي نزلت به الهزيمة من قبل ذلك بسنين ، فد ظهر من جديد ، وكأنه المارد ، فأخذ يهدد القوقاز بالغزو من ناحية دربند ، فكان على الأيدي عند ذلك أن تطرح الكؤوس المنرعة جانبا مرة أخرى لتمسك بالسيوف المخضبة بالدماء من جديد . ولقد آثر تيسور على كل حال أن ينتظر قى هدوء حتى يبدأه عدوه بالهجوم ، وفي رأيه « انه من الأجدي أن تنتظر حتى يسقط الطير بنفسه في الشباك بدلا من أن تجرى وراءه .. ان الديك العجوز لا يخاف جوارح الطير . واذا كانت الجرادة تكبر حتى تصير أجنتها مصبوغة باللون الأحمر فانها عند ذاك تستطيع أن ترد هجمات العصفور عليها ضربة بضربة » . وارتفعت راية تيمور منتصرة آخر الأمر عند شواطئ بحر الخرز الغربية ، كما انتصرت عند شواطئ الشرقية من قبل . وأصيب تختمش بالهزيمة وفر هاربا الى الصحراء عند الجنوب من سيمريا . وانطلق خصمه من بعد ذلك يطارده في روسيا حتى بلغ موسكو فأقتبها ، ثم ترك عليها كورجوك بن أوروس

(١) يشير المؤلف بذلك الى وفعة مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب

(المترجم) *

خان ليحكمها بوصفه تابعا له ، ثم عاد من بعد ذلك الى بلاد الكرج ليضيف انتصارا جديدا فى قائمة انتصاراته التى كان يحتفل بها هناك .

هكذا تم لذلك المغامر السابق بهضاب تركستان الاستيلاء على آسيا الشمالية والغربية بالتدريج ، وازدان تاجه بأكثر من مملكة واحدة غنية لها تاريخ قديم . أما جنده ، وهم الذين قدموا من شواطئ ايسيكول وجيخون وسيخون ومعهم فرسان الصحراوات الواسعة الشجعان ، فقد حملوا معهم الى سمرقند كل ما أمكنهم حمله من متاع آسيا الغربية وكنوزها وجواهرها .

هذا كما قدم السفراء الى تيمور من كل حذب وصوب ليعتلوا له خضوع عواهلهم له وبلقون بهداياهم عند أقدام فاتح العالم . ومع هذا كله فإن طموح تيمور لم يكن ليعترف بحدود ، وظمأ للحرب لم يملطف به أو يسكن وعاد نيسور آخر الأمر الى وطنه عام ١٣٩٦/٧٩٩ بعد غيبة دامت خمس سنوات فاستقبل هناك استقبالا حافلا . فقد خرج لاستقباله عند ضفاف جيخون زوجاته وبناته وحفيداته فى حاشية ملكية فخمة ، فنثرن الذهب والجواهر بين يديه على الرسم القومى (١) وأهدين اليه ألفا من الخيول المسومة والبغال . وقصد الغازى الكبير لدى وصوله ضريح أبيه فى كش فقرأ الفاتحة ، وتعهد المنشآت التى كان يجرى العمل فيها أثناء غيابه ، ثم دخل آخر الأمر سمرقند فى أبهة لم يسبق لها مثيل . وفضلا عن العروس الجميلة التى كسبها فى ميدان المعركة ، فإن هذا المحارب الشيخ ، الذى كان قد بلغ الثالثة والستين من عمره ، اتخذ لنفسه زوجة جديدة شابة هى الأميرة توكل خانيم (٢) ، وأهداها ذلك القصر الصيفى

(١) لا تزال بقايا هذا الرسم عند العثمانيين اليوم ، اذ ينثر العملة الفضية أمام السلطان فى موكب الاحمال بالعبيدين . وكذلك ينثر العملة الذهبية والفضية عندما يدخل العريس غرفة عروسه لأول مرة فتنقسم لاستقباله .

(٢) خانيم ، أى زوجة الخان ، وقد حرف هذا اللفظ الى كلمة « هانم » الشائعة ، وبيكيم . أى زوجة البك ، وقد حرف بدوره كذلك الى (بيجوم) (المترجم) .

الجبيل، المعروف باسم قصر دلکش (أى فاتح القلوب) . ومضى على
 تيمور بسمرقند حين من الدهر كان وقفا على الحفلات والمسرات . ولم
 تكن فتنة البهجة والسرور الا لتثير فى نفس تيمور ، فى الغالب ، شوقا
 للاضطلاع بالحرب من جديد . فما ان فرغ ، ابا ن لته بعاصته ، من
 تقسيم ما فتح من ارضين بين ابناءه حتى امتطى فرسه مرة أخرى ليفود
 جنده الى مناطق جديدة أمعن فى البعد . فلا يزال أمامه أن يفتح الهند
 فى الجنوب وبلاد الروم فى أقصى الغرب ليستطيع من بعد ذلك أن يرى
 نفسه جديرا بلقب فاتح العالم (جهانكير) بحق وكانت الهند على الدوام فى
 نظر المسلم الآسيوى رمزا للثراء البالغ فى حين كانت بلاد الروم رمزا
 للفوة . فانى لتيمور أن بهداً باله اذن قبل أن يضيف هذين القطرين الى
 قائمة فتوحاته . ولما كان أول هدفه هو أن يمتلك شبه الجزيرة التى تقع
 بين السند والكنج ، فقد تقدمه حفيده 'بير محمد' ، ببعض الوقت ، بطريق
 هراة فحرب الحصار حول الملتان . وكان تيمور قد عقد العزم على أن
 يكون الزحف الذى يقوده مهيا دا أبه . فتقدم بطريق بلخ عبر مرتفعات
 الهندكوش الثلجية ، وكافح رياح هذه المناطق الثلجية ليصطلى من بعد
 ذلك بنار الحرب مع سكان هذه الجبال الجسورين . ولم ينل ذلك كله
 من عزيمة هذا الغازى شيئا ، فدلى وجنده بالجبال وعبروا بها المنحدرات
 شديدة الميل والجرف الهاوية حتى روع خصومهم بفعلتهم هذه . واخترق
 تيمور من بعد ذلك كابل الى الهند عبر الممر المشهور الذى هزم عنده من
 بعد ذلك بأربع مائة وأربعين عاما جيش دولة أوربية عظمى بأيدى أحفاد
 رجال الجبال الأشداء هؤلاء (١) .

(١) بقصد المؤلف بذلك دولة بريطانيا حين حاولت بعد اسبيلاتها على
 الهند أن تبسط سلطانها بالقوة على بلاد الأفغان بدعوى حماية حدودها
 الهندية من خطر نفوذ روسيا الزايد بأسباب الوسيطى اذ ذاك . وقد أنزل
 رجال القبائل الأفغانية بالبريطانيين ضربات فاصحة فى معارك متكررة وعدوهم
 ببسالتهنهم وصراوتهنهم حتى اقتتال كتيبة يعنرمون مشيئة الأحرار (المترجم) .
 انظر فى ذلك أيضا حاصر 'الم الاسلامى' نان ص ٢٩٩ - ٢٠٠ (تعليقات
 الأهرر شكيب أرسلان ١٣٥٢ هـ) .

وعبر تيمور السند في الأيام الأولى من القرن التاسع الهجري ،
نم واصل سيره الى دهلي فصبة السلطان محمود (١) بعد أن انضم اليه
حفيدته عند سنج « رافد السند » . ورأى ذلك الغازي أن يخفف من
حشود الأسرى الذين كانوا يسرون في ركابه فيعوفون من حركته فأمر
بفعل مائة ألف من هؤلاء التعساء (٢) . ودعى كل فرد في الجيش الى
المشاركة في تنفيذ هذا الأمر القاسي .

ويصف المؤرخ مبلغ الفرع الذي استولى على العالم الوداع نصير
الدين اذ كان عليه أن يقتل بيده خمسة عشر من رقيقه الهدي . وعند
تيسور الى التظاهر بالتراخي في الهجوم حتى يحصل بذلك عدوه على
مباداته بالحرب . ونجح في خطته هذه حتى وقع الهنود في الشرك الذي
أعدده لهم فنزلت بهم الهزيمة شاملة ، ووقع بأيدي الفاتح التتري مدينته
دهلي ، تلك المدينة التجارية الغنية على نهر الكنج (٣) بكل كسورها
وسكانها الذين اشتهروا ببراءتهم في كثير من الفنون الدقيقة . ولعبت
مدينة مبترا المقدسة (٤) نفس المصير ، ونزل بها أشد الدعر بعباد وسنو
التعساء ، فلم يغنهم ذلك فتيلاً فحطت أفدس معابدهم وكسرت
أصنامهم . وتقدم تيسور من بعد ذلك حتى مابع الكنج وهو يعمل
القتل والدمار بكل ما يصادفه في طريقه ، لينطلق من بعد هذه المذابح
العنيفة يستمتع بصيد النور ووحيد القرن ، ثم رجع آخر الأمر الى
سرفند في ابريل من عام ٨٠١ / ١٣٩٩ ومعه عدد كبير من الفيلة ومهرة
الصناع والأسرى من كل صنف .

- (١) هو السلطان محمود تغلق (المترجم) .
- (٢) عمد تيمور الى ذلك حين علم بشيوع العرج بين الأسرى على ابر
مباغثة بعض قوات دهلي لبعض حملاته الاستكشافية . فخاف ان يركن
هؤلاء الى تهديد مؤخرته وتخريب خطوطه والمركة دائرة مع عدوه :
ملفوظات تيمور ص ٦٣٦ (المترجم) .
- (٣) أخطأ المؤلف فذكر السند بدل الكنج (المترجم) .
- (٤) هي مدنه بنارس (المترجم) .

لم تكن حملة نيمور الهندية الا مجرد عمل عسكري باهر ، لا أهداف له ، وغارة للحصول على الأسلاب ، على ما فعله سلفه المغولي من قبل وما انتهجه نادر من بعد . ولقد ادخر القدر العبقري بابر ميرزا ليغرس آخر الأمر راية التيموريين على شواطئ السند والكنج من بعد ذلك بقرن من الزمان . وعلى أية حال فقد أدى هذا النصر المؤقف الى ازدياد شهره بيسور وديوع سيئه ، ودفعه طموحه ، الذي لا يعرف حدودا ، من بعد ذلك ليجرب حظّه مع أمير الغرب (الروم) القوى .

لم يعيب تبسور طويلا عن مسرح فعّاله الباهرة السابقة في الغرب . ومع هذا فان بناء حكومته الذي كان قد أقامه هناك ، في غمرة النصر ، قد عرف من ابلان ذلك لبعض هرات عنفه . وحدث أن أدب حكومة ابته ميرانشاه (١) بنفاعةها الى قيام الاضطرابات والثورة في آذربيجان ، كما مات في الوقت نفسه حليف قوي لتبسور وجار له في هذه الجهات ، فأطمحه ذلك كله في اضافة أراض جديدة عند حدود هذه الدولة القوية . لهذا خرج من عاصمته بعد أن استراح بها فترة قصيرة ليزحف من جديد على آسيا الغربية . ولئن لم يتعرض لابنه بشيء جزاء اهماله فقد ساق الى الموت جميع خلصائه ومسئاريه ، ثم أسرع من بعد ذلك ، بطريق هرات وفروين ، الى أراكس ليكسر شوكة ملك جورجين أمير الكرج الشائر . ولحقا هذا الأمير الى الاحتماء بالصخور الوعرة والحصون فلم يجده ذلك فيلا ، اذ هزم جيشه في كل مكان وسقط حصونه وعاصمته .

واستطاع تبسور آخر الأمر بعد معركة قصيرة حامية أن يقيم مضاربه . وادى قره باغ اللطيف ، وكان علي جوده أبناء سهوب تركسان الأشداء أن ينالوا قسطهم من الراحة ، بعد هذه الأسفار المضنية ، قبل أن يخرجوا

(١) بروي كلامنجو أن ميرانشاه أمر يوما بهدم دور كثيرة ومساجد وتغييرها من المنشآت ، ذلك أنه - على حد قوله - « بوصفه ابن أعظم رجل في الدنيا لا بد وأن يستنهر بشيء ، ففعل ذلك لكي يذكره الناس على الأقل بأنه دمر هذا أو ذاك من المنشآت » ولعل هذا التتري مدعى البطولة كان يعاني من «همذين» . وبجاول مؤرخوه على كل حال أن يبرروا سلوكه هذا بأنه أصيب «تلال» في فواه العفلة على أبر سقوطه من فوق فرسه .

الى ما عزم عليه قائدهم العظيم من مهاجمة قرينه التركي بايزيد سلطان العثمانيين . ذلك أن قوة وريث بلاد الروم هذا كانت بمثابة شوكة في جانب تيمور ، فضلا عن أن بايزيد كان قد تحالف مع أسرة قراقونلو التركمانية ، وكان تيمور يحقد على هؤلاء أشد الحقد ، إذ كان يرى نفسه بوصفه صاحب السلطان المطلق على قبائل الترك ، أحق بأن يدين الناس له بالولاء من اتباع السلاجقة السابقين (١) هؤلاء .

وقعت بين العاهلين التركيين اللذين كانا يحكماق بآسيا الشرقية وآسيا الغربية حرب ضروس ترك لنا عنها المؤرخون المسلمون والمسيحيون على السواء تفصيلات تثير الرعب والاشمئزاز في النفوس (٢) . وقد انتهت هذه في صالح الفاتح التتري . فلقد بدأ تيمور بدعوة قرج سلطان مصر ليقدم له تفسيراً عما ارتكبه أباه حين قتل العلامة الشيخ ساوه رسول تيمور اليه . ودفع الابن ثمن جرم أبيه غاليا إذ اجتاحت هؤلاء التتار اقليم سوريا ونهبوا مدنها العامرة ودمروها . وباستيلاء تيمور على سوريا قضى نهائياً كل تحالف ممكن بين العثمانيين والعرب . هنالك استدار تيمور لحرب بايزيد ، وهو الذي يكاد يدانيه في القوة والشهرة ، وأصم أذنيه عن كل ما نصحه به مستشاروه ايثارا للمودة ، اعتمادا منه على ما كان يشعر به من أنه ند لخصمه وتحقيرا لشأنه . ولم يكن تيمور بحاجة الى من يحرضه على قتال خصمه هذا ، فتقدم في ربيع عام ١٤٠٢/٨٠٥ من سيواس بطريق قره شهر الى أنقرة حيث شهدت ودياتها معركة دموية

(١) لم يكن ذلك وقفا على أيام تيمور فحسب، إذ لا يزال التركي بالنسبة الأدنى يقول في وقتنا هذا بقربانه لآخوانه في الشرق الأقصى . كما أن التركماني البسيط يعرف تماما أن بنى جلدته يقيمون كذلك حول ديار بكر . ولا تزال التقاليد والخرافات الشرقية أكثر قوة وأشد رواجاً من حكايات كليو (اله التاريخ) .

(٢) من بين الجرائم البشعة التي وقعت عند احتلال سيواس ما برهه دو كاس وشالكوندبلاس Ducas, Chalcondylas بأن (تيمور) قد أمر بفرسان النصراري ، الذين كانوا في خدمة بايزيد ووقعوا في الأسر ، بأن يسروا في عشرات فيلقى بهم في حفرة ويدفنون أحياء . أما أهل المدينة من المسلمين فقد قطعت رؤوسهم جميعاً بعد أن كان تيمور قد وعدهم بالإبقاء عليهم .

عنيفة جرت بين الجيشين . وانتهت هذه المعركة بدحر العثمانيين دحرا تاما ووقوع بايزيد نفسه وتساؤه في الأسر . وبهذا النصر الحاسم الرائع سفطن آسيا الصغرى كلها بأيدي تيمور ليزحف من بعد ذلك الى أزمير . ولولا البحر لواصل زحفه وسقط على أوروبا نفسها .

ولم تكن خطته في الشرق الأقصى لتسمح له على كل حال بإطالة إقامته في الغرب . فبما ان تم لجموعه اعمال السلب والنهب وانزال الدمار التام بهذه البلاد المفتوحة حتى استدار بهم فدخل سمرقند عام ١٤٠٤/٨٠٧ دخول الظافر للمرة التاسعة . وعلى الرسم المعهود أقيمت الاحتفالات وأفراح الزواج وحلقات اللهو والسمر هناك . ولم يشهد هذا كله وفود البلاد الآسيوية فحسب بل شاركهم في ذلك كذلك سفير أعظم ملوك أوروبا استمساكا بالمسيحية ، هو الفارسي دون روى جونزالردوكلافيجو مبعوث هنري الثامن ملك الاسبان ، وكان قد وفد على رأس بعثة صدقة الى تيمور .

وسنرى في الفصل التالي أن التتار كانوا يمارسون لهوهم بنفسى النشاط الذين كان لهم في حروبهم . فمن أتيح له أن يشاهد تيمور وهو يتصدر هذه الحفلات تحيط به حاشيته المشهورة ، لم يكن ليصدق في سر أن ذلك العاهل هو نفسه ذلك المحارب الجبار المعروف . ولم يكن تيمور في سنه المتقدمة هذه يقضى عطلة الخاصة الا في اختيار الأماكن التي سيتجه إليها في غزواته المقبلة ، واعداد العدة ليتوج بأكاليل جديدة من الغار . وفيما كان تيمور يستقبل سفراء الدول المختلفة لقي سفير الصين بفتور ظاهر .

والغالب أن «تيمور» ، وهو العظيم فاتح نصف آسيا ، لم يستطع أن يخفى سخطه حين دعاه رسول حاكم كمبالو هذا ليدفع اليه ماعليه من أتاوة سنوية معلومة . فلم تهدأ كبرياؤه الجريئة حتى عزم على حربه . وسار ذلك الجندى الشيخ في قوة صغيرة ، ولكنها كاملة الاعداد ، والشتاء على أشده ليهاجم « امبراطورية الصين وافرة الزهور » ، فغادر سمرقند في الرابع من يناير عام ١٤٠٥/٨٠٧ وهو يعاني من برد أصابه

بسبب قسوة الجو ، فلم يأبه به ، وعبر سيجون المسجد ونزل عند أترار
فى شهر فبراير . هنالك اشتدت العلة عليه حتى أعلن طبيبه مولانا فضل
الله أن حالته قد باتت ميئوسا منها . وقد ظل تيمور ، وهو الذى واجه
الموت مئات المرات ، محتفظا بشجاعته ورباطة جأشه حتى اللحظات الأخيرة
فى حياته .

والنف حول فراشه أبنأؤه وأحفاده ورفاقه القدامى يكون بمرارة
ساعة فراق زعيمهم ، وهو يطلب اليهم أن يسنسكوا بالشجاعة ويوصيهم
بالاتحاد والتآلف ، والطاعة لپير محمد الذى رسمه خليفة له . وحين
سألوه عما اذا كان يريد استدعاء ميرزا خليل سلطان وغيره من كبار
الأمراء اعتذر لهم بأنه لن يعيش الا لحظات قليلة وأبدى أسفه اذ لن
يسكنه الموت أبدا من رؤية ولده المحبوب شاهرخ ميرزا . وسرعان ما أخذت
قواه على اثر ذلك تنهار . وأشار ، وهو فى النزاع الأخير ، برغبته فى أن
يقوم على غسله الملا هبة الله وأن يقرأ القرآن على فراشه . وقضى أول
نساء السابع من شعبان عام ١٤٠٥/٨٠٧ ، ونقل جثمانه الى سسرقتد
هوورى فى نفس الضريح الفخم الذى كان قد أقامه لشيخه المحبوب السيد
بركة . وكان هذا الشيخ هو أول من تنبأ له فى شبابه بعظمته المقبلة .
وهكذا رقدا معا جنبا الى جنب فى قبر واحد (١) . وكان تيمور عند
موته فى الحادية والسبعين من عمره . وفد قضى أكثر من نصف هذه
المدة حاكما مطلقا على بلاد ما وراء النهر ، كما صار صاحب النفوذ
الأكبر فى العالم الاسلامى الشرقى كله . وهو يقارن ، بحق ، بطسوحه
وعبقريته الحربية وقوة ارادته ، بقيصر الاسكندر وچنكيز . وما اسمت
به حروبه من اغراق فى سفك الدماء قد بعث الرعب فى نفوس معاصريه
من الآسيويين حتى لا نملك هنا الا أن ننصف مؤرخه العربى أحمد بن
عريشاه بعض الشئ ، برغم اشتهاره بعدائه الشديد للغازى النرى ،

(١) فى وصف هذا البناء الذى يعرف اليوم باسم «بربتي تيمور» ، انظر
كتابه travels in Central Asia p. 358

وذلك فى حديثه الذى أجراه على لسان الشتاء ، وفيه يصف توقف هذا المحارب المحنك أبان تقدمه عبر الوديان الثلجية بآسيا الوسطى حيب يقول « مهلا يا شوم ورويدك أيها الظلوم العشوم ، فالى متى تحرق القلوب بنارك ، وتلهب الأكباد بأوامك وأوارك ، فان كنت أجد نفسى جهنم فانى أنا ثانى النفسين ، ونحن شيخان اقتربنا فى استيصال البلاد والعباد ، فانحس بقران النحسين ، وان كنت بردت النفوس وبردت الأنفاس فنفحات زمهريرى منك أبرد ، أو كان فى جرائدك من جرد المسلمين بالعذاب فأصصاهم وأصمهم ففى أيامى بعون الله ما هو أصم وأجرد ، فوالله لا حابيتك فخذ ما آتيتك ، ووالله لا يحملك يا شيخ من برد رب المنون لواعج حرة مجمرة ولا واهج لهيب فى كانون » (١) .

وها نحن قد فرغنا من تاريخ حياة تيمور وفعاله على ما فصلناه ، فى حدود منهجنا فى هذا الكتاب ، لنحاول فى الفصل البالى من بعد ذلك أن نرسم صورة عامة لبلاط تيمور وحاضرتة . ذلك أن حكومة تيمور كانت فى الواقع قد بلغت غاية المجد بذلك الاقليم الصغير فيما وراء جيحون وغسرت بالنور تاريخ الشعوب التركية . ولا تزال تقاليد قبائل كنبرة منهم سائلا فى بفسه من هذه الأنوار . ولم يعد فى الواقع لهذه الأقاليم فيما وراء جيحون وسيحون بسوت تيمور أى دور فى التاريخ العام . فقد كان هو آخر قائد قاد مئات الألوف من محاربى الترك والتتار ، من أبناء شعوب آسيا الوسطى ، الى آسيا الغربية .

(١) عجائب المفدور فى أخبار تيمور لأحمد بن محمد بن عبد الله المعروف بابن عرسماه ، المطبعة العثمانية ، القاهرة ١٣٠٥ هـ ، ص ١٦٢ (المترجم) .

الفصل الحادى عشر شخصية تيمور - بلاطه وحاضرت^(١)

يصنف أصدقاء الفاتح العظيم ابن « المدينة الخضراء » بأنه كان مثال الجبال فى الرجال ، فى حين يقول عنه أعداؤه انه كان صاحب عاهة فبيح المنظر حقيره . وعلى ما هو متواتر بين بنى قومه حتى اليوم ، كان تسور فى الأرجح متوسط القامة ، متين البناء ، قوى البنية . وقد ظل محتفظا بقوته ونشاطه كاملين حتى تقدمت به السن برغم ما عاشه من حبة غير مستقرة قضى أكثرها مضطلعا بالحروب وشئونها .

وكان منتصب القامة حتى لا يكاد الناظر اليه يدرك ما كان به من عرج ، أما صوته فكان جهوريا حتى ليطغى على ضجيج القتال فى المعارك ويتجاوز أسباع من حوله الى كثيرين ممن وراءهم . وما كان يعانى منه وحده هو ضعف بالبصر حتى ، لم يستطع ، وهو فى السبعين من عمره ، أن يتعرف على الرسل الأسبان بسرقة حتى قربوهم من مجلسه . وكانت ملامح تسور مغولية خالصة ، ولم يكن امتزاج الجنس التركى بالعناصر الايرانية (٢) واختلاطه بها يجرى ، حتى زمن تيمور ، على نطاق واسع .

(١) ما فصله هنا عن بلاط تيمور وعاصمته هو نقل فى الغالب عن كتاب كلافيجو الذى سميت الإشارة اليه . وقد قام السيد مركهام Markham سكرتير الجمعية الجغرافية الانجليزية العالم ، بخدمة طيبة حين ترجم هذه المذكرات عن الاسبانية . وكان كلافيجو لاحا ، فكانت مذكراته بذلك مما يعتمد عليها باطمئنان .

(٢) لم تكن بحاره الرقيق مع ايران قد تطورت فى المحل الاول كما هى عليه الآن . ذلك أن شراء الرقيق من الفرس السبعين لم يرخص به الا بقتوى الملا شمس الدين التى صدرت بعد وفاة تيمور بخمسين عاما . وكان امتزاج الشعبين بذلك نادرا . ثم أن الترك ببلاد ما وراء النهر كانوا يؤثرون فى القالب أن يصهروا الى بنى جلدتهم من المفلول والأوبفور دون التاجيك الذين كانوا يوصمون اذ ذاك بالجبن ويشتهرون به .

وعلى هذا فقد أخطأ كاتب سيرة تيمور اذ يصفى عليه من سمات الجمال الايرانى حين يصوره كبطل ، فهو يصف الفاتح التترى بأنه ذو لحية طويلة نضر البشرة ، رقيق الجلد . والواقع أن « تيمور » لم يكن له من مظهر الايرانيين أو أهل آسيا الغربية الاثابه .

كان الأزياء الشائعة اذ ذاك ببلاد جيحون ، كعموم أحوالهم الاجتماعية ، خليطاً عجيباً تتشثل فيه الرسوم والعادات البوذية والاسلامية، فنجد أن «تيمور» كان يظهر في المناسبات الرسمية بنفس الثياب الحريرية الناعمة الهفافة ، التى لا تزال تروج بين سكان آسيا الوسطى حتى اليوم ، والتى كانت اذ ذاك الزى الذائع فى آسيا الاسلاميه . أما غطاء رأسه فكان على كل حال مأخوذاً عن الزى الصينى أو المغولى ، فلم يتخذ تيمور فى الواقع العمامة الاسلاميه ، كما أشاع ذلك عنه شرف الدين فى فخر ، فكانت فلنسوته (١) من القراء مخروطية الشكل يعلوها ناقوتة على هيئة الكمثرى يحيط بها الجواهر والماس . كذلك كان تيمور يقلد المغول نهى التزين بالأفراط الطويلة ، ولم يكن بحال ما يكره الزينة والبهرج أبداً ، وكان كلفاً بذلك الى درجة تلفت النظر . على أنه كان فى حروبه الطويلة يلزم نفسه بالتقشف الشديد حتى كان يبدو بين جنده مالا للبطاسة الاسبرطية . وثمة تناقض آخر ملحوظ كنت نراه فى أظهر نواحي خلقه ، فتعاليم الاسلام والصوفية الدقيقة التى غرسها فيه أبوه وشيوخه فى نسابه كان يلتزمها فى الحرب على الدوام الى جانب طبيعته التائرة وأطماعه التى لا حد لها .

وكانت هذه الحاجية الأخيرة هى التى تسيطر عليه كما توحى به الظواهر حتى روى عنه أنه كان ينادى بأن الحكومة لا تقوم الا بحد

(١) لا نستخدم هنا كلمة قبعة ، فهى كما يعرفها الاوربيون لها حافة مبي بذلك محرمة عند المسلمين تحريماً تاماً بوصفها من رسوم المسيحية . وغطاء الرأس الحديث عند القرغيز له حافة بارزة كذلك وانما له شق من الاءام (فلا يعوق المصل) فيبيحه الشيوخ على ذلك .

السيف (١) . ومع هذا كله فليس من اليسير أن تغلب صفات الوحشية والقسوة عند ذلك الرجل الذي أمر جنده وهم ينهبون اصفهان ألا يتعرضوا بسوء للجي الذي كان يسكنه العلماء ، والذي كان يشارك فلاسفة هراء ويطلب محاوراتهم الشرعية ، ويذل العطاء الوفير حتى لمن كان منهم على خلاف معه في الرأي . ولقد رأينا به يسعى جهده لكسب ود العالمين المشهورين : شمس الدين الفناري ومحمد الجزري الى صفه فبذل لهما العطايا في ذلك وبالع في استرضائهما برغم ما كان يعلمه من شدة عدايتهما له ، وكانا قد وعا في أسره ببلاط عدو له . كذلك كان يعتبر أن أعظم كسب خرج به من البلاد التي فتحها هو حصوله على هؤلاء الصاع وأهل الفنون من أبناء تلك الأصقاع الذين ألحقهم بخدمته . ويروى عنه كذلك أنه أمر دات مرة بنقل مكتبه بأكملها على منون البغال من يروصه الى سرقند (٢) .

ان أولئك الذين يقرنون «تيمور» بـ«كبر» في صفاته فيقولون عنه انه كان مثله مجرد منحوس وظالم مستبد ، انما يخطئون في ذلك خطأ مزدوجا . ذلك أن نيمور كان جنديا آسيويا قدرا استغل انتصاراته على الرسم الذي كان شائعا في عصره وفي بلده ، بل ان ضروب القسوة والدمار التي شنت بها عليه أعداؤه انما كان قد ارتكبها وأمر بها ليشأ بعض ضرر لحق به ، وان كان قد تغالى في ذلك بلا جدال . فقد أنزل بأصفهان وتبراز ما أنزل انتقاما لمقتل أحد جنوده غدرا . هذا كما كان على سكان دمشق ، ورثة الأمويين القدماء ، أن يكفروا عن استشهاد أسره الحسين ، وكانت قصة هذه المأساة قد ملأت نيمور بالسخط والحقد . وهناك كثير من المذابح التي قيل بوفوعها ، منها ما انطلق أعداؤه يهولون

- (١) هذا المعنى قد أجراه على لسانه مؤرخه الفارسي بالعبارة الفارسية الآتية : « ملكرا اكر فرار خواهي كرد ، تنغرا ، بقرار بايد كرد » -
(٢) المشهور المعروف أن «تيمور» بعد أن دخل في جدل عنيف مع العلامة شريف الدين فاضى حلب شمله واتباعه (وكانوا عشرين ألف نفس) يعطفه ، ثم يرميهم جميعا باليدان .

فى تصويرها ، ومنها ما نجعل جهلا تاما حقيقة الباعث عليها . ومهما يكن من شىء فنحن لا نستطيع أن نتجاهل ما اقترفه تيمور فى آسيا الغربية من أعمال التدمير والتخريب على نطاق واسع حتى أتت هذه الجموع التركية المغولية الجديدة فى اجتياحها لهذا الاقليم على كثير من بقايا الحضارة الاسلامية التى كان المغول ، قد كفوا أيديهم عنها مع شغفهم بالتخريب . ولئن كنا نسلم لابن عربشاه ببعض الحق فى حملته على تيمور ، الا أننا حين نبعد عن الهوى فى حكمنا عليه نقول ان تيمور انما يقع اللوم عليه لا بوصفه مخربا قد عاث فى الأرض فسادا ، وانما لمجرد استغلاله حقوق الفتح استغلالا جائرا عنيفا . وكان تيمور على محبة بالغة لبلاده ، شأنه فى ذلك شأن كل الغزاة من أبناء القبائل التركية أو العربية على السواء ، فلا عجب اذن حين نراه يصراصرارا شديدا على أن ينتقل بقوة الاسلام الغربية السياسية ومابقى من فروع الحضارة الاسلامية الى ثرى سهوب تركستان المتعفنة .

ولا حاجة بنا الى القول بأن نشاط تيمور الرائع ، مع مثل هذه المقاصد التى كانت تثير من حماسه ، كان له كله أبلغ تأثير ثابت على كل أحوال آسيا الوسطى . ولم يبلغ بلاط كمبالو أو غزنة أو بخارى بل ولا بلاط أية دولة فى القديم ما بلغه بلاط تيمور من الأبهة والثراء . وما وصف به شرف الدين حفلات تيمور وأعياده ، وما كانت عليه من البذخ والاسراف ، لا يعد شيئا مذكورا بالقياس الى الصورة الزاهية التى رسمها لبلاد الامبراطور التترى ذلك الفارس المسيحي (دون روى جونز الزدو) كلافيجو . فلقد رأى ذلك النبيل من ذلك كثيرا بل لقد شاهد هناك كل شىء . ولا أدل عما حباه به تيمور من العطف من مقالته لرجال دولته وهم يجيئون به فى الحفل الرسمى لاستقباله : «ها هو ذا السفير الذى أوفده الى ابني ملك أسبانيا الذى يعيش فى أدنى الأرض والذى يعد أعظم ملوك الفرنجة . حقا ان هؤلاء الفرنجة أمة عظيمة . وانى لأود أن أبعث بثنيتائى الى ابني ملك أسبانيا » .

وعلى هذا فاننا نستطيع أن نركن الى حديث هذا النبيل الأسباني

عن بلاط سمرقند وتتبع وصفه للخصائص والرسوم والاحتفالات النى كانت تشيع هناك اذ ذاك .

فى بلاط تيمور كانت تتمثل نماذج من مختلف رسوم وعادات شتى البلاد والقبائل التى قام على أنقاضها عرشه . فثياب الحرير وكساوى الديباج والمخمل قد اقتبست من الأزياء العربية أو الاسلامية . أما لباس السيدات بالبلاط ، ويتميز بطيلسان مرتفع يعرف باسم « شيوكله » فيذكر بما كان نظيره رائجا فى خوارزم وايران القديمة . وهو كساء طويل من الحرير الأحمر تزينه شرائط من الذهب وله حبكة عند الرقبة ، وليس له أكمام . وينسدل على الجسد فضفاضا فى ثنايا تنتهى بذيل طويل يحتاج فى الغالب الى خسة عشر شخصا يحملونه وبه يسرون . وكانت السيدات يسدن على وجوههن نقابا ، وكن عند السفر يستخدمن ضربا من مسحور الزنك يصون الوجه من التراب ويحفظه من التعرض للأنظار . أما غطاء الرأس فكان على هيئة خوذة من قماش أحمر تزينها اللآلىء واليواقب والزمرد ، وتنتهى بزركنسه حول طرفها الأعلى حيث تبرز منه ريشاب بيضاء على ميل . وبعض هذا الريش كان يتدلى الى ما فوق العينين (١) ، فتتصفي خفقاته عند السير مزيدا من الفتنة على طلعة صاحبتة . وسيدات بلاط تيمور العديديات كن يرزحن تحت جواهر تصف آسيا وأئمن ما عند جوهريى الملتان وأصفهان وغنجة ودمشق وبروصة والبندقية . ولم يكن الرجال دونهم فى البهرج ، بسيوفهم المرصعة بالحجارة الكريمة ومناطقهم وجباناتهم الفاخرة . وكانت صحاف الذهب والقضة فى مقادير عظيمة هناك بما لا يكاد يصدق العقل . ويصف كلافيجو غلبة ضخمة ذهبية للجواهر تساهدها فى احدى الخيام لها غطاء مستو تحوطه بروج مصغرة مطلية بالمبناء الزرقاء والخضراء ترصعها مخلف الحجارة الكريمة واللآلىء . وفتحة

(١) لا يزال بقايا هذا الزى يساهد فى غطاء الرأس الحديث أو بالأحرى زينة الرأس الحديثة التى تستخدمها سيدات الطبقة الراقية من التركمان .

هذه العلبة على هيئة الباب ، وبدانها رف عليه صف من الكؤوس نعلوها ست كرات من الذهب مرسعة بالآلآء والحجارة الكريمة .

وكان الى جانب هذه العلبة مائدة ، علوها فبضنان ، مصنوعة من الذهب المسبوك وحافتها من الجواهر ، وعليها ، مربعة نقيه طولها أربع قبضات (!!) وتغطي سطحها كله . وكان أمام هذه المائدة شجرة ذهبية على صورة شجرة السنديان جزعها كساق الرجل فى استدارته ، وفروعها تحمل أوراق السنديان ذهبية تستد فى كل سوب . وتتدلى منها ، بدل الشار ، اليواقيب والزمرد والعقيق والزفير والجواهر النادرة العديدة ، وتقف على أفنانها الطيور المنقوشة بالمينا فى مختلف الألوان . وكان أمراء البيت المالك يتناولون طعامهم على الدوام فى آنية ضخمة (كچات) ، كان أعضاء الأسرة المالكة يعاملون السراب ميا بينهم فى كؤوس كبيرة من الذهب . وادا عرفنا أن الجناب الكبرى ، تلك التى كان يشهدا ألوف عديدة من المدعوين كان يقدم فيها الشراب فى طاسات ذهبية فوق صحاف من ذهب ، لأمكننا بذلك أن نصور بعض الشئ مدى ما كان عليه قصر تيشور وديوانه من الثراء والأبهة البالغة .

ومرجعنا هذا الذى زار بلاد تيشور ، وهو فى أوج عظمته ، لا يجد من الألفاظ ما يعينه فى وصف كل ما رآه من أعاجيب فى تلك العتلات التى كانت تقام فى مضارب وادى كان كل ^١ المحبوب بنظار سمرقند . وقد كان الترك منذ زمن موغل فى القدم يفسلون سكنى الخيام فى الهواء . ويرون أن أنسب فرسة لظهور ما هم عليه من الرء والأبهة ، هى فى اعداد هذه المنازل المتنقلة اعدادا فخما . ومن السهل أن ندرك أن تيشور بوصفه أعظم من عرفه الترك وأكثرهم جأها على الإطلاق ، كان

(١) ذكرها بنى دى لأكروا خطا ، شابه ناول . وهى كلمة فارسية معناها منجم الزهر (المؤلف) سمعتها بكسر الحاء كما « منها الاسماء بفريدح وروجته أنسه بفريدح فى معلماها على بارنامه - وبدكرها بار فى سرية بان فيها كان يصنع أذخر اصناف الورق فى وقته » والمعروف أن صناعة الورق عرفها المسلمون أولا فى سمرقند ، وعنه أخذها الاوروبيون (المترجم) .

بطبيعة الحال ، من قومه جميعا بزينة مضاربه . ومن يطلع على موقع عاصمة
تيمور اللطيف يمكنه أن يتصور في سر مدى المتعة التي يستمتع بها المرء
حين يتاح له قضاء عطلة في معسكر ، يبعد ميلين الى الشمال الشرقى من
المدينة ، في سهل ترويه قنوات متعددة ويقع على مقربة من زرفشان .
وهذا النوع من المعسكرات كان يضم في الغالب ما يقرب من عشرة آلاف
من الخيام أو خمسة عشر ألفا . ولا ينزل به رجال البلاط فحسب بل
وكذلك كل الشعب على اختلاف طبقاته . وبه كانت تقام محال تجارية
أنيقة ومصانع ، مارس فيها الصنائع حرفهم . بل انك لتجد فيه كذلك
الحمامات المائية ، وبها المياه الساخنة . وأول خيام تضرب هناك هي خيام
الأسرة المالكة ، وتتوسط في الغالب المعسكر الذي كان ينتشر على هيئة
المروحة . وتتفرع الخيام الأخرى عن تلك المجموعة الوسطى . وكان لكل
أسرة ولكل فرد ولكل توطان أغاسي (متصرف) مكانه المخصص له ،
فمنهم من كان . زل ناحية اليمين أو ناحية الشمال أو في الصف الأول أو
الثاني أو الثالث ، كل حسب مكانته في نظام محكم لا تعرف الفوضى
طريقها إليه ، حتى كان يبدو وادي كان كل الجمل هذا ، في وقت قصير
مذهل والأعلام الملونة العديدة ترفرف فوق خيامه ، وكأنه حوض من
الأزهار الفاتنة ، داعبها النسيم .

أما الجاه فكان الغالب فيها ما هو على هيئة الناقوس وهو الذي
لا يزال بشيع في تلك الأقاليم حتى اليوم . وكنت تجد هناك كذلك خيام
إبراهيم العربية المستطيلة وخيام فارس الفاخرة التي تعرف باسم « سرا
برده » (قصور الستائر) (١) وهي في الغالب التي أثارت إعجاب فارس
قشتالة بخاصة . وهذه الخيام مربعة الشكل طول ضلعها مائة قدم
وارتفاعها بطول ثلاثة أرماع .

وكان للدور الرئيسي سقف على هيئة الفبة يسند الى سبعة فوائم
زرقاء مذهبة في استدارة وسنح الرجل ويلفها جبعا نسيج من الحرير

(١) يذكر الأفيجو هذه الخيام باسم Zalaparda.

نصب على هيئة الرواق . والى جانب هذه كانت أروقة ذات عمود على جوانب السرادق كله . وكان بكل واحد منها ستة أعمدة . وقد استخدم في عقد هذا البناء كله ما يزيد على الخمسمائة من الجداول قرمزية اللون . أما الأسجاف الخارجية له فكانت من حرير مخطط بالأسود والأصفر والأبيض . كما فرشت أرض السرادق بساط أحمر منغول بالذهب وبه زخارف أخرى من الحرير . وأُثمن توشية فيه تجدها تتوسط الجناح الجانبى منه . وكان بأركانه الأربعة أربعة نسور كبيرة قد نشرت أجنحتها وكانت القوائم عند هذه الأركان تحليها **كرات وصوالج** تراها بالقائم الأوسط أكبر حجما . وكان هذا السرادق يبدو للرأى من بعيد وكأنه القلعة . وكان يحجبه بعد ذلك كله سور عال ملون فى بعض أجزائه وتزيينه السرفات أو الأبراج الصغيرة . والى جانب هذا السرادق كانت هناك خيام أخرى لا تقل فى روعتها وفخامتها عنه ، وبها كانت تنزل السلطانة وكبار الأميرات . وكان بعضها يغطيه سجف من الحرير الأصفر أو قرنفلى اللون موشى بالذهب وقد عقدت بأثمن أنواع الديباج . وكانت مداخل الخيام فى الغالب رحبة حتى ليستطيع الفارس أن ينفذ منها وهو على فرسه . وكان لها كذلك نوافذ يسدل عليها نسيج من سندس سبك حين تفتح . وعلى جانبيها ستائر أخرى من الحرير تستخدم لتمنع عنها أشعة الشمس . وأُثمن ما كان حول الخيام ، وهو ما لا يزال يشاهد حتى اليوم ، هو الأبسطة ، التى تسدل على الأبواب ، وحبال هذه الخيام . وكانت البسط توشى بوشى الذهب والفضة العجيب (جلب تيمور واحدا منها معه من بروصه وكان عليه صور للقديس بطرس والقديس بولس) أما الجبال فكانت تحبك بعري من الذهب السميك والفضة تحليها نقوش عربية من الحجرة الكريمة .

وهذه الخيام ، التى يذكرنا وصفها بما ورد فى قصص ألف ليلة وليلة ، كانت مسرح الحفلات الكبرى والسمر . ولئن لم يصل إلينا أى تفصيل نترى لما كان يتناوله القوم من أصناف الطعام الا أننا نستطيع أن نقول ، اعتمادا على ما وصلنا من أخبار قليلة فى هذا الشأن ، أن أحب ألوان الطعام عند القوم كانت فى الغالب شواء الضأن ولحم الخيل والأرز

(وكان يطهى على الطريقة المعروفة اليوم تماما) والشطائر وفطائر الفاكهة والحلوى المصنوعة من السكر . وأعظم هذه الأطعمة كان فى الغالب فخذ فرس يقطع وينعق بالدهن . وكان يقدم فى العادة فى صحفة من الذهب أو الفضة . أما أصناف الشواء الأخرى العادية فكانت تقدم على خوان من الجلد (١) ، ويتولى تقطيعها الى شرائح ندل مدربون . ولا تمتد اليها الأيدي عادة حتى يفرغ السلطان من تناول الشريحة الأولى منها . ويختم الطعام فى الصيف بالفاكهة وخاصة القاوون والعنب . ويأتى من بعد ذلك دور الشراب على المعتاد فى آسيا الشرقية . ويتصدر مجلسه الأمير بنفسه ، اذ لا تعقد مجالس السمر ، خاصة أو عامة ، دون ترخيص منه . وأحب المشروبات عند القوم كان نبيذ العنب وخمير الشعير (البوطة) وخمير لبن الخيل (٢) . وكان نبيذ العنب أفضلها جميعا . وكان يدور به على الحاضرين فى المجلس سقاة يجثون على ركبة واحدة فى كل مرة عندما يقدمون الكأس لشاربها على صحفة بيد ، ويمسكون بمنشفة فى اليد الأخرى أو منديل ليحولوا به دون سقوط بعض الشراب على ثياب متعاطيه وهو يتناوله . وما ان تدور كؤوس النبيذ على الحاضرين دورات قليلة على هذا الرسم حتى ترى القوم يتخلون عن وقارهم بالتدريج لينطلقوا عند ذلك يتخاطفون دنان الشراب . ومن كان منهم يتصدى ليشرب نخب تيمور كان عليه أن يشرب ابريقه دفعة واحدة .

وكان القوم يستهدفون بشراهم هذا الى أن يشملوا ، وهو ما يزال يفعلونه حتى اليوم . وقد بلغ معاصرو تيمور وخلفائه بفضى الافراط فى

(١) استبدل القوم فى العصور الحديثة هذا الخوان الجلدى بنسيج من البجوت الروسى المموز اللامع ، وهو عند الأثرياء من الحرير وله سجع « شرارب » طويلة ، ويسمى دستور خوان ، وكلمة دستور معناها احتفال ، خوان ألمائدة .

(٢) ازداد اقبال المسلمين على المشروبات الروحية فى عهد الحكم المغولى . وكان تعاطيها شائعا بين الطبقات العليا من الخوارزميين . كما سادت الادمان عليها بين الجنكيزيين والتمغوريين . وقد أشار سيرته الى انتشار هذه الرذيلة . وكان اكتشاف الطباق نعمة السكارى الاميويين .

الشراب والأكل درجة لم يبلغها غيرهم . ومن كان منهم يسفط على الأرض بتأثير التراب أو يرتكب حماقة كبرى وهو فى سكره ، كانت فعلته هذه تحمل على انسجامة فى مجال اللهو والسرور . ومن كان له جلد على الشراب كان يوصف بالبطولة كالمحارب سواء بسواء . ومقياس الكمال عند التار كان يقتضى المبالغة فى كل شيء . فلم يكن يكتسل الطعام الا أن يحوى شواء فرس كامل ومعه أباريق النبيذ وفيرة فى عددها ضخمة فى حجوماتها .

وهذه الدنان أو الجفان (وكان الواحد منها يسع ما يقرب من ثلاثة جالونات على روايته كلاقيجو) كانت تصف فى صنفين على هيئة طريق بسد حتى سراقق نيسور ، فضلا عن آنية أخرى مثلها كانت تفرق فى أماكن متعددة بدينة الخيام وعليها مظلة تظللها . وكانت هذه تسلأ على فترات بالنبيذ أو الفشدة مع السكر ليستمتع بها أكبر عدد من الناس . وبسكننا أن تصور بسهولة أن مثل هذه المناسبات لم يكن ينقصها وجود المسعودين والمهرجين والراقصين على الحبال . وكان أكثرهم يقدم من كسير والهند . على أن الواقفين عسوما على عادات المسلمين والآسيويين لا بد أن تملكهم الدهشة والعجب حين يعلمون أنه كان هناك من السيدات من كن يقمن مآدب عامة يحضرها الرجال بل والسفراء المسيحيون كذلك . وقد وصف لنا السفير الأسباني حفلا أقامته الأميرة هانزاده زوج ميرانشاه ، وكانت سيدة بدينة فى الأربعين من عمرها (١) . وقد دعت الى هذا الحفل عددا كبيرا من الضيوف . وفيه طغت فنه الجبال النرى على مفعول الشراب ، وانبرى الفرسان القدماء ومعهم غلمان عبي فقاموا بدور السقاة . وثمة مأدبة أخرى كبيرة أقامتها سيدة البلاط ، أى زوجة تيمور الأولى ، فى مجموعة من الخيام كان يحجبها عن العيان سبط منشورة زخرفها من النقوش العربية وشعاراتها من الذهب والفضة . وفى هذه

(١) عاشت هذه السيدة بمعزل عن زوجها بدعى أنه حاول فى احدى ان فعلها وهو بمل ، وذلك على رواية كلاقيجو . ويبدو ان «نيسور» كان خسر العطف على زوجته ابنة هذه ، وكان لها مكانة مرموقة بالبلاط .

المأدبة روعيت التقاليد في خدمة السيدات بأدق صورة . فكان أحد السقاة يحمل الدن في حين كان زميل آخر له يحمل الكأس والصفحة من تحته . وكان على الساقى أن يجثو ثلاث مراب على ركبته قبل أن يتقدم الى الواحدة منهن . وكان عليه كذلك أن يلف يده بمنشفة فلا تلمس يده الأميرات على الاطلاق . على أن هذه الدقة لم تمنع الجنس اللطيف في بلاط تيمور من أن يغادر سيداته الموائد وهن في حالة سكر ملحوظ . على ما يفعل سيدات الطبقة الراقية في فارس اليوم (١) .

وتحكي الرواية الكثير عما كان يجري من اسنعراض أصحاب القوى والألعاب الرياضية الأخرى التي كانت تدخل في برامج الحفلات بوادي كان كل . ولقد جمع تيمور كنوزا وثروات طائلة من مختلف أجزاء آسيا . وادينا من الأدلة ما لا يقبل الشك بأنه لم يكن يردد في الاتفاق معها في وجهين :

الأول : وهو خاص بالحفلات الباذخة التي كان يقيسها والى وصفها فيما سبق .

والثاني : في اقامة المنشآت الفخمة التي رام بها تزيين حاضرتة هي ومسقط رأسه .

ولقد حرص تيمور على أن يخلد ذكر كل نصر باهر أحرزه وكل حادث قد وقع له بتذكارات من المناسبات . وجلب لذلك مئات من البنائين من الهند وأمهر رجال المعمار من شيراز وأصفهان ودمشق ، فعبروا جميعا جيحون ليقيموا من المنشآت ما يشهد بأن آسيا الاسلامية لا يزال بها من الفنانين ما هم محل اعجابنا اليوم برغم ما تعرض له تلك الأصقاع من غارات جشوع التتار على مدى فرنين من الزمان . وأن ذلك الغازي الذي

(١) انار الكتاب الماهر غير المسعق كوتس حوبيلو غضب ساء فارس الهادي عليه حين تعرض لسيرة سيدات فارس بأوروبا تعرضا غير لائق وذلك في كتابه عن دبابات آسيا الوسطى
Count Gobineau, Religions of Central Asia.

ما فتىء يوصف بالوحشية والعنف ، لم يكن خلوا من تذوقه للجمال مع سلامة فى الذوق .

ولقد أمر تيمور باقامة منشآت كثيرة فى أجزاء مختلفة من دولته ، من بيتها مسجد فى تبريز وقصر فى شيراز ومدرسة فى بغداد وضريح على قبر الولي المشهور أحمد اليسوى بمدينة تركستان . وأجمل هذه المنشآت التى يتجلى فيها ذوق تيمور الرفيع ما أقيم بكش وسمرقند .

والأولى ، أى كش ، وهى موطنه الأصلي ، بها مدافن أسرته وفيها أقام ضريبا ضم قبر أبيه وقبر ابنه الأكبر جهانكير ومسجدا له ساحة خارجية يرتل فيها الشيوخ القرآن ليل نهار ويهجون ثوابه لأرواح الراجلين . ولقد بدأ تيمور يعنى بمدينة كش عناية خاصة منذ أول حياته السياسية حتى جعل منها بالقليل قصبة آسيا الوسطى الثقافية ، وصارت تشتهر باسم قبة العلم والأدب . وكان يجلب اليها العلماء من مدارس خوارزم المشهورة والأساتذة من بخارى وقرغانة . وإن فى اقامته لقصر يلقب سراى الجميل كدليل كاف على ما اتجه اليه تفكيره يوما ما لاتخاذ هذه المدينة حاضرة له . وقد استغرقت اقامة هذا القصر سنوات عشر ، وقام على يثاته معماريون خلص من القوس التزموا فى عمارته الطراز القومى (أو بعبارة أدق الطراز الاسلامى فى غرب آسيا) حتى رسموا على واجهته الرئيسية شعار الشمس والأسد ، فزيتوا بذلك مقام القاتح الثوراتى بشارات الملوك الايرانيين (١) .

وكانت شرفة المدخل فيه ، (وهى التى تعرف فى الفارسية باسم بيشتى طاق ، أى طاق المدخل) هى أهم ما يميز به هذا القصر على الرسم الشائع فى منشآت ذلك العصر . وهى ترتفع فوق البناء على هيئة طاق

(١) كانت شارة تيمور ثلاث حلقات ٥ ٥ ٥ مع شعار « رسى راستى » أى « العدل قوة » وكان الظن أن هذه الحلقات الثلاث إنما تشير إلى أن سلطانه يشمل مناطق ثلاثة هى الجنوب والغرب والشمال . لكن الواقع أن هذه الحلقات مأخوذة عن شارات ايراق القديمة حتى لتشاهد على قبور الساسانيين بوصفها رمزا للقوة والوحدة .

أم نصف قبة ، بها تجاويف كثيرة غريبة الشكل يكسوها الآجر المصقول وزخارفها من الفسيفساء على هيئة الأزهار والنقوش العربية . وكل هذا الآجر المصقول من صنع قاشان ، ولا يزال يعرف حتى اليوم باسم قاشي (١) . وقد استخدم كذلك قى تزيين الجدران الداخلية . ولا بد أن الغرفات العليا كانت كذلك على زينة مفرطة ، اذ كانت زخارفها من النقوش العربية زرفاء ومذهبة ، وأرضيتها من بلاط مختلف ألوانه يتلاءم معها . وكانت غرف القصر جميعا على نسق واحد ، وكان جناح الحرم آية فى الروعة والبهاء . وكانت قاعته الكبرى تفتح على بستان كبير ظليل تجرى فيه جداول لطيفة ينساب ماؤها بين أحواض الزهور .

واستطاعت سمرقند بجمال موقعها أن تتغلب بمضى الزمن على اغراء كاش حتى صارت قصبة تيمور . وسرعان ما أخذت من بعد ذلك تزداد رفعة وأبهة وأهمية . ولم تكن مساحتها ، على رواية السفير الأسباني ، لتزيد على مساحة اشيلية . وهو ، على كل حال ، انما يقصد بذلك القلعة والحصن ، أى ما كان منها يقع بداخل السور (٢) .

على أن جمال سمرقند وروعته انما يتجليان ، خارج السور ، فى بساطتها الرائعة التى تمتد الى مسافة أميال خمسة أو ستة أو ما يزيد على ذلك وتتناثر فيها الدور الخاصة الأنيقة والقصور السلطانية . وكان بها كذلك طريق يمتد شرقا من بوابة الفيروز (دروازه فروزى) حتى قصر دلكنا (شارح القلب) الصيفى .

(١) لا يزال قاشان أسهر مكان بايران كلها لصناعه هذا الآجر وأن كانت تجارتها قد ركبت الى حد كبير ، ذلك أن أحوال الشرق الحالية لاتسمح على اقامة الأبنية الفخمة .

(٢) ومع ذلك فأنى أرى تقدير كلاينجو دون الواقع بكثر . وحتى حين أفصد بالقلعة الجزء المسكون من سمرقند ولبس القصر ، فإن المدينة مع أسوارها ، التى لا تزال قائمة حتى اليوم ، كانت على وجه البقين أكبر من اشيلية . ومبلغ ما أذكره هو أنى فطعت مسافة طويلة من بوابة بخارى فمررت بجداثق ومدفن الضواحي قبل أن أصل الى داخل المدينة .

ومدخل هذا القصر الضخم كان يغطيه الآجر الأزرق والمذهب حتى ليراه الناظر من بعيد وهو يتلأأ في الأفق . وكان رجال الحرس السلطاني يملأون الساحة الأولى فيه وهم في أكمل زينة وأتم سلاح . وقد قدم الزائر الأسباني الى الساحة الثانية في قافلة قوامها ستة من القيلة عليها هوداج جبيلة . وكان نيمور يجلس أخيرا في الساحة الثالثة على بساط من الحرير مطرز . وفي هذه الساحة كان يستقبل زائريه . وكان يتوسط كل ساحة فسقية (على ما يشاهد بفارس حتى اليوم) تظللها أشجار الدردار والحوار ، وبها نافورة تتقاذف فواراتها الكرات الحمراء والذهبية .

ويقع عند الجنوب قصر باغ بهشت (روضة الجنة) ويشتهر بعمارته الجميلة ومغانيه اللطيفة . ويقرر شرف الدين أنه قد بنى كله من رخام تبريز الأبيض ، وأنه كان يقوم على ربوة صناعية يحيط بها خندق عميق ملئ بالماء وعليه قناطر تصل الى المنتزه ، كما كانت تقوم عند جوانبه دار للوحوش أو السباع . وقد أهدي تيمور هذا القصر الى حبيدته ابنة ميرانشاه وكان لها عنده مكانة مرموقة . وكان يقضى أغلب أوقات فراغه معها هناك حتى عرف هذا القصر باسم الخلوة . كذلك كان يقع في هذا القسم من المدينة قصر باغ چناران (روضة الحوار) . وقد عرف بهذا الاسم اذ كانت تحوطه طرق جميلة يقوم شجر الحوار على جوانبها . وهذا القصر كان يقوم بدوره على ربوة صناعية تتوسط البستان . وكانت أبنيته متقاطعة متعامدة ، وقد اضطلع فنانون الشام بنقشه ، كما زينت جدرانه الداخليه بالتصاوير وملئت غرفه بأثاث ضخم من الفضة وفرش وموائد وغير ذلك ، ومعها أدوات للزينة غريبة الشكل والحلى الثمينة من كل نوع . ونسبة قصران آخران وصل اليها وصفهما ، وهما قصر باغ شمال (روضة الشمال) وقصر باغ نو (الروضة الجديدة) . وكلاهما بناء مربع الشكل طول ضلعه خمسمائة وألف من الياردات ، وبه تماثيل جميلة من الرخام وأرضيته مرصعة بالآبنوس والعاج .

وعلى هدى القليل مما بقى من آثار سمرقند الفخمة في ذلك العهد ، نستطيع أن نقول ان ما وصف به المؤرخون هذه الأماكن لا يحمل على

المبالغه في الغالب . فالمسجد الذى بناه السلطان خدابنده بمدينة سلطانيه قبل ذلك بقرن لا يمكن أن يرفى الى جامع تيمور الذى يعرف بمسجد الشاه والذى لا يزال يسمو شامخا فوق الآثار القديمة بمدينة سمرقند الحديثه .

ويذكر بابر في سيرته أن باب هذا المسجد كانت تعلوه آية قرآنية ضخمة الكتابة حتى كانب تطالع النظارة وهم على مبعده ميلين منها (١) . ومن منشآت هذا الطراز الأخرى ، التى يرجع الفضل فى اقامتها الى بدخ تيمور ، ذلك المسجد الكبير الذى يقوم بميدان الشاه فى أصفهان والأضرحة التى توجد فى قم ومشهد . ولئن كان فن العمارة قد ظل بواصل ازدهاره ، الى حد ما ، بأواسط آسيا فى عهد شاهرخ وميرزا حسين بيقر من خلفاء تيمور ، وهو ما ترى دليلا عليه فى خرائب المصلى بهراة ومسجد الأميرة جوهر الأنيق فى مشهد ، الا أنه ما من شك فى أن هذا الفن كان قد بلغ ذروة كماله فى عهد تيمور «البربرى المتوحش» .

وما يقال عن ازدهار العمارة عند تيمور يصدق كذلك على الصناء فى هذا الاقليم . فقد أرغم تيمور على الهجرة الى سمرقند أمهر النساجين من دمشق ، وغزالي القطن الممتازين من حلب ، وصانعى الأقمشة فى أفقرة ، والصياغ فى تركيا وبلاد الكرج ، وبالجملة كل العمال المهرة فى كل فن ، حتى كنت ترى كل القوميات والعقائد الآسيوية ممثلة فى تلك المدينة . وقد قرر كلافيجيو عدد سكان سمرقند (وكان كثير منهم يقطنون الكهوف أو يعيشون تحت الأشجار بسبب أزمة المساكن الشديدة) بما لا يقل عن مائة وخمسين ألف شخص ، وهو تقدير صحيح فى الغالب . فلا عجب اذن أن صارت سمرقند بذلك أعظم سوق لنجارة آسيا كلها . وقد ازدهرت حركة التجارة بها ازدهارا عظيما ، فحملت قوافل الهند الى سمرقند التوابل وكل طريف ولطيف من نسيجها ، وصدرت الصين اليها الحرير والخزف والمسك والعقيق والحجارة الكريمة .

(١) يذكر بابر فى وصفه لسمرقند يسيرته أن هذه الآية هى « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل » (المترجم) •

كذلك كان يرد إليها ، من القسم الشمالى من دولة تيمور المترامية الأطراف ، مقادير كبيرة من الفراء الثمين عبر الصحراء . ومنتجات المناطق المختلفة هذه جميعا كانت تعاد تعبئتها فى أسواق سمرقند ، فلا تصدر من جديد الى أهم مدن آسيا فحسب بل والى أوروبا نفسها سالكة طريقين مختلفين :

فمنفذ التجارة الأول الكبير كان بطريق خوارزم واستراباد ثم نشنى نوفجورود وموسكو حتى تصل الى أيدي تجار الاتحاد التجارى لمدن ألمانيا الهانزية .

أما المنفذ الثانى فكان بطريق قزوين وتبريز وطرابزون حيث كان تتلقفها تجار البندقية وجنوة وبيزا وينقلونها الى أوروبا . وكانت المواصلات داخل كل البلاد الخاضعة لتيمور حرة مفتوحة على التمام حتى أوقات الحروب والفن . وطالما أستاذ السفراء بذلك اذ سافروا فى كل المنطقة الواقعة بين طرابزون وسمرقند وعبر أجزاء من مناطق العدو ومعهم الكثير من المتاع تحمله البغال فى أمان تام ، فلم تصادفهم فى طريقهم مضايقات بالكاد . وكانت رحلتهم هذه عقب معركة أنقرة فى الوقت الذى بلغت فيه الفوضى غايتها بآسيا الغربية .

وسنعالج فى الفصل التالى بتفصيل أوسع مدى النهضة الفكرية التى شهدتها آسيا الوسطى بظهور تيمور . ذلك أن ثمار هذه النهضة انسا ترتبط فى الواقع بتاريخ أبناء تيمور وأحفاده ، أى بأسرة التيموريين الحاكمه جميعا .

والى تيمور نفسه يرد الفضل فى إشاعة الاهتمام الجدى بالحركة العقلية والعلمية بالبلاد حتى بلغ بذلك العنصر التركى درجة من العزة لم يعرفها من قبل . والواقع أن تاريخ الترك فى آسيا الوسطى انما يبدأ بتيمور . ذلك أن أمراء خوارزم والسلاجقة ، برغم أنهم أصلا من الترك ، الا أنهم كانوا يميلون كل الميل الى الثقافة الايرانية وثقافة العالم الاسلامى العربى ، فلم يهتموا الا قليلا بنشر النفوذ التركى والأفكار

التركية ، على غرار ما يفعله الآن آل قاجار الترك الذين يحكمون في فارس (١) .

هذا ويستل تيسور بشخصه انتصار الترك على التنظيم المغولية الصينية . وقد كان على الدوام يتوق ليثبت - عن حق - سيادة العنصر التركي . وبرغم ما كان يزدحم به بلاطه من العلماء والفنانين من غير الترك ، فإن اللغة التركية كانت اللسان الرسمي الوحيد السائد ، كما كانت الأبجدية الأويغورية هي التي يكتب بها برغم كراهية المسلمين المتعصبين لها بوصفها من بقايا المسيحية والبوذية والوثنية .

كان تيسور يكتب في أسلوب تركي رصين فصيح على ما يتشاهد في «نوروكانه» التي غالباً ما أشرنا إليها فيما سبق . وهو لم يكن كلنا باستخدام العبارات الفخمة أو الأعراف في التشبيهات التي كان يولع بها كبار الأدباء والكتاب الرسيون في عصره . وهذا الذي كان نصف آسبا برعد منه فرقا كان يبدأ كتاباته السياسية بهذه العبارة « من تنسكرى قولى بسور » (١) أى « يقول عبد الله تيمور أن .. » قبل أعظم التباين بينه وبين خانات بخارى المتأخرين وأمرائها المفلسين الذين كانت ألقابهم تبلغ عند كتابتها ياردة في الطول .

برغم الحروب المستمرة التي خاضها ذلك الفاتح الكبير ، وبرغم المتاعب المتلاحقة التي نعرض لها ، شهدت بلاده قبل نهاية حكمه نهضة عقلية لا تنكر في مبداني الدين والعلم . فالتاريخ يخبرنا عن علوى من أسرف زين العابدين هو الصوفى السيد على الهمداني الذي ذرع العالم

(١) أى وصف دليف هذا الكتاب (المترجم) .

(٢) أحب أن اصحح هنا خطأ وقع فيه بعض : *Uigurische Sprachmonumente* p. 17 حين نسبت إلى الأمير تيمور الكتابة الأويغورية عند شواطئ الدنيبر والتي يرجع تاريخها إلى عام ١٣٠٧/٨٠٠ هـ . وهي الآن في حوزة المكتبة الامبراطورية بمدينة فينا ، فصاحبها في الحقيقة هو تيمورثلق من بيت جوجى لا تيمورلنك ، وقد كانت الأوغورية هي لسان القبيلة الذهبية الرسمية كذلك .

المنحضر أكثر من ثلاث مرات كان يعظ الناس فيها ويهديهم . وقد مات هذا العالم بختلان على ضفاف جيحون عام ١٣٨٤/٧٨٦ ، وبرك مؤلفات عديدة في مواضيع اخلاقية وصوفية . وثمة صوفي آخر كبير هو خواجه بهاء الدين مؤسس الطريقة النقشبندية . وقد عاش في عهد سوري ومات عام ١٣٨٨/٨٩١ وهو يعد الى اليوم أعظم أولياء بخارى حتى ليقتل ان من حج ثلاث مرات الى ضريحه، وهو يقع على مبعدة ميل من المدينة ، فكأنه قد حج مرة واحدة الى البيت الحرام . وجدير بالذكر ، من بين الكتاب المشتهرين بالعلوم الدينية ، الشاعر لطف الله النيشابوري . وكان شاعر الأمير ميرانشاه ومدحه الخاص . ولم يكن هذا الشاعر ليحسد على منصبه عند هذا الأمير الذي اشتهر بخلاعه وادمانه على الشراب . وقد احتال على كل حال في عرض بعض من بدائع شعره على هذا الأمير النافه الذي كان عليه أن ينشد القريض في مدحه . وكان هذا الشاعر موضع تقدير بالغ من تيمور ، ومات عام ١٣٨٤/٧٨٦ . كذلك نذكر الشيخ كمال الدين الخجندی ، ولم تكن قصائده تفل في روعها عن غزليات سبيه ومعاصره كمال الدين الأصفهاني . وحين استولى تختش على بلد هذا الشاعر أرمعه على الهجرة الى عاصته على القولجا (١) ، ولكنه ما لبث أن لبي دعوة السلطان حسين الايلخاني له بعد ذلك بأربع سنوات وسار الى تبريز . وبعد بنى له هذا السلطان هناك خاقاه جبيلة تكريسا له ، ومات بها عام ١٣٨٠/٨٩٣ . وقضى كذلك بسرقة بعد عام من ذلك التاريخ العلامة التفتازاني . وقد ولد هذا العالم بالعراق عام ٧٢٢ هـ ، ونشر شرحا على الريحاني وهو في السادسة عشرة من عمره . وعاش هذا العالم في توفيق بهراة وجام وسرخس وسمرقند وغجديوان وتركستان وخوارزم وكان نابغة في علم الأصول والفقه والنحو والتفسير على السواء . ويقال

(١) يقول في بيت له (نقلا عن نارينج سيد راقم ص ٩٢ :

اكر سراي دلبران سراي بيار باده كي فارغ شوم زهر دوسراي .
اي لو كانت سрана فصرا للجمال ، فهات الشراب حتى أهجر الدارين
الدنيا والآخرة من اجلك (وكانت سراي هي عاصمة بختمش (المترجم) ،
ومن اراد تفصيلا عن ذلك الشاعر فليستظر
Geschichte Persischer
Redekuenste p. 255

أن مؤلفاته وأبحاثه التي كتبها تزيد في عددها على سنى عمره بكثير .
كذلك كان الشاعر أحمد الكرمانى مؤلف « تيمورنامه » ، وهى سيرة
تيمور نظما ، يعيش عند الفاتح الكبير ولا كلفة بينهما حتى كان يسمح
له بأن يسخر منه على وجه كان يستحق عليه اليوم الموت .. عند أكثر
أمرء آسيا أنصاف المتحضرين (١) . كذلك كان تيمور يشمل بعطفه ورعايته
عددا ملحوظا من العلماء والشعراء من غير الترك . بل أن كل الذين حملهم
معه من مختلف البلاد الآسيوية إلى بلاد ما وراء النهر كانوا يعوضون
بالكثير نظير هجرتهم هذه التي أجبروا عليها قسرا . فالعلماء من أمثال
الجزرى ، صاحب أعظم قاموس عربى ، صارت أهم مناصب مرموقة فى
البلاط . أما العلماء المعلمون الذين قدموا من نيسابور ومرو وخوارزم
وبغداد فقد بذلت لهم وظائف مجزية فى مدارس بخارى وسمرقند وكش .
تزيد على مناصبهم التي تركوها .

ويتميز عهد تيمور الزاهر على الخصوص باقامة المدارس الكبيرة
واجراء الأرزاق عليها . ولا تزال بقايا هذه المدارس تثير دهشة زوار
بخارى اليوم . ولقد جعل تيمور من نفسه مثالا يحتذى من بعده فى
ذلك ، وأخذ فى الغالب فريق من أبناء أسرته ومن الوزراء والنبل
يتنافسون فيما بينهم فى بناء المدارس والمساجد ودور الشفاء واجراء
الأرزاق عليها ، حتى لا نجد مناصبا من أن نسلك النهضة الفكرية فى آسيا
الوسطى ، بطريق غير مباشر على الأقل ، ضمن الخدمات التي أداها
تيمور لبلادده .

(١) كان تيمور ذات يوم فى الحمام ومعه الكرمانى وبعض أصحاب
المجون ، وتطرق الحديث فيما بينهم إلى قيم الرجال . هنالك سأل تيمور
الشاعر عما عساه يدفعه حقا إذا عرض (أى تيمور) للبيع . فأجاب الكرمانى
بأنه لا يشتريه بأكثر مما يعادل أربعين مليما ، وحين احتج تيمور عليه فى
ذلك بأن هذا المبلغ هو ثمن لافتة البيع وحدها ، أجابه الكرمانى بأن هذا هو
ما يصدده تماما ذلك أنه هو نفسه لا يساوى شيئا .

الفصل الثاني عشر التيموريون

٨٠٧ (١٤٠٥) - ٩٠٦ (١٥٠٠)

لم يكتب من النوفيق لخلقاء تيمور في مجال الفنون ما كتب لأبناء سلفه المغولي . فقد أقام جنكيز أسس دولة جبارة كفل . أبناء له وأحفاد سواعدهم القوة اسكمال عظمتها وتوسيع رقعتها . في حين قام تيمور بنفسه ببناء دولة وصل بقوتها ومداهها الى الذروة ، ليحيى أبناءه من بعده ، فاذا هم بدلا من أن يزدوا في قوتها كانوا أول من يزلزل بنائها بما وقع بينهم من شحنا وحروب أهلية عنيفة أدت الى نفسها (١) .

ولقد لبث الجنكيزيون يحتفظون بسلطانهم في آسيا الغربية قرين من الزمان ، في حين لم ينقطع خلفاء تيمور أن يحتفظوا الا بصعوبة مرنا واحدا بما ورثوه من أرضين برغم أن كان منهم رجال على كفاية ملحوظة كان لهم من نبيل الصفات والقدرات في ادارة دفة الحكم ما بسحق أن نذكره الأجيال من بعدهم لهم بكل تقدير وإعجاب .
لم يكد تيمور يوسد الثرى في سرقند وتنتهى مراسم العزاء حتى انطلق ورثته تحاربون في سبيل التاج (٢) وكان أولاده جيبعا قد ماتوا في

(١) شرح هذه الظروف العلامة م . بيلان ، فتراه في مؤلفه عن مير على شيرنواي (M. Belin. Notice Bibliographique et litteraire sur mir Ali Chir-Navâii) : « ما يشير العجب هو أن هؤلاء الأمراء لم يقلب عليهم الميل الى الآداب : وإنما كانوا يستجيبون لنوع من الفلسفة الدينية ، وكان تأثيرها عليهم سلاء مع ما كانوا عليه من حشونة وجفوة في الطبع » .
(٢) بنى تيمور سمانى زوجات ولكنه لم يرزق الا بأربعة من الأبناء هم : غياث الدين جهانكير ومعز الدين عمر سيح وميرانشاه وشاهرخ .

حياته باستثناء شاهرخ ميرزا النبيل الذي كان يقوم على حكومة خراسان ٢ .

وعلى هذا ففد اختار تيمور حفيده خلفا له اذ كان يشق أعظم الثقة في قدراته ، وكان هذا الحفيد هو پير محمد سيد الهند وكابل . وكان فد قضى شبابه في خوض غمار الحروب العنيفة ، ولكنه انصرف في كهولته الى المتع والملاذ تاركا أمر حكومته الى وزيره القوى الغادر پير على تاز .

ولو كان هذا الأمير قد أوتى من العزيمة ما يجعله يفيق الى نفسه فستبدل الكأس بالسيف وبنتقل من فوره الى جيحون لأمكنه بقليل من الجهد أن يستولى على التاج وسط الفوضى والاضطراب اللذين كانا يسودان البلاط اذ ذاك (١) .

وتتج عن تقاعسه هذا أن سبقه الى ذلك السلطان خليل ميرزا ، وهذا السلطان الجديد هو ابن ميرانشاه ، وكان اذ ذاك شابا في الحادية والعشرين من عمره حن استطاع بمعونة نفر قليل من القادة أصحاب النفوذ أن برقى عرش جده (٢) .

فلقد أسرع من مفامه في طشقند الى سمرقند حيث نكن هناك ، بمدد من الكنوز التي كانت مكدسة بها ، من أن ينسرى ذمم رجال الدولة الذين كانوا يعملون على تنفيذ وصية تيمور بتنصيب پير محمد رئيسا للدولة . وكان أنصار پير محمد عديدين وأصحاب نفوذ حتى حق لخليل ميرزا أن بهنىء نفسه حين أنيح له أن يقلب خططهم رأسا على عقب وببت سلطانه على الأراضى الواقعة فيسا وراء جيحون . على أنه برغم

(١) اختلف آراء الفواد في مجلسهم اخلافا كسرا . فمنهم من اسار بكم خبر وفاة السلطان ومواصلة مطارده المعول والصنن بعد أن ساع الرعب فيهم ، ومنهم من نصح بالاريداد فورا . وقد أخذ المجلس في النهانه بهذا الرأي الأخير .

(٢) لم سحب لهذا السدل في وصية سمور الا فلد صئله سن الجيش ، وكان على رأس المعارضين سمورا سلطان حسن احد احماد سمور والقائد بروندي ، ولكنهم لم يستطعوا أن يمضوا قدما لرعب عدم خليل اد اختلفوا على الطريق الذي سلكونه لذلك ، وحين اسماوا آخر الأمر الى رأى حاسم كانت العرصه فد ضاعب من أيديهم .

فوزه هذا فقد كان بوداعته وتعلقه بالخيال والأوهام أقرب الى الشاعر منه الى الحاكم .

ولقد أفلح في كسب الكثيرين الى صفه بأسرافه البالغ وبذله الكثير لهم مما تركه جده من كنوز طائلة ، كما بلغ في الوفن نفسه الى تنفير الكثيرين منه حين عمد الى ابعاد كثير من أتباع جده القدامى عن البلاط ، فخلق لنفسه بصنيعة هذا ، بعد وقت قصير ، عددا كبيرا من الأعداء الألداء . ويقال كذلك انه مما صد الناس كثيرا عنه ما كان من كلفه السديد بجارية سابقة لحاجي سيف الدين تدعى شاد ملك (بهجة الملك) وفد بنى بها عقب ارتقائه العرش ، وكان تيمور قد حاول في حياته أن يضع حدا لغرام حفيده الخاطيء هذا فقرر أن يتخلص . الجارية يقتلها ، ولكنها أفلتت من يده ، ليكتب لها من بعد ذلك أن ترقى العرش وتندفع زوجها الى سلوك بغيض دفع أخلص خلصائه الى أن يخرج عليه ويحاربه (١) .

وكان الأميران خداداد وشيخ نور الدين أول من ثارا عليه فاستوليا على امارة تركستان وجزء من فرغانة . وسرعان ما أعلنت بعض قبائل البدو في الصحراء استقلالها بدورها كذلك . ولو لم يعمد پير محمد ، في سبيل توكيد حقه في العرش ، الى الزحف على جيحون في جيتس كبير حتى هدد مركز خليل تهديدا جديا ، لبقى السلطان الجديد على موقفه السلبي منهمكا في سمرقند بنظم الغزل في محبوبته . وعمد القسم الأول من الجيش الذي سيره خليل لصد الغزاه الى خيانة الهدف الذي خرج له في نذاله ، حتى اضطر السلطان الى محاربة قواته نفسها . وكان يفود هؤلاء العصاة مبرزا سلطان حسين ابن أخى خليل . وكان يرمى من وراء عصيانه هذا الى أن يقيم له دولة مستقلة على ضفاف جيحون .

(١) كانت هذه السيدة ابان حياة تيمور في مقام متواضع جدا بالنسبة لغبرها في الحريم . وقد لفيت اذ ذاك كيرا من المهانات التي تأرب لها في قسوة بالقى بعد أن صار لها شأن فأساءت اساءة بالغة الى أكثر من واحد من الأمراء الكبار وكبار رجال الدولة .

وكان من حسن طالع خليل أن وقف على خطط هذا الخارج عليه
فرحف اليه وهزمه في موقعة جكدليك بمنطقة كش .

وانتهت المفاوضات بين مدعى العرش هذين الى الفشل ، لتشتعل
من بعد ذلك نيران الحرب الأهلية بالبلاد كلها . فما أن عبر پير محمد
جيحون حتى هاجمته قوات خصمه عند نصف فهزمته وأرغمته على
الارتداد بعد أن ترك من ورائه كل متاعه وما كان يحويه معسكره .
وغاود هذا الأمير الكرة من جديد فباء بالفشل . ذلك أن ما كان قد
انصرف اليه من ادمان الشراب والافراط في الملاذ لم يبق له أى قدر مما
عرف عنه من النشاط الجهم حتى انتهى به الحال الى أن قتله غدرا وزيره
پير على تاز (١) في خيمته (٢) بالقرب من شيورغان عام ٨٠٩هـ (١٤٠٦م) .

وكان هذا الوزير مجرد تابع بسيط بلغ به سيده الى أعلى المراتب .
ولئن كان خليل قد عدا بذلك في مأمن بالنسبة لحدوده الجنوبية ، الا أن
الحال في الشمال كان لا يزال على خطورته ، ذلك أن الأميرين الثائرين
خداداد وشيخ نور الدين كانا قد وسعا من دائرة نشاطهما وانضم اليهما
كذلك جملة من الأمراء حتى نهضا في قوة كبيرة للزحف على سرقند .

هنالك سير خليل جيشا للقاء هؤلاء الثائرين نصب عليه أرغون شاه
والله داد . غير أن هذين القائدين كانا ، مع الأسف ، على اتفاق مع
العدو في السر . حتى اذا ما خرج هذا الأمير التيسورى الشجاع ، سيىء
الحظ ، مع نفر من خلصائه ليلحق بذلك الجيش ، كان هذان القائدان
أول من خاناه ، فاذا بقوة صغيرة من جند خداداد تفاجئه في خرائب

(١) في النسخة المطبوعة على الحجر من روضة الصفا ذكر اسمه
مير علي يار ، وكذلك في تاريخ سيد راقم وتاريخ مقيم خانى ، ومع هذا
فلا أشك في أن الصحيح هو ما ورد بمخطوط مطلع السعدين القديم
الجميل .

(٢) ارتكب هذا الوزير الخائن فعلته هذه وفي خاطره ان يجعل من
نفسه اميرا على بلاد الاقفاق وشمال الهند . ولكنه اضطر الى الهرب على
اثر ثورة الأمراء الكبار عليه ، ففر الى هراة حيث أمر شاعرخ بقتله ، وضم
املاك ابن أخيه اليه .

قلعة شيراز فتأسره وتحمله الى خصمه السابق . هنالك أرغم خليل على التنازل عن العرش ، وقد عوضه عنه خادمه السابق الثائر بحكومة كاشغر . ولم يجزع خليل في الواقع لما نزل به الا قليلا ، اذ كان منصرفا بكليته الى التفكير في حبيته شاد ملك بسبب انفصاله الاضطرارى هذا عنها ، وقد عبر عن لوعته هذه في أشعاره الحزينة . وسقطت في الوقت نفسه بأيدي الثائر الظافر سوفند بكل كنوزها . وفيها عمد الى ائزال صنوف الزرايه والسخرية بالأميرة شاد ملك علنا ، وعرضها لأبشع الاهانات (١) . على أنه لم ينعم بشار نجاحه هذه طويلا . ذلك أن شاهرخ ميرزا ، أكبر الأمراء التيسوريين الذين كانوا على قيد الحياة ، لم يستطع أن يبقى طويلا في موقفه السلبي متفرجا بازاء مجريات الحوادث ببلاد ما وراء النهر . وكان هذا الأمير أكفاً بنى جلدته وأقدرهم ، وكان بلاطه صورة صادقة لما بلغت الثقافة في عصره . وكان يرى في أجواء الحضارة والمدنية الرفيعة بخراسان ما هو جدير بأن يشغله عما كان يسود أقاليم جيحون من مساكن . ولئن لم يعر الحوادث التي جرت هناك عقب وفاة أبيه أول الأمر فدرا يذكر من الالتفات ، الا أنه حين رأى أن مصالح أسرته قد باتت مهددة ، لم يستطع تجنب الحرب أكثر من ذلك ، وقد كان لها جد كارها .

وحين بلغه ما نزل بابن أخيه من المحن انطلق لوقته يطارد خداداد (٢) وأدى بهذا الأخير قلة استعداده للمقاومة الى أن تصنع الاستسلام

(١) يذكر مير خوند أن شاهرخ هو الذى فعل ذلك بهذه الأميرة بعد استيلائه على سمرقند ، على أن الرواية الأخرى هي أقرب للاحتمال عندى ، وهي التي نقلها مالكولم في كتابه عن تاريخ فارس . فقد كان شاهرخ نفسه كلفا بزواجه جوهر شاد . وعلى ضوء ما يروى عنه حتى اليوم . يبدو أنه من الصعب أن نتصور أنه توجه الى الحاق الأذى بشعور ابن أخيه العاشق .

(٢) كان خداداد ينسب نفسه الى الجفتائبين . وبرغم السك في سحنة ذلك فمن المؤكد أنه كان يتزعم جماعة الجته الذين أخضعهم تيمور . وكان يسير تحت لوائه كل المغول والقالموق عند الشمال الشرقى من بلاد ما وراء النهر .

لخصمه أول الأمر ، على أن حيلته لم تنطل على شاهرخ ، فتقدم الى سمرقند حيث استقبله أهلها استقبالا حافلا ، في حين ارتد خداداد عجيلا الى طشقند ، وقد انطلق ينشد العون عند الأمير المغولي محمد خان . ولكن هذا الأمير كان يتردد في معاداة شاهرخ القوي ، فبدلا من أن يسد يد العون الى الثائر الطريد ، أمر أخاه شمع جهان بالفبض عليه ، ثم قتله من بعد ذلك وبعث برأسه الى شاهرخ مبرزا رمزا للصدقة المغولية.

وحين استقر الأمر لشاهرخ ببلاد ما وراء النهر ، حدا ما ، تذكر ابن أخيه الأمير البائس خليل ، وكان قد نقله أخ لخداداد الى حصن في جبال آلتاوغ عقب مقتل ذلك الثائر ، فسير شاهرخ من فوره فائده شاهسك للاستيلاء على ذلك الحصن . والظاهر أن خليلا كان يخاف عه ومخلصه أكثر مما يخاف ذلك الثائر الذي أسره ، فلم ير أن يسر الى شاهرخ الا في حرس قوي ، وقد أجيب الى ما طلب .

وسار خليل على ما أراد حتى بلغ شاطيء جيحون الأيسر حيث استقبله عه في مضاربه استقبالا حارا وغره بعطفه حتى رد عليه حبيبه شاد ملك . ولم يسح له شاهرخ بارتقاء العرش من جديد . ولكنه جعله نائبا له على العراق على سبيل التعويض . وقد وافاه أجله وهو في الطريق عام ٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م .

وتقول الرواية ان شاد ملك (بهجة الملك) التي وصف لأكثر من سبب ، بأنها كانت نقصة على حكمه ، ماتت كيدا عد ساعها بوفاة زوجها (١) .

واضطر شاهرخ في السنة التالية أن يعبر جيحون من جديد شاهرا مسلحته ، ذلك أن أمراء بلاد ما وراء النهر كان قد شجعهم قصور خليل من قبل فرأوا في تغيير حكومة بلادهم سببا للجنوح الى العصيان ، وتزعهم هذه الحركة الأمير شيخ نور الدين ، وفي خاطره أن يأخذ العرش

(١) يقال ان هذه السيدة لم تطلق الحياة بعد وفاة زوجها المخلص فذلت خنجرها الى قلبها . وقد دفنت الى جانبه في قبر واحد .

لنفسه ، فبدأ بالعدوان . ولكن القائد شاهملك دحره حتى اضطر الى الارتداد الى طشقند تاركاً من ورائه أنصاره ليدفعوا وحدهم ثمن ما قدمت يداه .

هكذا غدا شاهرخ وكل أملاك أبيه في حوزته (فيما عدا سوريا والعراق العربى) ، فعهد بحكومة بلاد ما وراء النهر الى ابنه الأكبر ألغ بيك . ولم يبرهن هذا الأمير على أنه جدير ببنوته لشاهرخ فحسب ، بل فاق كذلك أباه في حبه للعلوم والفنون جميعاً . وهو الوحيد بين الأمراء النيموريين الذى ظل اسسه لقرون عديدة يذكر مقروناً بالاجلال بين المسيحيين فى الغرب .

فألغ بيك أو (فلنسه يلاسه الأصلى) محمد تورغاي ، كان فى الخامسة عشرة من عمره عند وفاة جده ، وفى العشرين فقط حين عهد اليه بهذه المهمة الشاقة فى الاضطلاع بحكومة ما وراء النهر . ومع هذا فقد كان حكمه الطويل هو عهد النيموريين الذهبى فى الأقاليم الواقعة غرباً وراء جيحون ، وساد السلام فى عهده توران فى الغالب لما كان لأبيه من المهابة .

وبرغم عدوان المغول المكرر عند الشمال الشرقى ، حتى اضطر ألغ بيك فى احدى المرات الى أن يسير بقواته حتى آق سو ، فاننا لا نجد هذا الأمير يقوم ابان حكمه بغزو جدى الا مرة واحدة فى الشمال ، ذلك الغزو الذى انتهى الى نهاية سيئة وجلب معه على بلاد ما وراء النهر مزيداً من السقاء .

كان تيسور قد عهد بخاتمة القبچاق الى قوورجاك . وكان لهذا الأمير ولد يدعى براق أوغلان أخرجه أعداؤه من بلاده .. فالتجأ عام ٨٣٨ هـ / ١٤٢٤ م الى تركستان ونزل بالقرب من سغناق . وسرعان ما ادعى هذا الأمير بحقه فى الاستيلاء على هذا الحصن . هنالك رد فائد المكان على ذلك بأن بعث الى ألغ بيك يشكو له مر الشكوى مما يقوم به حشد التيجاق ، أو الأوزبائك (كما يسميهم عبد الرازق صاحب مطلع

(السعدين) ، من أعمال النهب ، حتى رأى ألغ بك أن يتولى هذا الأمر بنفسه . ولما كان أبوه لا يثق كل الثقة في قدراته الحربية ، فقد بعث إليه بابنه الثاني جوكى ومعه بعض القوات ليعاونه في مهمته هذه . ولم يبرث ألغ بك حتى يلحق به أخوه فسارع الى مهاجمة خصمه .

وأفلح براق بفرسانه ، وكانوا ممتازين على قلة عددهم ، في أن ينزل بخصمه هزيمة حاسمة ، حتى اذا ما وصل جوكى الى هنالك وجد أن الأمر قد خرج من يده ، وبهذا استطاعت جوع القبحاق المنتصرة أن تسير في غاراتها حتى ما وراء خجند دون أن يعوقها عائق .

وقضى الشاب ألغ بك بعد هذا الحادث الطارئ بضع سنين في سلام ووثام دعى فيها مجتمع العلماء ، ذلك المجتمع الذى كان يناسبه ، وزين حاضرتة بالمنشآت التى لا تزال آثارها قائمة حتى اليوم تنبى عما كان لمنشئها من ذوق رفيع وما بذله فيها من بذخ بالغ . ويصف بابر في سيرته سمرقند في ذلك الوقت وصفا يوثق به الى درجة كبيرة . وما يذكره من منشآت ألغ بك بها :

- ١ - خانقاه ، قيل ان قببتها كانت أعظم قبة من نوعها في عصره .
- ٢ - مدرسة كان بها حمام مزين بالفسيفساء في أبدع صورة ، وهذه المدرسة أنشئت عام ٨٢٨هـ (١٤٢٤م) .

وكان الأمير قد أوقف عليها أوقافا جليلة . وقد صارت الى خرائب في القرنين الماضيين ، واتخذ اليوم الناعق مكان الطلبة المجدين بها ، وصار منذ ذلك الوقت هو القاطن الوحيد بهذا البناء الذى كان يشيخ في الماضى (١) .

- ٣ - المسجد المقطع ، وسمى بذلك اذ كانت جدرانها وسقفه تزينا جميعا النقوش والزخارف من الخشب المقطع .

(١) مدرسته هذه ونظيرتها الأخرى ببخارى كان قد كتب على بابها طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، (تاريخ الحضارة الإسلامية جمة حمزة طاهر ص ١٠٨ ، ١٠٩) .
الترجم

٤ — قصر چهل ستون وبه صفوف من الأساطين الفخمة ، منها ما هو مستقيم الجوانب ومنها ما هو ملفوف ، وتقوم على جوانبه أبراج أربعة .

٥ — فاعة العرش (قورونوش خانة) (١) وجميعها من المرمر . وكانت المصطبة التي يقوم عليها العرش كتلة واحدة ضخمة من الحجر طولها خمس عشرة ياردة وعرضها ثمان وارتفاعها ياردة واحدة . وقد أسسها حماد بن قنبر أثناء نقلها (٢) . والبستان الملحق بهذا البناء فيه قاعة التصاوير (چین خانة) وكانت جذرائها مغطاة بتصاوير من الجص صنعها نقاشون من الصين استفدوا من هناك لهذا الغرض .

٦ — المرصد المشهور الذي بديء في إقامته عام ٨٣٢ هـ على جانب نيل كرهك بايعاز ومساعدة العلامة ابن قاضي الروم غياث الدين جمشيد معين الدين القاشاني واليهودي صلاح الدين . وكان هذان العالمان قد ادما من فاشان بدعوه من الأمير ، فوصلهما بالعطاء الكثير ، وقد استغرق إتمام هذا البناء زمنا طويلا . وعلى حد قول الشاعر فان جميع هؤلاء الرجال « رأوا نجم حياتهم يأفل في الوقت المحدد » فلم تطل الحياة لأحد منهم حتى ينهد تسام بنائه .

٧ — سطلع باتسام البناء العلامة على قوشجي . ووضعت جداول الرجب المسهورة والتي نسب الى ألغ بك (وتعرف كذلك بالزيج الكركاني) عام ٨٤١ هـ (١٤٣٧ م) .

وحين تبين لألغ بك من بعد ذلك أن جداوله لا تتفق مع أرصاده في سرهند نهض بنفسه بتصحيحها بمساعدة جيلة من العلماء ، فحفص

(١) هذه الكلمة معناها أصلا في التركية ، الدار التي يجتمع فيها الناس ، أي دار الندوة أو قاعة الاجتماع .

(٢) لا يبدو أن هذا هو نفس كوكناس (الحجر الأزرق) الذي ساعدته في سمرقند ووضعه في كتاب رحلتي (ص ٢٠٦) ، وكان بهذا الحجر الذي رأيته شي كذلك . ولكن هناك فرقا كبيرا بين أبعاد هذا الحجر والأبعاد التي ذكرها بابر فلا تشير بذلك الى الشيء نفسه .

بذلك علم التتار كل النتائج السابقة التي وصل اليها علماء اليونان (١) .
ويتحدث عبد الرازق ، صاحب كتاب « مطلع السعدين » الذي
أشرنا اليه من قبل ، بحماس بالغ عن الآلات المختلفة التي شاهدها هناك،
وكان منها ما هو خاص بمسح الأرض وتعيين الارتفاعات وتحديد خطوط
الطول والعرض . بل انه لا يجد من الألفاظ ما يسعفه ليعبر بها عن
دهشته حين اطلع على الكرات السماوية وعليها النجوم والكواكب في
مسالكها باحكام تام ، والخرائط التي تبين صورة كل اقليم في دقة تامة
وعليها التلال والصحراوات والبحار . وكان الناس يرون في هذا المرصد
يحق أنه احدى المعجزات ، حتى قدمت من هراة الى سمرقند لمشاهدته
والدة السلطان السيدة الوقور جوهر شاد (جوهرة السرور) عام ٨٢٣هـ
(١٤٣٠م) .

ولم تكن فروع المعرفة الأخرى بأقل حظا من رعاية أئمة بك .
فبلاطه كان ملتقى الشعراء والعلماء من كافة أركان الدنيا (٢) . وكان
يتنافس وأبوه في اغراء أصحاب الفنون والعلماء ليقتصدوا اليها . ولم

(١) تنقسم جداول الفلك الى اقسام أربعة ، وسنأول :

١ (مختلف العصور والمناطق .

ب (المواقيت .

ج (مسالك النجوم .

د (مواقع الأجرام السابتة .

وفد عرف العالم العربي هذه الجداول أول ما عرف بواسطة أساذ
عالم من أكسفورد هو جون حريفز John Greaves وهو رياضي ميسر
ومستشرق ، وذلك عام ١٦٤٢ - ٤٨ . وترجم هذه الجداول الدكور
برماس هايد Thomas Hyde ونشرها مع ترجمة حياذ الفلك عام ١٦٦٥
بعنوان *Tabulae longae lat. stellarum fixarum ex observatione Ulug Beighi Tamerlanii magni nepotis.*

وطبع هذا الكتاب مرة ثانية مع تصويبات قام بها شارب

عام ١٧٦٧ ونقله بعد ذلك الى الفرنسية سديبو M Sédillot انظر
Markhsma Indian Survey p. 235.

(٢) فضلا عن ساعره الخاص خواجه عصبم بحارى كان هناك
من الشعراء خيالى وبرندف ورستم خوريانى وطاهر اسوردى وكان لكل
واحد منهم مكانته المرموقة ببلاط الفلك .

تلق الفنون الجميلة من عناية الأمراء منذ عهد السامانيين ما لقينه عند
ألع بك .

ومن أسف أن الأيام الرخية امتدت ما بقى شاهرخ على قيد الحياة،
فلم يكد ينتقضى أجله عام ٨٥٠ هـ (١٤٤٨م) حتى تعكر هذا الصفاء غير
العادي الذى ظل يسود آسيا الوسطى وقتا طويلا ، وأخذت سماؤها
الصافية تتلبد بالسحاب الثقيل ، وطفقت ثمار السلام الطيبة تتعرض للتلف
بسبب قيام الحروب الأهلية . ذلك أن ألع بك كان يرى فى نفسه وريث
الدولة كلها ، بوصفه أكبر أبناء شاهرخ . فما ان سمع بموت أبيه حتى
خرج من فوره الى خراسان ، وفيما كان فى طريقه وافقه الاحبار بأن
علاء الدين ابن أخيه بايسنفر ميرزا قد سبقه فدخل هراة وأوقع ابنه
عبد اللطيف فى أسره . وخاف ذلك الأب الشفوق على ابنه فصالح علاء
الدولة على أن يطلق سراح عبد اللطيف ويعيد كل الأموال التى استولى
عليها ويفك اسار الرجال الذين أمسك بهم . ونفذ علاء الدولة أول هذه
الشروط دون باقيةا ، اذ كان قد قتل عددا كبيرا من الجند الذين وقفوا
أسره ، كما رفض كذلك أن يرد شيئا من الأموال التى استحوذ عليها
هنالك لم ير ألع بك بدا من الحرب ، وكان كلا الطرفين قد
على أن يسيرا بها الى غايتها . وكان علاء الدولة ، وقد استولى على أكثر
الأموال التى كدسها شاهرخ فى مدى خسة عام ، على استعداد
لبذلها كلها فى هذا النزاع ، فضلا عما كان قد جهز به جنده من السلاح
الكثير .

وحاول ألع بك من جديد أن ينهى الأمر صلحا مع خصمه ولكنه
لم يوفق . والتحم الخصمان آخر الأمر عند ترناب على مسيرة أربعة
فراسخ من هراة فى معركة انتصر فيها ألع بك نصرا حاسما ، وفقد عدوه
وجه وجيشه معا واضطر الى الهرب الى مشهد . وسار ألع بك ، من بعد
ذلك ، فى اثره يطارده حتى خراسان الغربية ، وأخذ ينزع فى طريقه
الندن ، الواحد بعد الأخرى ، وذلك بساعدة أخيه أبى التماسم باير
ميرزا .

ولكن حدث أثناء غيابه أن هرب لسوء الحظ التركمانى يار على بك أحد زعماء قبيلة قره قيونلو (الخروف الاسود) من محبسه الذى كان قد زجه فيه ألغ بك ، ثم جدد نزاع أسرته القديم مع التيموريين فسقط على مدينة هراة واتتهبها وحطم كثيرا من منشآتها الجميلة ومن الآثار الفنية الكثيرة التى كان شاهرخ قد زينها بها .

وتعرض سمرقند بدورها فى الوقت نفسه لمحنة مشابهة ، حين انطلق فرقه من مغامرى فرسان الأوزبك حنى بلغت أبواب المدينة وصب أفرادها جام غضبهم على صواحيها فى وحنية زائده .

ويقول عبد الرازق : « ان صور القسيساء الجميله التى كانت فد جلب خصيصا من الصين فد حطسها هؤلاء الأوزبك بهراواتهم ، وكان نزين جدران بهو الصور (چين خانه) ، كما نزع زخارف الذهب . وهكذا حطس تحطيسا تاما فى مدى ساعات قليلة الاشغال الفنية الى اسغرق انجازها سنوات بأكملها » .

ولئن كان هذه المصائب قد هزت مشاعر ألغ بك الفنية هزا غنيما دون مرء ، فقد كان هناك كذلك نكد آخر أشد وفعا مدخرا له .

ذلك أن ابنه المحبوب ، وهو الذى سلك طريق الفتح أول ما سلك من أجله ، قد قابل حبه له بأشد ضروب العقوق . فلقد حارب عبد اللطيف فى معركة نرناب بنسجاعة فائقة ، ولكن الغضب ما غدا أن علب عليه حين رأى أباه ينسبد بجهود أخيه عبد العزيز من دونه . وزاد فى سورة غضبه أن اختص ألغ بك نفسه بكل ما وجده من مناع فى قلعه اخنيار الدين ، وكان عبد اللطيف يرى نفسه أحق بها . وما ان استطاع بعد لأى أن يحمل أباه على أن يعهد اليه بحكومة بلخ حتى رفع راية العصبان هناك من فوره وعبر جيحون على رأس جيش كبير . وأرغم الأب المنكود الحظ على أن يشتبك مع ابنه فى هذه الحرب الشاذة فهزم فى أول واقعة .

وظل ألغ بك من بعد ذلك يضرب فى الأرض على غير هدى حى ارتد آخر الأمر الى شاهرخية (بناكت) . وهناك وقع فى الأسر مع ابنه

الأصغر عبد العزيز . وبلغ من فسوة عبد اللطيف ، ذلك الابن الشائر
الفظ ، أن أمر بأبيه فقتل بيد عبد فارسي يدعى عباس .

هكذا انتهت في عام ٨٥٣ (١٤٤٩) حياة ألغ بك الذي يعد من بين
أعظم الأمراء الشرقيين المستنيرين . وقد حكم نائبا لوالده مدة ثمانية
ونلاثين عاما . واستقل بحكم بلاد ما وراء النهر وتوابعها في الشمال
والجنوب لمدة عامين وثمانية أشهر .

ولم ينح لعبد اللطيف قاتل أبيه أن يجنى ما كان ينوقه من نثار
جريسته هذه ، فقد استولى على السلطان في سمرقند عبد أحد
أحفاد ميرانشاه . وكان أبو سعيد هذا قد لجأ الى بلاط ألغ بك فرحب
به وزوجه بابته . ولم يمنعه حسن وفادة ألغ بك له من أن يثور عليه
في الوقت الذي كان قد خرج فيه لحرب ابنه العاصي . ولم يستطع
عبد العزيز نائب ألغ بك الذي كان قد تركه على سمرقند ، أن يصمد
دام أبي سعيد وقوانه المتفوقة ، وبهذا سقطت المدينة في يده .

وتج عن ذلك أن وجد عبد اللطيف نفسه ، بعد انتصاره المشين
على أبيه ، مضطرا الى أن يواصل الكفاح ضد خصه القدير هذا .
وحالف الحظ قاتل أبيه بعض الوقت اذ هزم أبو سعيد ووقع في الأسر ،
ولكنه استطاع من بعد ذلك أن يفر الى بخارى .

على أن عبد اللطيف لم يطل حكمه من بعد ذلك الا شهورا ستة ،
اذ قتله عام ٨٥٤ (١٤٥٠) بابر حسين أحد أتباع ألغ بك السابقين ، وكان
قد أقسم أن ينتقم لمقتل سيده ، ثم فصل رأسه عن جسده وعلقها بأعلى
رواق المدرسة الفخمة التي أقامها ألغ بك . وشاع في الناس على اثر ذلك
مطلع فصيدة معناه « ان قاتل أبيه لا يليق بالملك » (١) .

(١) أخطأ المؤلف في فهم هذا البيت وهو « بدرکتی بادشاهی رانشاه
بدر وکرشاید بجزشتی ماه نباید » . أي أن قاتل أبيه لا يليق بالملك ، وأ
حكم فلسنة أشهر فقط وهي مدة حكم عبد اللطيف - حبيب السير راب
ص ٤٣

وكان الأهليون يرون أن المتاعب التي نزلت ببلاد ما وراء النهر إنما كانت قصاص العلى القدير من ذلك الحاكم جزاء بما ارتكبه من جرم جسيم . وخلفه على العرش عبد الله ميرزا أحد أحفاد شاهرخ ، وكان قد لقي بدوره كل ترحيب عند ألغ بك وبنى بابنة أخرى من بناته . هنالك تقدم أبو سعيد لينازع الأمير الجديد ، ولكنه هزم مرة أخرى وارتد الى سيحون حيث لحق من بعد ذلك بالأمير أبى الخير الأوزبكي . وأمدّه أبو الخير بقوة كبيرة من الجند هاجم بها عبد الله وانتزع منه في معركة واحدة تاجه وحياته بعد أن حكم اثني عشر شهرا . وبهذا تم لأبى سعيد قبيل آخر عام ٨٥٥ (١٤٥٢) الاستيلاء على سمرقند قصبة الدولة التيمورية .

على أن هذا النصر كلفه غالبا ، ذلك أن الأوزبك ، أبناء الصحراء الخشنيين هؤلاء ، انطلقوا عند ذلك يعملون السلب والنهب بكل البلدان على نطاق واسع . وبرغم ما أتحصوا به من الأسلاب فإن أبا سعيد لم يتمكن من أن يحملهم على الرجوع الى مواطنهم بالصحراء الا بعد أن عمد معهم الى الحيلة تارة والى القوة تارة أخرى (١) .

ويعد أبو سعيد هذا أعظم خلفاء تيمور جميعا طموحا . ويؤثر عنه أنه كان كلفا بترديد مقالة جده العظيم بأن العالم جد صغير حتى لا يتسع لفاتحين في آن واحد . وعلى هذا المبدأ وجد أن بلاد التورانيين أضيق من أن تتسع لأطماعه ، فاتجه لذلك بنشاطه الحربى نحو خراسان وإيران أكثر مما اتجه الى بلاد ما وراء النهر . واذ كان أعضاء الأسرة التيمورية منقسمين على أنفسهم ، وقد تملكتم حوى الفتح من كل واحد

(١) كان أبو سعيد قد ظهر بمفرده عند أحد ابواب مدينة سمرقند المحاصرة وكشف عن شخصيته وطلب السماح له بالدخول . وحين تكشف للأوزبك أنه قد تركهم في السر ركبهم سوء الظن ، فخاف فريق منهم أن يهاجم أبو سعيد مؤخرتهم فانصرفوا لوقتهم ، في حين طرد من بقى منهم بالقوة . ولم يكن صنيع أبى سعيد هذا ليتفق يقينا مع ما كان يجب عليه من العرفان بالجميل نحوهم . ولعل هذا كان هو السبب الأول فى تقاعس أبى الخير عن انجاد التيموريين من بعد ذلك .

منهم في نفس الوقت ، فقد كان يستحيل على أبي سعيد ازاء ذلك أن يأمل في اقامة دولة له الا أن تتم له الغلبة أولا على جملة من الخصوم الأقوياء .

وأول حرب اشتبك فيها جاءت بسبب استيلائه على سمرقند وكانت مع أبي القاسم بابر ميرزا (١) . فقد توغل هذا الأمير في خراسان عقب موت شاهرخ مباشرة ، يسانده ألغ بك ، كما استولى على حكومة هراة عقب مقتل الأمير التتركماني يار علي . ويقال ان عهده هناك كان عهد رخاء وسلام حتى ليبدو أن كان حقا جد راغب في النهوض بخراسان بعد ما نزل بها من مصائب . وكان يرى ، بحق ، في أبي سعيد عدوا خطيرا ، ولكنه ما غدا أن عقد الصلح معه بعد أن ضرب الحصار حول سمرقند أربعين يوما دون طائل .

ولم يعان أبو سعيد مشقة كبيرة مع أحمد ومحمد جوكي ولدي عبد اللطيف حين حاولا استرجاع عرش أبيهما ونازعا دعواه في الحكم ، فأوقع بهما الهزيمة عند بلخ عام ١٤٥٥/٨٥٩ . وفي هذه الحرب قتل أحمد ، أما أخوه محمد فقد فر هاربا فاردا الى ما وراء سيحون حين راح يسند عون الأوزبكى أبي الخير كما فعل أبو سعيد من قبل أمام ضنكه . وقد كانت سهوب بلاد ما وراء النهر الشالية منذ زمن متناه في القدم موردا للجيش ، وبرغم ما تظاهر به أبو الخير نحو جوكي من فتور ، اما حرصا على صداقة أبي سعيد وقد كان له ظهرا فيا سبق أو لسبب آخر ، فانه على أية حال لم يعدم وسيلة لمساعدة ابن عبد اللطيف هذا . فقد دعا اليه بورغه سلطان وكان من أبطال الصحراء (وبذكر لنا أبو الغازي عنه أن صدره لم يكن يحوى ضلوعا وانما كانت عظامه صفحة واحدة) وقال له :

« ليس هناك من بيت أفراد أسرتي من يعدلك في الاضطلاع بالأمر الذي نديت لك له . وأنت فوق ذلك ما بورغه بمنزلة ابني ، فادع قومك

(١) كان ميرزا أبو القاسم بابر (ولا يجوز الخلط بينه وبين مؤسس الدولة المولده في الهند) من أحفاد شاهرخ بطريق ابنه باسنفر ميرزا .

وامض بهم ومن سوف أمدكم به من رجالى فكن بهم جميعا ظهيرا لهذا
التيورى فى متاعبه . »

وقبل بورغه أن يضطلع بهذه المهمة ، فسار الى طشقند حيث انضم
اليه أشياخ الأوزبك القدامى والجفتائيون الساخطون ، فاستولى على
شاهرخيه (١) ثم عبر سيحون واتخذ طريقا قدما الى سمرقند . هنالك
التقى به الأمير مزيد حاكم سمرقند واشتبك معه فى القتال . وكان يقود
الجناح الأيسر لجيتس جوكى القائد يشكند أوغلان قائد قوات أبى
الخير المساعدة ، فى حين كان فى الجناح الأيسر بورغه ومعه الجفتائيون.
وخسر السمرقنديون المعركة فارتدوا الى حصونهم عجلين . وتم لجوكى
من بعد ذلك الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر كلها بالتدريج .

وبلغت أخبار هذه الحوادث أبا سعيد ، وكان بدوره مستبكا فى
حرب دامية بخراسان مع ميرزا حسين بيقر ، وكان خصما جديرا به على
كل حال ، فاستعد من فوره لعبور جيحون . وكان بورغه وجوكى فد
نزلا فى الوقت نفسه بقواتهما على شواطئ ذلك النهر وأخذا يدرسان
مواقع الدفاع عنده . وكان بورغه يرى الدفاع عن جيحون اعتسادا على
شجاعة الأوزبك ، فى حين كان يفضل جوكى أن يرتكز فى دفاعه على
سيحون لعدم ثقته فى الجفتائيين . وكان هذا الأمير فى الواقع أبعد
نظرا فى هذه المسألة من ابن الصحراء هذا ، وقد جاءت الحوادث فيسا
بعد مؤيدة له .

ذلك أن أبا سعيد لم يكد يبلغ بلاد ما وراء النهر حتى أخذ
الجفتائيون ينطلقون جماعات الى ناحية العدو حتى اضطر جوكى ، ومعه
حفنة ممن بقى معه ، الى أن يلقوا بأنفسهم فى حصن شاهرخيه ويمتنعوا
فيه ، فى حين شق بورغه طريقه الى الصحراء وقد أخذ يعمل السلب
والنهب فى كل ما صادف فى طريقه .

(١) أطلق اسم شاهرخيه على مدينة بناكت بعد أن جددت على أثر
تخريب المغول لها . وقد أطلق عليها هذا الاسم تكريما لشاهرخ مبرزا .

وربض أبو سعيد أربعة أشهر عند حصن شاهرخيه ، وكاد ينهم له الاستيلاء عليه لولا أن خرج ميرزا حسين بيقرا غازيا من جديد ، فاضطر إلى أن يهادن صاحب الحصن . وانطلق من بعد ذلك إلى جرجان فهزم خصمه ثم عاد عام ٨٦٧ (١٤٦٢) إلى شاهرخيه من جديد ففقد عشره أشهر أخرى عند أسوارها ، حتى رأى جوکی آخر الأمر أن آماله كلها قد ضاعت فأخذ يفاوض خصمه .

ودنا من الحصن خواجه عبيد الله يحمل راية الهدنة من قبل السلطان أبي سعيد ، وكان عبيد الله هذا شيخا تقيا موضع ثقة وتقدير من الجانبين . هنالك أبدى جوکی للشيخ رغبته في التسليم إذا ما أقسم هو له على القرآن بضمان خروجه دون أن يتعرض له أحد بالسوء . ولم يأبه أبو سعيد على كل حال كثيرا بقسم رسوله ، فلم يكذب يدخل شاهرخيه حتى أسر جوکی وجبسه في قلعة اختيار الدين حب مات بعد ذلك بقليل .

وما إن تخلص أبو سعيد من خصمه القوي هذا حتى أقام ابنه السلطان أحمد نائبا له على سمرقند ثم رجع إلى خراسان لتبث سلطانه هناك ويمد فتوحاته إلى أقصى العرافين العجبي والعربي . ووجد أبو سعيد نفسه بعد أن طرد ميرزا حسين بيقرا ، وقد أصبح السيد المطلق ، لا في بلاد ما وراء النهر وفرغانه (التي حكمها فيما بعد ابنه عمر شيخ ميرزا) فحسب ، بل وكذلك في خراسان وبلاد الأفغان وسيستان وكرمان وفارس ، ولما تنفأ أطباعه بعد عند حد . فقد أخذ يتطلع بأنظاره إلى سهول أذربيجان الخصبه ، وهي التي ظهر بها على الخصوص بطل جديد فيها بعد هو حسن بك رعيم أسرة آق قيونلو (الخروف الأبيض) التركمانية .

فقد حدث عام ٨٧٠ (١٤٦٥) أن قدم إلى بلاط مرو حسن على أمير أسرة قره قيونلو (الخروف الأسود) يطلب العون ازاء أعداء أبيه . وكانت خراسان تنعم اذ ذاك بسلام ، كانت في أشد الحاجة إليه . وكان أبو سعيد قد شغل خمسة أشهر بالاحتفالات بخان أصغر أبنائه، فأقيمت

بهذه المناسبة حلقات من ألعاب الفروسية والمباريات والولائم والموسيقى والرقص والزينات . وكان هذا الأمير التركماني قد قتل أبوه شاه جهان وهو يحارب حسن بك أو أوزون حسن كما يتردد ذكره . ولم يكن أبو سعيد بحاجة الى من يحرضه كثيرا في مثل هذه الفرص ليقدم على الحرب . فأتجه عام ٨٧٢ (١٤٦٧) في جيش كبير من مرو فاصدا أذربيجان رأسا . هنالك بعث أوزون حسن برسله الى أبي سعيد لعرض الصلح عليه اذ كان منغللا اذ ذاك بالحرب في جهات متعددة (١) . ولكن أبا سعيد أغراه ما أحرزه من الانتصارات في الماضي فرفض ما عرضه عليه خصمه .

وحين رأى أوزون حسن أن لا مناص من الحرب دافع عن نفسه في حمية زائدة واستناته جعلت أبا سعيد يندم على ما كان من اندفاعه في هذا الأمر . فقد تعرضت قوائمه طوال سيره الى كراباج لهجمات متكررة قوية من العدو فضت على أغلبها ، حتى هوجم أبو سعيد نفسه آخر الأمر ووقع في الأسر تم فنل (٢) .

تلك كانت نهاية آخر أمير تبسوري كبير حكم ثمانية عشر عاما ، استطاع فيها أن يوحد تحت ناجه جميع شعوب آسيا الوسطى ، على اطلاقهم ، من جبال تيان شان الى بغداد ومن سهوب الفرغز حتى نهر

(١) كان اذ ذاك مضطرا لقتال غديك (برسمها هامر خطأ كدوك) أحمد باشا . وكان السلطان محمد الثاني قد سيره في جيش كبير الى الأناضول ، وكان فاتح القسطنطينية يحشد على أوزون حسن رحله باسحاق بك أحد أعداء العثمانيين .

(٢) كان أبو سعيد مبررا عندما استولى على هراة لأول مره فد أمر بعمل الأميرة جوهر ساد زوج ساهرخ ميرزا . وعلى هذا فقد سلم أوزون حسن أسيره الى يادكر مبررا ابن هذه السبدة فقتله اخذا بالتأثر ، وذلك على رواية مؤرخ مبرزا حسين بيفرا . ويذكر كونتريني Contarini سفير البندقية لدى بلاط أوزون حسن أنه رأى في إحدى غرف القصر بأصفهان نفسا بمثل أبا سعيد (وهو يدعوه بوزخ) وقد جاء به مقبدا بالحبال الى أوغزلو محمد بن أوزون حسن ، كما رأى في غرفة أخرى نفسا بمثل مقتل هذا الأمير النيموري القوى .

السند والخليج الفارسي . وكانت صفاته الحربية وقدراته العامة كفيلة بأن يبلغ شأوا أبعد من ذلك لو أن الظروف كانت قد واثته .

ومن نافلة القول أن أحمد ميرزا ابنه وخليفته لم يتمكن بطبيعة الحال من أن يحتفظ لنفسه من أملاك أبيه الا بحكومة بلاد ما وراء النهر . ففي الحرب كانت أسرة الصفويين الناهضة تضع أسس عظمتها المقبلة على حساب التيوريين ، وفي الجنوب كان ميرزا حسين يتقرب من قويا على عرش هراة ويعمل على بعث أمجاد خراسان القديمة لآخر مرة . وقد بسط هذا الأمير سلطانه قرابة ربع قرن على إيران الشمالية وبلاد الأفغان وسيستان .

وفي أقصى الشرق كان عمر شيخ ميرزا قد أعلن استقلاله ، في حين نذ يونس خان السلطان علنا في المناطق الشمالية لسبحون . وكان يونس هذا جنكيزيا من فرع جغتاي في الغالب . وكاب قوات من المغول تشد من أزره ، ولم يكن السلطان أحيد ليستطيع أن يفعل شيئا يذكر في مل هذه الظروف المحيطة به ، اذ كان لين العريكة ، رقيق الحاتبة ، خلوا من الكفاية والمقدرة ، وان لم يخل من الشجاعة الشخصية حتى أنلى المغول عليه لقب «آلاجه» أى الجزار (١) . فقد كان من أنر تربيته على الحرافات أن نسا غير مبال الى الاقدام وركوب المخاطر. كما نشئ كذلك على نسك بالنسكليات حتى بلغ من مظاهر توقيره لسيخه خواجه عبد الله أن كان يجلس في حضرته على ركبته خافض الرأس. والتزم هذا الوضع دان مرة وهو يعانى ألما شديدا في ركبته بسبب قطعه عظم حادة تصادف وجودها حيث جلس . وكان يحرص كذلك كل الحرص على تدنيه انقروض في أوقاتها فلم نفته ذلك أبدا حتى حين يكون تسوان .

(١) خلط المؤلف في ذلك بين السلطان أحمد ميرزا بن أبى سعيد وبين السلطان أحمد خان المغولى بن يونس خان ، وهو الذى يشتهر بهذا اللقب لكثرة من قتل من أعدائه في السنين الأولى من حكمه تاريخ رسيدي ميرزا حيدر دوغلاب - الترجمة الانجليزية لديسور روس - لندن ١٨٩٨ ص (١٢١)

(المترجم)

وانا لنجده برغم تمسكه بمظاهر الورع هذه كان يمضى عشرين أو ثلاثين يوما ومجالس الشراب والسمر متصلة (١) . وقد يملكنا العجب من بعد ذلك كله حين نراه يضطلع بسهام كثيرة وسعتها همته . فقد حارب يونس خان وفتح من جديد طشفند وسيرام وولاية تركستان كلها ، كما حاول كذلك رد أخيه عر شيخ الى طاعته . وتحارب هذان الأخوان أكثر من مرة حتى توسط بينهما الصوفي المشهور خواجه أحرار فعادت المياه بينهما الى مجاريها من جديد . ونعت بلاد ما وراء النهر عسوما في عهد السلطان أحمد هذا بسلام طويل الأمد جدا ما .

ولم يعدم النشاط العقلي المزدهر ، الذي كان يروج ببلاط ميرزا حسين بيقر ، أن يجد طريقه الى شواطئ زرفشان كذلك ، وان أخذ هناك شكلا مغايرا بعض الشيء . وفقد علة القوم هناك ، في ميل ظاهر ، السلطان أحمد في إقامته الدور والمساجد والقصور والمدارس والحمامات العامة .

ونذكر من بين المنشآت الأخرى ، التي أقيمت في ذلك الوقت ، القصر الصيفي لأحمد نرخان بسرقند ، وهو الذي أعجب بابر به إعجابا شديدا ، اذ كان يقوم على مجبوعة من المدرجات ويطل على مراع غنية رائعة .

ولم تتعرض حكومة السلطان حسين القويه . في الواقع ، لمناعب ذات بال بخراسان ابان ذلك العهد . ونعم سكان بلاد ما وراء النهر عسوما في حكم أحمد بفترة من الهدوء والرخاء لم يدركوا قدرها تمام الإدراك .

(١) يحرم محمد (صلعم) الخمر حتى يستطيع المؤمن أن يؤدي الصلاة في أوقاتها . بهذا يتصور المسلمون أنهم لا يخرجون عما سنه لهم الرسول بخصوص الشراب طالما كان الواحد منهم على ادراك نام وهو يؤتى الصلاة (المؤلف) . بنى المؤلف كلامه هذا على فهم خاطئ للمعنى الآتية الكرمة « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولم يلفت الى الآية الأخرى التي تقول « إنما الخمر والميسر والأنصباء والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » (المنرحم) .

الا حين مات ذلك الأمير الطيب ، متوسط المواهب ، عام ١٤٩٣/٨٩٠ (١) في العام السابع والعشرين من حكمه .

وأمسك بأعنة الحكم من بعده أخوه السلطان محمود . وكان هذا الأمير قد تعرض لكثير من غير الزمان بعد وفاة أبيه حتى وجد آخر الأمر منزلا رحبا في بلاط السلطان أحمد فعاش عنده بضع سنين على أتم ما يكون من المودة معه . حتى غادر سمرقند ذاب بوم بدعوى الخروج للصيد فعبّر حبزون واستولى على بدخشان . ومن هذا المكان قدم بعد موت أخيه الى سمرقند فرقى عرشها . وكان أول ما فعله بعد ذلك أن قبض على أبناء أخيه الراحل الأربعة في قصر كوك سراي وفنلهم جسعا . وأدى صنيعه الوحشي هذا الى كراهية الناس جسعا له . وزاد من مضمهم له ما عند البه رجاله من الظلم والاستبداد . وسرعان ما ركبت حركة التجارة وكل أنواع النشاط في سمرقند بسبب ذلك . ولم بعد يحسر أغلب أبناء الطبقات العليا حتى على الظهور في شوارع المدينة ، وهم الذين اغنادوا رمنا طويلا العيش في سلام مقيم وهدوء ولم يكن محسود خلوا من التعليم ، وكان ينظم شعرا رديئا ، ولكنه انصرف بكلينه الى النقتيل وأهمل أداء الفروض ، واسنخف بأمور دينه حتى عامل بامتهان العالم الموقر خواجه عبيد الله (أحرار) .

ولم يدم حكمه طويلا على كل حال اذ مات بعد تولينه بسنه أشهر ، وبحسب أن يكون قد مات غيلة . وقد أخفى وزيره القوي صاحب السطوة خسرو شاه خبر موته على كل حال لعدة أيام حتى تتاح له الفرصة لذلك للاستيلاء على ما بيت المال من الأموال . وحين شاع في الناس خبر موت السلطان قاموا بثورة اضطرمعها خسرو الى الفرار بصعوبة بالغة .

(١) يذكر سيد راقم عام ٨٩٦ ، اعتمادا على تواريخ شعيرية عديدة كتبت عند وفاة السلطان أحمد . وسدو لي مع ذلك ان التاريخ الذي ذكره ببر (في سيره) هو الصحيح اذ كان هو نفسه معاصرا لهذا السلطان .

انتهى الأمر بالتيموريين في بلاد ما وراء النهر الى أن بلغ الشقاق والقوضى بينهم درجة لا يرجى معها اصلاح أحوالهم ، حتى لم يعد يصعب على المرء أن يتنبأ بأن انهيار سلطانهم التام قد بات أمرا مقضيا . فقد طفق ثلاثة من أبناء السلطان محمود الخمسة ، هم مسعود وبايسنقر وسلطان على ، يتحاربون في سبيل العرش . أما أولهم فقد انضم الى خسرو شاه ، وزير أبيه القوي (١) ، فاستولى على حصار وقندز وبدخشان على الجانب الأدنى لجيجون . وكادت الظروف تواتيه فعلا لارتقاء العرش لولا ما كان من معاداة السلطان حسين يبقرا له ، اذ انقلب عليه وعلى حليفه ، لا يدفعه الى ذلك كلفه بالفتح بقدر حرصه على تأمين حدوده النسالية . وأدى انصراف مسعود الى مدافعة خصمه هذا الى أن تساعت منه بطبيعة الحال كل فرصة له في ارتقاء العرش .

ودعا فرس من أصحاب النفوذ ، حينئذ ، بايسنقر ميرزا فأجلسوه على عرش سمرقند وخنقوا به على الرسم المعتاد . وكان هذا الأمير بابى حكومة بخارى في حباة أبيه . وكان حين ولى العرش شابا في الثامنة عشرة من عمره ذا ملامح تركمانية ظاهرة . وبرغم حيويته الفذة وجهوده (٢) فقد وجد نفسه آخر الأمر ولا قبل له بكبح جماح أمرائه في تسردهم عليه أو الحد من نفوذ رجال الدين البالغ . فقد ودت كل فرقة أن تتخذ منه أداة لتحقيق أغراضها الخاصة ، حتى صار الحال الى أن برم به كل فريق فتضافروا آخر الأمر على خلعها عن العرش . هنالك ادعى

(١) كان خسرو ساد نركا من قبيلة البجافي ، فضى سبابه في خدمة الترخانيين ، واجباه من بعد ذلك السلطان محمود حتى صار عنده أمرا على فرقة من الجند تبلغ الخمسة الآلاف أو الستة الآلاف ، وأقطعها هذا السلطان كذلك افليم بدخشان ، وكان يمدد من جيجون حتى الهندكوس . وحين مات سيده استقل بما تأدبه من أرضين ، وكان له جيش قوامه عشرون ألف رجل . وغلبت عليه اطماعه وغروره فانقلب على ولدى ولى نعمته فسلم عيني أحدهما وقتل الآخر (بابر نامه - النص الاصلى ص ٢٦) «المرجع» .

(٢) كان قد نظم بعض الشعر الجيد ، ولكنه لم يجمع في أى سفر على كل حال . ونقول بابر انه كان ممازا كذلك في فن الخط والنقش .

هؤلاء النائرون أنه حين ولى شئون حكومة حصار كان يبدو سحاً رقيق العواطف على خلاف ما يسيده لهم من فنور اليوم ، حتى آثار بذلك نفوسهم عليه . وما لبثوا أن دعوا اليهم أخاه الأصغر سلطانعلى ، فتقدم من فارشى الى سمرقند ، فاحتفوا به فى قصر باغ نو الصيفى . وكان بايسنقر قد حجب عن الناس أشبه بسنقل فى الفصر نفسه . وشدت الحراسة على الأميرين فى القصر ، حتى تذرع بايسنقر ذات مساء بالنزول الى الايوان الأسفل ، وتمكن من الهرب بطريق احدى القنوات ، ثم نفذ الى الريف حيث لجأ الى دار خوجكه خواجه وكان صاحب مكانة مرموقة .

وحين ذاع خبر فرار بايسنقر فى الناس احتشدوا امام دار هذا السيد دون أن يجروا أحد منهم على اقتحام أبوابها .

وانتهى الحال بأن قدم جمع من 'أصدقاء السلطان وعلى رأسهم خواجه أبو المكارم وأعادوه الى العرش ، ثم التفتوا من بعد ذلك الى الخارجين عليه فقصوا عليهم جميعا دون شفقة أو رحمة . أما سلطانعلى وظهيره الأكبر درويش محمد ترخان فقد قبض عليهما وسيقا الى بايسنقر ميرزا بعد أن فشلا فى محاولتهما الهرب ، فأمر بالأول لتسمل عيناه ، وبالتانى ليعدم . ونفذ الحكم فى الثائر ترخان على الفور ، ومزق اربا وهو يتشبث فى استسانة بأعمدة الروافى مناضلا من أجل حياته . وأشفق المدر بسلطانعلى اذ ترفى به قصدا الموكل بكحله (١) (وهو الاصطلاح الفنى الذى كان يطلقه الشرقيون على عملية السمل أو اجتثاث العيون) فحفظ عليه نعمة البصر . وكان بايسنقر نفسه هو الوحيد الذى عسى عليه هذا الأمر وأخفى عنه ، وقد وقر فى نفسه أنه بذلك قد غدا آمنا بعد أن تم له الخلاص من كل أعدائه فى نفس اللحظة التى كان فيها سلطانعلى قد انطلق هاربا الى بخارى حيث أخذ يعد العدة لشن هجوم شديد على أخيه . وحين بعث بايسنقر بالجند فى أثره لم يقدروا عليه

(١) ويعرف فى الفارسية باسم « ميل كشيدر » وميل هى بمعنى مروح ، يكون ذو نصل من المعدن يحمى فى النار وتكحل به عين المحكوم عليه . والنوع العادى منه يستخدم فى تلون العيون بالكحل .

لعزونه بها - حتى اذا ما تحارب الخصمان من بعد ذلك أصيب بايسنقر بضربة فاضية اضطر على أثرها الى الارتداد سريعا الى داخل أسوار سرقند ، ليجد نفسه على اثر هذه الكارثة وقد أحيط به من جهات ثلاث . فقد كان سلطانعلى يكر عليه من ناحية الغرب ومسعود ميرزا يزحف نحوه من ناحية الجنوب ، في حين كان بابر ميرزا ، ابن شيخ عسر ميرزا التركى ، في ناحية الشرق عند أندجان ، أو خوقند (كسا تدعى اليوم) ، وكان قد قدم بطلب بحقه في عرش جده برغم حداثة سنة . ويعد بابر ميرزا هذا ، بحق ، من بين أعظم الأمراء في العالم النرفى أو العالم الغربى على السواء . وقد وصف أئمة المستشرقين في العصر الحديث سيرته (١) بأنها « مذكرات قيصر الشرق » . وسرعان ما أدرك بابر ببصيرته النفاذ أن صرح سلطان التيسوريين ببلاد ما وراء النهر قد أخذ ينفث ، فتقدم ببذل غاية جهده وكله أمل في تقادى وقوع هذه الكارثة . على أن جهوده كلها في ذلك صادفها الفشل كما سرى فسا بعد .

هكذا غلب سرقند في منهل عام ١٩٠٣ (١٤٩٦) والأخطار مهددها من جهات ثلاث دفعة واحدة .

على ألق الحظ حالف بايسنقر ميرزا اد حل التناء وكانت فسوه فى ذلك العام على عر المعتاد . فقد اتفق بابر ولسطانعلى على أن يقسما

(١) وهى الموسومة ببايرنامه ، وقد كتبها بالحسابية بنفسه وضمنها سيرته وسيرة آبائه وأجداده ومعاصريه ، ووصف فيها مصامراته التى انتهت بتأسيسه الدولة المقلوبة فى الهند ، تلك المقامرات التى أدت به الى ألا يصوم شهر رمضان عامين متتاليين ببلده واحد مدة ثلاثين عاما . وهو بعد يصف كل بلد دخله ، بصف طبيعته ومناخه وما به من صنوف الزرع وما ظهر فيه من العلماء وما له من ماض قديم وما به من مختلف الآثار . وهو يتحدث فى ذلك كله حديث صاحب بفاقة وأسعه ممازده . فضلا عما التزمه من الصراحة البامنة فيما أورد من سير وأخبار ، حتى لتعد سيرته هذه ، بحق . صورة حة كاملة للنفس الانسانية بما فيها من خير وشر .

(المترجم)

بلاد ما وراء النهر فيما بينهما ، ولكنهما اضطرا بدورهما الى تأجيل نشاطهما الحربى بسبب قسوة البرد كذلك . وحذا حذوهما مسعود فى الانسحاب ، وكان قد اشتد به الشوق الى زوجته التى كان قد بنى بها حديثا ، وكانت ابنة الشيخ عبد الله برلاسى ، وكان قد عزم على أن يقضى معها شهر العسل دون أن يشغله أى مطمع . على أن الأخطار التى كانت تحيط ببايسنقر ميرزا لم تكن قد انجابت عنه الى غير رجعة وانما تأجلت الى حين فحسب . فلم تكد الثلوج تذوب حتى أقبل الحليفان ، بابر وسلطانعلى ، من الشرق فضربا الحصار على سمرقند لأشهر سبعة .

هنالك تلفت بايسنقر ذات اليمين ودات الشمال ينسده العون ، فلم يجد من يستجيب له الا الأوزبك الذين كانوا ينزلون عند حوض سيحون الأدنى ، وكانوا على الدوام جاه مستعدين للأقدام على أى عمل يسبح لهم فرص السلب والنهب . ونفد هم هؤلاء حتى مشارف سمرقند ، حتى اذا ما استبان لهم أنهم لا قبل لهم بالمغامرة فى حرب جيوش بابر وسلطانعلى المؤتلفة ارتدوا على أعقابهم من جديد . وحين وجد بايسنقر أنه لم يعد له طاقة بالمزيد من المقاومة عادر العاصمة سرا عام ٩٠٣ (١٤٩٧) فغبر جبحون عند برمد حيث لاذ بأخيه مسعود ميرزا . ولم يكن بايسنقر قد بلغ الثانية والعشرين من عمره حين فقد عرشه بعد سلسلة طويلة من المغامرات والمعارك الشديدة . حتى لرى عدوه بابر ميرزا يصفه بأنه كان رجلا كامل الرجولة ، فلم يأخذ عليه الا مأخذا واحدا هو ميله سرا الى مذهب الشيعة ، وان قيل عنه انه رجع فيما بعد الى مذهب الحق ، وفد مات هاذ الأمير عام ١٤٩٩/٩٠٥ (١) .

وتفاسم الحليفان بلاد ما وراء النهر بعد هرب بايسنقر ميرزا ، فصارت بخارى ومنطقة ميان كل الى سلطانعلى ، فى حين اختص بابر

(١) بايسنقر ميرزا هو نانى اثناء السلطان محمود ، وقد ولد عام ٨٨٢ (١٤٧٧) . ويصفه بابر بأنه كان ذا عينين واسعتين أسمر اللون . وعلى عدا فقد كانت ملامحه تركمانية خالصة .

نفسه بمدينة سمرقند والقسم الشرقى من الاقليم . على أن أحدا منها لم يستطع أن يحتفظ بما بيده من أرضين طويلا . فقد اضطرت سلطانلى الى أن يفر من وجه حليفه القوى ، فلاذ بالسلطان حسين فى هراه . فى حين تكشف لباير بدوره بعد قليل استحالة حصوله على مؤن لجنده فى الأراضى البلقع الخراب حول سمرقند ، فضلا عن تضرعات أمه الملحة اليه بالعودة الى دياره ، فنبذ آخر الأمر كل محاولاته وآب الى موطنه (١) .

وغنى عن البيان أن أحدا من هذين الأميرين لم يكن له فى هذه المناطق الا السلطان الاسى . فالقوة الفعلية كانت فى بخارى لدى عبد العلى ترخان ، وفى سمرقند بأيدي خواجه أبى المكارم .

وكان هدف بابر الأكبر ، كما يصرح هو بنفسه ، هو أن يحول دون سقوط عرش سمرقند بأيدي دخيلة بعد أن لبث مائة وأربعين عاما فى حوزة التيموريين .

على أن نجم بين التيموريين كان فى طريقه الى الأفول ، فلم يستطع الشاب بابر ميرزا أن يوقف انهيار هذه الأسرة فى أى مكان ، وفى بلاد ما وراء النهر على الخصوص . وما لبث شيانلى محمد خان - وهو چنكيزى من بيت جوجى ، أخذ نجسه يعلو على حساب الحروب الأهلية المدمرة التى قامت بين النيسوريين - أن تم له هذه المرة ، بفضل رجائه الأوزبك الشجعان ، الاستيلاء على المراكز الرئيسية فى الاقليم وجلس على عرش سمرقند ، وبهذا قضى قضاء مبرما على حكم التيموريين .

سنذكر تفصيلا فى الفصل التالى الأحداث التى وقعت نتيجة لهزيمة الأسرة الحاكمة . على أننا قبل أن نشرع فى ذلك لابد لنا من أن نلقى

(١) كان الجنان اسبادل بين بابر وأمه مما لا يدركه الخيال . كان هذه السيدة على ذكاء مغرط والملم تام بكافة الأحوال فى الإسلام . الذى بها حبها لانها الى أن تعارض طموحه الخطر . وما دعاها أصلا الى الانكسار عليه بالعودة هو إدراكه اسرار الثورة سرا بأنديجان ، تلك الثورة التى كاد هذا المغامر السورى عرشه فى الواقع .

وكان له كذلك محاولات في نظم الغزل ، ولا يزال غزله في زوجه
جوه شاد يروج حتى اليوم في الأغاني الشعبية عند أهل هراة .

وكان السلطان اسكندر شيرازى ، ابن عمر شيخ ، و خليل ميرزا
ينرسان بدورها الشعر بالتركية والفارسية على السواء . وقد ترك
خليل مجموعة من النظم التركي أشاد بها الشاعر المشهور خواجه عصمت
البخارى . ولقد أسرنا من قبل الى ما كان عليه ألغ بك من المهارة في علم
الفلك والرياضيات . وفضلا عن المامه بهذه العلوم الدقيقة فقد نهض
كذلك بالآداب والنقش والموسيقى ، ولا أدل على ما كان يستمتع به من
ذاكرة قوية من أنه كان يحفظ سبع سور مختلفة من القرآن الكريم عن
ظهر قلب

وكان بايسنفر ميرزا بن شاهرخ ميرزا ، الذى مات في حياة أبيه (١) ،
يجمع من حوله على الدوام النقاشين والموسيقيين والخطاطين . وتركه
ابنه بابر ميرزا جيلة خواطر شعرية تركية كذلك ، وقد مات ذلك الأمير
فى سن مبكرة بادمانه الشراب (٢) .

كذلك ترك سيدى أحمد ميرزا بن ميرانشاه مجموعة من المؤلفات
(ديوان ومثنوى) بعنوان « لطاف نامه » (كتاب اللطف أو الجمال) .
ويكمل هذا النبت بذكر بابر ميرزا (٣) مؤسس الدولة المغولية فى الهند ،

(١) توفى فى ٦ من جمادى الأولى عام ٨٣٦ (١٤٣٢) وذلك وفق التاريخ
الذى اكتشفه م.ن. خاسكوف M. M. Chamkoff على شاهد قبر فى
المصلى بهراة .

(٢) أصيب أول الأمر مرض حطرت تهدد حياته بسبب اسرافه فى
الشراب ، فأقام جبداً مسهد لمدة قصيره ، وقد ركب الندم والخرى
حتى كان يمضى أيامه كلها فى مسجد الامام الرضا . على أن حنينه الى
الشراب كان أقوى من عزيمته ، فعاد سمرته الأولى ، ومات عام ٨٦١
(١٤٥٨) .

(٣) واسمه بالكامل طهر الدين محمد بابر ، أما سابقه فهو أبو القاسم
بابر (المترجم) .

وهو الذى تظهره سيرته التى أشرنا إليها من قبل ، شاعرا وسياسيا وفيلسوفاً فذا ممتازا من فلاسفة العصر الوسيط (١) .

حين نأخذ فى اعتبارنا هذه الحقائق كلها وندخل فى حسابنا ذلك المثل الشرقى « الناس على دين ملوكهم » قد لا نعجب بذلك حين نرى عصر التيموريين يتميز بظهور حضارة فيه لم تعرف لها الشعوب الإسلامية نظيرا فى وقت من الأوقات ، فيما عدا الفترة التى ازدهرت فيها الحضارة عند الأمويين فى إسبانيا بعض الوقت ، أو فى العصر العباسى الأول بالعراق . ولئن كانت ثقافة التيموريين هى أساسا نتيجة للنهضة العقلية التى شهدتها إيران تحكّم المغول المتأخرين ، إلا أن العلوم والفن لم تشهد أبدا من الازدهار فى بلاط مراغة أو تبريز أو سلطانية ما شهدته - على تنوع - فى هراة وسمرقند .

ونكتفى بأن نذكر من بين شعراء ذلك العهد :

مولانا عبد الرحمن جامى ، ويعرف بحبيب الله ، وكان مبرزا فى النظم والنثر كما كان كذلك يمتاز فى علوم كثيرة ، كعلوم الفقه والتفسير والأخلاق والفلسفة والنحو ، امتيازاه فى الشعر .

ثم سهيلي أو شبخم سهيلي ، صاحب الترجمة الممتازة لقصص كليلة ودمنة الهندية ، وقد عاش أولا فى بلاط أبى سعيد وقضى من بعد ذلك عشرين عاما ببلاط ميرزا حسين بيقر .

ثم قاسم الأنور . ويعرف أيضا باسم معين الدين على ، وكان أعظم شاعر صوفى فى عصره . وعاش أول الأمر فى بلاط شاه رخ ، حتى اذا ما طرد منه فصد الى سمرقند حيث مات بها عام ٨٣٧ (١٤٣٧) .

(١) لا يوجد فى كل كتب الأدب التركية أو الفارسية على السواء كتاب مثل نابرنامه يحوى مثل هذه الأخبار الغزيرة فضلا عن أسلوبه البسيط

ثم خواجه عبد الله هاتفي ، وهو من شعراء المثنوى كذلك ، وقد نظم سيرة تيمور « تيمورنامه » شعرا .

ثم خواجه عصمت البخاري ، وكان الشاعر الخامس لكل من السلطانين خليل وألغ بك . وعلى يديه تعلم ألغ بك صناعة الشعر ، ومات عام ٨٤٥ (١٤٤١) .

ثم مولانا حسين كبرى ، حفيد العلامة المشهور نجم الدين كبرى (من تلاميذ العلامة أبي الوفا الخوارزمي) الذي قتله المغول في أوركنج ، واشتهر كشاعر صوفي ، وقد كتب شرحا على مثنوى جلال الدين الرومي . هذا كما كتب خواجه عبد الله مرواريد ، متخلصا باسم بياني ، ديوانا أو مجموعة من الأناشيد والغزليات بعنوان « مؤنس الأحباب » وهي على هيئة رسائل .

أما ملابنائي ، ابن أحد رجال المعمار في هراه ، فقد عاش محوطا بالرعاية ببلاط ميرزا حسين في مسقط رأسه حتى دب النزاع بينه وبين ميرعلى شير فذهب حينذاك الى بلاد ما وراء النهر حيث اجنباه السلطان محمود وصار من بعد ذلك الشاعر الخاص لشيواني محمد خان ، ومات عام ٩٢٢ (١٥١٦) .

ثم محمد صالح صاحب منظومة « شيباني نامه » ، وله الى جانب ذلك غزليات رقيقة ، كما نظم مثنويا نهج فيه نهج « ليلي والمجنون » ، ولا يرى بابر لمؤلفاته هذه أية قيمة ، ولعله قال بذلك لأن محمد صالح كان من المقربين عند شيباني . وقد عاش هذا الشاعر في بلاط ذلك الأمير الأوزبكي .

كذلك حمل باير على هلالى ومثنويه الشعبى « شاء ودرويش » (أى الملك والتحاذا) لبذاءة ألفاظه . وكان الشاعر ستمتع بذاكرة قوية حتى كان يحفظ عشرين ألف بيت من الشعر أو ثلاثين ألفا عن ظهر قلب .

وأخيرا ، وليس آخر ، يجب أن نذكر مبر على شير الذى يشتهر كسياسى وقائد كما يشتهر كذلك بوصفه كاتبا مكثرا ذا خيال . وبرغم

انه لا بعد مؤسس الأدب التركي الشرقى ، كما يشاع عنه عموما (١) ،
الا انه حدير ، بحق ، بتلك الشهرة (٢) التى صادفها فى حياته وبعد مماته
على السواء . ولم تكن له هذه الشهرة بسبب تأليفه التركية فحسب ،
بل كذلك لغيرته فى الدفاع عن القومية التركية بازاء تحامل علماء ايران
وسخريتهم منها . وبرغم مضى أربعة قرون ونصف القرن على وفاته ،
لا تزال تجد مؤلفاته بين مقتنيات أعيان الأوزبك ، وان كان فهمهم لها
ضيلا فى الغالب .

وكانت دراسة اللغة والتفسير والتصوف شائعة عموما بين جملة
من الدارسين النابيين الذين كانوا ينسبون الى هذا أو ذاك من « نجوم
العلم الكبار » وكانوا جميعا مبرزين فى الخطابة والكتابة على السواء .
وفضلا عن الحقيقة الثابتة وهى أن كل من كان يشغل بالأدب كان
سارك الى جانب ذلك فى دراسة فرع آخر من فروع العلم حتى يبرز
كسر منهم فى صناعة الشعر وفى العلوم العربية والدنسة معا ، فيسكننا أن
نذكر من بن الدين تسزوا فى العلوم المتخصصة المختلفة مولانا حسامى
الحوى المولد ، وكان من تلاميذ العلامة خواجه أحرار فى فراقول
ومس لازمويه طوى . ثم خواجه عبد الله وكان من حوارى بهاء الدين
الشمسدى ومن شاعة نعالسه السلطن ، وكان منصوفا وعالما ذائع

(١) من الأدب التركى فى أدوار كسره منذ ان ظهر الترك . ولكنه ظل
الى الدوام صورة سادته لأحوالهم الاجتماعيه والسياسيه والدنسة .
منه « ما ورد » نديم المصادر التى من الدنيا أنه أحد فى الازدهار ابتداء
من السنين المملوكى . وبارج اسات « نديمبولسفى » رجع الى
أم ١٤٦٣ (١٠٧٠) . وقد سرت اقسام منه عام ١٨٧١ ورغم أن مؤلفه
. ان له أول كتابه تحت التركه . الا أن لعه بظهر فيها علامات مميزة
ال على رقى الأسلوب الألى وعلى وجود ساط أدبى سابق بالتالى .
(٢) كان الرأى السائد على أن العصر الإبرانى من السكار ارسى علمها
من العصر التركى . وأخذ أخذ صر على سر على عاقبه أن نفيم
الدليل ، على هدى الانتاج الأدبى لى حنديه . على أن الترك مسكنهم
لهم ان منحروا بكنائهم الأكفاء . وحين بدا له أنه ان يمكنه ان يرقى
. من الى ان يكونوا على قدم المساواة مع الأدباء المرس الدين كان نساطهم
. إلا أن ذلك ، استغل نزاله من مدان الأدب الى حومه الأخلاق ، فأخذ
. بسد في صور متعددة راهبه بسجاعة الترك وأمانتهم وإخلاصهم . وهذه
المانزلة اللطيفة بجدها فى كتابه « محاكمة اللتين » .

الصيت حتى تخاصم عشاء عصره من أجله . هذا كما كان شديد التسكك بمبدأ النبي الأكرم « الفقر فخري » ، فعاش بظاهر قراقول يفلح الحقول بيديه ، وتوفي عام ٨٩٥ (١٤٨٩) بقرية كساكبران . ولا يزال كتابه « تحفة الأحرار » يقرأ على نطاق واسع ، وهو في الأخلاق والدين ، كما يقصد الزوار ضريحه بسمرقند في جسوع غفيرة قادمين من أماكن بعيدة . ومنهم كذلك مولانا فصيح الدين الذي عاش ببلاط حسين بييرا ، وكان صاحب حظوة عند ميرعلی شیر ، ولا تزال شروحه على أهم كتب المذاهب في عصره تدرس بكليات آسبا الوسطى ، وتوفي عام ٩١٩ (١٥١٣) .

أما مثلاً عبد الله جعفر فلا يقلل من قيمة شروحه عدم ذبوعها ، وهو من تلاميذ جامي ، ومن الفقهاء كذلك ، ومات عام ٩١٦ .

وثمة فقهاء ثلاثة آخرون مشهورون هم مولانا معين القرائي الذي شتهر بكتابته لسيرة النبي وأركان الاسلام ، ومولانا كمال الدين حسين الذي ينسهر بتأليفه العديدة في تفسير القرآن ودراساته الفذة في الأخلاق ، ومولانا محمد فاضل الذي يشتهر بكتابته « سلسلة العارفين » أما أبعد المؤرخين صينا فكان شرف الدين لكتابته لسيرة تيسور ثم عبد الرزاق الذي يشتهر بباريخه الفياض للتيسوريين في أسلوب بليغ وحول هذا العصر ألف كذلك كتاب « دابسان » (١) (مدرسة المذاهب)

(١) بفحص كتاب « دابسان المذاهب » لمحمد محسن فاني ، وهو يتحدث عن :

- ١ - الزردستية .
- ٢ - عقائد الهند .
- ٣ - عقيدة الفرائسيان .
- ٤ - عقائد اليهود .
- ٥ - عقائد النصارى .
- ٦ - حفيقه المحدثين واهل الاسلام .
- ٧ - عقيدة الصادقية .
- ٨ - عقيدة الواحدة .
- ٩ - عقيدة الروشنه .
- ١٠ - عقائد الالهية .
- ١١ - عقائد الحكماء .
- ١٢ - عقائد الصوفية .

(طبعة بمباي ١٢٩٢ - ١٨٧٥) . الخشاش

الذى يتناول بالدراسة اثنتى عشرة عقيدة مختلفة من عقائد الشرق . ويصف المستشرق سير جونز W. Jones هذا الكتاب بأنه من أهم وأعز الكتب الشرقية . ولم تهمل كذلك دراسة الرياضيات والحساب وعلم تنويم البلدان (١) . على أن هناك كثيرا من الكتب التى قام بتأليفها علماء قذاذ فد ضاعت تماما أو لعلها فى الغالب لم تصل الى أيدينا .

ولا تتعرض هنا لنفاصيل الأبحاث الأدبية والتاريخية . وحسبنا فى ذلك أن نستعرض ثب أساء النحويين والفقهاء ، منبهين الى أن كثيرا من الحو ووجوه الاعراب التى يدرسها شباب المسلمين فى كل الأقاليم حتى اليوم انما نرجع الى ذلك العهد ، وأن كثيرا من الرسوم والآراء المذهبية الخاصة بأواسط آسيا انما ترد الى ما كتبه علماء هاتيك الأنام .

وما نجده عند المسلمين فى آسيا أو فى غيرها من الأماكن من الميل الى الثقافة والحضارة الرفيعة بل وبالاخصار كل الصفات التى لم يعد نعرف منها اليوم الا اسمها . هذه جميعا هى من آثار فترة الازدهار التى شهدتها بلاد هراة وبلاد سمرقند .

ومن أهم الفنون التى كان لها حظ كبير من العناية على الدوام فن الخط وفن الفس . ومس كان يشتغل بفن الخط سلطان على (الذى عهد اليه على شير بنسج كبه) ، ومس كان يشتغل بفن النقش بهراد وشاه مظفر .

وكان التبوريون . مع غرنتهم السدبده وتسكهم بنذهب أهل السنة . نربون كتبهم على الدوام بالتصاوير الملونة . ومناتهم

١١ على رأس هذه المؤلفات الجغرافية رساله احمى على هسنة اسلة والحواب عليها عن الهند . وكان واصف « بلاد جن » هير وديف الحسين سلا فى الفالب عن تقارير العنة التى كان ساهرح قد اوفدها الى كبن .

بالسيفساء ، فلا يتمثل فيها الأرابسك (١) وتقوش الجباد فحسب ، بل وتزدان كذلك بصور الأمراء والأبطال ، وبصور الأولياء في بعض الأحيان . وقد شيد كثير من المنشآت المعمارية الجميلة في عهد شاهرخ والنغ بك وأبى وميرزا حسين . ويقال انه في تلك العهد قام المعماريان الاستاذ محمد سبز والاستاذ قوام الدين بتنفيذ بضعة آلاف من الأشغال العمومية . ويروى المؤرخ سام ميرزا أن مير علي شير أقام بخراسان وحدها ما لا يقل عن ثلاثمائة وسبعين مسجدا ومدرسة وحائفاها ودارا للشفاء وقاعات للقراءة وجسورا . وهل كان ينتظر من مثل هؤلاء الملوك الكبار في مثل هذا العصر غير ذلك الذي استطلعوا به .

ولقد قضت الحروب المتواصلة في البلاد الواقعة فيما وراء جيحور حنى على خرائب هذه الآثار في الغالب . ومع ذلك فقد بقي حول هراه أكثر من أثر يدل على الحضارة المزدهرة التي كانت تقوم هناك . ولم ينرك ذوق التيسوريين الرفيع طابعهم في مدينته هراه ، بالمسلى وبحواجه عبد الله الأنصارى فحسب ، بل وعلى طول شواطئ مرغاب حيث تنوج مسجورا ناتئة عذبة هناك خرائب الدور الصيفيه التي كانت مائمه هناك . وهذه الخرائب انما تقوم شاهدا ملموسا على مدى ما كان يستحده القوم من الفنون الحبله والنسر مزينين بها الأجواء التي يقصون فيها حياتهم اليومية .

وبرغم وجود العدد الوفير من العلماء المؤرخين والفنهاء ، والسخ فقد كان من رسم البلاط في هراه وسرقند امامه الجمال ومجالس الشراب التي كانت تعقد في العال امدته آناه . وكان العلماء والموسيقي من لوازم تلك الندوات على الدوام . وكان الموسيقيون المذنبون بذلك موضع التكريم . وعلى ما يروى نادر دشتي في سفره في بلاد هراه عبد الله مرواريد (وقد سبق الاشارة اليه) . وهل محمد عودى شيخ ناي ثم حسين عودى الذي كان يجيد العزف على العود والماء والقانون

(١) علي ما رواه نادر دشتي في سفره في بلاد هراه وسرقند بالحصار ونفس صور المعارك الحربية على حذرانه .

ويذكر كذلك غيره من المطربين مثل مير شادي و غلام ومير عزو (١) .
والواقفون على أحوال آسيا الاسلامية اليوم قد تصدمهم الحقيقة
بأن بلاط التيموريين كان يفخر كذلك بما لديه من الراقصين ، بل لقد
كان هناك على ما يرويه بابر ، سيد (من نسل الرسول) يدعى بدر
كان من أشهر البارزين في فن الرقص حتى ابتكر هو نفسه عدة رقصات.
وان الرعب ليملك اليوم كل مسلم حين يتصور أن سيدا بعمامته

(١) يذكر بابر في سيرته « بابرنامه » التي نشرتها بالجفتائية السيدة
١. بيفريدج (ورقة ١٧٧ ب - ١٨٢ ب) :

« ان عصر السلطان حسن مرزا كان ازهى عصور الحضارة ، فقد
اجتمع فيه بخراسان هراة على الخصوص الصنوة من اهل الفضل ممن
كان غرضهم الاسمى ان يسلوا بالفنون التي وقفوا حياتهم على الاشتغال
بها ، الى اعلى درجات الكمال .

وكان من هؤلاء الاعلام مولانا عبد الرحمن جامي الذي لم يكن له في
عصره صريب سواء في العلوم الظاهرة او الباطنة ، واما شعره فهو معلوم
مشهور ، تم شيخ الاسلام سيف الدين احمد من احفاد مولانا سعد
الدين التفتاراني الذي لثب متسخة الاسلام فيهم اجيالا متعاقبة . ولم
يمنعه مذهبه النافعي من صداقة اصحاب المذاهب الاخرى ، ثم مولانا
الشيخ حسين وكان فدا في علوم الحكمة والعلوم العقلية وعلم الكلام ،
فضلا عن معدنه في الاستنباط والشرح ، ولم يكن السلطان سعيد مرزا
ببرم امرا دون رايه . ثم مير مرياض وكان ضليعا في الحكومات والمنقولات
وقد سمي « مرياض » لكثرة صياحه . ثم ملا مسعود شرواني وعبد
المعورلار . وكانا من مريدى جامي . ثم المحدث مير جلال الدين . ولم يكن
له في علم الحديث تأثير بخراسان ، ثم القاضي اختار وقد كتب رسالة
حسنة في الفقه » .

« وكان عبر جامي من السعراء . ببلاط السلطان حسن . شيخم
سبيلي وحسين على طعيلي حلاير . ثم آصافي ، وكان أبوه وريثا فتخلص
ابن هذا باصافي ا يقال ان وريث السي سليمان كان يدعى آصاف: المترجم
ثم بابر البسروي . وله دران ومنتوبات ، وقد ادب سحرته بالناس
في اشعاره الى احراجه من هراة . وكان من اكبر المعجبين بعلى شرواني ،
ثم سفي بجاري . وقد نظم ديوانا لنفع التجار . وله منتوبات كذلك ، ثم
عبد الله مشنوي كوي ابن اخ جامي وقد نظم «هفت منظر» و تيمورنامه»
و «ليلي ومجنون» ، ثم مير حسين معماري صاحب اللمسار والاحاجي
السمرية ، ثم يوسف بديعي وهو صاحب غزليات ، ثم محمد صالح وله
سعر جيد في التركية ، ثم حسين كامى . ثم هلالى الذي كان يحفظ أربعة
الف بيت من الشعر عن طهر قلب » (المترجم) .

الضخمة الوقورة يتكرر رقصات توقيعية أو يشارك في احدى الرقصات الشعبية التي لا تزال تروج حتى اليوم في ايران باسم هراتى (١).

حقا ان الزمن لكفيل ببديل كل شىء . فهاهى ذى آسيا الوسطى ينتهى أمرها بعد سقوط التيسوريين الى الانهيار من ذروة الحضارة والحساس الصادق لكل ما هو مهذب جميل الى حمأة الهجسية والجهل ، فلم تنهض منها أبدا حتى الآن ، وأخذت أهيتها السياسية تتلاشى سريعا بالتالى تبعا لانهيار حضارتها ، وانقضى دور أمراء بخارى على مسرح التاريخ ، وهم الذين حكموا قرونا طويلة فى أجمل بقاع آسيا الاسلامية، وتقلصت بذلك تلك الدولة المزدهرة التى كانت تقوم فى السابق ببلاد ما وراء النهر فصارت خانية بخارى البائسة .

.. « وكان بسلام ببقرا كذلك طائفة من الخطاطين ، على ان السلطان على شهيد كان سزهم جميعا . اما النفاسون فقد كان بهراد ارفعهم قدرا، وكان يتفن رسم الوجوه الملتهبة ، ثم ساه مظفر وكان بنقن ابراز الملامح »
 « اما الموسفيون فلم يكن منهم من يجيد العزف مثل خواججه عبد الله مروانى ، ومنهم كذلك محمد عودى وسيخى نابى وشاه قلى عجكى ثم حسب عودى الذى كان يؤدى لحننا باكملة على وتر واحد . أما مرغزو فقد كان ملحننا ممتازا لا عازفا ، ومثله بنائى . وكان البهلون محمد بنو سعيد فردا فى فنه نبغ فى مخلف ألعاب القوى وكان موضع اعجاب الجميع ودهنتهم » .
 (المترجم)

(١) شاهدت بنفسى الرقص المعروف باسم هراتى بسرار عام ١٨٦٢ وفيه بعتلى الراقص مقعدا وسامر الموسيقى بعض الوقت وهو ملف فى ملاء بيضاء . وتمايل فى ستره هذا تمايلات رشيعة أكثر منها فنية ، ثم نكتف عن نفسه بالدريج . وهناك رقصات أخرى يعرف باسم خراسانى وترجع الى ذلك العهد . وهى ننسبه ضربا من الرقص الموسيقى يؤدى فيها الراقصون حركات مضحكة تحكى المفاولة فى صورة ليس فيها الكثير من الجمال والفن .

الفصل الثالث عشر الأوربك وشياني خان ٩٠٦ (١٥٠٠) - ٩١٦ (١٥١٠)

من أَلطف ما يَتميز به الترك أنهم جروا دوما على تسجيد ذكرى أولئك الأمراء الذين أكسبهم ازدهار عهودهم ، أو ما كانوا يبدلون من جهود لخبر شعوبهم ، حقا شرعيا يقوم على عرفان أعقابهم لهم من بعدهم بذلك فينخدون من أسمائهم كنى لهم ، ويشيدون بالواحد منهم ، ويرفعون من قدره حتى ليعد وكأنه مؤسس جنس ، ويبينون في تحديد تام مدى الدور الذى لعبه فى بعث بلاده من جهة وعلى مسرح الساربح من جهة أخرى .

وعلى هذا رأبنا الترك ينفقون أولا الى آسيا الغربية كطلائع للدولة السلجوقية الجبارة ثم بقيمون هناك على بقايا الدولة البيزنطية دولة جديدة لا تزال نعرف حتى اليوم باسم الدولة العثمانية نسبة الى زعيمهم عثمان .

وعلى هذا أيضا نجد قائل الترك المغول التى تسكن المناطق (١)

(١) لكلا نعرض هنا اصطلاح « الترك المغول » لاي ناول يجب ان أبس هنا انى انظر الى الأوربك بوصفهم خليطا من الترك والمغول فهم ليسوا من أصل تركي خالص . ومثل هذا الامتراح لا نطنه بعيدا عن الاحتمال عند الترك والمغول الذين دخلوا فى الاسلام اذ انه قائم فى الواقع . وأحسن دليل على نحد فى نب أسماء الانتين والثلاثين قسلة أوزبكية . وأعلب هذه الأسماء هى بلا شبهة مقولة فى أصلها وطابق تمام المطابقه كنرا من الأسماء التى لا تزال تسيع بين البدو فى صحراء حوبى . مثال ذلك خاى مونج : ختات (فى ابدال الحيم بالاء انظر-Uigurische Spra- 23 p chmonumente = بالصنفة نوكنس مونج ، نوكونسون ، الصوف) ولا نحد حرف النور بنطق بالتخيم فى المركية فى الغالب) ناس مونج : ناس . وهو نوع من النسور الرمادية . دورمن منح : دورمن = أربعة . ميس مونج . مسه = الجبن والخور وهلم جرا .

الشرقية لبلاد القبيلة الزرقاء ، وهو الاقليم الواقع بين الفولجا وبحر آرال ، تنتسب (١) تشريفا لها الى أوزبك تاسع الحكام من بيت جوجى فتشتهر سياسيا باسم قبيلة الأوزبك (٢) ويقول أبو الغازى فى تاريخه عن التتار (٣) ان أوزبك خان كان يكافىء كل شخص ويكرمه وفق ما يستأهله . كما دعا الناس الى الاسلام فدخل بجهوده كثيرون فى ملة المسلمين ، وعلى هذا اقتسب قوم جوجى الى أوزبك ، ذلك الاسم الذى سوف يخلد الى يوم الدين .

ولقد حمل أوزبك قومه على الدخول فى الاسلام . وكان الى جانب ذلك ، كما يلاحظ هامر بحق (٤) . نال حكام عظام أربعة ازدان بهم عرش القبجاق ، ومع هذا فلا يبدو أن الأوزبك ، لا فى عهده ولا فى عهد خلفائه المباشرين ، كان لهم دور ملحوظ كأمة ، وان كان ذكرهم يرد بين الحين والحين فى تاريخ التيسوريين . كما أشار اليهم كذلك عرضا الرحالة العربى ابن بطوطة .

(١) يجعل مؤرخو آسيا الوسطى السرفيون موطن الأوزبك القديم هو بطاح القبجاق الفامضة المعالم ، ويعنون بذلك مرتفعات نوران التى تمتد ستمائة فرسخ طولاً وثلثمائة عرضاً من بحر الخزر صوب السرف . وهذا الادعاء خاطيء على كل حال ، ذلك أن الأوزبك رغم أنهم كانوا برعسون قطعانهم الى الجنوب من حوازم الا أنهم لم ينعقدوا من ناحية الشمال الشرقى الى أبعد من المحرى الأدنى لسيحون حتى سقوط التيسوريين . فموطنهم الأصلي كان فى الغالب عند سواطىء نهري أورال وامبا : وبعبارة أخرى ذلك الاقليم الذى يعرف اليوم بأرض القبيلة الصفرة .

١٢١ تعنى كلمة أوربك سيد نفسه ، والمسفل . وما سر المحجب ان هذه الكلمة نفسها كانت شائعة بين المجريين بوصفها من الغاب السرف . وهى برى فى الوثائق التى ترجع تاريخها الى عام ١١٥٠ م . وقد سخر النسيج المشهور خداداد المتوفى عام ٩٣٩ (١٥٩٢) من تلميذه عارف صوفى حين رآه يتحجب على أثر أول انتصار لبابر على شيبانى حاكم وقال له بالتركية « سكون لك سيدك » Alias : Ozberg .

(٣) أبو الغازى ، شجر تركى (نسب الترك) .

(٤) History of the Golden Horde p ٥3١ والثلاثة الآخرون هم :

بانو وبرك وبختمش .

ويمضى على ذلك قرن ونصف قرن انقرب من بعده عقد قبيلة القيقاق الى أربع فرق ، وكانت هذه القبيلة يوما ما على قوة ، وحين أخذ ايفان واسيليفتش (Ivan Wassiliewitsch) محرر روسيا من التتار ، يهدد سلطان أحفاد جوجى عند المجرى الأعلى للقولجا ، نجد اسم أبى الخير ، أمير الأوزبك ، من بين مجموعة أسماء الزعماء والأمراء التابعين الذين نبذوا طاعة الحاكم فى سراى وأخذوا يارسون سلطانهم كخافات مستقلين . واستطاع أبو الخير بخيامه وجبوعه ، أن يرتد فى مشقة تلقاء تلك العاصفة التى كانت تتجمع فى شمال بلاد النصارى ضد قوة المسلمين ، فنزل فى مناطق السهوب الشرقية . وذاع صيته فى تلك الجهات حتى استجد به من الأمراء التيموريين أبو سعيد ومحمد جوكى وحسين بيقرا ، والتسوا حمايته ، على ما أشرنا اليه فى فصل سابق ، وذلك إبان حكم كيبيك (١) محمد آخر أمراء القبيلة الزرقاء ، وهو الذى انهار بسقوطه عرش جوجى فى القيقاق .

ولقد ظل الأوزبك فى منازلهم بعيدين عن مؤثرات الحضارة الإسلامية التى كانت قائمه غربي سراى وجنوبى بلاد ما وراء النهر ، مستنسين ، على طبيعه البرابرة العتاة ، بعادات التورانيين القديمة لفترة أطول مما استمسك بها اخوانهم الذين كان قد اسنفر بهم المقام فى منازل الحضرة وتأثروا بمؤثرات الحضارة التيمورية .

واعنق هؤلاء الأوزبك دين النبی العربى اعتناها اسما ، فبقت رسومهم وعاداتهم ، مثلهم ، مزيجا عجيبا من رسوم الترك والمغول . وفى حين كان الترك عند جيحون وسبحون يفلون بالتدريج على لغة ايران وآدابها وحضارتها عامة . كاذق هؤلاء لا زالون يرفلون فى جلود الماعز والخيول ، حتى كان المظهر الملحوظ الوحيد للحياة الدينية عندهم هو

(١) يخطئ هامر حين يرسم هذا الاسم بالاماله نحو الضم ، وينسى انه بهذا يكون معناه فى التركية الشرقية الحرة . وعلى هذا فالصحيح أن يكتب بدونها . ويفسر مثل هذا الخطأ أن معرفتنا اذذاك بالتركية السريه كانت ضئيلة جدا .

تمجيدهم ، الى حد ما ، لوليهم القومى الزاهد خواجه أحمد اليسوى (١) الذى كانوا ينسبون اليه كثيرا من الخوارق . وما لبثوا من بعد ذلك أن أخذوا ينزلون منازل الحضر بالتدريج ويستقرون بها ، وينفضون عنهم بالتالى عادات البرابرة شيئا فشيئا .

ولقد كان اسم الجغتائين يطلق فيما سلف من الأيام على الترك المستقرين الذين كان لهم من الحضارة نصيب ، فى حين كان لفظ الأوزبك (٢) اذ ذاك مدلولاً على البرابرة الذين يقطنون منطقة السهوب النسبالية الغربية ، حتى تبدل الحال اليوم فأصبح للفظ الأوزبك المدلول الذى كان للفظ جغتائى من قبل ، وباب الترك البرابرة غير المتحضرين يعرفون باسم الغريز أو القازاق (ومعناها الرحل البرابرة) .

والغالب أن أبا الخير كان على معرفة تامة بالعصر الذى آلت به الأقدار فيه . فلم يفكر فى الخروج الى الفنوح بسبب الظروف التى كانت تسود آسيا الوسطى اذ ذاك ، وانما اكتفى بأن يسقى قدما فى نلبية دعوة خلفاء تبسور حين كانوا يستنجدون به ابان الحروب الأهلية العنيفة التى كانت تجرى بينهم ، فناصر منهم أبا سعيد كبا ناصر منوچهر ميرزا والسلطان حسين بيگرا ، وكان الأوزبك يؤوبون كل مرة بعد هذه المعارك مثقلين بالأسلاب على الدوام . بتلك الغنائم التى أخضت على حكم أبى الخير الذى استشر أربعين عاما شهرة لم تنتج لغيره من أمراء الصحراء . وهناك مثل نركسانى نقول « من اليسير أن نشر رمال الصحراء بأنفاسك ، وأيسر من ذلك أن ينهار مستقبل الانسان » .

(١) لا يرال خواجه أحمد اليسوى هو الولي الأسر عند الدوفى سهوب آسيا الوسطى . وهدس الأوزبك والفرعير شعره الدنى بمواعظه كما يهدسون القرآن . وقد أوردت أمثلة منه فى كتابى : الدراسات الحقتائية .

(٢) ويؤيد ذلك ما فوله مؤلف سبباني نامه ، ما ترجمته :

ان الجغتائين سوف لا يدعونى أوركبيا وهم لن يتأثروا بالأفكار السافهة . ولم يلبث هذا الاسم الذى كان علامة على التحجر ان صار على مدى الزمن من ألقاب السرب ، ذلك ان الترك اصحاب المدسة من سكان الحضر ، يعرفون اليوم به (الأوزبك) .

وتتج عن ازدياد قوة أبى الخير وذيوع صيته أن عاداه كثيرون ، فائتلف عليه الأمراء المستقلون فى مناطق السهوب المجاورة بل لقد انقلب عليه أقرب أقربائه وفيهم بورغه سلطان ، الذى سبقت الإشارة إليه ، وذلك على مقتضى المثل التترى الذى يقول « حين يهاجم العدو مضارب أيبك فانضم اليه وساركة السلب والنهب » (١) .

ولم يلبث أبو الخير أن سلف فى حومة الوغى وتنتب أسرته الكثيرة العدد فى كل صوب وحذب بالصحراء . وخلفه من بين أبنائه الأحد عشر (٢) الذين تركهم من بعده خامسهم ، وكان بدعى شيخ حيدر سلطان ، ولكنه كان محدود النفوذ ، اذ كانت عيون الأوزبك قد اتجهت فعلا الى حفيد لأبى الخير هو الأمير محمد شيبانى الذى يشتهر أيضا باسم شاه بخت (أى ملك الحظ) ، وعقدوا آمالهم عليه . ومع حداثة سنه فقد دلب فعالة فى الواقع على أن تثبتهم به لم تكن فى غير موضعها (٣) وكان شيبانى (وهو الاسم الذى سوف نطلقه عليه مستقبلا على الدوام) قد فسد وهو بعد حدث (٤) أباه بودان سلطان (زهرة الملوك) وأمه قورى بيكيم (أى الشاه) فعهد به وبأخيه الى قراجه بك ، أحد أتباع

(١) ورد هذا المثل عند أبى الفارى ص ١٠٦ ، وفيل من اللغات هى الى نحوى نفسا بطير هذا المثل الذى يحض على القتل والسلب .

(٢) وهم بداف سلطان وحواجه محمد سلطان وأحمد سلطان ومحمود سلطان وسونج خواجه سلطان (وأمه إحدى بات الغ بك) وآفى برى سلطان وسعد نانا سلطان ، وابناء الأمبرين الأولين هم الذين كان لهم دور فى تاريخ آسيا الوسطى ، وعلى هذا فقد ضببت أنسابهم . أما إباء أبى الحر الأحرار فلا يعرف عن ذريتهم شيئا .

(٣) يذكره المؤرخون الفرس أحيانا باسم ساهى بيك ، وقد حرب هذا الاسم عند Deguignes الى شاسك . وقد أخطأ المؤرخون الايراسون كذلك فى تحديد تاريخ مولده ، يذكره صاحب روضه الصفا عام ٩٠٥ هـ وهو تاريخ ارتفاعه العرش كما سنرى فيما بعد . والصحيح انه ولد عام ٨٥٥ .

(٤) قبل أن يستولى شيبانى مباشرة على سمرقند عام ٩٠٦ هـ كان قد أفضى الى صدره الساعر محمد صالح ابن أباه قد مات قبل ذلك الوقت بأربعين سنة وبهذا تكون وفاته عام ٨٧٦ (١٤٧١) ، فادا كان شيبانى قد ولد عام ٨٥٥ فانه بذلك كان عند وفاته أباه فى الحادية والعشرين من عمره (٥) وهى ليست نورى بيكيم كما وود فى الطبعة الحجرية لروضة الصفا .

جلده المخلصين ، فتفانى في تعهد الأميرين اليتيمين ، وحين مات شيخ حيدر اضطر قراحه ، بسبب عدااء أسرة أبى الخيز له ، أن ينزح الى حوض سيحون الأدنى ومعه الأميران اللذان وكل أمرهما اليه ، وكانا اذ ذاك قد شبا عن الطوق . هنالك أفلح شيباني في أن يجمع حوله شتات الأولوس (أولوس = مجموعة الخيام) من أتباع أبيه وينطلق من بعد ذلك يعمل في هدوء على استرداد ما كان لبيته من هبة بالثار له وعسل ما لحق به من مهانة بالدم . وكان أول هدف له في ذلك هو تأديب بورغه سلطان لحياته المشينة لأبى الخير . وكان بورغه هذا قد أقام مضاربه بظاهر غابة عند الحوض الأعلى لذلك النهر . واذ لم يكن لشيباني قبل بخصمه هذا فقد اصطنع مداراته في انتظار فرصة سرعان ما واته .

ففى ليلة من ليالى الشتاء الثلجى الطويلة التى يغشى فيها الظلام الدامس والزمهرير الرهيب مناطق السهوب حيث الحياة فيها على الدوام كثية موحشة ، انقض شيباني خان على منازل خصمه في حفنة من أتباعه وقتل عديدا من رجاله . وهلك بورغه نفسه في القتال من بعد ذلك برغم ما أبداه أحد رجاله من شهامة واخلاص نادربن حين حاول أن يفتديه بنفسه (١) .

وسرعان ما رأى البطل الشاب نفسه ، بعد نجاحه في مغامرته هذه ، وقد أصبح على رأس قوة من فرق الأوزبك يحسب حسابها ، وغدا يشعر أن في مقدوره بذلك أن يخوض غمار معارك أقوى وأشد ، واته فرصتها

(١) انطلق الفوم عند بزوغ النهار يبحثون عن بورغه في كل مكان ، وكان المعروف أنه قد أصيب ، واكتشف بعض رجال شيباني آثار دماء على الجليد ، فمارالوا بتتبعوها حتى دخلوا الغابة فوجدوا فيها جنديا طريحا مشحنا بجراحه . وحين سألوه عن اسمه أخبرهم بأنه هو بورغه سلطان . حتى اذا ما حىء به الى شيباني عرف فيه من فوره منكابي خادم بورغه . وحين سألوه عما حدا به الى أن ينتحل شخصيه سيده ، اجاب هذا التابع الوفى قائلا « انى نا سيدى قد نشئت مع بورغه وطعمت معه الخبز والملح ، وحين رأيت حياته تتعرض للخطر عرمت على ان أفسده بنفسى ، فتلفيت بصدرى السهم الذى هو فاتله ، وكانت هذه هى أمنتى ، ولك أن تفعل بى الآن ما تشاء » . وقد أدى بشيباني كرمه لبقاء ذلك الى ان وصل ذلك التابع الوفى واطلق سراحه ، أما بورغه فقد عثر عليه من بعد ذلك على كل حال وقتل .

في التو ، وذلك حين اضطر الى الاشنباك في الحرب مع التيموريين ببلاد ما وراء النهر . فقد كان عرش سمرقند يشغله اذ ذاك السلطان أحمد بن أبي سعيد ، وكان مناطق حدود هذه الدولة الشمالية يقوم عليها مزيد ترخان أحد أبناء كوجلوك خان ، وكان شيباني قد عرض نفسه أول الأمر على مزيد هذا والتحق بخدمته فعلا بعض الوقت . على أن مزيدا ما لبث أن عرف خيانة قادته من الأوزبك اياه فعمل على التخلص منهم جميعا على أية صورة ، فبعث بهم لذلك الى عبد العلي ترخان أمير بخارى القوى . وكان هذا الأمير ينافس سلطانه بسعة بلاطه وما هو عليه من الأبهة والوجاهة . وتلقى أمير بخارى هؤلاء المحاربين الشبان بالترحاب ، وأفاد منهم في صد عزوات المغول عند حدوده الشمالية الغربية . وוכל كذلك بحفيدي أبي الخير حرب الأمراء الثائرين في ولايات تركستان الشمالية . وفي تلك المناطق شعر هؤلاء الأوزبك أنهم ينزلون في بلاد غير غريبة عليهم . وأدى بهم شعورهم بالاطمئنان هذا وادراكهم بازدياد قوتهم ، في الغالب ، الى أن يعلنوا عدم رضاهم عما كان يدفع لهم عادة نظير ما كانوا يظلمون به من مهام . واتمى الحال ، لاسرضائهم ، الى أن أقطعوا مدن آترار وسبران وسغان ، فكانت هذه المدن نواة الدولة المترامية الأطراف التي صارت لشيباني فيما بعد ، وما عدا أن انضم الى شيباني . في السر ، جموع من الأشياع والبدو الأفافين .

وأطمعه ازدياد قوته في العدول عن ولائه للتيموريين الذين كانوا في طريقهم الى الاضمحلال . وسرعان ما نشب الخصام بينه وبينهم ، حتى تم له ، قبل وفاة السلطان أحمد ، الاستقلال بمناطق سيحون ، وأرغم مزيد ترخان نائب السلطان هناك على الائتلاف معه . وهكذا انقلب شيباني من مجرد أجير كان يعمل في خدمة هؤلاء الأمراء الى أخطر خصوم بيت تيمور .

وكان مالزعاء البدو الفتيان هؤلاء من سجايا المحاربين الجسورين ما يكفي في حد ذاته للدخول في منازعات ومحاصمات لا حد لها ،

وناهيك بحالة الفوضى والاضطرابات التي كان يعيش فيها أمراء بلاد ما وراء النهر ، حتى شجعت هذه شياني محمد خان في الوقت نفسه على أن يقدم على الغزو في نطاق واسع ، وهو الذي بدأ حياته مجرد مغامر لا خطر منه ، واتجه هذا الأمير بأول عملياته الكبرى صوب سمرقند وذلك في عام ٩٠٥ (١٤٩٩) .

يخبرنا كاتب « شياني نامه » أن السلطان محسود أخا شياني غزا ذلك الاقليم على ما كانت عليه حدوده أيام بايسنقرا ميرزا ، واستمر في توغله به حتى بلغ ديزك (١) فصد هناك .

ولئن كان شياني قد توجه باللوم الى أخيه حين عاد الى مقره اذ كان قد أخفى عنه هذا الأمر قبل أن يخرج اليه ، الا أن رأيه استنفر على أن ينقم لهزيمة أخيه على أية حال . فعبر سيحون ومعه أحلاب من الجنه يلبغون ألفا من الرجال . وسرعان ما تبين له نفى الجائفة بين هؤلاء الجات حتى اضطر أن يعود عجلا من جب نى . هنالك عزه هذه المرة على أن بغزو الاقليم ، على نصيحة نبيجه (٢) « من ضراخه القاصية لا من وسطه » ولذلك بعث الى جيسع شيوخ الترك في تلك

(١) هي جرك الحالبه .

١٢١ كان لسانى حان بدوره سبج بسنسرده فى كل اموره وعمل بنصحه دون تردد . على ما كان عليه محاربو الترك فى تلك الأنام . وكان هذا يدعى السبج منظور . وحدث حين كان سببى منجما بخدمته عند الملك . ونفسه على باطماعه . أن صاف ذرعا بحاله فصرح قائلا « كيف تكون لعد الملك وهو من اصل وصع (وكان علب اباع السلطان احمد فى الواقع حكاما اذ دك) وأبى انا معجود تابع وانا ابن الأمراء » ربلغ السبج منظور هذا الحدث . وراى سببى فى اليوم الثانى حى ادا من مد السماط وفرغ الغوم من تناول الطعام ثم رفع السماط ، اللف السبج الى الأمر الأوزبكي وقال له « أراى كيف رفع الخدم السماط فأمسكوا باطرافه لا بوسطه ، فكذلك تؤخذ البلاد . لا بالاستيلاء على حاسرهما وإنما بتأمين حدودها » ونقول سبب راقم وهو الذى نقلنا عنه هذه الحكاية (أن سببى ذهب فى ذلك الوقت الى حيود فاسنمد هناك نجدان من المنغمسين ولدا فتوجه فى عزم وجد .

النواحي ينهبهم الى أن الظروف مواتية للقيام بشل هذا الغزو ويدعوهم الى المشاركة في القضاء على حكم التيموريين . وبرغم أن سلطان التيموريين كان قد أخذ التفسخ والانحيار يديان في كيانه في الواقع إلا أن كثيرا من الترك بسرفند بقوا على ولائهم لهم على أية حال ، حتى رأى شباني أنه لن يستطيع أن يحقق أغراضه هناك من غير أن يكسب هؤلاء أولا لصفه . فلم بغامر بالزحف الى سمرقند في جيش كامل العدد الا بعد أن تم له استئالة فريق من زعاء هؤلاء الترك وهم كوجوم سلطان وسيونج خواجه سلطان (١) وحزرة سلطان ومهدى سلطان .

وكان سلطان على يحكم اد دالك في سمرقند في الظاهر منذ أن ارتد بابر الى اندجان ، ذلك أن السلطة الفعلية كانت في الواقع بيد القاضي خواجه أمى المكارم (٢) الذي أنشأنا إليه من قبل . وبجبرنا صاحب « شياني نامه » أن أسلاف هذا الشيخ ظلوا ينوارئون منصب مشيخة الاسلام بسمرقند لأربعمائه عام . وفد برهن هذا الشيخ على أية حال على عدم جدارته بالاضطلاع بالحكم هو وأمره الذي لم يكن له من السلطة الا اسمها . ولم يكن كذلك كفؤا ليواجه الخطر الذي أخذ يهدد البلاد على أيدي هذا العدو الوافد .

فلم يكن عجبا والحالة هذه أن ينسر لتبباني دخول المدينة من باب جهارراه ، بعد أن حاصرها عشرة أيام ورد حبانها حين برزوا اليه من باب شيخ زاده ، ثم اندفع من بعد ذلك ، دون ما مقاومة ، الى قصر باغ نو (٣) الصيفي وهاجم آخر الأمر حامية المدينة نفسها . وفد بدأ

(١) كان هؤلاء من اعمامه . ومن ها يظهر أن رجال ست أمى الخير لم يؤيدوا تبباني في أهدافه بالاجماع .
(٢) أبو المكارم كنسه . اما اسم هذا القصة الطموح فهو خواجه

حتى .
(٣) يظهر من ذلك أن باغ نو والقصور الصفه الأخرى كانت مع مساحاتها الكسرة داخل مدينه سمرقند . وعلى هذا فإن الفراغ بين أسوار البلد والحصن (وكان يضم القلعة) لابد انه كان أكبر مما تستطيع أن تمثله على ضوء الأحوال الحاصره .

هذا الصدام عند الظهر ، واشترك شيباني بنفسه في هذا القتال المير الذي علب عليه التهور والاقدام حتى استمرت المقتلة طول الليل . وفي صبيحة اليوم التالي اتسّر الخبر أن باقى ترخان ، أحد أبناء عبد العلى ترخان الذى كان شيباني قد بدأ حياته فى خدمه ، قد خرج من بخارى لنجدة السمرقنديين ، وانه قد أقام مصاربه بظاهر حصن دبوسى .

هنالك رأى الأوزبك أن لا مناص لهم من أن يجلبوا عسا غسوه من مواضع ، فأعملوا النهب فى المدينة وانطلقوا من بعد ذلك مسرعين الى بخارى . ولم تكن لهذه المدينة وقد خلب من كل قوة مدافعة الا أن نستسلم للغزاه . وفيها أقام شيباني ديوان حربه وأسكن أمه وأسرته فصرها ثم عاود من بعد ذلك سيره الى قراول . وكان سكانها قد غدروا بحامته فقتلوهم جميعا ، مما حدا بالأوزبك أن يعودوا الى الاستيلاء عليها من جديد ، فلم يقدّموا على حصار سرفند الا بعد أن أنزلوا بقراول ضربات شديدة على مفتضى رسم النار فى الحرب .

وقاومت العاصمة الحصينة الحصار ثمانية أشهر ، وكان توسعها أن تصد الأوزبك عنها مدة أطول من ذلك لولا نزول المجاعة بها وما كان من وقوع الشقاق بين خواجه أبى المكارم الطسوح والأمر سلطانعلى وشيوع أمره بين الملأ . وحين وقف شيباني على ذلك كله كب الى الأمير الضعيف بخبره بأنه ولا بد قد ضاق بوصاية السد ، وبصحته أن يقر بالولاء لبيت أبى الخير ، الصاعد بنعبه الله ، وبهذا يؤمن مستقبله بتحالف ودى . وتقدم شيباني من بعد ذلك الى أم السلطان بطلب بدها اظهارا لمودته وتأكيدا لصداقته فقبل ذلك منه (١) .

وجرى ذلك كله فى سرية نامة ، حتى دخل شيباني ، يوم جمعة صبحوا ، المدينة المحاصرة من أحد جوانبها ، فى هدوء ، فى الوقت الذى

(١) ورد فى شيباني نامه (المحمد صالح) أن أم سلطانعلى هى التى بدأت بالانصال شيباني فعثب اليه بقرح فراها به . وهى رواه سدو لعبدة عن الحفقه (المؤلف) .

ويؤيد بابر هذه الرواية فى سريره وكانت هذه السدة أرملة عمه السلطان أحمد (ابننامه ١٧٩) (المترجم) .

كان فيه أبو المكارم يؤدي الصلاة في أحد مساجدها بالجانب الآخر ولا علم له بما كان يجري فيها .

وقد وقع هذا في مستهل عام ٩٠٦ (١٥٠٠) . وأذهل المدينة هول المفاجأة فاستسلم إلى مصيرها في هدوء .

وقد احتفل القوم بزواج شيباني من زهرة بيكيم ، أرملة السلطان أحمد ، وإن كان بابر يذكر أن هذه السيدة كان يعاملها بعلمها الجديد وكأنها مجرد خادمة بسيطة .. ومات سلطان على بعد ذلك بقليل (١) وكان موته غيلة على ما يظهر .

كان من شدة وطأة أبناء السهوب البرابرة الجشعين هؤلاء على سمرقند وما يحيط بها من أرضين أن خرج الأهليون هناك يلبسون بجدة تخلصهم من هذا البطش الشديد ، واستغاثوا آخر الأمر ببابر ميرزا الشجاع الكريم فدعوه إلى القدوم إليهم ليحرر موطن أسلافه من الاستبعاد (٢) .

ولقد ذكرنا من قبل كيف كان حب بابر لأسرته ومصلحتها يملأ شغاف قلبه ، وكان هذا الأمير حينذاك يتجول عند حوض زرفشان الأعلى في نفر قليل من أتباعه وفيهم خواجه أبو المكارم . حتى إذا ما أهل هؤلاء الحوقنديون على سمرقند يلقفهم ظلام ليلة من ليالي خريف عام ٩٠٦ (١٥٠٠) تلقاهم الأهليون فرحين .

(١) يذكر بابر في سيره أن سلطان على قتل في حين يذكر صاحب شيباني (نامه) أنه غرق في حادث حين كان يركب عند شواطئ نهر زرفشان .

(٢) يبدو البرهان الأكيد على ما كان بين مختلف أمراء بيت سمور من العداء في عدم الاكتراث الذي أنداه السلطان حسين بيفرا باراء محريبات الحوادث ببلاد ما وراء النهر ، وكان اذذاك في أوج حكمه . وما من شك في أن خروج ابنه بديع الزمان عليه من ناحية وسلوك خسرو شاه الوقع نحوه عند «حصار» من ناحية أخرى قد منعاه من أن يقوم بأي عمل في صالح سمرقند ، ولو أن هؤلاء التيموريين كانوا قد انتلفوا فيما بينهم بدلا من أن ينحاربوا لانسجال بلا مرء على شيباني خان أن يحقق أي هدف من أهدافه على الإطلاق .

وما لبث شياني خان أن فقد المدينة بنفس الطريقة التي استولى بها عليها . فقد كان أكثر جنده من الأوزبك يرابطون اذ ذاك في سهل كان كل في وضع يستحيل معه الاضطلاع بالدفاع عن المدينة ، فعاجأهم العدو في مكانهم هذا فقتل منهم أربعمائة . وحين تبين له عند الصباح أن موقفه قد بات ميئوسا منه ، لم ير بدا بذلك من الارتداد الى بخارى مع من بقى معه من رجاله بأسرع وقت .

ولئن كانت سمرقند قد أصبحت في حوزة بابر الا أنه لم يستطع الاحتفاظ بها الا الى الربيع التالي ، نى الى أن عاد الزعيم الأوزبكي الجسور يرى في نفسه من القوة ما يكفي لأن يغامر بالهجوم على تلك المدينة مرة أخرى . وبدأت المعركة بين الطرفين بمباغعات متبادلة أظهر فيها الجميع من خوارق الشجاعة والاقدام ما بلغ الأوج ، في وقعه سربول العظيمة عند شواطئ زرفشان بن بخارى وسمرقند . وفيها كسر بابر كسرة شنيعة ، برغم ما أظهره من شروب البطولة والجرأة ، حتى استطاع آخر الأمر أن يلوذ في مشقة بحصن سمرقند . ويعزو بابر سبب هزيمته الى انصراف أحلافه من المغول الى السلب والنهب (١) ويظهر أن هذا وحده لم يكن مرد الأمر كله . فان ما أبداه مؤسس الدولة المغولية ورجاله من الشجاعة وحضور البديهة في ذلك اليوم المشهود هو بلا مراء جدير بكل ثناء ، غير أن محاربي بلاد ما وراء النهر وأندجان ، وهم الدين درجوا على الحياة الرخصة واعتادوا عليها ، قد وجدوا أنفسهم آخر الأمر ، برغم عددهم الذي بلغ أربعين ألفا ، ولا قبل لهم بالصمود في وجه اندفاع الأوزبك الوحشي في القتال وخسوتهم الزائدة . ونزل ببابر في هذه الواقعة خسائر شديدة ، وركبته الطيرة برغم ما كان عليه من ثقافة عالية ، فقد سقط في ذلك اليوم ثلاثة من قواده يدعى كل واحد

(١) يحمل بابر في سيرته على المغول في كل مناسبة تبدو له ، وكان يفتخر على الدوام بأجداده من الترك مع أن أخواله كانوا من المغول الجنكيزيين .

منهم ابراهيم (١) فرأى فى ذلك فألاً سيئاً . وجهد بابر بسا عرف عنه من همة فائقه ليسألف القتال عند سرقند ، ولكن سرعان ما أدرك الحقيقة المؤلمة ، وهى ضياع كل أمل له فى تثبيت حق أسرته ببلاد ما وراء النهر . واستغل شيبانى ما أجزره من نصر فانطلق يطارد عدوه الهارب حتى حصره فى سرفند . ودام حصار المدينة أشهراً أربعة كانت أسوأ فترة عاتتها حاضرة تيسور فى تاريخها . فبينما كان محاصروها بنعمون بشار الريف الخصب من حول المدينة ، بلغ الحال بالاحتائين المحصورين فى المدينة الى أن طعموا لحوم الخيل والحميز — وهى ما تغافه نفوس المسلمين — بل لقد طعموا كذلك لحاء الشجر وأعطوا ليه لخيولهم بدل العلف . وساد المدينة الاضطراب والفوضى حتى وجد بابر نفسه أشبه بسعزول فى حصونه المهجورة . هنالك اتخذ سبيله هرباً فى الليل ، فتقذ من بوابة شيخزاده ونجا بحياته بعد مخاطرات أسرت فيها أخته الكبرى خانزاده بيكيم . وقد بنى بها شيبانى من بعد ذلك (٢) .

هكذا سفظت سرقند وسقطت معها دولة النيسورين . وانفض الأوزبك على المدينة ينتهبونها وقد تسلك منهم شهوة الانتقام . على أن سكانها جميعاً كانوا قد غادروها فزعين ، بحق ، اذ كانوا بعلسون مبلغ حق ذلك الغازى عليهم . وكان من بين الفارين من زعمائها الخواجه

(١) « كان ذلك فى ليله ضريرد الجيم بمنطقة الصفد الكبير التى جعلها الروافد والفتوات ، وعند بزوع النهار اكتشفت ابى قد تركت رفاى من ورائى . وبراقت أريطة سرجى فتحول عن مكانه فاداً بى أسقط على أم راسى . وبرغم أنى استطعت أن أمطى حصانى من حديد الا أنى لم أبى من أثر هذه الصدمة وأعود الى نفسى الا فى الليل . ولقد نمثلت لى الحساد فى خاطرى مع ما مر بى من الأحداث وكأنها حلم . وبرت وسط السار عند اللابوبى ، فدبحنا حصانا . وأرخنا دوابنا . ولم يتيسر لنا بل أن نبلغ ديزك أن نجدد قوانا . تناول اللحم السمين والحز الحسد وبسسمع بعليل الطبخ وحلاوة العسب » . هذا هو ما ورد فى يوميات بابر سريره من أخبار فراره هذا . النسخة الأصلية ص ١١٧ .

(٢) سر الشاه اسماعيل الصفوى هذه السيدة معمرة مكرمه الى خبا . وكان قد وجدها بمعسكر نسبابى حان بعد أن هرمه وقتله ، تاريخ رسدى ص ٢٣٩) .

(المترجم)

يحيى عدو شيباني اللدود . وعمد هذا الرجل الوديع الى التكر فأزال
لحيته . ويعد هذا الصنيع جرما عظيما في نظر المسلم . وبرغم ذلك فقد
انكشف أمره وقبض عليه . وحين سأله شيباني عن سبب اقدامه على
ارتكاب هذه الفعلة المشينة أجابه بانشاد بيت من الشعر الفارسي يقول
« ان من يحاول أن يطفى نور الله بفيه فسوف لا يحرق الا ذقنه » (١) .
على أن شيباني « نور الله » لم يتأثر بذلك المديح الذي صدر عن ذهن
متوقد ، فقضت يد الجلال بضربة واحدة على طموح الخواجه يحيى .

وعامل الفاتح كل أتباع الدولة المضحلة بمنتهى العنف دون
استثناء . وأدى صنيعه هذا الى اشاعة الذعر في الناس ما فت في عضد
كل مقاومة قامت في وجهه . وتم له من بعد ذلك اخضاع أخيه كذلك
وكان قد ركن الى الثورة عند اراتيه ، فتوطد بذلك مركزه حتى بدا من
اليسير له أن يخرج في فتح جديد عبر جيحون مع جيشه الصغير الى حدماء .
ولم يكن حزم هذا الفاتح الأوزبكي وفطنته دون شجاعته وشدة جلده .
فلم يكد يستولى على سرقند حتى أسال لهابه خصب أراضي خراسان ،
وكانت هذه البلاد اذ ذاك في حوزة ميرزا حسين بيقرى القوى العظيم .
وكان شيباني خان يدرك تمام الادراك مدى ما عليه هذا العدو من قوة .
وما له من موارد كثيرة ، فلم يقدم على مهاجمته رأسا ، وانما انطلق
يفزو نواحي من تلك البلاد كان يعرف ضعف نفوذ ميرزا حسين بها .
وكانت بلغ احدى هذه الجهات ، حيث نشر الأمير بديع الزمان راية
العصيان ، ثم هلاخ خروشا (٢) وزير السلطان أحمد السابق الذي كان
قد تم له الاستيلاء على حصار وختلان وقندز وبدخشان بعد أن تخلص
من سيده السابق غدرا ، وكان شيباني يرى أن لا مندوحة من قتاله .
وكان على الفاتح الأوزبكي قبل أن يقبل على هذه الخطوة أن يؤمن

(١) هذا البيت هو :

جراغى را كايزد برفروزد

هراتكس تف كند ريشش بسوزد

(٢) انظر هامش ص ٢٨٢ في الفصل السابق

مؤخرته وذلك باخضاع خانيكه سلطان وألاجه سلطان أقرباء بابر من ناحية أمه (١) . وكان في مقدورهما أن يعضدا قوة يحسب حسابها من المغول والقلموق عند الماطيء الأيمن لسيحون عند شاهرخيه وطشقند . وكان هذان الخانان قد أدت بهما كراهيتهما للأوزبك من جهة ، ورغبتهما في الانتقام لما اذيقا بآبن أخنتهما المنكود الحظ من هزائم من جهة أخرى ، إلى أن أخذتا يتصديان للأوزبك ما وسعهم ذلك . وكانت أول حرب وقعت لهما معهم قبل سقوط سمرقند بعام . ففي منتصف شتاء كان الزمهير فيه على غير المعتاد من قسوته زحف شيباني خان صوب الشمال وجنده متدثر بالقراء ، وعلى مقدمته أخوه السلطان محمود وتيمور سلطان ، ومعهم ستة آلاف من خير شجعان الأوزبك . على أن قسوة الشتاء أرغمتهم على العودة من حيث أتوا ، أو لعل المغول الأشداء كانوا قد منعوهم بدورهم من الحصول على أى كسب من المكاسب .

وهذان برودة جو السهوب الثلجي من حاس شيباني للحرب فعاد إلى سمرقند . وسار المغول في أثر عدوهم حتى أراطيته . ورغم استرداد الأوزبك لهذا المكان وعقدهم الصلح مع خانيكه في الربيع التالي فإن السلام لم يدم بينهما طويلا . ذلك أن شيباني لم يكد يدخل أراضي خسرو شاه حتى بدأه المغول بالعدوان ، فسقطوا هذه المرة على تنبل سلطان نائبه في خوقند بدلا من مهاجمة حدود بلاده نفسها .

كانت ثورة تنبل على بابر من قبل ، من أسباب اندحار هذا الأمير التيمورى وانتصار الأوزبك في سر بالتالي . وكان صنيع تنبل هذا من الأسباب التي جعلت شيباني يسط له حياته . وفيما عدا ذلك فلم يكن هناك من الأسباب ما يدعو هذا الأمير الأوزبكي المغامر لأن يعدل عن المضى في فتوحاته ويستدير بقواته كلها فيتجه إلى حرب أعدائه داخل توران . ولم يكن خانيكه في طموحه وشجاعته دون شيباني نفسه .

(١) هما خالانابر ، السلطان احمد خان والسلطان محمود خان ولدا

يونس خان

(الترجيم)

وكان جل اعتماده على المغول والقلموق النازلين بين سيحون وصحراء جوبى . ولم يكن الأمر يستدعى أكثر من قيسام التفاهم بين هؤلاء التيموريين في خراسان فيتسنى لهم بذلك القضاء بضربة واحدة على كل خطط الأوزبك المستقبلية قضاء ناما .

ولم يكن هذا الأمر ليغيب على فطنة شيبانى ، فزحف عام ٩١١ (١٥٠٥) بجيشه كله الى شاهرخيه فحضر الحصار عليها ثم استأنف سيره مصعدا في سيحون حتى بلغ أخشى ، وكان الجيش المغولى يقف على أهبة القتال على مسيرة خسة أميال منها .

ويرسم لنا صاحب « شيبانى نامه » صورة طريفة فريدة في بابها لما كان عليه الجيشان من اعداد وتكوين . ولا يقل عن ذلك في الأهسية وصفه لتلك المعركة التى كانت من أعظم المعارك التى وقعت بين الترك والمغول ، وقد استمرت يومين كاملين وانتهت في صالح الأوزبك . وفيها وقع كذلك خانيكه وأخوه في الأسر . وحين أتوا بهما الى شيبانى أيقنا أنه سوف يسوقها الى حنفها . على أن هذا الغازى فاجأها بغير ما كان يتوقعان عنده ، فقد اصطنع غاية النهماء وأخذ يخفف ، بتلطفه ، من وقع هذه المحنة عليها ، وأقسم لهما بأغلظ الأيمان أنه لن يتعرض أحد حتى لشعر رأسيهما بالسوء (١) ، ولم يظلب اليهما الا أن سلسا اليه حصن شاهرخيه وكان في يدى أم الأميرين المغوليين .

وتأثرت هذه الأميرة الأم بما كان من كرم شيبانى خان مع ولديها فرضيت بمطالبه وعقدت الصلح معه ، ليصبح شيبانى من بعد ذلك ولا

(١) فعل شيبانى ذلك اذ كان لهما اناذ سابقه عليه في تموية سلطانه. أما السلطان أحمد خان فقد وافاه أجله وهو في طريقه الى بلاده ، وكان يعتقد في مرضه أن شيبانى قد احتال على دس السم له في طعامه ، أما السلطان محمود خان فقد بقى خمس سنوات في مغلستان حتى زين له بعض رجاله الزحف الى فرغانه ، وحين بلغ تسبباني ذلك سير اليه جنده فقتلوه وخمسة من اولاده تاريخ رشيدى ص ١١٦ - ١٢٠ ، ١٦٠ - ١٦٧ .

(المترجم)

شيء يعوقه عن الاتجاه بقواته الى عدوه عند الضفة اليسرى لجيخون ،
بعد أن أمنت مؤخرته .

وكانت الأحوال في تلك الأصقاع قد طرأ عليها بدورها تغير ملحوظ . فقد دب النزاع بين خسرو شاه ، صاحب حصار وقندز وختلان وبدخشان ، والأمراء الآخرين من أتباع السلطان حسين بيقر ، وكان هؤلاء بدورهم يتوقون الى الاستقلال بما بأيديهم من أرضين . على أن هؤلاء جميعا حين تبدى لهم ما يتهدهم من خطر مشترك سارعوا الى الائتلاف جميعا بازاء شيباني ، واستعدوا بسا في وسعهم للوقوف في وجهه ، وان لم يفهم ذلك كله شيئا .

ذلك أن الأمير الأوزبكي كان قد شرع ، بعد ما نال من الفتوح ، يعد العدة لحرب خسرو شاه . وترامت اليه الأخبار بعصيان تنبل ، وهو الذي كان قد خاض بسببه غمار حرب ضروس ، فاضطر الى أن يخوض معه معركة جديدة عند حدود دولته الشمالية الشرقية ، دفع فيها تنبل واخوته السبعة حياتهم ثمنا لتكرهم لولى نعمتهم .

وارتد شيباني من بعد ذلك عجلا عبر جيخون فأدى مجرد ظهوره هناك الى انقراط عقد جيوش أعدائه الحلفاء عند ختلان ، وفي هذه الواقعة كان بابر أكثر الجميع تشبثا بمراكزه .

في ذلك الوقت إسوئى السلطان محمود أخو سباني على فندز ، وفيها نزل به الداء ووافته منيته .

وبدأت من بعد ذلك حرب الأوزبك مع چين صوفى أمير خوارزم ، وكان من أعظم حلفاء السلطان حسين ميرزا . وفيها فاد شيباني مقدمة جيشه بنفسه ، وسار في أثره الأمير عبيد الله ولما يبض أسبوعان على مرانه وترك زوجته الشابة من ورائه ملبيا نداء الحرب . وبدأ الزحف كالعاده والثناء والجليل على أشده ، فتيسر بذلك للجند عبور جيخون عند النقطة التي تناسبهم . وكان على الأوزبك عندئذ أن يواجهوا التركمان ، غالبية جند چين صوفى ، وكان هؤلاء لهم خير أنداد ، حتى امتنع على العدو حصن خوارزم أكبر الحصون ، وكانت تقع فيما بين خبوه الحالية وهزاراسب . وظل حصارها على عبر المعاد . هنالك بدا

للأوزبك أنه لا مناص من القضاء التام على خسرو شاه حتى يقضى بذلك على كل أمل ليجن صوفي في تلقى العون من هذه الناحية . وما غدا قواد شيباني أن أطبقوا من كل جانب على خسرو شاه ، وهو صاحب النفوذ المطلق في حوض جيحون الأعلى ، حتى سقط في أسرهم وهو يرتد ، فسيق الى القتل وسبعمائة (١) من أخلص أتباعه ، وقطع رأسه وبعث بها الى جيحون صوفي . وخربت من بعد ذلك حصون أمير خوارزم ونزلت المجاعة يجنده ، ولكن ذلك كله لم يززع من ثباته في شيء ، فطفق ، شجاعا ، يقاوم هجمات الأوزبك طوال شهور ستة ، ازدادوا من بعد ذلك ثلاثة ، استولى من بعدها العدو على قلعة الحصن عنوة ، وقد لقي هذا الأمير الموت فوق خرائب حصونه بسهام رجاله أنفسهم . هكذا لم تمض أعوام خمسة على سقوط سمرقند حتى وجد شيباني نفسه ، نتيجة تفوزه الأخير هذا ، وقد بات يسلك كل توران واندجان في الشرق ، ثم شأخيه وشنقند في الشمال ، ومنطقة حصار الجبلية وبلخ وبدخشان في الجنوب ، وها هي ذي خوارزم في الغرب قد وقعت أخيرا بيده ، وخضعت هذه البلاد كلها لسيفه المظفر ، وبهذا وجد الأوزبك أنفسهم تغرقها كنوز بلاد ما وراء النهر ومباهجها ، وهم الذين كانوا قد قدموا في جلود الماشية للاستيلاء على سمرقند . وطبقت شهرة حفيد أبي الخير بدوره الخافقين .

بهذا كله غدا شيباني يرى نفسه ، لأول مرة ، كفوا لنزال السلطان الشيخ حسين ميرزا ، وأن الأوان قد آن لخوض غمار حرب تحسم ما بين بيت تيمور والأوزبك . ولا حاجة بنا الى القول بأن كلا الفريقين أقل على المعركة وهو في أتم عدة واستعداد .

وكان ذبوع أخبار انتصارات شيباني قد جذب اليه كل محاربي أقاليم جيحون وسيحون فانضموا الى صفوفه ، وسائده كذلك أصحاب

(١) يروي مير خوند أن خسرو وقع حيا بأيدي تسيباني ، فامر به بربطه أولا الى ذيل اتان انطلق به في طرف قندز ، ثم قتل من بعد ذلك . ويقول ميرخوند عن خسرو شاه أنه كان حازما عادلا كحاكم ، تقيا كمسلم ، ناسيا ناكرا للجميل كإنسان .

التفوذ هناك من رجال الدين وشهدوا من أزره . وكان الأهلون من الايرانيين في تلك البلاد قد كفوا أيديهم منذ زمن طويل عن التدخل في شئون أقاليم جيحون . أما مختلف القبائل التركية النازلة هناك فقد ظهرت في حماس بالغ تيمور الجديد هذا الذي سوف يقودهم الى النهب والى أسلاب جديدة يستحذون عليها ، فأقبلوا لذلك ينضوون تحت لوائه أفواجا . وأدرك السلطان حسين ميرزا مدى هذا الخطر الداهم الذي يتهده ، فدعا أبناءه وأقرباءه الآخرين ليساندوه بقواتهم ويسيروا معه لدفع جيش الأوزبك الغزاة ، وجلب كذلك امدادات كبيرة من بلاد الأفغان وسيستان وخراسان وفارس وجرجان ، وتجمعت هذه كما شاء الله هراة . على أن هذا الجند على كثرته كان ينقصه أهم باعث على النصر وهو قيام التآلف بين مختلف وحداته .

وفيما كان التيموريون في شغل بما بينهم من خلافات لا طائل من ورائها ، كان شيباني يتقدم بجنده حتى عبر جيحون عند كركى عام ٩١١ (١٥٠٥) ومن ثم أنزل بمقدمة جيش عدوه هزيمة حاسمة قرب ميمنة . وكان من حسن حظ السلطان حسين ميرزا نفسه أن مات وهو في طريقه الى الهرب . وكان فراره من الميدان ايذانا بالقضاء على أسرته . وكان موته بمثابة ضربة لأبنائه الستة أو السبعة ، اذ فقدوا بسوته آخر أمير تيسورى صاحب حزم ونفوذ ، وضاع معه تبعاً لذلك آخر أمل لهم في الخلاص . وعقد خلفه بديع الزمان ميرزا مجلس الأسرة على اثر ذلك ، وشارك في هذا المجلس باير ميرزا أمير كابل اذ ذاك ومعه وزيره جهانكبر . على أن هذه الوحدة المصطنعة النى تشلت في مجلس الأسرة لم يكن من ورائها جدوى أو تقع .

ذلك أن شيباني كان قد تقدم حتى بلغ النساطى الأيمن لنهر مرغاب ، وأدت به ثقته التامة في انتصاره الكامل الى أن بادر بارسال رسول الى هراة يدعو بديع الزمان الى الاستسلام مذكرا اياه في الوقت نفسه بما كان يظهره السلطان الشيخ حسين ميرزا على الدوام من توقيف لجده أبى الخير .

ورد التيمورى المتكبر الرسول ردا غير كريم ، ليتقدم عند ذلك الجيش الأوزبكي من مرو ويلتحم بالجيش التيمورى فى سهل مرو چاق (١) . وقام التنافس بين الأوزبك على أشده للالتحاق بصفوف المقدمة وكان من بين صفوف المبارزين هؤلاء أسماء لامعة مثل تيمور سلطان وعبد الله خاق ومحمود سلطان وغيرهم من أقرباء شيبانى ، فى حين لم يكن هناك من جند النيسوريين من ظهر شجاعته فى هذه الحرب الا القائد الشيخ ذو النون الذى أقدم على مهاجمة العدو وان غلب على أمره من فوره وقتل . وكان فى هذا الحادث وحده الكفاية لاشاعة الذعر بين صفوف النيسوريين ، فانقلت عبد الله ميرزا هاربا ونزل عند فبن فى مشهد ، فى حين فر عبد الباقي والأمير برندق الى سبزاور ، وذهب بديع الزمان نفسه الى هراة مع مظفر حسين كركان ، ولكنهما لم يسكنا هناك الا لساعات معدودة اذ سار الأوزبك فى أثرهما ، حتى اضطر خلفه السلطان القوى حسين ميرزا هذا الى أن ينرك أسرته ومتاعه من ورائه وبضرب فى الأرض على غير هدى (٢) .

وفتحت هراة أبوابها للعدو فدخلها شيبانى فى الحادى عشر من المحرم عام ٩١٣ (٢٤ مايو ١٥٠٧) . ورافق الأمير الأوزبكي بالمدينة أكثر مما رفق بها كل من سبقه من غزاتها ، فاكتفى بأن فرض عليها مائة ألف تنغه (٣) ، وحفظ قصبة العلم والفن المشهورة هذه من أن تتعرض

١١. يعرف هذا الموضع اليوم باسم مرجاه . ومع على المجرى الأدنى لمغرب ، وهو اليوم منازل قبائل ساريك وسالور التركمان . وكان هذا الموضع وبوجه بتبعان هراة قبل ذلك بسنوات قليلة . وكان سكنهما بدو حمسيدي . وقد روى لى هؤلاء ابا ان اقامتى بينهم قصصا عجيبة عن حرائب كثيرة لا يزال تفوم هناك .

(٢) بذكر مالكولم فى كتابه عن تاريخ فارس ص ٤٩٠ أن بديع الزمان لحا الى الشاه اسماعيل الصفوى فولاه نبريز ، حتى وقعت هذه المدينة فى يد السلطان سليم العثمانى فسر أميرها التيمورى الى الاسانة .

(المترجم)

(٣) لا يزال هذه العملة ستخدم حتى الآن بلاد الأفغان ، والسعة تساوى ثلاثة فروسى مصرية نقرىبا .

(المترجم)

لنهب الأوزبك . ونزل شيباني بظاهر المدينة فأتوا اليه بأسرة خصمه الشريد . وبرغم تقدم هذا الأمير الأوزبكي في السن ، اذ كان اذ ذلك يبلغ الثامنة والخمسين من عمره ، فقد هام بحب عروس مظفر حسين ميرزا فصمم على زواجه منها ، ولم يلق بالا الا ما أكدوه له من بناء الأمير التيسورى بها وأنها صارت زوجته الشرعية بالفعل .

كذلك جلبوا اليه كل متاع تلك الأسرة وفيه مقادير طائلة من سبائك الذهب والفضة واليواقيت والحجارة الكريمة واللآلئ والماس . وأحيطت أسرة بديع الزمان بكل ضروب التوقير والاحترام . ولم يلبث الأهليون الذين كانوا قد لجأوا الى الاختفاء فى شعاب تلال بادغيس الصخرية خوف الأوزبك (١) أن أخذوا يعودون الى المدينة بالتدريج وبسارسون حياتهم العادية بها .

لقد اسنولى شيباني على عرش سرقند فى وقعة سريول من قبل ، وها هى ذى خراسان كلها قد دخلت فى حوزته باتتصاره فى معركة مرو جاق . وقد عمد الأمراء التيموريون القلائل الذين كتبت لهم النجاة من المذبحة العظوى الى لم شغل قواتهم فى محاولة يائسة أخيرة ، لكن جهودهم باءت بالفشل .

ذلك أن الأوزبك اكتسحوا خراسان الغربية كلها فى سرعة خاطفة ، على ما كان يفعل المغول القدماء ، وأخذت حصونها تتهاوى بأيديهم الواحد بعد الآخر . وحين سمع الأمير أبو المحسن مبرزاً بكارثة مرو جاق جميع قوافل كبيرة من جند العراق عند مشهد ، لكن الأوزبك ، وعلى رأسهم محمد تيسور سلطان ، وعبيد الله خان (والأول من أبناء شيباني والنانى من أبناء أخيه) ما لبثوا أن اتفصوا على الجيش التيسورى عند

(١) طهر الأوزبك بظاهر مدينة هراة ، كما يروى مؤرخو الفرس ، فسلكوا سلوك بنى جلدتهم من المغول الى حد ما ، فساموا الأهلىن العزل المساكين صنوف العذاب ، حتى يحملوهم بذلك على أن يخرجوا اليهم ما عساهم بكونوا قد خباؤه من المتاع ، وسروا فى ركابهم من الأسرى منهم على قدر طاقتهم .

موضع جام ، وقادته لا يزالون يغطون في نومهم بعد أن قضوا ليلتهم في لهو وعبث . وفي هذه الواقعة قتل عبد المصن ميرزا وأتباعه المقربون في حين لاذ جيشه كله بالفرار في هرج ومرج . ولم يكن ما أصابه الأوزبك من التوفيق في سبازور عند حدود خراسان الغربية بأقل مما ظفروا به من قبل . وكان الأمير ابن حسين ميرزا قائد موقع قابن السابق قد ارتد الى هذا الموضع مع بقايا الجيش التيمورى .

واستطاع هذا الأمير أن ينجو بنفسه بعد سقوط هذه البلدة ، في حين سقط في القتال الأميران الآخران عبد الباقي وبروندق . وهكذا سقط اثنا عشر أميراً من بيت تيمور بسيف شيباني ولما يقنع بعد وأسرع شيباني بعد استيلائه على هراة فعبر جيحون تاركا أبناءه في خراسان، فاستقبلته بخارى بحفاوة بالغة ، فلم يطل مكثه بها حتى واصل من بعد ذلك سيره الى مناطق سيحون الشمالية ليؤدب المغولى محمد خان بن يونس خان اذ كان قد خرج عليه فى غيابه (١) .

وما ان أقر الأمور هناك حتى عاد الى خراسان ليستكمل فتوحاته هناك . ولم تلبث امارة جرجان أن سقطت بدورها كذلك في يده عام ٩١٤ (١٥٠٨) . وبهذا يكون قد ضم تحت تاجه كل الاراضى التى كانت في حوزة خليفة تيمور على وجه التقريب . وقد عهد بها الى أبرز قواده مكافأة لهم على ما بذلوه من جهود ، فكانت حكومة هراة من نصيب جان وفا بك ، ومرو من نصيب قبوز نايمان ، وبلخ من نصيب خوارزم سلطان شاه ، وحصار وما حولها من نصيب مهدي سلطان وحمزه سلطان ، وقندز من نصيب أحمد سلطان ، وطشقند من نصيب سيونجى

(١) محمود خان هو ابن يونس بك نفسه الذى كان قد بار في وجه التيموريين بلاد ما وراء النهر أمام السلطان احمد . وقد انهز فرصة عياب شيباني فتقدم وأولاده الخمسة الى اندجان من ناحيه والى سمرقند من ناحيه أخرى وهدفه من ذلك الاستيلاء على حكومة بلاد ما وراء النهر كلها . وكان ينزل في قوة كبيرة عند خجند على ذلك الجانب من سبجون حين التقى به شيباني ، ووقعت بينهما حرب ضروس هناك هلك أنشاءها أبناء محمود خان الخمسة وأكثر جنده غرقاً في النهر ، وكان ذلك عام ٩١٤ (١٥٠٨) (تاريخ سبدر راقم ص ١١٨) .

خواجه خان ، وأخشي من نصيب جاني بك ، وأندجان من نصيب محمود شاه ، وخوارزم من نصيب قوشجي كيك ، وتركستان من نصيب كچكونجي خان . وكان من قبل قد نصب أخاه السلطان محمود نائباً له على بخارى وقراقول . وحين توفي هذا الأمير عهد شيباني بها مع صمرقند ، ذرة الدولة ، وكش ومنطقة ميرجانكل الى ابنه الأكبر ووريثه محمد تيمور سلطان .

احتفظ حفيد أبي الخير لنفسه بمنصب قائد الجيش الأعلى مقلداً في ذلك جنكيز وتيمور . ولقد تمكن بقوة السلاح من أن يرفع نفسه من مجرد جواب في الصحراء الى حاكم تخضع له أقاليم عديدة . وبقوة السلاح أيضاً أمل أن يمضي في طريق الفتح قدماً . ومن يدري فلعله كان يتاح له أن يعيد سيرة تيمور من جديد لو لم يظهر له منافس آخر لم يكن دونه طموحاً أو شجاعة ومضاء عزم ، وقد عقد النية على أن يمد حدود دولته صوب المشرق كما مدها ناحية المغرب .

كان هذا هو الشاه اسماعيل من بيت الشيخ صفى (١) بأردبيل . وقد عاش هذا الشيخ عيشة صلاح وزهد حتى عده الترك في ايران من بين أوليائهم . ولا يزال ضريحه يعد من بين مزارات الفرس حتى يومنا هذا . ونم يكن اسماعيل يعدو الرابعة عشرة من عمره حين سار على رأس أتباعه فأوقع الهزيمة بأعدائه . وقد استطاع بحميته الدينية أن يحيل بساط الدرويش الذي كانت تملكه أسرته الى عرش ايران كلها المتخمس . واسماعيل هذا في أصله تركي (ولم يكن هؤلاء الذين يتسبون صفى الى الامام السابع بقصد اضعاف القداسة عليه الا مجرد مداهنين) وكانت قبائل الأتراك السبع التي تعيش الى الغرب من بحر قزوين

(١) يخطيء مالكولم حين يعتبر لفظ صفى مرادفاً للفظ صفوى . والطريقة التي كان يرأسها الشيخ صفى كانت تختلف في مذاهبها واهدافها تمام الاختلاف عن الصوفية وأسسها . هذا والعثمانيون وحدهم الذين يتطفون الصاد في هذه الكلمة بالفتح « صفوى » في حين ينطقونها بالفرس باللامالة نحو الكسرة على الدوام .

تشفاني في محبته والولاء له (١) . وقد انتهت به حروبه المظفرة الى أن استحوذ على أغلب إيران والعراق . وكان من بين أعظم مفاخره ما أبداه من تعصب لمذهب الشيعة الذي كان عليه فومه وما قام به من تعصيد لفرفة رابع الخلفاء الراشدين ، على وأولاده ، وذلك بوصفهم أصحاب الرأي الغالب في بلاده ، وهم الذين ظلوا ينعرضون للاضطهاد عدة قرون . والتشيع قديم قدم الاسلام نفسه ، وفد كان له من الأتباع بإيران على الدوام أكثر مما له بالبلاد الاسلامية الأخرى .

ويختلط ما يعتدل في نفوس أصحاب هذا المذهب من مرارة وسخط متأصل فيها بحق القومية الايرانية على الفاتح العربي المسند وهي التي تعرضت على يديه للمهانة والذرية . ولئن كنا نجد هنا وهناك فئة قليلة من الشيعة فيما وراء الفرات وعبر جيحون . ترى متالها عد بابننر ميرزا أو في ثورة شريك بن الشيخ المهدي ابان الحكم العربي في بخارى — فان فارس الأصلية كانت هي على الدوام المكان الذي ينعرض لاضطهاد المسلمين ، أى أهل السلف ، واتهاماتهم ، وذلك بسبب نسبها بهذا المذهب واصرارها عليه .

وكان أعداء هذا المذهب يقنعون بحاربته بأسلحة الجدل والتخثير ما بقى أصحابه على استخفاء ، حتى اذا ما أشهر الصفويون مبادئهم على بنودهم وتحذوا بها علنا الأمراء السنيين وتهددوهم ، برز لهم عندئذ هؤلاء ، ليتخذ عند ذلك كل فريق منهم من هذه الخلافات المذهبية ذريعة قوية لتحقيق أهدافه السياسية .

ففى غرب آسيا أذكى التعصب للشيعة من نيران الحمى والبغضاء فى الحرب التي قامت بين أوزون حسن وفاتح القسطنطينية ، وكانت صيحة ترك إيران أثناء القتال هي « يا على » .

(١) هذه الفضائل التركية ، أو بعبارته ادى التي نكلم التركية ، والتي نقطن فيما وراء القوقاز عند الساطىء الجنوبى لبحر الخرم والى الغرب من خراسان ، والى لا ترال ساهد فى أجزاء منها الى اليوم ، كاب قد هاجرت من اواسط آسبا أول أمرها مع السلاجقة . وهذه القبائل هي : أوستاجلو ، ساملو ، نكالوا ، بهارلو ، ذو القدر ، قاجار ، أفشار .

أما في الشرق فقد استطال اشتعال النار اللهم الا في المناطق التي راجت فيها الحياة العقلية والجدل . ونرى من صورها المعاصرة ما كان يجري ببلاد السلطان حين يبقرا اذذاك حيث كان الكتاب الفرس السنيون في هراة وبلاد ما وراء النهر يجهدون لاثبات أن الثقافة والعلم في إيران لم تكن كلها من آثار الشيعة ، حتى جاءت أيام أوزون حسن من بعد ذلك ، وكان على مودة مع التيموريين على ما هو معروف ، فأخذت هذه المسألة تشغل أذهان الرجال في آسيا الوسطى وفي بخارى على الخصوص وتقلق بالهم ، حتى يقال ان أبا سعيد انما مات شهيدا في سبيل نصره السنة .

وأدى تزايد أنصار الشيعة بإيران الى ازدياد كراهية أهل آسيا الوسطى لهم وحقدهم على هؤلاء الخارجين ، حتى رأينا فلاسفة هراة ومعهم علماء بخارى وسمرقند ، قبل وفاة السلطان حسين ميرزا ، يصنون النسيعة بخروجهم على أركان الاسلام ويبيحون بيعهم ببع الرقيق (١) ويعلنون أن الاصهار اليهم من المكروه (٢) .

كان هذا هو موقف كل فرقة من أختها حين ظهر شيباني محمد خان عند حدود إيران يريد أن يتابع فتوحه بعد ما أصاب من الانتصارات في خراسان ، وبأن له أن لا مناص من حرب الشاه اسماعيل . ويقول التترك في بعض أمثالهم « ان من يمسك بالسيف في يده لا حاجة له بأن ينتحل الأعذار لما يفعل » .

(١) وفق قاعدة « كل مسلم حر » لا يجوز شرعا ان يباع المسلم في أسواق الرقيق بأسبأ الوسطى الا ان يفتى التسيوخ بخروجه على الاسلام . وبعال ان أول من افتى بذلك في ذاك الوقت هو الملا سمس الدين الهراتي الفقيه المشهور ، وكان لنواه هذه خطورتها مستقبلا بالنسبة لإيران .

(٢) المكروه هو ما بين الحلال والحرام . والاسلام في حد ذاته لا يحرم الزواج بغير المسلمات حتى رأينا سلاطين تركيا بنون بأميرات من اليونان والصرب . على ان الأمر كان يختلف في بلاد العالم الاسلامي الشرقية ، اذ كان السيوخ أكثر برمتا من أقرانهم في بلاد العالم الاسلامي الغربية ، فكانوا يرون ذلك أمرا مكروها .

ولم يكن شيباني الا ليعمل بهذا المثل ، ولكنه أمل أن يشير أكبر قدر من حمية الناس فنادى فيهم بالجهاد . وعلى هذا فقد أقام من نفسه واعظا للبطل الصفوي فكتب اليه عام ٩١٤ (١٥٠٨) يقول :

« يا سلطان ايران ، علمت بتأييدك لمذهب الشيعة المقيت وانسياقك وراء عواطف هوجاء وآراء هي من رجس الشيطان ، فتبصر في عاقبة عملك وتبرأ من هذه الفئة الباغية وارجع الى اجماع أهل السنة ، والا فكن على يقين بأن نار الفتنة التي أوقدتها لا بد وأن تكتوى بها . واني لأبصرك مرة أخرى بأنك تسير في طريق الضلال ، فارجع عن ذلك الى طريق الايمان القويم ، والا سقطت الى الأبد في أيدي الشيطان . فان أبيت أن تستمع الى قولي فاعلم أني فادم الى ايران بجند لا حصر له فاستولى على قلعة أصفهان ، مهما كلفني ذلك في القنال ، وأهدمها كلها عن آخرها . أجل ان عقابي هو العقاب الأليم ، وسوف لا ينسى أهل ابران هوله الى يوم الدين » (١) .

ويبدو أن الشاه اسماعيل قد أهمل الرد عليه فرأى شيباني في ذلك دليلا على ضعف صاحب فارس فاشتد اصراره وعزمه على توسيع حدود دولته ، وكانت اذ ذلك قد ترامت أطرافها .

وحدث أن توغلت جموع من الأوزبك عند الجنوب من خراسان حتى تجاوزت قندهار فأعملت فيها السلب والنهب ، كما سارت جموع أخرى منهم كذلك الى كرمان ، لينفذ عند ذلك رسول من قبل الشاه اسماعيل ويحذر الفاتح الأوزبكي من مغبة استمرار جنده في بغيهم هذا . هنالك جدد شيباني تهديده وبعث الى الصفوي بكشكول ، وهو جفندي الشحاذ (٢) وعكاز السائل ، ومعها رسالة فحواها الآتي :

(١) تاريخ سبد راقم ص ١١٠ .

(٢) الكشكول هو نصف محارة تمره جوز الهند، وفيها يجمع الشحاذ الصدقات . أما العكاز فيتوكأ عليه في سيره ، وهذه جميعا هي عنده الدرويش .

« خذ هذه الهدية فهي تذكرك بما كانت عليه أسرتك ، أما أنا فقد ورثت السيف والملك من جدى جنكيز ذائع الصيت ، فإن لم تقنع بعكاز الشحاذ فعليك اثم ما تفعل » (١) .

ويقول خواندمير ان الشاه اسماعيل رد عليه فقال :

« نعم أنا لا أنكر أنى درويش وسأحج الى مقام الامام الرضا بمشهد ، وليكن لقاءنا على هذا هناك » .

وكان اسماعيل على استعداد لخوض غمار الحرب على كل حال .

أما شيبانى فقد عوقه عن الزحف جنوبا ما كان من ثورة سكان فيروزكوه (٢) عليه ، وكانت منازلهم تقع منيعة بأعلى الجبال الصخرية فذهبت جهود شيبانى في اخضاعهم أدراج الرياح . وجاءت ثورتهم هذه في الوقت الذى بلغ فيه الأمير الأوزبكى تقدم الشاه اسماعيل بالفعل الى مشهد في جيش عظيم . وزاد من هلع شيبانى وقلقه ورود الأنباء من بلاد ما وراء النهر في الوقت نفسه ببغاغة بيونسز حسن لابنه محمد تيمور عند سيحون ، وهو في طريقه لتأديب القرغيز وهزيمته له هزيمة منكرة .

هكذا صارت الحاجة ماسة الى ذراع شيبانى القوية وعينه الفاحصة في جهات ثلاث ، فضلا عن أن قواته نفسها كان قد حل بها النصب وأوهنها السير الطويل . وفيما كان هذا الأمير الأوزبكى يقلب الأمور

(١) كان شيبانى قد حمل رسل اسماعيل رسالة رسالة الى اميرهم به فيها بأنه لم يرث الملك عن أبيه . ورد عليه الشاه الصفوى قائلا « اذا كان الملك لا ينتقل الا بالوراثة فكيف صار اذن من البيشداديين الى الكيانيين ، وكيف صار كذلك الى جنكيز ، بل وكيف صار اليك أنت » (تاريخ فرشته لمحمد قاسم هندوشاه لکنو ص ٢٠٠ أول (المترجم)

(٢) هذه القبيلة الايرانية في فيروزكوه قد ورد ذكرها في كتابى Sketches of Central Asia P 327 وهم يحتفظون في اصرار بعاداتهم القديمة كقطاع للطريق .

في مرو على مختلف وجوهها ، أبادر بعبور جيحون ثم ينتظر العدو عند حدود الصحراء ، اذا بعدوه يطرد حاميات الأوزبك من دامغان وسبزاور ونيسابور ويبلغ « مشهد » في زحفه القوي ثم يتجاوزها في طريقه اليه وجيشه يتهدده .

ولم يكن شيباني يستطيع في ظروفه هذه أن يحصل على امدادات ، فاستقر رأيه لذلك على أن يمتنع وراء الأسوار في مرو ما استطاع الى ذلك سبيلا على أمل أن ترد اليه بعض النجدات . على أن الشاه اسماعيل لم ير الى التريث سبيلا ، اذ كان يرى أنه حين يتسهل طلبا للزيد من الجند بدوره انما يسكن المحصورين بذلك من كسب الوق . ففسد من فوره الى الحيلة ، فبعث الى شيباني برسالة قال له فيها :

« لقد وعدتني ، من قبل ، أن تزورني في آذربيجان فلم تحافظ على وعدك أبدا ، وهأنذا قد جئت أزورك في خراسان ، فاذا بك لا تتلطف باسقبالي وتفقل أبوابك في وجه ضيفك . ولما كنت على ما يظهر تؤثر أن تبقي في الخفاء ، وقد جد من الحوادث ما بسندعي عودتي بدوري الى اراكان وآذربيجان ، لذلك فقد عزمت على أن أرفع مضاربي وأغادر المكان ناركا أمر لفائنا رهنا بالظروف » .

ولم يلبث أن صدر الأمر بالرجل وشرع القوم فيه . ولم يكن جيش الفرس الأقوياء يسير في طريقه حتى برزت فرق الأوزبك الضئيلة مهوكة القوى ، يقودها شيباني فانقضت على مؤخرة العدو وأخذت نظارده عبر مرعاب ، لتدرك آخر الأمر . بعد فوات الأوان ، أنها قد وفعت في السرك ، وذلك حين رأوا الجسر بنهار في اثرهم بعد عبورهم له ، وقد أحاط بهم في الوقت نفسه سبعة عشر ألفا من جند الفرس من كل جانب على مقربة من محمود آباد . هنالك وقع مذبحة بسعة دافع فيها الأوزبك عن أنفسهم بشجاعة منقطعة النظير شهد لهم بها أعداؤهم . واستطاع شيباني ، بعد أن سقط أكثر من نصف رجاله ، أن يفضحهم حشود الفرس في قليل من أتباعه فلاذ بزرعه مهجورة ، وقد أمل أن يستمر في ادارة دفة المقاومة وهو في مأمن من وراء الأسوار . على أنه

سرعات ما أحيط به وقتل هو وجميع رجاله . وقد اكتشف جثمانه فيما بعد ، بين أكداس الجثث التي كانت قد دفنت تحت الأنقاض ، وكان مشحنا بالجراح .

كان شيباني في الحادية والستين من عمره حين مات مبة الأبطال هذه (١) ، وقد أمر الشاه اسماعيل فركبت جمجمة عدوه على الذهب ليتخذ منها كأسا يتعاطى الشراب فيه . وفي رواية أخرى أنه بعث بها الى السلطان بايزيد في القسطنطينية ، وكان على صلات سياسية يحاكم بلاد ماوراء النهر (٢) . كما قطعت يده اليسرى وبعث بها الى آقا قاسم أمير مازندران ، وكان من أشد أنصار الأوزبك ، ومعها رسالة ساخرة فحواها كالاتي :

« لقد طالما أعلنت عن تعلقك بشيباني ، واذا كان لم يتح له أن يأتي البك فلتلقى به في حياته ، فان الشاه اسماعيل يبعث اليك بيد ظهيرك حتى تحقق أمنيك بالتشبث به » .

وقد حكى هذه القصة مؤرخو الفرس . وعلى الرواية السائدة في آسيا الوسطى . فان بقايا شيباني قد دفنت في نفس السنة التي مات فيها ، أي عام ٩١٩ (١٥١٠) ، بالمدرسة الفخمة التي كان قد أقامها بسمرقند ، ولا يزال قبره يعظمه الجميع حتى اليوم كشهيد .

(١) وفق تاريخ منظوم ورد في تاريخ سيد راقم يكون قد مات شهيدا يوم جمعة ، ولكن لبس بين أيدينا ما يحدد تاريخ اليوم أو الشهر الذي مات فيه .

(٢) يقول هامر في الجزء الثاني والثلاثين من كتابه عن تاريخ الدولة العثمانية ، أن العلاقات الدبلوماسية كانت قد قامت أول الامر بين الباب العالي وبلاد ما وراء النهر أواخر حكم السلطان سليمان القانوني . وهذا خطأ واضح ، ذلك انه لو لم يكن شيباني خان على صلات بايزيد سلطان القسطنطينية لما بعث الشاه اسماعيل بجمجمة خصمه اليه ، وكان هدف صاحب فارس من ذلك ان يثير الأسى في نفس زعيم السنين بآسيا العربية . ويذكر كل من هامر ، في مقاله المشار اليه ، وسنكوفسكي في كتابه Senkowsky . Table généalogique . تواريخ خاطئة ومضطربة ، وقد لا نعجب من ذلك حين ندخل في حسابنا أن ما وصلت اليه أيديهم لم يكن الا مجرد مصادر تاريخية ناقصة مغلوطة .

ولا مراء في أن شياني خان يعد من بين عظماء الرجال . وحياته العجيبة جديرة كل الجدارة بالدراسة الدقيقة ، اذ كانت بمثابة نقطة التحول التي انتهت عندها دولة بلاد ما وراء النهر ، التي اشتهرت في التاريخ ، الى خانية بخارى التي لم يكن لها من الأهمية السياسية قدر المذكور .

وعلى هدى الحوادث التي أثبتناها لتونا نستخلص منها ثلاثة أمور لها اعتبارها . ففي المكان الأول نجد أن شياني كان آخر فاتحي الدنيا الذين خرجوا ، ومعهم قوات من سكان السهوب البرابرة بآسيا الوسطى ، فأقاموا دولة امتدت الى ما وراء جيحون بسافات بعيدة ، فلم يصادف أى محارب أتى من بعده ما صادفه هو من التوفيق بالغ ما بلغ هذا المحارب من الكفاية والطموح ، فضلا عن أن استقرار الأمور بإيران من بعد ذلك كان بمثابة سد منيع وقف في وجه بخارى وسمرقند أن تمت نفوذها نحو الغرب .

والأمر الثاني أن أدوار السلالات البشرية وهجراتها في آسيا الوسطى قد ختت به ، اذ كان الأوزبك هم آخر قبيلة انحدرت من مرتفعات توران الوعرة صوب الجنوب الغربي .

والثالث أن سقوط التيسوريين وانهيار دولتهم التام قد فضى فضاء تاما على آخر رابطة كانت ، على وهنها ، تربط المسلمين فيما وراء جيحون وسيحون باخوانهم في غرب آسيا .

وكان مما ساعد على قيام هذه الثغرة وعجل بها شدة تعصب الصفويين لمذهبهم بطبيعة الحال ، فكان صنيعهم هذا بمثابة اسفين أقيم في قلب الاسلام .

وختم هذا الدور من أدوار الزعامة الديية والاجتماعية في هذه البلاد حين نزل شياني مع بدوه من السهوب الشالية الى الوديان الزراعية . وما غدت بلاد النهر من بعد ذلك أن كمل عزلها عزلا تاما . وعاد نهر جيحون بالتدريج مرة أخرى هو الحد الفاصل بين البيئه الايرانية والبيئه التورانية كما كان في القديم .

ولم يكن شيباني بشخصه على وجه اليقين ، هو ذلك البربري الجلف كما يصفه أعداؤه من الإيرانيين ، فقد كان يكن من الاحترام البالغ لثيوخ عصره ما هو أشبه بخضوع الطفل لمؤدبه . وكان بدوره يقرض الشعر ، كما كان يصطحب معه في كل حروبه دواما مكتبة صغيرة . وعلى نهج ما كان يفعله تيمور حين كان يعقد ندوات فقهية للدرس تضم فلاسفه دمشق وحلب ، فكذلك كان الفاتح الأوزبكي يقوم بتدريس تفسير القرآن مع القاضي اختيار ومحمد يوسف أكبر المفسرين في هراة . ويسخر بابر من شيباني فيقول انه كان يقرض شعرا سقيما تافها ويقروء على الناس .

ومهما يكن فان في فعلته هذه ما يدل على أن رجل السيف هذا كان ينابع أعوان الثقافة في عصره حتى اشتغل بالكتابة وبر في ذلك أغلب أئداده وبرغم سخرية عدوه اللادعة منه ، فان نظمه يدل على فريضة شعرية ملحوظة (١) ، وعلى الملم واسع بالتركية والفارسية والعربية كذلك . ولقد ضم الى بلاطه كثيرين من العلماء الذين نزلت بهم الفاقة والعوز بعد موت السلطان حسين ميرزا وأجرى عليهم رزقا حسنا ، كما أقام المساجد والمدارس ببخارى وسمرقند وطشقند .

وكان يصحب معه على الدوام ، حتى في حروبه ، مختلف العلماء . وكان هم عليه أبلغ نفوذ (٢) . وبرغم أن الأوزبك كان اسمهم منذ أول ظهورهم على مسرح التاريخ مرادفا للبربرية والوحشية ، ولا يزال حتى اليوم عند الإيرانيين كذلك ، الا أن هذا التعريف لا ينطبق على شيباني ينحصر بحال ما ، اذ كان على ثقافة عالية ومدنية لا تقل عما كان عليه أكثر أمراء ييب تيسور .

(١) يعرض علينا مؤلف شيباني نامة بعضا من اشعار شيباني تعد من ناحية لغتها وفكرتها من بين أحسن انتاج الادب التركي الشرقي .
(٢) حين تقدم مولانا بنائي ، شاعر شيباني الخاص ، الى فلاسفة هراة يدعوهم لتسليم مدينتهم ، تقدم هؤلاء الى مضارب الأوزبك ليتفاوضوا في الصلح ، وكان لمكانتهم وحدها الفضل في اقتناع ذلك الفاتح بالاكتفاء بعرص المال عليهم ، وقد اتفق معهم على مقداره .

الفصل الرابع عشر الشيابيون

٩١٦ (١٥١٠) - ١٠٠٦ (١٥٩٧)

حين بلغت أنباء كارثة مرو بلاد ما وراء النهر لم يكن أمام أمراء بيت شياباني الا أن يبادروا بأسرع ما يمكن الى عقد الصلح مع الشاه اسماعيل ، وكانت عساكره المظفرة تزحف الى جيحون ، اذ كانوا يوفون باستحالة الاضطلاع بتدبير الدفاع لوقفه من جهة ، ويعرفون مدى ما يهددهم على أيدي النيسوريين الذين كانوا قد سلبوهم أملاكهم من جهة أخرى . وفي هذا الصلح كان على الأوزبك أن يتنازلوا عن الضمه اليسرى من النهر ، وفيه تم الاتفاق كذلك على أن يصبح جيحون من حديد . فاصلا بين ايران وتوران ، كما كان عليه الحال في الزمن الغابر . ومع ذلك فان هذا الصلح لم يدم الا لأجل قصير جدا . ذلك أن بابر مرزا برغم وجود منطقة كابل اللطيفة في حوزته ، كان ما يزال ، بوازع من شعوره الوطني القياض ، بحن الى وطنه القديم على ضفاف جيحون وسيحون . فلم يكف يعرف بنهاية خصه السابق حتى سارع بالائتلاف مع الشاه اسماعيل ، ليتلقى منه عند ذلك امدادات استعان بها في محاوله تحقيق أمله باسترداد عرش أجداده .

وعبر بابر جيحون عام ٩١٧ (١٥١١) في جيش مكون من الفرس واللاجئين من أواسط آسيا ومن البدخانيين والأفغان ، فاسنولى بعد مقاومة شديدة على سرقند (١) . ولم يكن ما أصابه من نجاح ، غير - - - (١) مما يؤسف له ان تفصيل محاولة بابر استرداد سمرقند هو من بين ما ضاع من سيرته . هذا ويومياته في سيرته نجري وفق السنين . وما بين أيدينا ينقص الفترة ما بين عام ٩١٤ (١٥٠٨) حتى عام ٩٢٥ (١٥١٩) ، فلم يكن أمامنا بذلك الا أن نطلب هذا التفصيل في مصادر أخرى دونها .

متوقع ، ليرجع في الغالب الى جراته وبسالته بقدر ما يرجع الى ما كان من وقوع الشقاق بين أفراد بيت شيباني أنفسهم . فقد بادر فريق من الأوزبك عند وفاة شيباني بمبايعة محمد تيمور سلطان ابن ذلك الفاتح ، في حين ذهب فريق آخر ، يمثل الغالبية ، فنادى بتنصيب كچكونجى (١) سلطان بن أبى الخير وذلك على مقتضى الرسم القديم الذى ينص على اختيار أكبر الأمراء سناً . ولم يرق محمد تيمور عرش أبيه على كل حال الا لأيام قليلة (٢) ، اذ فاجأه موت مدبر فى الغالب . فالتف القادة عند ذلك حول الشيخ الأشيب كچكونجى عند حوض سيحون الأدنى لينظروا فيما عليهم أن يتخذوه من خطوات من بعد ذلك .

ولئن كان هذا الأمير قد انتخب بالفعل خليفة لشيباني باجماع الآراء ، الا أن تقدم سنه منعه من المشاركة الفعلية فى الحروب ، فندب لذلك أميراً آخر من أسرته نائباً له فى قيادة الجيش ، كان دون مؤسس هذه الأسرة فى الكفاية الحربية والطموح والشجاعة جسيماً . هذا الأمير هو تعبيد الله خان ، ابن محمود سلطان (٣) ، فاتح خراسان الغربية ، وكان قد تميز بالقتال من قبله حين شارك عمه حروبه ، فضلاً عن أنه كان أقدر أمراء الأوزبك اذ ذاك بلا شبهة . وكان على هذا الأمير أن يواصل الاضطلاع بسا كان يضطلع به شيباني من مهام مع ما صار اليه حال الأوزبك ، اذ كان التآلف والاتحاد بينهم قد انقضت عراه .

وخرج هذا الأمير فى خمسة آلاف من الفرسان ، مشيعاً بدعوان الرجل الصالح الشيخ أحمد ، فعبر بهم سيحون وسلك الطريق انصحراوى الذى يقع على الضفة اليسرى للنهر فغزا القسم الشمالى من خانية بخارى ، وبابر اذ ذاك فى غفلة تامة لا يدري عن تحركات عدوه شيئاً . وأقام الأوزبك عند ذلك مضاربهم على شواطئ بحيرة ملىك (١) هذا اللفظ البدوى او الجوال ، ويشق منه فى الغالب كلمة كجوم .

(٢) كان لشيباني ابنان آخران هما خرم سلطان وسيونج محمد سلطان ، ولا نعرف سبباً لاهمال شأنهما فى وراثة العرش .
(٣) محمود سلطان هو أصغر اخوة شيباني ، وقد مات عقب سقوط قندز على ما ذكرنا من قبل .

بمنطقة خير آباد (١) فى حين بلغت مراكزهم الأمامية الى ما وراء بخارى . ويقال ان عبيد الله لم يلبث أن سحب جند المقدمة هذا حتى يركز قواته فى مكان واحد ، وذلك حين سمع بزحف بابر اليه فى جيش قوامه سبعون ألف جندي . وحمل البخاريون صنيع عبيد الله هذا على انه يرتد فانطلقوا يزفون الخبر الى بابر الذى بادر بالزحف عند ذلك بدوره الى عدوه طلبا لقتاله على ضفاف البحيرة .

هنالك استجاب له عبيد الله ، فبرز من بين قواته الأمير سراج الدين وأوروس ميرزا وبصحبة كل واحد منهما ألف من الجند فهاجما قلب جيش بابر . وما لبث أن سار قى أثرهم بقية جند الأوزبك ، وهم الذين عرفوا بضراوتهم وجسارتهم فى القتال . وكادت المقدمة القليلة هذه أن يحاط بها لولا أن شاع الاضطراب والفوضى فجاء فى جيش بابر وعمه الفرع ، حتى انتهى الحال بالجند الى أن انطلقوا يلتمسون طريق الفرار جملة . ويقال ان بابر نفسه قد استمات فى القتال معرضا نفسه لأشد الأخطار ، فلم يعمد الى التراجع الا حين أخذت بنود عبيد الله تطلله بالفعل (٢) .

ويبدو أن بابر قد أدرك حينذاك أنه قد أطلق آخر سهم فى جعبته للدفاع عن عرش أبيه . ذلك أنه حين آب من حومة الوغى الى سمرقند لم يمكث بها الا ريثما تم له اعداد متاعه وجمع شتات أسرته وأتباعه ، فسار بهم جميعا الى حصن حصار .

وقد دام حكمه بسمرقند ستة أشهر لم يتح له من بعدها أبدا مشاهدة موطن أجداده المحبوب .

(١) تقع خير آباد على مسافة قصيرة عند الشمال من بخارى . ولم أشاهد بحيرة ملك بنفسى قى أسفارى ببخارى ولكنى عبرت جزءا من صحراء ملك (انظر كتاب رحلتى ص ١٩٨) .

(٢) استقيت كل ما ذكرته هنا من سيد راقم ، ويبدو أن هذه الأعداد مبالغ فيها على كل حال بالقياس الى صغر قوة الأوزبك التى خاطر بها عبيد الله لمهاجمة هذا الجيش .

ودخل عبيد الله المدينة دون مقاومة عام ٩١٨ (١٥١٢) فأجلس عه
كجكونجى على عرشها ، واحتفظ لنفسه بحكومة بخارى ليستكمل
استعداداته الحربية بها . ذلك أن هزيمته لبابر لم تكن تعنى بعد توطيد
مركز الأوزبك ، فقد كان أقوى أعدائهم ما يزال يقف على قدم
الاستعداد ، على الساطىء الآخر لجيحوون ، يراقب بعين الحذر كل حركة
و سكة يأتى بها خلفاء شيبانى .

ولم يكد الشاه اسماعيل يبلغه خبر هزيمة بابر حتى أخذ يعد العدة
لحماية خراسان من أن تتعرض من جديد لغزو الأوزبك ، فبعث من فوره
الى نجم تانى (١) حاكم تلك الولاية يطلب اليه أن يبادر بانجاء بابر بكل
ما فى طاقته ، وأن يسير الى بلاد ما وراء النهر بلا تأخير . هنالك لحق
هذا الجيش الفارسى بابر عند برمد وانضم اليه . فهاجبت هذه الجيوش
المتحدة قارشى واستولت عليها .

وآدى بجم تانى نعصبه الشديد لمذهب النسخه الى أن فشل كل
حامية المكان وسكانه وفيهم الشاعر المشهور ملا بنائى . وأثار هذا
التصرف نائرة بابر (٢) الشهم السمع حتى آثر أن يصحى بفكره اسرداد
بلاد ما وراء النهر ، ففطع علاقته بفارس و ترك القائد الفارسى المشهور
يتخذ طريقه الى بخارى منفردا ، لبلاقى عند ذلك جزاء ما اقترعت بداه
عن كتب (٣) . فقد نركة الأوزبك ينوعل حتى قلب هذه البلاد دون
مقاومة ، فظفقت يستولى على الحصون الواحد بعد الآخر ، حتى اذا ما بلغ

(١) اسمه الأصلى ميرنار محمد .

(٢) برغم أن قائد فارسى كان من أبناء عمومته عبيد الله إلا أن ذلك لم
منع بابر ، وهو السمع ، من أن بثور لمشهد المسوة التى عامل بها الفرس
برسب أعدائه .

(٣) مع تمجيد المؤرخين الفرس الشاه اسماعيل الصفوى فانهم
بأخذون عليه ما سلكه من العنيت لحمل الناس فسرا على السمع (تاريخ
عمومى ايران لعباس اقبال ، طهران ص ٢٥٨) ، هذا ويدكر صاحب مآثر
الأمراء أن بعض قواد الفرس أنفسهم كانوا يحفدور على نجم تانى فكان
ذلك من أسباب هزيمته .

(المترجم)

غجديوان كان جنوده قد بلغ بهم التعب والمسغبة درجة أمكن معها لحفنة من فرسان العدو أن تنزل هزيمة قاصمة بوزير سلطان فارس المتكبر هذا في معركة سقط فيها هو نفسه مع أكبر قواده .

ويصف المؤرخ الفارسي ما كان عليه هذا الرجل من الشراء والبذخ حتى كان ينحر في مطبخه كل يوم مائة رأس من الغنم ومعها عدد لا يحصى من الدجاج والبط والأوز ، فضلا عن أربعين رطلا من القرفة والزعفران وصنوف التوابل الأخرى . كما كانت صحافه كلها من الذهب أو من الخزف الصيني النادر .

هكذا انتصر الأوزبك على الفرس انتصارا مبينا ، وجاءت هذه المعركة التي كان يرمى الشاه اسماعيل بها الى حياية خراسان بعكس ما كان يرجوه منها . فقد عبر عبيد الله من بعد ذلك جيحون عند جهارجوى مع عمه العظيم جاني بك ، أحد أبناء خواجه سلطان (١) عام ٩١٩ (١٥١٣) وانضم اليه عند مرغاب تيمور سلطان ، قادمًا من سمرقند بطريق كركى . فنقدموا جميعا لمهاجبة مشهد ، كما انطلقت في الوقت نفسه كتائب من الأوزبك عبر ترمذ فتوغلوا في البلاد حتى بلغ ، وهم ينشرون الخراب والدمار حيث ساروا ، فلم يبق الا أشهر قلائل على نصر غجديوان الذي قادهم فيه عبيد الله حتى كان الأوزبك قد استحوذوا ثانية على كل الأقاليم التي كان شيباني قد كسبها لهم أصلا بسيفه .

كان على الشاه اسماعيل ، بعد أن رأى كل انتصاراته السابقة قد بددت فجأة كهشيم ندرود الرياح ، أن يتجه بجيوشه الى خراسان ، رغم خوفه من أن يغير السلطان سليم عليه ، وكأنت همة اسماعيل متجهة الى الاهتمام بأراضيه الغربية التي كان يقلقه أمرها . ولم يعمد الأوزبك الى الارتداد عبر جيحون حين علموا بتقديم الشاه اليهم بطبيعة الحال ،

(١) كان لخواجه سلطان ، ناسى أبناء أبى الخير ، ولدان هما جاني بك وبوبالى سلطان ، ولم يرق العرش أحد من أبناء بوبالى ، وإنما كان أحتر حكام النسيبانيين ببلاد ما وراء النهر من أصلاب جاني بك .

غير أن المتناوشات الخفيفة التي وقعت في الصحراء بين الفريقين والتي كانت في الغالب على هيئة غارات ، أكثر منها معارك مرسومة منظمة ، كانت تقترب باطراد من حدود إيران ، هذه كانت في حد ذاتها نازلة طاحنة جرت البؤس الكثير على مناطق إيران المنكودة في ناحية الشمال الشرقي . وبرغم قلة ما بين أيدينا مما يصح أن نستند إليه في مبدأ قيام العلاقات بين الأوزبك والعثمانيين إذ ذاك فالثابت المعروف أن التفاهم ازداد بينهما فعلا في تلك الآونة بلا مرأ ، إذ نرىحكام القسطنطينية يسارعون عند ذاك بنشر بنودهم في وجه قوة الصفويين الصاعدة . فلم يكدهؤلاء يسحبون قواتهم التي كانوا قد أعدوها لحماية مشارف إيران الشمالية الشرقية حتى اندفع الأوزبك فعبروا مياه جيحون الصفراء ودخلوا خراسان ، التي لحقت بهم فيها الكارثة من قبل ، لنجد عبيد الله عند ذلك يغزو إيران بمفرده ست مرات لم ينج عنها الا اشاعة الدمار والخراب في أرض جارتها المنكودة .

وتاريخ هذه الغزوات محزن يبعث على الملل ، ومع هذا فلا حيلة لنا الا أن نستعنه . أما أول هذه الغزوات فقد حدثت لمرتين كما ذكرنا سلفا ، وأما ثانيتهما فقد وقعت في فرصة أكثر مواتاة للأوزبك ، إذ كان الشاه اسماعيل قد هزم وأصابه الضعف والخللان في معركة چالدران .

ويصف المؤرخون الفرس هذه الغزوة الثانية بأنها كانت على نطاق واسع . فقد أذن لعبيد الله عمه بأن يعبر جيحون في ثلاثين ألفا من الأوزبك ، ومع هذا فلم يحرز من النجاح ما يتلاءم مع عظم استعداده هذا ، إذ اضطر الى الارتداد بعد أن ضرب الحصار حول هراة لعشره أيام دون نتيجة . ذلك أن ضراوة الأوزبك لم تجدهم فيلا تلقاء همه سام ميرزا ودرمش ميرزا ، قائدَي خراسان ، وقوة عزيتيهما ، فقتلوا بصب جام غضبهم على المحاصيل الزراعية فدمروها عن آخرها .

ووقعت ثالث غزوة بعد موت الشاه اسماعيل وذلك عام ٩٣١ (١٥٢٤) . فقد نفذ المحارب الشيباني الجسور من جهارجوى وانقض على مرو ، في حين زحف أبو سعيد بن كجكونجى بطريق كركى وظهر

عد هراة . ولم يصب هذا الأمير الا فدرا قليلا من النجاح ، في حين لم يكتب عبيد الله بالاستيلاء على مرو ومشهد فحسب ، بل امتدت غاراته الى استراباد فاستولى عليها وعهد بحكومتها الى ابنه عبد العزيز .

على أن هذا الأمير لم يستطع أن يرسخ أقدامه هناك على أية حال ، فلم يكده عبيد الله يصل الى دامغان حتى كان الشاه طهماسب ، ابن اسماعيل وخليفته ، قد قدم لانتقاذ تلك الولاية المهددة وطرد الأوزبك عنها الى بلادهم . فقد أخطأ سكان بلاد ما وراء النهر في حسابهم حين ظنوا أن موت الشاه اسماعيل وما تبع ذلك من شيوع الاضطرابات الداخلية بايران انما يتيح لهم الفرصة لتحقيق أهدافهم .

ولئن كان طهماسب قد اعتلى العرش وهو بعد يافع ، الا أنه ما لبث أن عقد النية على وضع حد لغزوات الأوزبك . وحين عرف عبيد الله بذلك انطلق يحذر قومه ويبالغ في وصف عظم القوات التي عزم سلطان فارس الشاب على أن يعبر بها جيحون .

ولئن لم يقم الدليل على اتجاه طهماسب هذه الوجهة ، الا أن ذلك لم يمنع كجكونجي من أن يستبد به القلق حتى استعد للقاء غدوه . وعلى هذا قام عبيد الله بغزو خراسان للمرة الرابعة عام ٩٣٥ هـ (١٥٢٨) في حشد جعسه من بين مخلف القبائل والبطون التي كانت تسكن مرتفعات توران ، كما انضم اليه كل أمراء الأوزبك الكبار ، ومن بينهم براق سلطان ، قادماً من طشقند ، وكجكونجي وابنه أبو سعيد من سمرقند وحمزه سلطان من حصار وكستن قره سلطان من بلخ .

ويقول المؤرخون الفرس ، وهم الذين جبلوا على المبالغة ، انه لم سبق لمثل هذا الحشد الهائل من التتار (١) أن عبر جيحون دفعة واحدة كما فعل هؤلاء . ولكنهم يغفلون فلا يضيفون الى ذلك أن قصف المدافع

(١) يقدروهم روضة الصفا ، وهو مرجع فارسي ، بمائتي ألف ، ولا يترك بلداً معروفاً أو شعباً الا ويقول بمشاركة رجاله في هذه الحملة .

وصوت طلقات الأسلحة النارية لم يسبق له أن سمع بهذه المناطق كذلك أبدا .

وجلب طهاسب معه ستة آلاف بندقية ، فكان على رماة السهام المشهورين القادمين من توران أن يواجهوا لأول مرة اختراع الغرب العلى الذى كانت تنهار أمامه مجرد القوة الجسدية الخالصة (١) . ولا جدال فى أن هذين الجيشين كانا ندين عظيمين لبعضهما حين التقيا . وزاد من حدة القتال فى هذه الواقعة أن بدأ الالتحام الفعلى فيما بينهما حام وزور آباد (٢) ، فى التاسع من المحرم ، ليلة ذكرى مأساة مقتل الحسين عند كربلاء وهى التى يحتفل بها الشيعة كل عام فى حزن بالغ (٣) . وأخذت أسراب السهام تتلأأ فى ضوء أشعة الشمس الأولى ، أول تسارها ، والرماة يطلقونها . وهى صورة تعيد الى الخيال منظر الصراع فى القديم بين أفراسياب ورسم . وكاد الأوزبك وسط سحب الغبار الكيف أن يحيطوا بطهاسب أول الأمر حتى بدأ أمله فى النصر يضاء ، بعد الجيش الفارسى عند ذاك . على نهج خطط العثمانيين ، الى الاحتساء وراء العجلات الحربية ، وقد جعل رماة من حمله السادة فى الجبهة .

(١) لم يستخدم الفرس الأسلحة الحديثه من بندق ومداوع الا بعد أن عرفوا قيمتها وتأثيرها البالغ فى حروبهم مع العثمانيين . وعن طريق الفرس عرفت جيوش بلاد ما وراء النهر وما وراءها استخدام هذه الأسلحة .
(المترجم)

(٢) وهو اليوم السهل الكبير الذى يكون الحد الفاصل بين أفغانستان وإيران ، وبين هراة وحراسار بها لذلك . وحام هو أول موضع فارسى يلفه المسافر حين يقدم من هراة ، وهو اليوم قرية حفيرة تعيش سكانها فى رعب قاتل خوف التركمان . وعلى ما رواه بابر فى سيرته بالهند فإن هذه الواقعة لم تكن بين حام وزور آباد وإنما كانت بين جام وخرکرد . ويعد بابر جيش الأوزبك بتلاثمائة ألف ، فى حين يقدر جيش الفرس بأربعين أو خمسين ألفا ، وكان من التركمان على حد قوله .

(٣) بعد هذه الليلة عند السبعة أقدس لى السنة كلها ، وهم يصومون يومها ويبالفون فى تعذيب أنفسهم فيها ليهيئوا بذلك أذهانهم للتأمل فى يوم الحزن الأكبر التالى . وهو يوم عاشوراء .

و برغم ذلك فان الأوزبك كروا من جديد على جاحى عدوهم حتى
أفلحوا فى اختراق خطوطه ، ولكن قوة الفرس الرئيسية سكنت آخر
الأمر من أن تصدهم ونسقط من بعد ذلك على مؤخرتهم وتشت شلهم
وفى هذه الواقعة سقط خمسون ألفا من الأوزبك وعشرون ألفا من
الايرائين على ما يقال (١) ، ولما ينتقم القوم بعد لدم شيانى على ما كانوا
يقدررون .

وفىما كان طهاسب عام ٩٣٨ (١٥٣١) منهكا فى القتال مع السلطان
سليمان ناحيه الغرب ، أقدم عبيد الله على غزو ابران للمرة الخامسة فى
جيتس من جند مختلط . فسار بنفسه الى هراف ، فى حين زحف ابنه
عبد العزيز الى مشهد ، وتقدم الى استراباد قيش أوغلان الذى طارت
بذكر شجاعته الركبان ، وسار الى سبزاور خان كلدى باتر . وظل
حراسا وسيسانا وجزء من ايران مسرعا لبعثهم يعملون فيها جسا
السلب والنهب طوال عام ونصف العام . حتى اذا ما عقد الصلح بين
سلطان فارس والعثمانيين وانت بذلك طهاسب الفرصة ليلفت من جديد
الى افليم خراسان المغنصب . وهناك سارع الأوزبك ، كعادتهم ، بالجلء
عه محليين بالرفيق والأسلاب من كل نوع .

وارتقى عبيد الله عرش بلاد ما وراء النهر بعد ذلك عام ٩٤٠
(١٥٣٣) . ذلك أن النسيج المعبر كجكونجى كان قد وافته أجله عام ٩٣٧
(١٥٣٠) بعد حياة طويلة قضى أكثرها فى حلقات الزهاد والدرأوين .
وخلقه ابنه أبو سعيد خان من بعده فداهيه الموت بدوره بعد سنوات
لث فضاها على العرش . ونسك كبيرا فى أنه قتل سرا بتدبير من
عبيد الله .

(١) بروى نابى فى سيرته أنه قبل أن تسعة من سلاطين الأوزبك وميم
حكوبجى نفسه وابنه أبو سعيد وعبيد حار سقطوا بأيدي الفرس فلم
سقى منهم على قيد الحياة الا أبو سعيد . وهى رواية غير صحيحة ، ذلك
اننا سوف نرى خلال هذا الفصل أن هؤلاء الثلاثة قد ارتقوا جميعا عرس
بلاد ما وراء النهر لعدة سنوات على العقاب . وأن أكرهم وهى
حكوبجى لم يمض الا بعد مضى عامين على هذه الكارثة .

وما ان رقى عبيد الله هذا العرش حتى طلق يعاود تحرشه بجاره في هجمات متلاحقة على ما كان يفعل من قبل . فشرع عام ٩٤٢ هـ (١٩٣٥ م) عام ٩٤٦ (١٥٣٩) وهو في السادسة والخمسين من عمره في العام السادس في غزوته السابعة لخراسان ، وفيها تذكر المصادر الوطنية أنه قد تمكن على كل حال من انتزاع حصن هراة من سام ميرزا وان لم يستطع الاحتفاظ به أبدا (١) .

كانت هذه آخر غزواته لخراسان ، فقد خرج في محاولة فاشلة لاعادة خوارزم الى حظيرة بخارى من جديد ، ثم وافاه أجله من بعد ذلك من حكمه ، ودفن في ضريح بمدرسته التي أنشأها .

تقاسم بلاد ما وراء النهر من بعد ذلك أبناء كچكونجى وشياني ، وان انتهى الأمر بعد وفاة عبيد الله الى اشاعة الفوضى بين الأوزبك على كل حال ، فقد قام أشياع الأسرة السابقة باجلال عبد الله بن كچكونجى على العرش ، حتى اذا ما وافاه أجله بعد ذلك بشهور ستة اختاروا مكانه أخاه عبد اللطيف (٢) ، في حين ذهب الفريق الآخر ، وكان أمنع جانبا ، الى المناذاة بعبد العزيز بن عبد الله سلطانا عليهم وذلك عام ٩٤٨ (١٥٤١) ولا نعلم ان كان العداء قد نشب بين هذين الحاكمين أم أنهما اقتسما الحكومة فعلا فيما بينهما في سلام .

والحقيقة الوحيدة التي نستطيع أن نستخلصها من الأخبار الشحيحة المضطربة عن هذه الفترة هي أن عبد العزيز قد بقى على العرش حتى عام ٩٥٨ (١٥٥١) ، وانه استمر على علاقاته السلمية مع فارس ،

(١) يؤكد صاحب روضة الصفا عكس هذه الرواية فيقول ان الأوزبك تراجعوا بازاء المقاومة العنيفة التي أيدها سام ميرزا .

(٢) يخلط دوجوينى بين عبد الله هذا وعبد الله الأخير ، الأكبر ، وذلك في كتابه عن تاريخ الهياطلة والترك

1) Deguignes: History of the Huns and the Turks, vol 111 p. 472

كما يجعل عبد المنعم بلى العرش مباشرة ، عقب عبد الله الأول ، وبذلك يغفل نصف قرن بأكمله في تاريخ بخارى .

اللهم الا مرة واحدة غزا فيها بلخ ، فكان في ذلك على تمام النقيض من أبيه في خلاله .

كان عبد العزيز يظهر الشيوخ في دعوتهم الى احياء السنة ويهتم بذلك اهتماما كبيرا حتى أقق أموالا كثيرة في تعمير المساجد والخوانق وغيرها من دور العبادة أكثر مما أنفق في تعمير المنشآت الأخرى .

ولئن كانت البلاد قد أفادت من صنيعة هذا أعظم فائدة ، وهي التي أنهكتها الحروب المتصلة من قبل ، الا أن اهماله لشئون الدفاع عن الدولة قد أدى الى ازدياد تعرض المناطق الشمالية من بلاده لغارات البدو الرحل أكثر من ذي قبل . وعلى أنر موته ندب محمد يار سلطان (١) ابن محمد سيونج خان خلفا له ، وكان يقيم اذ ذاك بطشقند ، ولكن الموت داهمه بدوره وهو في طريقه الى بخارى ، وقيل انه قتل بسرقة عام ٩٦١ (١٥٥٣) في رواية أخرى . ورقى العرش من بعده برهان خان ، أحد أحفاد عبيد الله ، برغم معارضة الكثيرين في ذلك ، وكان حليفا ماجنا حتى كان يغلب عليه الخمار أياما بأكملها ، وسرعان ما نجح عن ذلك أن عم السخط عليه والكراهية له .

وفي وسط هذه الفوضى التي سادت نتيجة اسهوار هذا الأمير ، برز فجأة من سهوب وسط آسيا الشمالية الشرقية براق خان (٢) ، أحد أبناء محمود خان الذي دحره شيباني من قبل ، فاجتاح ، بجنوده الغلاظ من المرتزقة ، أعظم مناطق بلاد ما وراء النهر عمرانا حتى عم الخراب الشامل كل المنطقة الواقعة بين أترار وبخارى واتتهبت بأكملها . وكان ما حل بالأهلين من ضروب اليأس والشقاء تبعا لذلك مما يجلب عن الوصف لما كان عليه هذا الطاغية من قسوة وضراوة .

(١) تذكره رواية أخرى باسم محمد رحيم ، وهو قول غير صحيح ، ذلك أن محمد رحيم ، وهو ابن عبد الله خان ووالد برهان خان كان قد مات قبل ذلك .

(٢) اسمه الأصلي نوروز أحمد .

وفي هذا الوقت الذي ساد فيه الرعب والفرع البلاد ظهر على مسرح الحوادث لأول مرة عبد الله خان ، ابن اسكندر خان (١) وحفيد أبي الخير ، وهو من سوف نراه يستحق بجدارة أن يوصف بأنه أعظم الشيبانيين . وقد ولد هذا الأمير عام ٩٤٠ (١٥٣٣) . ولم يشتهر أحد من أجداده لأبيه بالذكاء ، وكان جده الأعلى يعرف باسم تينت (الأوزة) أما جده المباشر جاني بك (٢) فكان أبله ، ولم يكن عند أبيه بدوره شيء من بوارق الذكاء ، فكل ما نعرفه عنه انه كان يواظب على أداء الصلوات الخمس في مواعيدها (٣) وانه كان يجيد الصيد بالبراة .

ومع ما كان عليه آباؤه هؤلاء . يقال ان الشيخ الوقور خواجه كاشاني كان قد تنبأ له وهو بعد طفل بمستقبل عظيم ، وذلك حين قدمه اليه أبوه اسكندر خان ليباركه . وأعلن في سرور أن هذا الطفل قد ولد في برج السعد وأنه سيكون يوما ما عاهلا عظيما ، وأردف هذا الشيخ الورع قوله بأن خلع منطقته . وكانت من صوف الجبل ، فلها حول الطفل زيادة في تحصينه بالبركات . وزاد الشيخ على ذلك بأن تنبأ له بحوادث بعينها سوف تصادفه في حياته المستقبلية . وعلى هذا فقد عهد بتأديته الى خير المربين في وقته ، وكانوا كثيرين في عهد عبيد الله كما ينوه بذلك المؤرخ سيد راقم .

(١) كان لأبيه جاني بك اثنا عشر ولدا هم دوست محمد سلطان وكشتن قرا سلطان ، الذي حكم طويلا ببلخ ، ثم باينده محمد سلطان سلطان واسكندر خان واسفنديار سلطان وسليمان سلطان وپير محمد سلطان وشاه محمد سلطان ويار محمد سلطان وجان محمد سلطان ونور محمد سلطان .

(٢) يحكى أبو الفارزى ان هذا الأمير كان يسمح لزوجاته : قبل ان يضعن حملهن ، بصب الدهن (لعله حجر الشب) على النار فيعرفن توا من خلال اللهب نوع المولود . وهذه الخرافة لا تزال تروج حتى اليوم بأسيا الوسطى ، ونظير ذلك ما يمارسه الفتيات الأوريات اذ يصبن الشمع أو الرصاص المذاب ليلة العام الجديد ليرين في صورته التي يصير عليها ان كن سيتزوجن في العام التالي أو لا .

(٣) كان كذلك يصلى النوافل بانتظام .

انبرى عبد الله وهو فى الثانية والعشرين من عمره بدافع عن جنيف...
أسرته فى عزم أكيد ، فتقدم مع حفنة من رجاله ليقتل فى واحة برافى خان
وما كان يرنكبه من فطائع ، وكان هذا قد استولى على بخارى لتوه .
واضطر عبد الله أول الأمر الى الارتداد الى حصن تاراب الصغير . قرب
بخارى ، وهو موضع صانع العرابل الذى ادعى النبوة بأسماء الجغتانيين .
ولمفاه الأهلون أول الأمر بقتور ، حتى اذا ما عنفهم على بقاعهم ووعدهم
سريدا من الاميازات حين يكتب له التوفيق ، انضم الى صفوفه منهم
ثلاثمائة محارب . وبما كان يعد العدة للحرب وانه الأخبار بوفاه
برافى وذلك عام ٩٦٣ (١٥٥٥) هنالك أسرع الى بخارى من فوره
فاستولى عليها وعلى ما يحاورها من أرضين ، فاذا هو من بعد ذلك يرى
نفسه وقد أصبح فجأة فى حال يسبح له بهاجسه برهان خان ، وقد
هزمه بالفعل ثم قتله (١) . واذا به له بذلك طرد الغزاه من بلاده استطاع
أن يقيم من جديد سلطان التتويانيين تابا قويا ببلاد ما وراء النهر .

وعلى بهج شيبانى وعبيد الله من قبل حين كانا يعهدان ساعد الحكم
الى من كانوا يندبونهم من الأمراء برغم أنها كانا أصحاب السلطة
السريعية . وذلك لسبب سمرقند الى حروبها ، فقد أجلس عبد الله بدوره
أباه اسكندر على عرش سمرقند وأقام نفسه على رأس الجنس الذى
انتمى به عبيد به دولة شيبانى الى ما كانت عليه رفعتها فى السابق .
امتضى عبد الله أغلب حياته فى سبيل تحقيق هذا الأمر فصادفه فى فوحيه
من التوفيق أكثر مما صادف كل من سبقه ، كما حيد بدوره كذلك فى
العاش ببلاد سيحون من جديد والنهوض بها . حتى استحق بجداره ، كما
سوف نرى . أن المشب بلتب « ولى النعم » .

وامتدت حدود خانية بخارى فى عهد عبد الله هذا حتى تجاوزت
الماضى المسكونة فى تركستان شمالا . ولم نعرض السلام للخطر بهذه
النواحي . بعد وفاه برافى خان ، فى الغالب الا حين قدم بابر خاق ،

(١) قتله عملة من يدعى مرركى فوسحى .

ابن براق سالف الذكر ، عام ٩٧٥ (١٥٦٧) يغزو بلاد ما وراء النهر من جديد . وبلغ هذا الأمير سمرقند فقبض على خسرو سلطان أميرها وسار به مع جمع من أعيان المدينة واستولى على متاعهم كله . واذ كان عبد الله ذياك الوقت مع جيشه في خراسان فلم يكن أمامه بذلك الا أن يتميز غيظا ويتحمل هذا العمل في صمت بعض الوقت ، ليتسكن من بعد ذلك بيضع سنين من أن يطرد بابر خان هذا من بلاده عام ٩٨٣ (١٥٧٧) ويرغمه على الارتداد عبرسيحون وقد شاعت الفوضى في جيشه . وتهادن الطرفان ولكن الهدنة لم تطل بينهما ، اذ قدم بابر بعد ذلك بسنوات يعزو البلاد من جديد ، واضطر عبد الله الى أن يشتبك معه في الحرب نبعاً لذلك . ووقعت المعركة الحاسمة بين الطرفين عند آق قوتل (التل الأبيض) ، وفيها هزم بابر خان هزيمة تامة وانطلق عبد الله في اثره يطارده في منطقة السهوب حتى ألغ طاغ (الجبل الكبير) ، فأقام عنده نقشا تذكاريا في مواجهة النقش الذي أقامه تيمور هناك من قبل تذكارا لانتصاره على تختمش . وعلى هذا النصب سجل عبد الله انتصاراته المختلفة على نهج ما كان يفعله الفاتح التتري الكبير .

وبهذا لم تخضع فرغانه كلها في الشرق للشيبانيين فحسب بل وخضعت لهم كذلك كاشغر وختن . أما الجنوب فقد تعرض لهجمات متوالية من أسرة بابر (١) ، من ناحية ، ومن الصفويين من ناحية أخرى ، وكان كل فريق يطمع في الاستيلاء على بلخ .

(١) كان بابر خان بن براق خان هو آخر أمير في أسرة مغولية مافتىء رؤسائها ابتداء من أيام فايدو ، أي منذ عام ٦٦٥ (١٢٦٦) حتى عام ٩٨٦ (١٥٧٨) ينتهزون كل فرصة سنج لهم ، حين يضطرب الأمور ببلاد ما وراء النهر ، فينعدون الى هناك بدعوى الدفاع عن حقوق فرع بعينه من أسرهم بخاصة ، بإزاء الحكام من بيت الجغتائيين ، وعن حقوق الجنكيزيين جميعا بعامة . وضعفت قوتهم وقتا ما بسبب حروب تيمور من الجته . على أن ساعدهم ما غدا أن اشتد من بعد ذلك أيام خلفائه وكسبوا الى صفهم في ذلك القلموف والفرغيز . وعظم شأنهم عند طسغند أيام أبى سعيد حتى تزوج ابنه عمر شيخ ميرزا من ابنة زعيمهم يونس بك فولدت له بابر الشهير (يقصد المؤلف ظهير الدين محمد بابر الذي أقام الدولة المغولية بالهند عام ٩٣٢ هـ ، وهو غير بابر خان بن بروق خان =

ومع هذا كله فقد بلغ الأوزبك من القوة اذذاك ما لم يبلغوه حتى في عهد الشيبانيين الأول ، وامتنعت حصون بلخ على أعدائهم ، كما استطاعوا أن يلحقوا كذلك طخارستان وبدخشان ببلاد ما وراء النهر ، معادت بذلك مياه مرغاب الخضراء المتلاثة حدودا لتوران من جديد . كذلك كتب لعبد الله النصر مرة أخرى في الغرب برغم تحالف الإيرانيين والخوارزميين عليه ، فسقط على استرباد واستولى عليها كما اضطّر أمير جيلان ، وكان حليفا لمراد الثالث ، أن يلجأ الى القسطنطينية . وبهذا بلغت حدود دولة الشيبانيين في هذا الاتجاه ما لم تبلغه من قبل . وكانت حروب عبد الله أول الأمر مجرد غارات ، أى « علمانات » كما يسميها التركمان ، ذلك أن طهماسب كان قد تعجل الصلح مع السلطان سليمان عام ٩٦٩ (١٥٦١) بسبب فرقه الشديد من الأوزبك ، حتى يفرغ بذلك الى حماية حدود ولاياته الشرقية منهم ، دون أن يذهب معهم الى أبعد من ذلك . وما غدت ايران بعامة وخراسان بخاصة أن سادتهما الفوضى بعد موت طهماسب الى أبعد حد وذلك بسبب سوء حكومة أبنائه ، فأخذ جند الأوزبك يتدفقون على المناطق الشمالية منها من جديد ، حتى لم يستطع محمد ميرزا نفسه (ابن طهماسب) عام ٩٧٤ (١٥٦٦) أن يفلت الا بمشقة من الوقوع بأيدي جموعهم التي كانت تعيش فى الأرض فسادا ، وكان هذا الأمير اذ ذاك فى طريقه الى هراة ومعه خمسة عشر ألفا من الجند ، فلاذ بهم بحصين تربت حيدرى بعد غناء شديد ، ولم ينج كذلك من الأسر هناك الا بعد صراع عنيف .

ونشبت الحروب العنيفة بايران بسبب تنافس الأمراء الإيرانيين على العرش فشهد قيامها الطريق لأطماع عبد الله ، وانتهاز الأوزبك فرصة استغلال الشاه عباس المعروف بالأكبر بصراعه مع غريمه خدا بنده ،

.....
 . المرحوم) . وحين اضطربت الأحوال في عهد الشيبانيين ، استولى هؤلاء على خوقند ، واضطر شيبانى على ما ذكرنا من قبل الى حرب محمود خان ابن يونس خان ، وبعد أن هزمه حاول ابنه براق ومن بعده حفيده بابر خان بن براق أن يسنعيدوا لأسرتهم عبنا مجدها الضائع .

فاستولوا على حصن هراة بعد أن ضربوا الحصار عليه شهورا تسعة ، وقتلوا في هذه الحرب على قلى خان شاملو نائب الشاه بخراسان وكثيرا من الأمراء الآخرين ، وسيق عدد من الأهلين أسارى الى بخارى ، كما تعرض القسم الشمالى الشرقى من ولاية خراسان الى أشد ضروب الدمار والخراب كذلك .

وفى هذه المناسبة نهض القائسون على ضريح الامام الرضا (١) ، — وكانوا يتولون فى الوقت نفسه ادارة جبوس كثيرة لهذا المقام العلوى من حقول وبساتين وكروم وغير ذلك — فكتبوا الى عبد الله يسألونه كيف تسمح له مشاعره الدينية أن يدمر مستلكات الامام فيقتضى بذلك على موارد يعيش من فيضها آلاف كثيرة من الحجاج الأتقياء وفيهم كثير من أهل السنة .

هنالك انبرى للرد عليهم من كان بعسكر عبد الله من شيوخ أهل السنة ، فحللوا بعامة على الشيعة حملة شعواء طويلة واحتجوا فى ذلك بأن أصحاب هذا المذهب هم على مقتضى أحكام السنة تشدد كفرا من المشركين الذين أمر الله بقتلهم والقضاء عليهم :

« فاذا كان فرضا على كل مسلم أن يقاتل المشركين ، فأولى به أن يحاسب الذين حادوا عن طريق الحق . وهم — أى الشيعة — برغم

(١) بعد مقام الامام الرضا اغنى المزارات جبوسا فى فارس . ولم تترك أوقافه تضم أسواقا بأكملها وشوارع فى مدينة مشهد النجارية المشهورة فحسب ، بل كان له كذلك بظاهر المدينة وبأجزاء أخرى من خراسان كثير من الحقول والبساتين ومنازل المسافرين . ومن دخلها كان تنفق على مطبخ « مولانا » بصيب كل قاصد اليه وجبات من الأرز واللحم والخبر أيا ما نلأه بالمجان . وأهل البلاد يذكرون الامام باسم « مولانا » وكأنه لا يزال على قيد الحياة ، ويتبع ضريحه كذلك حمام بالمجان ومصنع للصابون ومئات من المقاصير وغير ذلك مما يستفيع به الحجاج اليه والأترباء وحدهم أن يدفعوا ندورهم بضريحه مختسارين . والامام يقوم بضيافته الفقراء على نفقه لهذا يعرف باسم « سلطان الغرباء » .

صلتهم بذلك الولي الذي ترقد عظامه بين ظهرانيهم ، قد سقطوا في حمة الضلال المبين » .

أما بشأن ما وُجه الى الأوزبك من اللوم على تخريب حفول الامام الرضا وبساتينه ، فقد ردوا عليه بأنهم بعلوون حق العلم أن هذه الحبوس موقوفة على نواحي البر عند مقام الامام ، على أن أساس المسألة هو من يكون له حق الافادة من هذه الحبوس ، أولئك الذين يجاهدون في سبيل الله ونصرة الحق وفد نجردوا من حب الدنيا ، أم أولئك الذين آحرموا في حق الله وتناولوا السب واللعن أعظم حمة الدين (١) .

وكان شيوخ الشيعة بدورهم على استعداد للرد على هذا القول بضبيعة الحال فاقترحوا في لبافة عقد ندوة عامة نصفها من أولئك والنصف الآخر من هؤلاء ، لينظروا فيما اذا كان الشيعة يعدون حقاً من الخارجين على الدين لمجرد اعلانهم ان الحلفاء الراشدين الثلاثة الأول معتصبون ، ولأنهم يؤكدون حقوق على في الخلافة . وكان هؤلاء يحجبون كذلك بأنهم اذا كانوا يعدون بسذهبهم من الخارجين فكيف رضى الامام الرضا بالزول عندهم ولم يجه الى بلاد ما وراء النهر . الى عبر ذلك من الحجاج التي كانوا يقولون بها .

ولم ينته هذا الجدل الى نتيجة معينة على أية حال . ولم ينجح لهذه الندوة من شيوخ النبعة والسنة أن نجتمع الا بعد ذلك بسنة وخمسين عاماً حين عقدت بمدينة بغداد بأمر نادر شاه (٢) . وفيما كان هذان العربان يتساريان بالأفلام لحسم الخلاف في مسألة النبعة التي عجز

١١ سیر الى الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول . أبو بكر وعمر وعثمان ربه الدين بعدهم السبعة معنصين لحق على في الخلافة .

١٢ رى الفرس المحدثون ان نادر كان سنيا في قراره نفسه . وقد بلغ من بعد نظره ان أدرك مدى الخطر الذي يهدد الاسلام من هذا التسع وراد ان يضع حدا لهذه القضية ، فدعا الى انعقاد ندوة ببغداد ، وان له نية الحال الى سجنه . وذلك بسبب ما كان يکنه كل فريق للآخر من كراهته وعداءه سديس .

السيف لقرون طويلة في القضاء عليها ، زحف الشاه عباس الشاب بجيشه
من هروين في حين ارتد عبد الله الى بخارى بطريق مرو .

وقد قصد عباس بصنعه هذا ، كما يلاحظ ما الكولم بحق في كتابه
« تاريخ فارس » ، الى ندعهم نموده أملاً ، فلم تكن من أهدافه طرد
الأوزبك أو عزو بلادهم . ذلك أنه لم يأت من قبله إلا فتنة قصيرة
سرع من بعدها الى جنورجيا حيث كان العشاقون قد أخذوا يتهادون
بحدود حتى أنزلوا به الزحف بالفعل . وعلى ما كان يجري عليه الحال
في الألب فيما سبق . فان انتصار العشاقين في العرب سرعان ما تردد
مسار في الشرق ، فلم تكن عبد الله بلاء هذه الحروب حتى شرع في
محاولة ثانية لفتح مسير . وقد سار الى مغانة حيث ابنه عبد المنعم
كان نازح على ناهج

وكان عبد المنعم هذا محاربا عبقريا حاسدا شديدا الطموح ، وقد
سار الى زنده وبعده على يد محمد بن محمد ليرى انهم اليها مثل بابا
أولافاسي تابع عبد الله المأمون محالهم هراة . ووقع أول هجومهم على
نيسابور . وفيه سقط في الأسر نصر من الأوزبك كانوا قد خرجوا في مهمة
استطلاعية . وحين أطلق من أسرهم من بعد ذلك أو مسحوا إقائهم الشاب
أن نيسابور هي في الواقع جزء من جبهة مشهد وأن الإسلام هذه المدينة
يؤدي حتما الى سقوط المدن الأول .

هنالك انجبه عبد المنعم بكل همته الى مشهد فلم ييخل بأي جهد
أو تضحية في سبيل إخضاعها .

وبذل قائد حصص مشهد أمت جان أساجلو كل ما في وسعه ليصد
هجوم العدو عليه ، لولا ما كان من شيوخ الدعر في المدينة ، إذ كان قد
اجأ اليها كثيرون من سكان الرنف على همة ما كان بها من المؤن ، فجاءت
المجاعة بذلك في صالح الأوزبك ، واستسلمت مدينته الشبعة المقدسة هذه
لهم في أول هجوم وقع عليها وسقطت بأيديهم كل أموالها وآثارها
وأسواقها الغنية .

وحين دخل جند عبد المنعم المدينة وجدوا أهلها رجالا ونساء ومعهم العدد الكبير من الشيوخ والعلماء ، وقد تكدسوا جميعا فى الساحة الخارجية لمقام الامام الرضا ، وقد أملوا أن تعصمهم حرمة المكان من كل خطر فد يتعرضون له . لكن الأوزبك ما غدوا ، وهم فى نشوة النصر ، أن اندفعوا يعملون التدمير والتقتيل فى كل ما صادفهم فى طريقهم ، فلم يسج من سيوفهم حتى أحفاد الامام الرضا نفسه ، وكانوا قد لجأوا الى مسجد جدهم ، فقتلوههم دون أن تأخذهم بهم أدنى شفقة أو رحمة .

ويقال ان عبد المنعم نفسه كان بدار على سيرانواى يطل منها اد دالك على رجاله وهم يعملون سيوفهم فى الأطفال والشيوخ وعامة الناس والعلماء دون تمييز ، فلم يحرك من مشاعره صيحات ألوف الضحايا ولا منظرهم وهم يعانون سكرات الموت ، ولم تجر الدماء فى الطرق العامة بحسب ، بل تلتطخ بها كذلك أقدس مكان فى المسجد والضريح نفسه . وما نزل بسقام العلوى من الخراب حين استبيحت المدينة كلها كان أشد مما نزل بأغلب أحيائها الأخرى .

وسقط بأيدى الغزاة كل ما كان بهذا المقام من هدايا الحجاج الأنبياء التى ظلت تتكدس هناك مدى قرون ثلاثة . ومن بينها ثريات مسخنة من الذهب والفضة ومجموعات من الدروع والمعادن الثمينة رتبها الى درجة فائقة الأحجار الكريمة النادرة والأزرار والجمانات وغير ذلك من الجواهر . وآمن من هذا كله المكتبة الفخمة وما كانت تحويه من نسخ للقرآن الكريم متازرة وأمشاق الخطوط وهدايا السلاطين السابقين . وفد نزل الدمار بهذا كله ففضى عليه قضاء تاما . ولم ينج حتى الأموات من نقمة الغزاة السنين ، فنبش قبر طهماسب ، وكان مثواه

(١) على المارءى ان يرجع الى كتابى « رحلات ومغامرات فى فارس Wanderings and adventures in Persia, Pesth 1867 p. 142 »
والعلماء وصف قريب لما كان هناك من نفائس مجموعة . هذا وتعد مدينة قم دون مشهد بكثير فى أهميتها ، ويجب ألا ننسى أن « تيمور » كان قد عنى عناية كبيرة بتعمير مقام الامام الرضا وافاضة الأبهة والفخامة عليه .

الى جوار مقام الرضا ، وذر في الريح ما بقى من أشلائه مصحوبا
باللعنات .

وأراد عبد المنعم أن يكسب ود عدو سنى آخر من أعداء الصفويين
حين انتهى اليه بفعله هذه ، فبعث بحاجبه محمد قلى الى مراد الثالث
بالقسطنطينية يحمل اليه رسالة منه وصف له فيها انتصاراته بخراسان
بأبلغ عبارة ، وبين له فيها كذلك ما فعل بأشلاء طهاسب ، ثم سأله من
بعد ذلك العون اذ ينتوى الخروج وشيكا الى العراق ليفضى الفضاء
المبرم على أصحاب مذهب الشيعة أهل الشرك .

ولم يكتب النجاح لهذه الخطة لسببين :

الأول : ان العشائين لم يتعافلوا عن شد أزر أحلافهم في المذهب
بالشرق القصى فحسب ، بل ذهبوا في الواقع الى النفيض من ذلك
كذلك ، فوعدوا المرس ببذل العون لهم حين بانوا يرون في انتصارات
سند الله هذه ما قد يعارض ومصلحتهم .

أما الأمر الثانى ، فهو أن الشاه عباس كان قد أعده المرض وفن
أن اسباح الأوزبك «منهدا» : حنى ادا أبل من مرضه أخذ يبذل غايه جهده
لتوفير وسائل الدفاع عن بلاده . وكان عبد الله على كل حال قد نم له
الصبر وصار فى حوزته جزء كبير من خراسان يضم هراة ومنهد
وسرخس ومرو وخواف وجام وفوتسك والغور ، وقد احتفظ بهذا كله
فى الغالب حنى آخر حياته .

بلغ عبد الله دروة مجده بفتح خراسان . وبرغم نشاطه الحربى الطويل
وانتصاراته المتصلة ببلاد ماوراء النهر ، فسب الملاحظ على وجه اليقين أنه
ظل لا يستقل بحكومة بلاده حنى دياك الوقت . ولقد ذكرنا من قبل أنه بعد
مغامراته الأولى ألقى بقتاليد الحكم الى أبيه اسكندر خان ولكنه لم ينعم
بذلك طويلا على ما يظهر . ذلك أنه برغم امتداد الأجل به حتى عام ٩٩١
(١٥٨٣) فان التاريخ يذكر لنا جملة من الحكام الآخرين غير الذين
جلسوا على عرش سمرقند فأجريت الخطبة والسكة باسمهم مما يقوم دليلا

على استقلالهم بالحكم . وكان من بين هؤلاء خسرو سلطان الذي هزمه
بابر خان حين قدم من طشقند فغزا بلاد ما وراء النهر عام ٩٧٥ (١٥٦٧)
وأوقعه في أسره ثم قتله . وخلف خسروا هذا السلطان سعيدا أحد أبناء أبي
سعيد وحفيد كچكونجي ، وقد حكم خمس سنوات عني فيها برعاية
العلوم ، وبذل كثيرا من الجهود في تجميل سمرقند ، ومات عام ٩٨٠
(١٥٧٣) فخلفه أخوه جوانمرد على بهادر . وفي عهده بدأ عبد الله خان
يتدخل في شئون سمرقند الداخلية لأول مرة ، وذلك بسبب الحوادث
التالية :

كان لجوانمرد ولدان هما أبو الخير سلطان ومظفر سلطان ، وكان
بتحاربان على الدوام . وحدث أن دعا أبو الخير إلى بلاده بابر خان ليغاونه
في حربه مع أخيه ، وكان هذا الأخ على مودة مع عبد الله ، ورغم هذا
فقد نزلت به الهزيمة . هنالك سارع جوانمرد والد هذين الابنيتين المدللين
إلى مناصرة ولده المهزوم ، ليرى عبد الله عند ذلك أنه لا سبيل له للقضاء
على هذه الفتنة الا بالتخلص من الأب الشيخ وولديه معا . فأمر جوانمرد
وابنه مظفر ثم قتلها بسمرقند . ولقى أبو الخير المصير نفسه بعد ذلك
بقتيل .

وحين تم لعبد الله القضاء على الحكومة الثنائية ببلاد ما وراء النهر
بإيعاز قومه عام ٩٨٦ (١٥٧٨) ببخارى سلطانا مستقلا على توران كلها (١)
..ولا نفهم كيف لم يقبل هو على هذه الخطوة من قبل ، فقد كتب له
النصر في شمال بلاد ما وراء النهر وفي شرقها وغربها ، وصارت له السيادة
النامية على كل خراسان وطبرستان تقريبا . فلم يكن ليعسر عليه يقينا
والحالة هذه أن يستحوذ على إقليم سمرقند الصغير المعزول قبل ذلك
بزمن طويل . ولم يمنعه عن ذلك ضعف فيه بطبيعة الحال ، وإنما كان
تغاضيه عن ذلك رعاية منه لأقربائه الأقربين فضلا عن مقتته للمنازعات

(١) بهذا لم يعد له الا خصم واحد هو عبد السلطان بن عبد اللطيف،
وكان قد جهز بالعصيان في إقليم زمين . وقد هزمه عبد الله في معركة
مكسوفة حتى أرتد إلى نلال - حصار ، ولكنه سار في أثره حتى وقع آخر
الأمر بسده فقتله عام ٩٨٨ (١٥٨٠) .

العائلية ، حتى سلك معهم سبيل المودة مع ماجبل عليه من القسوة والعدو
وقد سلك المسلك نفسه مع أخيه پير محمد ، وكان قد خلف كيستن
سلطان بن جاني بيك على حكومة بلخ ، وظل يحكم مستقلا هناك .
مات عام ٩٧٤ (١٥٦٦) . ولم يكن عبد الله خان ليعارض في الاعتراض
بدين محمد خان ابن أخيه پير محمد خلفا لأبيه لولا ما كان من اصرار
ابنه عبد المنعم على أن تكون له كل الأقاليم الواقعة على ذلك الشاطئ
من جيحون ، وقد لاحظنا من قبل ما كان عليه هذا الأمير من ميل
القسوة والوحشية . ولم يكن دين محمد ليرضى بهذا الأمر فعارض
حتى اذا ما تقلد عبد المنعم حكومته الجديدة ألقى القبض عليه وعلى
رجال دولته وأمر بقتلهم جميعا مما أثار عليه سخط أبيه .

وكان صنيع عبد المنعم هذا بمثابة نقطة سوداء في تاريخ هـ
الشياني المجيد ، فلقد كلف عبد الله بحب ابنه هذا حتى ذهب في سـ
ارضائه لأطماعه التي لا حد لها بأن جعله يتخذ لنفسه لقب الخان ، بود
ورثا للعرش ، وكان هذا اللقب لا يحمله عموما الا الحكام الترك أنفسهم
فكان الأب يلقب بلقب ألتغ خان (أى الخان الكبير) والابن بلقب كچا
خان (أى الخان الصغير) . ولم يقنع عبد المنعم بهذا كله فأنطلق بعصا
من الفرسان الشرسين يجتاحون التلال والوديان شسالا وجنوبا وغربا
يهبون ويسلبون . ووافق انغماس عبد المنعم في هذه المعارك المستـ
سياسة أبيه عبد الله في خراسان فلم يمنعه لذلك عنها ، فضلا عما
يرتاح اليه عبد الله حين كان يستمع الى القوم وهم شيدون بذكر بط
ابنه وشجاعته .

وسرعان ما عر عبد المنعم انتصاراته هذه فبدأ يتازع أباه سلطانه ،
يسخر وقت طويل حتى انطلق يعاديه في العلن . وكان أول أسباب هـ
النزاع مطالبة عبد المنعم بتوحيد كل مناطق جيحون الدنيا الشيانية تحـ
سلطانه ، حتى رغب في سبيل تحقيق غرضه هذا الى اخراج قل

(١) الص هنا على « حكام الترك » ذلك أن هذا اللقب يحملـه الامـ
بعارض ايضا ، وهو في تركيا وقف على السلطان .

كوكلتاش من هراة ، وكان هذا الشيخ تابعا وفيما لعبد الله وزميلا قديما له عليه أياذ كثيرة . ورفض الأب بطبيعة الحال أن يصفى لمطلب إيته هذا ، حتى إذا ما تم لعبد المنعم هزيمة الأمير الخوارزمي نور محمد (١) وصار له من بعد ذلك عشرون ألفا من الفرسان يأترون بأمره ، شرع يهاجم بهم قل بابا كوكلتاش ، فأمر عبد الله عامله هذا على هراة ألا يتردد في مقاومة هذا الأمير الثائر وحربه وكأنه عدو غريب عنه . كان في هذا الأمر الكفاية لبشير ثائرة الابن العنيد فيجهر بالخروج على أبيه . وفيما كان عبد الله يروح عن نفسه بسمارسة الصيد أقبل عليه شاه محمد أحد الأعيان ممن كانوا في حاشية عبد المنعم فأفضى إليه بأن سيده يتقدم في فريق سي سي سي ، والعدوان في نبتة . هنالك سارع عبد الله بالعودة الى بحارى ، وقد غلب عليه السخط والخوف . والغالب أن عبد المنعم قد ندم بعد ذلك على فعلته هذه فرجع الى بلخ . ولم تلبث المصادمات الحربية أن وقعت بين الفريقين فبسا بعد على أية حال . ولم يقف الحال بهذا الشباقي القوى عند حد تنكر ابنه له فحسب ، وهو ما كان يحز في نفسه حزا شديدا . بل انه أصعب كذلك بخيبة أمل جديدة حين تكشف له أن حروبه الطويلة المضنية التي كان قد خاضها عند الشمال من دوله لم يسطع أن يبلغ بها الى ما يريد . ففد جاءت له الأنباء أولا باندحار واحد من خبرة قواده اندحارا تاما على يد احدى قبائل القالموق ، وأن الفرس ، أعداءه القدماء ، وهم الذين طالما أوقع بهم الهزيمة ، قد انطلقوا كذلك بقضون بدورهم على الشار التي حناها من وراء حروبه الطويلة عند الغرب من دولته .

هذا وقد تحدثنا من قبل عن قيام التحالف بين أمراء خوارزم وسلاطين ايران . وكان هذا التحالف نتيجة طبيعة لسياسة العداء التي كان ينتهجها الشيبانيون تلقاء خوارزم . فبرغم أن الطبقة الحاكمة كانت في كلا البلدين من الأوزبك ، فان هذا الاقليم الصغير الذي يقع عند

(١) ولد نور محمد أمير خوارزم لامة من اماء ابو سلطان ، وكان قد اسرد مرو بوصفها من املاك أبيه . وقد تحالف مع الشاه عباس بعد موب عبيد الله خوف الأوزبك . وبرغم ذلك فقد هزمه عبد المنعم حتى لحا عند الشاه عباس . ودب الخلاف من بعد ذلك بينه وبين الشاه عباس فقبض عليه حيث مات في حصن اصطخر .

حوض جيحون الأدنى قد عانى كثيرا على أبدي بخارى وهى أوسع مه رفعة وأعظم وأقوى . وكان خانات البيس السيباني يتطلعون على الدوام الى ضم هذه الامارة الى ملكهم عنوة ، فكانوا ينتهرون كل فرصة تواتبهم فيسقطون على مدن هزاراسب وخيورك (خيوه الحالية) وكب ووزر وأورغنج وبختلونها . وقد بقى نفوذهم هناك قائما مابقيت فوانهم بها بطبيعه الحال .

وحين اضطر عبد الله الأمير الحاكم هناك (هاجم خان) الى أن يلود بالنساء عباس وذلك بسبب ماكان يرتكبه من ضروب القسوة والانتقام التى لم يسع بها من قبل . جاء ذلك ايذاا بزوال سلطان بخارى على حوارزم . ذلك أن النساء عباس وجد بين الرعايا التركمان فى حوارزم أعوانا جديرين بالوقوف فى وجه أوزبك بلاد ماوراء النهر . فاستطاع بعونهم . حتى قبل موت عبد الله ، وذلك عام ١٠٠٤ (١٥٩٥) . لا أن بسرد : مشهد ومرو وهرة القوية فحسب ، بل ويستولى كذلك على أغلب بلاد ما وراء النهر على وجه التفريب . وأدى انهيار آمال عبد الله مع عقوق ابنه له الى أن استولى اليأس الشديد عليه ، فوافته منيته ببخارى بعد مرض قصر فى الثانى من رجب عام ١٠٠٦ (فبراير ١٥٠٧) : وهو فى الثامنة والستين من عمره ، بعد أن حكم أكثر من أربعين عاما ببلاد ما وراء النهر كان فى أولها نائبا للسلطان ثم سلطانا ، وفد ترك من ورائه حسن الذكر حتى لايزال اسمه يتردد على لسان كل بخارى الى اليوم .

وكما يعترف الفرس المحدثون بفضل الشاه عباس الأكبر فى اقامته منازل التجار الجميلة والجسور وصهاريج الماء وتنقه الطرق عبر الصخور وغير ذلك من المنافع العامة ، التى عمرها لهم أسلافهم ، ماظل منها فائسا حتى اليوم أو ما امتدت اليه يد الخراب ، فكذلك يرى البخاريون اليوم فى كل أثر من آثار القرون الماضية دليلا ينطق بما كان عليه عبد الله خان من جود وسخاء . وتقول الرواية ان معمار عبد الله خان سئل ذات يوم عن عدد المنشآت التى قام على تنفيذها لسيده ، فأجاب بأنها كانت فى مجموعها ألف منشأة ومنشأة من المساجد والمدارس والخانات

(كروانسرائيات) والحمامات ودور الشفاء والجسور وصهاريج الماء . وقد
تم ذلك كله ولما يكن حكمه قد اتصف بعد . وما يثير الإعجاب في الواقع
أن نرى عبد الله مع حروبه المتصلة لا يهتم شئون حكومته الداخلية .
ومهما يكن من أمر الشاء المبالغ فيه الذى يصفه عليه سكان بخارى
وسرفند ، فالثابت المحقق أن التجارة والزراعة والعلم قد وجدت هذه
حبيبتها فيه راعيا هوييا مسنيرا ، فلم يدانه أى شيئا آخر من قبل فسا
كان بذله من جهود قوية لنشر الثقافة بين بنى قومه والعمل على رفاهيتهم
وما تزال مدارس النى أوفى عليها الجوس الكثيرة تزرع بالطلاب ، وما
تزال الرياض التى تعرف باسم (جهارباغ) ، وهى التى أنشأها فى بخارى
وسرفند وكرمينه ومسهد (١) . أحب الأماكن الى الناس ياوون إليها من
بحر السند وبتيقياون طلالها . وأجل جزء باق من سوق بخارى هو
الذى باده عام ٩٩٠ (١٥٨٢) . كما بعد الجسر الجميل ذو الأبراج
الأربعة على زرفشان عند كرمينه هو المعبر الوحيد بين الشاطئين في
الغالب . وذلك أن الجسور الأخرى التى كان قد أقامها على هذا النهر
هدمت حسما اما بفعل فاعل واما بطول الزمن . وقد أمر هذا الأمير كذلك
بإزالة ما من من الحجارة على طول الطرف ببلاد ما وراء النهر ، ونظم سل
المراسلات بين مختلف أجزاء بلاده سريد حسن ، وأشاع الطمأنينة في
أذهان الأهالي وفي حركة التجارة بدرجة لم تعرف قط من قبل (٢) . ولا عجب
إذا أن ساعد شهرته وذاعت حتى وفد اليه السفراء من الصين (٣) محملين
بالهدايا المسببة يلقون اليه بالمودة ، وبعث اليه السلطان مراد الثالث بعرض

١١ : الظاهر أن الأوزبك كانوا يسعون باستقرار الأمر لهم في مسهد-
فسرع عبد الله يقيم بها بعض الحداثق العامه التى فرغ من انشائها عام
١٠٠٤ (١٥٩٠) ، كما سيد بها كذلك خانا (كروانسرائى) لا يزال يعرف بها
حتى اليوم باسم « خان الأوزبك » .
(٢) كان أشد ما نزل ببلاد ما وراء النهر في عهد عبد الله حان هو
ذلك الوباء الذى حل بها عام ٩٩٩ (١٥٩٠) فنفسى بين الناس اول الأمر
ثم نعداهم الى الحيوانات المسانسة فأهلك الكثير منها .
(٣) يذكر تاريخ مقيم خاتى ، الذى نقلنا عنه ذلك ، أمير المنفوت
وهو خطأ في الهجاء في الغالب ، والصحيح هو النانقون ، وهو اللفظ الذى
كان يطلقه إذ ذاك سكان أواسط آسيا على الصين والتبت .

التحالف معه ، كما أوفد اليه كذلك خان القرم وفودا خاصة لتهنئه بما حصل عليه من انتصارات ، حتى ليصح أن يقال عن عهده انه كان يحق آخر مظهر من مظاهر المجد الذي كان يحيط بعرش بلاد ما وراء النهر من حين الى آخر .

وعلى ما علمناه من صفات عبد المنعم نستطيع أن ندرك مبلغ سرور هذا الولد العاق عند استيلائه على عرش أبيه بعد موته ، وضروب الفعال التي افتتح بها حكمه . فلقد بدأ أولا بصب جام تقمته على الرجل الوقور قل بابا كوكلتاش أحد أتباع أسرته المخلصين ، وكان الناس يوقرونه لما كان يتحلى به من الفضائل الكثيرة ، فأسر بهرة وسيره على الأقدام في ركابه مثقلا بالسلاسل والأغلال . ودخل عبد المنعم بخارى وأسيره معه فأسرع الناس يرحبون بمقدمه ، فرقا منه دون أدنى اعتبار آخر في الغالب . وما أن استولى على كل أموال أبيه في هذه المدينة وفي سمرقند حتى انطلق ومعه جلاده يزور بنفسه كل الأماكن التي كان يضطلع بالحكم فيها عسال أبيه القدماء ، فبكافئهم على اخلاصهم في أعمالهم بالموت . فعل ذلك في أراتيه وفي خجند وطشند . وفي هذه المدينة الأخيرة أمر بقتل كوكلتاش مع أقربائه الأقربين ثم سار من بعد ذلك الى أندجان وآخشي ليلقى القبض على ابن عمه أوزبك خان (١) وكان قد بولى حكومة هذه المنطقة . وعند هذا الأمير الى المقاومة ، ولكن الأجل ما لبث أن وافاه بعد أيام قليلة من صرب الحصار عليه . وبهذا حقق عبد المنعم هدفه ففقل راجعا من حيث أتى . وحين سار في مذابحه هذه دون نحفظ شاع الحبر بين الناس بأنه ان بهدا له بال حتى يفضى على كل أتباع أبيه الأوفياء وأصدقائه . هنالك نظر هؤلاء في ذلك الخطر الذي بهددهم فأجبعوا أمرهم عند ذلك على أن يدفعوه عنهم تخلصا من ذلك السفاح المستبد . وتزعهم هذه المؤامرة جندى قديم من أصل قزاقى بدعى عبد الوصى بيك فاقترح قتل عبد المنعم وخاطب قومه في حزم وقال لهم : « لا جدوى من الكلام دون العمل » . ووفق هذا الزعيم يختبر من بعد ذلك مدى ما عليه

(١) هذا الأمير هو ابن أخى عبد الله خان .

أصحابه من شجاعة بأن أخذ يتحسس بيده قلب كل واحد منهم فى اجتساع سرى ، ثم أجريت القرعة بينهم لاختيار من يعهد اليه بهذه المهمة .

ووقع هذا القتل فى شهر يوليو ، وفيه كان عبد المنعم لايسافر الا ليلا اتفاء الحر . فكسن له المتآمرون فى الظلام ، فى ممر يقع بين اراتيه وزمين على طريق عودته من سمرقند . وترك المتآمرون قسما كبيرا من الجيش يعبر هذا الممر ، حتى اذا بلغ الخان ، ومعه حملة المشاعل ، أضيق موضع فيه ، وكان لايتسع بالكاد لمرور فارسين معا ، انهالت عليه السهام فسقط على الأرض بلا حراك . هنالك برز من اختاره المتآمرون من بينهم فقطع رأسه وقتل مرافقه الذى كان يسير فى اثره .

حدث هذا كله فى سرعة خاطفة ، فلم يكتشف القوم الحادث الا عند الفجر ، حين أقبل بعض من كان قد ضل الطريق من جند المؤخرة فوطئوا جث القتل ، فلفت نظرهم تلك الجثة المقطوعة الرأس وعرفوا فيها أميرهم من ثيابه .

هكذا انتهت تلك الأشهر الستة التى حكم فيها عبد المنعم خان (١) ، ذلك الحاكم الذى عرف ، مع قدرته ، بالقسوة والصلابة والميل الى ارتكاب المظالم . وبه ختم حكم الشيبانيين الذين ظلوا على عرش بلاد ما وراء النهر مائة عام كاملة . ذلك أن هذا الأمير كان آخر الأحياء من أبناء عبد الله . ولا يستعصى على الأذهان تشل مدى الفوضى التى عمت البلاد من بعده . ذلك أن أرملة عبد الله أتت بولد آخر له كانت لاتظهره من قبل الا فى ملابس الفتيات وأرادت أن تجلسه على العرش . وكان هالك بالفعل من لابعارض فى ذلك لولا أن شاع الانقسام بالبلاد الى

(١) كان لعبد المنعم خان بعض الفضل اذ استمر فى تعمير بلخ . والظاهر أن كبستن قرا سلطان الذى كان يحكم هناك من قبله كان قد اكفى بجديد الفلعة التى بنيت أصلا زمن أبى سعيد ، وتعرضت من بعد ذلك انتا عشرة مرة للدمار حتى جردها هو آخر الأمر . واهتم عبد المنعم كذلك اهتماما كبيرا بهذه المدينة وكان الخراب يشمل نصفها حين اسنولى عليها ، فلم يعض من ذلك ستة أشهر حتى كان أغلبها قد تجدد ، فالقباب الجميلة التى بكسوها القيشانى ومدخل القصر الدقيق وسوق بابا جانباز وضريح على ، هذه جميعا هى من آثاره (تاريخ مقيم خانى) .

درجة استحالة معها تحقيق هذا الأمر . فقد ذهب فريق ثانٍ ينادى بتنصيب طفل لعبد المنعم في الثانية من عمره ، في حين رغب فريق ثالث في المناداة بالشيخ پير محمد خان وكان آخر من بقى على قيد الحياة من اخوة عبد الله ، وكان ادمانه على تعاطي الأفيون قد حط من قواه العقلية ، كما ناصر فريق رابع صهرا لعبد الله . وكان كل فريق من هؤلاء يكن أشد العداء لأخيه .

وفى ما كانت هذه الأحزاب في صراعها يحاول كل واحد منهم أن يقضى على من عداه ، كان الأعداء عند الحدود يترقبون الفرصة المواتية لاسترداد ما كان عبد الله قد سلبه منهم من أراض .

كان الشاه عباس أول من شرع في ذلك بتشجيع من منجبه الذي نبأ له بنبوءة موآتية ، فزحف في أربعين ألفا من الشيعة المتعطشين للدماء اسنولى بهم في أول هجبة له على سبزاور ومنهد ثم على هراة بعد أن أنزل بحسود الأوزبك بها هزيمة حاسمة في معركة دامية . هذا في حين تسكن أمير القزاق (١) تبكل خان في الشمال من دخول اقليم ولستند ثم تقدم من بعد ذلك ومعه جموع من القالموق والقرغيز والمغول حتى بلغ سسرقند . واستطاع ايشيم بى قائد سسرقند أن يصد الغزاه عن موقعه آخر الأمر ، ولكن بعد أن سقط أربعة من الأمراء الشيبانيين (٢) وكثير من

(١) القزاق (وهم الذين ندعوهم خطأ بالقرغيز) ظهوروا أول ما ظهوروا ببلاد ما وراء النهر كقبيلة مسفلة ، وكان عليهم شكل سلطان . ويدكره لونسين باسم نوكل سلطان وذلك في كتابه
Lewchin, Description des Hordes et des Steppes Kirghiz-Kazaks p141
(جموع قرغيز - قزاق السهوب) والظاهر أن القزاق كانوا مصدر بهديد في السهوب عند الشمال من سيحون من قبل ، فقد تلقى ابفسا العظيم عام ١٩٤١ (١٥٣٤) من معويه دانيلاخوس مقرر بهول فيه : «والفرافى ياسيدى على مراس سديد . وقد حاربوا طشمنند وعزروا امرها (Lewchin: p 141) وقد لعب تبكل برسل عديدين الى الضحى فيدور في سوسكو . والشالب انه كان اقوى سلاطنة الا ان » .

(٢) هذان هما هراز ساسان ويدر محمد سلطان . والدا ايرك ساسان . ثم محمد قلى سلطان بن سليمان سلطان وحفيد جاني بك . واخرا اس ليائنده محمد سلطان .

انباعهم . وهكذا بانث هذه البلاد أبعد من أن تعرف طريقها الى السلام
الذى تزغزعت أسسه باقتراض أسرة شيباني .

فبل أن . . . بل تاريخ الأسرة التى جاءت من بعد ذلك ، وهى تاسع
الأسر التى - . بلاد ماوراء النهر ، أحب أن أعطى القارىء فكرة عن
الحضارة فى . . . شيبانين الملىء بالأحداث ، وهى فترة تم فيها فصل
العالم الاسلامى . . . شرقى عن العالم الاسلامى الغربى ، وصار للاسلام
طابعه الخاص الذى لا يزال نراه حتى اليوم فيما بين حدود ايران الشرقية
والصين . ولم تبلغ الثقافة عند الشيبانيين ما بلغت عند التيموريين ، فهؤلاء
المحاربون الأجلاف ، الذين كانوا يعتقدون بأن فى الحجر السحري
(بادا طانى) (١) قوى كامنة تسيطر على العناصر ونشقى الأمراض
وتضمن النصر فى الحرب ، كانوا على استسك شديد بدينهم وطاعة عبياء
لمسايقهم . ففى عهد الاخلال المغولى صارت السلطة الفعلية بالبلاد الى
أيدي فئة قليلة من مشاهير الشيوخ كان لهم سلطان روحى كبير حتى
استطاعوا أن يقفوا فى وجه أكثر الحكام استبدادا . ومارسوا ذلك مرة
أخرى عند الشيبانيين فلم يتهافوا "أهلون وحدهم على استجلاب رضاء
رسل الحكمة الإلهية هؤلاء فحسب . بل لقد تنافس كذلك الأمراء فى ذلك
بدورهم فيما بينهم . وسواء أكان مرد ذلك الى الوهم أم خوف الرأى
العالم ، فمن الواضح الجلى أن أقوى أمراء هذه الأسرة ، لم يكونوا
يظهرون احترامهم لهؤلاء الشيوخ فحسب ، بل كانوا كذلك وبدون لهم

(١) كان هذا هو الاعتماد الذى ساد فى واقعة جام بخاصه . ونذكر
بإس فى سيرته ص ٥٠ { كيف نهض السحرة الى سخير هذا الحجر عند
سروق الشمس لإشاعة الفوضى فى صفوف الفرس . وبرغم مرور ثلاثة
عرون على اسلام هؤلاء القوم (الصحيح ، أكثر من خمسة فرون : المترجم)
فلا يزال لبدو أسبا الوسطى اعتقاد كبير فى هذا الحجر ، حتى ليحمله بعض
قواد الفرغز والركمان معهم فى حرص ، ورون انه أنجع علاج للسع
الزبور أو العقرب . ونجد نصيلا أوسع عن هذا الحجر فى كتاب كارمر
عن تاريخ المغول : Quatremère : History of the Mongolians

أعمق آيات الخضوع والتبجيل . وكان من بين هؤلاء شيخان لهما مكانة خاصة حتى كانا موضع التقديس في زمنهما .

هذان هما مخدوم أعظم وقاسم شيخ عزيزان . أما مخدوم أعظم ، وهو الذى كان يعرف عادة باسم مولانا حتى الكاشانى ، فقد تتلمذ فى عهد التيموريين على الصوفى المشهور خواجه أحرار . ويقال انه كان يعيش عيشة زهد تام حتى أتى بالكرامات . وكان يبذل له كل أمراء هصره الاحترام خوف غضبه . وقد مات بسرقة فى الحادى والعشرين من المحرم عام ٩٤٩ (١٥٤٢) ، وقبره على مسيرة ثلاثة أميال من دهيد (١) . أما قاسم شيخ عزيزان فكان من تلاميذ خداداد ، وقد اشتهر كسابقه بزهد أكثر مما اشتهر بعلمه . وبظهورنا على ما كان يتمتع به من التوقير ، فى أجلى صورته ، ما يحكى عنه بأنه كان يعيش فى كرمينه فى الوقت الذى كان فيه عبد الله خان يحارب جوانرد أمير سمرقند ، وحدث أن خرج للقاء عبد الله ، وكان على مودة معه ، فسا ان ابتعد عن المدينة قليلا حتى شاهد ركبا طويلا وعلى رأسه رجل يسير عارى الرأس وحول رقبته حبل مقوده بيد فارس ، ولدهشته تبين فى هذا المخلوق ، الذى يسى ذليلا ، الأمير القوى عبد الله . وحين سأل عما دعاه الى سلوك هذا المسلك أجابه بأنه انسا أراد بذلك أن يكفر عن ذنوبه فيسير من خان رباط الى رباط الشيخ على هذه الصورة . هنالك اشتد تأثر الشيخ بذلك فأركب الأمير على فرسه بنفسه وألسه قباه وعادا معا الى كرمينه .

ولقد رام عبد الله من وراء ذلك أن ينال مساعدة الشيخ فى حيلته على سمرقند ، وقد تم له بالفعل ما أراد واستولى على هذه المدينة . ومات الشيخ عزيزان بعد هذا الحادث بثلاث سنوات تقريبا فى عام ٩٨٩ (١٥٨١) .

كانت دراسة علوم الدين هى الدراسة الوحيدة الرائجة فى ذلك الوقت . وكان من بين مشاهير العلماء فى ذلك مولانا عصام الدين بن

(١) تجد تفصيلا عن هذا الموضوع فى كتابي « رحلات فى آسيا الوسطى » ص ٢١٤ Travels in Central Asia

عربشاه الذى عاش أول أمره ببلاد حسين ميرزا فى هراة ثم رحل من بعد ذلك الى بخارى ، وكان عبد الله يخصصه يعطف شديد . وكان هذا الأمير مع كلفه بالحروب يميل كذلك الى الاشتغال بالشعر وقرضه . ويقال انه اختلط عليه ذات يوم فهم قصيدة من الشعر العربى فسأل فى ذلك عصام الدين ، فتلقى منه بعد ذلك بساعات قليلة ستة وخمسين وستمئة تفسير لكل بيت منها . وقد روى هذه القصة المؤرخ المبالغ سيد راقم . ومات هذا العالم عام ٩٤٣ (١٥٣٦) بسمرقند . وأشهر كتبه حواش كتبها على تفسير القاضى وعلى أشعار جامى الصوفية .

ومنهم كذلك مولانا صادق أحد علماء التفسير فى سمرقند ، وقد حج الى البيت الحرام مرتين وكتب شروحا قيمة على كتب الفقه ، كما تناول بالشرح كذلك قصائد صعبة ، وقضى آخر سنوات عمره فى كابل ببلاد حكيم شاه (١) حتى وافاه أجله عام ١٠٠٧ (١٥٩٧) .

ومن بين الشيوخ المشهورين نذكر كذلك ملا ضياء الدين ، وهو فقيه توفى عام ٩٧٣ (١٥٦٥) ، وخواجه جلال جوهرى ، وهو من تلاميذ مخدوم أعظم ، وكان له مقام كبير اذ كان من المتصوفة ومن رجال الفقه والتفسير .

وكانت التركية هى اللسان الغالب حتى لنرى الشعراء ابتداء من ذلك العهد وما بعده كلهم من الترك . وأظهرهم جميعا كان الأميرالأوزبكى محمد صالح ، وكان أبوه أميرا على خوارزم الى أن انتزعها التيموريون منه . وقد دخل وهو يافع فى خدمة شيبانى . وهو صاحب «شيبانى نامه» (شيبان ياد) وهو شعر حماسى ممتاز حتى ليرفعه البعض به فوق مرتبة نوائى (٢) . وفيما عدا ذلك كان أكثر شعراء هذا العصر مجرد ناظمين ، وكانوا ممن يؤرخون شعرا .. وقد حفظ التاريخ لنا من بينهم اسمى أمير

(١) وهو من امراء الدولة المغولية الهندية (الترجم)

(٢) آمل أن أتمكن من نشر هذا الشعر الجميل قريبا مع ترجمة له . وقد ذكر فليجل هذا الكتاب فى فهرس المخطوطات بدار الكتب الامبراطورية بمدينة فينا دون أن ينتبه الى اسم مؤلفه .

على كاتب وملا ميرك وكانا شاعرين خاصين للشيبانيين الأول ، ثم ملا مشفقى الذى كتب على منشآت عبد الله المختلفة تاريخا لها ، كما نظم كذلك جملة من الغزليات والقصائد والنكات ، وتوفى عام ٩٩٤ (١٥٨٥). أما قاضى باينده ، وهو من زمين ، ومن أئمة اللغة ، فقد ألف ما يلفت النظر. اذ نظم قصيدة من ثمانية عشر بيتا فى مدح الوزير قل بابا كوكلتاش التزم فيها الحروف غير المنقوطة (١) . وآخر من نذكرهم من هؤلاء شيرين خوجه وكان شاعرا فى زمن عبيد الله ، ثم خير حافظ وكان مطربا وعازفا بيلاط عبد الله ، وتوفى عام ٩٨١ (١٥٧٣) .

وأثار العصر الشيبانى فى المعمار تدين بوجودها . بالإضافة الى شغف عبد الله بها ، الى الروح الدينية والميل الى التصوف . وكان هذه نسود ذلك العهد كله . فأقيم بذلك كبر من المساجد والخانات والمدارس والأروقة وأضرحة الأولياء . ونذكر من بنى هذه المنشآت مسجد بناه فى سمرقند الوزير كوكلتاش عام ٩٣٤ (١٥٢٧) أضاف اليه كچكونجى خان منبرين من الرخام الأبيض .

أما مدرسة عبد الله ، التى لاتزال قائمة حتى اليوم . فإلى مدخل كبير تعلوه آى من الذكر الحكيم كتب بالميناء ويزيد ارتفاعها على القدمين حتى لتقرأ بوضوح من مسافة بعيدة . كما جدد عبد العزيز خان مسجد المغان ، وكان فى أصله بيتا من بيوت النار ، وبنى رابعا عند منوى خواجه بهاء الدين على مسيرة ميل ونصف الميل من بخارى . ونذكر أخيرا المدرسة التى بناها أبو سعيد بسمرقند والأخرى التى أقامها الثرى ميرعرب ببخارى ، وهى التى تعد أفخم مدرسة بآسيا الوسطى كلها .

وهذه الصورة التى رسمناها فيما سبق لا تعد شيئا مذكورا بالقباس الى مظاهر البذخ والثراء ومظاهر الحضارة التى كان عليها الصفويون بايران ، أو بالنسبة الى الأهداف السامية التى كان يركبها فى الهند أمير

(١) يعرف هذا الشعر باسم « بى نطق » ومن عجب أن يرى الشرقيين ولديهم من طول الاناة والوقت ما يمكنهم من كتابه كتابا كاملا على هذا النحو .

من أصل توراني هو أكبر شاه التيمورى ، الذى أقام له دولة كبيرة علومه
السند والكنج ، وظل يحكم هناك ، تحوطه العظمة والمجد ، مدى
خمسین عاما ، درس فيها المسيحية ومذاهب براهما دراسة باحت ونذر
نفسه للعمل لصالح شعبه (١) .

(١) هو أكبر شاه حميد باير ، وكان قد رقى العرش عام ١٥٥٦ وهو .
فى الرابعة عشرة من عمره ، وأظهر فى شبابه رغبة فى الاطلاع على المسيحية
(وفتح بذلك الكولونيل بول فى كتابه H. Yule Cathay and the Way
وفد اسنبل عام ١٥٧٨ المبعوث البرنغالى كابرال (Thither vol II. p. 531)
من جوا (كاتب مستعمره لبرنغال بساحل الهند الغربى)

وحين سمع عن مس مجتهد يعيتى فى البنغال ارسل اليه لينظر
المسلمين فى حفل عام . ومما يذكره الجزويت من انه أصدر امره عام ١٥٩٠
بهدم المساحد والآذن ، هو هراء على ما يظهر . والفالسب الذى لا سك
فيه انه قد قدم الى بلاده بعثة من المبشرين المسيحيين بناء على دعوة
ملحه منه (المؤلف)

أصل المسألة أن السلطان أكبر كان كلما بالمعرفة منذ نسائه ، وأدى
به حرصه على تأليف مخلف شعوب الهند من حوله الى دراسة عقائدهم
الكسرة . وكان اللطف رجال الأديان الأخرى من بوذيه وزرادسنية وجينية
ومسححه وغيرها حين كانوا يقعدون اليه ، حتى مارس بعض طفوس
الزرداسيين معهم حين ادعوا له بأن من يمارسها تصير الشمس وفق
هواه ، وأظهر النجيل للانجيل حين عرضه المسيحيون عليه ، وأمر ترجمه
الى الفارسية . وكان من أبر ذلك أن أخذ كل فريق منهم بدعيه لنفسه .
وعن له من بعد ذلك ، وقد بان له أن هذه العقائد حمعا فيها الكثر من
نواحي الخير المشترك بينها ، أن يعقد مؤتمرا للأديان عله يصل بذلك الى
علية العروق بينها ، ولكن رجال الأديان بدلا من أن بدلى كل واحد منهم
بحججه وبطلع أمرانه على فضائل معتقده أخذوا يتبادلون معا أفضع السنائم
واسد اللكمات . ولئن لم يسفر هذا المؤتمر عن تحقيق ما كان برجوه أكبر
منه ، فقد أدرك هذا السلطان قبل الفلاسفة المحدثين بزمان طويل — على
حد قول الفيلسوف الفرنسى جوسناف لوبون فى كتابه « اختلال التوازن
العالمى » — أن أمور العقائد لا تخضع للعقل الصرف ، والثابت المعروف على
كل حال أن أكبر مات على اسلام صحيح . ونفصيل ذلك تجده فى كتابى
« تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية » ج ٢ ص ١٢٨ — ١٤٣ (المترجم)

الفصل الخامس عشر الاسترخانيون الأول

١٠٠٦ (١٥٩٧) — ١٠٩٩ (١٦٨٠)

لا بد لنا من أن نستقريء أخبار أكثر من ثلاثة قرون خلت لنبلغ بذلك الى بعض مايفيد عن أصل أسرة الأسترخانيين التي خلفت الشيبانيين ببلاد ما وراء النهر فظلت تحكم هناك قرابة قرنين من الزمان .

لم يكد الأمير تيمور يطرد أعقاب چغتاي عن عرش سمرقند ويقضى على الاخلال المغولى لهذه البلاد حتى استنجد به أمير من بيت جوجى ، لفوم عند شواطىء الفولجا عندئذ بعمل شبيه بما قام به فى بلاده . ولم يكن تختش ، وهو فى فورة خصومته مع أعدائه أوروس خان وأبنائه ، ليقدر على وجه اليقين ، مدى ماسوف يتعرض له من أخطار بسبب استنجاهه هذا بأمير سمرقند .

فقد انتصر تيمور لهذا الأمير أول الأمر ثم لم يلبث أن انقلب عليه من بعد ذلك وحاربه . وقد انتهت حياة تختمش بمقتله (١) بعد اقبال وادبار ، وتجرد خلفاء أوروس من كل سلطان ، وتشتت شمل الأمراء من بيت جوجى جميعا بتدخل تيمور فيما بينهم وانقرط عقدهم ، وقد كانوا من قبل عصية متناسكة ، على ضعفهم . وكان من بين هؤلاء الأمراء الذين اضطلعوا مع جموعهم بدور هام فى التاريخ ، نتيجة لهذه

(١) نقول المصادر الروسية ان تختمش قتل غير بعيد من سومن بسيجيريا ، وذلك . أمر سادى بك خليفة قتلج بيمور
Hammer, Geschichte der Goldenen Horde p 366

الثورات ، أمير يدعى قتلوق تيسور (١) كان من أحلاف سلطان سسرقد وقد طار صيته على أثر انتصاره عند خيوة عام ٨٠٤ (١٣٩٩) على تختش والجيش البولندي ، وكان من أحلافه . ومع هذا فقد اضطر خلفاء قتلوق تيسور من بعد ذلك الى الانسحاب الى خانية استراخان أو استرخان (٢) التي تقع في حوض الفولجا الأدنى . وهذا الفرع من خلفاء جنكيز الذين عرفوا بالاشترخانيين ، نسبة الى قصبة حكومتهم ، عاشوا في الواقع مدة قرنين من الزمان في ظلام حتى انقرض عقدهم ، أو حتى اضطرتهم في الغالب قوة دوق روسيا الأكبر الصاعدة الى أن يرحلوا عن ديارهم . فهاجر يار محمد (٣) ومعه ابنه جاني خان الى بلاد ما وراء النهر حيث رحب بهم الشيبانيي سكندر خان وكان يحكم اذ ذاك في سسرقد . وقد كان الشيبانيون يفتخرون دائما بنسبهم الى جنكز . وأراد سكندر خان أن يعبر لأقاربه الغرباء هؤلاء عن مبلغ خفاوته بهم فزف الى جاني خان زهره هانم إحدى اخوات عبد الله خان المشهور .

(١) تحيلف المصادر التي استطعت الرجوع اليها في أصالة . فهي تاريخ مقبم خاني نجد ان أباه هو بغا سلطان بن أرووس بن جوجي بن جنكيز . في حين يذكر أبو الفاري ، ص ١٠٠ . نسبه كالآتي : قتلوق تيسور ابن نمغان بن أباي بن أوزتيمور بن بغاي تيمور بن جوجي بن جنكيز . ويخالف هانم بدوره عن سابقه وذلك في كتابه « أسباب درية أبناء أولوس جوجي الأربعة عشر » :

((Genealogy of the Descendants of the fourteen Sons of Ulus Djidji))
حتى لا يمكن أن نسلم بما ادعاه من نسب تعلق تيمور .

(٢) قد نرد هذه الكلمة برسمةا الحاضر الى « أزدرخان » فتكون على هذا فارسية الأصل . والأرجح أن نسبتها القديمة الى حاحي برخان هو الأصح . . ذلك أننا نلاحظ في مخطوطات أسبا الوسطى أن هذه الكلمة تكتب دائما بنين ونا أي تشرخان .

(٣) نجد كذلك في نسب يار محمد خان اختلافا بين ما ذكره مؤلف تاريخ مقبم خان وما ذكره أبو الفاري . فيذكر الأول أن نسبه هو على الوجه الآتي :

قتلوق تيمور بن بهادر خان بن محمد خان بن هوك بن نمغان بدل (من منفشلاق) ثم يار محمد ، في حين يذكر الثاني ، وهو الأصح احتمالا ، قتلوق تيمور فعلى تيمور فتيمور قتلوق تيمور سلطان محمد خان محوراى فمنجسلاق فمحمد سلطان فجان أو جاني سلطان بالأصح . وكان الواجب أن نأني ييار محمد خان بين الأسمين الآخرين .

وكان يار محمد يستهر بين الناس بلا شيب لتقدمه في السن وقد وافته منيته عقب استقراره ببلاد ما وراء النهر بقليل . أما جاني خان فقد شارك عبد الله في حروبه زمنا طويلا فكافأه على ذلك بدوره بأن عهد بحكومة نيشابور الى أكبر أبناء أخيه وكان ممن برزوا في حرب عبد المنعم مع الفرس . وكان أولاد جاني خان هم : دين محمد وولى محمد وباشي محمد .

وحين قتل عبد المنعم في زمين وصارت بلاده من بعده نهبا للفوضى تقدم بعض أصحاب النفوذ في البلاد فعرضوا التاج على جاني خان الشيخ ولكنه اعتذر عن قبول هذا التشریف وقال للقوم « برغم أني من نسل چكيز الا أن ملك بلاد ما وراء النهر يجب ، على ما يبدو لي ، أن يعهد به الى من يكون في الوقت نفسه من الشيبانيين » . ولما كان يشير بعبارة هذه الى أبنائه ، فقد نودي بابنه الأكبر دين محمد خانا ، وأخذ الناس يرقبون فرصة قدومه اليهم من خراسان بفارغ الصبر . وقد بنا في الفصل السابق أن ما كان يجري من حوادث بتلك الولاية قد منع دين محمد من مبارحة ميدان نشاطه برغم أنه هو نفسه كان جد راغب في ذلك . ذلك أن الشام عباس حين رأى نفسه وقد خلس من أشد أعدائه بسون عبد الله وعبد المنعم ، انطلق يطاود الأوزبك حتى أخرجهم من أفوى مواضعهم بخراسان وأنزل بهم هزيمة حاسمة . ويقال ان دين محمد سقط في هذا القتال ، كما تقول رواية أخرى بأنه قتل وهو بسبيل الفرار (١) وقد غنم المنتصر معسكره ومتاعه كله . ويبلغ من شيوع الاضطراب في صفوف الأوزبك عندئذ أن لم تتسكن زوج محمد خان نفسها من الهرب لولا شجاعة خادم مخلص يدعى حقي بأسول جازف بحياته في سبيل خلاصتها . فقد حمل هذه السيدة على فرسه عجلا وقد أخفى ابنها ، الأميرين امام

(١) يفصل كتاب « روضة الصفا » واقعة قتله في هذه المعركة التي وقعت عند هراة بما يكاد يبعد الشك عن روايته ، في حين يذكر تاريخ مقيم حاني ان دين محمد بعد أن نزلت به الهزيمة راح يضرب في الأرض بمنازل بدو قرای على مقربة من أندخوى فعرفه القوم بشيابه الملكية وقتلوه . والظاهر أن الوقوف على حقيقة هذه المسألة هو في الواقع من الصعوبة مكان ، ذلك أن رواية مفتله بأيدي بدو قرای يرجع سببها الى الحملة الانتقامية التي كان قد شنّها عليهم ياقى محمد خان .

قلى ونظر محمد قلى ، قى غرارتين على جانبى السرج ، ثم أطلق العنان
لفرسه فى سرعة مذهلة . وأصاب رصاصة من رصاص العدو احدى
الغرارتين ، حيث كان نظر محمد ، وثقت منها الى قدمه فتخلف عنها
عرج لازمه طوال حياته .

هكذا فقدت بخارى أميرها الذى كانت قد اختارته عليها لتوها .
على أن أخويه كانا قد استطاعا أن يشقا طريقهما هربا عبر جيحون ، قولى
أكبرهما ، وهو باقى محمد خان ، عرش بلاد ما وراء النهر عام ١٠٠٧
(١٥٩٨) فى حين أقطع الأصغر ، وهو .ى محمد خان ، ولاية بلخ مع
الاقليم الذى يقع على ذلك الجانب من جيحون . ولم ينته تأزر هذين
الأخوين فى الحكم الى ما كان يرجى منه فى اقرار الأمور فى البلاد اقرارا
حاسما سريعا ، واتقاء خطر التفسخ ، الذى لم يكن يتهددهم على أيدي
الشاه عباس وحده بل وبسبب خروج بعض أمرائهم عليهم كذلك . ولئن
كان السلام سرعان ما عاد يرفرف على بلاد ما وراء النهر من جديد بعد
إبعاد خطر الأمير القزاقى تىكل خان عنها ، فان مؤسسى هذه الأسرة
الحاكمة الجديدة كان عليهما أن يواجها عند هذا الشاطئ من جيحون
عدوا أشد خطرا يمثل فى ذلك الشاه الصفوى الكبير .

كانت بلخ قد صار لها أهمية عظيمة عند الأوزبك هى وطخارستان
وبلخشان التى تتصل بها ، وكانت هذه جميعا تعد منذ أيام السامانيين
جزءا مكملا لبخارى . قفى المحل الأول كانت قبائلهم قد استقرت على
هذا الجانب من النهر ، أى عند قندز وآقجه وشبورغان واندخود (١) ،
وفى المحل الثانى فقد كان عليهم أن لا يغفلوا عن حماية مقام على المزعوم (٢)

(١) وهى اندخوى الحالية ، وبالقياى الى القواعد الصوتية فى اللغة
التركية فغالبا ما تنطق الياء تاء حين ترد آخر الكلمة . ولفظ اندخو هو
مغولى ومعناه « السعادة الشاملة » .

(٢) يرد فى تاريخ سيد راقم القصة التالية عن قبر على المزعوم هذا :
فى زمن السلطان حسين بيقرأ ذهب أحد علماء التاريخ الى أن قبر على بن
أبى طالب قد عثر عليه فى قرية خواجه خيران غير بعيد من بلخ وذلك فى
عهد سنجر السلجوقى . وحين اخذوا ينظفون ما حوله ظهرت لهم لوحة
مستديرة عليها هذه الكتابة « هذا قبر أسد الله أخى النبى حبيب الله =

سيد فرسان الاسلام ، من آن يقع بأيدي الشيعة . ولم ينصرف الشاه عباس الى اقرار الأمور داخل بلاده دون الاهتمام بحصوده الشمالية الغربية ، حتى استولى على هراة . ولم يؤد سقوط هذه المدينة بأيدي الفرس الى اثاره مخاوف بلخ اذ ذاك في كثير . ذلك أن محمد ابراهيم ، أمير هذه المدينة ، وكان من الشيبانيين ، انما كان قد بلغ الى حكم مدينته بعون من الفرس أنفسهم . على أن حياة المجون التي كلف يحيها هذا الأمير أثارت سكان بلخ عليه فانطلقوا يرحبون بولي محمد حين أقبل عليهم ، فظاهروه في الاستيلاء على « أم المدائن » ، وهو اللقب الذي كانت تشتهر به بلخ اذ ذاك ، برغم ما كانوا عليه من ميل الى الفرس وكراهية للأوزبك .

وبعد أن تم لولي محمد الاستيلاء على القلعة سيق ولي الفرس المنبوذ الى الموت في حين تمكن كبار قواده من الفرار الى أصفهان وقد حصلوا معهم تلك الجواهر التي كان عبد المنعم قد انتزعها من مقام الامام الرضا من قبل ، فقدموها الى شاه فارس جلبا لرضائه . وأعيدت هذه الحجارة الكريمة الى مكانها السابق بضريح ولي خراسان في احتفال مهيب . ولبت الأوزبك في أماكنهم عند حدود قزوین وبلخ يجتنبون كل اشتباك مع خصومهم ، حتى التقوا بهم آخر الأمر عام ١٠٩٩ (١٦٠٢) في حرب عنيفة ، وذلك حين برز باقى محمد خان ليشار لمقتل أخيه ، وكانت قبيلة قراى التي تنزل عند قندز هي التي قتله على ما يقال . ولا تزال قبيلة قراى أوقراتركمان (١) هذه تسكن في الوقت الحاضر هذا الموضع بآسيا الوسطى . والملاحظ كذلك أنها لا تزال على عداء مقیم مع جيرانها

على « . وحين بلغ ذلك الخبر السلطان بيقرا ذهب عام ٨٨٥ (١٤٨٠) في جمع كبير الى ذلك القبر المكتشف ، فكان أول من حج اليه ، وبمضى الرمن عمر ذلك المكان بالمنشآت الفخمة ، وان لم يبق منها اليوم إلا آثار قليلة في « مزار شريف » ، ولا يشك سكان آسيا الوسطى أدنى شك في نسبة هذا القبر لصاحبه .

(١) يشبه قراى - تركمان هؤلاء قبائل يوموت شيها قوا في بنيانهم وملاحهم ، وتجد الحديث عنهم في كتابي

Travels in Central Asia pp 237, 304

من الأوزبك والتركمان حتى اليوم . وبرغم أن مقتل دين محمد كان بعوزه الدليل القاطع في ذلك ، فإن ما كان يقوم بين تلك القبيلة والفرس النسيعة من علائق المودة المؤكدة كان سببا كافيا ، بالإضافة الى صلتهم بسقتل هذا الأمير ، لأن ينطلق باقى محمد خان الى قتالهم ويقتل كل من نصل اليه يده منهم دون شففة أو رحمة . وسارع فريق من محاربى تلك القبيلة الى الامتناع في حصن قلندز واستماتوا في الدفاع عنه ، على أن عدوهم مالبث أن استولى عليه عنوة ونسف أغلب جدرانها ففتل مئات من حماته تحت الأقباض . وسيق الى الموت كل من قد بقى منهم على قيد الحياة . وبهذه الواقعة قضى على قوة قبيلة قرا التركمانية فلم تستطع من بعد ذلك أن تعود الى سيرتها الأولى أبدا .

تأثر الشاه عباس أشد التأثر لدى سماعه بتلك النقصة التي أنزلها حاكم بخارى بأعدائه ، على ما كان ينتظر منه . فخرج من مرو بجيشه فاتجه الى آقچه لنجدة حلفائه ، وقى خطنه أن يؤدب الاسرخانيين فى بلخ أولا ، ثم يعبر جيحون من بعد ذلك ويزحف الى بخارى . غير أن نزوع الأوزبك بطبيعتهم الى القتال مالبث أن دفعهم بدورهم الى لقاء أعدائهم . ولم يكد الفرس يتقدمون كذلك حتى ضريح بابو عبد الله جوار بلخ حتى تفشى الوباء فيهم فأقعد أكثر من نصف قواتهم . وفيما هم على هذا الحال تعرضوا لهجوم خصومهم من كلا الجانبين فنزل بهم هزيمة شديدة لم يستطع الشاه عباس نفسه أن ينجو منها الا بشقة هو وألوف قليلة من ألباعه صحبته فى فراره (١) .

وكانت هذه الواقعة أهم حرب خاضها باقى محمد فى حكمه . وقد تعرض هذا الأمير لخروج ابن أخيه . بدبع الزمان . عليه عام ١٠١١ (١٦٠٣) حيث اعتصم بمنطقة قراتكين الجبلية ، ولكن بوره قضى عليها بسقوط

(١) لا تحاول المصادر الفارسية أن نخفى الكارثة الى انبهت اليها هذه الواقعة . وتقول روضة الصفا أن شدة الحر والظما قد أرهقا حد فارس الى درجة شديدة فضلا عن انه كان من الصعب دفع البدو الذين انفصوا على الفرس من كل نواحي الصحراء على حين غرة .

« مسجحه » معقله القوى . كما قضى كذلك على ثورة محمد زمان حاكم بدخشان في مهدها ، وكان أبوه قد قتله الشائر بديع الزمان من قبل : وبصرف النظر عن هذه الحوادث فإن عهد باقى محمد خان يعد عموماً عهد سلام ووثام . وقد حل به المرض عام ١٠١٤ هـ بعد أن جلس على العرش سبع سنوات ، وما أن شاع هذا الأمر حتى قدم القزاق فبدأوا يغيرون على سواد البلاد وينتهبونه . وكان القوم ، والقلق مستحوذ عليهم بسبب مرض أميرهم ، تتعلق أنظارهم بوليهم ذائع الصيت الشيخ علم عزيزان ينتظرون منه أن يرد على الأمير صحته بما عرف عنه من قوة خارقة . وكان للبخاريين ، ولا يزالون حتى اليوم ، اعتقاد بالغ في الغيبيات . وأشار الشيخ على مريضه بأن يفيد من هواء جيحون ، فحمل على هودج وضع على سفينة ظلت تجوب النهر به لعدة أيام . ولم ينفعه ما أشار به الشيخ عليه من علاج فوافاه أجله بعد ذلك بقليل آخر رجب من عام ١٠١٤ (١٦٠٥) .

وخلف ولي محمد خان أخاه وكان قد قدم اليه من بلخ ليعوده . وتم له هذا الأمر بعد أن هزم ابنى الأمير الراحل عند ترمذ وكانا قد ثارا في وجهه .

وكان ولي خان محمد هذا على خلق يليق بأمر لولا ماكان من ادمانه على الشراب وما جح البه رجاله من الاستبداد الشديد حتى أخذت القلوب نفر منه منذ بداية حكمه . فما يروى فى ذلك أن وزيره شاه بك كوكلاش ، وكان قد خلفه على حكومة بلخ ، كان يعبد الى نزع رؤوس المجرمين من أكتافهم بربطهم الى التيار ، ثم اطلاقها بهم ، أو كان يلقي بهم أحياء فى الزيب وهو يفور ، أو يأمر فتهاً جلودهم بمحركات من الصوف . وقد أدى اشاعة هذه القسوة والمظالم ، مع مقتل ثلاثة من وزراء (١) العاهل السابق دون وجه حق ، الى نهوض حزب معارض قوى

(١) كان هؤلاء هم دوستم ارغون وشاه كيجيك وحاجى نيمان ، وكانت لهم مكانة مرموقة زمن عبد الله . وقد رفع باقى محمد خان كل واحد منهم الى مرتبة أمير الأمراء فى عهده . انظر تاريخ سبد راقم .

نزعه الأميران ولدا باقى خان سالفا الذكر . هنالك اختار القوم امام قلى خان أميراً عليهم ثم أعلنوا ولى محمد خان بانتزاع العرش منه ، وكان اذ ذاك يتسلى بالصيد جوار قارشى . ولم يكن هذا الأمير ليأمل فى العودة الى بخارى وقد صار بلا جند وبلا موارد ، وهاهو ذا خصمه قد جلس على العرش . وكان وزيره قد انصرف بدوره عنه وهو الذى طالما تفنن فى صب جام غضبه عليه ، فلم يكن أمامه الا أن يفر الى بلاد فارس ويلوذ بالشاه عباس عدو أسرته القديم ، وليس من الصعب أن ندرك أن الشاه الصفوى قد عمل على أن يفيد من هذا الخلاف الذى قام بين أبناء العشيرة الواحدة ، فرحب بهذا اللاجئ الاشرخانى أبلغ ترحيب . وقد خرج الشاه عباس من أصفهان فصار ثلاث ساعات الى دولت آباد ليستقبل ضيفه ، فحياه وعانقه فى مودة أبوية ، كما اصطف عشرون ألفاً من الفرسان لتحيته حتى دخل المدينة ، وتزينت الدور والحوانيت والأسواق جميعاً احتفاءً بقدومه ، وأنشد الشعراء القصائد مرحبين به .

ولا نعجب بعد هذا الاستقبال الفخم حين نرى هذا الأمير الأوزبكي من بعد ذلك تراوده الآمال فى استرداد ملكه من جديد . ولا يسكننا ، مع ذلك ، أن نجزم بأن الشاه عباس كان يفكر تفكيراً جدياً فى فتح بلاد ماوراء النهر وضمها الى ملكه ، اذ كان يقدر أن تأمين حدوده الشمالية التى تتعرض للأخطار على الدوام انما يتم باقامة علاقات مودة وصداقة مع أمير بخارى . ومهما يكن فانه مالبث بعد ذلك بقليل أن سير مع ولى محمد ثمانين ألفاً من الجند الفرس اتجه بهم الى جيحون .

وهنا نعود مرة أخرى الى الحديث عن نفوذ الشبوخ ببخارى ، ذلك النفوذ الذى لم يكن أبداً يعرف حدوداً . وعلى ما ذكرنا من قبل فقد كانوا هم موئل الناس حين تشتد بهم العلل وملاذهم الذى يسألونه النصيحة حين يقبل عليهم العدو . وهذا هو امام قلى ، وقد ركب الرعب حين علم بكثافة جند عدوه ، يلوذ بحفيد من أحفاد مخدوم أعظم ، يدعى خوجه محمد أمين ، يسأله المسورة فى ذلك . ولم يكن الشيخ الورع أقل ذعراً من أميره ، برغم أن امام قلى ذكر له عدد المحاربين دون حقيقه بكثير .

وأخذت الشيخ حميته الدينية فشارك في القتال بنفسه ، وتناول قوسه وشمر عن ساعديه وأطلق أول سهم ، ثم أردف صنيعه هذا بأن قذف حفة من التراب في وجه العدو وهو يدعو الله أن تعمى أبصارهم بذلك . وكانت فعلته هذه ايذانا ببدء الهجوم . واحتدم القتال بين الفريقين ، وهنا تقول مصادري ، والعجب يأخذ منها مأخذه ، أن الظلمة ما لبثت عند ذلك أن لفت الأوزبك حتى حجبتهم عن أعدائهم ، وكأنها سور يحجبهم ، في حين انكشف معسكر العدو أمامهم ولا شيء يحجبه ، وكان هذا المعسكر قد أقيم على شاطئ بحيرة ماجان (١) . ويقول التاريخ ان امام قلى كان قد غادر عاصمته أول الأمر خوف عدوه ، ولكن الموقعة التي جرت على ضفاف هذه البحيرة في مستهل رجب من عام ١٠٢٠ (١٦١١) انتهت في صالحه حتى سقط ولي محمد في يده ، فقتل بأمر ذلك الشيخ الورع بعد أن حكم ست سنوات .

وتأتى بعد هذه الحوادث فترة طويلة ساد فيها السلام والوثام بين فارس وبلاد ما وراء النهر . وقد أدت بالشاه عباس انتصاراته بدوره على الباب العالي الى آت هابه جيرانه بما فيهم الأوزبك ، فتوقفت غارات النهابين التي كانت تتعرض لها ايران عادة بين الحين والحين . بل ان التركمان الذين كانوا يرابطون على طول شمال ايران من الاقليم الصحراوى حول أندخود حتى سواطىء قزوین ، كان منهم من أعلن خضوعه للشاه عباس ومنهم من تحالف معه ، ولم يخرج امام قلى بدوره الى الحرب الا في واقعة واحدة حارب فيها المغيرين من القزاق والقلموق ، عند شمال تركستان ، نفصل أمرها لصورة من الحيلة والمداهنة عرضت فيها . فقد زحف جوع من هؤلاء البدو ينهبون كل ما يصادفهم في طريقهم ويسعلون النار فيه حتى بلغوا سمرقند ، فخرج اليهم عندئذ امام قلى فشتت شملهم وعهد الى ابنه اسكندر بحكومة بلد الحدود طشقند ، وقد

(١) يتحدث صاحب روضة الصفا عن شاطئ نهر (رود) كان يرابط عنده الجيش الفارسى ، ولا يشير الى وقوع موقعة حاسمة كبيرة هناك . هذا كما نجد كذلك نفاوتا زمنيا كبيرا في ذلك ، اذ يقرر المؤرخون الفرس ان القتال بدأ في الحادى عشر من المحرم .

كان اها مشاركة فى حملة النهب هذه على مايدو ، حتى يضمن بذلك منع تكرار مثل هذا الحادث .

ولم يطل الحال بالأمير اسكندر حتى ثار عليه الأهليون وقتلوه .
وحين بلغ امام قلى هذا الخبر خرج من فوره الى طشقند وقد ملكه الحنق والسخط حتى أقسم بأنه لن يرجع عنهم حتى يبلغ دم العصاة المسفوك ركا به . ولم تسقط طشقند ، لمنعتها الا بعد حصار طويل ، فما ان استسلم حصنها حتى أنزل امام قلى بالأهلين مذبحة بشعة لم يبق العزاة فيها الا على الشيوخ والأطفال .
وحين رأى امام قلى أن الدماء لاتصل بعد الى رسغ فرسه عزم على ذبح الشيوخ والأطفال . هنالك نصدى العلماء لهذا الأمر فسدوا الى حيلة تبقى على حياة من بقى من الأهلين وتحقق للأمير ما أقسم على فعله ، فحفروا حفرة جسعوا فيها دماء القنلى ، حتى اذا نزل فيها الأمير بفرسه فوجد الدماء تصل الى ركا به هداً باله وأمر بايقاف المذبحة .

على أن امام قلى ، برغم تصرفه المشين هذا الذى يتنافى مع الخلق والدين والانسانية . يعد فى الوقت نفسه العاهل الوحيد ببلاد ما وراء النهر الذى استطاع أن يوفر لبلادته الثراء والرفاهية والسعادة بغير حروب يخوض غمارها أو فتوح يمشى فيها ، فضلا عن أنه كان قدوة يحتذى بها بين الأمراء المسلمين فى تسكه بقواعد الشرع . هذا كما أنتت الطرق والمسالك أمنا تاما مدة حكمه الطويل الذى امتد ثمانية وثلاثين عاما .
ويؤثر عنه أنه كان يمضى أغلب وقته فى مجالس الصلاح وحلقات الشعراء ، وغالبا ما كان يستبدل ثوب الأمير بخرقة الدرويش لينطلق عند ذلك ، وهو فى استخفافه هذا ، مع وزيره نظر ديوانبغى وعين الوصى أقرب أخصائه اليه ، فيجوس خلال المدينة ويقف على أحوال أهلها وما كان يجرى فيها . وكان من بين من قربهم اليه من علماء عصره على الخصوص الملايوسف قراباغى ، ومن الشعراء الملا ترابى والملا نخلى . ويقال انه كافا الملا نخلى ذات مرة على قصيدة نظمها بوزنها من الذهب . وقد ترك لنا هذا الأمير نفسه شعرا جيدا كثيرا من نظمه . ومما يروى عن مغامراته فى الليل وهو فى تنكره هذه القصة التالية : — كان أحد الملات الصغار فى احدى

المدارس قد كلف بحب فتاة جميلة ، وكان لابد أن يبرهن لها على حبه بأن
 يهدى إليها ثوبا جديدا حين آقبل أحد الأعياد ، ولكنه كان على فقر شديد
 وفيما هو يفكر في تدبير هذا الأمر ، وقد ركب الحزن والهجم ، تذكر أن
 « مال المشركين غنية للمسلمين » (١) . فاستقر رأيه حينئذ على أن
 يسقط على حانوت لجواهرى هندي ليلا فيحصل بذلك على المال الذي هو
 في أشد الحاجات إليه . وقرن الملا القول بالعمل ، فسار الى السوق
 يصحبه اثنان من ثقات خدمه واقتحم باب الحانوت وهو مضطرب اذ كان
 يعلم مدى تأمين الأمير للناس على أملاكهم . وقفل الملا الى العمل في
 يده سلة مليئة بالجواهر . وكان الهندي قد استيقظ على صوت اقتحام
 حانوته فانطلق في اثر اللصوص مستغيثا حتى أمسك بخناق الملا . وأقبل
 الشرطي بدوره كذلك ويده متعل . هنالك وثب الملا على الشرطي فأسقط
 السعلة من يده ، واختفى في الظلام وهو يصيح « تبالك يا نذر ديوانيكى ،
 ونبا لما دبرت من مزاح ثقيل » ، فاذا بصوت آخر يجيبه قائلا « لم أكن أنا
 الذى فعلت ذلك يا مولاي وانما هو عبد الوصى كرجى » . ولما كان من
 المعروف أن امام قلى جرى على أن يتعسس مستخفيا مع صاحبه هذين
 الاسيين ، فقد ظن الشرطي أنه بقدمه قد أفسد على الأمير مزاحه ، فانطلق
 هاربا ليلوى على شىء . ويسهل بصور ما حدث من بعد ذلك . فقد تقدم
 الهندي الى الأمير يشكو من تراخى الشرطي فى أداء واجبه . وحين استدعى
 هذا وقر فى نفسه بدوره أن الأمير لابد معاقبه لفرط اندفاعه بالأهمل .
 واتضححت المسألة كلها آخر الأمر حين طلب الأمير الى الملا أن يعيد المال
 المسروق الى صاحبه . ولم يكتف الأمير بالعفو عن السارق بل وصله
 كذلك بجائزة .

تخلف عن مؤرخى الاشرخانين فى عهد امام قلى كثير من الأفاضل
 والحكايات حين أعوزتهم الوقائع السياسية . ونعرض على القارىء قدرا
 من هذه الحكايات اذ تعطينا صورة واضحة عن العقلية التى كانت تسود
 آسيا الوسطى فى ذلك الوقت . ومن ذلك ما روى من المقارقات اللطيفة
 (١) بنص الشرع على أن نصاب أموال غير المسلمين الذين يدفعون
 الجزية والخراج .

عن العلاقات السياسية بين الدولة المغولية في الهند وخانية بخارى . فقد حدث أن بعث امام قلى ، بعد عودته من طشقند بسفارة الى جهانكير سلطان الهند تحمل اليه تهنئته الرسمية بمناسبة ارتقائه العرش . وعمد حفيد بابر هذا ، وهو الذى قد تم له اذ ذاك توحيد النصف الشمالى للهند كله تحت تاجه ، الى استقبال سفراء أخيه الأمير استقبالا وديا وراح بالطفهم ويداعبهم ، وكان جهانكير ، أى فاتح العالم ، غارقا اذ ذاك الى اذنيه فى حبه لزوجه الجميلة نورجهان (نور الدنيا) مستسلما اليها ، لا يشغله شاغل عنها ، فلم يتردد على ذلك أن يسأل السفراء عن أحوال زوجات امام قلى . فجاء سؤاله هذا ، بخروجه على التقاليد الاسلاميه المألوفة بمشابهة صفعة لسفراء امام قلى ، حتى انبرى واحد منهم فرد عليه بقوله « ان أميرنا قد تجرد من الدنيا وملذاتها فلم يشغل بها أبدا » . هنالك ابتسم جهانكير وقال لمحدثه « وأين هى الدنيا التى رآها أميرك فأثارت سخطه عليها الى هذه الدرجة » . وبلغ هذا الحديث امام قلى حين آب سفراؤه اليه فشعر بأن فى ذلك اهانة لحقت به . وحدث أن بعث من بعد ذلك جهانكير الى بخارى بطبيب اشتهر بحذقه الشديد ايشكر أميرها باسمه على تهنئته له . وكان من بين الهدايا التى حملها هذا السفير معه خيشة قرمزية اللون تزينها الحجارة الكريمة والماس حتى ايقان ان قيمتها كانت تقدر بدخل الهند كله اذ ذاك . على أن امام قلى لم يكن لبسهم . ما لحق به من اهانة فبال انتظار الرسول الهندى ستة أشهر دون أن يسبح له بمقابلته ، وكان يقول فى كل مرة لوزيره دوانبكي . حين كان يلبس غلمه فى هذا الأمر « ان أنا استقبلته وهداياى فأنى أحمل نفسى بذلك على أمر لا أرغب فيه ، وان أنا استقبلته ورفضت قبول هداياى فأكون بذلك قد خرجت على الرسم المألوف ، فالأصوب اذن أن لا أستقبله البتة » . على أن ديوانيكى ظل يلبح على سيده فى ذلك حتى قبل أن يلقى الرسول ، بعد هذا الانتظار الطويل ، أثناء خروجه للصبيد دون تدبير أو تجديد . هنالك عمد الطبيب الذكى الى اقامة خيمته فى المربق الأمير و بداخلها الهدايا الثمينة التى جلبها معه . حتى اذا ما بلغ امام قلى المكان سرف نظره الى ناحية أخرى وتظاهر بالانهماك فى الحديث مع أحد مراقبيه ، ليتوجه اليه

الطبيب عند ذلك ويقول له « يا قبله العالم ، هل لك الى أن تنظر الى هذه الناحية » (١) . فما كان من امام قلى عندئذ الا أن ألقى بنظرة خاطفة على هذا المعرض ثم التفت الى رحيم بروانجي وقال له « خذ ذلك كله لك فقد وهبتك اياه » . وعجب السفير من هذا التصرف ، غير أنه كان قد بقي عنده سيف ثمين ، فاستأذن في لقاء الأمير عند الغداة ليقدمه اليه . فلما دخل عليه قال له « لقد ترك أكبر من بعده سيفين مشهورين ، احتفظ السلطان بواحد منهما لنفسه ، وها هو ذا يبعث بالثاني اليك ، أى الى أخيه عنوانا على الصداقة » . ولم يستطع الأمير الأوزبكي حين ذلك أن يرفض الهدية . وحين حاول السفير أن يجرد السيف من غمده ففعل ذلك بمشقة ، أشار الأمير ، بهذه المناسبة ، من طرف خفى الى خطة جهانكير لفتح بدخشان وعدوله عن ذلك فيما بعد ، فاذا بالرسول يجب على ذلك في سرعة خاطر فيقول « اذا كان هذا السيف المهدى اليك لا يستل من غمده بسهولة فذلك لأنه سيف سلام ، فلو كان سيف حرب لقفز من غمده لوقته » . كذلك يذكر لنا التاريخ لقطة أخرى تدل على ما كان عليه هذا السفير من ذكاء خارق تمكن به فيما بعد من أن يكسب ود امام قلى حتى أكرم مثواه حين اذن له بالعودة الى بلاده . ففيا كان الشاعران بخلي وترابى يتنافسان في احدى المناسبات بقول الشعر يلاط أمير بخارى ، سئل ذلك الطبيب الفطن عن رأيه فيمن يفضلهما على أخيه ، فأجاب على ذلك قائلا « أيها الأمير ، ان النخل انما يخرج من التراب » وبهذا كتب الفوز للشاعر ترابى . وقد آب هذا السفير الى بلاده عام ١٠٣٦ (١٦٢٦) . ومات جهانكير بعد ذلك بعام واحد فخلفه ابنه شاهجان وكان تواقا للاستيلاء على بلخ فلما علم ان امام قلى خرج في جيش قوى للقائه ندم على تسرعه فى الخروج الى الحرب ، حتى ذهب يؤكد (٢) لدادخواه

(١) يخاطب الناس اليوم شاه فارس بلقب قبلة العالم . ويزيد على ذلك امرأ بخارى اذ ينادون بلقب قبلة العالمين .
 (٢) دادخواه ، معناه الذى ينشد الناس منه العدل ، أى القاضى . وكان هذا اللقب بلقب به أول الأمر نواب السلطان بآسيا الوسطى . وهو اليوم يستخدم فقط فى خوقند وتركستان الشرقية .

منصور ، وكان قد أوفده أمير بخارى ليحسم الأمر سلبا ، بأنه لم بدر بخلده أبدا أن يقدم على الحرب ، وكل ما فى الأمر أنه خرج للصيد على نطاق واسع .

هكذا أمكن لامام قلى أن يشيع السلام فى البلاد ، وكان جد حريص عليه . كما استطاع أن يحتفظ بعلاقات طيبة مع فارس -- وان عشيتها الاضطراب فترة قصيرة عقب موت الشاه عباس الأكبر . وذلك بجهود أخيه نظر محمد خان حاكم بلخ . ذلك أن هذا الأمير ، فضلا عما كان يربطه بولى خراسان من صلة القرى ، كان قد خطب ود ايران والشاه عباس وتبادل معه بعوث الصداقة ، كما سبى اليه عام ١٠٣١ (١٦٢١) رسوله باينده مبرز ومعه خسون فرسا من خيل التركسان فسن الهدايا الأخرى التى بعث بها اليه (١) .

أما قصة قرابة هذا الأمير للامام الرضا مهمى أنه حين استولى عبد المنعم على مدينة مشهد وأمر بذبح جميع سكانها تقدم اليه أبو طالب كبير أحفاد الامام الرضا فأمسك بلجام فرس دين محمد وهو يتجول فى المدينة وسأله أن يثقى على أسرته وينزل فى ضيافته . وقبل الأمير أن ينزل بدار الشيخ وفيها بنى بابته : هرة نانو بيكهم (٢) ، ومنها ولد نظر

(١) حدث هذا فى عهد الشاه سعى . اد ادى بعاله فى العنل الى ان عم الاضطراب مرو ، وكان نفوذ الفرس قد ضعف بدوره هناك . وبما ان امام قلى كان قد بعث بخمسة عشر الفا من جنده من بخارى كما سسر نظر محمد عشرين الفا من بلخ ففصدت هذه الجوش جميعا مرو بعودها . ابنه عبد العزيز . وحاصرت هذه القوات المدينة مدة طويلة حتى اذا ما أقبل عليها جيش للفرس كبير ، ارتد الأوربك عنها .

(٢) هذه السيدة ، التى روبا من كل خبر سجاها وابنيها من تلك الواقعة المشؤمة ، يبدو انها غادرت بخارى الى فارس عقب وفاد زوجها . ونعلم من بعد ذلك أنها تزوجت بأمر الشاه عباس من الزعيم القاجارى مهرباب خان فولدت له مرتضى قلى خان حاكم مشهد . وحاول مرتضى هذا أن ينقذ مشهد ابان حصار الأوزبك لها ولكنه سقط فى أيديهم فسير الى بخارى حيث استقبله امام قلى استقبالا أخويا ورد عليه حريته . ولا تزال الأسرة الحاكمة ببخارى ترعى حتى اليوم صلة القرى التى تربطهم بال قاجار ، وان كانت من ناحية البطون فحسب .

محمد فكان بذلك سيدا وعلويا في الوقت نفسه . ومع ما لمراقبة النسب هذه من أثر غير قليل في نفوس سكان آسيا المتسكنين بدينهم ، فانها لم تكن سببا في تعكير الصفاء والالفة بين الأخوين ، تلك الالفة التي تبدت في أحسن صورها في استقبال نظر محمد لأخيه امام قلى حين قدم اليه في بلخ على رأس جيشه ليدفع خطر غزو شاهجهان لبلاده ، اذ خرج نظر محمد للقاء أخيه فانتظره على مسيرة ميلين من المدينة وصحبه مع أبنائه الاثنى عشر سيرا على الأقدام حتى دخلها .

وبرغم الحاح أخيه عليه واحتجاجة بأنه لا يليق به كسيد يجله الناس أن يبضى هكذا على قدميه فان نظر محمد أصر على مر كان يريد بذلك أن يظهر ولاءه لأخيه بكافة الطرق .

وحين بلغ الركب بلخ حيث كان أعيان بلاد ما وراء النهر قد اكتمل عقدهم في انتظارهم ، تقدم نظر محمد الى أخيه بالهدايا « التسع » على الرسم المعتاد ، وكانوا ثمانية من الرقيق أعلن لأخيه أنه هو نفسه تاسعهم (١) .

وقضى امام قلى سبع سنين بيخارى ، بعد رجوعه اليها ، في سلام ووثام مقيم لم يعرف له أهل آسيا الوسطى له نظيرا الا أيام السلطان حسين ميرزا بيقرا بهراة .

ونزل به المرض عام ١٠٥٤ (١٦٤٠) فأعلن بشعور المسلم الورع أنه انسا يبغي أن يقضى ساعاته الأخيرة بجوار النبي (٢) صلى الله عليه وسلم . هنالك دعا اليه أخاه من بلخ وثاوله الصولجان واستبدل به عصا تنوكاً عليها وهو في طريقه الى الحج . حتى اذا ما حل يوم الجمعة وهو

(١) هذا الأسلوب في التادب بروج بين التورانيين منذ زمن موغل في القدم ، فلم يكن بدعا في ذلك أن نرى ابراهيم سلطان الكرج ينتهج نفس المنهج مع تيمور على ما رواه شرف الدين في سيرة الأعرج فاتح العالم .
(٢) لا يزال سكان آسيا الوسطى يرون أن من يموت مجاورا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - يرضى الله عنه ، وأن السعيد من يفوز بذلك .

بيخارى قرئت الخطبة بالمسجد الجامع في حضرته باسم نظر محمد خان لأول مرة ، فما ان سمعها المصلون حتى شجوا بالبكاء والعيول . وغادر امام قلى على اثر ذلك حاضرتة وبلاده وشعبه الذى احبه وعمل دواما على اسعاده ، فاتخذ طريقه الى مكة بطريق ايران .

وقد استقبله شاه فارس بحفاوة بالغة حين مر ببلاده ، ومات بالمدينة المنورة وهو في الثانية والستين من عمره . وكان من بين ما صنع من وجوه البر هناك تعميره لمنتزه عام وحمام لا يزالان يقومان هنالك حتى اليوم .

كان هذا الأمير الجليل لا يزال على قيد الحياة مشغلاً بالقيادة حين تهاوى بناء السلام الذى صرف مدة حكمه في تقوية دعائمه في بلاده ، وحلت محله الثورات والحروب ونسوب القتل بين الاخوة . فقد رقى نظر خان العرش عام ١٠٥٢ (١٦٤٢) ، ولكن سرعان ما اسبأن له أن قد خلف أخاه على بلاده دون أن يصيب من الاحترام القدر الذى كان له . كما لم يفلح في كسب ود رجاله برغم بذله الشديد لهم ، وقد كان على نراء بالغ حتى عد أغنى أمير في بيتى الشيبانيين والاسترخانيين على السواء .

وتقول الرواية ان كنوزه كانت تحتاج في حملها الى ستمائة فطار(١) من الابل . وكان في اصطبلاته ثمانية آلاف من رؤوس الخيل فضلا عن الأفراس الولودة الأصلية العديدة . كما كان عنده تسانية آلاف من النعاج تلد له خرافا ممتازة ، وأربعمائة صندوق مليئة بالأطلس الفاخر بلون البرتقال . ومع هذا كله لم يفده ثراؤه في تدعيم ملكه الا قليلا .

ولقد بدأ هو نفسه في تكبير صفوف السلام الذى كان يخيم على البلاد منذ زمن طويل بأن سير جيشا لغزو خوارزم بعد موت أميرها اسفنديارخان . وركن الى الثورة في الوقت نفسه بالنفس الشمالى من

(١) هى قطار كلمة تركية يستخدمها الفرس كذلك للدلالة على قطار من دواب الحمل ، ويكون بأسيا الوسطى من سته الى عشرة جمال تسير اثر بعضها .

البلاد من يدعى باقى يور ، حتى اذا ما سير نظر خان اليه ابنه عبد العزيز :
لم يكتف هذا الابن بانضمامه الى الشوار فحسب ، بل ورضى كذلك بان
ينادوا به مكان أبيه .

وبلغت هذه الأخبار نظر خان وهو فى فارسى ، كما علم بزحف ابنه
الى بخارى . وأدى بنظر خان ما صار عليه خصه الشاذ هذا من القوة
الى أن ركز كل جهوده فى الاحتفاظ بأراضيه التى تقع عند ذلك الشاذ
القريب لجيكون بكافة السبل . على انه ما لبث أن اضطر الى أن يشر
الى بلخ بعد أن حكم خمس سنوات بالكاد . وفيها استقبله أهلها
بالترحاب .

هنالك قسم ملكه على أولاده . ممن بقوا على إخلاصهم له منهم ،
فأعطى الغور الى خسرو سلطان ، وخص ابنه قاسم سلطان بسبحة
وتدخوى ، وأقام بهرام سلطان فى كلاب ، وسبحانقلى فى جهار سبوى ،
وهى مخاضة تعرف اليوم باسم خوجه سالو ، وجعل قتلق سالا ، على
قندز .

وكان عبد العزيز قد جلس فى ذلك الوقت على عرش بخارى ، فلم
يكتف بما ارتكبه فى حق أبيه حتى عمل على أن يشرك أقدار أخوته معه
فى عقوبته هذا ، اد كتب الى أبيه يعلن اليه توبته وندمه على ما بدر منه
وبسأله أن يصفح عنه (١) ويلتمس منه فى الوقت نفسه أن يسير اليه
بخارى أخاه قتلق سلطان ليوقفه على حقيقة المسألة .

واستجاب نظر محمد لرجاء ابنه ، فلم يكذب قتلق يستقر به المقام
فى بخارى حتى أخذ عبد العزيز يحرضه على الخروج على أبيه بدوره .
هنالك سير الى نظر خان ابنه الآخر سبجانقلى على أن يصير له لقب قلعة
خانى (أى قائد الحصن) ان هو نجح فى أن يعيد قتلق الى طاعته .

وامتنع قتلق فى حصن قندز اذ لم يكن عنده من الجند ما يستطيع
أن يخوض به غمار الحرب ، ولكن سبجانقلى ما زال يشدد الحصار عليه

(١) يحاول صاحب تاريخ مقيم خانى ان يحمل القراء على الاعتقاد
بان عبد العزيز انما استعرج الى بخارى وأرغم على اعلان خروجه على أبيه
حتى هدد بالقتل ان هو رفض ذلك .

حتى استسلم له وأمر بقتله ، اذ رأى فى ذلك أفضل طريقة لردّه الى صوابه . وحز هذا التصرف فى نفس أبيه بطبيعة الحال ، ولام ابنه على فعلته هذه اذ كان قد بعث به لينصح أخاه لا ليقتله . وحين توانى نظر خان فى منح ابنه سبحانه على اللقب الذى وعده به خرج هذا عليه بدوره . وضاق هذا الأمير التعس آخر الأمر بخروج أبنائه عليه وصراعه معهم مع قلة ثقته برجاله من الأوزبك فاستنجد فى ذلك بشاهجهان سلطان الهند ، ونسى أن ابن جهانكير الطموح هذا كان يرنو بأطماعه الى بلخ نفسها ، وانه بذلك سوف يقضى عليه بدلا من أن يأخذ بيده .

هذا هو الذى وقع بالفعل . فقد ظهر بالمليدان أورنكزيب ومراد بخشى ولدا شاهجهان ومعهما جيش قوى فهزما خسرو سلطان ، وكان قد تصدى لهما ، وبعثا به أسيرا الى الهند . ولم تتكشف لنظر خان نوايا حلفائه حتى بلغوا مشارف بلخ ، فأقلت بمشقة من بين أيدي رجاله أنفسهم من الأوزبك متخذين طريق شيورغان و مرو الى ايران ، وفى خاطره أن ملكها عباس الثانى ، أحد أحفاد عباس الأكبر ، لابد وأن يكرم وفادته .

ولم تخب ظنون نظر محمد خان ، فما ان علم الشاه عباس الثانى بأمره حتى بعث يدعوه الى حاضرتة أصفهان ، وقد طوى دعوته هذه له على ألف من الدوقيات الذهبية ليستعين بها فى رحلته ، كما أصدر أوامره كذلك بأن يستقبل استقبالا ملكيا حيث ينزل أو يمر ، وبعث بحرس الشرف فاستقبله على مسيرة اثني عشر ميلا من أصفهان . وخرج الشاه نفسه مصحوبا بكبار رجال دولته فانتظر ضيفه على مسيرة ساعتين من قسبة ملكه .

وعانقه عباس الثانى حين التقى به عناق الابن لأبيه (١) ، وأمر فاستبدلت دابته المنهكة بفرس أصيل ، واحتفلت المدينة باستقباله احتفالا

(١) يروى مؤرخو آسيا الوسطى أن الشاه عباس الثانى كان قد ننكر فى يباب جندي عادى وسار على قدميه مسافة طويلة ملازما لركاب نظره خار بكرىما لضيفه ، ولم يتعرف عليه نظر خان الا حين لفت البعض نظره اليه ، فتنزل اليه من فوره وعانقه .

بالغا و سطعت فيها الأنوار . واستضافه شاه فارس عامين ونصف العام ثم سيره من بعد ذلك الى وطنه ومعه جيش استطاع به أن يسترد بلخ . على أن ما كان قد أنزله جيش الهند من الخراب بهذه المدينة وما جرى بأرضها من الحروب بين عبد العزيز وهؤلاء الغاصبين ، كان قد قضى على كل معالم العيران في هذه الأرض حتى صار نظر محمد خان لايمشى هناك في الواقع الا على قتاد . وحلت المجاعة بدورها ببلخ حتى كان حبل الحصار من المسح يباع بألف روبية . وزاد من سوء الحال أن دهم المدينة عام ١٠٦٠ (١٦٥٠) شتاء بالغ القسوة لم تشهد له نظير من قبل . وفد عانى جيش الهند بدوره من هذا الزمهرير والأوزبك يطاردونه في انسحابه حتى نجدت أطراف ألوف من رجاله أثناء مسيرهم في ممرات الجبال .

ويروى صاحب تاريخ مقيم خاني أنه حين قصد الهند في العام التالي لذلك في بعثة (١) كان يشاهد أكديسا من العظام الآدمية على سبل طريقه بالجبال .

لم ينع هذا البلاء النوع الذي نزل بالبلاد من استئناف الحروب بين نظر خان وأولاده . ووقف أهل بلخ في صف أميرهم بضع سنين ، حتى اذا نهكهم هذا العراك المتصل اتصلوا بعبد العزيز أمير بخارى ، فسير بدوره أخاه سبجانقلي مع فرقة كبيرة من الجند لحرب أبيه . هنالك استقر قوار نظر خان على أن ينسحب من الميدان ويسبر الى المدينة المنورة فيقضى بها بقية عمره في سلام . وأراد أن يصلح ما بينه وبين أولاده قبل رحله ، ولكن سبجانقلي أنكر عليه هذه المشاعر الأبوية .

وهكذا خرج نظر خان كسير القواد فسار في طريقه الى الأراضى المقدسة حاجا . على أن الحظ لم يحالفه كما حالف أخاه من قبل ، فمات وهو في طريقه الى سنان ولم يسكن بلاد العرب الا جثمانا هامدا .

(١) كان يعرف مثل هذا السفبر باسم « وقايغ نكر » أي الذي يرى .
 - ضع امامه من الوقائع - بخلاف « وقايغ نويس » وهو الذي كان يقوم بتحرير الوقائع .

حين بلغ خبر موت نظر خان بلاد ما وراء النهر أعلن أولاده الحداد عليه ، ووزعوا الصدقات ، وأخذ المقرئون يرتلون القرآن ليل نهار لطلب الثواب والمغفرة له ، وكأن هذا الذى قضى كان فى الواقع أباً يعتزون به بالفعل وليس هو ذلك الخصم الذى ظلوا يناصبونه العداوة أمداً طويلاً .

ولم يخفف النزاع من أسرة نظر خان بموته ، فلم يكد زمن الحداد ينتهى على الرسم المعهود حتى خاف عبد العزيز أن ينتزع أخوه سبجانقلى أقليم بلغ منه ، فسير إليه أخاه قاسم محمد سلطان على رأس جيش عبر به جيحون . على أن سبجانقلى لم يكن ممن يتخلص منهم فى سر وسهولة ، كما لم يكن ذلك الأمير الشاعر قاسم محمد بدوره بالنند الكفء الذى يستطيع أن يضطلع بهذه المهمة التى عهد إليه بها ، فاضطر بعد صراع طويل لم يغنه شيئاً إلى أن رتد إلى حصار ، ليعقد الصلح من بعد ذلك مع سبجانقلى ، وفيه اعترف له بحقه فى الوراثة . وجرت رسائل المودة ترى من بعد ذلك بين الأخوين ، حتى قدم ذات يوم فريق كبير من شيعة سبجانقلى إلى قاسم محمد فانفرد أفراد به فى إحدى الغرف بدعوى عرض رسالة سرية من أخيه عليه وقتلوه .

ويقول مؤرخو الاشرخانيين انه بموت قاسم محمد فقد هذا البيت المالك أكمل أمراءه قبل الأوان . وقد خلف هذا الأمير ديواناً يحوى أكثر من ألف بيت من الشعر بالفارسية والتركية ، كما كان مبرزاً فى النثر كذلك .

وما ان تخلص سبجانقلى من هذا الخصم الخطير حتى أنشأ مع أخيه عبد العزيز علاقات مودة بلغت إلى أن عاونه فى حربه مع خوارزم . وكانت الأجزاء القريبة من بخارى قد تعرضت أبان تلك الفترة لخطر شديد على أيدي الأوزبك الذين كانوا ينزلون على طول مجرى جيحون الأدنى .

فى ذلك الوقت كان يحكم خوارزم أبو الغازى بهادر خان ، وهو الذى يذكرنا ، بمغامراته المتنوعة ، بما كان من أمر بابر . وله تدين خيومه باستقلالها عن بخارى ، كما تدين له الدنيا بمؤلفه « أنساب الأمراء » .

فلقد دفعته كراهيته البالغة لحكام بلاد ما وراء النهر ، ولعبد الله خان على الخصوص ، وهو الذى اشتط في اضطهاد أجداده ، الى أن وضع نصب عينيه منذ شبابه القضاء على كل الحكام الأجانب في بلاده . واليه وحده يرجع الفضل في اجلاء البخاريين عن حوض جيحون الأدنى . ويقال ان أمره أول ما ظهر كان في عام ١٠٥٤ (١٦٤٦) حين نصب نفسه أميراً على خيوه وذلك على اثر استدعاء قاسم محمد سلطان من هناك .

وأول حرب خاض غمارها كانت مع التركمان بداخل خوارزم أو مع جموع العيارين من القلموق . ولم يفكر في الهجوم على بخارى حتى سأل سبجانقلی أن يعاونه في حربه مع أخيه عبد العزيز خان .

ولئن كان الصلح سرعان ما تم في الواقع بين الأخوين الا أن أبا الغازي ، وكان ينزل اذ ذاك عند كوكير تليك (١) من أعمال بخارى ، لم ير عند ذلك أن يعدل عن تنفيذ خطته للانتقام الذى ظلّ يعتصم في نفسه طويلا ، فانطلق ينتهب كافة الأراضي حتى قراقول ، فلم يجلب عنها الا بعد أن دمرتها النيران . هنالك هاجمه عبد العزيز في جيش قوامه ستون ألفا من الجند استطاع به أن يفصله عن قواته ويحيط به هو نفسه في عدد كبير من جنده حتى كاد يقضى عليه لولا ما أبداه ابن له ، يدعى أنوشه خان وكان في الرابعة عشرة من عمره ، من شجاعة خارقة ضمنت له النجاة .

وانتهت هذه الحرب بهزيمة البخاريين هزيمة شديدة ، وجرح فيها عبد العزيز ، ولم تكتب له النجاة الا حين ألقى بنفسه في النهر فعبه سباحة ، في حين عاد أبو الغازي الى خيوه محملا بالأسرى والغنائم ولما بشف غليله بعد .

وتكررت غزواته من بعد ذلك حتى بلغ في احداها وردانزى ، وكان يخرب في كل مرة كل ما كان يصادفه في طريقه ، كما بلغ في غيرها

(١) وهو موضع على ساطيء جيحون الايمن ، وبعد حدا بين بخارى

أبواب بخارى . وظلت الدماء تراق بين هذين العاهلين فى حروب منصلة، وهما من أبناء دين واحد وجنس واحد ، فلم يعرف الرحمة أو الملاينة طريقها الى قلب أبى الغازى حتى بلغ الستين من عمره فصالح عبد العزيز ، وقد وافاه أجله على اثر ذلك عام ١٠٧٤ (١٦٦٣) .

ولطالما أتاحت الفرصة لقرائنا فلاحظوا فيما سبق أن صوت الانسانية لم يكن ليجد له سبيعا عند محاربى التتار الا أن يتقدم العسر بالواحد منهم .

وكذلك كان الحال فى هذه القضية التى بين أيدينا . فلم يلق أنوشه خان الجصور (١) ابن أبى الغازى وخليفته ، بالا فى كثير الى ما كان بين أبيه وعبد العزيز من صلح قائم ، وزحف الى بخارى عام ١٠٧٦ (١٦٦٥) فبلغ مقام خوجه جويبار وأباح هذا المكان المقدس لجنده . وحدث أن كان عبد العزيز اذ ذاك فى كرمينه فنهض من فوره فبلغ بوابة المدينة منتصف الليل وكان بأيدي الخوارزميين . وتسكن ، فى أربعين من خلصائه ، من أن يزيح الحرس عن طريقه ويشق طريقه عنوة الى القلعة-، ومنها أصدر نداءه يحرض فيه الأهلين على قتل جُند خيوه فى الليلة نفسها .

هنالك انبرى كل فادر على حمل السلاح ، سواء من الأوزبك أو التاجيك أو الرايا (Rayas) أو حتى من التجار الغرباء ، فسقطوا جميعا على العدو وباغتوه وهو مستلق بالليل ، وحلت به مذبحة بشعة لم ينج منها الا قسم صغير من جيش أنوشه استطاع الفرار الى خيوه . وقد منعت هذه الكارثة الخوارزميين أمدا طويلا من أن يتعرضوا لبخارى بالسوء .

كان عبد العزيز بدوره قد أنهكتة حروبه المتواصلة مع أعدائه وضاق كذلك ذرعا بشئون دولته ، لما كان من أمر خصوماته مع اخوته، فعزم على أن ينهج نهج سلفيه ، فقر قراره على أن ينزل عن العرش

(١) ينسب صاحب تاريخ مقيم خانى هذه الواقعة الى أبى الغازى ، وهو خطأ ظاهر اذ كان أبو الغازى قد قضى قبل ذلك التاريخ .

لسبحانقلی ويخرج هو حاجا الى مكة . وحين دعى سبحانقلی للقدوم الى بخارى وتقلد الملك بعث بالأتالك امام قلی واليراونجی (١) تنكرييردى ليعلنا له ان أميرهما لا يقبل ما يعرض عليه حتى يغادر عبد العزيز نفسه العاصمة .

وتألم عبد العزيز من سلوك أخيه ، وينتھز البخاريون هذه الفرصة وبلحون على أميرهم في العدول عن رأيه . وحين رأى تنكرييردى مصالح أميره تنعرض للخطر ذهب الى عبد العزيز خان وقال له :

« فليأذن لي مولاي أن أقص عليه قصة حضرتني الآن ، ومفادها أن السلطان ابراهيم صاحب بلخ حين مر بنيسابور ، وهو في طريقه الى مكة ، قام بزيارة فريد الدين العطار (٢) ، أحكم أهل زمانه ، وبقي عنده حتى حان وقت العشاء . ولما كان هذا الشيخ الوقور فقيرا ، على ما هو معروف عنه ، فقد أخذ يدعو الله حين أقبل المساء فإذا بطبق واحد مليء بأطياب الطعام يهبط عليهما ، والناس في عجب ، فآكل منه وضيغه حتى شبعوا . ودعا السلطان الرجل الصالح بدوره اليه في الليلة التالية ، وسأل الله بدوره فهبطت عليهما عدة أطباق مليئة باللحم الشهى . وحين حضر العطار في ادراك سر هذه التفرقة في العطاء ، فسأل ربه كيف يصير له طبق واحد ويصير للسلطان أطباق . هنالك أجيب بأنكما أنتما الاثنان من عبادي ، وهذا ابراهيم قد ضحى بالتاج والعرش في سبيلي في حين لم تضح أنت الا بحانوتك » فجاء العطاء بذلك على قدر البذل .

وانتهى تنكرييردى من رواية قصته هذه ليقوله للأمير عند ذلك :

« وهكذا حالك يا مولاي ، وان الحج ليهون كل شيء في سبيل أدائه ، وثوابه يعدل ثواب غيره ألف مرة » .

(١) أي الحاجب (المترجم)

(٢) ولد فريد الدين العطار عام ٦١٣ (١٢١٦) ، وكتبه رانجبة في السرق الاسلامي ، وهي: منطق الطير وشدنامه ، أي كتاب النصائح ، وخواهر نامه ، أي كتاب الجواهر . ويقال انه عمر أكثر من مائة وأربعة عشر عاما ، وأنه كان قد هجر مهنة العطاراة ليتفرغ للعبادة .

وما ان أتم الرسول حديثه هذا حتى انهالت دموع عبد العزيز من مآقيه وبات أشد تصميمًا على ما اعتزم عليه من ذى قبل . وذهب يستعد لرحلته التي خرج فيها عام ١٠٩١ (١٦٨٠) ، وقد انضم الى ركبه فيها ثلاثة آلاف من القاصدين لبیت الله الحرام . ولقى يایران نفس الخفاوة التي لقيها سلفاه من قبل حين مرا بها ، واحتفى به الشاه سليمان بن الشاه عباس الثاني احتفاء يليق بالأمرء ، وأنزله في أصفهان بقصر جهل ستون الفخم . ووقع النوروز ابان وجوده بایران، وكان الناس يحتفلون به احتفالا عظيما .

هكذا أتيج للامير الأوزبكي أن يودع مباهج الدنيا ومفاتها بين حدائق أصفهان البهيجة ، والربيع يكسوها بحلله ، وفخامة البلاط الفارسي وعظمته . واتخذ من بعد ذلك طريق همدان وبغداد ، حتى اذا سار في الصحراء صادفته المتاعب ، اذ هاجمته عصاة كبيرة من قطاع الطرق من البدو . وطلب هؤلاء منه فدية مقدارها أربعة آلاف من الدوقيات ، وهددوه في ذلك بآبادة الركب كله . وآثر عبد العزيز أن يحقن الدماء وهو في رحلته المقدسة هذه فعرض عليهم نصف ما طلبوه منه . وحين أضروا على ما فرضوه عليه ، ثارت ثائثرته عند ذلك وصاح فيهم قائلاً : « لقد حكمت أربعين عاما فهل لى اليوم أن يملى على اللصوص ارادتهم ، فالى القتال يا قوم فان مت ففى سبيل الله » .

وحالف التوفيق الأمير الحاج فأتتصر على تلك العصاة وبلغ هدفه في سلام حيث وافاه أجله بعد قليل وهو في الرابعة والسبعين من عمره ، ودفن بالمدينة المنورة الى جوار أبيه وعمه .

كان عبد العزيز ضخم الجثة الى درجة غير عادية ، حتى ليقال انه كان أضخم رجل في زمنه . ويصرح أحد مؤرخيه في ذلك بأن حذاءه كان يتسع لطفل في الرابعة من عمره يجلس فيه . وقد حدث ذات مرة أن تجرأ أحد الشعراء فاتخذ من بدائنه مادة يتندر بها ، وحين سمع عبد العزيز بذلك بعث في طلب هذا المستهزئ ، فأدخل عليه وهو يرتعد خوفا على حياته ، ليخاطبه الأمير عند ذلك بقوله « أيها المثلأ ، بلغنى أنك نظمت

شعرا تسخر فيه منى ، فلا تفعل ذلك بغيرى والا فستندم على ذلك أشد الندم » . ثم وهبه عنرة آلاف دينار وخلع عليه ، ليجيبه الشاعر عند ذلك قائلاً : « كسم كنت أود يا مولاي لو مزقتنى عشرة آلاف قطعة بدلا من أن تخجلنى برحابة صدرك وكرمك » .

ولم يطق الشاعر بعد ذلك أن يعيش ببخارى وغادرها بالفعل الى الهند . ومع ما كان عليه عبد العزيز من العنف والقسوة تلقاء أبيه ، فلطالما تجلت رحابة صدره وكرمه فى مناسبات عديدة .

ولم يكن بدوره خلوا من الثقافة ، وقد نظم شعرا جيدا ، كما يقال عنه كذلك أنه نظم أثناء اقامته بالحجاز جملة من المدائح اللطيفة ، وكان على دراية تامة بمسند البخارى المشهور ، وكان العلماء يدخلون عليه دون استئذان ، كما كان الخطاطون يخطون عنده برعاية فائقة حتى أجرى المعاش على الخطاط المشهور مثلا حاجى لسبع سنين ، وكان قد عهد اليه بنسخ ديوان حافظ ، وكان هذا الفنان يكتب البيت الواحد فى يوم بأكمله . وحين أهدى عبد العزيز هذه النسخة الى الشاه عباس وهو فى رحلته ، سر بها العاهل الفارسى أكثر مما سر بكل الهدايا السنية والجواهر التى أهداها اليه أمير بلاد ما وراء النهر السابق .

وهذا الأمير الذى عرف بجسارته فى الحرب وبرباطة جأشه حين كان يواجه الأخطار ، كان يمضى أياما برمتها يتفرغ فيها الى العبادة بعيدا عن الدنيا ومشاغلا . ويرد الكثيرون ذلك الى مداومته التأمل والتفكير . فأمراء بخارى الذين كانوا يشاركون فى المعارك الدموية ويخاصمون آباءهم واخوتهم فى سبيل أغراض الدنيا وأطماعها ، كانوا يضطرون ، فى سبيل كسب رضى الناس ، الى الجلوس فى حلقات الزهاد يفكرون معهم فى عظمة الله ويرون أن الحياة الدنيا ان هى الا لغو وعبث .

الفصل السادس عشر سبحا تقي خان ونهاية الاشرخانين

١٠٩٩ (١٦٨٠) - ١١٥٠ (١٧٣٧)

بهذه الفترة التي نبدأ الحديث عنها يكون قد مضى ما يقرب من فرنين على سقوط التيموريين وبداية انهيار بلاد ما وراء النهر . فلا عجب إذن أن تبدو الصورة التي تنعكس عليها مجريات الحوادث السياسية في الامارات الصغيرة الواقعة على ضفاف جيحون ، ومعالمها يلفها الغبوض والوهن شيئا فشيئا ، وأن يحتل مكان الحوادث المهمة في تاريخها ما كان يجرى من فتن داخلية وخصومات بين الاخوة ومنازعات تافهة . فقد كان على سبحا تقي ، بعد أن استولى على معاليد الحكم ببخارى . أوائل المحرم من عام ١٠٩١ / ١٦٨٠ ، على اثر رحل أخيه الى الأراضى المقدسة ، أن يواجه نفس المصائب التي سببها هو نفسه لأخيه من قبل .

فكان عليه أن يخرج الى جيرانه المشاغبين في الغرب ، ويسير الى الخارجين عليه من رجال دولته بل ويحارب كذلك أبناءه أنفسهم . وكانت بلخ ، موضع تنازع الاشرخانين ، هي مصدر المناعب كالعادة .

ذلك أن سبحا تقي كان قد نصب ابنه اسكندر خان حاكما على ذلك المكان ، فلم يكذ ينصرم عامان حتى احتال أخوه ، أبو المنصور ، على دس السم له وجلس مكانه ، وكانت له شعبة قوية . ورفض سبحا تقي أن يقر ابنه الثائر هذا في ذلك المنصب ، وعهد ببلخ الى ابن أصغر له يدعى عبد الله ، ولم يكن ذلك ليتم بطبيعة الحال الا بقوة السلاح .

وتمكن أبو المنصور من أن يحتفظ لنفسه بحكومة بلخ لأربعة أشهر ، حتى إذا ما عمد إلى قتل أخيه عبد الله خوف منافسته له أخذ أشياعه يتصرفون عنه بفعلته هذه . وما لبثوا أن تأمروا عليه فسقطوا عليه وهو في زيارة لخالته وقتلوه .

وخلفه ابن ثالث لسبحانقلي يدعى صديق محمد خان وكان فاجرا كالأخيه المقتول . وبلغ من انتقامه من قتلة أخيه أن أمر بسلخهم أحياء ثم أخذ يتزع أطرافهم طرفا طرفا . وما لبث بدوره أن خرج على طاعة أبيه فلم يسارع إلى نجدة حين خرج أنوشه خان من خيوه وانطلق يخرب بلاد ما وراء النهر بالنار والحديد .

وبعد أن نجح سبحانقلي في وقف غارات عدوه مال إلى أن يصفح عن ابنه لولا ما عليه . لأسفه ، من أنه لم يتقاعس عن نجدة الابن لما كان يبينه من الخروج عليه . وحين عبر سبحانقلي جيحون ودعا ابنه للقائه . جهر هذا بالعصيان وامتنع في بلخ . ومع هذا فإن قلب الأب لم يطاوعه على الجنوح إلى العنف ، فبعث أول الأمر إلى ابنه برسالة عاتبه فيها على عقوبته له ووعد بالعفو عنه إن هو عاد إلى طاعته .

وأثرت هذه الخطة حتى قدم صديق محمد إلى أبيه مستغفرا . وسرعان ما وافى هذا الأمير أجله من بعد ذلك عام ١٠٩٦ (١٦٨٤) .

واقنع سبحانقلي في ذلك الوقت بخطر تقليد أبنائه المناصب المهمة في الدولة ، فعهد بحكومة بلخ إلى أمير مخلص من أتباعه يدعى خادم بي آتاليك (١) . وخلفه عليها عند موته عام ١١٠٩ (١٦٨٧) محمود بي آتاليك ، من قبيلة قنغرات ، وكان كفؤا فديرا . وبرهن هذا الحاكم على

(١) كلمة آتاليك هي بمعناها الحرفي من يقوم مقام الأب . وكانت علما على النبلاء الذين كانوا يعملون كمستشارين للأمراء عند التتار المفلول في الأزمان الخالية . ومن معانيها كذلك الحارس ، المربي ، المؤدب . وهي في الوقت الحاضر بمعنى الوزير . وكان عند الشيبانيين والاشترخانيين عديد من الأتالكة ، وهم حاشية الأمير . وعند خان خيوه الحالي عديد معين منهم . وبعد حكام بخارى وخوقند هذا اللقب من ألقاب التشريف .

حسن اختياره لهذا المنصب حين أحكم من قبضته على الأوزبك والترکمان الذين كانوا ينزلون بتلك النواحي . وعم الرخاء ببلخ في عهده حتى كان حمل الحصار من الغلال (قنطاران ونصف القنطار) يباع بأربعين تنغة ، أى بجنيه واحد (١) . أما الفواكه والمؤن الأخرى فكانت في متناول الأيدي بلا ثمن يدفع فيها .

ولا يقاس الولاة المخلصون من أمثال محمود بى فى عددهم بالزعماء الثائرين من قبائل الأوزبك العديدة ، أولئك الذين حين لم يجدوا أمامهم عدوا خارجيا يحاربونه دفعهم شغفهم بالصراع والقتال الى أن ينحاربوا معا داخل البلاد أو يشوروا على أميرهم . وأظهر هؤلاء كان بيات قره زعيم قبيلة بيات الأوزبكية . وكان قد تحصن فى اقليم حصار الجبلى واستمر على عصيانه سبع سنين متصلة . وخرج اليه محمود بى مرات عديدة ، وحين استعصى عليه ملجؤه فى حصن نايان القوى رأى من الأصوب أن يفاوضه . حتى اذا ما اشتدت الضائقة ببيات قره وعد خصمه بأن يخرج اليه ملتحفا بكفنه ، والقوس والسيف يتدليان حول عنقه ، دليلا على توبته وندمه . على أنه لم يلبث أن أخلف ما عاهد عليه ، اذ انتهز فرصة المهلة التى منحها محمود بى له فجمع فيها قوات جديدة عاود بها الحرب ، ونزلت الهزيمة بهذا الثائر ثمانى مرات ، حتى وقع قتيلا آخر الأمر فبعثت رأسه الى بخارى .

ولم تكن الحرب التى وقعت بين قبائل المك والفبجاق الأوزبكية دون سابقتها بساآثارته من المتاعب . وكانت منك تنزل عند ميسنة وأندخوى ، فى حين كان الفبجاق ينزلون الى جوار بلخ . وكان من أثر هذه الحروب الداخلية أن انتهزت خيوه ، جاره بخارى الغربية ، هذه الفرصة فانطلقت تغير على البلاد .

وكانت غارات أنوشه خان الجسور ، ابن أبى الغارى ، قد بلغت بخارى نفسها فى عهد عبد العزيز ، على ما رأينا فى الفصل السابق ،

(٢) على سعر القطع الحالى يستبدل الجنيه الاسترليني بأربع وعشرين نعما فى بخارى وبأربعين فى خبوه (فى سنة ١٨٧٣) .

وأدى به تهوره هذا الى أن نزل به هزيمة شديده . وعاد هذا الأمير الى حملاته التحريية من جديد بعد أن رقى سبحانه الى العرش . حتى ليند انه سقط على سمرقند عام ١٠٩٥ (١٦٨٣) .

ولم يلق أحد من أمراء سبحانه الى الابد الى سيدهم وهو في هذه المحنة الشديدة التي كانت نسيك بخناقه ، وأعزوا جميعا عن معاونته في دفع خطر الاورغنجيون (١) الذين كانوا ينشرون الدمار في البلاد كلها الا محمود بن الذي بقي على ولائه المعهود فيه له ، فوقف الى جانبه في حربه مع أنوشه خان وخاض معه معركة غجدوان ، ثم انطلق بعدها في اثر العدو بطارده حتى خوارزم . ولم تسع هذه الهزيمة أنوشه المغامر من أن يقدم في العام التالي على غزو بخارى ، وذلك حين كان سبحانه الى بيلخ ، وان باء بالفشل ، وسقط عليه فومه وهو في طريقه عائدا الى بلاده فقتلوه .

ورفع الأورغنجيون مكانه ابنه ابراق (٢) وأجلسوه على اللباد الأبيض . والغالب انه كسب أول الأمر محبة سبحانه الى وديده كالأب . ولكن هذا لم ينعه من أن يسير على نهج أبيه ، فغزا بخارى عدة مرات بلغ في احداها -- عام ١٠٩٨ (١٦٨٨) -- أبواب هذه المدينة حتى لم يعد هناك محال للسكون عنه .

فجمع محمود بن جيسا قوما هاجم به خوارزم نفسها وفضى به على جيش خصمه . وما غدا أن قدم الى معسكر القائد المنصر نمر من أعبان خوارزم فانضسوا اليه . وانتهى أمر ايرناق من بعد ذلك اذ قصى بالسهم ، وعادت خيوة من جديد الى حظيرة بخارى وان لم تسر هذه الحال أكثر من عامين .

فلت بخارى مناط احترام وتقدير حكام المسلمين من السنين حتى وهي تعيش وسط هذه المحن السياسية التي كانت تعاني منها

(١) أي الخويون .

(٢) بالكسر أو بالامالة في اوله ، وهو اسم توراني قديم . وكان على ملع علمنا يدعى به أحد أبناء أتبلا .

وبرغم مظاهر التفكك والانحيار التي كانت تبدو عليها واضحة جلية فقد غشى أبصار هؤلاء الأمراء ما كان لها من ماضٍ مجيد فلم يلتفتوا الى تفككها الذي صارت اليه في الحاضر ، حتى رأينا السفراء يفتدون الى بلاد سبجانتلي من ختن البعيدة ومن كاشغر وبلاد القرم ، بل ومن الهند نفسها كذلك .

فمن الهند بعث سلطانها الجليل أورنكزيب عام ١٠٩٦ (١٦٨٤) بأحد أمرائه ، ويدعى زبردست خان ، ومعه القيلة وغيرها من الهدايا الى بخارى ليكسب بذلك حاكم بلاد ما وراء النهر الى صفه في حربه مع الفرس الشيعيين . ذلك أن سلطان الهند الطموح كان يرى أن جنوح القبائل الأفغانية عند جبال سليمان الى الخروج عليه انما كان بتحريض الفرس . ولما كان لا يريد الاشتباك مباشرة في حرب مع الشاه سليمان ابن عباس الثاني شاه فارس اذ ذاك ، فقد ظن أنه يستطيع أن يحد من نشاطه حين يدفع الاوزبك الى غزو خراسان ، تلك الولاية التي كان الفرس يحرسون على تأمينها كل الحرص (١) .

كذلك بعث السلطان أحمد الثاني (٢) العثماني بدوره بسفرائه من القسطنطينية الى بخارى رداً على احدى السفارات التي كانت قد قدمت اليه في احدى المناسبات . وكانت هذه قد أوفدها سبجانتلي ، لا محمد بهادر كما يذكر المؤرخون العثمانيون ، وكان على رأسها من يدعى مصطفى جاويش . وقد عاد هذا السفير الى بلاد ما وراء النهر عام ١١٠٢ (١٦٩٠) ومعه وثيقة سياسية تعد مثالا صادقا لما كان يستخدمه رجال الباب العالي اذ ذاك في كتاباتهم من أساليب النفاق والبهتان يخدعون بها أنفسهم . فمع ما هو معروف من توالي الهزائم على السلطان أحمد

(١) لم تفع هذه الحرب لتوسط الأميرة جهان آرا (زينة الدنيا) ، وكانت على قدر وافر من الذكاء والبهاء حتى استطاعت أن تعيد الصفاء بين الأميرين .

(٢) رقى أحمد الثاني العرش في ١٤ يولييه عام ١٦٩١ وتوفي في ٦ فبراير سنة ١٦٩٥ .

الثانى فى كل مكان ، بالمجر وبولندا وسوريا وعند شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، فان ذلك لم يمنعه من أن يكتب الى أخيه الأمير الذى يحكم عند جيحون عن الانتصارات الباهرة التى أحرزها على الكفار وأن يستحثه على المشاركة فى ذلك ، حتى ليغلب على الظن أن كتاب الباب العالى لم يكلفوا أنفسهم الا مشقة نقل بعض أخبار انتصارات محمد الفاتح أو سليم الثانى من كتاب « منشآت سلاطين » (١) لفريدون بك ، ثم بعثوا بها من بعد ذلك الى سبجاقلى بعد أن نسبوها الى سلطانهم . وهذه الرسالة التى ترد فى كتاب « ناربخ مفيم خانى » فحواها نقلا عن الأصل العثماني هو كالآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم

الى من ورث عرش السلطنة مع الطالع السعيد ، ونشر بساط الأمن والطمانية ، ومن خصه الله بعنايته منذ عهد أسلافه ، فخر الدولة سبجاقلى ، نبعت اليه بمزيد لا حد له من التحيات والمحبة الدائمة ، وبفيض من تمنياتنا الطيبة وحبنا الخالص الأبدى . وما تحمله اليكم رسالتنا ، المفعمة بالمودة والمحبة ، هو أن كتابكم الشريف العطر ورسالتكم التى لحسها الصداقه ، وهى التى بعثتم بها إلينا حديثا ، قد جاءت فى أنسب الأوقات وأسعد اللحظات . وحين تليت على سمعنا الشريف ، وتكشف لنا أسرار مكنوناتها ، أظهر لنا بلاغتها على ما يطمئنا على سلامة شخصكم الموصوف بالاخلاص وعظيم الصفات ، وجلت لادراكنا العظيم مجريات الأحوال . ولا يخفى على عظيم ادراككم وثاقب عقلكم أننا منذ زمن أسلافنا ، طيب الله ثراهم ، ووقت آيينا ، ساكن الجنان ، حتى هذه الساعة ، قد اخترنا طريق الجهاد وطلبنا مشوبة الله بالعمل على

(١) أى رسائل السلاطين ، وهو كتاب نمين جمع فيه فريدون بك حاجب مراد الثالث ثمانية عشر ألف وثيقة وجدها فى محفوظات السلطنة العثمانية ، وقد طبع حديثا فى القسطنطينية بعد أن أضيف إليه وناثق جديدة .

اجتثاث شأفة الكفار من الفرنجة ، وأهل البدع المرتدين من القزلباش (١) من وجه الأرض •

ولما كان لكل شيء أوانه ، على ما يجري به المثل ، فقد رأينا أن نفرغ أولا من أمر الفرنجة الكفار فيستريح بالناس منهم ، ولتفت من بعد ذلك الى القزلباش المناكيد . أما هؤلاء الكفار المناكيد فبرغم أن ابادة جموعهم البغيضة ابادة تامة هو ضرب من المحال ، فقد دخلنا معهم مع ذلك في معارك طاحنة خرجنا منها بحمد الله منتصرين مظفرين ، وسقط منهم في الأسر كثير من أمرائهم ورؤسائهم وتشتت شمل من بقي منهم من بعد ذلك . على أن الشيطان سرعان ما وسوس الى أمراء الفرنجة من جديد فجمعوا جندا كثيرا خرجوا به من امارة أورخان «؟» فهاجموا به دولتنا المحمية وسطوا على متاع المسلمين . وحين اتند بغيهم خرجنا اليهم بدورنا وسقطنا عليهم . حتى اذا ما وجدوا أنهم لا طاقة لهم بحربنا بادروا بالعودة الى بلادهم والهلع يركبهم ، وبعثوا الينا بأشرافهم يعلنون توبتهم وخضوعهم ، وحلق العبودية في آذانهم ، فتقدموا على صراط الطاعة يكررون اعلان اخلاصهم وخضوعهم . وما لبثت عصابة أخرى من زعماء الفرنجة الأشداء أن ظهرت من بعد ذلك فشقت طريقها الى بلادنا معتمدة على جوعها الغفيرة . وأسرع اليهم عند ذلك فريق من جنودنا ، فما ان بلغ هؤلاء الأعداء الحدود حتى سقطوا عليهم فأسروا في هجمة واحدة عديدا من أعيانهم واستولوا على راياتهم وطبولهم العسكرية وأسلحتهم . ولم ينج من جوعهم هذه الا عدد قليل آب الى بلاده . هنالك انضم الجند الذي يعثنا به في هذه المهمة الى الفرق التي كانت ترابط عند الحدود وانطلقوا جميعا يطاردون الفرنجة في بلادهم ، فساقوهم الى القتل ونهبوا متاعهم ، فلم يفلت من أيديهم الا عدد

(١) وهم الفرس (المترجم)

قليل . وغنمنا بعون الله عددا من الحصون التى طارت شهرتها
فى الخافقين فضلا عن أكداس المتاع والأموال .

واذ استراح بالناس من ناحية المشركين فى هذه الجهات ، وبات
طلالنا السعيد يعلو نجمه كل يوم ، ونحن على حمد الله وشكره ،
فستقرب الى الله بأن نجعل هدفنا وغايتنا هو إبادة المشركين من
القرلياش ، لا يشغلنا عن ذلك أى شاغل أو يعوقنا دونه أى معوق .
وعلى هذا فسنسير جنودنا المظفر لقتالهم من فوره ، فنقتحم حصون
هؤلاء القوم بعون الله وبركة الرسول .

وسنكتب اليكم فى ذلك فور تخطينا الحدود . وأنتم
بوصفكم سلطان بلاد ما وراء النهر ، وحاضرتكم هى مثابة العلماء
والأعلام ، على ما هو معروف من قديم الزمان ، فالأموال ، كما
هو الحال ، أن تجردوا بدوركم سيفكم لاقامة حدود الشرع
وحماية الاسلام . فعليكم أن تجهزوا جيشا من الأوزبك فى بلادكم
فيشارك مع جندي المظفر فى القضاء على هؤلاء الذين اعتدوا على
حرمة الدين ، ويقتلع الأشواك والقتاد من وديان العراق العامرة .
ولا نريد بذلك أن نشق عليك بحال من الأحوال ، وإنما قصدنا
بكتابنا هذا اليك أن تتنزه هذه الفرصة فتشارك فى هذا الواجب
الدينى المقدس » .

وحين تلقى سبحانه على هذه الرسالة الطنانة المليئة بالمبالغة من سلطان
الروم — وهو اللقب الذى كان يشتهر به السلاطين فى أقصى المشرق —
لم يجب عليها بتسيير الجموع الحاشدة من الأوزبك عبر جيحون ، وهو
المسلم الغيور الذى كان يكن عميق الاحترام لأمر المؤمنين خليفة
الرسول ، وذلك لما كانت عليه بلاده من التفكك بطبيعة الحال ، فضلا
عن عدم ميله بطبيعته الى خوض غمار الحرب . وهو حين تعرض للنزاع
مع الثائرين عليه من أمرائه ، ذلك النزاع الذى استطاع أن يحد منه بعض
الشيء حين عهد بأمره الى محمود وفوضه فى ذلك تفويضا تاما ، فكان

جذبوا بسا وضعه فيه من ثقة ، فانه لم يقدم على مواجهة هذه الخطوب شخصه الا حين كان يضطر الى ذلك اضطرارا .

ولقد نصحه النصحاء أن يقضى على الحرب الأهلية في بلخ بتنصيب ابنه مقبم خان حاكما عليها ، فلم يقبل العمل بهذه النصيحة الا بالكاد ، اذ كان يحتج بأن انه لا يصلح لهذا المنصب ، ويرى انه بنفسه العلم والضج . وكان سبحانه على بدوره كلفا بدراسة العلوم ، ولم يكن يأنف حتى حين تقدم به السن من الجلوس الى كبار العلماء وتلقى العلم عنهم . وقد نظم ، بتخلص نسانى ، أشعارا لها أكثر من قيمتها كشعر سياسى عادى . وكان على تفوق في الطب بخاصة بين العلوم الدنيوية . وبين أيدينا دليل بين على ذلك في كتاب ألفه في هذا العلم ، وكان من حسن حظي أن حصلت في هراة على نسخة جميلة الخط منه .

ويقول هذا الأمير النبيل في مقدمة هذا الكتاب القصيرة « اعلم أن حكام الأطباء الذين مضوا قد خلفوا من ورائهم أسفارا قيمة بالعربية والفارسية . ولم يصل الى يدي كتاب بالتركية في هذا العلم . وعلى هذا فسب أنا الفقير اليه تعالى سيد محمد سبحانه على خان بن سيد نظر خان روح الله روحه بتصنيف هذا الكتاب ، وبينت فيه دواء كل داء لينفع به الناس » (١) .

ولا نجد كذلك لهذا الأمير نظيرا في حرصه على العناية بصحة سعيه . وقد تقدمت سبحانه على السن حتى بلغ الثمانين . وحين شعر بدنو اجله ، بعد مرض قصير ، جمع خاصته من حوله وأوصاهم بأن يرضخوا لمشيئة الله دون تكوى أو تدمير ، وأبدى أسفه اذ لم يتح له وداع ابنه العزيز مقبم خان ، وكان قد بايعه منذ زمن طويل وليا لهده . وبعد أن وصى باقامة أخيه الأكبر عبيد الله وصيا على العرش حتى يرشد مقبم خان فاروق الدنيا أوائل ربيع الآخر عام ١١١٤ (١٧٠٢) بعد أن حكم واحدا

(١) نقلت جزءا من هذا الكتاب في كتابي :

Tschagataische Sprachstudien :

ويعتمد فيه مؤلفه على الترجمة العربية لجالينوس وابراط ومؤلفات أخرى من سسنا ، وأغرب ما فيه هو ما وصفه من العلاج بالدعوات والتعاويد

وثلاثين عاما في بلخ وأربعة وعشرين عاما في بخارى ، فجملة ذلك كله خمسة وثلاثون عاما ، كان في بعضها خصما ثائرا قويا وفي البعض الآخر أميرا مستقلا .

كان اعتمادى على ما ورد عند صاحب « تاريخ مقيم خانى » ، وذلك في ايراد وصية سبغانقى بشأن ولاية العهد التى ذكرتها فيما سبق . ولا نستطيع أن نجزم بأن هذا هو الصحيح ، أو أن ذلك الكاتب انما أورد هذه القصة على هذه الصورة لصالح سيده . على أن الأمر الوحيد الثابت هو أن النزاع على العرش قد شب بين الأخوين وذلك على اثر موت أبيهما . واستمر لبضع سنين .

ذلك أن مقيم خان حين بلغه وهو ببلخ خبر وفاة أبيه أرسل الى أخيه أول الأمر برسالة عزاء ثم بعث اليه رسولا من بعد ذلك يهنئه بارتقائه العرش .

واذ كان عبيد الله يدرك تمام الادراك مدى مشاعر أخيه العدائية نحوه فقد عمد الى استقبال رسوله اليه ببرود ظاهر . وما غدت الحرب أن نشبت من بعد ذلك بين قسمى المملكة ، ما وراء النهر وما قبل النهر . وظاهر محمود بى الأمير مقيم فى حين ظاهر عبيد الله رحيم بى الأتاليك زعيم قبيلة المنغيتيين وكان القتال بين الفريقين فى الواقع صراعا بين القبيلتين الأوزبكيتين أكثر منه نزاعا بين مطالبين بالعرش . ذلك أن احترام الأسرة المالكة كان قد نزل الى الحضيض ، وصار الأمراء بعد موت سبغانقى مجرد دمي لا حول لهم ولا قوة بأيدي النبلاء من ذوى الأطماع . وتم لعبيد الله النصر آخر الأمر بعد صراع دام ما يقرب من خمس سنوات . وظل على العرش طالما وافق ذلك أغراض رحيم بى الأتاليك القوى . حتى اذ ما حاول عبيد الله أن يتخلص من شدة وطأة ظهيره هذا عليه عام ١١٣٠ (١٧١٧) (١) كشف أمره فقتل وأجلس مكانه أخوه أبو الفيض خان . وكان هذا الأمير على درجة شديدة من الخضوع والاستكانة ، وهى (١) اعتمدت فى ذلك على الرواية بالمسافهة التى سمعتها فى بخارى اذ لم تصل يدي الى مصادر تاريخية فى ذلك أستطيع ان أعتمد عليها . ومما يلفت النظر أنه ليس بين أيدينا مراجع وثيقة عن تاريخ بخارى الحديث .

صفات يعتذر عنها سكان آسيا الوسطى رياء بأنها ليست الا « وداعة النقى وصفة الدرويش » .

وبفضل هذه الصفات طالت مدة حكم هذا الأمير الاسمى بلا نزاع ، فظل يحمل التاج على مفرقه أربعين عاما كانت السلطة الفعلية فيها بأيدي رحيم بى ورجال قبيلته .

وكان الجانب الأدنى من جيحون ، وفعى به بدخشان وبلخ ، يحكسه فرع آخر من هذه الأسرة المالكة يتمثل فى شخص حفيد لآحدى بنات نظر محمد خان . وكان صالح خوجه رأس تلك الأسرة قد انغمس فى حرب دامية أيام سبحانهقلى مع مقيم خان ومحمود بى بسبب ولاية بلخ ، فلم يتم له توطيد أقدامه فى بلاده الا بعد أن انسحب محمود بى من الميدان . وكان هذا الأمير قد احتال فى نزاعه هذا باتتغال بعض صفات دينية معينة ادعاها لنفسه استطاع بها أن يكسب أهل بلخ لصفه أمدا طويلا . ولم يبق على بعض الولاء لبخارى فى هذا الجانب من جيحون الا أندخوى وميمنه مع تركمان لباب (١) أو ارساى تركمان . ولم يجد ولاؤهم هذا الا قليلا فى تأجيل تحلل هذه البلاد أو خرابها . ولم يكن الأمر ليحتاج الا لهبوب بعض الريح فتنهار بذلك رقعة بيت الأشرخانيين ، فسا بالك بتلك الريح العاصف التى هبت عليهم من ناحية ايران ممثلة فى شخص نادر شاه (٢) .

(١) تركمان لباب أو تركمان الشاطيء يعرفون بهذا الاسم منذ أن استقروا بهذه النواحي . اذ كانوا قد نزلوا عند الشاطيء الأيسر لجيحون من خوجه صالح حتى چهارجوى ، ويؤكد هؤلاء التركمان أنهم كانوا قد قدموا من منفشلاق .

(٢) على ما برويه ميرزا مهدي مؤرخ نادر الذى يعرف أيضا باسم نادر قلى ، فإن هذا الشاه الفارسى ينحدر من قراقلى إحدى بطون قبيلة افشار ، أو أوششار على الأصح ، واللفظ الأخير هو على ما ينطق به التركمان ، ومعناه : المؤلف . وكان الأوششار قد نزحوا من تركستان الى ايران ابان الاحتلال المغولى وسكنوا آذربيجان ، ثم هاجروا أيام الشاه اسماعيل الصفوى الى خراسان فنزلوا فى ياب كوبكن من أعمال أيبورد ، ونفع على مسيرة عشرين فرسخا الى الشمال الغربى من مشهد . وعند حافة السهوب هناك ولد نادر شاه يوم السبت السادس من المحرم عام ١١١٠ (١٦٩٨) .

لئن كان آخر غزاة العالم الآسيويين هذا لم يزحف بجيوشه المظفرة نحو الشرق الا بعد أن جلس بالفعل على العرش ، فما ذلك الا لما كانت عليه الأقاليم الواقعة الى الشرق من ايران من الضعف اذ ذاك حتى لم يكن خطرها عنده في المقام الأول . ولم يكن هذا الوصف يشمل بلاد ما وراء النهر فحسب ، بل ويصدق على الهند أيضا . ولقد حاز نادر انتصاراته الأولى ، التي أذاعت من شهرته ، في حروبه مع خصمه القوى في الغرب ، فلم يبدأ في توسيع رقعة بلاده في ناحية الشرق الا بعد أن تم له هزيمة العثمانيين في جورجيا والعراق العربي . وفيما كان يحاصر قندهار بعث بابنه رضا قلى مع فرقة قوية من الجند فسلك طريق بادغيس ومرجه - مروجان السابقة - ليعاقب على مردان أمر أندخوى على ماصدر منه من نزع وتهور . وقد وقع هذا كله عام ١١٢٩ (١٧٣٦) . والغالب أن بدو الترك عند أندخوى هم وتبائل فره وجلالير سارعوا بالانضمام الى الفرس الذين أغروهم على ذلك بالمال الكثير . ولم يكن الدفاع عن هذا المكان ليتم أبدا دون معونة هؤلاء البدو . وسرعان ما نسبت هزيمة على مردان وسيف هو نفسه أسيرا الى نادر شاه . ولقبت أقبحه وسبورغان نفس المصير الذى لقيته أندخوى من قبل ، فلم يقدم على الوفوف الجدى في وجه هذا العدو القوى الا بلخ حيث كان يحكم سيد أبو الحسن بن صالح خوجه سالف الذكر . وعمد المدافعون هناك الى حفر كثير من الخنادق العميقة في الطريق المؤدى الى « أم البلاد » (١) القديمة فلم يعوق ذلك رضا قلى في زحفه في شئ . وسرعان ما أرغمت مدفعيته القوية حصن المدينة على الاستسلام ، ولم يكن يحميه الا سور من الطين . واغتبط نادر شاه أشد الاغتباط حين سمع بسقوط بلخ ، وكافأ ابنه على ذلك بأن منحه اثني عشر ألف دوقية من الذهب ، وخلع عليه ثلاثمائة من الخلع الثمينة مع خيول مطهمة سروجها ولجمها مرصعة بالذهب والحجارة الكريمة .

(١) ان فى اطلاق العرب هذا الاسم على بلخ ما يدل على معرفتهم بماضها الحيد .

شعر رضا قلى من بعد ذلك بأن عليه أن يحقق أهدافا جديدة . فما أن انطلق بعض جنده يغيرون على الشاطيء الآخر ليجحون طلبا للنهب والسلب حتى عبر النهر بجيشه كله فهاجم أبا الفيض . على أن ابن نادر شاه الطموح هذا كان قد أخطأ في حسابه هذه المرة . ذلك أن أبا الفيض ، ذلك الصوفي الواهن ، كان قد استنجد بيولبرس (الأسد) خان أمير خيوة القوي الجسور فسار اليه بجيش من الأوزبك الأشداء قطع بهم الطريق على الفرس عند قارشى . ولئن كان الغزاة قد نجحوا في الواقع في الاستيلاء على قلعة چلدوق القريبة ، الا أن جيوش التتار المؤتلفة قد استطاعت أن تنزل بهم ضربة شديدة على كل حال . هنالك رأى نادر شاه أن يتفادى تعرض جنده لكارثة ، فاستدعى ابنه اليه فجأة ، وبعث في الوقت نفسه الى أمراء آسيا الوسطى والى زعماء الأوزبك بنهى اليهم أن هذه الحرب انما كان ابنه قد أقدم عليها دون علمه ، وأنه انما ينبغي أن يعيش معهم في مودة وسلام ، فلم يجر في خاطره أبدا أن يتعرض لأملاكهم التي ورثوها عن چنكيز خان وبيوت التركمان العظيمة .

وعلى ما يلاحظه مالكولم بحق ، في كتابه عن تاريخ الفرس ، أن الجلى أن سلوك نادر هذا كان من وحي فطنته التي حببت اليه أن يعمل على تحقيق أطماعه في اعتدال ، فلا يحمل ذلك بحال ما على محمل غيرته مما وصل اليه ابنه من أمجاد . وبرغم ما كان عليه حاكم بخارى من الضعف ، فإن الأوزبك كانوا يكفيلين بتعويق عمليات نادر الحربية في الجنوب لو أنهم كانوا قد قاموا جميعا مؤتلفين بعمل مشترك ، وهو ما كان الشاه الفارسي يحرص بدوره كل الحرص على عدم وقوعه . وقد نجح بهذا الطريق الودى الذى ادعاه في فض التحالف بين بخارى وخبوه . وحين تقدم يولبرس ، في غياب نادر شاه ، فأغار على خراسان وسبب لأمبرها رضا قلى بذلك كثيرا من المتاعب ، وقف الأوزبك في بخارى ، وعلى رأسهم رحيم بى أتاليك ، الى صف الفرس بما بذله نادر شاه اليهم من الأموال والوعود الفارسية . ويسر من انضمام هؤلاء الى جانب الفرس ما استبان لهم من أن قباء التفاهم بينهم وبين خيوة لا يؤدى الى تقوية الاشتراخانيين بقدر ماسوف يؤدى الى احباط أطماع قبيلة المنغيتيين على

وجه اليقين . ولا ندرى شيئا من تفصيل أمر الشقاق بين هاتين الخانيتين . ومبلغ علمنا هو أن نادر شاه حين آب من حربه المظفرة بالهند وجد أن رحيم بي قد مهد له الطريق ، فلم يعبر جيحون دون أن يطلق قذيفة واحدة فحسب ، بل لقد وجد القوم كذلك يستقبلونه بمراسم الاحترام والاحلال . فقدم اليه حكام حصار وقارشى عند كرخى فأعربوا عن ولائهم له . وأعد له قارب ، قام مهرة العمال البخاريين على نفسه بالميناء خصيصا ، فعبر به ذلك النهر الذي كان يفصل في القديم بين توران وايران .

واذ كنا لانعرف من تفصيل حروب العاهل الساساني فيروز فيما وراء جيحون الا مما يلقيه علينا القصص الشعرى من بعض الأضواء ، فعلى هذا يمكننا أن نعد « نادر » أول ملك فارسي يلبس تاج الكيانيين ويحكم كملك شاطئي ذلك النهر الغربي الحربيين (١) ، على حد قول الرودكي . وأقام نادر مضاربه على مسيرة أربعة أميال من بخارى ، وجلس في سرادقه الفخم في انتظار أبي الفيض . ليفدم اليه ويعلن خضوعا له . وكان رحيم بي أتاليك قد بثث به الى بخارى ليحمل أميرها آخر الأشرخانيين ، على القدوم الى شاه فارس . ولم يصادف رحيم بي مشقة فيما ندب له ، فقد وجد الجنكيزي ، ذا الدم النقي ، كما كان يحلو للأشرخانيين أن يقولوا عن أنفسهم ، وهو بجلوس وسط خلصائه وقد استغرقوا جميعا في التأمل في أحوال الدنيا الفانية . وهكذا قدم أبو الفيض في فرقة من الشيوخ الى المعسكر الفارسي في التاسع عشر من جمادى الآخرة عام ١١٥٣ (سبتمبر سنة ١٧٤٠) ونزل في السرادق الذي كان قد أعد له ولحرسه . وتقدم بولائه في اليوم التالي الى نادر شاه ، فأهداه الشاه الفارسي بهذه المناسبة منطقة مرصعة بالحجارة الكريمة وفرسا عربية سرجها مذهب وعدة هدايا أخرى . وعامل نادر شاه أبا الفيض

(١) يشير الرودكي الى ذلك في شعره حيث يقول :
 ريك دريا آمو ودرشتيهای او زیر پايم برنيان آيدهمى
 أى أن رمال شاطيء جيحون وحصاه تحت قدمي وكأنها الحرير .
 والرودكي هو أول شاعر في الفارسية الإسلامية يتفنى بمدح بخارى .
 (چهار مقاله الترجمة العربية لعزام والخشاب)

كملك أخ ، ولكنه طلب اليه فى الوقت نفسه أن يتنازل له عن كل مناطق شاطيء جيحون القريب وأن يمدد بفرق من الأوزبك والتركمان . ووثق الطرفان ما بينهما من تحالف يربط بين الأفشار مع عرق الچنكيزيين العريق برباط المصاهرة .

وبعد أن بنى أحد أبناء اخوة نادر بآبنة الأمير الورع انطلق شاه فارس فزحف الى خوارزم ليصفى حسابه مع يولبرس ، وهو الذى بات فى الميدان وحيدا . ونجح نادر فى حملته هذه لبلتقى به من بعد ذلك أمير بخارى عند جهازرجوى ، وهو فى طريق عودته ، فبوكد له من - - - رلاءه له وخضوعه . ودخل نادر مدينة مشهد دخول الظافر فأهدى الى مقام الامام على الرضا ، ولى ايران ، قفلا من الذهب المحلى بالجواهر كان قد غنمه من التورانين . وهذه الهدية هى أثمن حلية تزين السور القضى المقام حول ضريح حفيد على العظيم (١) . وحين انضم هؤلاء التورانيون الى الجيش الفارسى صارت فرقته المخوفة ، ومعها الأفغان ، مصدر رعب مفيم للفرس الشيعيين .

ان ما حققه نادر شاه من مكاسب بحملته عبر جيحون ، سرعان ماضاع عقب موت هذا الفاتح البطل وذلك بمجرد أن هدا الغبار الذى أثاره وقع حوافر خيول فرسانه . على أن كسره لسوكة الاشتراخانيين فد عاد على هذه الأسرة بعواقب وخيمة . فقد هان شأن أبى الفيض خان حتى صار مجرد آلة بأيدي وزيره الطسوح ، فخلعه آخر الأمر وقتله عام ١١٥٠ (١٧٣٧) . ولاقى ابنه من بعده نفس مصيره ، وكان قد تزوج ابنة لرحيم بى . ومع مايقال من أن ثمة أميرا ثالثا من الاشتراخانيين قد رفع سوريا على العرش ، فان أبا الفيض ، أصغر أبناء سبحاتقلى ، هو الذى يعد فى

(١) فقد قسم كبير من هذه الجواهر النميية فى حرب أحمد شاه الأفغانى . وبرغم أن « مشهد » نركت لشاهر ميرزا بن نادر فان الأفغان قاموا بنخريبتها تخريبا شديدا . هذا كما استعان الثائر سالار بقسم آخر من كنوز الامام الرضا ، وذلك فى حربه مع شاه فارس الحالى . وقع مثل ذلك بكثير من أضرحة الأولاء . وهكذا نردان قور الأولياء بكل ما هو ميم لينزعها من بعد ذلك رجال من ذوى الطمرح يستعينون بها فى القتل والحرب .

الحقبة آخر حكام هذه الأسرة . ذلك أنه أبان حكمه ، الذى طال ما يقرب من خمسين عاما ، أخذت تخبو آخر ومضات العظمة السياسية والأهمية الاجتماعية ، التى كان يتفوق بها هذا الاقليم الصغير ، الواقع على جيحون ، على كثير من شعوب آسيا الاسلامية فيما مضى .

ولا نجد ما تحدث به عن الحضارة فى تلك الفترة بعد ذلك الذى ذكرناه عنها فيما سبق . ففى هذه الحقبة كانت الدولة العثمانية وفارس والهند تزدهر فيها جميعا حضارة اسلامية قوية ممتازة . وكانت القصور السلطانية فى القسطنطينية وأصفهان ولاهور قد غدت تنصل بالغرب بواسطة من كان يفصدها من الأوربيين فى ثياب السراء أو التجار أو الميشرين . فى حين بقيت بلاد ما وراء الهر فى عزلة عن العالم ، يبدوها الأجلاف الذين تولوا الأمر فيها ، وبسهولة المقفرة ، مسكة سكا شديدا بعقلية القرون الماضية ، حربسة على ذلك كل الحرص ، حتى جهدت فى أن تبز السلف الصالح فبسا كانوا عليه من الاسسساك بقواعد الشرع . وعلى ما لاحظنا من قبل ، فقد كان العلم ، كما يفهمه الناس على شواطئ زرفشان ، هو تفسير القرآن والفقه فحسب . ومثال الكمال عندهم كان فى حياة الصوفى التى يقضيها يسخر من تكالب الناس على الحياة ، وهو يرى أن الدنيا وما فيها لا تساوى شيئا . ولو أن رجالا فى بخارى كانوا قد عرفوا كيف يربطون بين نوازع المعرفة والعلم النبيلة وبين الاستمسالك المكين بسنن الاسلام ، على ما كان عليه الحال فى الماضى بقرطبة ودمشق وبغداد ، فلربما كان قد أمكن لهم بذلك أن يحتفظوا ببعض آثار الثقافة الاسلامية القديمة حتى فى أسوأ أوقات الانحلال والضعف . وكان ما منعهم عن تحقيق ذلك هو كلفهم بالمحروب مع غلظة الترك من جهة ، وموقع بلاد جيحون المنعزل من جهة أخرى . وعلى هذا فلم يكن للأمرأ على ضفاف زرفشان من مظاهر النشاط ومن الأمجاد التى كانت تسود بلاط أمرأ المسلمين ، من أمثال هارون الرشيد وعبد الرحمن الثانى ، الا حرصهم على المظاهر الدينية . ولقد وهم أمرأ بخارى أنهم انما يضطلعون بواجباتهم على الوجه الأكمل حين لا يتقاعس المؤمنون عن أداء

الفروض ، ويسيرون فى كل فعالهم على ما كان يجرى عليه الحال (وقت سعاد) ، أى فى عصر الاسلام الذهبى الأول .

ولم يظهر عند الاشرخانين الأول من الشعراء والكتاب الا قليل ، وكان هؤلاء ممن يشتغلون بالتأريخ بحروف الجمل من بقايا شعراء الشيبانيين . وكان من بين الاشرخانين أنفسهم من أظهر كفاية مشهودة فى الحكم وكلفا حقاً بالثقافة . ومن هؤلاء امام قلى والأمير قاسم محمد سلطان ، ثم النبيل سبهاقلى بخاصة . وما أبداه أولهم من اهتمام بالغ بالزراعة لاتزال آثاره تلمس حتى اليوم فى قنوات الرى المهمة التى تحمل اسمه . كما ترك قاسم محمد بدوره ديواناً مشهوراً يشهد بما كان له من ملكات شعرية . ولا أدل على شغف سبهاقلى بالعلم من كتابه فى الطب الذى أشرنا اليه من قبل . ولم تكن جهود هؤلاء بطبيعة الحال لتغير الا قليلاً من عقلية الناس الهمجية وضيق أفقهم . وما فعله هؤلاء الأمراء الثلاثة ، الواحد بعد الآخر ، حين استبدل كل واحد منهم الصولجان بعصاة الحاج وعجر عرشه المتلألئ ليقضى بقية حياته فى المدينة الى جوار قبر الرسول ، لا نجد له تسبيحاً فى التاريخ الاسلامى . وهو فى حد ذاته دليل كاف على أن الزهد والمبالغة فى الورع والتقوى كانا الظاهرة السائدة هناك فى ذلك الوقت .

على أن العناية بدراسة علوم الدين كانت ضئيلة بالقياس الى ذلك كله ، فلم تنشأ الا بضع مدارس ومساجد بنيت أيام الاشرخانين وكانت دون ما أقامه من سبقوهم ، وذلك بسبب الاضطراب الاقتصادى الشديد الذى كان يسود البلاد . وعلى ما رواه سيد راقم كانت بخارى وسمرقند عام ١٠٣٠ (١٦٢١) تزخر بالمنشآت الفخمة التى كانت قد أقيمت فى قرن سابق لذلك الوقت ، وكانت يد الخراب قد بدأت تمتد اليها لاهمال شأنها . أما منشآت الاشرخانين أنفسهم فكانت مدرسة يلكتوش التى بنيت عام ١٠٢٠ (١٦١١) فى مواجهة خرائب مدرسة ألغ بك ، ومسجداً ومدرسة بخارى أقامها الثرى نظر دبوانيكى عام ١٠٢٩ (١٦٢٠) ثم

أيوأنين (كورونوش خانه) كان قد أقامهما باقى محمد خان فى بخارى
وفى سمرقند عام ١٠١٤ (١٦٠٥) .

وأما فى خارج بلاد ما وراء النهر فقد كانت بلخ هى المدينة التى
كثيرا ما تردد ذكرها بسبب الاصلاحات اليسيرة التى قام بها حكامها فى
مقام على المزعوم ، وكان مؤرخو ذلك العهد يهللون لها على الدوام .
وكانت الآداب قد وصلت بدورها فى هذه الفترة الى درجة بالغة من
الانحطاط . ومع ماكانت عليه دراسة التصوف وعلم الكلام من الرواج
فاننا لانجد من بين دارسيها من برز فى علمه ، فلا يسلك بين مشاهير
الرجال منهم الاقله من المشتغلين بالتصوف ومؤرخى الجمل تجاوزا .

الفصل السابع عشر

بيت المنغيتيين والإمير معصوم

١١٩٩ (١٧٨٤) - ١٢٤٢ (١٨٢٦)

في الوقت الذي أخذت فيه معلوماتنا عن أحوال الأقاليم الآسيوية ابان القرن الماضي تزداد وتكمل ، لبش بلاد ما وراء النهر والحال فيها على النقيض من ذلك . فكلما كان يقترب تاريخها من عصرنا الحالي ، كلما كانت تزداد كثافة الغموض التي تلف الأحوال السيئة التي كانت تمر بها تلك البلاد . واذا كان تاريخ مايجاورها من دول لايدلنا على شيء بوثق به عنها ، واذا كان الرحالة الأوربيون (١) لم يجروا على النفاذ الى هذا البلد الذي كان ينحدر الى هوة الهمجية ، فلا حيلة لنا تلقاء ذلك كله الا أن نقنع (٢) في ذلك باللمحات الخافتة التي نصل اليها عن طريق تلك الومضات القليلة التي تنير لنا الطريق هنا وهناك . وقد زادت كثافة هذه الظلمة التي تلف ذلك المكان في تلك الفترة التي قضى فيها على أسرة

(١) زار الرحالة الأوربيون في العصر الحديث بخارى فقط وذلك اوائل هذا القرن . وقد اقام الاخوة بولو ثلاث سنوات هناك من قبل في عهد براق خان ١٢٦٤ - ١٢٧٤ . هذا كما زار بخارى عام ١٥٥٨ - ٥٩ جنكيسون الذي ساح بأسا الوسطى مع الاخوة جوسون ، كداعية لسيح المصانع الروسية .

(٢) علمت عن طريق صلتى بسير هنري راولنسون أن بمكنبة حكمه شرق الهند والمتحف البريطاني عدة مخطوطات تتناول تاريخ بخارى المتأخر ، وهي لسوء الحظ لا تعار خارج تلك الدور . ولما كانت ظروف الحالبه لا تسمح لي بالرجيل الى هناك ، فاني آمل أن أفيد منها مستقبلا اذا ما كان فيها هو حقيقة جديد غير معروف .

الأشترخانيين وأمسكت أسرة المنغيتيين (١) من بعدهم بزمام الأمور .
ولئن كان هذا الحادث مما يسهل تحليله إلا أن الغموض ما يزال مكتنف
تفصيله .

ولئن كان هؤلاء المنغيتيون ، وهم الذين اختاروا بلاد ما وراء النهر
مقاما لهم من بين أسر الأوزبك العديدة ، هم الذين قضوا على بيت
الأشترخانيين المتداعى ، فلم يكن صنيعهم هذا بمحض الصدفة بقدر
ما كان نتيجة للمكاسب التي حصلوا عليها منذ أول ظهورهم بآسيا
الوسطى .

وكانت قوتهم قد أخذت تتزايد منذ أن أخرجهم چنكيز خان من
موطنهم الأول بالغابات عند منغوليا الشمالية الشرقية وأسكنهم شواطئ
جيجون . وكانت منازلهم الجديدة هذه بأقليم الغابات على الشاطئ
الأيسر لجيجون حيث يقطن الآن قرقلباق خيوه . وفي ذلك المكان أسدوا
خدمات طيبة لأمرأى خانية خيوه . وكانوا يشتهرون بشجاعتهم ونبل
محمدهم بين قبائل الترك بعد القنقرات . وعلى هذا فقد استخدم شييانى
فرقتا منهم . وكانوا هم أولئك الذين استقروا من بعد ذلك بحانية بخارى
في منطقة السهوب جوار قارشى .

وكان لهؤلاء على الدوام نفوذ ملحوظ ببلاد بخارى ، لا لما كانوا
علبه من جسارة وتهور في الحرب فحسب ، بل ولاخلاصهم للأسرة المالكة
كذلك . وكان باي قبيلة المنغيت (الزعيم الأتريب) من أخلص أتباع
الأمير الحاكم ، مابقي الأمراء الأشترخانيون على قوة يمارسون سلطانهم
الحقيقى . حتى رأينا رجم بى أيام أبى الفيض يعدل عن ذلك ويتوسل
بمنصب الوزارة الذى تقلده الى اغتصاب سلطة الأمير نفسه ، فلا يقضى

(١) يؤكد أبو العازى فى كتابه عن أنساب الترك (ص ٢٧ طبعة قازان)
أن المنغيتيين عرفوا بهذا الاسم اذ كانوا يعيشون فى غابة كثيفة أبام كانوا
تحت سلطان چنكيز خان . ولا أستطيع أن أفهم كيف يحمل كلمة منغيت على
معنى الغابة الكثيفة . وكان الكتاب الجفتائيون القدماء يرسمونها
« منفكيت » . والمنغيت الحاليون ينقسمون الى فريقين ، أحدهما يعين
فى منطقة خيوه ، التى يحمل اسمهم ، على الشاطئ الأيسر لجيجون ، والآخر
ينزل حول قارشى .

على أبى الفيض فحسب بل ويقتل ابنه كذلك ، وكان قد زوجه من ابنته من قبل . وخلف رحيم بى فى منصب الوزارة وفى زعامة المنغيتيين دانييل باى وكان على قرابة بالأشترخانيين من ناحية أمه .

ولعل قرابته هذه هى التى مكنته من أن يستبد بالأمير أبى الغازى ، أحد أحفاد أبى الفيض ، فيجعل منه مجرد عاهل بالاسم ، ويتنزل ، باسمه ، أشد أنواع المظالم بالناس وينهب أموالهم . ويقال ان أبا الغازى ، آخر أمراء بلاد ما وراء النهر ممن كانت تجرى فى عروقهم دماء جنكيز ، كان يعيش فى رعب مقيم خوف وزيره ، حتى كان لايجرؤ على مغادرة داره دون إذن منه .

ولم يكن يظهر دانيال باى هذا قادة الجند فحسب ، بل وطبقة رجال الدين أصحاب الأطماع كذلك . وكان من أيسر الأشياء لديه أن ينادى بنفسه أميرا على البلاد ، ولكنه آثر أن يترك هذا الأمر لابنه معصوم الذى أفلح ، بالحيلة والرياء ، فى أن يحمل أهل بخارى على المناداة به أميرا عليهم ، وكانوا قد ضاقوا ذرعا بالفوضى الضاربة بين ظهرانيهم .

كان الأمير معصوم يدعو أبوه فى صغره بلقب بك خان (١) (حبيب القلب) . وحين شب على ما كان يرجوه أبوه منه صار يدعو شاهراد (أمل الأمير) . وفى هذا الأمير كان يتمثل على خير وجه موجة الصوفية التى عاش فيها ، وبه بلغت ذروتها . بل لقد نهض فى شبابه بجماعة المتصوفة نهضة ملحوظة حتى استعاض بخرقه الدرويش عن ثوبه الرسمى . وفيما كان اخوته وأقاربه يقضون حياتهم فى خصومات عنيفة كان هو يقضى أيامه فى الخوانق والمساجد مستغرقا فى التأملات الدينية لا يسمح لأحد أن يقتحم عليه خلوته هذه . بل لقد ذهب به الحال الى أن رفض أن

(١) من العادات التركية القديمة التى لا تزال قائمة بآسيا الوسطى حتى اليوم أن يطلق الأب على ابنه الأكبر من أسماء التندليل مثل : بابا جان (الولد العزيز) ، أو خان جان (الأمير العزيز) ، أو بك جان (الزعيم العزيز) وليس الحال كذلك مع البنات . وكان مولدهم لا يحمل به الوالد الاسمى أبدا .

بسلم ميراثه عن أبيه وأمر به أن يفرق صدقات في الناس ، وأن يرد إلى أولئك الذي اغتصب منهم ما أمكن ذلك ، فلم يقبل أن يدنس يده ، على حد قوله : بالمال الذي جلب إليه بطريق القهر والعنف . وذهب في سبيل ضمير حزنه وأسفه على ما كان يرتكبه أبوه من المظالم إلى أن كان يلبس ثياب الندم ويلق السيف في رقبته ثم يمضي على هذه الهيئة يكي وينوح في الطرقات ويسأل الأهلين الصفح عما وقع عليهم من الجور في حكومة أبيه . ولنا أن تتصور مبلغ ما كان يثيره سلوكه هذا بين الناس من شعور بالاحترام نحوه ولا سيما بين رجال الدين منهم ^١ ، ولو كان مير معصوم قد رغب في أن يستغل هذا الوضع من فوره ، لكان قد استطاع سب وفاة أبيه ، أن يحرز في التو نصرا مينا على اخونه وعلى العصاة من سبائه في بلاده ، ولكنه آثر أن يترث بعض الوفاء حتى يستند في سلمته المقبلة على أسس أكثر رسوخا .

وقضى هذا الأمير عاما آخر في الخلوة بالمقصورة الأمامية بالمسجد الجامع كتب فيها أحسن مؤلفاته وهو كتاب « عين الحكمة » ^٢ ، وكان كعبه ورود الجوع الحاسدة من المعجيين الذين كانوا يتجمعون عند داره أو يسبرون بين يديه في الطرقات فيدعو لهم بقراءة الفاتحة أو نقاسه الطاهرة المستجابة .

على أن الاضطرابات كانت قد توالى وتفاقم أمرها حتى شملت بلاد كلها ، وامتد الصراع بين هذه الأحزاب المتطاحنة إلى العاصمة نفسها ، حتى سقط في إحدى هذه المصادمات قرابة ألف من أهل هذه المدينة كان من بينهم بعض أخوة للأمير . وحين وجد الأمير الضعيف أبو العزى أن لا قبل له بتهدئة هذه الفتنة ذهب في نفر من الأعيان إلى مسجد الذي يعيش فيه مير معصوم فنوئل إليه أن يقبل منصب الوزارة

(١) صار الرسم منذ ذلك الوقت أن يعصى كبار رجال الدولة بغيرهم ، حين ينسحبون من الحياة العامة ، لا في أملاكهم وإنما في خانقاه مدرسة .

(٢) مبلغ علمي أن مير معصوم كان يكتب فقط بالفارسية ، فكان منك أول أمير ببخارى يهمل لسانه الأصلي ورعا . ذلك أن أسلافه برغم انحلتهم الفارسية كانوا يفضلون الكتابة بالتركية .

الذى تقلده من قبل مير دانيال عدة سنوات بنجاح ، وأن يتسيع من بركاته على العرش الذى خبا ضيأؤه ويعيد السلام الى البلاد . ولكن ذلك الورع الذى قتل بأمره فيما بعد ألوف عديدة من الناس وخربت أحياء بأكملها على يديه ، اعتذر عن قبول هذا المنصب اذ ذاك متظاهرا بزهده فى أمور الدنيا ، ووعد القوم فقط بأن يبدى لهم المشورة والنصح . ولم يفعل ذلك حتى ذلك الذى وعدهم به الا بعد أن أخذ نياز على بك أمير شهرسبز الثائر يهدد بخارى بتخريبها تخريبا تاما .

وحين تبدى لمير معصوم مدى الخطر الذى قد ينجم عن تردده ، بادر من فوره فخرج على رأس جيش لم يتأت له به أن يطرد هذا الشائر الى ما وراء حدود الخانية فحسب ، بل واسترد كذلك منه حصار وقارشى ، وكان قد استولى عليهما بالقوة من قبل . وبهذا استطاع أن يرد الأمور الى نصابها بالتدريج .

وكان من الطبيعى أن يؤدى ازدياد نفوذ الأمير معصوم السياسى الى أن يجرى العمل بكل جهاز فى حكومته وفق قواعد الشرع وسنته القديمة التى كانت بخارى تلتزمها على الدوام ، فلم يراخى العمل به الا فى عهد الحكومات الضعيفة أيام الأمراء المتأخرين . وحرص هذا الزاهد الداهية أول الأمر على أن يستعيد لحكام المسلمين سابق هيبتهم واحترام الناس لهم . وترك أبا الغازى بذلك يمارس بعض مظاهر الامارة ، حتى اذا ما تم له اقرار الأمور على هواء ، تارة بطريق المظهر الصوفى الذى كان يظهر به ، وتارة أخرى بسبيل العنف البالغ الذى كان يعتمد اليه ، ما لبث أن انقلب على أميره نفسه . فقد اتخذ من الحياة التى كان يجيهاها أبو الغازى ذريعة ، أيده الناس فيها ، لابعاده عن الحياة الرسمية مع ربط معاش له ، ثم رقى هو نفسه عرش بلاد ما وراء النهر من بعد ذلك فى شعبان من عام ١١٩٩ (يونيه ١٧٨٤) وبدأ حياة كانت فى الواقع أبعد من أن تتواءم مع نوب الدرويش المرقع الذى ظل يرتديه (١) .

(١) يقول مالكولم فى كتابه عن تاريخ فارس أن أبا الغازى كان حاكما بالاسم ، وأن أسرته كانت تعيش من دخل التاج . ولا أوافق على ذلك ، اذ أن مبرزاً صادق المنشئ (كاسب البلاط) يذكر صراحة تاريخ ارتقاء الأمير معصوم العرش .

كان مسرح نشاط هذا الأمير ، خارج حدود بلاد ما وراء النهر ، في فارس أول الأمر ، وبعبارة أدق في ولايات فارس الشمالية الشرقية . وفي هذه الجهات جرت عادة عصابات من أصحاب الحمية الدينية على الاغارة على بلاد الروافض .

وبما كان يضطلع به الأمير معصوم من الغارات هناك لقب بالغازي (١) . وطريق الغارات التورانية هذا الذي يشتهر منذ آلاف السنين لم يكن على كل حال خلوا من التحصين في ذلك الوقت كما عليه الحال الآن . فقد كان به بعض مراكز قوية مثل مرو وسرخس بأيدي الشيعة الأقوياء الذين طالما أقضوا مضاجع المعتصمين الأوزبك ابان احتلالهم لهذه البلاد ، وعوقوهم تعويقا جديا في الاضطلاع بواجبهم ، كسنيين ، في تخريب خراسان وفي أسر جموع السكان من أهلها وبيعهم بسوق الرقيق ببخارى . فلاعجب اذن حين نرى الأمير معصوم ، أو بكخان كما يسميه المؤرخون الفرس ، يهدف أساسا الى القضاء على هذه الجيوب ، وفتح الطريق الى هذه البلاد بعبارة أوضح . ولم يكن جيشه ، برغم أن قوامه كان بضعة آلاف من الفرسان ، الا عصابة تركمانية كبيرة في الواقع . وعلى هذا فقد سير أول عام من حكمه حملة الى مرو ، وكاقت هذه المدينة منذ عهد الصفويين قد صار حكمها الى قبيلة القاجار ، وكان يتولى شئونها أمراء من بطن عز الدين لو . وقد أشرنا من قبل الى ارتباط هذه الأسرة برباط المصاهرة (٢) مع الاشترخانيين . على أن هذه المصاهرة

-
- (١) الأصل في هذا اللقب أن يطلق على من يجاهد الكفار ، أي النصارى واليهود وعبدة الأوثان . وقد ذكرنا من قبل أن السنيين بآسيا الوسطى كانوا يعدون الشيعة من الكفار . ولم يأخذ العثمانيون بهذا الرأي أبدا فكانوا يعدون الفرس مجرد روافض .

(والحققة أن الكافر في الاسلام هو من ليس من أهل الكتاب ، أي من ليس نصرانيا أو يهوديا ، أما المسلمون فيختلفون الى فرق وكلهم مسلمون) **الخشب**

(٢) أود أن اكرر هنا أن كلتا الأسرتين كانت تعرف هذه القصة معرفة تامة ، وحين اضطر شاهرخ ميرزا ابن عم شاه فارس الحالي من بعد ذلك الى الفرار من بلاده بسبب التآمر أو الخيانة لجأ الى بلاط بخارى .

لم تمنع من اشتداد العداء المرير بين الأسرتين بسبب اختلاف المذهب . وقد استتمت حامية مرو في الدفاع عن بلدها حتى ارند الأوربك والتركان عنها خائبين في حملتهم هذه التي كانوا يهدفون من ورائها الى أكثر من السلب والنهب . حتى قدم الأمير معصوم بنفسه فلم يستطع ببرم على خان قائد ذلك الحصن أن يصمد أمام جسوع العدو ، وهو الذي ظل سنين طويلة يدفع جسوع العصابات عن بلاده وما حواها .

وفيما كان بيرم خان يدافع عن مرو كان هناك رعيم آخر من قبيلته ، هو أقا محمد خان الطموح المقدام ، مشتبكا بالجنوب في حرب مع الزعيم القوى لطف على خان دفاعا عن تاج الكيانيين . وكانت خراسان إذ ذاك ينفاسها عدة أمراء يهدف كل واحد منهم الى الاستقلال بما بيده من أرضين ويتحاربون معا في سبيل ذلك باستمرار . وكانت هراه أمنع حصن يقف في وجه الغزو التوراني ، بيد شاهرخ ميرزا حفيد نادر شاه . وكان هذا الأمير قد بقي وفيا لتحالف جده السابق مع أبي الفيض ، وسره أن يرى الخراب يحقق بذلك القاجارى وكان من ألد أعداء أسرته . ونهطى الحظ عن بيرم خان آخر الأمر فغلب على أمره ، برغم ما أظهره من بطولة وما كان عليه محاربوه من شجاعة لا يزال القوم حتى اليوم يترنسون بها في أناشيدهم ، إذ كان في صفوفه نساء وفتيات حملوا السلاح وشاركوهم في هجومهم اليائس على محاصريهم . وسقط بيرم خان آخر الأمر تحت أسوار مرو (١) ، وما إن انتهى الأوزبك من نهب ريف المدينة كلها حتى ساقوا السكان جميعا أسارى معهم ، كما عبدوا الى كسر سد مرو (٢) ، القديم (بند مرو) حتى لا يستطيع الأهليون أن يزرعوا أراضيهم مستقبلا ، ثم قفلوا من بعد ذلك راجعين الى بخارى مع زعيهم الورع الذى يخاف ،

(١) بروى ميرزا صادق أن الأمير معصوم لم يفصل رأس بيرم عن جسده ونمليقها ببخارى .

(٢) هذا السد ، وبعبارة ادق الخزان ، الذى دافع القوم عنه ، كان يقع فى الشمال الشرقى من مرو ، يستمد ماءه من مرقاب ، وقد نتج عن تدميره ونسج الماء نتيجة لذلك أن اكتمشت رقعة الزراعة بمرو فصارت قاصرة على بعض حقول للفاوون والخضر فقط .

الله . ولم تكن هذه الغزوة الأولى الا بداية سلسلة من العارات التى قام بها الأمير معصوم ، الواحدة بعد الأخرى ، خلال سنين عديدة من حكمه (١) .

اتتهى الحال بسرو الى أن نزل بها الخراب الشامل آخر الأمر (٢) . وكان الأمير الشجاع محمد حسين بن بيرم خان قد استطاع بعد موت أبيه أن يسيطر عليها بعض الوقب ببعض العون من أفغان تيسور شاه . وأرغم أهلها من الترك على الهجرة الى بخارى حيث لا يزالون يعرفون هناك بالمرويين حتى اليوم (٣) . ولم يبق منذ ذلك الوقت من آثار مرو (مرغيانا) المدينة الفخمة القديمة ما يدل على عظمتها الغابرة الا بضعة متاريس من الطين تقوم وسط سهوبها الموحشة (٤) . وفى عام ١٢٠٥ (١٧٩٠) استولى على هذه الحرائب تركمان الساريك ، ومن بعدهم تركمان التكه الذين كانوا ينزلون من قبل فى أخال . وفى هذا المكان ، الذى ازدهرت فيه الثقافة الفارسية والفن الفارسى يوما ما ، صار لا يسمع الا تأوهات أسارى الفرس مختلطة بصريز قيودهم التى كانوا يرسفون فيها ، وهم أولئك الذين وقعوا بأيدي التركمان فحشروهم مكبلين بالأغلال فى خيامهم ، وأبصارهم شاخصة الى بلادهم الضائعة غير بعيد عنهم . وجاء دور مشهد فى العام التالى . وحين امتنعت هذه المدينة بحصونها على العدو على غير ما كان ينتظر منها ، انبرى ذلك الزاهد ، الذى كان يقود

(١) يذكر ميرزا صادق أربع غزوات أخرى خرج فيها الأمير معصوم بنفسه .

(٢) جاء فى روضة الصفا ان حاكم بخارى كان قد حلف ابنه نصر الدين فى قلعة مرو مع حاميه .

(٣) ذكرت فى كتاب رحلى بأسماء الوسطى ص ٣٧٠ بناء على معلومات غير وبيقة أن الأمير سعد هو الذى أرغم سكان مرو على الهجرة الى بخارى .

(٤) زار خرائب مرو كل من Burnes وولف Wolf وريسموند شكسبير Richmond Shakespear وأبوت J. Abbot وتومسون Thoinson وكان الأخيران قد أوفدا فى سيطرة الى حان خيوه ، كما ذهب كذلك الى بخارى معاصر نابلى بدعى فلورس ناسالى Flores Naselli ورغم نصيح الناس له بالعدول عن ذلك ، وقد قبل هناك ، وأخيرا بلوسكفيل Blosqueville وقد قضى عاما بأكمله سجيناً عند التركمان .

الجيش الغازى ، يعلن أن ولى الله الامام الرضا قد ظهر له فى الرؤيا وطلب اليه أن يترك « مشهد » — مكان استشهادهم — وشأنها هى وكل ما بجاورها من أرضين ، ثم قال للناس من بعد ذلك « انى أعلم أن الامام حى وأنه لن يغفر لى اذ أزعجه فى مقامه » . وما غدا أن قتل راجعا من بعد ذلك ولكن بعد أن أنزل الخراب بما حول هذا المكان من القرى .

ولم يعان شمال ايران من جموع التوراتيين ، منذ غارات شيباني وعبد المنعم خان ، مثل ماعناه فى عهد هذا الأمير الدرويش . وعلى مايرويه ميرزا صادق فان عدد الأوزبك والتركمان لم يكن يقل فى كل غارة عن العشرين ألفا ، وأن أهل بخارى كانوا يروون أن سوق الرقيق كان يزدحم بالأسرى حتى كان الشيعى القادر لم يكن يجد من يشتريه لقاء بضع تنغات هى دون الفرنك فى قيمتها (١) . فكم من أسرة أخذت تندب حظها بالدمع الغزير على ما انتهى إليه مصيرها من الخراب بأيدى ذلك الرجل الذى كان يركب دابة هزيلة ويرتدى ثوبا من الخرق البالية ، ليظهر الناس بذلك على زهده فى الدنيا وزخرفها ، ويقيم فى خيمة بالية يقبع فيها على بساط من نسيج الجبال فيقضى ساعات بأكملها مستغرقا فى العبادة والتأمل . وظل أمير بخارى المتعصب هذا يسلك سبيل العنف على هذه الوتيرة مع ايران ما يقرب من اثنى عشر عاما . حتى اذا ما تم لآقا محمد خان ، مؤسس الأسرة الحاكمة الحالية فى فارس (٢) ، اقرار الأمور فى فارس وآذربيجان ، مسار آخر الأمر عام ١٢١٣ (١٧٩٧) الى خراسان وقد عقد العزم على وضع حد لهذه المحنة المخيفة . هنالك بدا له أنه ليس من الحكمة أو حسن التدبير أن يخوض غمار حرب فيما وراء جيحون ومركزه فى داخل بلاده نفسها لما يطمئن اليه بعد . فعول على أن يلتقن

(١) تكرر وقوع ذلك فى الزمن الحديث وذلك حين سىو ناصر الدين جيشا قوامه عشرون ألف رجل لحرب التركمان فأصيب بهزيمة ساحقة جوار مرو على أيدى ثلاثة آلاف من التركمان فقط ، ولم ينج منه الا بضع مئات ، فحين وقع الباقون فى الاسر بيعوا بأبخس الأثمان فى أسواق الرقيق ببخارى وخبوه .

(٢) أى عند تأليف هذا الكتاب فى النصف الثانى من القرن الماضى وهم آل قاجار (المترجم) .

الأوزبك بطريق السياسة شيئاً أفضل ، فبعث اليهم على يد محمد حسين عز الدينلو الرسالة الآتية بعد . وما يلفت النظر فيها أننا نجد بها إشارة ضمنية تشير لأول مرة الى وحدة الترك القومية (١) ، وها هو ذا نصها على ما ورد منها بروضة الصفا :

« لاجاجة بنا الى أن نجمل تاريخ الصفويين ومن عاصروا محمد شيباني خان حتى زمان نادر شاه الأفشاري . واني لأعلم جيداً ، كما تعلمون ذلك بدوركم تمام العلم ، أن بلخ ومرو وزمينداور وسبستان ، وقندهار وكابل كانت كلها منذ قديم الزمان تتبع دولة ايران . فكيف صار لك على هذا أن تفتح بلخ ومرو وتذبح في هذا البلد الأخير يرم على خان زعيم أسرته العظيم . أفهل ترمى من وراء ذلك الى تجديد الحروب بين ايران وتوران وهو مالا تقدر عليه أبداً (٢) . وليس من الحكمة على كل حال أن تعبت بذيل الأسد أو تعرك أذن النمر . واعلم أن الناس كلهم لآدم وحواء ، فان افتخرت بقرايتك لأمرء توران فاعلم أنني بدوري من نسلهم . وليس منبت قاجار نويان (٣) وأصله بأئبل وأعرق من نسب أسرة منغيت وقنقرات فحسب ، بل انه كذلك ليفوق بأمجاده بيتي سولدوز وجلالير المشهورين (٤) . ومهما يكن من شيء فان علينا جميعاً أن نتوجه الى الله التقدير بالشكر والحمد أن جعل ممالك توران وايران والروم والروس والصين والهند بأيدي أسرة الترك الفخيمة ، وليقنع كل

(١) ان كلمة « المؤمنون اخوة » قد حالت بين القوميات على الدوام ، ولم تكن تنتظر على كل حال من ذلك القاجاري أو من كانبه أن يدرك رابطته الجنس التي تقوم بين الأسر الحاكمة في الصين والهند وبلاد الروم .
(٢) من التندر البارع أن جعلوا من الأمير الزاهد معصوم ، افراسياب

ثان .
(٣) كان لقب نويان من ألقاب كبار القادة عند المغول ، ولا نعرف اذا كان هذا اللقب لأسلاف القاجاريين حقيقة ، وقد سمعت بآيران كثيراً من الترك بدلون على عراقة نسبهم بهذا اللقب ، ويفتخر القنقاي ، بخاصة في شيراز به .

(٤) لا أدري سبب اصفاء الشهرة على سولدوز وجلالير ، فهانان القبيلتان كانتا تنزلان دائماً على الشاطئ البعيد لجيخون ، وكلتا قد قدمت الى هناك مع جنكيز من الشرق كأغلب الترك .

واحد منا بما قسم الله له من أرضين فلا يمد يده الى ما وراء حدود دولته .
وانى بدورى سألزم فى سلام حدود ايران القديمة فلا يقدم أحدنا على
تخطى جيحون » .

ويقول مؤرخ فارسى آخر ان هذه الوثيقة قد كتبت فى صبغة
تختلف عن تلك التى أوردناها ، فكانت تحمل التهديد الى الأمير معصوم
فيسا لو أحجم عن إعادة الأسرى الفرس فى الحال . وكان رد الأمير معصوم
عليها من جنسها . بل لقد ذهب بكخان فى رده يتلاعب باسم أعظم
القاجاريين ، فبدلاً من أن يرسمه « آفاخان » حرقه الى « أخا خان » أى
الطواشى ، كما لم يفك اسار الثمانية الآلاف أسير فارسى الذين كانوا عنده
على روايه صاحب « ناسخ التواريخ » . وكانت كاترين قيصرية روسيا
قد أقدمت فى داك الوقت على مهاجمة آقا محمد خان لتنتقم منه على
عصفه الشديد بأهل جورجيا مس كانوا يبعونها . ولولا أن اضطر شاه
فارس تلقاء ذلك الى أن يركز جهوده وقواته عند شاطئ نور أراكسى ،
لشهدت الدنيا أعجب مشهد لصراع مرير فى سبيل السيادة يقع بين زعيمى
العالم الاسلامى بداخل أسبا اد ذاك . وكان كلاهما على سُذُود ، فاحدهما
طلواتى والآخر دروينى مسن . وقد تدخلت بينهما قوة ثالثة أتيج لها فيما
بعد أن تنزل الهزيمة بكليهما على السواء ، وان هيات لوقتها الفرصة
للأوزبكي المتعصب ليعاود غاراته التخريبية على فارس .

على أن الشيعة (الروافض) لم يكونوا هم وحدهم الدين اندفع
الأمير معصوم بنعصبه يحاربهم ، فقد اشتبك كذلك فى الحرب مع سنين
محافظين لا وجه لظهوره فى حربه لهم بمظهر الغازى بطبيعة الحال ،
مكشِف بذلك عن سيف الفتح الذى كان يخفيه تحت ثوب الدرويتس .

وتفصيل ذلك أن الأفغان ، وهم قوم من سلالة آرية كانوا أيام
محمود الغزنوى مجرد قبيلة صغيرة لا خطر لها تقطن سلسلة جبال
سليماق ، كانوا قد استطاعوا من بعد ذلك أن يسيطروا نفوذهم حتى
دارت لهم أغلب المنطقة الواقعة بين جيحون والسند ، لبدأوا من بعد
ذلك دووهم المهم فى سياسة آسيا الوسطى . ولبت هؤلاء حتى بداية

القرن الثامن عشر الميلادي يؤدون الجزية الى سلاطين الهند أو الى شاهات فارس ليدرءوا بذلك عنهم خطر الأوزبك الذين كانوا يفوقونهم فى قوتهم ، حتى اذا ما هان شأن الصفويين بفارس استولى الأفغان بزعامه محمود الغلزائى على عرش أصفهان الى أن طردهم نادر شاه من بعد ذلك من ايران .

وبعد أن قضى آخر الغزاة الآسيويين الكبار هذا ، وانهارت دولة المغول فى الهند من ناحية ، وضعف شأن حكومة الأوزبك على جيحون من ناحية أخرى ، أتاحت بذلك كله الفرصة للأفغان ليظهروا على مسرح التاريخ فيرثوا من أراضى نادر شاه ذلك الجزء الذى يقع بين جيحون والسند ، حتى تم لأحمد شاه الدراني عام ١١٦٦ (١٧٥٢) تنصيب نفسه أميرا على الأراضى التى كانت تتبع خانية بخارى عند الشاطيء الأدنى لجيحون وذلك بعد أن تحالف مع شاهرخ ميرزا حفيد تيمور . وما لبثت ميمنة وأندخوى وأقچه وشبورغان وسربول وخولم وبدخشان وباميان أن استسلمت لبك خان (١) القائد الذى سيره هذا الأمير الأفغانى اليها ، وقد كافأه على ذلك بأن أنعم عليه بلقب الصدارة العظمى . ولم يحرك ساكنا اذ ذاك عاهل بخارى الكسول ، أو وزيره القوى دانيال بى ، بعبارة أدق ، تلقاء تلك الولايات التى انتزعت منه ، اذ كان أغلبها فى الواقع بأيدي الأمراء الخارجين على سلطانه . وجاء من بعد ذلك الأمير معصوم فرأى فى ازدياد سلطان الأفغان شوكة فى جنبه طال عليها الامد . حتى اذا ما شغل تيسور شاه خليفة أحمد شاه بمعركة بهالبور (بالهند) عام ١٢٠٣ (١٧٨٨) بادر الأمير الأوزبكى بعبور جيحون عند كيليف ، واسترد أغلب البلاد التى كان الأفغان قد استولوا عليها من قبل . وحين آب تيمور الى بلاده فعلم بذلك ، بعث الى خصمه برسالة عرض فيها بعبارة واضحة صريحة بسا يخفه الأمير معصوم من أطماع (٢) تحت رداء

(١) انظر فى ذلك

History of the Afghans by J.P. Ferrier London 1858 P. 18

(٢) انظر An account of the kingdom of Coubul by montstuart

Elphinstone . London 1842 .vol. 11 P 315

غيرته الدينية الكاذبة ونفاقه ، وذكره فيها كذلك بما كان يقوم من علاقات المودة بين بيت الدراني وسلاطين الأوزبك على الدوام . وأن الأمير معصوم حين كانت تظهر له نذر الحرب في الجو ، كان يركن على الدوام الى مذهب خصمه بمعسول القول مع ما كان يضره من سوء الدرائيس ، ورغم أن اعتداء دولة على أخرى بسبب مذاهبها الدينية هو أمر غير مشروع ، فإن الأمير معصوم أقدم مع ذلك على عزو مرو وساف سكانها من الشيعة معه في أسره بدعوى أنه سيقوم بردهم الى العقيدة الحقة ، وهو بصنيعه هذا فد أبان عن التناقض في سلوكه بما لا يحتاج الى برهان . فلو أنه كان حريصا حقا على هداية المشركين لما أفاء العراقي في سبيل الأفغان الذين بلعوا بغزواتهم الهندية الى دخول عدد لا يحصى من الهنادكة واليهود والنصارى في الاسلام . وبعد هذا كله فما معنى حربه لسكان تهرسبز وحند والتركمان وجميعهم من أهل السنة الحقة . ومضى تيمور شاه من بعد ذلك في خطابه ليقول له ان أهل هذه البلاد جميعا قد استجدوا به وأنه ملب دعوتهم وسائر من فوره لماء تركسان .

وفي ربيع عام ١٣٠٤ (١٧٨٩) زحف تسور شاه الى شواطئ جيحون على رأس جيش وفير العدد كامل العدة (١) . حتى اذا ما طفق بهاجم آفجه رأى القائد الأوزبكي رحمت بي أن لا قبل له بقوات العدو الكبيرة ففر الى معسكر أمبره عند كيليف .

وكان الأمير معصوم يتأهب اذذاك للزحف على خراسان في جيش كبير ليعوض ما لحقه في العام السابق من فشل هناك .

وبوغت الأمير معصوم بهجوم الأفغان هذا حتى ود أن يحسم معهم الأمر صلحا . وحرص أول الأمر ألا يكشف عن رغبته هذه ، فسير لذلك رحمت بي ومعه سلطان مراد بي في قوة صغيرة قصدت أفجه ، فاشتبكت مع العدو في مناوشات بسيطة ، حتى اذا ما استيقن من أن تيمور شاه انما خرج في حملته هذه طلبا للقتال ، سعى في الصلح من

(١) يذكر المصدر السابق م ٣ ص ٣٠٥ أن هذا الجيش كان يضم مائه ألف مقاتل ، في حين يقدره ميرزا صادف بضعف هذا العدد .

دوره فأوفد لذلك وفدا من أكبر علماء بخارى ، ونظاير بسهي الد. والخضوع ، على عادته حين نرغمه الحادثات ، حتى انطلقت جيلنه على الزعيم الأفغاني ، وهو الذي كان قد عنقه من قبل ، على مل هذا النفاق في رسالته اليه التي سبق ذكرها ، فلم يعقد الصلح معه فحسب ، بل وسح له كذلك بأن يحتفظ لنفسه بكافة المواضع التي كان قد اسنولى عليها .

وظل الأمير معصوم يخترم شروط هذه المعاهدة منسكا بأهداب السلم ما بفي تيسور شاه علي فيد الحياة . فما ان قضى هذا الأمير الدراني عام ١٢٠٨ (١٧٩٣) وخلفه ابنه شاهزمان حتى سقط الأمير معصوم على منطقة بلخ فأوقع حاكمها مع أربعة آلاف من خيرة جنده في كمين وأسرهم جميعا ، ثم هاجم مدينة بلخ نفسها من دوره وفد أمل أن بسلم له ما بفي بها من الجند بعد ما رأوا ما صار اليه حال فأندهم .

على انه أخطأ في حسابه هذا على كل حال . فقد تهدد حياة المدنه. بفنل أميرهم الأسير أمام أعينهم ان هم أصروا على المقاومة ، ونفذ تهديده الوحشي بالفعل بعا لذلك ، ومع هذا فقد بقي القوم على مقاومتهم له حتى عاد شاهزمان الى كابل بعد حربه الموقفه في خراسان، وقد كانوا بأملمون أن يوافيهم بالحللص سريعا من بعد ذلك ، وهو أمر كان يتوقعه معصوم بدوره .

وحين علم أمير بخارى بنأجيل الزحف الأفغاني انتهز هذه الفرصة لبمى بها ما بلغ به مركزه من حرج وخطورة ، فبعث برسله الى كابل يتعهد لأمرها بسازله عن دعواه في بلخ وما بجاورها مع محافظته مسقبلا على شروط المعاهدة التي كان قد عقدها مع تيسور ساه من قبل . ولما كان شاهزمان اذذاك منصرفا بكل تفكيره وجهوده الى الاهتمام بخططه في غزو الهند فقد قبل ما عرضه سفراء عدوه عليه .

وهكذا استطاع الأمير معصوم مرة أخرى أن يؤمن مركزه بدهائه، وان لم يعدل عن نواياه العدائية نحو جيرانه الأفغان . وحين اضطر شاه محمود ، أخو شاهزمان ومنافسه ، أن يخرج من بلاده عام ١٢١٤

(١٧٩٩) بعد فشل محاولاته العديدة في الاستيلاء على العرش ، رجب به مير معصوم في بخارى . ولئن لم بسنطع شاهزمان أن يعترض علنا على هذه الاستضافة (١) ، إلا أن ذلك لم يمنعه من بدل المال الكثير سرا لتسليم هذا الأمير الفار .

ولو لم يتحالف العاهل الأفغاني اد دك سراً مع آفا محمد خان القاجاري ، لما تردد درويش بخارى العجوز ، دون وازع من الضمير ، في خرق هذه الرسوم التي يقدها الآسويون أعظم تقديس بخصوص حماية الضيف فلم ينح لنفسه أن يشرها الاعراء . وحين سأل رسول شاهزمان أن يحرص بأي ثمن على مراقبة الأمير اللاجيء أجاب بأن أشار برأسه بما يفيد بأن محمودا لن يغادر بخارى . والواقع أن هذا الأمير لم يكن ليتيسر له مغادرة بخارى أبدا ورأسه على كتفيه لولا أن تصدى له أمير أوزبكى من أصحاب النفوذ فأعانه على الهرب الى خبوه حيب استقبله أميرها محمد رحيم خان بالترحاب .

ومات الأمير معصوم عام ١٢١٧ (١٨٠٢) بعد أن حكم نسابة عشر عاما بعدها البخاريون أعظم فره في تاريخهم الحذب والجل الحالي من الناجك والأوزبك ، وهو الذي ما تزال تلك ألفره ماثلة في أذهانه ، نراه لا يسل من ترددات الشاء على ذلك الأمير المسلم الفرد العادل النفي وحكومته السبة .

وأساس هذا الشاء ما كان عليه هذا الأمير وحكمته من اسمالك نام بالشرع . فهو الذي أحيا منصب رئيس التريعه في وف كان فد أهمل فيها أمره في العالم الاسلامي كله (٢) . وكان على هذا الرئيس أن

(١) اضطر شاهزمان من بعد ذلك أن يلجأ بدوره الى بخارى (الأولف) وذلك حين دخل البريطانيون كابل بعد احتلالهم للهد ، وأدعوا بساله الافغان وضراوهم على الخروج منها بعد قليل (المترجم) .
(٢) أخبرت حين كنت بالقسطنطينية أن هذه الحكومة السرية لم يعرف لها نظير أبدا سواء في تركيا أو في إيران وشمال الهند ، وإنما قامت عرضا في الأزمنة الحديثة بمكة والمدنه وبعض المواضع في شرق افرييه .
(الأولف) يفصد بذلك حكومات الوهابيين والسنوسيين (المترجم) .

بجوب الأسواى كل يوم مع شرطته وبآيديهم سياط سرعيه لهسا أربع شعب ، فيختبر الناس فى أمور دينهم ، فمن لم يكن منهم بحفظ فرص العين مع بعض سور القرآن ، أو تحلو عمامته فى طبانها من كرات الطين (١) ، كان بجلد على الفور أو بلمى به فى السجن . أما من كان يتكاسل فى الذهاب الى المسجد أو يهمل تأديبه الصلوات فى أوقانها ، فكان يحكم عليه أول الأمر ببعض العتوبات الدنيه . حتى اذا ما عاد الى ذلك قتل . كذلك كان يعاقب على هذا الوجه أولئك الذين نربون الخسر أو يدخنون (٢) .

أما اللصوص وقطاع الطرق والفجار فكانوا يسلسون الى الجلال بلا رحمة . وكان هذا الشدد فى تطبيق عقابهم الشرع يسود كذلك فروع الحكومة كلها .

وكان على المسلم أن يدفع خراج أرضه وماشييه مع الزكاة وقدرها : ثمان ونصف بالمائة ، وهى حق الفقير من دخل المفسد ، كما يدفع الرسوم المفررة على البضائع المنوردة .

أما الذميون ، وهم الهادكة واليهود والنصارى . فكان عليهم أن يدفعوا الجزية .

وكان الأمير معصوم يحرس كل الحرص فى دار الامارة على أن يسبح بيع الخلفاء الأول فسا كانوا عليه من الاسنساك بأهداب الدين وما ضربوه من الأمثال فى الرهد والقناعة لمن جاءوا من بعدهم من « أمراء المؤمنين » .

وعلى ما عرف به عر (ثانى الحلفاء الراشدين) من حرصه الشديد على أموال ييب المال حتى كان يكفى بأبسط الطعام ويفنع

(١) (كسك) انظر توضيح ذلك الأمر ومعناه فى كتابي
Sketches of Central Asia London 1868 P, 181

وهى من دلائل الزهد والتصوف (المترجم) .
(٢) كان التدخين يعد فى ذلك الوقت فى فارس وفى تركيا من المحرمات ، اذ أفتى أئمة الشرع هناك بأنه يدخل فى باب المسكرات .

بنوب واحد كل عام ، وكذلك كان أمير بخارى ، المنعصب لدينه ، يربط تنغا واحدا لنفسه كل يوم لنففته . وجعل هذا القدر أيضا لطباخه وخدامه ولكل فقير من نزلاء المدارس الذين بلغ عددهم في عهده ثلاثين ألفا من المنعطين الى طلب العلوم الدينية . على أن صنيعه هذا لم يحل بين رجال دولته وحياء البدخ والاسراف التى كانوا يحيونها ، فبين كان هذا الأمير يعيتى فى سرادق قديم بال ويمتسى فى فيص من وبر الجبل وبأكل فى صفحه بالية ، كان فادته يخطرون فى الحرير وسلاحهم مرسع بالحجارة الكريهه ، والطعام يمدم اليهم ، حتى فى مضاربهم وفب الحرب ، فى صحاف من الذهب والفضة المرصعة بالحجارة الكريهه .

والظاهر أنه كان ينعم براحة نفسية حين كان يرى الفارق بين حياة البدخ التى كان يحباها رجاله وبين حياة التقشف التى كان هو عليها . وبفضل مظهر الدرويش الفقير الذى كان يحرص عليه صار له عند النوم نوفر واجلال بالغ مكه من أن يطوع قبائل الأوزبك ، المتمردة بطبعها ، لنحفيف أهدافه خلال ثمانية عشر عاما .

ولم يكن يمضى عليه عام فى الغالب دون أن يخرج فى غزوة . ذلك أنه فضلا عن وقائعه التى تحدثنا عنها ، كان يشتبك كذلك فى بعض المعارك مع أمراء البلاد المجاورين له فى خوه وخوفند (١) . وبرغم هذا كله فإن خانية بخارى كانت تتمتع فى عهده بدرجة عظيمه من الرخاء ، فلم يزل الناس من بعده يذكرون ما كانت عليه حكومته من التسك التام بأصول الشرع بل وكذلك ما كانت تحرص عليه من اجراء العدل والرفق بالرعية . وما يعينا من عهد الأمير معصوم أن ختم به الضال القديم بين ايران ونوران ، اذ كان هذا الأمير هو آخر من غزا ايران .

وخلفه من بعده ابنه سعيد حيدر توره عام ١٢١٨ (١٨٠٣) فجلس على عرش بلاد ما وراء النهر باسم الأمير سعيد . ولم يكن فى صوفه

(١) فى هذا الوقت ، أى فى عام ١٢٠٢ هـ مات علم خار أمير خوفند المشهور الذى استطاع أن يكبح حماح البخاريين لثلاثين عاما على ما أخبرنى بذلك الخوقنديون ، وبموته بدأ أمراء بخارى يغيرون على جيرانه فى الشرف حتى أقوت روسيا السلام بين هؤلاء المتحاربين .

وتعصبه لدينه مثل أبيه فحسب بل وحاول أن يبزه ، وإن لم يكن له من مهارته في الحكم وشغفه بالحرب الا القليل ، ففضى حياته كلها على خير ما يقضيها الملا ، بأدق معاني هذه الكلمة ، وبعدهم الأوزبك أنصاف رجال (١) .

على أن ذلك لم يمنعه من أن يخضب بالدماء عرشه المبارك أول حكمه . وأول ضحاياه في ذلك أخوه ناصر الدين توره ، وكان يتولى حكومة مرو في حياة أبيه الأمير معصوم . فقد خاف الأمير سعيد منافسة أخيه هذا له فعزم على التخلص منه في هدوء ، فطلب منه أن يشخص إليه بنفسه ليعلم ولاءه له . ولما كان ناصر الدين يقدر بدوره مدى الخطر الذي ينتظره عند أخيه ، فقد فر إلى الحدود الفارسية بدلا من أن يتجه إلى بخارى ، وهناك ناسد فتح على شاه أن يجيره بعون من عنده . ولو كان للقاجاريين شيء من القوة الحقيقية بدلا من مظاهر السلطان الكاذبة التي كانوا يتظاهرون بها لأفادوا من هذه الفرصة المواتية التي سحلت لهم فلقنوا جيرانهم النهائيين الذين أنزلوا الخراب بخراسان درسا فاسبا . ولم يلق الأمير اللاجئ بفارس الا الوعود الفارغة ، حتى بات الأمير سعيد ، وهو أضعف أمراء ييب المنغيتيين ، لا يسنسر أدنى خوف من ناحية فتح على شاه الذي كان دائم الفخار والزهو بأنه صاحب أطول لحية في الدولة ، وأن منطقته نزدان بأئمن الماس .

فضى الأمير سعيد ثلاثة وعشرين عاما والسلام مخيم على بلاده ، وكان يمضى الساعات العديدة في كل يوم وهو يتعبد في خلوته أو يجلس فيها إلى كبار الشيوخ يستمع إلى دواوسهم في التفسير . وحين خرج محمد رحيم خان ، أمير خيوه وجار بخارى في الغرب ، ينتقم لمقتل أبيه ابتزازار خان ، فأخذ ينتهب ويحرق كل ما يصادفه في طريقه ، وتقدم بطريق جهارجوى وقراقول حتى بلغ أبواب بخارى ، ظل الأمير سعيد

(١) يقول مثل أوزبكي « ان الاثنين من الملات (الشيوخ) هما بمقام رجل واحد ، والواحد منهم يساوى امرأة » انظر
Tschaagataische Sprachstudien P. 57 .

برغم ذلك كله منسبتا بعزله الصوفية ، ورد على الموم بأن رهبان ،
وهي المحلة التي كان بها قصره ، لا يزال في مأمن (آخر ريستان

أمان در) . وكان بخاري نرهو بما كان عليه أميرها من تقوى ، مع ما كان
من نعطله من كل فعال المجد والعظمة ، حتى ليمال ان جمهور العامة
المصابين من أهل بخاري كانوا يسكون من فرط الفرح حين كانوا يرون
أميرهم يشي في الطرافات مكس الرأس بستند على عصاه ، لا لضعف
في قواه وانما افنداء برجال الدين وتشبثا بهم حين كانوا يسرحون . بل
لقد نسبوا اليه كذلك من خوارق الكرامات برغم ما عرف عن هذا الولي
الحق من خرفة لأقدس الرسوم الآسيوية على أشنع وجه ، ومنها عادات
الضبافة ، اذ حمل معه قسرا ابنة جميلة لشاهزمان المكفوف حين كان لاجئا
عنده ، وحين احنح هذا الأمير الأفغاني على هذه الفعلة أمر به بمنل .
وانه لما يؤسف له أن يتصرف الأمير سعيد على هذا الوجه وهو الذي
كان يتظاهر في حكمه بحرصه الشديد على النسك بالدين والآداب . وادا
كانت آداب السلوك قد هان أمرها في تلك البلاد من قديم فصد ارداد
هوانها وانحطاطها على أيدي هؤلاء الحكام الأوزبك الجهلاء من بيت
المنغيتيس . ولم يكن عهد التيمانيين والاشترخانيين يخلو من مظاهر
الاستارة والتعليم التي كانت تظهر عندهم من حين لآخر ، أما هؤلاء
المنغينيون ، أنباع الشيوخ أصحاب الحرص والطمع ، فانهم لم يحرصوا
أبدا الا على أن يذكوا في نفوس الأهليين روح التعصب والحساس الديني .

الفصل الثامن عشر الأمير نصر الدين

١٢٤٢ (١٨٢٦) - ١٢٧٧ (١٨٦٠)

لا يصدق المتل القائل بأن « الأمراء هم مرآة عصورهم »^١ عند شعب من الشعوب الإسلامية أو في بلد من بلادهم كما يصدق تلى عهد نصر الله بهادر خان ، ابن الأمير سعيد وخلفه ، الذى رفى العرش بعد وفاة أبيه عام ١٢٤٢ (١٨٢٦) .

ولا يسهل على المرء أن يدرك مدى ما كان عليه هذا الأمير من صفات المكر المخلوط بالغباء ، والكبرياء والغرور والتعصب الأعشى مع الانغماس فى الرذائل الدنيئة ، الا أن يتسل قبلا حال مجتسع بخارى فى ذلك الوقت وما كان يسوده من النفاق والجهل المطبق ، وما كان ينبع فيه من الظلم المشين حتى انحدر الى حافة الرذيلة .

ولقد رفى هذا الأمير العرش بعد أن دبر قتل أخيه دون أدنى وارع من ضير . واد كان ، بوصفه الأخ الأصغر ، لا حق له فى اعتلاء العرش . فقد شرع فى حياة أبيه يهيمى بالفعل لهذا الأمر ، فأخذ حين كان بنولى حكومة فارسي ، يعمل على كسب أصحاب النفوذ القرى من رجال الدولة الى صميمه . وكان أخطر هؤلاء جسيما قوسبغى حاكم بان (١) ومؤمن باى والى حصار .

(١) وهو مل اوسرى متعدد فى مخطوط فريدبولسكى ، وهو اعدده كتاب تركى بالسرور الفرسى : المتقديهم (ولا تزال روح بين الاوسور مع حوسر بسبغ) .
(٢) تاتى تقابل اسمع المقامى « بك » ويرسمه الساحك والاوزنا .
« بى » .

ومع انهما كانا من رجال حاسبه الأمير -عسبن ، الوردت السرمى
والحاكم من بعد ذلك ، فقد كانا المدبرين لأمر سقوطه وقيله . وما يعال
من أنه فضى بعد أن حكم ما لا يزيد على ثلاثة أشهر اذ دس السم له
بحربض من نصر الله هو قول لا يفوم على عر أساس .

وأدى موت هذا الأمير الى ظهور منافس تالب فى الميدان هو عسر
خان أحد اخوة حسين . همالك اضطر نصر الله الى محاربته ، فخرج اليه
وفى يده فوى قاضى فضاة فارتنى . وانفض فى حمه صميرة من رجاله
على سمرقند ففتحت له أبوابها دون أدنى مفاومة ، حتى اذا ما نسب
مبايعه القوم له وهو منربع فوى الكوكطاش (١) ، أسرع بعد ذلك بالمسير
الى بخارى . وسقطت فى يده كنه كورعان وكرمبيه وعمرها من المواضع
الحصينة التى تقع بين العاصمتين ، ولكن بخارى نفسها استبسلت فى
مفاومتها له لأربعين يوما ، فلم تسسلم الا بعد أن نفتت المجاعة فيها
وانجيس الماء عنها ، وكان نصر الله قد استطاع أن ينحكم فى قواتها
الكبرى ، فصلا عن خباة حكيم بى وآمره معه بحاصة .

ودخل نصر الله قصر ريغسان فى ٢٢ مارس عام ١٨٢٦ ، وكان الأمير
عسر قد نكس من الهرب وماب على ابر ذلك بالهضة فى خوفه ، وكان
خاها قد رجب به فيها .

وصار لنصر الله السلطان المطلق بعد أن قتل ثلاثة من اخوه الصغار
وعددا كبيرا من أتباع عزمائه السابقين ، ليظهر العالم من بعد ذلك ، خلال
مدة حكمه التى بلغت أربعة وثلاثين عاما ، على مدى ما يسكن أن يرتكبه
أمير فى آسيا الاسلامية من الفظائع الكثرة ، ومدى ما يسكن له

(١) وهو الحجر الأزرق بسمرقند الذى بحدنا عنه من قبل . وقد
عاد الاسنرخانيون الى استخدامه فى مراسيم البعة من جديد . وكان
السياسيون قد اتحدوا من بخارى فصه لهم حتى سخلصوا بذلك من كل
رسوم السموربين . وفى عهدهم عدلوا عن الرسم التمرورى المعروف فى
رفع العرس فوق الحجر الأزرق .

الأهلون من مظالم وهم بسنعدون بدعوى الحرص على الدين والتعصب له .

ففى السوات الأولى من حكم هذا الأمير ، وكان لا يزال بخضع لنفوذ حاكم باى القوى ، تظاهر — على نهج أبيه — (١) بأن أعظم أهدافه وغاياته العمل على اعلاء كلمة الشرع علوا كبيرا والنفانى فى اسعاد شعبه . وهذه هى الفترة التى زار فيها الكسندر بيرنز بخارى على وجه التفریب ، وقد استطاع أن يقول ان نصر الله قد كفر عن النطائع التى ارتكبها فى سبيل استيلائه على العرش بأن ظف يحكم شعبه فى عدل واستقامة .

وحین شعر نصر الله بأن مخاوفه من غرمائه لم يعد لها محل واستيقن من بعد ذلك أن الأمور قد غدت مستقرة بین يديه ، تكتف قناع الحمل الوديع عن نسر مفرس ، فأنشب مخالبه فى قوشجى حاكم باى نفسه وهو الذى كان يدين له خاصة بما بلغه من سلطان . وكان قوشجى هذا قد استغل ما سلسله به سيده أول الأمر من رعايه فلم يعمل على زيادة مظاهر سلطانه ونفوذه فحسب ، بل جمع كذلك له ثروة طائلة ، حتى كان يفوم على خدمته أكثر من ألف غلام . ولقد سعت قصصا لا يصدقها العقل عما كان عنده من الابل والخيول والماشية الكثيرة ، بل بقال انه كان يسيّر قوافل التجارة بين بلاده وروسيا لحسابه . وحين رفع نصر الله يده ليهوى على تلك البعوضة التى سح لها أن نسمن على دمايه (على حد نص تعبير البخاريين) كان قد بلغ به الغضب أقصى مداه (٢) . ولم تطل محاكمة قوشجى ، ذلك أنه ليس أيسر على كل مستبد

(١) وذلك برغم أن أهل بخارى كانوا يهيمون نصر الله بعمل أبيه ، وهو أمر لا يستبعد من نصر الله بعد ما رأينا من خلفه .

(٢) انظر

Alexander Burnes, Travels into Bokhara, London 1834.

ويلاحظ المؤلف نفسه بحق فى كتاب آخر ظهر له بعد ذلك بسبع سنوات بعنوان : Cabool, a narrative of a journey to and residence in that city. p. 250.

ان مظالم (نصر الله) كانت بالغة الجراة كثيرة العدد فكنت أهني نفسي بخروجي من بلاده سالما .

من أن يقيم الدليل على جرم تابعه . وعلى هذا فقد انهم قوشيجى بتبديد أموال بيت المال وعزل من منصبه . ونفى أول الأمر الى قارشى ، ثم سير من بعد ذلك الى نوراته .

وحرص نصر الله أول الأمر على أن يتقى عداوة تسيعه قوشيجى القوية ففسر الزعيم أياز باى (١) حسو فوشيجى الشيخ بألقاب الشريف والكريم . حتى اذا ما عفى النسان حدا ما على ما لحق بقوشيجى من المهانة والادلال ، عند نصر الله الى الفاء أياز باى نفسه فى السجن ، ثم قتله وخننه من بعد ذلك فى ربيع عام ١٨٤٠ . ولم يكن نصر الله بصادرة أموال وزبره فحسب ، بل ود كذلك لو تسكن ، فى غفلة من حارسه الذى كان ينفذه ، من أن يطفى العنان معه لتهواته المقينه المعدده .

وما غدا أن ظهر من بعد ذلك لسكان بخارى على مسوره الحقيقة لى يعت الرعب فى قلوبهم . فقد عهد بمنصب الشرطة الى فاطم الطريق السامح معصوم بردى . وكان من مرتبه الركمان . فانه منحه داحه به ومعينا واسا سحره ليجبى الأموال له . كما عهد الى نفر من السوقه سبب الوزراء . وان لم يعم الواحد مهم بها الا لعهده ساعات على الأكثر فحسب . وما غدا معصوم بيردى بدوره أن دفع عام ١٨٣٩ ، تحت فأس الجلال ، ثمن عطف سيده الطويل عليه ، ومن تم صار نصر الله سيد البلاد الأوحده . ومن بيده حياة أهلها ومصائرهم على السواء . ومالطخ به هذا الطاعة عهده من المظالم وجرائم القتل لا يدخل تحت حصر أو بحصها عد . لقد تعرضت كل طبقات الرعة لجشعه الذى لا حد له فى طلب المال ، وعلى رأسهم التجار الأجانب بخاصه . بل ان البخاريين ،

(١) كان امار باى سعل منصب طوبجى باشى (قائد المدفعه) وكان على نراء كسر . واحبال نصر الله لكى سنولى على برويه فدعاه للانضمام الى حاسبه وأهداه فرسا تركمانا وعليها سرح فاخر . وكان اصحبه عند خروجه من عنده حتى باب فصره ويساعده على امطاء دانه . وأدرك هذا القائد السرح آخر الأمر بصيرنه ما يصمره له سيده من الحقد بحب سار هذا العطف الكاذب ، فانكها على قدمى نصر الله يساله أن يخلصه وينزل به عفاه فى الحال . هنالك أنهقه نصر الله وعافه فهذا بخداعه هذا من مخاوف ذلك الرجل المنكود وكاب فى محلها .

وهم الذين يشتهرون برباطه جأشهم في الملمات ، قد دفعهم الخوف الى أن ينسروا وده بخلف الهدايا . وبث كذلك عددا لا حصر له من انعيون بين الناس ليحبروه عن كل صغيرة وكبيرة تجرى فيما بينهم ، سواء منها ما يقع في السوق أو في المدرسة أو في المسجد أو المتنزهات العامة والحمامات (١) ، وقد سنون كذلك بين الأسر بدعوى مراقبه اسنساله أعضائها القويم بنعاليم الشرع ، لينبوا في الواقع سيدهم بما ينفي عليه وينسب نهه في جيع المال . وحرص هذا الأمير في حياته الفاجرة هذه التي كان يحياها على أن يوفر للسافين من رجال الدين من أصحاب النفوذ مطالبهم ، فكانوا نظير ذلك لا يعارضونه فيما يرتكبه من أعمال العنف والاسبداد .

والمعروف أن رجال الدين كانوا على الدوام بحدون بمعارضنهم من الحور والظلم . فكان عدولهم عن ذلك هو بشابة تعضيد الظالم فيما يرتكبه من الانم .

وكانت دعوى الدين تتخذ في ذلك العهد وسيلة على الدوام الى عابه فمن كان يحاول أن يحصى مناعه وغلثانه وأطقاله ، من دوى الحسن من الجنسب ، من أن تسد اليهم بد المستبد الجسة ، كان يسم من فوره بحروجه على ضاعه أمير المؤمنين وطل الله على أرضه ، فلا يكفر عن صنعه الجسور هذا الا بانزال أبسع العقوبات به . وكانوا ينفنون في نعذب أمثال هؤلاء الجناه ، في رأيهم ، حنى الموت ، فمنهم من كان يلقى به آاماً بأكلها في غور ملىء برون البهائم (٢) حتى يقضى ، ومنهم من كانوا يذفون به من أعلى الأسوار أو الأبراج ، ومنهم من كانوا

(١) كان هؤلاء العيوس ، على ما قل لي ، يعدون أذرعهم على صدورهم ، فيفقدون بذلك من سعه أكام الخاربين الفضاضة في دوين كل ما كانوا يسمعون من الأحداث حرفا حرفا دون أن نتبه لهم أحد في ذلك .

(٢) يعرف هذا السج المخيف باسم « البئر الأسود » أو « دار الفرد » وكانت هذه الحشرات الى نعبس على دماء ضحاياها من الأحياء تنفدى كذلك بدماء الحيوانات المذبوحة ، وكان المذب حين يلقى به في هذا العذر ينفذ أولا حتى لا يتمكن من أن يدفع عه لدع هذه الحشرات .

يسلخون أحياء ، ومنهم من كان يعرض على المواقد . وهكذا كان هذا التعس ، الذى يصدر هذه العقوبات دون أية محاكمة ، ينغمس فى حمأة الرذيلة لا يخشى الله ولا يخاف من البشر أحدا .

كان هذا هو حال الأمير الجالس على عرش بلاد ماوراء النهر فى الوقت الذى كان فيه الأفكار الأوربية والمراكز الأمامية للدول الأوربية الكبرى قد تم لها بالفعل النفاذ الى كثير من مناطق آسيا وبدأت تطرق أبواب ذلك الاقليم الذى ذاع صبه فى القديم وعفا عليه الغموض والنسيان فى الوف الحاضر . فقد انطلقت روسيا تتقدم من النسل قريبا بعد قرن فى طريق طويل كان عليها أن تواجه فيه جموع المحاربين من الأجناف خلال الصحراوات حتى وصل آخر الأمر الى شواطئ سيحون كسا زحف البريطانيين من الجنوب حتى بلغوا فى غزوهم جبال سليمان ولم بعد يفصلهم عن شواطئ جيحون الا مسيرة أيام قليلة (١) . وكان هؤلاء قد استطاعوا فى أقل من مائة عام أن يتوكلوا بانساء بعض مصانع لهم الى اقامة امبراطورية هندية جبارة .

ولا مراء فى أن اتصال أمة ولاية آسيوية بالغرب لأول مرة هو أمر بالغ الأهمية . وقد يبشر ذلك بالخبر لها مستقبلا أو يجلب المناعب عليها . فالبلاد ، التى يحول التعصب والغرور بينها وبين تطورها ، لابد أن ينتهى بها الحال الى النحل العنيف والخراب التام ، فى حين ترى الأقطار الأخرى يؤدى بها ما بدبه من الاستجابة ، قدرا ما ، والتسليم عن طيب خاطر بضروره تطوّر حيانها السياسية والاجتماعية على وجه أحسن ، اى أن نظر اليها نظرة عادلة بل والى العطف عليها كذلك .

ويصدق هذا المثال الثانى على تركيا وفارس ومصر بل وعلى شمال افريقية كله ، فى حين بنطوى تحت المثال الأول الامبراطورية المغولية بالهند وبلاد ما وراء النهر .

ففى بخارى نجد أن التعنت الشديد فى تطبيق كلّ جزئية من

(١) كان الأفغان ، اصحاب قلعة الاسلام فى آسيا ، هم الذين وقفوا سدا منيعا فى وجه الاستعمارين الروسى والبريطانى على السواء وردوهم عن بلادهم فى عزم وقود (المترجم) .

جزئيات السرعة مع ضيق أفق الأهليين وهم في عزلهم هذه في السهوب ، فضلا عن غرور المجد الزائل الذي كان يغلب عليهم • هذه كلها قد صدنتهم • وهم الذين شبوا على هذه المبادئ بعينها ، عن كل أنواع الاتجار مع الغرب المسيحي . ولم يكن على كل حال لينظر بغير هذه النظرة ، في عهد حاكم مثل نصر الله ، الى محاولة بعث حياة جديدة أو المشاركة في الحركة الجديدة التي تجتاح الدنيا . وسرى وشيكا ماذا كان من موقف نصر الله تلقاء أول اتصال بالغرب المسيحي ومدى عله عن قوة الدول الأوروبية وتفوذها .

وهناك سيري القاريء أن بلاد ما وراء النهر ، دون الأقطار الإسلامية الأخرى ، كانت منذ البداية تنفر من الإصلاح ، وأن سقوطها كدوله لم يكن بسبب فتح الروس الحدت لسرفند ، وانما كان هذا الانهيار قد تقرر لثلاثين عاما مضت بسبب سلوك نصر الله . وقبل أن نمضي في الحديث ، نجد أنه من الضروري أن ننحدث أولا في شيء من التفصيل عن علاقات هذا الأمير السياسية بما كان يجاوره من أقطار .

ذكرنا من قبل كيف طمح هذا الابن الطاغية للأمير سعيد المنعصب الى أن يصطلع بدور الفانج الكبير . وكان شهرسبز وما يجاورها هي التي هيأت له ، في المحل الأول ، الفرصة لاشباع أطباعه . ذلك أن سكان هذا الجزء من الحانية من الأوزبك ، وهم من قبائل منغ واجبايلي وقنغرات ، غالبا ما عسدا الى العصان أيام الأشرخانبيين الأول وخلعوا طاعة بحارى ، حتى عانى منهم هؤلاء الأمراء معاناة شديدة ، اد كانوا يعتسدون في عصيانهم هذا على أربعة حصون قوية ببلادهم اتحدوها لعسلباتهم الحربية ، كما كانت أراضيهم بدورها يعوق انتشار المستنفعات بها سبر الغزاة فيها . ومبدأ اتارة حقد هذه القبائل وسخطها يرجع تاريخه الى القرن الماضي ، أى زمن الحرب التي وقعت بين الأخوين مقبم خان وعبد الله خان ، وبعبارة أدق ، نتيجة المنافسة السدبده التي قامت بين قبائل المنغيت والقنغرات •

وزاد من هذا الحقد جلوس المنغستن على عرس البلاد بعد أن كانوا

أصحاب السطاق فحسب ، وعلى هذا رأينا أوزبك شهر سبز يقفون على الدوام في وجه أمراء بين المنغيتين . وجرب الأمير معصوم القوة معهم . وعاشوا سنين طويلة في استقلال نام ابان . حكم الأمير سعيد . حتى جاء الأمير نصر الله فخرج في أول حملاته لحربهم ، وخاض هذا الطاعية غمار حروب طويلة معهم ، تكرر فيها سقوط مدينتهم عدة مرات بعد حصار شهور عديدة في كل مرة . وكان بنم له في كل مرة ازغام الأهلين على الاستسلام له ، فلا يكاد ينسحب وجده حتى يعودوا الى سيرتهم الأولى من بند طاعته .

وحاول نصر الله أن يحسم هذا الأمر فنوسل بنفوذ رجال الدين مرة وبالرشوة والقتل أخرى ، ونعدى ذلك الى أن بنى بأخت زعيم القوم ، ولى النعم ، ولكن جهوده هذه كلها ذهب أدراج الرياح وبقيت شهرسبر على عصيانها حتى وفاته .

واتست حروب نصر الله مع خوقند بالعنف بدورها وان لم تسيز بجاح يذكر . وخوقند هو الاسم الذي صار فرغانه تعرف به مد أن . ولى الأشرخانيون الحكم . وعلى ما رُبما في مجرى التاريخ كان استقلال هذه الامارة السرفية قد ساع بعد آخر هزيه زب بابر . وادا صح ما علسته فاتها استطاعت أن تسرد كانهها كدوله . الى حد ما ، بعد سقوط الشيبانيين . وحين كان هؤلاء السبانسور في وجههم ظهر في انفسهم الترقى من خوقند الحالية ، فيسا بن ثوشي وما يجاور خجد ، أسرته أخذت تنافس الشيبانيين هناك .

وكانت هذه الأسرة من أصل مغولى ، ومؤسسها هو يونس خان جد بابر لأمه . وقد أدت قوة الشيبانيين الأول الى أن لزم ختسومهم هؤلاء الاقليم الجبلى في شمال خوقند ، فلم يخرجوا منه الا في محاولات فلية نادرة ليؤكدوا بذلك حقهم في العرش . ولئن كان أبناء يونس خان قد استطاعوا حقا أن يطردوا تنبل (١) من أندجان بعد أن اغتصبها ، كما

(١) كان تنبل قد تار على بابر ، حين توجه هذا الأمير التيمورى الى سمرقند لحرب شيبانى . واسنولى على اندجان ولكن اقارب بابر لأمه سرعان ما هرموه من بعد ذلك .

قاوموا نفوذ الأوزبك مقاومة شديدة بمساعدة القره فرغير والقبجاق ، الا أن خلفاءهم لم يتسكنوا من الاستحواذ على خوقند بالفعل حتى زمن سبجاتقلى خان (١) .

ومن الثابت كذلك من ناحية أخرى أن السكة والخطبة ظلنا هناك باسم ذلك الحاكم الذى يقيم على ضفاف زرفشان .

وحين ضعف سلطان أمراء بخارى ونفوذهم أخذ حانات خوقند يوسعون من رفعة أراضيهم ، بل ان هؤلاء بوصفهم أحفاد بيت فايدو ، بسطوا نفوذهم كذلك على كل الأراضي الواقعة على شواطئ سيحون ، أى على اقليم تركستان بالتحديد ، وأخضعوا خوقند لسلطانهم ابتداء من القرن الحالى ، ومدوا نفوذهم الى ما وراء طشقند .

ولقد مضى أكثر من خمسة قرون منذ أن تحارب قايدو ، حفيد وكتاي ، مع خلفاء جفناى فى سبيل الاستيلاء على تركستان . وبرغم أن أمراء المغول من هذا البيت لم تكن بأبدبهم من الونائى المكتوبة ما يثبت حقهم الورائى فى ذلك . فقد صلوا على الدوام ينسبون بدعواهم هذه وبحرصون عليها ولا نفذون بجاربون فى سبيلها . وظل حكام خوقند لا يتعرض لهم الاشرعانيون المتأخرون فى الغالب ، حتى اذا ما جاء المغيتبون تغيير وجه المسألة . فقد حاص الأمير معصوم غسار حرب دامبه فى سبيل خجنده (٢) ، كما سقط حفيده نصر الله بدوره على خوقند بسبب عبرته من أمبرها محمد على خان . وكان فد داع صبه فى العالم الاسلامى كله اثر انتصاراته على الصبيين فى تركستان الشرقية فى الوقت الذى كان الناس فيه يستنون نصر الله أمر بخارى الطاغية ويختونونه ، هذا نصلا عن أن محمد على خان كان بشتهر كذلك بحكومته العادلة وحرصه على رفاهية شعبه .

(١) هذا على ما رواه لى رفاقى فى الرحلة من اهل خوقند . ذلك انه لس لهذه الامارة تاريخ مكتوب فى العصر الحديث .
(٢) يعرف الامارة باسم خوقند (وهى فرعانة) وحجدة اول مدنها من الغرب .

وزاد من شهوة نصر الله للغزو زياده كبيرة أن ظهر عنده آفاق فارسى وضيع يدعى عبد الصمد . وهذا الرجل ، أو الوحش المجرم ، الذى دمغوه فى فارس بالتترد — وهى تعنى الكثير عند الفرس المحدثين — كان قد ظل يجوب الهند وبلاد الأفغان زمنا طويلا ، وكان يتكسب فيها من وراء بعض معلومات فى الفنون العسكرية الأوربيه كان فد التقطها فى سبابه ، حتى قدم بخارى ليحرب حظه فيها عام ١٨٣٥ « وكان حاكم بى صاحب الأمر فيها اد ذاك .

وأراد قونىجى أن يعهد اليه بأمر تدريب الجند ، لكن نصر الله آثر أن يختصه بنفسه ، فجاء ذلك وفق القاعدة التى تقول « ان الطيور على أشكالها تقع » ، فحلح عليه لقب « نائب » وعهد اليه بقيادة جيتس بخارى . وكان هذا الفارسى يحسن فنون المدفعية ويفوق فى ذلك الأوزبك على وجه التحقيق ، وكان يحفظ كذلك نداءين أو ثلاثة من الداءات العسكرية الفرنسية ، حتى وقر فى ذهن سيده بذلك أنه فد تحقق له به كفاية عسكرية فذه سرعان ما يستطيع بها أن يحرز اللقب الذى تتوفى اليه نفسه وهو لقب « فاتح العالم » .

وعلى هذا بدأ بتسيير حملته لحرب محمد على خان عام ١٨٣٩ ، ليظهر بذلك لأخيه أمير خوقند مدى قدرته الحربية . وكان الخوقنديون يستخدمون حصن پيشه كمر بسانبه خط الدفاع الأول لهم ، وكانوا قد بنوه عام ١٨١٩ . وحين طلب اليهم نصر الله أن يزيلوه فرفضوا زحف اليهم بجيشه . هنالك سنحت الفرصة لعبد الصمد ليظهر من كفايته ، اد انهارت أسوار الحصن ، وكانت من الطين ، بفعل فذائف، مدفعيته ، ليعود من بعد ذلك بالجيش فخورا بما حازه من نصر .

وعلى ما يرويه البخاريون فان محمد على ، وكان يعلم تمام العلم ميل جاره الغربى الى الاعتداء ، لم ير أن ينتظر حتى يباغته هو ، فخرج اليه بنفسه عام ١٨٤١ ، فطرد الحامية البخارية من أراتيه ، وكانت تنبع خوقند فى الواقع ، وسيطر على هذا المكان وما حوله من السواد . هنالك خرج نصر الله للقتال مرة ثانية بقوة كبيرة من فرسان الأوزبك وخسائنة من الملبسيا (سرباز) فاسترد أراتيه بعد حصار دام ثلاثة

أشهر . وفيها أقام ، على عادته ، حماما من الدم ، على سبيل الانتقام .
انقلب الأهليون من بعده يضمرون له أشد العداء . فلم يكذب يبلغ سمرقند
حتى قاموا فائتلوا مع الخوقنديين وسقطوا على الحامية البخارية
وذبخوا أفرادها جميعا قادة وجندا .

ولما أن تصور مدى اضطراب نصر الله حين بلغه ذلك ففد ارتد
عجلا الى أرانبه . ومنع خان خوقند من أن يخاطر بمحاربة عدوه اضطرابه
الى حشد قوة كبيرة من جنده عند حوض سيحون الأدنى لتراقب
تحركات الروس هناك ، فاضطرب بذلك الى أن يرتد في الطريق المؤدى الى
قصبته .

على أن نصر الله لم يتركه وشأنه ، فسار في اثره وأرغمه على القتال
قرب خجندة . وحين نزلت الهزيمة بمحمد على وبان له تعرض عاصمته
للخطر ، بادر بطلب الهدنة ، ثم عقد الصلح مع عدوه عند كهنة بادام ،
وفيه اعترف بسلطان أمير بخارى عليه وسلم اليه مدينة خجندة وعدة
مواضع أخرى . وأدى بأمر بخارى حقه على عدوه المقهور الى أن
أقام على تلك النواحي المفتوحة أخا لغيره هذا كان فد لجأ الى بخارى
من قبل . وقد ارتكب نصر الله بفعلته هذه خطأ كبيرا دون أن يدري .
ذلك أن أم الأميرين ، وكانت على قيد الحياة ، ما لبثت أن أصلحت ما
بين الأخوين ، وبهذا عادت خجندة الى حوزة خوقند ، وصار لنصر الله
عدوان بدلا من عدو واحد . على أن حق أمير بخارى المستبد لم يكن
يعرف حدودا ، ففد دفع به ظمؤه للانتقام الى أن يخرج في أكثر من
الغارات المعتادة . فضلا عن جيشه العادي ، وكان قوامه ثلاثين ألفا
من الفرسان وألفا من الميلشيا ، استخدم عشرة آلاف أخرى من التركمان
من قبائل تكة وسالور ، وأسرع بهم جميعا الى خوقند فباغت محمد
على حتى اضطره الى الفرار من حاضرتة ، ليستقط من بعد ذلك بأيدي
عدوه قرب مرغلان ويعدم (١) بعاصمته نفسها هو وأخوه وولده ، بعد
عشرة أيام من وقوعه في الأسر .

(١) ذهب نصر الله ببر فعله البسعة هذه ، فنشر على الملأ أن محمد
على كان على علاقة آتمة بأمه فهو بهذا يستحق الموت بنص الشرع .

ولم ينج من الموت حتى زوج هذا الأمير النعمس وطفلها الذي لم يكن قد رأى النور بعد .

ولم يعد نصر الله الى بخارى الا بعد أن أسلم أغلب أتباع محمد على الى الجلائد وصادر أموالهم جسيما . وعهد بأمر المدينة المفتوحة الى ابراهيم بن من مواليد مرو وترك معه ألفين من الجند .

وبرغم أن ما حاره البخاريون من الانصرابات كان مرده الى حد كبير لنفوقهم في العدد ، الا أن ما سعى اليه نصر الله من بذل بدور النفاق بين رجال قبيلة الفجاي (١) الأقوياء من أصحاب النفوذ حتى ساءت المصروفه بينهم ، كان له بدوره أثره البارز في احرار هذا النصر . ولقد أفلح ، بعض الوقت ، في حمل هؤلاء على الابتعاد عن المشاركة في أى نشاط سياسى ، تم دفع بهم سلوك البخاريين الفظ آخر الأمر الى خروجهم عن حيادهم ، فتغلبوا على حامية خجندة وسيطروا على المدينة ثم اجلسوا على العرش سبر على خان ، أحد أبناء محمد على (٢) ، وكان قد لجأ عندهم . لينطلقوا من بعد ذلك يبدلون هسهم في تحصين المدينة . إذ كانوا يوفنون بأن نصر الله لا بد وأن يعود للانتقام من فوره . وأحيطت خجندة لأول مرة في تاريخها بسور قوى من الطين . ولم يكد القوم يفرغون من بنائه حتى وصل الى ظاهر المدينة جيش بخارى قوامه خمسة عشر ألفا من الخند بفرودهم أمير من يطالبون بحقوقهم في عرس خوفند وكان يعين في رحاب نصر الله منذ زمن طويل . والظاهر أن هذا الأمير . ويدعى مسلسانفلى ، كان قد استطاع أن يتصل بسواطيه وهو في طريقه اليهم ففتحت له أبواب المدينة ، ليعلن عند ذلك من فوره خلعه لطاعة نصر الله برغم وعده به بأن ينادى به خانا على خوفند اذا هو ما بقى

(١) أن الفجاي الذين لا تزال قلة منهم بهم عند الشمال السرمي من حابه خوفند . هم أسجع القبائل التركية وأندهم بمرسا بالقبال . وبعدون من أصلا المفل الذين يعرفون باسم مفل الحته ، وهم الذين خاضوا غمار حرب شعواء ضد نيمور ، واستطاعوا من بعد ذلك برغامه أبناء بونس خان أن يسودوا القسم الشرقى من تركستان .

(٢) عن سحره سب محمد على انظر كتابى

على طاعته له . كما أرغم . سعاونة مواطنيه ، البحارين الذين كانوا قد جاءوا معه على الفرار . ونزل بنصر الله الداء من فرط غيظه وكسده ، فبعث وهو على فراش المرض بحملة الى خوقند بقودها شاهرخ ميرزا ، فلم يبلغ رأسه حتى كان أمير بخارى المستبد قد وافاه أجله كيا سترى فى النو ، فوضع موته بذلك حدا لهذه الحرب . وتنتج عن التآمر المستمر على خوقند نتائج سببه أحاقب بها ، فلم تستطع أن تقف فى وجه الروس طويلا وهم يقدمون على طول مجرى سبحون الأدنى . أما فى داخل خوقند نفسها فقد بقى كل شئ على حاله .

ولم يكن نصر الله بدوره على علاقات طيبة مع خان خيوة جاره الغربى . وبهذا أضيف منذ قيام بيت المنغبيين حلقة جديدة الى الداء القديم الذى كان يقوم بين خيوة وبخارى . وفيما كان جيش الفتح الروسى يسرى فى عملياته الحربية ، دون تظاهر أو توقف عارض ، وشرب طلائعه بالتدريج من الشاطئ الأيسر لسحون وشواطئ بحر آرال . ركن عناصر القزاق من رجال « القبيلة الصعرة » و « القبيلة المنوسطة » ممن قد ضاقوا ذرعا بالحكم الروسى ، الى التزوح الى الجزء المسكون من واحات تركسان ليعيشوا هناك مطمئنين — على رعيهم — فى ظل الحكومات الاسلاميه المستقلة . ولكمهم . كما سوف نلاحظ . وجدوا هناك خلافا ما كانوا يملكون تماما ، كما صار قدومهم هذا بدوره مصدر مناعب حلب بلك الولايات .

فقد ادعى كل من خيوة وبخارى بعيثها لها ، فلم يبق كاهل هؤلاء القزاق بما كان عليهم أن يدفعوه لعاهلين معا من الخراج المفروض عليهم فحسب ، بل صاروا هم أنفسهم كذلك سببا لنزاع بين هذين البلدين أدى الى قيام الحرب بينهما مرة كل عشرين سنوات . واصلت الأعمال العدوانية بين هذين الاقليمين طوال عهد نصر الله . بل انه حين أقبلت الحملة الروسه بقيادة الجرائ يروفسكى فى تهدد مركز الله قلى خان أمير خيوة لم يردد أمير « بخارى المقدسة » من أن يوسع نطاق غاراته حتى هزارس . فأعان بصبعه هذا العدو المشترك فى ناحيته

الغرب وناحية الشمال الشرقى . واستمر عدوان البخاريين طوال حكم رحيم فلى خان الذى حكم بخيوة منذ عام ١٨٤١ حتى عام ١٨٤٣ .

وجاء محمد أمين خان (١٨٤٣ - ١٨٥٥) فاستطاع بقوة ساعده أن يوقف هذا المجنوق الذى كان يحكم على ضفاف زرفشان عند حده . ومع هذا فقد ظل نصر الله يكن دفين الحقد ومقيت الكراهية لبني جلدته وملته الذين كانوا يقيسون عند حوض جيحون الأدنى (١) .

لم تكن بخارى فى أى عهد من العهود على علاقات طيبة مع فارس ولا سيما أثناء حكم نصر الله . ففى عهده كان أكثر من عشرين ألفا من الفرس برفسون فى غلى الأسر ببخارى ، وأغلب هؤلاء كانوا من أبناء وذباب فارس الشمالية الترفية . وبرغم ما بلغه كثير منهم من عليا المناصب فى الدولة فمصائب صورة ما نزل من الشقاء بمدن وقرى بأكملها حين قضى على كل سكانها لم تكن لتجعل عباس ميرزا يقف من هذه المأساة المروعة موقف المتفرج الذى لا يعنيه من الأمر شيئا . وكان هذا الأمير ، وهو أقدر أبناء فتح على شاه وأنسطهم ، يعيس اذ ذاك بخراسان . وكان قد تم له طرد التركمان من سرخس ومرو . وأثار مخاوف أمير بخارى ، بحق مقام هذا الأمير فى مرو ومعه جيش قوى . ولولا أن هذا الأمير الطموح لم يكن قد قصد من وراء اقامته هناك الى دفع خطر التركمان الذين كان يحركهم الله فلى خان خيوة ، لكان ، وهو الكلف بالمجد ، قد سير ، أغلب الظن ، فرقه من جيشه ، ان لم تكن لتهاجم بخارى العاصمة نفسها فلا أقل من أن تغزو احدى بلدان خاتية بخارى الغربية .

وحين منع عدوان خيوة والتركمان هذا الأمير الفارسى من أن يفعل شيئا مع نصر الله أكثر من تهديده له ، ظن أمير بخارى فى نفسه

(١) برغم أن كليهما من الأوزبك وأنهما ينتميان الى قبيلة واحدة ، فان سكان خيوة وبخارى من الترك قد عاشوا فى عدااء متصل لعدة أجيال ، وبعد الأوزبكى فى بخارى ابن جلدته فى خيوة جلفا غير متمدين ، فى حين يرى الخيوى أن البخارى مخادع منافق ، حتى تشمل فيه ردائل التاجيك جملة .

أن الفرس لا يجزؤون على مهاجمة خولهم ، وعلى هذا فقد عثر
يتناول على فارس أكثر من نى قبل . وكانت الأحوال يبلد الأفتان
بنورها موالية لشيع هذا السيد العظمى للماء شهواته فى السلب
والنهب والسيطرة .

فقد كانت الدولة الأفغانية التى أقامها أول أمير من بيت القديراتين
قد مزقتها قن الوراثة التى كانت تقوم باستمرار بين الاخوة ، وكان
رنجيت منغ (أحد النجباب) قد استطاع أن يمد جلده حتى يشمر
بعد أن هزم الأفغان فى موقعه فوجروا هزيمة شديدة . وتمكنت فارس
بنورها من استرداد جزء من خراسان ، وطلعت فوق هذا أن تعرض
من خسائرها السابقة بالاستيلاء على بعض مناطق الأفغان ، فهاجرت
هراة . وكان الخويون قد استطاعوا فى عهد رحيم على أن يكرروا
شوكة الجشدين ، وهم بدو من أصل إيراني كانوا يعيشون فى
حوض نهر مرغاب الأعلى . فلا عجب لئن أن نرى نصر الله يعود عيده
من هذه الفرس المواتية له قيسط سلطانة وتعود على التلغى الأمير
ليحيون ويسترد بذلك ليطرى تلك المنطقة التى كانت تسمى ملكيتها .
ولئن لم تنجح فى الواقع فى ضم بلخ وغلج وأغخوى وميه الى ملكه ،
وهو ما لم يكن يحرم عليه فى السلب بسبب الخراب والاضطراب الشلل
الذى كان يسود تلك المناطق ، فقد ظل على كل حال صاحب النفوذ
المطلق فى تلك المناطق الصغيرة حتى حرب يار محمد التى غيرت من
مجرى الأحوال هناك . وظلت هذه تنفع له جيرة صغيرة مقرونة عن
طيب خاطر لتكون بذلك فى كف أمير بطورى فيضع عنها غلات الفرس
والأفغان .

وهكذا نرى نصر الله والأطمان تسجبه على أن يلقى العنت
لأحلامه الباطلة بالعظمة . ورغم مما لحق به من الخوارج فى بعض
المناسبات ، فقد ظل يرى أنه يحيط به عظمة السلطنة (ملك الملوك)
وكان هذا بلا شك غباء منه وأمرًا يثير السخرية ووبها يعلل . على أن
هذا كله كان فيه الكفاية ليحل ذلك الطاغية على أن تصرف فى الوقت

نفسه مع الدول الأوروبية بنفس العطرسة والجسارة التي كان بارسها مع خيوه وخوقند ، وفي وهه أنه يعيش في مأمن وراء صحراوانه الرملية وهو لا يدري عن العالم الخارجى تبيًا .

ولقد ذهب بارس مغامراته الجريئة . دون وازع ، مع وجود روسيا وبريطانيا اللتين وصلتا بشركتهما السياسية الى مسارف بلاد ما وراء النهر . ولم يكن أغلب الظن ، ليجتاج الى أعمال الفكر في كثير ليقع نفسه بأن ظل الدولة الكبرى الذى يقترب من نوران في ناحية الشمال ، سوف تمتد رفعه مع الزمن حتى يدخل في دائره أقرب حلقاته من بعده .

أما ما كان من أمر روسيا خاصة، فإن هذه الدولة كاد لها اتصالات سياسيه مع بخارى في قرون ماضيه . ذلك أن طريق التجارة القديم الذى كان يعموم كذلك في الفرون الوسطى ، وهو الذى كان يخرج من قلب آسيا فيسير بحذاء مجرى الفولجا حتى يبلغ موسكو ونوفجراد ، قد تجهم بحر التجار فيه قيام الاتصالات ، من وقت لآخر ، بين دوقات روسيا الكبار وخانات بخارى . ولم يكن الرسل الذين بروحون ويجنبون بين هؤلاء الحكام يتصدون لغبر المسائل التجارية .

وأول سفارة سياسية ، بالمعنى المفهوم ، سارت من روسيا الى بخارى ، هى التى كان على رأسها م. نجرى M. Negri عام ١٨٢٠ م . وكان اليارون ج. فون مايندورف G von Mevendorf عضو هذه البعثة أول من أمدنا بتقرير وثيق عن بخارى . وبدأت من بعد ذلك الطواوير الروسية تحفها عند مسارف السهوب الجنوبية ، وكان الرمال قد انشقت عنها . وما لبثت أن اشتبكت في منازعات مع خانبة خوقند وخيوه بسبب الحدود .

أما بخارى فقد كان الأمر معها على النقيض ، إذ أشأ الروس معها علاقات ودية ، أرادوا بها أن يتجنبوا أى اشتباك مع أكبر الخانات وأعظمها حتى يفرغوا من أمر ما هو أصغر منها وأضعف شأنًا .

وهذه السياسة كان يكتب لها النجاح التام لو أن بريطانيا لم تنظر الى أهمية بخارى من زاوية أخرى متعارضة ، فلم تبغ فتحها ، وانسا

عملت على حماية هؤلاء الذين يتهددهم الغزو ، وبأن ميلها الى اقامة علاقات مع تلك الدولة التي تقوم على ضفاف زرفنان . وأدى هذا التنافس بين الدولتين الأوربيتين المسيحيين الى ازدياد غرور نصر الله ووهمه في قوته وأهميته . كما سئى ، حتى بلغ به الحمق درجة كبيرة . وبدأ التنافس من الجانب البريطانى عام ١٨٣٢ برحلة الكسندر بيرنز شبه الرسمية . تلك الرحلة التي أعطاها روسيا من الاهتمام أكثر مما تستحق في الواقع . وفي عام ١٨٣٤ غادر المبعوث ديسيزون Demaison مدينة بطرسبرج ومن بعده فينكوفيتس Vitkovitch عام ١٨٣٥ ففصدا بخارى وضاها غرضها السعى لاطلاق سراح الأسرى الروس هناك . أما ما كان يهدد فان اليه في الواقع فهو أن يؤكد للأمير ، بالأسلوب الذي يضيع في بلاده ، صداقة القيصر الروسى نيقولا المنكبر الخالصة ويعرضها عليه مساعداته المنازلة .

ولقد جاء تأكيد صداقة القيصر هذا في وقت مناسب ، فبما كان نصر الله المتعاطس يسنع الى تلاوة الوثائق الدبلوماسية الروسية وهى تلى عليه بما يحويه من أنقاب التفخيم له (١) ، كان الجوش الروسية تقترب بالتدريج من المناطق المزروعة بالسهب دون أن يلقى سكان بخارى بالا الى أصوات المدافع الروسية عند سيحون . وقد أظهر المبعوثون

(١) كان ، روسيا تصع نصب عينها المبدأ العائل « حين تكون فى روما فافعل ما يفعله الرومان » وعلى هذا فقد راعت بدقة التقاليد الشرقية فى اتصالاتها بالحكام الشرقيين . وفي مذكرات زاليسوف Zalesoff التى تناولت المسائل الدبلوماسية بين روسيا وبخارى فى الفترة ما بين عامى ١٨٣٦ ، ١٨٤٢ ، يرد مال لما كانت عليه المراسلات الرسمية بهذا الشأن فى خطاب للجنرال بيروفسكى Perowsky حاكم أورسرخ العسكرى اذ ذاك ، وفيه يحاطب الأمير بهذه العبارات : « الى مرجع الحكمة والترع المبجل الكامل الامير العظيم الخطير (يقصد نصر الله) ابن الحاقان الكريم مصدر العرفاء ، والمجد والنظام ، مشيع السعادة ، نقدم اخلص احترامنا واجلالنا ، ساء الله على عرش المملكة والعمر ، وحفظك من كل سوء وشراً ، ومد فى عمرك » . انظر فى ذلك

The Russian in Central Asia, translated from Russian by John and Robert Mitchell, London, 1865, p. 409.

الروس كثيرا من ضبط النفس وطول الاناة اراء طريقة الأمير في رده عليهم .

وكان نصر الله حين يريد أن يخلع على أحد حجابيه أو كبار أمراء بيته منصبا مربحا ، يبعث به ممثلا له في بطرسبرج حيث يجمع مزيدا من الهدايا الثينة يشاركه سيده فيها . وبعث نصر الله في إحدى المناسبات بدبلوماسي جاهل ليسأل الحكومة الروسية أن تبعث له بدمرين عسكريين • وعمل مناجم مهرة أو غيرهم من الصناع القادرين ، مع استعداد الأمير لأن يدفع لهم أجورا مجزية .

ومن اليديهي أن مثل هذا الطلب لم يكن في الواقع الا مجرد نزوة خيال عابرة ، ذلك أن هذا الأمير المرتاب لم يكن يسمح أبدا لضباط من الأجانب (١) أن يسبحوا في بلاده فيقفوا بذلك على أحوالها . وتقد آخر الأمر صير الروس اذ كانت الهزيمة قد لحقت بالحزب الذي كان يقف في وجه البريطانيين ببلاد الأفغان ، واضطر دوست محمد خان زعيم هذه الجبهة الى أن يفر الى بخارى . وحين جاءت الأخبار بوصول طلائع البريطانيين الى شاطيء جيحون الأيسر ، شرعت روسيا تحاول أن تصل الى اتفاق ثابت مع بخارى فأوفدت اليها لهذا الغرض عام ١٨٤٠ الماجور بوتنيف Butenief على رأس بعثة سياسية عليية . وكانت التعليمات التي زود بها هذا السفير هي أن يبذل غاية جهده في اقناع الأمير بما يحمله بلاط بطرسبرج من المحبة والعطف الخالص نحو البلاد الاسلامية، فمن ذلك ما فعله قيصر الروس مع السلطان محمود الثاني في محتبه مع محمد علي والى مصر ، وما كان من موقفه كذلك مع محمد شاه سلطان فارس ، وهو لا يتردد في أن يكون لنصر الله بدوره نصيب منه كذلك ، على أن يتعهد له نظير ذلك بأمور معينة هي :

أولا : ألا يقوم بأعمال عدائية ضد روسيا لا في السر ولا في العلن •

(١) حدث إبان سفارة بوتنيف ، أن قامت بعثة علمية ، حقيقة ، برحلة في الاقليم الجبلى بالقرب من سمرقند ، الا ان الأهلين كانوا يترصدون خطاهم وكانهم جواسيس ، حتى لنعجب حقا كيف استطاع لهما من وجاكوفليف Lehmann and Jakovleff أن يتما ما قاما به .

ثانيا : ألا يحفظ عنده بأسرى من الروس وأن يصس سلامة الرعايا الروس وممتلكاتهم في بلاده .

ثالثا : ألا يصادر مناع الروس الذين توافيهم المية ببلاده . بل يبعث به الى روسيا .

رابعا : أن ينعج البحارين من السطو على الرعايا الروس أو ارتكاب أعمال العنف معهم ، وأن يعاقب في الحال كل من يرتكب منهم شيئا من ذلك .

خامسا : أن يوحد الرسم المفروض على البضائع الروسية بحسب لا يزيد على خمسة بالمائة من قيمة كل سلعة .

سادسا : ألا يتعرض التجار الروس للمضايقات أو الأذى ببلاده ، وأن يوفر لهم ببخارى من الحماية ما يوفره الروس للتجار البحارين في بلادهم .

وبقدم روسيا بدورها الى الأمير بكثير من الامنيارات والمناجع نظير ذلك . وحين تقدر قيمة هذه السفارة ومبلغ ما كان عليه أعضاؤها من الكفاية لا نعجب عند ذلك لما كان يقدرونه لها في بطرسبرج من السجاح المنتظر في مهنها .

ان روسيا نفسها ، وهي دولة آسبوية ، قد خانها خبرتها فخدع الى حد ما في تقديرها لنصر الله . فكيف يكون لهذا الأخرق أن يدرك الفرق بين بعثة تضم مجرد ممثل عادي وبعثة أخرى فيها سفير فوق العاده . وهل كان ينتظر من ذلك التابع السابق والوزير الحالي عبد الخالق ، وهو شاب في التاسعة عشرة من عمره ، أن يبلغ الى أن يوقف أميره على ما كان يحوبه الخط الامبراطوري وما تشبر اليه أوراق سفاره الكونت نسلرود Nesselrode . ولئن كان هذا السفير قد لمى من حسن الوفادة وكرم الضيافة ما لا يدع زيادة لمستزيد ، الا أنه لم يبلغ في مهنة الى شيء . فقد تلقى نصر الله هدايا أخيه الامبراطور الذي بفهم على شاطئ نيفا ورسائله بعطف زائد ، كما أفاد من علم التعدين الذي كان

بعض أعضاء البعثة على دراية به ، ومع ذلك فإن أعضاء البعثة لم يستطيعوا أن يحصلوه على الدخول معهم في مفاوضات بنأى المعاهدة التى كانت روسيا تشدها ، فكان يتعلل حيناً بضرورة خروجه من فورده لزيادة جيشه المظفر فى خوقند ، ويعتذر حيناً آخر باشتغاله بهذا الأمر المهم أو ذاك من أمور الدولة ، حتى انقضى بذلك على الوفد الروسى . بخارى ثمانية أشهر ، كان الماجور بوتنيف يلح فيها عبثاً فى طلب مقابلة الأمير ، حتى دعى آخر الأمر ليسنع الى « النطق السامى » منه .

هنالك ظهر نصر الله فى البلاط وهو يهم بامنطاء جواده ليخرج الى حرب خوقند ، فقال فى عجلة زائدة للسفير فوق العادة والمدوب المفوض للقيصر نقولاً بأنه قد عهد الى الموكل بالمائدة (دستور خوانجى) (١) بقضاء المهمة التى جاء من أجلها ثم ودعه ونفذ بفرسه من بوابة القصر .

وهكذا كانت هذه هى أول مرة بدرك فيها السفير الروسى ، أو بدرك سيده الامبراطور بعبارة أدق ، مدى المهانة التى لحقت به على أيدى هذا الجلف . وسخط الروس من هذه المعاملة أشد السخط . ولكن نصر الله لم يكترب أدنى الاكرات لمخالفته هذه للعرف الدولى . فقد زادت انتصاراته بخوقند من غروره عن ذى قبل حتى باب بحلم بالاضطلاع بدور نظير دور جنكيز أو تيسور . وزالت مخاوفه من أى عزو بريطانى حين علم بحبر الكارثة التى حلب بالبريطانيين فى كابل ، اد نزلت بهم مذبحه وطردها من المدينة . وحين رأى الأفغان — وهو الذى يرى فى نفسه الاسكندر المقدونى بالقياس اليهم — قد غلبوا جيساً نظامياً لدوله أوربية عظمى ، حسب أنه لا بأس عليه من سخط عدوه التسالى الذى كانت قيادته على تلك المسافة البعيدة من حدود بخارى . لا يعجب أحد من بعد ذلك حين يرى بريطانيا وهى التى تستمسك

(١) دستور حوان معناها الحرقى غطاء المائدة الذى يوضع عليه الطعام فى وسط آسيا ، ومن معانيها العامة تقديم مائدة للصف قبلتزم بتناول شئ مما عليها . ويعرف من يقوم بالخدمة عليه باسم دستور خوانجى أى الموكل بالمائدة .

كن الاستسك بسببىء الأخلاق الأوربه حنى حين تعامل مع المكابرين.
المنعسين من الأسويين . تجى فوائد لا نذكر من وراء صفقاتها ، مع
بخارى ، بل وتنزل بها كذلك من المهانات أكثر مما نزل بروسيا . وما دعا
بريطانيا الى الاتصال بتلك العاصمه الى نفوم على ضفاف ررفسان هى
أمر حدينه معروفة تمام المعرفة ، شائع أمرها ، فلا تدعو ضرورة لتفصيل
أمرها فى هذا المكان . فنسد اللحظة الى عبرت فيها القوات الهدية
البريطانيه نهر السند بدا أنه لا بد من الاتصال بأسبأ الوسطى وإقامه
العلاقات مع بخارى مركز السباسب والدين فيها . وبى هذا الاتصال فى
الواقع على سببين : ففى المقام الأول أن بخارى برغم ما وصلت اليه
من الضعف والانحلال ، الا أنها ظلت تزعم غيرها من إمارات آسيا
الوسطى ، وذلك بفضل أمجاد حكام بلاد ما وراء النهر السابقين التى ظن
حلفائهم يعيشون على صينها . فما كانت بخارى نستحسنه كان الآخرون
يسلمون به ويقلدونها فيه ، وما كانت بخارى تجنيه كانوا هم بدورهم
يفيلون عليه كذلك . وعلى هذا فقد كان على بريطانيا أن تشد ود بخارى
حتى تعزز من مراكزها فيما وراء جبال سلبيان ، تلك المراكز التى سعت
للحصول عليها ، لسوء الحظ ، فى عجلة قبل الأوان (١) ، ونسج عن ذلك
أن اضطرت الى اخلائها فى خسارة .

وفى المقام الثانى ، أن الحقيقه الكامه فى أن دولة أوربيه أخرى قد
ميت بالفشل فى بخارى كما منيب به روسيا من قبل ، قد جعلت من هذه
المدمه مسرحا للصراع فى التسابق ، ذلك الصراع الذى أثار كثيرا من
الجزع فى بريطانيا ، اذ لم يدر بجلد القوم هناك أن الموقف فى بلاد
الأفغان هو وسير الأمور فى الامبراطورية الهندية سيبلغان ما بلغاه ذاك
مر الحرج الشديد . ومن العسير أن نحكم بأن هذه الظنون كانت تقوه
فى الواقع على أساس ، أو أن القوم قد بالغوا فيها كثيرا ، فذلك ماسوف

(١) بل أقول « ارجالا » ذلك أن البريطانيين لو أنهم كانوا قد عبروا
ستلح أولا وتنتوا أقدامهم فى البنجاب ، ثم أخذوا من بعد ذلك يدرسوا
أحوال بلاد الأفغان لبضع سنين بآصالهم المباشر بهم ، لما انتهت حملتهم
الى هذه الكارثة . بل ولعلمهم كانوا لا يقدمون عليها أبدا .

سجله لنا الأيام مستقبلا . ولما كان من منهجى فى هذا الكتاب أن أكتفى بتسجيل قيام مثل هذه الظنون والآراء فحسب ، بصرف النظر عن وجهة نظرى التى أبديتها فى بعض المواضع (١) ، فانى أحسب أن هذه الظنون كانت سببا ثانيا أدى بالبريطانيين الى ايفاد بعثة الى بخارى . ولم تكن لأسفار الكسندر بيرنز أية صفة رسمية ، ويمكن حسابها فى الواقع مجرد جس نبض سياسى فى السر . وبهذا تعد بعثة الكولونيل ستودارت الى بخارى عام ١٨٣٨ م أول بعثة تقيم العلاقات بين الحكومة Stoddart البريطانية وحكومة بخارى . وقد تلقى ستودارت التعليمات من السفير البريطانى بطهران بأن يؤكد لأمير بخارى أنه ليس هناك ما يشير مخاوفه من جراء النفوذ البريطانى فى بلاد الأفغان ، وأن بريطانيا جد توافة لاقامة علاقات ودية مع بخارى ، وأنها بذلك على استعداد لمساعدة أميرها اذا ما تعرضت بلاده لخطر أى غزو خارجى .

ومع أنه كان لا جدوى على الاطلاق فى أن تتقدم أى دولة أوروبية تقترض مودتها على أمير متعصب مثل نصر الله الذى كان يمقت المسيحيين كل الملقب (٢) ، فقد كان اختيار رئيس هذه البعثة بالذات ، وهو الذى كان عليه أن يضطلع بهذه المفاوضات ، أبعد مايكون عن التوفيق بدوره . فمما لا نزاع فيه أن الكولونيل ستودارت كان ضابطا ممتازا يتحلى بكل

(١) أعلنت آرائى فى هذا الموضوع بالمصادر الآتية :

١ - الفصل الأخير من كتابى Sketches From central Asia, 1897.

٢ - أعداد نوفمبر وديسمبر ١٨٦٨ ويوليه ١٨٦٩ ومايو ونوفمبر

١٨٧٠ من المجلة الألمانية Unsere Zeit

٣ - وكذلك فى

Globus, eine durch Dr André derigierte geographische

Zeitschrift vol. XX, pp 81, 105 c 122.

(٢) لا جدال أن الأمير نصر الله كان بعيد النظر وعلى حق فى مواقفه الواعية هذه ، فعن طريق مثل هذه البعث بلع المستعمرون البريطانيون الى الاستيلاء على الهند ، والروس الى التوغل فى آسيا الوسطى ولولا أن وقف الأفغان ليوبا ضواري فى وجه البريطانيين لضاعت بلادهم بدورها . وكل ما يؤخذ على نصر الله أنه لو كان قد عدل عن حربه ضد جيرانه قاتلوا جميعا فى وجه المستعمرين بدلا من تحاربهم فيما بينهم لامتنعت بلادهم على كل دخيل (المترجم)

للمضائل التي تليق بمنصبه ، ولكن حدة مزاجه ونباهه العسكرية الخشنة وبعده عن المرونة السياسية ، هذه كلها كانت تفيد في قيادته لفرقه أكثر مما تفيد في بعثة دبلوماسية . فمن كانت له هذه الصفات لم يكن يستطيع بطيعة الحال أن يصل الى شيء مع رجل صلب عنيد كنصر الله . فقد أثار منذ أول الأمر سخط الأمير وغضبه بإصراره في حق علي رفض اتباع التقاليد التي تجري ببخاري عند مقابلة الأمير . فذلك الكافر الذي اجتراً على الركوب في خيلاء ببخاري « الشريفة » وفي ريغسان بالذاب حيث ينزل كل انسان في حرمة عن دابته ، والذي رفض أن يؤدي لأمر المؤمنين ما يجب نحوه من آيات الاحترام ، وظهر عند عتبات العرش ويده حالية من الهدايا ، كانت فعالة هذه أكثر مما يحتملها الأمير الحائق . فما غدا بعد مضى يومين على مقابلته له أن أمر بالقبض عليه بطريقة مهينة وألقي به في محبس محيف . وهنالك أخذ الأمير يلهو بهذا الضابط المنكود الحظ كما يلهو السر بفريسته . فكان وقتاً ما يأمر بتعذيبه في سجنه ليطلق سراحه من بعد ذلك وقتاً آخر ويغمره بنكريسه له . وكان أساس معاملته يختلف من وقت الى آخر تبعاً لما كان يرد من الأخبار بين الفينة والفينة عن وضع البريطانيين في بلاد الأفغان . ولم تفلح وساطات السلطان (العثماني) أو شريف مكة أو شاه فارس أو أمراء الامارات المجاورة لبخاري ، في انقاذ هذا الأسير التعس ، ولا حتى وساطة روسيا التي بذلت كثيراً من الجهود عبناً ، بواسطة الماجور بوتنيف ، لتتخذ ممثل الدولة ، التي تنافسها ، من الدمار المحقق . وقد أرغم ستودارت على اعتناق الاسلام ، وان رفض أن يجهر بذلك ، وقضى هناك أربع سنوات نزل به فيها كل صنوف التعذيب والمهانة ، حتى وجد في أحد مواطنيه رفيقاً له في محنته وسلك معه آخر المطاف الطريق الى الموت .

كان الكاتبن آرثر كونوللي Arthur Conolly ، وهو الذي رافق ستودارت في سجنه ، قد خرج من كابل في الثالث من سبتمبر عام ١٨٤٠ في بعثة دبلوماسية الى آسيا الوسطى . فقد أخذ الساسة البريطانيون يدركون شيئاً فشيئاً أن المراسلات الدبلوماسية بين لندن وبترسبرج لن يكون من ورائها جدوى ، وأن روسيا سوف تواصل سياستها العدوانية

بازاء الخانيات الثلاث ، فلم يبق بذلك لهم من سبيل الا أن يتجهوا الى
 أمراء هذه الخانيات ويحاولوا أن يفتحوا عيونهم على هذا الخطر الداهم
 الذى يتهدهم ويحلوهم بذلك على الدخول فى تحالف دفاعى هجومى
 معهم .. وكان انشاء تحالف بين تلك الأقاليم ، التى عاشت قرونا متعادية
 أشد العداء ، فكرة غير عملية ضئيلة الحظ من النجاح الى أبعد حد .
 وكذلك كان الحال فى اختيار النخس الذى وكل اليه هذا الأمر .. فقد
 كان كونوللى رفيق المساعر نبيل الخلق ، وكانت نفسه متسبعة بأرفع
 الأفكار المسيحية ، حتى كان يرنو بعين بصيرته لا الى تحرير رقيق آسيا
 فحسب بل الى تحرير رفيق العالم كله . وهكذا كان على حامة السلام
 العالمى هذا أن يدخل فى مفاوضات مع هذه النور السوداء التى كانت
 تجلس على عروش آسيا . وكان قد سبقه الى خيوه من قبل الضابطان
 البريطانيين آبوت وشكسبير فى بعة انسانية لمحاولة اطلاق سراح الرقيق
 انروسى . وقد استقبل الله قلى خان الضابط كونوللى بترحاب ، ولكن
 جهوده فى ميدان السياسة لم تصادف قدرا يذكر من التوفيق هى ومسايعه
 لاطلاق سراح الأسرى . ذلك أن الأوزبك المحاررين يرون فى فوات الرى
 والعبيد أدوات لا بد منها لتأمين عسهم اليومى .

وأجاب الحان على موضوع التحالف مع بخارى وخوفند بأنه لا حاجة
 به الى نصيحة الأجانب فى هذا الشأن ، وطلب أن تسده بريطانيا بالأسلحة
 والمال اذا كانت تريد حما أن تقيم الدليل على صداقتها له . وعلى هذا فقد
 غادر كونوللى خيوه الى خوفند بحر أدبال الخبة . واضطر لكى تجنب
 المرور بأراضى بخارى الى أن يخوض السهوب النسالية ، فى طريق
 يبدأ ، على ما أعلم ، من جيزك ، لم يطره أوربى من قبل . ولم يكن ما
 استقبل به من الحفاوة فى ذلك القسم الشرقى من تركستان دون ما لقيه فى
 خيوه . وكان محمد على أمبر خوفند اذ داك منسبكا فى الحرب مع
 قصر الله : فكان وصول ضابط له دراية باستخدام الأسلحة الأوربية
 وخطط الحرب اذ ذاك مما يرحب به الأمير كل ترحيب ، فاستقبله استقبالا
 حافلا وهو بأمل أن يفيد من وجوده بعض الفوائد الحربية . ولا نعرف
 مدى ما بلغه كونوللى من نجاح فى مفاوضاته مع محمد على ، ذلك أن كل

مذكراته التي كان قد كتبها في خوقند قد ضاعت . والغالب أنه لم يصل معه الى ما يستحق الذكر .

ذلك أن ما وصل اليه مركز أمير خوقند من حرج بسبب الحر حال بينه يقينا وبين التفكير في رسم خطط مستقبله . وحين رأى كونوللى فشل خطته في خوقند اندفع بلا تبصر يلبي دعوة الغادر نصر الله فزاره في معسكره بمحرم غير بعيد من خوقند . ذلك أن نصر الله كان قد ارتاب في أن كونوللى هو الذى دفع بجاره الشرفى الى حرب بخارى ، فاحال على أن يوقعه في شباكه واستخدم في ذلك موطنه ستودارت ليحملة على الفدوم اليه . ولم يستمع كونوللى الى تحذير الخوقنديين له من غدر ذلك الأمير فعقد العزم على السير الى معسكره ، فما ان بلغه حتى ألقى القبض عليه في التو ، وجرّد من كل ما كان معه . ثم سير الى بخارى من بعد ذلك ليشارك ستودارت أسره المخيف . وقد نشر الكاتب الانجليزى الهندى ج. و. كاي J W Kaye ، وهو عالم كبير وكاتب مجيد ، في كتابه : « صور من حياة الضباط الهنود : "Lives of Indian Officers" (١) » بعض فقرات من مذكرات كونوللى التي كان كتبها في سجنه . وهى ان كانت مجرد خطوط اجمالية للصورة الحزينة ، الا أنها مع ذلك تعبر عنها تعبيراً عميقاً ، وتكفى لتعطى القارئ فكرة عن مدى ما تعرض له هذان الأوربيان التعسان من العذاب والعناء مدة سنة أشهر بالتقريب قضاهما في حجر مظلم رطب وويل . وكان عليهما في أثناء ذلك لا أن يتحملا البرد والرطوبة فحسب ، وهما في خرق من الثياب فليفة مهلهلة ، والهوام والحشرات تشاركهما سجنهما ، بل وبفغان في انتظار الموت الأكيد كذلك . وظل شعاع من الأمل يراودهما في سجنهما هذا ما بقى سفارة بونيفه تقيم في بخارى ، تلك البعثة التى بذلت من الجهود الانسانية لتحرير هذين السجينين أكثر مما عرف عنها وذاع أمرها . حتى اذا مارحل عن بخارى خبا برحيلها آخر بصيص من ذلك الأمل وانطفأ .

(١) ويقع في مجلدين ، وقد نشره Strahan & Co. London, 1867.

ونلفى نصر الله فى ذلك الوقت أخبارا يوتق بها عن الكارثة التى حلت
بالبريطانيين فى كابل ، فرأى معها أنه لم يعد هناك ما يخيفه من احتمال
زحف البريطانيين عليه ، للاتقام منه ، من أية ناحية ، ليأمر عند ذلك فى
١٧ يونيه ١٨٤٢ (١) بإعدام الأسيرين علنا فى حضور جمع من
الفضوليين . ولا بد أنهما رحبا بالموت اذ رأيا فيه الخلاص مما كانا فيه .
وأطاح الجلاد أولا برأس ستودارت ، ثم تلت ذلك فترة قبل انه عرض
فيها على كونوللى أن يعتنق الاسلام فينجو بذلك من الموت ، لكن ذلك
الرجل الشهم رد عليهم فى اشمزاز بأن ستودارت كان قد أسلم بدوره
فلم يعفه ذلك من القتل ، فهو على ذلك يؤثر الموت . وبهذا أسلم رأسه
للجلاد فأطاح بها فى ضربة واحدة . وفد ضم هدين الشهيدين قبر واحد
كان قد حفر أمام أعينهما .

وهكذا لقى حتفهما أول سفيرين مسيحيين دخلا بلاد ما وراء النهر
منذ زمن كلافيجو . ولنا أن نسميها أول رسل عالم جديد . ومهما يكن
من أمر الدوافع التى دعت بريطانيا الى التدخل فى شئون هذه الولايات
التي تقع فيما وراء جيحون ، فلا مرأى فى أن سياستها هذه لم تكن من
وحى شهوة الفتح والغزو وانما كانت باملاء دافع انساني حرصا على
حصارة آسيا الوسطى التى كانت ترى فيها حصنا حصينا يقف فى وجه
هجمات العدو الشمالى (٢) .

وما جرؤ عليه نصر الله من الحاق المهانة البالغة بدولة أوربية كبيرة
تشتهر بأنها لا تتردد فى بذل أعظم التضحيات دفاعا عن رعاياها ، انما

(١) ذكر هذا التاريخ كاي فى المصدر السابق ، فى حين يذكر فرير
Ferrier فى كتابه عن تاريخ الأفغان ص ٤٦ أن ذلك وقع فى ٢٤ من يونيه
وذلك بتقرير اخوندزاده الذى حدد يوم التفيد ، معتمدا على ذاكرته ،
فقال انه وقع فى اليوم الثانى من جمادى الأولى أو الثانية . وهو خطأ ،
ذلك أن بداية هذين الشهرين فى عام ١٢٥٨ هـ توافق ١٢ مايو و ١٠ يونيو
على التوالي .

(٢) لو كان هذا صحيحا لما أصمب بريطانيا آذانها عن استنجاد
الوطنيين من أهل هذه البلاد بها أثناء الحرب العالمية الأولى وما بعدها أبان
قيام الثورة الروسية ، فرفضت أن تمدهم بالسلاح بل وذهبت كذلك تعين
اعداءهم عليهم . ولا يغيب عن بالنا كذلك ما حاوله البريطانيون من تزييف
تاريخ المسلمين المجبد بالهند (المترجم) .

ساعد عليه في الحل الأول الحوادث السيئة الى وقعت بوادي الهندكوش .
على أن نصر الله لم يجسر على أن يرتكب مع بقايا البريطانيين في كابل
ما يعد وفقا للشرائع الاسلامية خرقا معبرا للقانون الدولي . ولو كان قد
فعل ذلك لكانت القوات البريطانية قد رحفت اليه بطريق بلخ وفارتي
فاقتضت على وجه اليقين منه .

وفي الحل الثاني فان هذا المسبب بسبب بجاته من العصاب الى
التنافس والتسابق للذين كانوا يقومون بين الدوليين الأوروبيين . وعلى
هذا فلم يكن هناك من دولة يمكن أن يكون استخدامها لتأديب هذا
الأمير مناسباً سوى فارس ، وهي التي قد استرق مئات الألوف من
رعاياها ببلاد ما وراء النهر . على أن هذه الدولة كانت على الدوام في
حاجة ملحة الى المال ، كما أن ميلها الى الائتلاف مع روسيا لم يكن سرا
من الأسرار ، ولم تكن بريطانيا على ذلك لتمد إليها يد المساعدة فتقوى
بصنيعها ذلك من أداة غريمتها .

وفي ظل هذه الظروف المواتية مضى نصر الله ، بعد كل هذه الحوادث
المخزية ليدنس عرشه من جديد بدنيء الفعّال . فالى جانب هــ
البريطانيين (١) سقط كذلك فريسة لقسوته القاتلة الايطاليان جيوفاني
أورلاندو Giovanni Orlando وفلورس ناسبلي Flores Naselli
واليوناني يوسف Joseph . وكان أورلاندو ، أولهم ، قد دفعه شغفه
بالترحال الى أن تعرف في القسطنطينية بأحد رسل خجندة ، فصحبه في
سفره الى تلك المدينة النائية ، وبهذا سقط في أيدي نصر الله . واستخدم

(١) كان المبشر الدكتور يوسف وولف Joseph Wolf ، حلاً غريب
الاطوار ولكنه شجاع ، وهو يقول في كتاب بعثته الى بخارى M ١٩١٥
Bokhara ان الملازم وسورت Wyburt كان قد قضى عليه وهو في
طريقه الى خيوه فجلبه التركمان الى بخارى حيث ألقى به عدة سنوات
في السجن ثم قتل قبل وصول ستودارت بعيل ، وما تزويه المصادر
الأخرى عن مصيره يختلف عما ذكره وولف . وكان هذا الضابط قد اندفع
الى سهوب التركستان وليس له أدنى معرفة بلغات أهل آسيا الوسطى
أو رسومهم . وعبثا حذروه في طهران من الموت المحقق الذي ينتظره .
ولكنه مع ذلك ركب رأسه حتى لقي حظه في الصحراء .

بعض الوقت لاصلاح الساعات بالبلاط ، حتى اذا تعطلت ساعة الأمير الظالم عن العمل دات يوم دعى الى القصر فعوقب على ذلك بتعطيل آلة حياته على يد الجلاد .

أما الايطالى الثانى فلورس فاسيللى فقد كان جنديا محترفا ، ولعل ما شوقه الى الشرق هو ما كان قد سمعه عن المجد الذى بلغ اليه موطنه الجنرال افيبايل Avitabile وكان ملتحقا بخدمة رنجيت سنج (فى البنجاب) . وقدم فلورس هذا الى بخارى بعد مقتل البريطانيين ، ببعض الوقت ، وود أن يضع خبره العسكرية فى خدمة الأمير . غير أن عدم معرفته بلسان البلاد مع دسائس عبد الصمد ، عدو الأوربيين الكبير ، وكان يخاف أن ينافسه ، أدى الى أن قبض عليه بتهمة التجسس بعد وصوله بأسابيع قليلة وأعدم .

أما الثالث ، وهو اليونانى يوسف ، فقد كان تابعا لكونوللى ، وبرغم تقديمه ما يتب بأنه من رعايا السلطان ، فإن ذلك لم يفده شيئا ولحق بسيدته . ولم يكن نصر الله فى الواقع يكثر بالسلطان (العثمانى) . ولئن كان يقر له بالسيادة بدافع من الضرورة الدينية ، الا أنه كان يرى نفسه فى الواقع أعظم منه مجدا وسلطانا ، بل لقد سقط أحد رعايا السباب العالم المسلمين بدوره فريسة لهذا المتعشى للدماء . فهذا هو مصطفى سابيس الذى كان قد بعث به رشيد باشا الى بخارى بناء على طلب الأمير ليقوم بتدريب الجند ، لم يرض شهر على وصوله حتى اتهم بتهاوله فى التزام قواعد الشرع فى سلوكه وألقى به فى السجن . حتى اذا ما تظلم من ذلك سيق الى الموت . وحين فر دوست محمد خان (أمير كابل) من أمام البريطانيين ولجأ مع أسرته الى بلاط نصر الله ، أثار ما كان عليه سلطان جان ، أصغر أبناء الأمير اللاجئ من جمال ، وكان فى الرابعة عشرة من عمره ، غرائز أمير بخارى الدنسة . وبرغم قدسية قوانين الضيافة التى كان يحرص على احترامها حتى أكثر سكان آسيا هجيرة ، فإن ذلك الأمير تجاسر على طلب الابن من أبيه . وحاول دوست محمد أن ينقذ ابنه بطريق الهرب ولكنه لم يفلح فى ذلك ، فقد حوشر سلطان خان وأخوه

الأكبر أكبر خان وأعيدا الى بخارى برغم استماتتها فى المقاومة. ولم يتسكن دوست محمد نفسه من الافلات من براثن هذا الوحش الا بمشقة . ولعل منهل الاسلام (١) الصافى. فى بخارى لم يبد فى عينى دوست محمد رائقا حين أتيح له فيما بعد أن يقارن بين ما لقيه بالمعتقل اللائق الذى أنزله فيه البريطانيون ، وما لقيه فى ضيافة جاره وأخيه فى الدين :-

وكما سنرى فى المقال التالى فان دوست محمد عغد النبة وهو فى سنه المتقدمة على الانتقام لهذا السلوك المتسين .

ولم يصل الانتقام الحق الى نصر الله فى وفته على كل حال . ذلك أن أعداءه لم تتح لهم الفرصة لمحاسبه عما كان يرتكبه من الآثام ، فدفع خلفه ثمن ذلك كله . ففى عهد هذا الأمير كان كل شخص فى داخل البلاد ، أى فى بخارى ، يعيش فى خوف مقيم . وكان الآباء يرون أبناءهم وبناتهم يحملون بالقوة الى قصر الأمير فلا يجروون على النطن بكلمة احتجاج واحدة . ذلك أنه كان للأمير ، وفق تعاليم الشيوع ، أن يفعل برعيته كما يفعل الراعى بأغنامه . حتى نهض حزب كبير من الساخطين على ذلك الوضع ، حوالى عام ١٨٤٠ — ولا يمكننى أن أذكر التاريخ على وجه التحقيق -- والمظنون أن الأمير مظفر الدين ، أكبر أولاد نصر الله وخليفته المنتظر ، كان على رأس هؤلاء . وكانت أقل ريبة أو اشبهاء ، يحوم حول أى شخص ، كفيل بأن بودى به الى حتفه .

وعلى هذا فقد سبى الى الموت أكبر من أربعين شخصا من المتأمرين . أما الأمير مظفر الدين فقد نقل من حكمه عارضى الى حكومة كرمهنة ، فلم يحدد بهذا الاجراء نشاطه فحسب ، بل وصار كذلك أقرب الى رقابة أبيه عليه . وكان نصر الله قد تقدمت به السن كلما ازدادت نوبات هياجه وحنفه واشتدت ، حتى وافاه أجله عام ١٨٦٠ بعد أن حكم أربعة وثلاثين عاما . وقد عكر عليه صفو سنى حياته الأخيرة ما كان من

(١) ما دخل الاسلام فى هذا ؟ هذه زلة من المؤرخ ما كان له أن نورط فيها .

أمر الثورات المكررة التي كانت تنشب في خوفند فضلا عن صراعه المرير مع صهره ولي النعم في شهر سبز . وجاءته الأخبار بسقوط ذلك الحصن في يد قواته وهو يعاني سكرات الموت ، فأصدر أمره ، وهو لا يكاد يعبر عن ذلك الا بمتفة ، بأن يساق الى الموت صهره وجميع أولاده . ولم يكفه ذلك حتى أمر باحضار زوجه نفسها ، أخب ولي النعم ، الى جانب فراشه ، وهرعت اليه هذه السيدة ، وهي أم لطفلين ، ترتجف فرقا ، فلم يرق لها قلب ذلك الطاغية حتى وهو في الزرع ، وأمر بفتلها أمام عينيه ، فزفر آخر أنفاسه الكريهة وهو يتطلع الى دماء أخت أخطر أعدائه .

الفصل التاسع عشر

الأمير مظفر الدين وبيت رومانوف

١٢٧٧ (١٨٦٠) - ١٢٨٧ (١٨٧٠)

ان المثل القديم الذى يقول « ان الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون » نادرا ما نرى له حالة ينطبق عليها تمام الانطباق أو بتحقيق فيها سريعا كتلك التى كان عليها مظفر الدين خان ، ابن نصر الله وخلفه .

كان الروس قد تقدموا اذ ذاك بالفعل ، على أجنحة ربح الشمال ، نحو شواطئ جيحون فى حياة نصر الله نفسه ، وسبفهم الموت اليه قبل أن يسقط هو نفسه فى أيديهم ، ليدفع ابنه من بعد ذلك ثمن أخطأ ، بضياح تاجه ، والقصاص على استقلال بلاده . وكان مظفر الدين قد قضى شبابه المبكر فى قارشى ، مقام ولى العهد وقصة المنفيين ، ليتعلم فن الحكم بين قبيلته نفسها على ما فعل أبوه من قبل . وقد عرف منذ وقت مبكر بانكبابه على الدرس وبمقدرته الفائقة وكفايته . ويمكن لكاتب هذه السطور أن يشهد ، بناء على ما وقف عليه بنفسه ، بأنه كان مسلما واسع الثقافة بالمعنى الذى تدل عليه العبارة بتركستان بطبيعة الحال . ومع هذا . ند كان مظفر الدين شوكة فى جنب أبيه منذ أول الأمر . كل حال . ذلك أن نصر الله كان يخشى أن ينهض ابنه منافسا خطيرا له ، قياسا على ما كان من سلوكه المشين هو نفسه بازاء أبيه الأمير سعبد من قبل . وأدت به أوهامه هذه الى أن صار يتمثل له على الدوام أشباح مؤامرة تحاك له فى قارشى حتى استولى عليه القلق الشديد . هنالك عزم على أن يخلص من هذا الكابوس المقيم فندب ابنه لحكومة كرمينية حتى يكون بذلك الى جواره وحتى يستطيع أن يراقب بنفسه حركاته وسكناته عن كثب .

وبقى مظفر بمقامه الجديد هذا في شبه عزلة مهيض الجناح وذلك ابتداء من عام ١٨٤٢ حتى وفاة أبيه ، ليرتقى عند ذلك عرش بلاد ما وراء النهر ويعرف في التاريخ كآخر عاهل في سلسلة الحكام المستقلين الطويلة من مختلف الأسر الحاكمة التي حكمت على ضفاف زرفشان لمدة ألف عام ابتداء من السامانيين .

ويمكننا أن نؤكد مخلصين أن مظفر الدين كان شخصيا بريئا من كل لوم تلقاء النكبة التي نزلت بأسرته . هذا وما نلاحظه غالبا هو اختلاف سلوك كل وريت للعرش ، وهو أمير ، اختلافا كبيرا في العادة عن سلوكه حين ينتقل إليه الحكم بالفعل ، وهو أمر شائع في كل الأقطار . وكان هذا هو الحال مع مظفر الدين ، فقد تخلى هذا الأمير بالكلية عن خلال رجال الدين الوديعة التي كان عليها وهو ولي عهد (كته - نوره) (١) ، فجدد بو ارتفاعه العرش الصراع مع شهرسبز النائرة حيث كان أهلها قد عادوا الى رفع راية العصيان من جديد عقب موت أبيه . وكادت هذه أول حروبه ، ولكن جهوده فيها لم تنته الى شيء ، نظير جهود أبيه هناك من قبل .

فبينما كان مهسكا في حصار جراكچی ، أحد حصون شهر سبز ، وجد نفسه ينساق الى حرب جديدة أخرى بسبب الأحداث التي قامت في خوقند ، فاضطر أن يسلك هناك نفس السياسة التي جلبت الكوارث على أبيه من قبل وعلى كل آسيا الوسطى من بعد ذلك . فقد دبر البخاريون مقتل مسلمان خان ليتخلصوا منه ، وكان قد استولى على مقاليد الحكم في خوقند على ما ذكرنا من قبل ، ثم وضعوا التاج على مفرق حفيد ثالث لمحمد على هو خدايار خان .

وكان هذا الأمير الضعيف الجبان قد نشأ تحت بصر نصر الله نفسه وسط كل الرذائل التي كانت تسود بلاط بخارى . وعلى هذا فقد كان

(١) هذا الاصطلاح الذي لم يعرفه العالم العربي الا في وقت متأخر معناه الأمير الكبير أو العظيم ، وهو وريث العرس على الرسم المعروف .

يتعلق ببخارى تعلقا شديدا حتى ود لو بادل عرش خوفند ، تلك الامارة التى بقيت على الفطرة ولم يتطرق اليها الدنس بعد ، بردائل عاصمة النفاق البراقة التى تقوم على ضفاف زرفسان . واذا كان يشعر بمضض فى ارتداء فراء فرغانة القديم الأبيض عنوان الامارة ، فان الاضطلاع بالتزامات منصبه الملكى الذى اضطره الى أن يفوذ الجيوش بنفسه لصد تقدم الروس عند حوض سيحون الأدنى ، كان أبعث لمقته ، ولا سيما بعد أن نزل به أكثر من ضربة على أيدي هؤلاء الشماليين وأخذ يفقد حصونه الواحد بعد الآخر . وكان عليه كذلك أن يحاول استرداد حصن آق مسجد بعد أن بات العلم الروسى ، القراقوشى (النسر) ، يرفرف عليه ، وصار يعرف عندهم باسم حصن يروفسكى .

على أن خديار لم يكده يعود فى احدى المرات من غزواته ، دون أن يحقق أى هدف كعاداته ، حتى وجد عاصمته وقد أوصدت أبوابها فى وجهه ، اذ كان أخوه الأكبر ملاخان قد استولى على العرش فى غيابه ، ومن ثم اضطر الى الهرب الى بخارى . ولو كان مظفر الدين قد تذكر المثل العربى الذى يقول ان « العدل سيد الأحكام » ، ولم يتنكر لما كان ينادى به من قبل من المبادئ السلمية ، وعسل ، تبعا لذلك ، على القضاء على الخلافات بين أفراد أسرة محمد على مكتفيا باكرام وفادة ربيب بيته هذا ، لكان قد تمكن بذلك من أن يكفى نفسه كثيرا من المتاعب التى تعرض لها .

ولكنه ، ككل حكام آسيا ، كان يطمح أن يطلق عليه ذات يوم لقب « فاتح العالم » ، فتذرع لذلك باستنجد خديار به وأسرع من شهر سبز على رأس جيش كبير عزم به على فتح خوفند . وفى هذه المعركة الأولى ، عهد الى خنجر الغدر من جديد بتحقيق أهداف هذه الحرب ، فانقض نفر من شيعة بخارى ذات ليلة على ملاخان وقتلوه مع فريق من خدمه . وسعى بعض أنصار ملاخان من القبحاق فى اجلاس مرشحهم شاه مراد على العرش من بعد ذلك ، وكان هؤلاء هم أصحاب السلطان فى سمرقند ، ولكن مظفر الدين سبقهم الى ذلك ورد خديار الى عرشه ثم آب الى بخارى .

على أن صتيعة بخارى هذا لم يستطع أن يحتفظ بعرشه لأكثر من أربعة أشهر . ولما رأى مظفر الدين أن ربيبه هذا يزدرية قومه ويستخفون به لم يجد بدا من أن يخرج الى خوقند في قوة أكبر مما خرج فيها من قبل لايوجه الأمور هناك على الخطة التي رسمها يأى ثسن . وسير لذلك أولا قائده شاهرخ خان في أربعة آلاف من الجند وبصحبه محمد حسن بك ومعه ثلاثون مدفعا ، ثم أسرع هو نفسه من بعد ذلك نحو الشرق ومعه بضع مئات من تركمان التكه وقد عند العزم على ألا يرجع حتى يخضع له كل ما بين بلاده وحدود الصين .

كانت خوفند بدورها قد تزودت بالسلاح من رأسها حتى أخصص قديمها ، وهب القيقاق بدورهم ، وهم أخطر العناصر الحربية في تلك الخانية ، للدفاع عن حق الأمير المطالب بالعرش وكان قد استعجد بهم . ورتب هؤلاء المدافعون أمرهم على أن يتجنبوا الاشتباك مع غوات العدو الرئيسية ، ولا سيما مدفعية أمير بخارى التي كان لها صيت ذائع في آسيا الوسطى .

وعلى هذا فقد تقدم أمير بخارى حتى بلغ أوش دون أن يلقى أدنى مقاومة . على أن النصر الذي حصل عليه مظفر الدين ، والذي راح يزهو باذاعة أخباره ، لم يكن الا صورة كاذبة للواقع . ذلك أن الخسائر في الرجال من الجانبين بلغت الذروة في تلك الحرب الضروس التي وقعت بينهما .

وبرغم أن حاكم بخارى كان يظن في نفسه أنه تيمور الثاني . فإن جده لم يكونوا يعادرون أى موضع حتى كان القيقاق يعودون الى احتلاله والقضاء على كل سلطان للبخاريين فيه ، لينتهى الحال آخر الأمر الى تقسيم خوقند الى قسمين . فصار القسم الشرقي من الخانية ، من أوش الى محرم ، من نصيب ربيب القيقاق ، في حين حضع القسم الشمالى من أراتبه الى ما وراء طشقند ، لخدايار الذى اتخذ من سمرقند معاملا له حتى يجاور بذلك حاميته عن قرب .

قد تكون مهاجمة مظفر الدين لما يجاوره من امارات أمرا مقبولا بعض الشيء لو أنه كان يرمى ، من وراء هذا الفتح أو الحساية ، الى

توحيد قوات هذه البلاد المفتوحة مع قواته للوقوف في وجه الغازي الأجنبي عند حوض سيحون الأدنى .

ولكن هذا الأمير كان خلوا من متل بعد النظر السياسي هذا ، اذ كان هدفه من عملياته هذه ، التي أملت عليها أطماعه الخرفاء وجشعه ، أبعد ما يكون عن العمل على تأمين مستقبله ، فلم يجلب سلوكه هذا عليه الا الخراب . ذلك أن حمايته لخدايار خان لم تؤد الا الى دفعه للصدام مع خصم لا يستطيع لا هو ولا آسيا الوسطى أن يقفقا في وجهه ، ولا حتى كذلك بلاد الاسلام كلها !

وكانت روسيا بعد فشل حملة بيروفسكي عام ١٨٣٩ م هي وجميع بعثاتها الدبلوماسية ، قد عدلت أساس عملياتها الحربية ، فنقلت قاعدتها من عند الجنوب الشرقي لبحر آرال الى شواطئ سيحون ، وتقدمت قواتها من بعد ذلك حتى بلغت الأماكن المأهولة في اماره خوقند . وشيد الروس حصن أورنبرج على نهر توركاى عام ١٨٤٧ ، وحصن قراپوتاق على نهر قراپوت فى السنة التالية (١) .

ولما كان الروس لم يشتبوا بعد ذلك من امكان استخدام جيحون كقناة مهمة للملاحة وكأحسن طريق مائى يصل الى داخل تركستان (٢) ، فقد ظلوا على ذلك يستخدمون سيحون بدلا منه .

(١) انظر فى ذلك John and Robert Mitchel The Russians in Central Asia London 1865, p. 30.

(٢) كان سير الكسندر بيرنز رجلا قديرا ، وان زيفت عليه بعض المعلومات الخاطئة ، فهو أول من اذاع فى أوروبا أن الروس يمكنهم أن يستخدموا جيحون كطريق مائى رئيسى فى مواصلاتهم مع تركستان ، حتى قام الأميرال بوناكوف Butakoff بأبحاثه عند محارى جيحون الدنيا ومصابه بن عامى ١٨٤٨ و ١٨٥٩ فقال بعكس ما قال به بيرنز . ومن الواضح بعد الاختبار أن فروع هذا النهر الأربعة التى يتفرع اليها لاصليح للملاحة ، فحوضه هو فى المحل الأول ضحل فضلا عن أن تجمع الرمال فيه يؤدى الى تغيير اتجاه التيار فيه كل يوم فى الفالب حين يكون الماء منخفضا . وقد تمكن الملاحة فيه حتى قبحاق حين سملء بعض القنوات التى تمت بالماء السهل الواقع فيما وراء فتفرات وجربانقل ، وهذه القنوات منها ما هو طيعى ومنها ما هو صناعى . وقد فصل الأميرال بوتاكوف نفسه هذه المسألة فى مقال له بمجلة الجمعية الجغرافية بلندن Journal of the Geographical Society, London 1867.

وكان الجنرال بيروفسكى الحاكم العام لأورنبرج قد عهد عام ١٨٤٧ الى الكابتن شولتز Schultz ببناء حصن أراسك عند مصاب سيحون ، فجاء ذلك بالطبيعة شوكة فى جنب أوربك خيوه لم يستطيعوا التخلص منه برغم احنجاجاتهم العديدة ، وظلوا يتطلعون اليه ، على الرغم منهم ، وظل النسر الروسى الذى يرفرف عليه يتهدد مستقبلهم بالويل والتبور ، وقد أخذ يبسط جناحيه بالندرج فوق الشاطئ الأيسر لسيحون .

٦ وحين أثبت حصن أراسك ، الذى عرف فيما بعد باسم الحصن رقم ١ ، أنه نقطة صالحة للانطلاق ، لم يكن من العسير من بعد ذلك أن ينوقع المرء انشاء الحصنين رقم ٢ ورقم ٣ وشيكا ، وأن الطواير الروسية سوف تشتبك عن قرب مع خوفند بوصفها الدولة التى تسيطر على هذه المناطق ولو اسما .

٧ وأخذت حامية حصن آق مسجد الخوفندى أول الأمر على عاتقها تلك المهمة الكريهه فى تعويق العاصلة السمالين ، وانطلقت تهاجم الروس أنفسهم تارة ، والقرغيز الذين يسون فى كنف هؤلاء الأعداء تارة أخرى ، لترتد فى كل مرة بخسائر ثقيله كالعادة .

واستمرت مناوشاتهم هذه عامين ، وكان الخوقنديون لا يلتقون فى الغالب الا بفصائل صغيرة من الجيش الروسى ، فلم يقفوا بذلك على حقيقة تفوق عدوهم البالغ عليهم .

وكان الروس بدورهم ، بعد أن تدربوا على استراتيجية الحرب وطبيعتها فى هذه المناطق واعتادوا عليها ، قد أصبحوا على أتم درجة من الكفاية والاستعداد لفتح تركستان .

وكانت السفن المعدة للملاحة فى النهر ترسو فى المراتب فيه فى مياه بحيرة خوارزم العتيقة شديدة الخضرة ، وكانت قد نقلت برا من السويد الى أراى . ونظرا لعدم توفر الفحم هناك فقد استعتمد للوقود ضرب من أخشاب الشجيرات يعرف باسم « سكساوول » .

وبرغم هذه الصعوبات التي واجهتها تلك البواخر التي ظهرت لأول مرة على صفحة هذه المياه القديمة التاريخية ، فانها قد حققت الغرض منها على أتم وجه .

وفي عام ١٨٥٢ خرج الكولونيل بلارميرج Blaramberg مع فرقة من الجند في رحلة استطلاعية نحو حصن آق مسجد ، ودنا من أسواره في حفنة من رجاله . ولئن لم يبلغ الى تتيجه مباشرة في مخاطرته هذه التي ابتعد فيها مائتين وخمسين فرسخا عن الجبهة الروسية ، فان الهجوم العام الذي وقع على هذا الحصن في العام التالي قد تكمل بالنجاح التام ، وكاف هذه الحملة فد أعدت على نطاق واسع (١) . فقد اندفع الروس في ربيع دافئ ، على غير المعتاد ، فعبروا أجذب المناطق في سهوب أورنبرج حتى بلغوا الحصن رقم ١ ، وفي نيتهم من بعد ذلك أن يصلوا الى آق مسجد على الشاطئ الأيمن لسيحون . وصعدت البواخر بيروفسكي بدورها في النهر . ولم تنل الحرارة الشديدة ، ولا أسراب الجراد والجنادب أو لظى رمال الصغراء ، من عزيمة هؤلاء التمالين الأشداء شيئا ، فاكشفوا آق مسجد ، وبدأ بذلك الصراع للاستيلاء على أول حصن في أرض تركستانية .

ولقد دعى الجنرال بيروفسكي الخوقنديين أول الأمر للتسليم دون حرب (٢) ، ليجيبوه عند ذلك بأنهم لن يستسلموا له ما بمب عندهم ذرة

(١) كانت هذه الحملة بضم ٢١٦٨ رجلا بما فيهم الصباط و ٢٤٤٢ فرسا و ٢٠٣٨ جملا و ٢٢٨٠ بورا للنفل The Russian in Central Asia P. 339
(٢) يبدو من هذه الويفة التي بضمن هذا الطلب أن الروس كانوا في مراسلاتهم مع سكان أواسط آسيا يكتبون اليهم في لغة أوزبكية سليمة الأسلوب . وكان نص الرسالة كالآتي :
« من الحاكم العام لأورنبرج الى قائد حصن آق مسجد » .
« بأمر مولاي امبراطور روسيا كلها قد جئ الى هنا لاستولى على حصن آق مسجد الذي أقامه الخوقنديون على الأراضي الروسية بفرض الاعتداء على القرغيز رعايا جلالته .

« ان حصن آق مسجد هو في حكم المستولى عليه برغم أنكم الآن بداخله ، ولا يعسر عليكم أن تدركوا أنني مستطيع أن أقضي على كل واحد منكم دون أن أفقد في ذلك رجلا واحدا من رجالى .

من البارود في جربهم أو حصاة في طرقهم ، وحتى تسلم سيوفهم ورماحهم .

واستعر القتال بين الفريقين حتى تمكنت المدفعية الروسية من أن تهدم أسوار الحصن ، وكانت من الطين ، في عدة مواضع ، وتنزل بقتالها خسائر شديدة بالمدافعين ، ليندفع من بعد ذلك أول طابور من ملووير الهجوم يفوده الملازم المجري أردبلي (١) Erdelyi ويندفع الى داخل الحصن في الثامن من أغسطس عام ١٨٥٢ .

على أن الخوقنديين لبثوا يدافعون عن أرضهم شجرا شجرا في شجاعة خارقة برغم سقوط قائدهم محمد ولي في أول القتال ومقتل أكثر قوادهم الكبار . ولم يعد الى الفرار منهم الا نفر قليل .

وكان هذا الحصن أول موضع له قدر من الأهمية الاستراتيجية أو السياسية اسنولى عليه الروس عند مشارف السهوب الشمالية . وكان كذلك أول وآخر مكان باع عنده سكان آسيا الوسطى أنفسهم بيع السباح في بطولة نادرة واستماتوا ضد الغازي الدخيل .

وظل الخوقنديون يبذلون في كل عام محاولات جدية في الغالب

« ولم يأت الروس الى هنا ليقضوا يوما او عاما وانما ليقسموا الى الابد فلن ينسحبوا من هنا .

« فاذا أردتم الحياة فاسألوا الرحمة ، واذا أردتم ان يهلكوا في آف مسجد ، فسيكون لكم ما سألتم ، فليست في عجلة وليس للزمن عندي حساب . وهنا أكرر لكم اني لم آت طلبا لنزالكم وانما لأضربكم حتى نفتحوا ابوابكم .

« ولقد وددت ان أقول لكم ذلك كله أول يوم وصولي حين دنوت من اسوار حصنكم ، دون ان أحمل سلاحا ، لولا انكم عمدتم الى نسيب ففتحتم نيرانكم على ، وهو نصرف ليس من شيم الجنود الشرفاء في شيء »

The Russian in Central Asia, p. 339.

(١) كان هذا الضابط مواطنا لي كما يدل عليه اسمه .

لاسترداد هذا الحصن (١) ولكن بلا جدوى ، برغم أن الفرصة بدت مواتية لهم فيما بين عامى ١٨٥٣ و ١٨٥٦ بصفة خاصة حين كان الروس قد وحدوا كل جهودهم وركزوا كل قواتهم فى حرب القرم .

ولم تكن رومانيا وهى فى هذا المأزى الحرج اذ ذاك لتستطيع أن توجه التفاتها الأول الى أملاكها فى آسيا الجنوبية . وكان أمراء آسيا الوسطى بدورهم لا يدرون شيئا عن ذلك العراك الذى كان يقوم أمام سياستهم .

ولو انهم التفاتوا الى ذلك الخطر الذى يتهددهم وتنبهوا له بالائتلاف معا اذ ذاك ، لاستطاعوا بلا كبير غناء أن يسردوا ما ضاع منهم من حصون ، بل وأن يطردوا الروس كذلك الى مشارف السهوب الشمالية ، وقد كان الزعيم القرغيزى عزت كوتير^٢ قد نجح بدوره اذ ذاك فى القضاء على نفوذ الروس فى القيلبس « الصخرة والمنطقة » . ولا أدل على عدم صلاحية هؤلاء الأمراء للحكم وعدم أهلية سكان آسيا الوسطى للاستقلال ، من أنهم وقفوا من هذه المسألة كلها موقفا سلبيا . حتى وجدت روسيا وهى فى أشد أوقات محاسنها أن سياستها بولاق جيحون أقل تعرضا للخطر منها فى أى جهة أخرى .

ولقد حاول الباب العالى عبثا أن يحمل مبعوثين لخيوه وبخارى . كانوا يقيمون عنده من سنوات ويتكلفون نفقات طائلة ، على أن يادروا

(١) من أعظم هجمات الخوقنديين تلك التى سبها فى المرة ما بين ١٤ و ١٧ ديسمبر سنة ١٨٥٣ ، وكانت قواتهم بلغ انى عسر العسا من الجند ، وقد تمكن ستمائة من الروس فقط أن ينزلوا بهم الهرمه وورعموه على الفرار .

(٢) كوتير (أى السعيد) كان منالا لفرسان فرغر السهوب الأبطال . وقد اشتهر منذ عام ١٨٢٢ بشجاعته الفائقة ومعامراته فى قطع الطرق ، وكان يفيد فى الزمن السابق من حماية روسيا له حين كان ينطلق لقطع الطريق على الفوافل الفنية القادمة من بخارى وخورم . وقد تأسس نوطا ذهبيا (وليس نوط الفنون والعلوم قطعا) من بطرسبرج بمسندرا لخدماته ، وما لبث بعد ذلك أن انقلب على ساعده . ولم يرع على الحصون ويقضى على خطره الا بعد صراع طويل عنيف .

بالعودة الى بلادهم في الحال ويصروا سادتهم الأجلاء بهذه الفرصة الذهبية المواتية التي أتاحت لهم لتأمين سلامة بلادهم واستقلال ديار الاسلام .

أما خيوه فبدلاً من أن نسرع في مهاجمة عدوها بعث برسلاها الى آق مسجد ليعلنوا لأصحابه عن صداقتها لهم . وأما بخارى فقد كان الطاغية نصر الله لا يزال يجلس على عرشها ، وقد استغل ما صارت اليه خوقند ، جارتة الشرقية ، من ضعف فغزاها ، وظن نفسه بذلك سييئاً اذ تسكن من أن يضم الى أراضيها الموضع بعد الآخر .

وكان من الطبيعي في مثل هذه الظروف والأحوال ، أن تعتمد روسيا من فورها ، عقب إبرامها لمعاهدة باريس ، الى استئناف تنفيذ خططها في الفتح بعزم أشد ونجاح أكبر فسقط حصن جولاك الصغير عام ١٨٥٩ ، واستسلم من بعده بعامين حصن ينكي كورغان على شاطئ سيحون ، لتأخذ من بعد ذلك طلائع الروس ، على شاطئ النهر الأيسر ، ثمة تقدمها حتى تبلغ الأجزاء المأهولة بالسكان في شمال خوقند ثم تستولي في شهر يونية من عام ١٨٦٤ على مدينة تركستان ، أو حضرة تركستان ، مقر الصوفي المشهور أحمد اليسوي .

وأشاعت هذه الأخبار موجة من الهلع بين سكان آسيا الوسطى ، وألهبت حماسهم الديني . وفي تركستان يعد خواجه أحمد ثاني الأولياء بعد بهاء الدين . وله في خوقند خاصة توقير ملحوظ . وكان من المنتظر ، والحالة هذه ، أن يأتلف القبجاق مع خديار خان فيخرجوا جميعاً لفناء الكفار . ولكن ما بينهما من الحقد والكراهية لعبا دورها على ما كانا يلعبانه على الدوام في توران من قبل . وعلى هذا فقد وقف القبجاق ، وهم أشد مراسا في الحرب من الخوقنديين ، ينظرون في سرور بالغ الى الروس وهم يقدمون بطريق سيرام الى طشقند ، بعد نصر جمكنت (١) ، ويستولون على ذلك المكان الذي يعد من الناحيتين التجارية والسياسية على السواء مفتاح آسيا الوسطى أو على الأقل باب الجانب الشمالي منها .

(١) انظر هامش ٢ ص ٣٨ من هذا الكتاب .

في ذلك الوقت فقط أدرك مظفر الدين أنه قد آن الأوان لكي يعبد الظر في مشاكل ربييه خدانا خان ويحاول ، ولو بطريق غير مباشر على الأقل ، أن يقيم بعض العراقل في طريق جنس الاحتلال الروسي . فخرج أولا الى خوفند في مايو ١٨٦٥ لتأديب المبعاج ، وذلك على اثر شائعة كاذبة انتشرت في بخارى مفادها أن هؤلاء ، بسوقهم السلبى ، قد عاونوا الروس على تنفيذ خططهم .

وكان هذا القول محض اخلاق في الواقع ، ذلك أن القبجاق كانوا هم أنفسهم الذين قاوموا الروس ببسالة حتى سقط زعيمهم الدجاج عالم قل امام طشقند .

وبسوت هذا الخصم العيد لم يجد مظفر الدين أية متعة في فتح خوفند الشرفية . وهناك حصل الضعيف مير سعيد أحد أبناء سريماكس أسير الى بخارى ونصب خديار أيرا على خوفند ، وكان قد فقد أكثر أملاكه بسبب استيلاء الأعداء من الكفار عليها .

بعث مظفر في الوقت نفسه برسالة مليئة بالغرسة الى الجنرال نثرنايف ، وهو الذى خلف الجنرال ييوفسكى في قيادة الجيش الروسى ، يدعو فيه الى اخلاء كافة الأراضي التى يحتلها الروس ويهدده ، فى حالة الرفض ، بأن يجند كل المؤمنين فى توران (١) لحرب روسيا . وذهب الأمير فى سبيل تأكيد دعواه هذه ، الى مصادرة أملاك التجار الروس الذين اتفق وجودهم ببخارى اذ ذاك .

ولم يكن رد الروس عليه دونه فى العنف ، ولكن حدث حين شرع الروس يهاجمون البخاريين عند اورنبرج ، على سبيل الانتقام غير أبين

(١) بتضح من هذا أن الأمير كان لا يزال يتق فى تفوق جيشه ويعتقد فى زعامته الروحية على كل مسلمى تركستان . على أن القوم فى بخارى لم يدركوا أبدا أن الروس كانوا قد هزموا جيوش الخوقنديين عند سيحون ، وكانت تفوق فى قوتها جيوتهم عشر مرات ، أن لم يكن عشرين مرة ، ولم يكن أحد يجرؤ على رواية أخبار هذه الكارثة ، ولم يكن القوم يعتقدون فى صحة ذلك حتى ولو سمعوا به .

بتهديد هذا الأمير ، أن بادر بدوره ، ولم تكن المراسلات بين الطرفين قد انتهت بعد الى اعلان الحرب بينهما ، فأوفد خوجه نجم الدين في بعثة صداقة الى بطرسبرج ليشكو الى القيصر اعتداءات قائده .

وكان الأمير يرمى من وراء ذلك الى كسب وقت يستطيع فيه أن يقضى على الثوار في شهر سبز . على أن الروس كانوا أشد دهاء منه ، فقد قبضوا على نجم الدين واعتقلوه في حصن قزاله .

ولما كان أمير بخارى لا يزال يحتفظ اذ ذاك في محبته برعايا من الروس ، وإن كان قد أطلق سراح التجار منهم ، فإن الجنرال تشرناييف بعث الكولونيل شتروفه الى بخارى وبصحبه عديد من الضباط ليحاول أن يفض الخلاف مع مظفر الدين (١) .

والغالب أن القائد الروسى لم يكن مفوضا بالحرب أو لم يكن في مركز يسمح له بذلك . وكان من الطبيعى ألا يلقى الكولونيل شتروفه من الأمير معاملة أحسن من تلك التى لقيها نجم الدين من الروس (٢) . هنالك أحس تشرناييف بأنه قد أهين اهانة بالغة ، فعبّر لذلك سيحون عام ١٨٦٦ وتجنب المرور بخجندة ، فنفذ في الصحراء الى جيزك أول موضع يتصل بأراضى بخارى نفسها .

(١) كانت هذه البعثة تتكون من الفلكى شتروفه عضو مجلس الشورى (وعلى رواية أخرى ، الكولونيل شتروفه وهو غير هذا العالم الذى يحمل الاسم نفسه) والمهندس تاتارينوف وضابطين آخرين هما الكاتبين جلوشوفسكى وحامل العلم كولسينكوف
(Die Russen in Centralsien, Eine geographisch — historische Studien von Friedrich von Helwald, Vienna 1869 p. 65.)

(٢) ظلت هذه البعثة الروسية منذ وصولها حتى أول فبراير ١٨٦٦ حبيسة الدار التى نزلت فيها ، ثم دعتهم السلطات من بعد ذلك الى تسليم أسلحتهم ، ولكنهم رفضوا ذلك في اصرار ، مما أدى الى وقف «مناءشة» أصيب فيها آفسكال وخمسة من البخاريين بجراح شديدة . وقد استسلم الروس آخر الأمر بعدما اظهروا في هذا الظرف شجاعة وجسارة غلبنا على رويته Edinburgh Rev. Jan -1867 P. 40 وهذا المقال عن «السياسة الخارجية لسير جون لورنس» ، بقلم الكاتب القدير مستر ويلي الذى بعد موته المبكر خسارة كبيرة . وبعد من أحسن ما نشرته المطابع الانجليزية في هذا الموضوع .

على أن الروس كانوا هذه المرة قد بنوا تقديبرهم على أساس غاطىء . ذلك أنهم بلغوا الحدود بعد سير شاق فى صحراء جدداء لا ماء فيها على الاطلاق ، ليجدوا أنفسهم من بعد ذلك تواجههم قوة لا تقرب من عشرة أضعافهم كالعادة فحسب ، بل وتصل هذه المرة الى عشرين ضعفا على الأقل ، وقد أدركوا عند ذلك ، ولكن بعد فوات الأوان ، أن لا مناص لهم من الانسحاب .

وعلى هذا فقد نظموا صفوفهم على أن يفوموا بانسحاب سريع ، وقد استطاعوا أثناءه أن يؤمنوا أنفسهم من خطر الجموع التى لا حصر لها ممن كانوا يحومون من حولهم على طول الطريق . ومهما يكن فان المحدثين من أحفاد التوارنيين المحاربين ، الذين كانوا يوما مصدر رعب ، هم اليوم جنباء فى الواقع .

ونال تشرناييف ما يستحق من توبيخ على تصرفه هذا ، وحل مكانه الجنرال ديمترى ابلتش رومانوفسكى *Dimtri Ilyitch Romanoffsky* وشجع فشل الروس فى خططهم الأوزبك على مهاجمتهم حتى استطاعوا فى ٥ أبريل من العام نفسه أن يستولوا بعد هجوم قوى على جيناز وهو حصص صغير على الشاطىء الأيسر لسيحون .

هالك جرى فى وهم مظفر الدين أن فى استطاعته أن يهزم الروس بنفس السهولة التى كان بهزم بها الخوقندبين ، فخرج على رأس جيش قوامه خمسة آلاف من الجند النظامى وتلاثون ألفا من القرغيز وعشرة آلاف من التركمان ومعه عشرون مدفعا لبسترد القسم الشمالى من طشقند من أيدي الكفار . ولم يكن القائد الروسى ليقف بازاء ذلك مكتوف الأيدي .

ويرى لنا رومانوفسكى فى الفصل التى نشرها عن هذه الواقعة (١) أنه كان معه فى الحملة التى حارب بها الجوب أربعة آلاف رجل ، من بين خمسة عشر ألف جندى كانوا هم كل قوام القوات المحاربة الروسية فى تركستان ، اضطر بهم الى قبول تحدى خصمه له .

وقد وقعت الموقعة الحاسمة فى عشرين مايو من عام ١٨٦٦ عند برجار على الشاطئ الأيسر لسيحون على مسيره أميال قليلة الى الشمال الغربى من خجندة . واستطاعت المدفعية الروسية أن تفج نترات فى صفوف فرسان الأوزبك المنراصة ، حتى اذا ما انطلق الروس فى عددهم القليل ، يحملون من بعد ذلك على أعدائهم ، أشاع مجرد ظهورهم الاضطراب فى صفوف العدو ، وانتهى أمرهم من بعد ذلك الى الفرار فى تراحم صوب الجنوب (٢) . وترك الأمير من ورائه مضاربه بما فيها سرادقه الفخم وطاقم مدفعيته كله ، ولم يتيسر له هو نفسه الهرب الى جيزك الا بمسقة .

وبلغت خسائر البخاريين فى هذا القتال قرابة ألف رجل ، وكان المغنيون ، صفوة الجيش ، هم أعظم الجميع فى خسائرهم ، فى حين لم تزد خسائر الروس على خمسين بين قتيل وجريح .

وكانت معركة برجار هذه بمثابة الضربة القاضية لتركستان ، اذ ضاع بسببها استقلالها ، وهى التى ظلت خلال ألف عام ولها صيتها ونفوذها البالغ بين سكان آسيا الوسطى ، بل يمكن أن يقال كذلك ان العالم الاسلامى بداخل آسيا قد نزل به بهذه الهزيمة ضربة مبيتة .

وكان بوسع القائد الروسى أن يتابع فى الحال سيره الى سمرقند مستغلا فى ذلك الذعر الذى أشاعه بين الناس خبر هذه الكارثة العظيمة

(١) علمت بأمر هذه الفصل عن طريق فقرات نشرت منها بجريدة Times ١٦ و ٢٦ مارس ١٨٦٦ ، وذلك فى رسائل مراسلها ببرلين . وتعد اخبار هذا المراسل عن احوال آسيا الوسطى الساسية عظيمة القيمة . ويبدو من هذه الفقرات ان الجنرال رومانوفسكى كان على دراية تامة بأحوال آسيا وانه هو نفسه كان عميق الإدراك لها بدرجة لا نظير لها .

(٢) تجد احسن تفصيل ظهر حتى الآن عن موقعة برجار الحاسمة فى كتاب هلوالد سالف الذكر ص ٦٨ . ففضلا عن المام صاحبه بالموضوع الماما تاما فان كتابه يمتاز كذلك بأسلوبه الرصين . وما يؤخذ عليه فقط على بعض تصرفات البريطانيين .

ولكنه لم يفعل ذلك واكتفى بجلب بعض الامدادات القليلة من حصن كروجى ، حتى تم له فى ٢٨ مايو الاستيلاء على حصن ناو .

ولما كان هذا الموضع الذى يقع الى الجنوب من خجدة ، نلتفى عنده الطرق الشرقية والطرق الشمالية ، فقد أدى اجتلال الروس له الى قطع كل اتصال لمدينة خجدة وحصونها مع بخارى ، وبذلك صار مصيرها محنوما . وبحسب خجدة من الجانبين نهر سيجون . ففى جنوبها الشرقى يجرى النهر الرئيسى ، وعند جنوبها الغربى يجرى أحد روافده . وعلى هذا فقد كان هذه المدينة فى نظر الآسيويين منيعة على الدوام . ومع انها حاضرة اقليم خوفند فقد كانت تقيم بها حامية بحارية وهى التى اضطلعت بالمقاومة فيها . ذلك أن السكان المدنيين ، لا سيما التجار منهم ، كانوا يميلون الى الاستسلام ايمانا منهم بتفوق الروس عليهم . وقد اندفع رجال الحامية بتحريض من رجال الدين المتحمسين يدافعون عن المدينة نى اسنائة لأيام سبعة استطاع الروس فى آخرها أن يقتحموا القلعة عليهم فى هجوم كانت خسائرهم فيه أكثر منها فى تلك الموقعة الفاصلة السابقة ، فى حين خسر الأوزبك من رجالهم ألفين وخمسمائة قتل .

هكذا ، كما يقول السيد فون هلوالد بحق (١) ، سقط بأيدى الروس كل الأماكن المهمة فى خوفند ، وانتقل الأمير الألوبة خديارخان ، رغم أنه من كنف حاميه أمر بخارى ليعيش تحت جناح النسر الروسى . وكان الزمان كفيلا بأن يجعله فيما بعد يلائم بن نفسه وبن موقفه الجديد فى بسر . وغنى عن البيان أن الجند المسكوفى لم يكن ليحصل على هذا الانتصار بسهولة لو أن خوفند كان يجلس على عرشها أمر فادر ، أو أن العناصر المحاربة فيها ، وهم الذين يشتهرون بسده مراسهم ، لم يسارعوا اذ ذاك الى الانضواء تحب لواء يعقوب قوشبجى فى تركستان الشرقية . ولقد بوغت الروس بهذه السر النامى ليهيكونوا هم أنفسهم ينوفعون الحصول عليه بهذه السرعة . وأنهر خديار

(١) انظر كتابه سالف الذكر ص ٧٠

حبوره حين سمح له باسترداد فضبة بابر القديمة هذه في ظل « القيصر الأبيض » وحميته . وكان عليه أن يسلم كل وديان سيحون للروس ، ابتداء من محرم بطول مجرى النهر كله ، وأن يفتح أبواب مدنه لرعاياهم ويطمئنهم على أملاكهم ، وأن يدفع بعد هذا كله للخزانة الروسية غرامة حربية باهظة سوف تثقل كاهله لسنين طويلة مقبلة بلاشك . وخفض فوانه بدورها حتى صارت مجرد قوة رمزية . ومن البديهي أن كل هذا القسم الشرقي من الخانية سيؤول من بعد موت هذا الأمير الى الامبراطورية الروسية .

وماذا يستطيع مظفر الدين نفسه أن يفعله لانقاذ هذا الأمير وفد بات هو نفسه وحيدا والنواب تتفل كاهله . ولقد انطلق ينشد العون في كل ناحية دون جدوى ، فلم يكن هناك من يغامر بالانضمام اليه في قتال مع عدوه هذا الفاتح القوى بعد أن أصابته الهزائم . ومنعه كبرياؤه ، أكثر مما منعه عداؤه الطويل المقيم ، من أن يستنجد بأقرب جيرانه اليه في خيوه . وكان هذا الاقليم الصغير يتفشى فيه الانقسام فلم يكن بذلك له من القدرات ما يمكنه من أن يمد يده لمساعدة غيره . وكانت بلاد الأفغان في الجنوب عندها بدورها ما يشغلها ، اذ كانت الحروب الأهلية تسودها . وكان من الممكن أن يلبي أمراؤها ، خلفاء دوست محمد ، دعوة مظفر الدين عن طيب خاطر لولا أنهم لم ينسوا أبدا ما لحق بأبيهم من مهانة في الماضي ، حتى سرهم أن يروا اذلال ذلك الأمير الأوزبكي المتغطرس على أيدي الكفار . هذا فضلا عن أن أمراء آسيا لم يكونوا يعترفون أبدا بقيام تحالف سياسى جدى فيما بينهم ، اذ كان كل همهم يتجه عادة الى الفنوحات الشخصية . وعلى هذا فقد سر الأفغان أن يروا بخارى وفد حاق بها الضعف مما قد ييسر لهم أن ينتزعوا منها الخانيات الصغيرة التى تقع على شاطئ جيحون الأيسر ، وبهذا لا تستطيع روسيا أن تطالب بها مستقبلا بوصفها أجزاء من توابع خانية بخارى .

كان الوحيد الذي رحب بالتحالف مع بخارى هو يعقوب قوشيجى أمير تركستان الشرقية ، وذلك بدافع من مصلحته الشخصية . وكان أشد ما يهتم به الأمير التركستاني هو خطر القوات الروسية التي كانت ترابط عند نارين على مسيرة أيام قليلة من قصبته ، وكان كذلك قد عرف في تجارب تنبأه التي مر بها مدى ما عليه أسلحة الروس من تفوق (١) . وعلى هذا فقد احتاط أشد الاحتياط في الإفصاح عن ميوله نحو أمير بخارى .

هذا كما كان يستحيل في الواقع قيامه معه بعمل مشترك وذلك بسبب الاسفين الذي أقامه الروس بينه وبين ذلك الأمير الذي يقيم على ضفاف زرفشان باحتلالهم لخوقند . وكان مظفر الدين بدوره قد انهارت آماله كلها بالنسبة للمستقبل . ومن المحقق كذلك أن بريطانيا لم تفكر أبدا في أن تمد يد المساعدة الى هذا البلد ، وهو في آخر مراحل صراعه ، وهو الذي أنزل بها. أبلغ المهائن الدبلوماسية حيث مات اثنان من سفرائها ميتة الشهداء ، وذلك برغم النائعات (٢) التي كان يطلقها الروس في هذا الصدد .

(١) استخدم يعقوب قوشيجى ، أمير تركستان الشرقية الحالي ، ما تعلمه في فن الحرب ، في الوقائع التي خاضها مع روسيا عند حوض سيحون الأدنى ، وداعت شهرته ، التي اعترف الروس له بها ، بسبب ما أظهره من بطولة وحرارة في قيادته لحصن آق مسجد . وإذا كان لنا أن نصدر ما يشنع به على تركستان ، فإنه قد فتر في الدفاع عن خوقند بفعل أموال الروس التي بذلوها له ، كما يتهم كذلك بأنه قد سلم للعدو موصعا أو موضعين غدرا .

(٢) اسبح للصحافة الروسية فرصة نشر تقارير نفول بمدوم بعض الدبلوماسيين البريطانيين (!) الى بخارى أثناء الحرب البخارية الروسية ، وانهم كانوا يتسجعون الأمير على العدوان حتى أمداوا الأوزيك ببنادق لي انفبلد ، وغير ذلك . وقد ذهب مراسل لصحيفة Invalide Russe (نسرت الترجمة الانجليزية لهذا المقال بجريدة التيمس بتاريخ ١٩ أكتوبر ١٨٦٩) في تركستان الى حد أن نسب الى الأمير اعلانه بأن بريطانيا هي التي أشعلت نيران الحرب بينه وبين روسيا . وكل من يعرف ما عليه الانجليز من برود يدرك أن ذلك كله محض اختلاق سخيف .

ولم تكن تركيا بدورها لنعمد الى اصطناع الدسائس فى أقصى الشرق فشير بذلك نائره الزوابع التى نذر أففها السىاسى بهوبها عليها على الدوام .

والواقع أن رجال الباب العالى لم يكونوا يدرون من أمرالأوزبك أو التاجبك ومن اليهم أو عن أمر خبوه وبحارى وخوقند وسيحون وجيحون أكثر مما يعرفون عن جزيرة هايتى . ولا تجد عند الجيل الجديد من العنانيين حتى مجرد فكرة عن صلات الصداقة الدبلوماسية الى كانت تقوم فى الزمن السالف بين بلادهم وبين الشيبانيين والاشترخانيين . ومع هذا فأنى يكون للعنانيين أن يمدوا يد العون الى بنى جلدتهم واخوانهم فى الدين بالسرف القصى وهم أنفسهم يحاربون من أجل حياتهم .

ولم يكن ينتظر من الفرس الشيعة بدورهم أن يتحالفوا مع مظفر الدين ، وهامهم الألوف من مواطنيهم لا يزالون يرسفون فى ذل الرق عند الأوزبك . فضلا عن أن مجرد ذكر اسم التركمان كان مما تشمئز له نفوسهم منذ زمن متناه فى القدم .

ولئن كان القاجاريون تربطهم بأمرأ بخارى بعض وشائج القربى من بعيد ، الا أنهم كانوا يكونون لهم أشد الكراهية وأعنفها . وكافوا محقين فى ذلك . وعلى هذا فقد فرحوا أشد الفرح لاقتصار الروس عند سيحون وجيحون وكان آخر ما يفكرون فيه أن يعترضوا سبيل من أسدى جميلا اليهم .

ولم يحز فى نفس مظفر الدين أن صار فى عزلة تامة وحيدا مهجورا بقدر ما آلمه ما كان من سلوك رعاياه نحوه هم وقواد جيشه وأكثر ذوى قرباه . فقبل ذياك الوقت بيضع سنوات ، وذلك عندما كنت ببخارى لم يكن الناس يهابونه فحسب ، بل كانوا كذلك يجلونه ويحبونه . وهأهو اليوم ، سواء فى الأسواق أو فى ريغستان ، يسمع الناس يسبونه فى العلن ويصمون به بالجبين أمام العدو ، وأن هربه من ميدان القتال عند برجار هو الذى عجل بوقوع الكارثة التى حلت بهم . كما اهتموه بتبديد

أموال الدولة ، وكان بدافع الحاجة الملحة قد اضطر الى تخفيض قيمة العملة ، ثم مد يده من بعد ذلك الى الأوقاف فاستولى عليها . وكان أخطر التهم التي وجهت اليه أنه ، وهو « أمير المؤمنين » فى السابق ، قد اتصل سرا بالكفار وباع لهم « بخارى الشريفة » على ثمن معلوم . وصار على هذا لا يجسر على الخروج الا ليلا أو مستخفيا اتقاء ما كان يوجهه العامة اليه من الشتائم وما كان يصبه النساء فوق رأسه من اللعنات بتحريض من رجال الدين .

ومن العسير على من لا يعرف بخارى حق العلم ، وما عليه أهلها من الغرور والجهل والتعصب ، أن يدرك مدى الذهول والغضب الذى استولى على سكان تلك المدينة بسبب الضربة التي نزلت بهم على أيدي الروس ، وهم الذين يعتزون بأنفسهم أشد الاعتزاز . فلقد تكشف لهم أن أمرهم ليس هو بنمور التانى (١) ولا حتى بتسبه له ، وأن جندهم النظامى ومحاربيهم المشهورين من أهل قارشى لم يكونوا كرستم وأضرابه ، وأن تشفعهم بالأولياء الذين تحيط بهم أضرحتهم لم يغفرهم شئاً فى لقاء الكفار .

وكان هذه التجارب المخيفة التي مروا بها أكثر من أن تحتملها أنفسهم حتى كادت أن تذهب بلب الأمة كلها .

هناك برز البكوات والشيوخ والصوفية وال دراوبش والتجار والعمال والشحاذون فحملوا السلاح جميعا ، وقد أجمعوا على هدف واحد هو الاصرار على الالتحام مع روسيا من جديد ، فلا يرجعون عن حربها حتى النصر أو الموت . ونودى فى الناس بالجهاد على صورة لم يعرفها من قبل أى قطر من الأقطار ، ولا شهدها الاسلام فى أى ظرف من الظروف ،

(١) هناك مثال صغير أذكره يدل على هذا الغرور المفرط ، فقد سألنى الأمير نفسه ذات مرة عما اذا كان جيش سلطان الفسطاطية يبلغ خمسة فى استعدادة وعظمته وشجاعه رحاله درجة ذلك الجيش الذى رأيته عند عودنى من خوفند الى سمرقند . ولا ادرى ما يكون جواب أبطال بلاكوفا على ذلك .

فلبى النداء الكبار والصغار ورجال الدين والجند على السواء مما زاد فى القوضى بطبيعة الحال ، ولم يكن للأمير بداهه الا أن ينزل على رأى القوم . وبذلك تجددت الحرب مع روسيا . ولا حاجة بنا الى القول بأن سلوك البخاريين الجنونى هذا وخرق أميرهم ، كان أمنية روسيا بعينها لتمضى فى تحقيق أهدافها .

ركن الروس الى التوقف فى زحفهم بعد سقوط خجندة حتى تصل اليهم الامدادات والمؤن اللازمة . وفى أثناء ذلك تغيرت قيادتهم فجاء من بعد رومانوفسكى الكونت داشكوف Dashkoff فواصل الانتصارات التى كان سلقه قد بدأها صوب الجنوب ، واستولى على حصن أراتبه الهام أوائل اكتوبر عام ١٨٦٦ ، وما غدا أن وقع بأيدي الروس مباشرة جيزك ، حصن الحدوديين بخارى وخوقند . وفى هذين الحصنين وجد الفاتح مخازن كبيرة للسلاح والذخيرة .

وكان المأمول أن تخدم نار الحروب وشيكا فى وديان آق طاو بعد ما لحق "أسير من خساء" جسيمة وضاق الخناق عليه ، ولكن حال دون ذلك ما كان عليه وصع على فريق على حدة .

فمظفر الدين ، على ما رأينا ، كان مضطرا الى تجديد القتال بضغط رعائياه عليه ، وكان جوراباى أمير شهر سبز قد وعده بالمساعدة فى هذه الحرب المقدسة على أن يعترف له باستقلاله ، وما غدا كذلك أن قدمت جموع كبيرة من التركمان والأفغان فانطوت تحت لواء بخارى .

ومع هذا كله فلا نعجب حين نرى مظفر الدين ، فى مقامه خلف أسوار الحصن ، يرب الخاطر الوافد اليه من الشمال وثقته فى نفسه هى دون ما كان عليه أمير خوارزم منذ زمان مضى وهو يترقب الغزو المغولى .

وتقدم الروس بدورهم من مركزهم فى جيزك . وما من شك فى أنه برغم ما كان يلقاه القادة الروس المتحمسون من المضايقات الرسمية وغيرها من الاعتراضات ، فان سياسة بلاط بطرسبرج كانت ترمى ، فى

لمحل الأول ، الى ألا يقعد الروس عن الحرب أبدا حتى ننسلم لهم الخانيات الثلاث التي تكون الحدود الطبيعية لجيحو . وفي المحل الثاني فان البخاريين بغاراتهم على تلك الأراضى التي احتلها روسا حدثا ، وبما كانوا يقومون به من أعمال الاستيلاء انما يتعجلون اتمام الأمر الأول .

ولم يقع خلال عام ١٨٦٧ الا بعض مناوشات قليلة استطاع الروس بقيادة الضابط الكفاء القدير الجنرال كاوفمان Kauffmann أن يسولوا بها على حصن ينكى كورجان الصغير ، وأن يدمعوا مراكزهم الأمامه من بعد ذلك حتى طاش كوبريك ، وهو جسر حجري يقع في منتصف المسافة بين ذلك الحصن وسمرقند .

وفي ١٣ مايو (١) من العام التالى صدرت الأوامر الصريحة بالزحف الى سمرقند . وشرع الجيش فى التحرك بالفعل . وفيما كان الكولونيل بتروشفسكى Petruschewsky يقود المقدمة على الشاطيء الأيمن لرافد زرفشان التقى فى طريقه بنجم الدين المبعوث البخارى الذى أشرنا اليه من قبل ، وكان هذا يحمل معه اقتراحات للأمير لعقد الصلح مع طلب إيقاف الزحف أثناء المفاوضات .

ولقد يشتم القائد العام الروسى بأنه رفض اقرارا الأمور سلما وآثر استخدام القوة برغم أن البخاريين كانوا قد سجبوا جيشهم المؤلف من أربعين ألف جندى الى منحدرات الشاطيء المقابل . والواقع أن الروس كانوا قد اكتشفوا من فورهم أن المسألة كلها لم تجر على هذا الوجه الا لمجرد التعمية . وعلى هذا فقد كان الجنرال كاوقمان على حق حين أجاب على عروض الأمير بطلبات المدافع بدلا من تفات القلم . وكانت قوات الروس تتكون من احدى وعشرين فصيلة من المشاة وستة عشر مدفعا مع سرية من المهندسين واربعمئة وخمسين جنديا من

(١) يذكر الكابتن ف. ترنش فى كتابه عن المسألة الروسية الهندية :

F. Trench. The Russo - Indian Question. London 1869, n 81 .

ان هذا الرحف وقع فى ٣٠ ابريل ، ولعل هذا التاريخ هو بحساب التفويم الروسى ، وفيما عدا ذلك فهو يختلف عما ورد بالمصادر الاخرى بما لا سبيل الى تعليه .

الفوزاق ، فكانوا فى مجبوعهم نسانية آلاف رجل اسعدوا لخوض عمار الحرب ، وقد بدأوا بعبور زرفنسان نحت سجع العدو وبصره . وفى رجال الجناح الأيسر ، يفودهم الماجور جولوفاتنسيف ، ربع الساعة يخوضون فى الماء الى صدورهم ، غير مكترزين بنيران مدفعية العدو ، حتى استطاعوا آخر الأمر أن يبلغوا موضعا صالحا فى الأراضى التى تكتنفها المسنفعات فصعدوا عنده الى الشاطئ المقابل .

وحاول الجيش الأوربكى ، وكان يفوق عليهم فى العدد بخسة أضعاف أو سبه ، أن يعوى عبورهم النهر فى مواضع معدده ، ولكن جهوده كلها باءت بالفشل .

وما ان تم عبور الروس حتى تخلى الأوزبك عن مواقعهم المسازة بالمرتفعات وولوا هاريين باركين من ورائهم كل مدافعهم .

وفد وقع هذا كله غير بعيد من سرفند . وخاف أهل المدينة معه الفوضى التى قد نحل ببلدهم على أيدي مواطنيهم أكثر مما حافوا من الاخلال النصارى . وعلى هذا فقد أغلقوا أبواب مدينتهم فى وجه الالاجئين من حيسهم . وبعوا بوفد من كبار السيوخ والأعيان يدعوا العدو الى دخول المدينة وسار فى اليوم التالى قسم من الجيش الروسى الى سرفند . ودخلها الجنرال كاوفمان على رأس حاشية كبيرة كان فيها الأمير الأفغابى سكندر خان ابن صاحب هراة . ويقال أن هذا الأمير كان قد قدم أولا لاسد زر « بخارى الشريفة » فى دفاعها عن الاسلام ، حتى اذا لم يتمكن القوم من أن يدفعوا له ما اتفقوا عليه من المال نظير خدماته مضى الى خدمه الصليب المزدوج بعد أن قرأ الفاجحة على روحه .

وعلى هذه الصورة اسنولى الروس النصارى فى ١٤ من مايو عام ١٨٦٨ على سرفند التى كانت يوما حاضره نيسور الفحسه والنس ولد فيها وثوى كثير من مناهير الرجال الذين جرى ذكرهم فى التاريخ الاسلامى ، والتى كانت تعد مركزا مستازا من مراكز الثقافة الاسلاميه القديمة . وبسقوطها انتقل احسن أجزاء بلاد ما وراء النهر من أيدي أسرة المنغيتيين الأوزبكية الى بيت رومانوف .

وأول من فتح هذا الاقليم ، على ما نعلم ، هو الاسكندر « المقدوني » وآخرهم هو الاسكندر « الثاني الروسى » .
 فقبل ألفى عام كانت سمرقند تدفع الجزية لدولة صغيرة فى جنوب أوروبا ، وها هى اليوم تحكم من عاصمة شالبه فى القارة نفسها (١) .
 وحين نستعرض ما شهدته سمرقند ابان صراع الأسر المختلفة التى حكمتها ، من يونان وعرب وترك ومغول وأوزبك ، فاننا لا نجد بالكاد رسماً أخرى فى آسيا عرفت تاريخاً فيه الأيام السعيدة وفيه الأوفات المصنفة كذلك الذى عرفته هذه البلاد . ولقد صار كثير من بلاد الشرق البعيدة معروفاً لنا خلال اقرن الماضى ، حتى لم بعد أقصى أركان ختاي ، بازء خطأ ، وزيانفو يخفى أمرها على الباحثين والمستكشفين الغربيين . ومع هذا كله فقد بقيت سمرقند بلاد الأقاصيص حتى يومنا هذا فى الغالب .

وعلى هذا بعد كان سقوطها موضع الدهشة والعجب فى أوروبا . وقد قضى فتح هذا الاقليم على كل مسارح الخبال الى كان الناس يخلقون فيها حين كانوا يفكرون فى تقاليد آسيا فى العصور الوسطى .
 وعلى اثر سقوط سمرقند انطلق الأمير هاربا الى كرمينية لا يلوى على شيء . أما ابنه وولى عهده . عبد الملك مرزا ، وكان شاباً فى التاسعة عشرة من عمره ، فكان قد فر أثناء المعركة الى بخارى .
 وبلغ الذعر بالناس الى درجة أن هجرت جسوع بأكسلها من السكان المسلمين دورها وموطنها فى ميان كل وهرت بطريق قارشى فعبرت جبجون الى ميسنه وأندخوى . أما الروس فكان أول ما شرعوا فيه هناك هو تأمين مراكزهم . فعدوا الى تحصين الربوة الصغيرة التى تفوق القلعة عليها ، وواصلوا فى الوقت نفسه زحفهم فى طريق بخارى لبطاردوا الأمير من جهة ولبوئمووا المواضع الى تحيط بهم من جهة أخرى .

(١) طالما أتج لبعض حكام بلاد ما وراء النهر وأمرأ الفبيلة الدهسه التوغل فى الروسيا بدورهم حتى دخلوا موسكو نفسها مرات متكررة ، على ما تشير اليه مؤلف هذا الكتاب نفسه . والتاب كذلك أن دوق موسكو ظل سنين طويلة لا يعين الا على مستنهم على حربه سنوية يدفعها لها (المترجم) .

وزحف الماجور جنرال جولوتشيف أولا الى حصن كنه كورجان ،
على زرفشان ومعه أربع عشرة فصيلة من المشاة وثمانية مدافع وثلاث
سرايا من القوزاق .

وكنت قد مررت بهذا الحصن من قبل ، فقليل لى اذ ذاك انه
يستعصى على أى فاتح . والواقع أن استحکاماته الخارجيه كانت على
شئ من القوة ، ومع هذا فإن حاميته برعم كثرة عددها ما لبثت أن
فجعت أبوابه مسنسله دون ابداء أدنى مقاومة .

والغالب أن الأمير كان قد مضى بجهد يجمع شتات ما بقى عنده من
القوات ، واتخذ لذلك من مير (١) مفرا لقيادته ، ومنها أخذ يبعث ببعض
فدواته من الخياله الخفيفة لمناوشة الروس عند كنه كورجان ، حتى ضاق
الجنرال كاوفمان آخر الأمر ذروعا بهذه المضائق المستمرة وان لم تكن
ذات بال ، فعزم على المضي الى بخارى والقضاء على بقايا الجيش الأوزبكي
هناك . وكان البخاريون لا يزالون على غرورهم حتى استعد الأمير
للمقاومة من جديد . ولا ندرى أفعّل ذلك من تلقاء نفسه أم بتحريض
جوع المتحسبن ، ثم خرج من بعد ذلك لحرب الروس .

وعند سربول وفعت الموقعة الحاسمة بين أسرة المنغيتيين وبيت
رومانوف على تاج بلاد ما وراء النهر ، فى نفس المكان ونفس الفصل
من السنة ، بل ولعله كذلك فى نفس اليوم من الاسبوع ، الذى تحارب
فيه شيباني خان وبابر فى الموقعة الحاسمة من أجل أسرتهما ، وكان ذلك
لثلاثائة وتسعة وسبعين عاما خلت .

وجاءت النتيجة فى غير صالح الأوزبك الى أبعد حد ، فقد انطلق
الروس بشجاعتهم المعروفة يقتحمون من كل جانب مرتفعات الطريق
الذى كان يحتله الأوزبك ، حتى بلغ الاضطراب والفوضى بالعدو الى
حد أن صار الطريق حتى كرمينية تغطيه الأسلحة التى كان الفارون يلقون
بها وهم يولون الأدبار . وفى هذه الكارثة الشاملة انتهى مظفر الدين الى
أقصى مصير .

(١) هى قرية صفرة فى الطريق من بخارى الى سمرقند وتتوسط
ما بين كرمينية وكنه كورجان ، انظر كتابى Travels in Central Asia p. 200

ذلك انه لم يجرؤ على العودة الى بخارى ، اذ كان ابنه ، وكان على الدوام ثائرا عتيذا ، قد تزعم المتحمسين الناقمين وعمل على أن يسلب أباه بقايا عرشه المنكود . ولكنه لم يجسر بدوره على التقدم بقواته . ذلك أن الروس كانوا ، على ما يبدو ، قد حزموا أمرهم بهذه المرة على أن يمشوا قدما براية النسر الأسود حتى يبلغوا « بخارى الشريفة » . وبذلت محاولات غادرة لمهاجمة سمرقند في غياب الجنرال كاوفمان ولكنها باءت بالفشل بفضل شجاعة الروس (١) .

وبهذا لم يكن للامير بد من عقد الصلح مع عدوه المنتصر ، فيحتفظ بذلك بظل الملك ما بقي له من سنين ، على أن يدفع غرامة حرية قدرها مائة وخمسة وعشرون ألف تيل (نصف المليون تالير) ، ولم يصن الروس صراحة على أنها جزية محافظة منهم على شعوره .

وفي معاهدة الصلح هذه تعهد الأمير بما يأتي :

أولا : أن يسمح للرعايا الروس بممارسة التجارة في حرية تامة بكل أجزاء الخانية بصرف النظر عن عقائدهم ، وأن يؤمنهم على ممتلكاتهم وحياتهم .

(١) حين ترك الجنرال كاوفمان وقوة جيشه الرئيسة سمرقند من ورائهم ، هاجم خمسة وعشرون الفا من الاوزبك والسمرقنديين قلعة المدينة غدرا قادمين من شهر سبز حتى دق مركزها . وكانت الحامية فيها يقودها الماجور البارون فون شتمبل V. Stemple ، وكان قوامها ٦٨٥ رجلا بما فيهم المرضى وغير المحاربين . وقد أبدى هؤلاء من البطولة ما يستحق كل ثناء وتقدير ، وكان فيهم من نهض من فراشه وشارك في الدفاع . وقد استمرت هذه المعركة ستة أيام كاملة من ١٢ يونية الى ١٨ منه ، وكلفت الروس ٤٩ قتيل و ١٤٢ جريحا . وركز العدو نيرانه على أحد الأبواب وأفلح في أحداث ثغرة فيه ولكن ذلك لم يفده شيئا . وظلت طوابير المهاجمين تتدفق على الاسوار وهم يصيحون كصياح الجن . وظل الروس يطهرون من موضع الى آخر وهم يردون عنهم ، في تبات ، ذلك العدو المتعطش للدماء وينزلون به الخسائر حتى بلغ الخبر آخر الأمر الجنرال كاوفمان بعد مضي وقت طويل ، فأسرع بالعودة في زحف شاق وخلص بذلك رجاله من موقفهم المهلك . وهذه الفترة من الحرب الروسية البخارية فيها أوضح مثال على وهن شعوب آسيا الوسطى مع ما هم عليه من مكر .

ثانيا : أن يسمح للتجار الروس بأن يقيموا وكلاء تجاريين لهم في حرية تامة بكل أجزاء الخانية .

ثالثا : أن يحدد الضريبة على الواردات الروسية باثنين ونصف بالمائة من قيمتها الاسية .

رابعا : أن يسمح للتجار الروس بحرية المرور في أراضي الخانية حين يفتقدون الى ما يجاورها من البلاد .

عقد مظفر الدين هذا الصلح مع روسيا ليجد أنه انما قد جلب بذلك على نفسه عداوة شعبه وكراهيته المريعة له . ذلك أن كل ما نزل بهم من الهزائم وما حاق بهم من الكوارث وما ضاع منهم من الحصون وما هلك منهم من الأنفس ، هذه كلها لم يكن لها أدنى أثر في أن تجعل شيوخ بخارى المتعصبين ، الذين ضار لهم شعاعا لذلك ، يدركون واقع الأشياء ادراكا صحيحا . فأولئك الذين كانوا لسنين قليلة خلت يعتقدون اعتمادا جازما بأن بخارى ، بقوة جيشها وصحة اسلامها الأكيد ، هي ند لسلطان الفسطنطينية نفسه ، وناهيك بالنصارى ، عليهم أن يدركوا الآن أن حفنه من كفار النصارى قد غلبوا جيشا للمسلمين يفوقهم في عدده بعشرة أمثال أو خمسة عشر مثالا ، وأن مخترعات أوروبا الشيطانية، في فن الحرب ، كانت أشد فعالية من دعوات الصالحين وأتقاسهم المباركة . ولم يكن أحد من هؤلاء المسلمين المتحسين يدرك هذه الحقيقة .

وكان من سوء الطالع أن اتهموا زعيمهم بالخيانة . ولم تجرؤ جموع الثائرين هؤلاء على مهاجمة الروس فسقطت على أميرها وأبنت الجباهير عليه وسعد لاجلاس ولي العهد على العرش .

وفضلا عما كان لولى العهد هذا من حزب قوى في بخارى فقد كان يؤيده كذلك جورى باى وبابر باى في شهر سبز ، وتميل الى صفه المناطق الشمالية فى غجندىوان ونوداته وخاضرجه .

وهو حين انفضل عن أبيه وارتد الى قارشى نادى بنفسه سلطانا

من فوره ، وعلى هذا دخل في تحالف مع خان خيوه . وازداد تأييد الناس له حتى وجد نفسه بعد وقت قصير جدا على رأس جيش قوامه ما يقرب من عشرة آلاف رجل . ولم يكن مظفر الدين ليقف موقف المنفرج ازاء ذلك . فجمع بدوره ما تبقى له من قوات ضئيلة وزحف بها الى قارشى ليكبح جناح ابنه . حتى اذا ما بلغ منتصف طريقه الى هناك علم كذلك بقيام الثورة عليه في القسم الشمالي من الخانية ، وذلك بتدبير في السر من ولى العهد ، على ما يحتمل ، وأن صادق باى زعيم الثوار في تلك النواحي يزحف في طريقه الى كرمينيه .

وأدى ظهور ذلك العدو فجأة في الشمال ، مع ما لاح من ازدياد الخطر في تلك النواحي ، الى أن أصدر الأمير أوامره بالرجوع وجد في السير الى عاصمته . وتشجع ولى العهد بارتداد أبيه هذا فعزم على مطاردته . وكان من الممكن أن ينجح في خطته هذه لو لم يتدخل الروس بطلب من الأمير .

ولم تكن هذه الاضطرابات لنرضيهم ، في الغالب ، والأحوال لم تستقر بعد في الولاية التي دانت لهم حديثا . فرصدوا لذلك فوه صغيرة (١) بقيادة الكولونيل ابراموف Abramoff استطاعت أن توقف تقدم ولى العهد عند جام .

هذا كما تسكن مظفر الدين في الوف نفسه من أن يتخلص من صادق باى في النواحي الشمالية الشرقية إذ أنزل به هزيمة تامة ، ثم ذهب من بعد ذلك بنشد تعاون الروس معه حتى يستطيع بذلك أن يقر الأمور في الجنوب حيث شهر سيز التي نارت في وجهه ، وابنه الذي خرج عليه .

وأجابه هؤلاء الى ما طلب ، فسار الكولونيل أبراموف من جام مع فرقة استطلاعية لهذا الغرض . وسبق هذا القائد الأمبر في زحفه

(١) كتاب هذه القوة تتكون من سبع فصائل من المساة وسريتش من العوزاي وسنة مدافع خفيفة وملها نفيلة .

بأميال قليلة ، فالتقى بفوات ولى العهد فى أكتوبر (وفى نوفمبر فى رواية أخرى) فهزمها وشتت شملها . واستنولى الروس على فارشى ، ثانى مدن الخانية ، ثم أخلوها من بعد ذلك بيومين وسلموها الى الأمير هى وفلعتها وكل ما كان بسخازنها من أسلحة ، والدهننة تعقد لسان أهلها من هذا الصنيع . وارتأى مظفر الدين أن يفيد كذلك من الروس فى حرب مع شهر سبز . وكان يرمى من وراء ذلك الى القضاء على جورا باى دون ابيه الذى كان بعده مجرد مقلب قط لخصمه هذا .

على أن الجرنان كاوفسان لم يكن يفكر على كل حال بأن عليه أن يصنع للامير أكثر مما صنع ليدل بذلك على صداقته لحليفه الجديد هذا . فما ان أخلى فارشى حتى بعث بجنده الى معسكرهم الشتوى فى جام .

ولم يكن ولى العهد ليهدأ له بال وهو يطمع فى العرش ، حتى قلق مغامراته مضاجع أبيه كما أقلق الروس والبريطانيين كذلك . سمع نراه مع عصايته من تركسان الأرسارى أو النكه ، وكانوا يناصرونه جسعا ، يقدم فجأة من السهوب فيظهر من جديد بهذا الجزء أو ذاك من الخانية ، أو بتحالف مع خيوه ، لتأتى الأخبار بعد ذلك بوجوده فى كابل يحاول عبثا أن يحبل أميرها شبرعلى خان على محاربة الأمير .

وقد لقي ولى العهد كل الترحيب والعطف فى كابل ، حتى زوجه شبر على خان من ابنته ، ومع هذا فان أحدا لم يجرؤ على شد أزره أو مساندته فى تحقيق أغراضه ، حتى لقي حتفه ، غلة فى الغالب ، وهو فى تجواله بخيوه (١) .

وتخلص الأمير من هذا الكابوس المخيف عاد السلام يخيم على ربوع ذلك القسم من بخارى الذى سمح له الروس بأن يدعيه لنفسه كرما منهم ، وقد نعلم ، بدافع الضرورة ، كيف يلائم بين نفسه وبين ما

(١) لا يزال هذا الأمير ، على ما سمعت حديثا ، على قيد الحياة فى ضيائه يعقوب قونسجى فى كاشغر .

صار اليه من مصر شاف . وصارت أساط الغرامة الحربية تؤدى الى سرقند في مواظبة نسبة . وان كان كاهل القوم قد أثقل بها .

وانتظمت الصلة بين حصن بخارى وفلعة مدينه نبور ، وما غدا الأمير ، أظهارا لولائه ، أن أوفد الى طرسبرج وهذا من قبله وعليه عبد الفناح ميرزا أصغر أبنائه وأحبهم الى نفسه ، وكان اذ داك ننى في الثانية عشرة من عمره . وكان مظفر الدين قد نادى بابه الرابع هذا خلعا له وسعى جهده فى أن يال فى ذلك التأيد على صفاء نفا .

وكان هذا بالطبع أمرا مشكوكا فيه . فلئن كان القصر نيفولا قد أفصح فى السابق لناء اران افصاحا عليا عن حب روسيا لبلادته حين دله فى ضفولته وأجلسه على ركبته فى تفلبس . فان الاسكندر الثانى لم يكن يريد أن يتعرض لمثل ما لقيه سلفه من المناعب فى هذا الصدد ، كما لم يكن بطبعه مسنعدا لأن يقوم بالوصاية على عد الفتاح هذا . وهوبل العنة القادمة من نواضى زرفان البعده بكل حماوة واحرام بالبلاط الروسى ، فى ٣ نوفمبر من عام ١٨٦٩ . ولم يال القصر جيذا فى الاعراب عما كنه من الصداقة « لأخيه الطب » بركسان ، وكان الأحذر به يحى أن يقول عنه انه تابعه . ونلقى بصحة الامبراطورة هدايا الأمير وبانها كالأنى :

- ١ -- حاتم له حجر سخم من الماس
- ٢ -- عبامه للسيدات مرصعة بالحجاره الكريمة .
- ٣ -- مجموعة من فخم الحبل من القضة المرصعة بالوافت :
- وهى خاصه بالخول الكرسه الأربعة التى تعب بها من تركسان .
- ٤ -- أربعة معاضف من خلود الحبل سوداء ومحظطة بالكسر
- ٥ -- ثلاثة معاضف من صوف الأغنام رماده اللون ومحظطة
- بالتسج البخارى الذى يعرف باسم « نالى » .
- ٦ -- كنوان من الكنسر .
- ٧ -- قطعه من الكسير النادر الجليل .
- ٨ -- نسائى عنرفه قطعة من الحرير المسوج هالة .

٩ — نسانى عسره قطعة من النسيج المعروف باسم « ارس » ، وهو مزيج من الحرير والصوف (١) .

وكانت هذه الهدايا تسعة فى عددها على رسم الأمم التركية السارية . وقد رد القبر على هذه الهدايا بهدايا أخرى مناسبة . وأدى بادل الهدايا هذا الى قيام قدر من التفاهم الطيب بين الطرفين بطبيعة الحال ، ان لم يكن قد قام دليلا على حسن نواياهم .

والواقع أن مظفر الدين كان قد كف عن اظهار العداء لروسيا منذ أن استولى الجنرال كاوفمان على سمرقند . على أنه ليس من المستبعد أن يكون هذا الأمير قد حاول سرا الحالف مع أمير تركستان الشرفية القوى ، وأن ثمة جهودا أخرى كان بذلها من وقت لآخر المغرض نفسه فى المصطنطية وكلكتا . ذلك أن أمير بخارى لم يكن ، على قدر ما نعلم ، قد يأس بعد من امكان اسرداده لملكه انسابق . ولكن محاولاته كلها لم تنسر شيئا . ولم يبد من روسيا بدورها كذلك ما يفصح عن نيتها فى الجلاء عن أى جزء من آسيا . وعلى هذا فقد شاء القدر أن يكون مظفر الدين هو آخر بنى جلده وأخر أولئك الأمراء الذين حكموا كأمرأ مسفلين ببلاد ما وراء النهر منذ أيام السامانيين حتى وقتنا هذا .

عند هذا الحد بنهى تاريخى لبحارى ، وقد أخذ هذا القطر الآسبوى المديم الفصى بسقى فى طريق العالم الحديث وبأخذ بالأفكار الحديثة مد اللحظة التى أخذ العلم الروسى فيها يرفرف فوق قلعة سمرقند . فالمدن والأقاليم التى كان سكان أوربا لا يعرفون عنها شيئا قد فُتح أبوابها ، والأماكن التى كان الرحالة الأوربيون لا يستطيعون أن يلمحوها ، الا مغامر من بحياتهم معرضين للهلاك ، لم تصبح اليوم حرة آمنه فحسب ، بل وبقوم على شؤون حكومتها مسيحيون كذلك ،

- -

(١) هذا الببار فعلا عن مقال لهوالد فى مجله "Ausland" الألمانية بتاريخ ١١ مارس ١٨٧٢ . وعنوانه «اكتشافات جديدة فى آسيا الوسطى»

ففسح الكنائس والنوادي في طشقند وخجند وسمرقند ، بل وظهر كذلك في طشقند صحيفة هي Turestanskia Wjedomosti أى أخبار تركستان ، وصارت أجراس الكنائس اليونانية تخطط أجراسها بأذان المؤمنين . وكانت هذه الدفات أشد وقعاً في آذان المسلمين من طلفات المدافع .

وصار الفساوسه والجند والتجار يشون بخطى الفاتحين مزهوين في طرق بخارى حيث لم يجرؤ مؤلف هذا الكتاب لسنين خلت هناك الا على انساد الترانيم الاسلامية . وأقيم دار للشفاء ومخزن في قصر تبور الذي كان يوماً ما مضرب المثل في الفخامة ، حيث كانت تقدم وفود آسيا ليفصحوا عن ولائهم لصاحبه ويقدموا له هداياهم ، وحيث بعث ملك قشتالة المتكبر نفسه برسله ليعسوا في خضوع الى كسب ود تيمور ، وحيث كان يقدم أحفاد التورانيين فيلمسون بجباههم في خشوع « الحجر الأزرق » قاعدة عرش تيمور .

أما مدى ما سوف يسهم به هذا الانقلاب في فلاح سكان آسيا الوسطى فهو موضوع أبعد ما يكون في صلته بأهداف هذا الكتاب ، فأجل الفارئ ، في ذلك ، على آرائى التى أديبها في هذا الشأن بمسورات أخرى (١) .

على انه لا بد لى من أن أشير هنا الى حادث بالغ الأهمية ، وهو أن ما أحرزته روسيا من النجاح في آسيا الوسطى قد أنزل بالاسلام أشد ضربة تعرض لها على أيدي المسيحية خلال الألف عام التى كان يقوم فيها الصراع بينهما (٢) .

(١) انظر هامس رقم ١ ص ٤٣٦ من هذا الكتاب .
 (٢) مارس الروس من بعد ذلك حرب إبادة سقط فيها الوف عديدة من سكان هذه البلاد الذين انطلقوا يقاومونهم بدورهم في توران مسلحة متلاحفة أسهرها ثورة التبيح شامل في القرن الماضي نم ثورة « البصمجي » في أواخر الربع الأول من القرب الحالى . هذا عدا الوف كثيرة منهم هاجروا بدينهم الى مختلف الأقطار الاسلامية . وتجد تفصيلات كثيرة في ذلك في كتاب Baymirza Hayit, Turkestan im X X Jahrhundert, Darmstadt 1956 (الترجم) .

وفي أباها هذه تغفل نفود أوروبا المسيحية القوى في كل أجزاء آسيا الإسلامية الغربية وسادها ، ولم تقف مكة والمدن بنسائها بنجوة من النائر بالنياراب الحديثة السائدة في هذا العصر .

على أن الإسلام في تلك الأجزاء النائية من آسيا الوسطى قد ظل يزدهر لا يعوفه في ذلك شيء ، ما حرص أصحابه على المحافظة على أصوله الأولى سليمة نقية . وعلى هذا فقد صارت بخارى في الواقع — لا مكة — هي مركز الإسلام الروحي ، واليها قدم الزهاد والأتقياء ورجال الدين المخلصون من كل حدب وصوب . وما من تسك في أن المسلمين العبورين في كل أجزاء الدولة العثمانية ، في مصر وفارس ومراكس ، كانوا يلقون عن تلك البلاد ما يذكر فيهم الحية الدينية وأن لهم تدع تلك الحقيقة في الناس (١) . وما من تسك كذلك في أن سيرونة تلك البلاد إلى أمدى الكفار ، أشد من أن يحتله المؤمنون في العالم الإسلامي . وسبغل التراب الذي أثاره سقوط أعظم أساسين الإسلام ، على ما كانت تعرف به بخارى ، بغير كسابة سوداء معته في آفاق آمال الإسلام المستقبل لزمان طويل أن لم يكن إلى الأبد .

(١) اذكر في ذلك الخانقاهات الخارئة ، وكان ينزل فيها في الواقع الدراويس والحجاج من أهل آسيا الوسطى بالمسطنطينية ، وينفق عليها أنباء آيا صوفيا . وبمناسبة ذكر الصلات الروحية مع مسلمي الغرب ، نذكر لاحظت أن هناك عددا ملحوظا من المترك كانوا من بين مریدی شیوخ بخاری . وقد زودنی شخصا برك من المسطنطينية وانفره وارضروم برسائل توصية إلى هؤلاء الشيوخ .

ملحق وتكملة للكتاب

تركستان والاستعمار الروسى

(فى ظل القياصرة والسوفيت)

بقلم

الاستاذ الدكتور / أحمد محمود السادانى

- ١ — تعريف بتركستان ودورها الحضارى والتاريخى وكفاحها مع الاستعمار القيصرى الروسى حتى ثوره النسيخ شامل •
- ٢ — تركستان قبل ثوره اكتوبر الشيوعيه عام ١٩١٧ م •
- ٣ — جمهوريه الشعب فى خيوه •
- ٤ — حركه البصمجى لمناهضة الاستعمار السوفيتى •
- ٥ — النسيوعيه والاسلام فى تركستان •
- ٦ — التركستانيون والحرب العالميه الثانيه •

بسم الله الرحمن الرحيم

تركستان والاستعمار الروسى

بقلم د / احمد محمود الساداتى

اساذ الدراسات الشرقىة الاسلامىة بكلية الآداب جامعه القاهرة

تركستان هى ما يعرف اليوم باتحاد جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية الخمس: اوزبكستان وقازاقستان وتركمانستان وتاجيكستان وقرغيزستان * وهى تجاور سيبيريا والصين وايران والهند وأفغانستان وتبلغ مساحتها خمسة ملايين ونصف المليون من الكيلومترات المربعة، وسكانها يزيد عددهم على الاربعين مليوناً *

وتركستان — موطن الاثراك الاول — عرفت قدرا يذكّر من الحضارة والمدنية قبل ظهور المسيحية بقرون ، بجوارها واتصالها بحضارات الصين والاغريق والفرس والهنود * وهى لتركستان قدرا ملحوظا من الرواج الاقتصادى فى القديم موقعها على «طريق الحرير» المشهور حيث كانت منتجات شرق آسيا وجنوبها تحمل عبره حتى تصل الى موانئ البحر الابيض المتوسط وبلدانه * وقد ظل هذا الطريق وله أهميته الاقتصادية الكبيرة حتى اكتشاف رأس الرجاء الصالح *

وظهر بتركستان كذلك بعض الدول المتحضرة قبل نفاذ المسلمين الى ذلك الاقليم ، ومنها دولة الاويغوريين الذين كانوا على جوار وصلات بالصين ويبرزنه وفارس ما قبل الاسلام * وبرغم سقوط دولتهم فقد ظلت لغتهم التركية الاويغورية حية بأدابها * كما كان الاويغوريون هم الذين وكل اليهم جنكيزخان ، حين فتح تلك البلاد ، بتأديب أولاده ، وعهد اليهم كذلك بالقيام على دواوينه وتزوين سيرته * وأول ما دخل الاسلام هذه البلاد كان أواخر القرن الاول الهجرى على يد القائد العربى الأموى قتيبة بن مسلم الذى فتح بخارى ثم سمرقند * وفى سمرقند وجد قتيبة أن الصينيين قد سبقوا الى اختراع

ورق الكتابة الذي نستخدمه اليوم . ومن نم انتشرت هذه الصناعة في العالم الاسلامي ، ولم يمض على ذلك ثلاثون عاما حتى وصلت تلك الصناعة أوروبا عن طريق صقلية العربية . وفي سمرقند يقوم حتى اليوم مئوى الصحابي قثم بن عباس ، وكان قد غزا تلك المدينة في خلافة سيدنا عثمان بن عفان . ويعرف مقامه باسم مسجد مزارشاه ، وقد عنى تيمور لنك بتعميره فيما بعد .

على أن اسلام الترك الجماعي انما تحقق على ايدي السامانيين الفرس في النصف الاول من القرن الثالث الهجري . ذلك أن اللغة الفارسية لم تكن تستعصى على أفهام الترك الذين طالما تأثروا بالثقافة الساسانية الفارسية قبل الاسلام ، الأمر الذي يسر لنسيوخ الفرس المسلمين نشر الاسلام بينهم . ومما يلفت النظر في هذا الشأن أن جموع الترك هؤلاء بعد أن دخلوا في الاسلام ظلوا قرنا بأكمله يرون الاثم كل الاثم في الكتابة بلغة جاهليتهم . وحين اتجهوا من بعد ذلك الى التدوين بلغتهم أقبلوا على استخدام الابجدية العربية وحدها واقتباس فيض من الالفاظ والمصطلحات العربية أدخلوها في لغتهم كذلك ، على ما فعل جيرانهم الفرس بعد اسلامهم من قبل .

ولقد اتخذ السامانيون من بخارى حاضرة لهم ، وقد صارت هذه المدينة ومعها مدينة سمرقند من أهم مراكز الثقافية الاسلامية ، لا في اقليم التركستان ، الذي يشتهر كذلك باسم بخارا الكبرى فحسب ، بل وفي الدولة الاسلامية كلها .

كان من أثر الثقافة العربية القوى الجلى أنه لم يمض نصف القرن على بداية الفتوحات الاسلامية حتى أخذت اللغة العربية تنتشر مصاحبة لانتشار العقيدة الاسلامية السامانية فيما بين المحيط الاطلسي غربا حتى حدود الهند . ووجدنا نفرا كثيرا من أبناء البلاد المفتوحة لا يقبلون على الدخول في دين الحق وتعلم العربية فحسب ، بل كان منهم كذلك من شغل بالثقافة العربية وساهم في اثرائها . وهكذا ظهر في بلاد تركستان جملة من العلماء الأعلام الذين تدين لهم مختلف صنوف المعرفة الاسلامية بالكثير . ومن بين هؤلاء كان شيخ المحدثين

الامام البخارى ، والطبيب الحكم ابن سينا والمؤرخ المحقق أبو الريحان البيرونى ثم الفارابى والبيهقى ، ومعهم من المفسرين الزمخشري جار الله والنسفى ثم السكاكى البليغ والرازى الكيمياءى وآل البلخى أفذاذ علماء الرياضة والجرجانى والتفتازانى والكسغرى والترمذى والمرغينانى والماتريدى وكثيرون غيرهم •

وماعدا الخلفاء العباسيون وحكام الاطراف من مواليتهم ان اتحدوا من أبناء تركستان عمالا لهم ، فكان الطولونيون والافسيديون فى مصر ، ثم الغزنويون فى اقليم كابل وغزنه ، واليهيم يرجع الفضل فى نشر الاسلام على نطاق واسع فى سبه القارة الهندية بعد ان توغرا مجاهدين ، فى أراضيها •

وكان السلاجقة هم أول أسره تركيه حاكمه فى تركستان ، وقد انطلقوا من بلادهم صوب الغرب ففوضوا فى بغداد ، بعد أن دخلوها . على البويهيين الذين كانوا يدأبون على اذلال الخلفاء العباسيين والتحكم فى مصائيرهم • وما أن بلغ السلطان السلجوقى ألب أرسلان ماأعلمه القيصر البيزنطى رومانوس دياجينييس عن عزمه على الزحف الى بغداد ليغرس الصليب الاكبر فى قلب حاضرة الخلافة الكبرى ويحرق كل المصاحف بها ، ثم لايرجع من بعد ذلك عن زحفه حتى يصل الى سمرقند فى قلب التركستان التى بلغها الاسكندر المقدونى من قبل ، حتى سارع ذلك السلطان السلجوقى فقاد فرسانه عبر الفرات حيب التقى ، أول النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، بجند بيزنطة ومعهم النورمان والفرنجة الذين لم يستطيعوا أن يثبتوا أمام المجاهدين أبناء تركستان هؤلاء • ووقع القيصر البيزنطى الصليبي نفسه فى الاسر •

ومنذ أن دخل السلاجقة آسيا الصغرى البيزنطية فى القرن الخامس الهجرى أخذ الاسلام يرسخ من أقدامه فى تلك البلاد حتى عمها جميعا • وماغدت تلك البلاد من بعد ذلك على أيدي العثمانيين ، أبناء عمومة السلاجقة ، أن صارت حصنا حصينا للاسلام الذى نفذ من بعد ذلك على ايدي هؤلاء الترك الى بعض مناطق فى أوروبا نفسها •

وعلى هذه الأرض التي تعرف اليوم باسم الاناضول قضى جند الترك المسلمون — أحفاد التركستانيين — على أكبر خطر حربي صليبي كان يهدف في قرننا العشرين هذا بالقطع الى القضاء على آخر قوة عسكرية للإسلام اذ ذاك *

ففي أعقاب الحرب العالمية الاولى دفع الحلفاء بجيش يوناني قوامه ستمائة الف من المحاربين المجهزين بأحدث الاسلحة ليقتضوا على بقايا الوطنيين من الترك الذين تحصنوا في قلب الاناضول وقد عقدوا العزم بقيادة البطل مصطفى كمال على تحرير بلادهم * وكان البريطانيون اذ ذاك يحتلون استانبول نفسها في حين نزلت قوات ايطالية وفرنسية في كيليكييا بشاطئ الاناضول الغربى وفي سوريا والموصل *

ومالبث الانجليز بدورهم أن استصدروا من السلطان التركي باستانبول فتوى تعلن عصيان مصطفى كمال لاوامر الخليفة ، وذلك على غرار ما سبقه اليه سلف له من قبل حين أفتى بعصيان الزعيم المصرى أحمد عرابى في حربه مع الانجليز الذى قدموا لاحتلال وادى النيل *

وما ان حسم مصطفى كمال أمره مع المستعمر بهزيمته الحاسمة له وطرده من بلاده كلها حتى هذا حذوه من بعد ذلك رضا ساء بهلوى في ايران وأمان الله خان في أفغانستان فطردا الروس والبريطانيين عن بلادهم وارغموهم على الاعتراف التام باستقلال اراضيهم ، ثم عقدوا ثلاثتهم ميثاق سعد آباد المشهود فيما بينهم ، فصار بذلك للإسلام قوة ضاربة عسكرية يعتد بها ويحسب حسابها أولئك المستعمرون الصليبيون الذين لو كان قد كتب لهم النجاح في خططهم اذ ذاك بازاء تركيا وايران وأفغانستان لانتكست بالتالى بدورها كل حركات التحرير التى عمت كل بلاد الشرق الاسلام اذ ذاك *

وخلف الخوارزميون الترك أسلافهم السلاجقة على أغلب أقاليم تركستان حتى زحف المغول على اراضى الدولة الاسلامية بقيادة جنكيزخان وأنزلوا بها من الخراب والدمار ما هو معروف مشهور *

وخص جنكيز ابنه جغتاي باقليم تركستان ، فاتخذ من الترك
ابناء تلك البلاد عمالا له يقومون على شئون الحكومة هناك .

وما ان هان نسان الجغتائيين المغول في تركستان حتى ظهر من
بين الترك هناك زعيم قوى هو تيمورلنك الذى ماغدت دولته أن امتدت
من قلب روسيا حتى دهلى حاضرة الهند .

ومما يجدر التنويه به هنا أن هذا العاهل التركستاني كان كلفا
بتعمير بلاده حفيا بالعلماء حتى وان خالفوه الرأي . ونهج ابنائه
من بعده نهجه حتى رأينا حفيده ألغ بيك يحرص على أن ينقش على
مداخل مدارسها التى أنشأها ببخارى وسمرقند بخط بارز كبير حديث
النبي الاكرم صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل
مسلم ومسلمة » . كما شهدت شبه القارة الهندية بدورها أعظم
عصورها في الحضارة والمدنية في عهد الدولة التيمورية التى أقامها
هناك ظهير الدين محمد بابر العظيم وكان من احفاد تيمورلنك .
وتشتهر هذه الدولة كذلك خطأ باسم الدولة المغولية .

يقول بعض المؤرخين أنه بقضاء تيمورلنك على قوات القبيله
الذهبية ومقرها الجزء الغربى من التركستان والتى طالما توغلت في
روسيا ودخلت موسكو نفسها وذلك في القرن الثامن الهجرى (الرابع
عشر الميلادى) قد انزاح بذلك كابوس رهيب كان يجثم على قلب
روسيا . فما ان اخذت دولة تيمورلنك في التفتسخ من بعده حتى
نهضت روسيا توسع من حدودها الشرقية وتنتهب أراضي جيرانها .
والى جانب هذا رأى نضيف بأنه كان مما ساعد روسيا على هذا
الامر ومهد لها الارض لتمضى في تنفيذ خططها ماكان من أمر تلك
الحروب المتواصلة بين الصفويين الفرس والعثمانيين الترك من جهة ،
ثم بين الصفويين والاوزيك حكام التركستان من جهة أخرى ، حتى
انتهى الحال الى اضعاف قوى المسلمين العسكرية ، وتمكن روسيا من
بعد ذلك من تخطف اجزاء هامة من اراضى تلك الدول الثلاث : تركيا ،
ايران ، وتركستان .

وأدى نجاح روسيا في مد حدودها الشرقية وتوسيع رقعة

اراضيها في تلك النواحي فيما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر الى أن بلغت متسارف التركستان في الشرق والشمال والجنوب الغربي . وما ان عقد الروس معاهدتهم مع الصين عام ١٧٢٧ م ، ثم مع بلاد فارس عامي ١٨١٣ م و ١٨٢٨ م حتى تم لهم عزل تركستان عن كل جيرانها والطامعين فيها ليتفرغوا من بعد ذلك الى اقتحامها والاستيلاء على اراضيها الغنية بمواردها الطبيعية ، ثم القضاء على أمة عرفت بعراقتها في الاسلام عقيدة وحضارة ومدنية .

على أن طريق الروس الى الاستيلاء على تركستان لم يكن يسوده الامان والاستقرار على الدوام ، اذ ظل أبناء الشعوب الاسلامية التي دخلوا بلادها عنوة في حكم القياصرة غرب قزوين والقوقاز والقرم تأبى نفوسهم أن تخضع للاستعمار الروسي ، ومن بين هؤلاء أبناء الطاغستان الذين قاد ثورتهم لتخليص بلادهم زعيمهم المشهور الشيخ تسامل . وظلوا يجالدون الروس تحت رايته ما يقرب من ٣٥ عاما فيما بين عامي ١٨٣٤ و ١٨٥٩ م .

وبلاد الطاغستان هذه تقع عند الشاطئ الغربي من بحر قزوين (الخزر) وتبلغ مساحتها قرابة ٣٠٠.٠٠٠ كيلو مترا مربعا ، وسكانها يقارب عددهم ثلاثة أرباع المليون .

وهذه البلاد التي عرفها العرب المسلمون باسم الدربند دخلها الاسلام في مستهل القرن الثاني الهجري حين فتحت أيام الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك ، وقد عرف أهل هذه البلاد باستمسكهم الشديد بشعائر دينهم وحماسهم البالغ في بث الدعوة الى الاسلام

(١) كانت بريطانيا قد بدأت اذ ذاك نوغل في شبه القارة الهندية حتى لم لها ضمها مسنعة لها عام ١٨٥٦ م ، ومن ثم أخذت تتطلع الى احتلال أفغانستان بدعوى ظاهرها تأمين حدود مستعمرتها الجديدة وباطنها محاولة الحد من نوغل الروس في آسيا الوسطى . على أي فان الأفسان ببسالهم المعروفة لم يمكنوا لا البريطانيين ولا الروس من دخول بلادهم (أنظر كنانى تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم جزء ٢ وكتايب الآخر : تاريخ الدول الاسلامية بآسيا) — وأراد الروس أن يبعدوا خطر البريطانيين عن وسط آسيا فعقدوا معهم في ذلك معاهدات حسن جوار أعوام ١٨٧٣ ، ١٨٩٥ ، ١٩٠٧ على التوالي .

والذب عنه ، كما يفتخر كثير من زعمائهم بأحدا رهم من أصول عربية ممن استقر من جند الفتح المسلمين بهذه البلاد • وغزا بطرس الأكبر فيصر روسيا بلاد الطاغستان عام ١٧٢٢م بحجه مقتل الأهلين لثلاثمائة من التجار الروس في هذه البلاد • على أن تساه فارس نادر ساه ماعتم بعد ذلك بسنوات أن استرد أغلب تلك البلاد من أيدي الروس ١٧٣٧ م •

وحين ضعف شأن الدولة الفارسية بادر الروس من جديد بالزحف على الطاغستان فاختصوها لحكمهم عام ١٧٨٤ م ثم استولوا على القوقاز من بعد ذلك • ولم يكن تخلى العثمانيين والفارس عن تقديم يد العون للطاغستان في حربها مع روسيا ليفل من عزيمة أبناء البلاد الذين الذين مالبت كلمتهم أن اجتمعت على مداومة مجالدة المستعمر الذي ما ان وطد أقدامه بالبلاد حتى الغى العمل فيها وفقا لأصول الشريعة الإسلامية في المعاملات واتخذ من القوانين الروسية بديلا لها في ذلك •

وتزعم الثورة في وجه الروس غازي محمد الذي ظل يجاهدهم حتى استشهد وهو يقاتلهم عام ١٨٣٢ م فخلفه حمزة بك الذي سقط بدوره شهيدا في ميدان الجهاد بعد ذلك بعامين •

هنالك أمسك براية الثورة الشيخ سامل الذي كان — بنص عبار- الأمير شكيب أسلان — على نمط المجاهد الكبير الأمير عبد القادر الجزائري ، خرج من المتسيخة الى الامارة ، وتناول السيف من طريق القلم » (١) • •

وفي هذا الجهاد الذي استمر نحو ٣٥ عاما استطاع الشيخ سامل مع رجاله أن يظفر بالروس في وقائع كثيرة حتى أرغمهم على الجلاء

(١) انظر في ذلك تعليقات المؤرخ الكبير الأمير شكيب أرسلان على كتاب حاضر العالم الاسلامي — القاهرة ١٣٥٢ — ج ٤ ص ١٨٨ — ١٩٣ •

عن أغلب البلاد بعد أن تكبدوا خسائر جسيمة ، ووقع منهم أسرى
كثيرون بأيدي المجاهدين •

غير أن الروس ماغدوا ان عادوا في جيوش جراره الى القتال من
جديد ، فظل الشيخ شامل يناوئهم القتال في المناطق الجبلية لمدة
عشرة سنوات من بعد ذلك حتى استسلم لهم آخر عام ١٨٥٩ م •

وحين سقطت حكومة القياصره بانتصار الشيوعيين عام ١٩١٧ م،
اعلن الطاغستانيون قيام جمهوريتهم المستقلة ، وكانت انجلترا اذ ذاك
تحتل القوقاز ، وأمل الطاغستانيون أن تعترف انجلترا باستقلالهم ،
وكانوا يعرفون لها من قبل تعاطفها معهم ابان مجالدهم للروس •

ومن أسف أن انجلترا لم تلتفت اليهم ، ذلك أنها حصرت كل
جهودها في مناهضة البلشفية فحسب ، فأمدت في سبيل ذلك الجنرال
الروسي الأبيض دنيكين عدو الشيوعية بالمال والسلاح الوفير • وكان
أول ماصنة هذا الروسي الأبيض في حربه هو غزو الطاغستان
والقضاء على استقلالها بدلا من التفرغ لقتال البلاشفة • حتى قدم هؤلاء
الحمر آخر الأمر بقواتهم فقبضوا على أزمه الأمور في الطاغستان
وولايات القوقاز والحقوها جميعا بحكومة موسكو •

تركستان قبل ثورة أكتوبر الشيوعية عام ١٩١٧ م

أدى بالروس استيلائهم على الخانيات (الامارات) الاسلاميه في الغرب من آسيا وهى : حانية قازان (عام ١٥٥٢ م) واسترخان (عام ١٥٤٤ م) ثم سيبيريا (١) فيما بين عامى ١٥٥٢ و ١٥٦٨ م ، وبلاد الطاغستان والقوقاز عام ١٧٨٤ م وما بعده ، الى أن بلغوا بذلك الى حدود تركستان التى كانت اماراتها وخانياتها قد أخذ التفسخ والاضمحلال يتمكن منها ابتداء من أواخر القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) *

فى ذلك الوقت ومن بعده طفق قياصرة الروس يحلمون بأن يجعلوا من موسكو روما جديدة ، ويات العاهل الروسى بطرس الأكبر يرى أن مستقبل روسيا انما هو فى آسيا ، وأن السبيل الى ذلك لايتحقق الا بالاستيلاء على شبه القارة الهندية ، والباب اليها هو تركستان *

والواقع أن روسيا كانت قد بدأت تمهد طريقها الى الهند فى القرن السابع عشر على مايزكر المؤرخ الروسى بارتولد نفسه فى كتابه عن الترك فى آسيا الوسطى (ص ٢٤٧ من الطبعة الالمانية عام ١٩٣٥م)

وتتكشف خطط روسيا واضحة جلية للاستيلاء على تركستان ، الباب الى الهند ، فى القرن الثامن عشر ، بعد أن سبقت فى القرن السابع عشر السابق الى ايفاد بعثات لاستكشاف الطريق الى الهند ودراسته . كما بعث بطرس الأكبر بعدة حملات عسكرية لاقامة

(١) تعرف سيبيريا أصلا باسم بلاد الصابرى . وقد دخلها الاسلام على ايدى قبائل القبچاق الذين نفذوا اليها ومدوا سلطانهم عليها . ومن بينهم ظهر الأوزبك أحفاد باتوحفيد جنكيز خان وأتبامه الذين بلغوا الى المجرى الأعلى لنهر الفولجا كذلك (هامبرى : تاريخ بخارى — الترجمة العربية ص ٢٩٧) .

الحصون تأميناً لطريق لجيوس مستقبلاً ، وفي القرن التاسع عشر سیرت روسيا جيونسها لغزو خيوة عام ١٨٤٢ م تم في عام ١٨٥٢ الى خوقند ولكنها منيت جميعاً بالهزيمة ، وتوالت زحوف الروس الكنيفه من بعد ذلك على تركستان ابتداء من عام ١٨٥٤ حيب استولوا على خانيات خوقند وفرغانه ثم دخلوا بخارى وسمرقند (٢) عام ١٨٦٨ م وخبوه عام ١٨٧٣ م حتى بلغوا مرو عام ١٨٨٤ م ، فتم لهم بذلك الاستيلاء على اكثر من ثلثى التركستان ، وقد رسموا خطتهم من بعد الاستيلاء على اكثر من تلك البلاد الى أفغانستان وفارس تمهيداً للوصول الى الهند أولاً ثم ابتلاع آسيا كلها ، وذلك على ما صرح به قبل وزير خارجيتهم البارون نسلدورف عام ١٨١٦ م حين قال بأنه « طالما أن آسيا الوسطى ليست في حوزتنا فليس لنا أن نفكر بأى حال في فتح آسيا كلها والاستيلاء عليها » (٣) .

وما ان تم للروس احتلال تركستان حتى أخضعوا حكومتها لوزارة حربيتهم تتصرف في كل شؤونها بما تراه ، لتبدأ من بعد ذلك ، ابتداء من عام ١٨٩٠ حتى عام ظهور البلاشفه (١٩١٧) ، حركة استعمار واستيطان روسية في تدفق متزايد ، فقد قدم الى تلك البلاد ما يزيد على المليون ونصف المليون من الروس المعدمين في اغلبهم ، فانتزعوا أغلب الأرض الزراعية من أيدي اصحابها (١) ، في حين استولت البنوك الروسية على ما كان قد تبقى من الأرض بأيدي الفلاحين التركستانيين البؤساء وذلك حين اعجزهم سوء الاحوال في ظل الاستعمار عن الوفاء بما كانوا قد اقترضوه من تلك البنوك .

وهكذا تم للروس الاستيلاء على أرض كفى انتاجها من القطن عام ١٩١٦ م كل ماتحتاجه منه دولتيهم المترامية الاطراف كثيفة السكان

(١) انظر ذلك تفصيلاً بالمصدر السابق (ص ٤٢٥ - ٤٨٦) .

(٢) Baymiza Hajut . Turkestan. S. 17 - 33

(٣) Karl Staehlin : Russische Turkestan Gestern Und Heute
Koenigsberg 1935.S.17:

وزاد عليه الى جانب محصول القمح الذى بلغ فى السنة نفسها ثلاثمائة وستين ألفا من الأطنان •

ولقد أعلن الروس دون موارد — بعد أن دخلوا تلك البلاد — أنهم عاملون على صبغ تلك البلاد بالصبغة الروسية ونشر ثقافتهم الروسية بها ، والقضاء على الوجود الإسلامى فى تلك البلاد ، حتى أنهم كانوا يسمحون ، أيام الحكم القيصرى ، بإقامة معاهد للدراسات الإسلامية فى روسيا نفسها ويحظرون ذلك ويحرمونه على التركستانيين المسلمين فى بلادهم •

ومن نم عمدوا الى فتح العديد من المدارس الروسية ، وقبضوا أيديهم فى الوقت نفسه عن إعانة المدارس الوطنية ، ولم يقفوا عند هذا الحد حتى جعلوا التدريس فى تلك المدارس بالروسية كذلك وحملوا أصحابها على قبول ذلك قسرا (٢) ، فى الوقت الذى انطلق مبشروهم فى طول البلاد وعرضها يحرضون السكان على الدخول فى المسيحية دين القيصر وعقيدة دولته الرسمية ، ولكن لم يستجب لهم منهم أحد •

على أن التركستانيين ما فتئوا يثورون فى وجه المستعمرين الروس ويهاجمونهم فى كل مكان وذلك منذ أن وطأت جند القيصر أراضيهم ، حتى اشتبكوا معهم ما يقرب من خمسة آلاف مرة فى الفترة ما بين عام ١٨٩٩ و عام ١٩١٦ رفضا منهم لبقاء أولئك الدخلاء فى بلادهم ، ودفعاً لاستبداد الروس بهم وشدة وطائهم عليهم •

وكان من أهم تلك الثورات تلك التى نهض بها العمال والفلاحون عام ١٩١٦ م حين رفضوا أن يساقوا الى جبهات القتال دفاعا عن روسيا فى الحرب العالمية الأولى • واستطاع الثوار أن يقتلوا فى هذه الثورة خمسة آلاف من الروس نصفهم من هؤلاء الاقطاعيين الذين سبق لهم انتزاع أراضيهم منهم ، كما أحرقوا لهم تسعة آلاف من دورهم •

Tahir Schakir Zadeh : Grundzuege fer Nomaden Wirt _ (١)
Schaft. Heidelberg 1931 .S. 24 (a

وجاء رد الروس على ماصنعه الوطنيون باعدائهم سريعا رهيبا .
اذ أنزلوا بالشوار مجزرة رهيبية فقتلوا منهم ومن الأهليين الآمنين اكتر
من مائتي ألف (١) ، وساقوا كذلك مايقرب من هذا العدد من الرجال
والنساء الى النفي المؤبد بسييريا ، في حين استطاع ثلاثمائة ألف
آخرون أن ينجوا بحياتهم هربا الى تركستان الشرقية ، وكان
يسيطر عليها الصين اذ ذاك .

ولم يكتف الروس بذلك حتى أصدر الحاكم العام الروسي
كوروباتكين أمره بمصادرة مساحات لاحصر لها
من الأراضي الزراعية وطرد أصحابها منها ، كما عمد بدوره الجنرال
لاكوشين حاكم سمرقند الى اشعال الحرائق في خمسين
قرية كبيرة عيبتها بالاسم . وبهذا بلغ ما فقدته تركستان من سكانها
وأبنائها في هذه المحنة ٦٧٣٣٤٧ نسمة ما بين مقتول ومنفى وهارب .

ولقد عمد الروس في سبيل تثبيت أقدامهم وترسيخها بتركستان
الى اصدار بعض الصحف التي تشيد بحكمهم وتدعو الى مساندتهم . ومن
بين هذه الصحف الدعائية التي كانت تصدر بلغة الأهليين صحيفة ولايت
تركستان (تركستان ولايت غازيته سي) . وكان يقوم على تحريرها
استروموف تلميذ المستشرق والمبشر الروسي المعروف المنسكي .

وقابل ذلك زعماء الاصلاح من أمثال ميرخان وقاريء بخاري
ومنور قاريء بالدعوة الى اصلاح مناهج التعليم واصدار صحف ، منها:
صحيفة الترقى ، وخورشيد ، وبخاري شريف ، وصداي فرغانة .
ثم تقدم التركستانيون عام ١٩٠٥ الى القيصر مطالبين باطلاق
الحرية الدينية لهم ، وحقوق تملكهم للأراضي الزراعية ، وامتيازات
الصيد ، وتخفيض رسوم الجمارك بالنسبة لوارداتهم .
وكان مما مهد لاستجابة حكومة القيصر لهذه المطالب ، ابتعاد

A. Priskin : Steppi Kazakskie (Die Kazakischen Steppen)
Kzyl - Orda 1929 .S. 107

التركستانيين عن المشاركة في الثورة الروسية الكبيرة الأولى التي قامت عام ١٩٠٥ م .

هذا كما فطنت الأحزاب الروسية لا سيما الأحزاب الديمقراطية الاشتراكية الى أهمية كسب تركستان الى جانبها ، ومن ثم راحت تبذل دعايتها بين الأهلىن بوجود العناية الاجتماعية والنقافية بهم واقرار حقوق العمال منهم ، ولم يقف نشاط تلك الأحزاب عند ترويج دعايتهم بين المدنيين منهم فحسب حتى سعوا بها بين صفوف جنود تركستان فى الجيوش الروسية كذلك .

وانتهز التركستانيون فرصة قيام الثورة الشيوعية الكبرى عام ١٩١٧ م وسقوط حكم القياصرة فعقدوا أول مؤتمر اسلامى كبير لهم بمدينة طشقند فى نفس العام أعلنوا فيه أن ثوراتهم المتوالية فى وجه ظلم الحكومات القيصرية كانت مساهمة واقعية فعالة منهم فى نجاح ثورة روسيا الكبرى ، فهم لهذا يطالبون اليوم باستقلالهم الذاتى وأن تطلق لهم الحرية الدينية ، وأن تكون لهم قوانينهم الخاصة بهم بوصفهم مسلمين ووفق تعاليم دينهم ، وأن تحل مشكلة الأراضى الزراعية على وجه يحقق مصالحهم ويتفق معها .

وانبثق عن هذا المؤتمر تنظيمان جديدا هما مجلس الشورى الاسلامى ويرأسه منور قارى ، وجمعية العلماء ويرأسها شير على لابين وذلك مقابل اتحاد العمال والمحاربين ، وكان غالبية اعضاءه من الروس .

وقد انتهى الرأى بين الجميع كلك الى اطلاق الحريات وتأمين الحرية الشخصية والزامية التعليم مع تعليم اللغات المحلية الى جانب اللغة الروسية ، وقيام الحكومات المحلية واخضاعها لرقابة الشعب ، وتقريب حقوق العمال ، واصلاح الادارة الحكومية ونظم الجمارك .

على أن العناصر الماركسية من رجال ثورة ١٩١٧ ما غدوا أن أمسكوا قسرا بأيديهم بزمam الحكم فى تركستان واستولوا على ممتلكات الرأسماليين وأممو البنوك والشركات والمصانع ، كما أعلنوا كذلك اقامة حكومة العمال ، ونهضوا بتوزيع الأراضى على العمال الزراعيين بمقتضى مبادئهم .

هنالك نهض التركستايون يصالبون باستقلال بلادهم ، وفـد
ترعهم في ذلك مفتى التركستان صدر الدين خان ، ومفتى التتار عالم
جان حضرت ، والزعيم الآذربيجاني أمين افندي زاده .

وقوى من عزيمة التركستانيين في النطلع الى الخلاص من نـبـ
الاستعمار واتسل من حماسهم ما انتهى اليه مصطفى كمال (كمال
أتاتورك) ورجاله من تحرير تركيا وطرده اليونانيين والحلفاء من
اراضيهم اذ ذاك وما حققته بعض البلدان الاسلاميه الأخرى .
ومنها جارتهم أفغانستان ، من نجاح بتأكيد استقلالها وارغام المستعمر على
اقراره والاعتراف به ، فظهر بتركستان حزبان قويان : أحدهما
ينادى باستقلال التركستان فوراً عن روسيا ، في حين يرى الثاني عدم
الانفصال عن روسيا مع المطالبة بالاستقلال الذاتي ، تفادياً منه
لخطر الالتحام مع الروس وقيام الحرب معهم .

ولقد خاب ظن التركستانيين حين حسبوا أنهم واجدون في ثورة
اكتوبر الشيوعية ما يحقق لهم آمالهم . فقد كان أول ماصنعه الحمر
هناك أن أسقطوا حقوق المسلمين من حسابهم حين كشفوا عن مبادئهم
التي لا تنتظر الى الأهلين جميعاً الا بوصفهم روس فحسب ، وكان رد
التركستانيين الحاسم على ذلك ، أنهم ، بعد مشاورات ومؤتمرات لهم ،
أن أعلنوا ختام عام ١٩١٧ استقلال بلادهم ، وقد جعلوا من بلادهم
أقاليم ثمانية اختلفت طرائق الحكم فيها على الوجه الآتي وهي :

- ١ — خانياتان (بخارى وخيوه) .
- ٢ — جمهوريتان (خوقند وأورنبورغ) .
- ٣ — حكومة سوفيتية .
- ٤ — حكومة بيضاء في أمسك تدبر الجزء الشمالى الشرقى من
تركستان .
- ٥ — خانية جبل آلاغ .
- ٦ — دولة القوزاق فى الأورال .

هذا كما نادى الملاتولعان رام الله بوجوب حصول طشقند على استقلالها الداتى وقيام الحكم فيها على مبادئ النريعة الاسلاميه .
وقد ناصره فى دعوته هذه مائه الف من التركستانيين الأشداء الذين لم يخذعهم وعود المفوض الروسى الجنرال جودوفتس ولم يلتفتوا كذلك الى دعواتها بأن البلاشقة لن ييخلوا عليهم بتحقيق مطالبهم .
هذا وقد عمد البلاشقة الى انزال ضربات سديده الأهلين اد منعوا عنهم القمح والخيول (١) مما عرضهم لجاعات سديده . ولكنهم أقاموا برغم ذلك كله على صمودهم ونباتهم ماوسعهم ذلك ، حتى غلبتهم قوه البطنس الروسى فأمسكت بأزمه الأمور فى بلدهم .

وفى مستهل عام ١٩١٨ م أعلن الروس أن الجيس التركستانى هو جزء من الجيس الأحمر وأن الحكم فى تركستان يجب أن يقوم على أسس ديمقراطية لادخل للعقيدة الاسلاميه ونريعتها فيها . ثم صرحوا من بعد ذلك بقيام جمهوريات فى تركستان تكون ذات صبغه بلشفية وتستمد دستورها من الدستور الروسى وتنتمى معه .

وفى منتصف عام ١٩١٨ م أصدر المفوض الروسى فى تركستان أمرا بتجنيد كل الشبان فيما بين سن ١٨ و ٣٥ عاما ، فأدى ذلك الى قيام ثورة عارمة فى عشقباد سارع البريطانيون الى مساندتها . وقد كانوا يراقبون احداث التركستان بعيون مفتوحة من مواقعهم عند حدود الهند الشمالية الغربية وفى بلوخستان ، حتى حاولوا كذلك تطويق التركستان وانسأوا مراكز مراقبة لهم فى شمال فارس وحول القوقاز تأمينا منهم لسلامة امبراطوريتهم الهندية التى ظل الروس دواما يحلمون بالوصول اليها والى ايران كذلك عبر تركستان وأفغانستان .

ونسجت ماقدمته بريطانيا من المساعدات ثوار عشقباد على المضى فى حربهم للروس وقد ائتلف أهل القوقاز معهم فى ذلك .

(١) بنناول كثير من التركستانيين لحم الخبل فى غذائهم ، وهو مباح شرعا .

ومن أسف أن البريطانيين مالبتوا بعد قليل أن كفوا ايديهم عن مساعدة الثوار ، كما أخذ اليأس يتسرب بدوره الى نفوس حلفائهم من الروس البيض ، الأمر الذي أدى الى اضعاف الجبهة الوطنية ، وان استمر اصحابها في مقاومة الطغيان الأحمر ومجالدته بقيادة زعيمهم جنيد خان حتى عام ١٩٢٨ م .

هذا وكان مرد تراجع بريطانيا عن مساندة نـوار التركستان ومد ايديها لهم بالمساعدات ، هو الى خوفها من أن تمتد حركات التحرير في وسط آسيا الى الهند وايران .

ومن الأسف الشديد أن انخدع في نوايا البلنسية في ذيك الوقت نفر من زعماء المسلمين من أمثال أنور باشا وجمال باشا وكاظم بك وبركات الله حتى راحوا يؤكدون للتركستانيين أن موسكو لا تبنت لهم سرا ، وأن الروس لا ينظرون الى بلادهم بوصفها مستعمرة روسية لهم وانما كجزء من بلاد السوفيت الذين لا تتعارض مبادئهم مع مبادئ الاسلام ، حتى أنها لتتفق معها في قيام المساواة بين الناس جميعا ورفض قيام الطبقات بينهم ؟ !! هذا كما ذهب نفر منهم يعلن في الناس أن التسوية هي ليست بذاتها من أهدافهم وانما هي عندهم وسيلة لتحقيق وقيام اتحاد للشعوب التركية يبدأ من تركستان نفسها (١) .

ولم يتصدى الروس لهذه الدعاوى بطبيعة الحال اـ رأوا فيها تثبيتا لأقدامهم في تركستان ، كما أفادوا منها من بعد ذلك في مواجهة حركة البصمجي التي قامت في فرغانة لتحرير البلاد ، والتي سوف نتحدث عنها تفصلا بعد قليل .

Hait, Turkestan, S 97, 98

(١)

أنور باشا ورفاقه هؤلاء هم رجال عصبة الاتحاد والترقي التي كان بيدها مقاليد الأمور بالدولة العثمانية ، وقد فروا الى التركستان عقب هزيمة تركيا في الحرب العالمية الاولى ، كما كانوا كذلك على خلاف عميق مع كمال اتاتورك محرر تركيا الحديثة ، وهذا يفسر سر جنوحهم الى الدعوة الى مهادنة الروس بالتركستان . وقد شاركوا من بعد ذلك في حرب الروس هناك .

امارة بخارى منذ أوائل القرن العشرين حتى ثورة ١٩١٧ م •

لقد ظلت امارة بخارى في وسط آسيا تحتفظ باستقلالها التام قرابه ألف عام حتى اقتحمها الروس على أهلها عام ١٨٦٨ م وكان على عرشها اذ ذاك الأمير مظفر الدين •

ومن أسف أن هذا الأمير نزع عقب توليه حكم بلاده الى الدخول في حرب مع جارته امارة خوقند بدلا من الائتلاف معها لدفع خطر المستعمر الروسى الذى بدأ يثق أبواب تركستان ويتوغل في أراضيها • وهكذا أوهنت تلك الحرب بين قوة الجارين المتحاربين الأمر الذى يسر للروس من بعد ذلك ابتلاع خوقند أولا ثم بخارى من بعدها بعد عدة معارك طاحنة (١) •

وسمح الروس لمظفر الدين بالبقاء على عرشه على تعويضات حربية طائلة وامتيازات اقتصادية لرعاياهم انتهت بتحكمهم الفعلى في اقتصاديات البلاد كلها وحافظ مظفر الدين على ولائه للروس حتى وفاته عام ١٨٨٢ م وجاء من بعده ابنه عبد الأحد (١٨٨٢ — ١٩١٠) وكان مافتىء يعارض سياسة أبيه مع الروس منذ أن دخلوا بلاده •

وأدى ما فرض على صغار الفلاحين من ضرائب لسد نفقات جيش الاحتلال مع تعامل البنوك الروسية مع السكان بالربا الذى يجرمه الشرع ، والى جانب ما ظهر من تملك أميرهم الجديد عالم خان (١٩١٠ — ١٩٢٠) ، في ظل سيادة الروس ، لأموال طائفة منها ماقيمتها ٣٥ مليون استرلينى من سبائك الذهب والفضة ، عدا مائة مليون روبل ذهبية في البنوك الروسية ، ثم دخله من اراضيه الذى بلغ عام ١٩١٣ م أكثر من ثلاثين مليون روبل لم ينفق منها على التعليم والأمن وانشطه الحكم الآخر أكثر من مليونين ونصف المليون من الروبلات (٢) ••• أدى

(١) أنظر ص ٤٦٢ من هذا الكتاب ، كما يقرر المؤرخ فابرى وكيريون غيره أن سكان التركستان عموما لم يفرطوا أبدا في الدفاع ببسالة واستماتة عن كل شبر من أراضيهم •

(٢) Kunitz Down Over Samarkand New-york 1935 ,S 67,

ذلك كله مع فساد حاشيه الأمير وبلاطه الى تمهيد الأرض بطبيعته الحال
أمام دعايات السوفيت لا سيما الدعايات الاجتماعية والاقتصادية منها .

كذلك أدى ذلك كله الى تعويق جهود المصلحين من كبار الشخصيات
في الامارة ممن كانوا يدعون الى قيام الحكم على السورى والرقابة على
الحكومة واصلاح احوالى الفلاحين . وانتهى الأمر بهؤلاء أن اعلنوا
في فبراير عام ١٩١٧ الثورة على الحكومة يقودهم في ذلك الزعيم
فيض الله خوجه . هنالك تظاهر الأمير بالاستجابة الى مطالبهم ليأمر مع
مع الروس من بعد ذلك عليهم حتى نزحوا من بخارى هاربين حرصا
على حياتهم .

على أن فيض الله خوجه وصحبه مالبتوا أن وحدوا صفوفهم من جديد ،
ومن ثم بعثوا الى الأمير بانذار جديد في مارس من عام ١٩١٨ ،
يطلبون اليه فيه ابعاد دعاة الرجعية عن حاشيته ورفع الكثير من
الضرائب عن كاهل الشعب ، والغاء عقوبة الاعدام واطلاق الحريات .
وقد استجاب الأمير هذه المرة لمطالبهم حتى عزل وزيره المستبد
نظام السدين .

ولقد ظل حكام بخارى منذ أن دخل الروس بلادهم يلتزمون
بشرط الصلح التي تضمنتها المعاهدة التي عقدت بينهم ، بصورة
لاتغضب المفوض الروسى عندهم . وبهذا لم تجد حكومة القيصر من
الاسباب والمبررات ما تستند لعيه لاعلان ضم هذه الامارة الى
ممتلكاتهم .

على أن الحرس الأحمر مالبت أن ظهر ببخارى في ١٥ مارس
١٩١٨ وفي صحبتهم بعض دعاة الاصلاح بأمل التخلص من أميرهم .
فما كان من البخاريين الا أن تناسوا كل خلافاتهم مع أميرهم الذى
قادهم في موقعة حامية انتهت باستيلائه على مركز قيادة الحمر عندكغان .
ومازال بهم يجاهدوهم حتى غادروا بلاده ليلتفت من بعد ذلك الى دعاة
الاصلاح فينكل بهم ، لافرق عنده بين من كان يحارب في
صفوفه ومن كان منهم في صفوف الروس .

على أن ذلك كله لم يفت في عضد دعاه الإصلاح أو يوهن من عزائمهم • ذلك أنهم كانوا في دعوتهم انما يحاكون في ذلك حركة تركيا الفتاة التي انتهت عام ١٩٠٨ الى خلع السلطان المستبد عبد الحميد. ويترسومون خطاها • فما لبثوا يجتمعون في طشقند وسمرقند وجهار جوى ، وقد رصد زعيمهم فيض الله لمساندتهم كل أمواله التي ورثها عن أبيه وكان يعد بها ثلثي الأغنياء ببخارى بعد أميرها •

وانتهى أمر حزب الإصلاح هذا الى دخول بخارى من جديد بمعاونة الحمر في سبتمبر عام ١٩٢٠م وخروج أميرها • ومن ثم باذر الحزب باعلان قيام الجمهورية بها ، وأختار ميرزا عبد القادر محي الدين رئيسا لها في حين عهد الى فيض الله برئاسة الوزارة ووزاره الخارجية • وتبع ذلك تأمين الممتلكات جميعا •

وأعلن حكام الأقاليم استعدادهم لاعلان ولائهم التام للحكومة الجديدة اذا مارحل الحمر عن بلادهم • وقد حققت لهم الحكومة الاشتراكية هذه كل مطالبهم على أثر قدوم القائد العثماني المعروف أنور باشا الى بلادهم ومعه نفر من الضباط الترك غادروا بلادهم على أثر هزيمتها في الحرب العالمية الأولى •

وعملت حكومة بخارى الجديدة على اقامة العلاقات الدبلوماسية مع غيرها من البلدان فتبادلت السفراء مع تركيا الكمالية والصين وأفغانستان •

ولقد وهم رجال حزب الإصلاح وأعضاء حكومتهم الجديدة أن البلاشفة سوف يباركون قيام دولتهم المستقلة ويؤيدونها ، اذ سرعان ماكشفوا عن خبيثة انفسهم حين عادوا الى بخارى من جديد عام ١٩٢٤م بعد أن القوا القبض على كل أعضاء الحكومة ، واعلنوا قيام الحكم البولشفي في البلاد حتى اذا ما جاء عام ١٩٢٥ ، صار اقليم بخارى جزءا من اقليم أوزبكستان وفق خريطة السوفييت الجديدة التي رسموها لآسيا الوسطى •

جمهورية الشعب في خيوه

تقع خيوه في اقليم خوارزم على ضفاف نهر جيحون ، وهي تعد من أقدم مدن التركستان ، كما كانت كذلك مركزا لثقافة خوارزم القديمة ، ذلك الاقليم الذي ذاع صيته في محيط الثقافة الاسلامية بما ظهر فيه من العلماء الأعلام من أمثال الخوارزمي وأبى الريحان البيروني .

ولقد ظل هذا القسم من اقليم خوارزم على جيحون حتى عام ١٦٢٢م محتفظا باستقلاله وكان يشتهر باسم خانبة خيوه ، ومساحته تبلغ ٦٢٠٠٠ كم٠م.

ولئن كان بطرس الأكبر قد فشل عام ١٧١٧ م في الاستيلاء على هذا الاقليم فان خلفاءه من بعده تم لهم تحقيق هدفه فبلغوا الى دخول خيوه عام ١٨٧٣ م .

هذا وكان لحكام خيوه نشاط ملحوظ في محيط الحضارة والمدنية بزوافيه كل جيرانهم بتركستان حتى عرفوا المطبعة قبل دخول الروس بلادهم وأفادوا منها في خدمة الدولة والثقافة لا سيما في عهد الأمير رحيم خان (١٨٦٤ - ١٩١٠) وعهد ابنه اسفنديار (١٩١٠ - ١٩١٨) من بعده . وحدث أن ثار التركمان في خيوه على أثر ما أسيح من اعتقال رعيمهم شاه مراد ، فهاجموا المدينة عام ١٩١٥ م . وبرغم استتجاد الأمير السفنديار بالروس ، فقد استطاع الزعيم التركماني جنيد خان آخر الأمر أن يقتحم خيوه بجنده ويطرد الروس منها ويقتل الأمير اسفنديار نفسه . ولا يكتفى بذلك حتى انطلق كذلك ينكل بسكان المدينة من الأوزبك .

وانتهى الحال في خيوه الى أن استولى عليها الحرس الأحمر اوآخر عام ١٩١٨ م ليرغم من بعد ذلك آخر أمرائها سيد عبد الله خان في فبراير من عام ١٩١٩ م على مغادرة البلاد الى موسكو حيث مات جوعا في احدى مستشفياتها .

وفشلت بدورها كل محاولات الزعيم القوى جنيد خان لاسترداد حيوه من الحمر ، ومن ثم رحل مستهل عام ١٩٢٠ م الى منطقة السهوب قى القراقورم حيث واصل جهاده ضد الروس الذين كانوا

ينزلون بالسكان هناك من الوان العذاب النكر ما أدى الى هلاك مايقرب
من المليون منهم بسبب المجاعات ، وذلك فيما بين عامى ١٩١٨
و ١٩٢٣ م •

وما ان جاء نوفمبر من عام ١٩٢١ م حتى أمسك الروس
بزمَام الحكم فى ايديهم بكل اقليم خوارزم ، وذلك بعد ألقوا القبض
على جميع أعضاء حكومة جمهورية الشعب التى أقامها نفر من المتعاطفين
معهم فى أول فبراير عام ١٩٢٠ م •

وخيوه (خوارزم) هى اليوم ضمن أراضي جمهوريه
أوزبكستان •

حركة البصمجي

هذه الحركة التي تعد من أعظم وأخطر حركات التحرير التي قامت في وجه المستعمر الروسي بتركستان يزيغ دعاة الاستعمار دورها السياسي والوطني والاجتماعي الكبير في تاريخ تركستان حين يكتبون عنها بأنها كانت جماعات كبيرة من قطاع الطرق • ومن قبل أطلق هؤلاء الدعاة « ثورة العصيان » على تلك الثورة الوطنية الكبرى التي نهض بها الشعب — مسلمين وهنادكة — في شبة القارة الهندية لطرد البريطانيين من بلادهم منتصف القرن التاسع عشر الماضي (١٨٥١ م) •

اندلعت الشرارة الأولى لثورة البصمجي أول ما اندلعت باقليم خوقند حين طفق السوفييتت يرغمون الأهليين على العدول عن زراعة القمح الى زراعة القطن لصالح روسيا نفسها ، الأمر الذي أدى الى تهديد المجاعة للسكان • ومالبت السوفييتت أن اصدروا في ذلك مرسوما يعاقب بالموت كل من يتأخر عن زراعة القطن وتقديم انتاجه لروسيا • هذا الى جانب اطلاقهم العنان لجندهم يمارسون السلب والنهب على هواهم •

وقد أدى ذلك كله الى انتشار البطالة بين أكثر من أربعمئة الف من (١) العمال الزراعيين الوطنيين ، صاروا فيما بعد قوام قوات حركة البصمجي •

وزاد من انتشار روح السخط بين الأهليين كذلك ماكان من رفض السوفييتت الأخذ بمبادئ الشريعة الاسلامية في القوانين الجديدة ، حتى انتهى الحال الى ائتلاف السكان جميعا على اختلاف طبقاتهم في ثورة مسلحة في وجه السوفييتت تطالب باستقلال تركستان •

(١) البصمجي في التركيبة هو الذي يباغت عدوه بالهجوم عليه ، ائسه بجند الساعة اليوم •

H. Fehlinger Die Volkswirtschaft Westturkestans, Zeitschr. Yena. 1921 Bd, 1:17 ,S, 264

وترزعم هذه الحركة في أول مراحلها أرجس قوربجي ، الذي طالما
دوخ الروس في حربه لهم بخوقند ، ومعه زعيم آخر معروف هو
محمد أمين بك . ومالبث أن انضم اليهما زعماء آخرون ، فلم ينتصف
عام ١٩١٨ م حتى كانت ثورة البصمجي وحركته قد عمت اقليم فرغانه
شرقى تركستان كله .

وقد مرت هذه الحركة في مرحلتين : الأولى ، وقد استمرت حتى
عام ١٩٢٣ م وهي أقوى المرحلتين وأعنفها اذ شكلت خطر حقيقيا
مسلحا على الروس السوفييت أنفسهم . أما المرحلة الثانية فقد
بدأت عام ١٩٢٤ م ولايزال وميضها يضىء ويخبو حتى اليوم في صورة
كفاح حربى أو سياسى .

وبدأت هذه الحركة أولى خطواتها حين انطلق محمد أمين يجمع
شئات قوات المقاومة في كل مكان في حين نودى في الوقت نفسه بأرجس
قوربجي أمير على المسلمين وحاميا للاسلام .

وما ان نجحت قوات المقاومة في انزال عدة ضربات قوية بالسوفييت
حتى اتجه محمد أمين من بعد ذلك الى اختيار اثنى عشر الفا من الشبان
الاقوياء بنفسه أخذ يدرّبهم على فنون القتال الحديثة مستعينا في ذلك
بضباط من القنار والباشكير ممن كانوا يخدمون من قبل في قوات
القيصر ، ليعلن من بعد ذلك عن قيام حكومة فرغانة المؤقتة في ٢٩
سبتمبر سنة ١٩١٩ م .

وماغدا الخلاف أن دب بين الزعيمين اذ كان محمد أمين من دغاة
الإصلاح والتجديد في حين كان قوربجي يأخذ بما كان يدعوا اليه بعض
العلماء الجامدين بنذ كل تجديد . وما أن استشهد أرجس قوربجي
وهو يحارب عند أندجان أواخر عام ١٩١٩ حتى سارعت قواته
بالانضمام الى محمد أمين هي وجموع من فلاحى تركستان كان
السوفييت قد خدعوها وضموها الى صفوفهم . . ومالبثت هذه
القوات المؤتلفة أن ثم لها دخول مدينة جلال آباد عنوة ، كما استولت
من بعد ذلك على حصون الحرس الاحمر في باير .

على أن الحمر ماغدوا أن استطاعوا أن يستردوا أغلب ما فقدوه من المواقع بفضل ماوصلهم من الامدادات العسكرية ، كما نجحوا كذلك في استمالة بعض زعماء الحركة الى صفوفهم ، حتى توصلوا آخر الأمر الى مصالحة محمد أمين نفسه على أن يعترفوا بتطبيق مبادئ الشريعة الاسلامية في كل مناطق البصمجية وأن لا تدخل جنودهم اقليم فرغانة ، كما يقلد كذلك محمد أمين مركزا قياديا ممتازا بقوات الدولة في التركستان •

على أن فريقا من الزعماء لم يرضوا عما ذهب اليه محمد أمين باتفاقه مع الروس ، ومن ثم استباحوا دمه حيث بادر واحد منهم الى قتله في مايو ١٩٢٠ م خفية • ولبت الغموض يريم على مقتل محمد أمين ، حتى ذهبت الظنون بنفر من أعوانه الكبار الى أن الأمر انما جرى بتدبير من الروس • ومن ثم أعلنوا نقض كل ما كان بينهم وبين الروس من موثيق وانطلقوا يجاهدونهم من جديد • وزاد من سخط القوم مانزع اليه الروس من استيلائهم على الأقوات لاطعام جندهم ، وما عمدوا اليه كذلك من اغلاق المدارس الدينية ومنع قضاة الشرع من ممارسة مهام وظائفهم ، حتى ثارت ثائرتهم من جديد وتجاوزت حركتهم حدود اقليمهم الى بخارى ، وصارت كل القرى والريف في حوزتهم • في حين سيطر الروس على المدن وتحصنوا فيها •

وما أن خلع أمير بخارى في سبتمبر عام ١٩٢٠م حتى نجح بدوره في أن يجمع شمل قواته من جديد ويرابط بها عند الشرق من بخارى ، وما غدا أن انضم الى الحركة معه نفر من زعماء الاصلاح أصحاب النفوذ الواسع من أمثال عبدالقادر محيي الدين ومحيي الدين معصوم • وظل شرق بخارى بهذا يستعصى طويلا على قوات الروس حتى بعد أن رحل الأمير الى أفغانستان •

وما أن تم للثوار الاستيلاء على كل خطوط السكك الحديدية في بخارى عام ١٩٤١ م حتى عمدوا الى مهاجمة قوات الحمر في المدن بعد أن قطعوا كل اتصال لهم بالقرى ومنعوا عنهم كل المدد منها بالتالي • فاستولوا على تشيت وخوقند ، كما اضطروا الجنود المحر في فرغانة

الى أن يلتزموا حصونهم في أوش و جلال آباد لايجراؤن على الخروج منها .

و حين شعر الروس بنحرج موقفهم راحوا في ٢٣ ديسمبر ١٩٢١م يعلنون موافقتهم على اعادة العمل بالقوانين الاسلاميه وتمكين قضاة السرعة من الاضطلاع بمهام وظائفهم . كما أعادوا كذلك فتح المدارس الدينية من جديد ، وردوا ما كان قد صادروه من أوقاف المساجد والمدارس .

على أنهم ما لبثوا من بعد ذلك أن انطلقوا يعملون في السر على اشاعة الفرقة والوقية بين مختلف شعوب البصمجي . فاذا هم يعمدون الى تسميم مواشى القرغيز ، ويذيعون فيهم في الوقت نفسه بأن هذا من صنع الأوزبك والتتار . وبلغ من غيهم كذلك وكيدهم أن بعثوا بعملاء لهم يحرقون المنازل ويعلقون تصاوير لينين في المساجد ، بل ويغتالون العلماء ورجال الدين ، ثم يتهمون الثوار بصنع ذلك كله حتى دبت الفرقة بين رجال الحركة والسكان وساد العداء بينهم .

وتن الروس هجومهم الكبير في يونية عام ١٩٢٢ م بعد أن أصابوا قدرا من التوفيق بفرغانة في أبريل من نفس العام حيث عقد الصلح معهم القاضي جانبك . كما ما لبث الزعيم محيي الدين بك أن وقع بأيديهم ، ومن ثم أعدموه بأندجان رميا بالرصاص ، في الوقت الذي استند فيه نشاط حركة البصمجي في بخارى وسمرقند ومنطقة جيحون حيث كان الجيش الأحمر يستमित رجاله في سبيل الاحتفاظ بمواقعهم .

وأدى نفاذ المخزون من القمح عند الثوار وانتشار المجاعة بين السكان من جهة ، واغراء الروس لهم بزراعة القطن نظير امدادهم بالقمح من جهة أخرى ، وما تبع ذلك من الحاح رجال الحركة على الفلاحين لمدهم بما يفيض عن حاجتهم من المؤن ، أدى ذلك كله الى نشوب العداء والخلاف بين الفريقين .

على أن الروس لم يستطيعوا برغم تلك الملابس أن يصلوا الى استعادة نفوذهم من جديد في نامنجان و خدقند .

وما ان قدم الى التركمستان في يونية ١٩٢٣ م كامينوف القائد العام لقوات السوفييت حتى شن حربا شعواء على الثوار لم يتورع عن استخدام الغازات السامة فيها (١) ، فسقط في ايديه مراكز هامة كانت بأيدي الثوار في أندجان ومرغلان ونامنجان ، كما وقع بأيديه كذلك أسرى عديدون منهم ، في حين اضطر كثيرون من الثوار الى التحصن في المناطق الجبلية .. وبرغم ذلك كله فان الثورة لم تتوقف .

(١) 'Vracev (Gm Kampb Gegen Die Basmatischen Bewegung) ' (١)
'Kokand 1922 .S, 20, 21

أنور باشا وحركة البصمجي

ودخلت الثورة في طور جديد بقدوم أنور باشا الى بخارى على أثر خروج تركيا منهزمة في الحرب العالمية الأولى •

وكان هذا الزعيم التركي الذي خلص بلاده من قبل من عسف السلطان عبد الحميد وطغيانه ، قد افصح في اكتوبر ١٩١٨ م عن أمله في تنظيم الترك مع كافة الشعوب الاسلامية الأخرى في حركة وحدوية . ومن ثم أعلن أنه مسافر الى الشرق ليعمل هناك على انتظام بخارى وخيوه وأذربيجان وأفغانستان وبلاد البطهان (بلوخستان) ومسلمي الهند في حركة ثورية تهدف الى تحقيق اتحاد الشعوب الاسلامية جميعا •

وكانت خطته تقوم على الاستعانة بالسوفييت في تحرير الشعوب الاسلامية من ربة الاستعمار البريطاني ، لتتقلب هذه الشعوب من بعد ذلك على روسيا بدورها وتخلص منها الشعوب الاسلامية التي في قبضتها ، ثم تقام من بعد ذلك الخلافة الاسلامية من جديد ، على أن تتخذ من مدينة سمرقند مركزا لها (١) •

ودفعت بأنور باشا آماله هذه الى أن أسس مع زميله جمال باشا عام ١٩٢٠ م جمعية اتحاد الاسلام ، ثم ذهب يقول من بعد ذلك للسوفييت بأنه انما يهدف بذلك الى مقاومة الاستعمار البريطاني وتحرير الشعوب الاسلامية التي تعاني من احتلاله لبلادهم • ورحب الروس في التو بفكرته ، وقد اضمروا في انفسهم أن يتخذوا منهم أداة لادخال الشعوب الاسلامية في دائرة نفوذهم ، دون أن يكشفوا له عن ذلك أو يفطن هو اليه •

وما ان قدم أنور باشا بخارى في اكتوبر ١٩٢١ م حتى تكشف له هناك حقيقة نوايا الروس • ومن ثم ايقن بأنه لا تحرير للمسلمين

في تركستان الا بالتخلص من الاستعمار الروسى نفسه أولا وقبل كل شىء (١) •

ولم يستمع أنور باشا للمؤرخ التركستانى المشهور زكى وليدى حين نصحه بأن يترك بخارى الى أفغانستان فيتخذ منها مركزا لتوجيه الثورة في التركستان حتى لا يدخل في نزاع مع أمير بخارى الذى كان يقيم في ترقى الاقليم من جهة ، وحتى لاتصطبغ الثورة كذلك بأى صبغة رسمية من جهة أخرى •

واختير أنور باشا آخر الأمر في مؤتمر بكافرنجان في أبريل ١٩٢٢ م قائدا وزعيما لتركستان •

وحين عرض الروس على أنور باشا الصلح معه ، فأصر على جلاء الحمر (٢) التام من تركستان ، بادر الروس بالزحف على تلك البلاد في جيش قوامه مائة ألف من الجند بقيادة الجنرال كامينوف •

وبرغم أن الروس كانوا يواجهون قائدا حربييا مجربا ، إلا أن خوفهم الأكبر كان ينحصر فيما قد يذهب اليه أنور باشا من فصل التركستان عن روسيا كلية ، ومن ثم عملوا على القضاء عليه هو نفسه مهما كلفهم ذلك •

وفيمما كان أنور باشا يتحدث الى بعض الناس اثر خروجه من مسجد غجديوان في ٤ أغسطس ١٩٢٢ ، عقب صلاة العيد ، اذا بالأخبار توافيه بمهاجمة الروس للمدينة في ثلاثمائة من الجند ، فلم يتردد في الاسراع للملاقاتهم في خمسة وعشرين من الجند كانوا معه • واستطاع بمفرده أن يجندل بسيفه أحد عشر من جند العدو بالفعل • حتى اذا ما أخذ العدو يضرب المدينة بمدافعه اذا بقذيفة منها تصيبه وقائد آخر من قواده يدعى دولتمند فتصرعهما شهيدين • وقد أدت مقاومة الأهلين الباسلة بالروس الى الانسحاب من المدينة آخر الأمر •

H. Manzouruddin Ahmed Kampf um Leere Raueme Turan — Turkestan — Tibet Lpzg 1940 S 432,

Baysun Abdullah 'Turkestan Millî Harakatı', Istanbul 1945 P, 166

وسار في جنازة أنور باشا ما يقرب من عشرين ألف شخص ،
وأعلن الحداد عليه في التركستان كلها . وقد خلد ذكره في تلك البلاد
بوصفه رمزا للحرية والفداء .

ولقد سألوا أنور باشا في مارس ١٩٢٢م عن الدوافع التي جعلته
يتخلى عن المشاركة في تحرير بلاده أولا ، وفيها أعداء أقوياء يحتلون
أرضها ، فأجاب بأن تركيا بها الكثير من الرجال الكفيلين برد الأعداء
عنهما ، أما هذه الأرض — التركستان — فهي في الواقع موطن الترك
الأول وجزء من الوطن التركي الكبير وليست بأرض روسية، ومن العار
أن لا يسارع المرء الى نجدة أهلها (١) .

وخلف أنور على القيادة العامة ضابط تركي آخر هو حاجي سامي
فبذل جهده في تنظيم حكومة البلاد التي تسيطر الحركة عليها .

على أنه برغم تدعيمه لمراكزه الحربية وتحصينها فقد استطاع
الروس بهجومهم الكبير ، الذي سنوه في مايو ١٩٢٣ م بقيادة قائدهم
الأعلى كامينوف ، أن ينزلوا بقوات البصمجي ضربات شديدة في معارك
دامية سقط فيها كثيرون من قوادهم وتسرب الوهن الى قواتهم .

وبرغم ماملأ به الروس سجونهم من رجال البصمجي وما قدموه
من زعمائهم الى محاكمهم العسكرية ، فقد عجز الروس عن السيطرة
على مناطق البصمجي سنين طويلة امتدت حتى عام ١٩٣٥م ، وان ظلت
الثورات من بعد ذلك والاضطرابات لا تنقطع أو تهدأ بتركستان كلها
حتى عام ١٩٣٨ .

ولقد طالما شنع الروس على حركة البصمجي بأنها مجرد أنشطة
لعصابات اللصوص وقطاع الطرق(٢) . كما قالوا عنها كذلك بأن رجالها
في دعوتهم لاتحاد المسلمين انما يفعلون هذا بايعاز من الاستعمار
البريطاني وتأييد منه ، كما اتهموا زعماءها كذلك بأنهم من أنصار
الرأسمالية والطبقية والداعين اليها .

Baysun. P (166) 108 ,

(١)

Hajit, S 202 (Turkestan)

(٢)

وَالوَاقِع أَنَّ حَرَكَةَ الْبُصْمُجِي كَانَتْ حَرَكَةً وَطَنِيَّةً خَالِصَةً تُهَدَفُ إِلَى تَحْرِيرِ تَرْكِسْتَانِ وَاسْتِقْلَالِهِ • وَأَيَّةُ ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ شُعُوبِ تِلْكَ الْبِلَادِ وَأَجْنَاسِهَا مِنَ الْأَوَزْبِكِ وَالْقَرغِيزِ وَالتَّرْكِمَانِ وَالتَّاجِيكِ وَالْقَرَّةِ كُلِّبُكْ قَدْ سَارَعُوا إِلَى الْإِنْضَوَاءِ تَحْتَ لَوَائِهَا • بَلْ لَقَدْ تَطَوَّعَ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الشُّعُوبِ التَّرْكِيَّةِ الْأُخْرَى وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْبَاشْكِيرِ وَالتَّتَارِ وَالْأَذَرْبَيْجَانِيِّينَ ، وَضَبَاطُ كَثِيرُونَ مِنْ تَرْكِيَا وَبِلَادِ الْأَفْغَانِ •

لَقَدْ ظَهَرَتْ هَذِهِ الْحَرَكَةُ أَوَّلَ مَا ظَهَرَتْ بِأَقْلِيمِ فَرْغَانَةِ عَامِ ١٩١٨ مَ وَمَا أَنَّ أَهْلَ عَامِ ١٩٢٠ حَتَّى اتَّسَعَتْ دَائِرَةُ نَشَاطِهَا فَبَلَغَتْ حُدُودَ التَّرْكِسْتَانِ الشَّرْقِيَّةِ وَالتَّسْمَالِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ ثُمَّ حُدُودَ إِيْرَانِ فِي الْجَنْوُبِ الْغَرْبِيِّ وَبِلَادِ الْأَفْغَانِ فِي الْجَنْوُبِ • وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْحَرَكَةُ يَسُودُهَا التَّعَصُّبُ الدِّيْنِي كَمَا كَانَ يَشْنَعُ الرُّوسُ عَلَيْهَا بِذَلِكَ فِي الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ •

وَكَانَ قَضَاءُ الرُّوسِ السُّوفِيَّيِّتِ عَلَى حَرَكَةِ الْبُصْمُجِي الْإِسْلَامِيَّةِ الْوَطَنِيَّةِ هُوَ بِمَنْابَةِ فَتْحِ التَّرْكِسْتَانِ مِنْ جَدِيدٍ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَّةِ وَذَلِكَ بَعْدَ خَسَائِرٍ فَادِحَةٍ نَزَلَتْ بِالْجَانِبِينَ الْمُتَحَارِبِينَ • فَقَدْ بَلَغَتْ خَسَائِرُ الْحَمَرِ الشِّيْعِيِّينَ فِي هَذِهِ الثُّورَةِ حَتَّى عَامَ ١٩٢٧ مَ أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفٍ جَنْدِيٍّ ، فِي حِينِ خَسَرِ التَّرْكِسْتَانِيِّينَ سَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ مَا بَيْنَ شَهِيدٍ وَأَسِيرٍ وَجَرِيحٍ عَدَا أَكْثَرَ مِنْ رُبْعِ الْمِلْيُونِ مِنَ السَّكَّانِ غَيَّبُوا فِي سَجُونِ الرُّوسِ فِيمَا بَيْنَ عَامِي ١٩٢٤ وَ ١٩٢٦ ، كَمَا دَمَرَتْ ١٢٠٠ قَرْيَةً بِأَكْمَلِهَا وَأَحْرَقَتْ مَدَنَ كَثِيرَةً مِثْلَ أَنْدَجَانٍ وَنَامَنْجَانٍ وَمَرْغَلَانٍ وَدُوشَنْبِه (١) •

(١) وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ دَائِرَةَ الْمَعَارِفِ الرُّوسِيَّةِ الْكُبْرَى الَّتِي صَدَرَتْ مِنْ مَوْسُكُو عَامَ ١٩٣٧ لَا تَهْلِكُ إِلَّا أَنْ نَعْرِفَ صِرَاحَةً فِي صَفْحَةٍ ٣٥ مِنْ الْمَجْلَدِ الْخَامِسِ بِأَنَّ حَرَكَةَ الْبُصْمُجِي كَانَتْ حَرَكَةً قَوْمِيَّةً سِيَاسِيَّةً أَنْضَوِيَّةً تَحْتَ لَوَائِهَا كُلِّ الْجِهَامِيرِ فِي التَّرْكِسْتَانِ •

حكومة البصمجي

لقد حاول البصمجي منذ فجر حركتهم أن يقيموا لهم حكومة وطنية مستقلة ، وكان من اضطلع بتحقيق ذلك هو محمد أمين بك حين أعلن في ٢٤ سبتمبر ١٩١٩م عن قيام حكومة فرغانة المؤقتة . وحين هادن أمين بك الروس في مارس ١٩٢٠ م ، سارع سير محمد في ١٧ مايو من العام نفسه باعلان قيام حكومة التركستان المؤقتة ، وأقام الى جانب وزارته مجلسا للشورى قوامه اثنا عشر شخصا من الزعماء ، كما ندب لكل ارض استولى عليها البصمجي حاكما لتسيير الأمور فيها على النهج الذي كان يسير عليه الحكم في خانية خوقند .

وفي أبريل عام ١٩٢٢ عقد مؤتمر مسلمي تركستان الثانى بسمرقند وقد حضره مندوبون عن سمرقند وفرغانة وخيوه وبخارى ومنطقة قزوین والسهوب لدراسة الموقف الحربى ومستقبل البلاد الوطنى . وقد صدر عن المؤتمر البيان التالى :

لقد اجتاحت جند قيصر روسيا اسكندر الثانى اراضى تركستان فى المدة ما بين عامى ١٨٦٨ و ١٨٨٣ م وداسوا باقدامهم كل حقوق المسلمين بالسياسة والثقافية ، كما انتزعوا الاراضى الزراعية من أيدي اصحابها ووزعوها على الفلاحين الروس ، ثم مالبثوا فى عهد القيصر الروسى نيقولا الثانى أن فتحو باب الهجرة الى تركستان للروس على مصراعية . ولم يكتفوا من بعد ذلك بالقضاء على كل نشاط اقتصادى للسكان المسلمين حتى أخذوا يتعرضون لمعتقداتهم وشئونهم الدينية ، كما أبعدوهم عن كل مناصب الدولة ووظائفها الا من كان على تعاون معهم منهم .

وحين استدعى المسلمون للتجنيد عامى ١٩١٦/١٩١٧ م وحرموا من حمل السلاح اذ انحصر عملهم كله فى القيام على خدمة الجنود الروس . وفى هذين العامين — نتيجة لتجنيد الفلاحين قسرا — اجتاحت المجاعة تركستان ، وقد هلك فيها ثلاثة ملايين من السكان .

وحين قامت الثورة الشيوعية الكبرى عام ١٩١٧ م وانتهت الى زوال حكم القياصرة ، نهض مسلموا تركستان يطالبون بحقوقهم ،

وعقدوا في ذلك أول مؤتمر لهم في مدينة خوقند حيث أعلنوا قيام حكومة تركستان الوطنية المؤقتة ، ولكن الحمر مالبثوا أن وصلوا بقوة السلاح الى حل تلك الحكومة والقبض على جميع أعضائها • ومن ثم اخذ هؤلاء الشيوعيون يضاعفون من اضطهادهم للمسلمين بصورة لم يعرفوها حتى أيام اسد القياصرة بغضا لهم وتعصبا وعتوا ، فسلبوا منهم كل ما كانوا يملكونه ، وجردوهم من كل حقوقهم ، ونهبوا كل مدنيهم وقرامهم • كما أبعدوا كذلك كل الأكفاء منهم عن مناصب الدولة ، وأحلوا مكانهم عملاء لهم ليعاونوهم في مواصلة اذلال شعب تركستان المسلم •

وحين نزع الأتراكستانيون الى الثورة من جديد ، راح الحمر يسعون على الثوار بأنهم مجرد عصابات من اللصوص وقطاع الطرق ، واتخذوا من ذلك ذريعة لتخريب كل اقليم فرغانه واشعال النيران في مدنه وقراه ، كما أبطلوا العمل بقوانين الشريعة الاسلامية وأقصوا بالتالي كل قضاة الشرع عن مناصبهم •

هذا وقد انتهى المؤتمر الى القرارات التالية بالاجماع ونلخصها فيما يلي :

١ — نظرنا نحن ممثلوا ٩٥٪ من شعب التركستان في قرارات المؤتمر الأول سالف الذكر ، وذلك في مؤتمرنا الثاني ، وناقشناها تفصيلا ، وانتهينا الى اعلان حرية التركستان واستقلاله ورفع راية العدل على اراضيهِ •

٢ — يقرر أعضاء المؤتمر بالاجماع أنه اذا لم يعترف الروس بحكومة الشعب ويعيدوا اليه كافة حقوقه السياسية والثقافية ويتركزون الى مسالمة فان مسلمي تركستان سينهضون لمحاربة السوفييت بكافة الوسائل والسبل حتى آخر رجل منهم وآخر قطرة من دمائهم •

٣ — ان كل من يتعاطف مع الروس أو يتعاون معهم هو خائن لبلاده وقومه •

٤ — ان حكومة تركستان المؤقتة التي يقرها المؤتمر ، بعد أربع سنوات من الحرب في سبيل استقلال الوطن ، هي الحكومة الشرعية الوحيدة التي يعترف بها المجتمعون ويعرفونها باسم « حكومة

تركستان الاسلامية المستقلة » * ويتشمل سلطانها ونفوذها كل مناطق تركستان وهى : سيحون و فرغانة و سمرقند و يتييسوف و قزوين و جيجون وتخضع لها *

٥ — بعد حل حكومة السوفييت في تركستان سوف تدعو الحكومة الجديدة الى عقد مؤتمر في طشقند لمناقشة نظام الحكومة المقبل * وسوف يدعى الى عضوية هذا المؤتمر ممثلا لكل خمسة آلاف رجل فوق النامنة عشر من عمره من الأهلين على الا يكون من بين أعضاء الاحزاب البلشفية أو ممن يعملون ببوليس الحكومة ، أو ممن يتعاونون مع الروس *

٦ — حرية المعتقدات والحقوق السياسية والاجتماعية وحقوق الاقليات وحرية التجارة جميعها مكفولة في ظل الحكومة الجديدة ودستورها *

٧ — تعود الاراضى التى اغتصبها الروس الى أصحابها فيما عدا الاراضى التى انتزعت ملكيتها للصالح العام *

٨ — ليس للاجانب الحق في امتلاك الاراضى أو غيرها من الممتلكات في تركستان ، ولهم الحق فقط في استغلال ماسبق لهم امتلاكه لمدة عشر سنوات قادمة يؤول من بعدها للدولة *

٩ — توزع أراضى البدو فيما بينهم بواسطة مجالسهم * وحق استغلال أراضيههم مكفول لهم وحدهم *
هذا كما سوف تنظر المؤتمرات القادمة وتناقش كل ما يستجد مستقبلا من مشاكل الاراضى الزراعية *

شكل الحكومة ونظام الحكم :

١ — تكون الحكومة المؤقتة لجمهورية تركستان الاسلامية المستقلة من خمسة عشر عضوا يقوم المؤتمر بانتخابهم من بين اعضائه وهم :

١ — رئيس الدولة ٢ — رئيس الحكومة ونائب رئيس الدولة

٣ — الامين العام • وهؤلاء يكونون بمثابة الهيئة التنفيذية لاداره
شئون الحكومة في العاصمة مقر اقامتهم • وتدعو هذه اللجنة مجلس
الوزراء للاجتماع عند اللزوم •

ينتخب من بين الاثنى عشر عضوا الباقين خمسة قواد عسكريين
لمناطق فرغانة الخمسة : نامنجان واندجان ومرغلان وخوقند وأوش ،
وكذلك وزير الحربية ووزير الخارجية ووزير الداخلية والبريد والبرق
ووزير العدل ووزير التربية ووزير المالية ووزير النقل •

وعلى هؤلاء الوزراء جميعا أن يعرضوا كل مايتراءى لهم من
خطط ونظم على الهيئة التنفيذية بطلب الموافقة عليه بعد دراستها لها •

٢ — تتخذ الحكومة مقرا دائما لها في طشقند وذلك بعد أن يتم
لها التخلص التام من المستعمر الروسى •

٣ — ييغت وزير الخارجية في الحال بممثليه ليعلموا الى الدول
الخارجية قرارات المؤتمر وقيام جمهورية تركستان التركية الاسلاميه،
ويدعوهم الى الاعتراف بها ، كما يعقد معها المعاهدات عند الضرورة •
هذا كما تحاط حكومة السوفييت بدورها علما بقرارات المؤتمر •

٤ — كل من لايعترف بهذه الحكومة الجديدة أو لايعطى صوته
الى جانبها سوف يعتبر معاديا للثورة •

ووافق المؤتمر على اضطلاع حكومة شير محمد بيك المؤقتة
بالحكم ، بيد أن هذه الحكومة لم تستطع أن تقيم في سمرقند أكثر من
شهر • ذلك أن الثوار لم يستطيعوا أن يوقفوا من هجمات الجيش
الاحمر على المدينة اذ ذاك ، ومن ثم انتقلت الحكومة الى مركز الثورة
في فرغانة حيث حاولت أن تمارس نشاطها العسكرى من نامنجان ،
ولكنها اضطرت في مدى ثلاثة أشهر أن تغير من مكان اقامتها ومقرها
مرات خمسة •

وتجاهلت روسيا طلب حكومة تركستان المؤقتة بالجلء عن

أراضيها ، كما لم تلقفت أيضا الى تهديد تركستان لها بالحرب اذا لم تستجب لهم فيما طلبوه منها ، حتى أن الوفد الذي بعثت به حكومة التوار هذه الى رودزتك القومسيير الروسى فى طنقند بمطالبها لم تكتب له العودة أبدا •

وكان من الطبيعى أن ترفض الدول الاوربية بدورها الاعتراف بحكومة البصمجي أو مديد العون لها ، اذ كانت ترى ذلك مما يتعارض مع مصالحها الاستعمارية ، وتخاف أن يمتد تأثير ثورة التركستانيين المسلمين الى شعوب اسلامية أخرى حيث كان الاستعمار يحكم من قبضته على أغلب البلاد الاسلامية وتسعوبها فى آسيا وأفريقيه اذ ذاك •

وبرغم استماتة ثورة البصمجي فى مجالدة السوفيت فانها لم تستطع الاحتفاظ بكيانها طويلا بعد انتقال السلطة من أيدى شير محمد بك الى أنور باشا عام ١٩٢٣ ، وكان هو آخر زعيم قوى اجتهد فى توحيد صفوفها وقيادة قواتها •

ولم يكن قيام هذه الحكومة المؤقتة فى حد ذاته هو وحده الذى طبع حركة البصمجي بطابع خاص • اذ جاء هذا الصنيع بمثابة موقف حاسم اتخذته الثوار بأزاء الاحزاب والاتحادات السياسية المتعددة التى ظهرت بتركستان • ففيما بعد ثورة اكتوبر الشيوعية وبداية حركة البصمجي انطلق المثقفون التركستانيون ينظمون جماعات سياسية فيما بينهم ، فى حين كان تقوم جماعة أخرى الى جانبهم يتزعمها المحافظون من العلماء الذين يدعون الى الاستمسك بنصوص الشريعة والالتزام بها التزاما تاما • وثمة جماعة أخرى ايضا وهم دعاء الاصلاح وكانوا يمثلون مختلف الفئات والطبقات ، من العلماء والتجار والعمال والفلاحين • أما الاشتراكيون فكانوا يضمرون لهؤلاء جميعا أشد العداء ، اذ كانوا يرون أنه لاضرير من الاتصال بالسوفييت

بغية الوصول الى حل عادل بكافة المسائل الاجتماعية • حتى جاءت فورة الكفاح الوطنى التى سادت البلاد جميعا فأقبل هؤلاء جميعا على الائتلاف معا ، ومن ثم أعلنوا فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٠ قيام اتحاد جمعيات وسط آسيا الاسلامية الوطنية ، ووضعوا لهذا الاتحاد دستورا سياسيا اجتماعيا • وفى ظل هذا الدستور سارع بالانضمام الى « الثوار الوطنيين » فى بخارى دعاة الاصلاح التركستانيون — اعضاء مجلس تشورى الاسلام الذى حله الروس عقب ثورة فبراير سنة ١٩١٩ — وكونوا منهم جميعا « جمعية المصلحين التقدميين » •

وفى حين كان أنصار الاصلاح يطالبون فى خطتهم وبرامجهم بالاستقلال التام واحياء الثقافة والتقاليد القومية ، قبل كل شيء ، كان الاشتراكيون يطالبون أولا ببناء الاقتصاد القومى وتأمينه كمقدمة لبناء دولة وطنية اشتراكية وقد أدى اختلاف الرأى بين الفريقين الى تعرض الاتحاد لبعض الهزات بطبيعة الحال • وفيما كان رجال الثورة يسرون قدما فى طريق الكفاح الشامل ، كان كل فريق من هذين الفريقين يحاول أن يصل الى تحقيق أهدافه عن طريق التفاوض مع الروس •

وعمد التنظيم الثورى — ضمن مخططاته — الى الحاق فريق من رجاله بخدمة السوفييت والتعاون معهم فى الظاهر لد الثوار بما قد يصل اليهم من المعلومات التى تفيدهم فى مقاومة الحكم السوفييتى • هذا كما قام بعض الزعماء كذلك بتأليف الاحزاب السياسية ، فألف فيض الله خوجه رئيس وزراء جمهورية بخارى التسعبية حزب الاتحاد القومى عام ١٩٢٣ م ، وقد ضم اليه فيه دعاة الاصلاح هناك •

وأتاح لهذا الزعيم ، تقلده رئاسة مجلس الشورى بأوزبكستان الروسية فيما بعد ، الفرصة لان يقوى من هذا الحزب الذى كان يهدف أساسا الى قيام دولة تركستان تضم كافة الاراضى الواقعة فيما بين كاشغر شرقا والاورال غربا • وعمل فيض الله كذلك على كسب العلماء ورجال الدين الى صفه تدعيما لحزبه فقبل مبدأ اعطاء المرأة حقوقها بالتدريج ، ورفض كذلك مبدأ تأمين الاقتصاد القومى •

ونادى فيض الله بقيام دولة على المبادئ الاشتراكية ، وكان يرى أنه لاسبيل الى الحصول على الاستقلال التام وتحقيقه الا بخلق الوعي الوطنى السليم القوى .

كذلك الف أكمل أكرم أمين الحزب الشيوعى فى بلاد الاوزبك ، بعد عودته من موسكو فى اكتوبر من عام ١٩٣٣ م ، حزبا جديدا هو حزب الاستقلال الوطنى ، وكان أعضاءه من التركستانيين الذين كان يضمهم الحزب الشيوعى .

وكان كلا الحزبين — حزب فيض الله وحزب أكرم — على اختلاف منهجهما ، انما يهدفان الى تحقيق غاية واحدة مشتركة هي استقلال تركستان . ففيما كان أعضاء من حزب فضل الله يعملون فى حكومة السوفييت كان هناك أيضا فريق من حزب أكرم ينضمون الى الحزب السوفييتى لتحقيقا للهدف الذى انسرنا اليه فى قبل وهو مد حزبيهما بما قد تصل اليه أيديهم من المعلومات التى تخدم جماعتهم ويفيدون منها فى حركتهم . كما كان زعيما الحزبين بدورهما على اتصال دائم بأصحاب النفوذ الروس كل فى ناحيته . كذلك جهد كلا الحزبين فى خلق طبقه مثقفة من التسان يقودون الثورة التامة على السوفييت ويضطلعون بها فى الوقت المناسب . على أن كلا الزعيمين كان لكل واحد منهما خططا ومنهجا يخالف مالصاحبه . فأكرم كان يرمى الى تأسيس دولة وطنية تضم جمهوريات تركستان الخمس ، فى حين كان فيض الله خوجه ينادى باقامة دولة تمتد من كاشغر الى الاورال .

وكان حجة أكرم فى معارضة لفيض الله هي أن تحرير تركستان وحدها يحتاج فى حد ذاته لتحقيقه الى جهود مضمية وكفاح طويل نفاق ، وليطمح الخيال من بعد ذلك مايشاء له الطموح الى التوسع الذى يريده فيض الله . ويرد عليه فيض الله فى ذلك فيقر له بصواب ماذهب اليه بشأن أولوية تحرير تركستان نفسها من حيث المبدأ ، ثم يدافع من بعد ذلك عن رأيه فى اقامة دولة تمتد من كاشغر الى الاورال بأنه انما يرمى من وراء ذلك الى احتواء كافة الشعوب التركية فى المنطقة وكسبها الى صفوفه حتى لا تتكرر مرة أخرى مأساة انضمام بعض الاجناس التركية الى صفوف البلاشفة فى حربهم لمواطنيه .

وماغدا الحزبان أن اعلنا في اكتوبر سنة ١٩٣٤ عن استعدادهما
للاندماج والائتلاف معا في جبهة واحدة وذلك في سبيل حرية تركستان
واستقلاله ، وان لم يتخليا عن نشاطهما كل في ناحيته .

وقد لبث فيض الله وأكمل حتى اعدام السوفييت لهما في مستهل
عام ١٩٣٨ يتظاهران بأنهما من أخلص الأوفياء للماركسية ، في الوقت
الذي كانا في الخفاء يبذلون غاية الجهد بهمة لاتعرف الملل في سبيل
تحقيق استقلال بلادهما التام وحصولها على حريتها الكاملة . هذا
وقد اعترفا كذلك اثناء محاكمتهم أن كل واحد منهما كان يحمل بطاقة
الحزب الشيوعي منذ عام ١٩١٨ م الا أنهما لم يكونا تسيوعيين أبدا
وانما كان هدفهما على الدوام هو العمل الدعوب لتحرير بلادهما من
نير المستعمر الروسي .

وبموت هذين الزعيمين القويين ، أحكم السوفييت من قبضتهم
على التركستان ، التي سلكها الروس في جمهوريات خمس وأطلقوا
عليها اسم « جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية الخمس » وقد
هدفوا من وراء هذا التقسيم الى صبغ تلك البلاد بالصبغة الماركسية
الكاملة على ماخططوه لها .

وهذه الجمهوريات الخمس هي — ١ — أوزبكستان —
٢ — تركمانستان — ٣ — قازاقستان — ٤ — تاجيكستان —
٥ — قرغيزستان .

وكانت أوزبكستان تتكون من أجزاء من حكومة تركستان
العامة وخانية خيوة وامارة بخارى . وقد بلغ عدد سكان هذه
الجمهورية اذ ذاك ٣٣٧١٤٦ (٣٥٨٣٧٥١ من الأوزبك و ٨١٨٦٢
من القزاق و ٥٩٥٠٠٤ من التاجيك و ٢١٨٠٦ من التركمان ومايقرب
من ٧٠٠٠٠ من القرغيز و ١٥٠٣٠٨ من الروس) .

وكانت أوزبكستان تضم سمرقند وخجند وكورغان وطشقند ثم

خوقند واندجان ونامنكان واجزاء من فرغانه ثم كرمانه ونورآتا وقارنى
ونسهرسبز وأغلب أراضى خوارزم •

وتتكون جمهورية تركمانستان من منطقة قزوين التركستانية مع
أجزاء من خانية بخارى وأجزاء قليلة من خوارزم • ويبلغ عدد سكانها
(وفق تعداد عام ١٩٣٦) ١٣٥٤٠٠٠ منهم ٧١٩٧٩٢ من التركمان
و ١٠٤٩٧١ من الاوزبك و ٧٤٣٢٥ من القازاق و ٨٣٩٣٧ من
الروس ومعهم مجموعات أخرى صغيرة متفرقة •

وتضم جمهورية قازاقستان أغلب مناطق سيحون وأجزاء من
سمرقند ومعها جيمكنت ، كما ألحق بهامنازل القره قلىق ، وبهذا بلغ
عدد سكانها ١٤٦٨٠٠٠ نسمة •

هذا وكانت جمهورية تاجيكستان تضم الجزء الشرقى من اماره
بخارى وقسما من واحة زرهشان فى منطقة سمرقند ، ويسكنها
٦٨١٢٠٠ نسمة ، وكانت أول اعلان قيام جمهوريات آسيا الوسطى
جزءا من جمهورية اوزبكستان ثم فصلت عنها وصارت جمهورية
قائمة بذاتها فى ٥ ديسمبر ١٩٢٩ م •

وتضم قرغيزستان منازل القرغيز •

وهذا التقسيم الذى شرع الروس فى تطبيقه منذ عام ١٩٢٤ م
باقامة ما اسموه بجمهوريات آسيا الوسطى الشعبية السوفيتية الخمس
انما هدفوا به الى ازالة كلمة تركستان من خريطة آسيا • وصارت
به كذلك الى أن كل جمهورية من هذه الجمهوريات الخمس وكأن تسعها
لايمت الى جيرانه فى الجمهوريات الاخرى بسبب أو تربطه به أى صلة •

وفى سبيل تأكيد ذلك انطلقت دعوة الروس قوية تحرض القازاق
على الاستمسك بلغتهم ، والتركمان على احياء تاريخهم ، والقرغيز
على الحرص على عاداتهم وتقاليدهم ، والتاجيك على الاعتزاز بثقافتهم
القومية وتراثهم •

صنع السوفييت ذلك كله بهدف انشاء الفرقة بين ابناء الامة الواحدة • وبرغم أن سكان هذه البلاد تربطهم جميعا بعضهم ببعض رابطة مكيئة متينة هي وحدة تركستان وحبل الاسلام والايمان المنين فانك ترى في بيان السوفييت التفصيلي عن سكان كل جمهورية ، على ما اثبتناه ذى قبل ، أن أوزبكستان ، على سبيل المثال ، بها أقليات لا يستهان بها من القازاق والتركمان والتاجيك • وقس على ذلك بباقي الولايات •

لقد ظل التركستانيون — وسوف يظلون كذلك — بعيدين كل البعد عن اعتناق المذاهب الماركسية ، فلم يدخل نفر منهم في زمرة أصحابها الا تحت ظروف الارهاب والارغام طلبا للحياة • وهم يوقنون جميعا بيقين راسخ أن موسكو لا ترى في بلادهم الا مجرد مستعمرة لها تستعبد أهلها وتستنزف كل خيراتها •

ان تركستان تقدم الى السوفييت ٥٠ ٪ من احتياجاتهم من اللحم والزبد و ٩٠ ٪ من القطن فضلا عن انتاج ستة ملايين هكتار من القمح • كذلك أمدت تركستان السوفييت في حربهم مع المانيا عام ١٩٤٠ بما يقرب من ٤ ملايين طن من البترول و ١٢ مليون طن من الفحم الحجري ، الى جانب ٣٠٠ مليون طن من مواد الوقود الأخرى كانت تنتجها قازاقستان وحدها سنوبا • كذلك كانت التركستان تغطي ٧٨ ٪ من حاجة روسيا من المعادن المختلفة كالنحاس والالومنيوم والحديد •

قبل ثورة أكتوبر الشيوعية عام ١٩١٧ كان في روسيا ثلاثون الفا من كبار الملاك يمتلكون ٧٥ مليون هكتار من الاراضي الزراعية ، في حين كان هناك عشرة ملايين من الفلاحين الروس يمتلكون فقط جميعا ٦٨ مليون هكتارا من الارض •

وفي تركستان كان هناك دون المليونين من المستعمرين الروس

يتملكون أكثر من ٣٣ مليون هكتار من الأرض الزراعية في حين كان
فلاحوا التركستان ، وعددهم يربو على سبعة ملايين ، لايزيد ما يملكونه
جميعا على خمسة ملايين هكتار من الأرض وقد أدى هذا الاستغلال
الاستعماري الرهيب بطبيعة الحال الى نزوع الوطنيين في التركستان
الى الثورة المتكررة على طغيان المستعمر .

Hayit, Some Problems of Modern History of "Turkestan"
East Europe Research Institute Duesseldorf 1963 - P. 37

٥ - الشيوعية والاسلام في التركستان :

يعرف التركستانيون الاسلام منذ أن دخلوا في ملته بأنه دين ودولة ، وهو عندهم كذلك عقيدة وحضارة ومدنية • وعلى هذا كله مجتمعا بنوا مجتمعهم وقامت عليه حياتهم وكيانهم ، وانعكس اثر ذلك كله واضحا جليا في سلوكهم وعاداتهم وطرائق عيتهم حيث يظعنون وحيث يرحلون أو يقيمون • وقد عرفت تركستان وذاع صيتها بوصفها موطن رجال التصرف وأهل الذكر والدراویش • هذا وقد عرفت التركستان أربع من الطرق الصوفية التي لاقت رواجا كبيرا حتى انتظم في صفوفها الجموع الغفيرة من المريدين وهذه الفرق الاربعة هي :

- ١ - الطريقة النقشبندية التي أسسها ببخارى في القرن الثامن الهجرى المتصوف المشهور النسيخ بهاء الدين النقشبندى •
- ٢ - الطريقة القادرية ، وهم اتباع المتصوف المشهور عبد القادر الجيلانى من رجال القرن السابع الهجرى •
- ٣ - الطريقة الكبرويه وهم اتباع المتصوف المشهور نجم الدين كبرى الذى استشهد على أيدي جند المغول اتباع جنكيزخان •
- ٤ - الطريقة القلندرية ، وهى التى أسسها الشيخ صفا السمرقندى في القرن الحادى عشر الهجرى •

هذا فضلا عن انتشار تعاليم الصوفية والاولياء الكبار فيما بينهم من امثال اليسوى وعبيد الله أحرار وأبى على الشقيق البلخى وأحمد الجزروى وأبى حافظ الحداد ، وجميعهم من رجالات القرنين الثامن والتاسع الهجريين •

(١) قتله المغول في أوركنج - أما سبب تسميته بكبرى فذلك بسبب ما كان عليه من علم غزير وسعة في الافق ، فكانوا يقولون له من فرط اعجابهم به ودهشتهم من ذكائه الخارق « انك لداهة كبرى » فذاع ذلك في الناس تلقينه بكبرى .

وتبع نشاط تلك الجماعات الصوفية هم والفقهاء والوعاظ في البلاد أن انتشرت مدارسهم في مختلف أنحاء تركستان ، فكان باماره بخارى ١٣٠ مدرسة وبخيوه ٦٥ مدرسة ضمن أربعمئة مدرسة ضمتها البلاد . وأخذ عدد هذه المدارس يتزايد عاما فعاما حتى بلغ عددها قبل ثوره اكتوبر الشيوعية عام ١٩١٧ ماينيف على ستة آلاف مدرسه بكثير .

ولقد هدف القياصرة من وراء فتحهم لتركستان القضاء على فوه الاسلام السياسية فحسب ، ومن ثم فقد تركوا التركستانيين يمارسون طفوس عقيدتهم في حرية في الغالب فلم يهدموا لهم مسجدا أو يغلّفوا لهم مدرسه . وظل التركستانيون بدورهم على استمساكهم المتين بتعاليم دينهم القويم حتى لم يكن في التركستان كلها من يقعد عن صيام رمضان وقيام الصلاة وأداء الزكاة . والا تعرض للعقاب الصارم . وقد قابل نفر كبير صنيع القياصرة معهم في ذلك بأن تطوعوا في صفوفهم دفاعا عن روسيا في الحرب العالمية الاولى ، والامل يحدوهم في ذلك أن يقدر القيصر وحكومته صنيعهم هذا لهم باستقلال بلادهم اذا ماكتب النصر لروسيا .

حتى جاء السوفييت الى تركستان في أعقاب ثورة اكتوبر الشيوعية عام ١٩١٨ وفي خططهم القضاء على الاسلام — عقيدة ومدنية — في تلك البلاد قضاء تاما من واقع تطبيق التعاليم والمبادئ الماركسية وايدولوجيتها .

وفي سبيل تحقيق ذلك الامر بدأوا بالغاء المحاكم الشرعية الاسلامية ، وقد كان عددها في اقليم أوزبكستان وحده ٣٤٢ محكمة عام ١٩٢٣ تقلص فيما بعد الى ٤٣ محكمة عام ١٩٢٥ ثم اغلقت أبوابها نهائيا عام ١٩٢٦ حين أعلن السوفييت وقف التعامل بقوانين الشريعة الاسلامية ، كما الغوا التعليم الديني في المدارس كذلك وعمدوا الى اغلاق المساجد وتشتيت علمائها وشيوخها ، ومنع الاحتفالات بالاعياد والمناسبات الدينية بالتالى . بل لقد كان من بين التهم التى أدين بها

الزعيم فيض الله خوجه الذى اعدمه السوفييت عام ١٩٣٧ م أنه قام
بدفن أخيه عياد خوجه عند وفاته وفق التقاليد الاسلاميه واقام على
قبره ناسدا • هذا الى جانب دعوته الى القومية التركستانية هو وفريق
من الزعماء من أمثال أكمل أكرم ورفاقه كما وصموه كذلك بأنه كان من
عملاء الانجليز ، وأنه هو وزملاؤه من زعماء البصمة كانوا يوفدون
الطلبة التركستانيين الى الخارج ، لاسيما الى المانيا وتركيا على
الخصوص ، للتشهير بالشيوعية ، فضلا عن تعويقهم لخطط التنمية
الروسية ومعارضتهم لسياسة السوفييت ونظام دولتهم •

وتبع اعدام الزعيمين الكبيرين فيض الله وأكمل أكرم البحث
بطبيعة الحال عن أعضاء كل المنظمات الوطنية ومطاردتهم في كافة انحاء
البلاد بهدف القضاء على كل نشاط لهم •

وما ان تم للسوفييت ذلك كله حتى عهدوا بمناصب الدولة الكبرى
في تركستان الى نفر من عملائهم ، وحرموا على الاهلين جميعا السفر
الى موسكو أو ليننجراد أو كييف أو خاركوف أو طشقند دون تصريح
رسمى خاص ، والزموا كل فرد من السكان باستخراج بطاقة تحقيق
التشخيصية كاملة البيانات • كما طلبوا الى كل أسرة أن تخطر الشرطة
عند مبيت أحد الاضياف عندها • بل لقد ذهبوا الى أبعد من ذلك حين
جعلوا من أفراد الاسرة الواحدة رقباء وجواسيس بعضهم على بعض
حتى لا تقوم في البلاد حركة ثورية أخرى مثل حركة البصمجي •

ولم يكثف السوفييت بهذا الذى صنعوه كله حتى نرعوا من
بعد ذلك يعملون على القضاء على الثقافة الاسلامية وتراثها في تركستان،
فانطلقوا يدعون الناس الى الاخذ بالابجدية الروسية في الكتابة بدلا
من الحروف العربية التى لم تعد تسير التقدم أو تصلح له عندهم
ويشجعونهم على تعلم اللغة الروسية بالتالى ابتداء من عام ١٩٣٨ م •
ومالبثوا عام ١٩٤٠ أن أبطلوا استخدام الأبجدية العربية رسميا
وأخلوا مكانها للابجدية الروسية حتى استبدلوا لافتات المساجد

والأضرحة والأماكن الأثرية الإسلامية كلها بلافتات أخرى أبجديتها روسية ، كما فرضوا تعليم اللغة الروسية في كل مدارس تركستان ولم يعمل السوفييت على ترويج الألفاظ الروسية في المجتمعات واللهجات المحلية فحسب ، بل انهم عمدوا كذلك الى « ترويس » أسماء الأعلام التركستانية بالحقاق 'اللاحقه « وف » و « يف » بآخر الألقاب ، فصار مثلاً لقب رشيد ، رئيس الدولة بتركستان ، الى رتسيدوف .

أما المدرسون وعددهم كان يناهز الأربعين ألفاً في جمهورية أوزبكستان السوفيتية فقد صار أكثر من نصفهم من الروس ، كما أن طلبة المدارس العليا هناك ٢٢ ألفاً من الروس والى جانبهم ١٣ ألفاً من الطلبة التركستانيين فقط برغم أن الروس القاطنين في تلك الجمهورية لم يكن يزيد عددهم على ٦ ٪ (ستة بالمائة) فقط من جملة السكان هناك .

وعلى مدى ٢٥ عاماً تخرج في كلية الطب بطشقند ٤٨١٤ طبيبياً لم تكن نسبة التركستانيين بينهم تزيد على ٢٠ ٪ . وفي السنوات التالية لم يتخرج في جامعة طشقند سوى عشرة من الأطباء التركستانيين . هذا كما لم يكن من بين أطباء أوزبكستان كلها البالغ عددهم ٨٠٧٢ طبيباً سوى ١٧٣٨ تركستانيا ، وقس على ذلك ببقية جمهوريات التركستان . وفي عام ١٩٥٧ م كان جولانوف هو أول وآخر تركستاني يسمح له بالحصول على درجة الدكتوراه في الاقتصاد (١) .

التركستانيون والحرب العالمية الثانية :

فوجى التركستانيون عام ١٩٤١ بالروس السوفييت يديعون فيهم أنهم يسمحون للاهلين بممارسة حقوقهم وشعائرهم الدينية في حرية تامة * ولم يكن التركستانيون ليطمئنوا بطبيعة الحال الى نوايا السوفييت في ذلك وهم الذين لم يسمحوا للمسلمين هناك منذ عام ١٩٢٩ م ببناء مسجد جديد واحد أو أن تخرج المطابع نسخة واحدة من المصحف الشريف أو يذاع في المذيع حديث ديني واحد ، وان كانوا قد سمحوا لعدد قليل من التسيوخ بأداء فريضة الحج على سبيل الدعاية فحسب * على أية حال فقد ركبت الروس الدهشة حين تبين لهم بعد اعلانهم هذا أن القوم لا يزالون على استمسакهم المكين بدينهم القويم * وكان السوفييت انما يرمون من وراء اطلاقهم في الظاهر للحريات الدينية الى كسب الشعوب الاسلامية الى صفوفهم في حربهم المعروفة مع الالمان عام ١٩٤١ م * وكان السوفييت قد أعدوا لهذا الامر عدته اذ هيئوا فئة من ضعاف النفوس من بعض العلماء تدعوا لهم في هذا السبيل * وقد أطلق على هؤلاء اسم « الهيئة الدينية الاسلامية العليا لوسط آسيا وقزاقستان » وجعلوا على رأسها اذ ذاك داعيتهم المعروف المفتي احسان بابا خان ، الذي اشتهر أمره بين الشعوب الاسلامية فيما بعد باسم المفتي الاحمر بابا خانوف ، فانطلق يعلن على الملأ أنه من واجب المسلمين تقديم كل المساعدة للسوفييت في دفاعهم عن بلادهم بازاء الغزو الالمانى في الحرب العالمية الثانية .

وساق الاتحاد السوفيتى الى الخطوط الأمامية في حربه مع المانيا عام ١٩٤١ م مايقرب من المليونين من التركستانيين وقاء لقواته الاساسية الروسية ووقودا لنيران مدافع اعدائه .

ولقد دعى السوفييت الى التجنيد اجباريا كل رجال التركستان. فيما بين الثامنة عشر والستين من عمرهم * ومن لم يكن منهم يصلح للقتال كان يقوم على خدمة الجند في معسكراتهم ومستشفياتهم * ولم يكن الروس ليجمعوا التركستانيين بطبيعة الحال في وحدات قائمة

بذاتها ففرقوهم في الوحدات الروسية برغم جهل كثير منهم للغة الروسية مما عرضهم لكثير من المتاعب •

وانتهز زعماء التركستان ، الذين كانوا قد هاجروا بدينهم فرارا من طغيان السوفييت ونسروهم ، فرصه اشتباك روسيا مع المانيا في الحرب العالمية الثانية ، فكونوا من المجاهدين التركستانيين — الذين كانوا قد لجأوا الى تركيا وأفغانستان وبعض البلاد الاسلامية الأخرى — فرقة عسكرية محاربة ، انضم اليها كذلك جموع من جند التركستان الذين تسلوا هاربين من صفوف الروس ، فصار قوامها ما يزيد على المائة ألف محارب •

وقد انضمت قوات التركستانيين هذه الى صفوف الألمان في حربهم مع روسيا على تعهد أكيد من الحكومة الألمانية بحصول تركستان على استقلالها التام اذا ما كتب النصر لألمانيا • وقد شارك مفتي فلسطين الأكبر اذ ذاك الشيخ أمين الحسيني زعماء التركستانيين في مفاوضاتهم مع المانيا في هذا الشأن •

ونساءت الاقدار أن تصاب المانيا بالهزيمة الشاملة على أيدي عصابة الحلفاء — أمريكا وروسيا وفرنسا وبريطانيا — الذين سارعوا الى تقسيم تلك البلاد الى مناطق نفوذ لهم فيما بينهم ، وانفرط تبعاً لذلك عقد فرقة المجاهدين التركستانيين الذي بادروا من فورهم بمغادرة المانيا الى خارجها •

وحدث أن عثر الانجليز في القطاع الذي يسيطرون عليه بالمانيا على مائة وعشرين من التركستانيين فبادروا بتسليمهم الى السوفييت الذين اعدموهم رميا بالرصاص من فورهم • فكان الروس والانجليز كلاهما في ذلك عند قول الزعيم المشهور جمال الدين الافغانى بأن «ملة الكفر واحدة» • ولم يشف غليل ستالين ما صنعه هؤلاء التركستانيين حتى أدت بهذا الطاغية كراهية الماركسية العميقة للإسلام والمسلمين الى أن أصدر أوامره بمحاصرة المسلمين في شبه جزيرة القرم ويزيد عددهم على ستة ملايين — وبادتهم جميعا ضربا بقنابل الطائرات والمدافع

والغازات السامة بدعوى مناهضة المسلمين للتشيوعيه في بلاده * وتناسى في ذلك ما قام به مسلموا القرم من اعمال بطولية مجيدة دفاعا عن تراب روسيا بميادين القتال في سباستيول وستالينجراد وأوديسا وما أنزلوا من الضربات الشديدة بقوات الغزو الالمانية في الحرب العالمية الثانية * والأغرب من ذلك والادهى والامر أن نجد جروميكو العضو المناوب للسوفييت في مجلس الامن يومئذ ، يرفض مجرد ادراج كارثة القرم هذه في جدول الأعمال بالأمم المتحدة بدعوى أن اباداة هذه الملايين الستة من المسلمين في القرم (١) هي من صميم اختصاص الكرملين الذي يرفض أى نقاش دولى حولها *

(١) أشارت صحيفة الأهرام من جديد الى هذه المجزرة في عددها الصادر بالقاهرة بتاريخ ٩ أبريل ١٩٨١ *

الدعاية الشيوعية بين الشعوب الاسلامية

لقد مهد احتلال التركستان ، للروس الماركسيين أن ينفذوا الى
النسرق عن طريق تلك البلاد بوصفهم قوة صار لها ثقلها في آسيا .
ولولا صنائعهم من العملاء التركستانيين لما استطاعوا كذلك النفاذ
بدعايتهم الشيوعية الى صفوف الشعوب الاسلامية ابتداء من عام
١٩٢٧ م .

وغنى عن البيان أن هؤلاء السوفييت كانوا يعرفون تمام المعرفة
أن تركستان لها على الدوام مكانتها الرفيعة في نفوس المسلمين من
واقع تاريخها الطويل العريق في خدمة الاسلام ثقافيا وسياسيا ، بما ظهر
بها من كبار الحكام ونوابغ العلماء في مختلف فنون المعرفة .

ونذكر من بين العملاء التركستانيين : محيي الدينوف عضو مجلس
السوفييت ورشيدى رشيدف وطرسن زاده كمسؤولين عن شئون
المسلمين في آسيا وافريقيا وجعفر جعفروف مدير الدراسات الشرقية
بموسكو ، ثم جعفر عبد الله رشيدوف مسئول الدعاية في البلاد
الآسيوية والافريقية ومقره القاهرة ، وأخيرا احسان بابا خانوف —
المفتى الاحمر — وكان هو المسئول عن الشئون الثقافية الاسلامية
بتركستان .

ولقد انطلق عملاء السوفييت يجوسون خلال ديار المسلمين في
محاولات متعددة متتالية لنشر ضلالتهم وأكاذيبهم بدعوى ممارسة
المسلمين في الاتحاد السوفييتي لشعائهم الدينية في حرية تامة . كما
دعوا الى تركستان كذلك بعض الكتاب ورجال الاعلام بل وبعض كبار
رجال الدين في البلاد الاسلامية للوقوف بأنفسهم على أحوال المسلمين
هناك . وبرغم ماكان الشيوعيون قد أحكموا اعداده من طرائق التزيف
على الزوار فما غدا : يفهم وأكاذيبهم أن كشف الناس الغطاء عنهما
وفضحهم بها .

وكان من بين مظاهر الخداع التي اصطنعها الروس الشيوعيون

في ذلك أن أعلن خروشوف في خطاب له ابان زيارته لكشمير في ديسمبر ١٩٥٥ م بأن حرية العبادة مكفولة لكل فرد في الاتحاد السوفيتي •

وهذا هو بابا خانوف — المفتي الأحمر — لا يتردد في أن يعلن في خطاب له بدلهي عام ١٩٥٦ م « أن الاسلام لم يعرف الحرية بآسيا الوسطى لمدة اربعين عاما تحت حكم القياصرة • أما الآن فان المسلمين في تركستان يقيمون شعائر دينهم في حرية تامة ، هم وأصحاب الديانات الأخرى » •

كما أعلن بدوره كذلك نور الدين محيي الدينوف السكرتير الأول السابق بجمهورية أوزبكستان والسكرتير الحالي بالاتحاد السوفيتي عام ١٩٥٧ م أن الدعايات البريطانية والامريكية تعمل على الوقيعة بين الاتحاد السوفيتي والعرب وتحاول فصم عرى الصداقة بينهما بما تنشره من أكاذيب ودعاوى باطلة عن سوء احوال المسلمين في الاتحاد السوفيتي حيث يتعرضون للاضطهاد متواصل من السوفييت ، على دواهم •

بل لقد بلغ من امعان الدعاية الشيوعية في نشر الأكاذيب أن ادعت — دون حياء — بأن الولايات المتحدة الامريكية قد اتخذت من منطقة مكة المكرمة والمدينة المنورة مستودعا دائما لقنابلها الذرية وصواريخها الفتاكة ، الأمر الذي يؤدي مشاعر المسلمين كافة في العالم الاسلامي (١) •

وبلغ الحال ببعض الكتاب في بعض البلاد الاسلامية ممن خدعتهم الدعايات الشيوعية الى أن كتب أحدهم في احدى صحف دمشق بأنه: يتمنى أن يبلغ المسلمون في وطنه الى ما بلغ اليه المسلمون من السؤدد في تركستان • وقد أشادت جريدة البرافدا السوفيتية بهذا الحديث في عددها الصادر في ١٤ يناير ١٩٥٦ •

وهذه صحيفة الرياض تنشر في عددها الصادر بتاريخ ٦ أبريل ١٩٥٦ م أن المسلمين في تركستان يمارسون اقامة شعائر الدينية في

(١) جريدة البرافدا ص ٢ بتاريخ ١٣ أبريل ١٩٥٨ •

حريه تامه • وآخر من مصر يعلن في حديث له نشرته صحيفة « قيزل تركستان » بتاريخ ٩ أبريل ١٩٥٨ م عن سروره البالغ ورضائه التام عما لمسه بنفسه من ممارسة التركستانيين لتسعاتهم الدينية في حريه تامه في الوقت الذي تدعى فيه أجهزة الاعلام ومجتمعات الرأسماليين في البلاد العربية ، بهتانا وزورا ، أنه لا وجود لحرية العقيدة في الاتحاد السوفييتي • ويضيف الى ذلك بأنه قد صلى بنفسه بأحد المساجد في طشقند (١) •

وفي مقابل هؤلاء المضلين المخدوعين انطلق نفر من كبار علماء المسلمين من مختلف الديار الاسلامية ممن زاروا التركستان يفصحون دعايات السوفييت ويعرون أكاذيب الشيوعيين من واقع الحقائق الثابتة الدامغة التي وقفوا عليها وشاهدوها بأنفسهم •

فهذا هو العالم الباكستاني الكبير مولانا راغب احسان ، وقد زار على رأس وفد من العلماء عام ١٩٥٧ م بلاد الاتحاد السوفييتي وتركستان بدعوة من حكومة موسكو ، يصر في حديث له باحدى المجلات (٢) التي تصدر بمدينة دوربان في جنوب افريقية « بأن الحقيقة الثابتة الأكيدة هي أن الذين يحكمهم السوفييت من أبناء الشعوب غير الروسية لا يتمتعون بأية حرية أو مساواة وحقوق ، وان ما تذيعه وسائل الاعلام السوفيتية عن تمتع التركستانيين في الاتحاد السوفييتي بحرياتهم السياسية والدينية انما تهدف من ورائه الى ان تكسب الى جانبها الرأي العام في باكستان وافغانستان ثم العرب بدورهم كذلك • وقد لمسنا بأنفسنا مدى مايكنه مسلمو تركستان للروس من كراهية عميقة في نفوسهم • هذا وان نزوعهم الى الاستقلال مازال راسخا قويا في نفوسهم •

Hayit · Soviet Anti - Islam Policy in Turkestan, Koeln 1958
P 6 - 10

The muslim Digest Vol 8 no 6 . P , 12 - 14

ان ادارة السنون الدينيه فى طسمند ليس من عملها أن تلتفت الى مساندة العقيدة أو تهتم بالتعليم الدينى ، ذلك أنها فى الواقع مجرد ادارة يسيطر عليها الشيوعيون الروس لمراقبة أى نشاط دينى قد يمارسه البعض والقضاء عليه فى التو •

كذلك يصرح الزعيم الأندونيسى الدينى الكبير نصر الدين لطيف الذى زار تركستان ، بدعوة من موسكو عام ١٩٥٧ م ، بأن السوفييت يفتحون أبواب جملة مساجد لزوار التركستان من الضيوف المسلمين على سبيل الدعاية فحسب ، اذ أن الواقع الملموس هو أن المسلمين التركستانيين لا يعرفون الحرية لا فى العبادة ولا فى الحياة العامة على السواء •

هذا كما كان السوفييت يحرصون كل الحرص على الا يختلط أحد من هؤلاء الضيوف بأى مسلم تركستانى على انفراد •

وهل يستغرب ذلك كله من أولئك الماركسيين الشيوعيين ، وشعارهم ودستورهم الذى مايزال يرددونه حتى اليوم هو أن الأديان والعقائد هى أفيون الشعوب •

ان الشيوعية عندهم هى أن الكون أنما يقوم على قوانين الجمال ، وأن الآلهة جميعا انما قد اخترعها الناس بأخيلتهم وأوهامهم • فاذا كنا نحن — أى البشر — الذين خلقناهم بأوهامنا ، فمن حقنا أيضا أن نرجع عن تلك الأوهام بالعقل الواعى السليم ونزيحهم بعيدا عن طريقنا ، وأن يأخذ مكانهم الجنس البشرى والتفكير الحر (١) •

«يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتمنوره ولو كره الكافرون» (التوبة — ٣٢) صدق الله العظيم •

تقول الوثائق الرسمية بأنه فى الفترة ما بين عامى ١٩١٨ و ١٩٣٨م فقط أودى الروس الشيوعيون فى تركستان بحياة ما يزيد على ستة

ملايين من المسلمين ، منهم من استشهد في صراعه معهم ومنهم من لقي حتفه على أيديهم في معتقلاتهم وسجونهم (١) •

ولو أضيف إلى هؤلاء من استشهدوا في سبيل الدفاع عن بلادهم منذ أن وطأت أقدام الروس أرض التركستان في القرن التاسع عشر الماضي لفاق عدد شهداء التركستان جميعا عشرة ملايين • هذا وقد أسرنا من قبل إلى المذبحة الرهيبة التي أنزلها ستالين بمسلمي القرم وأفنى فيها ستة ملايين منهم •

وبرغم هذا كله وبرغم مايسلكه الشيوعيون من أساليب القهر والعنف من مسلمي التركستان فإنهم لايزالون على استمساكهم المكين بدينهم وبلغتهم وثقافتهم وبقوميتهم يعضون عليها جميعا بالنواجز • سواء من لايزال منهم يعين في حكم السوفييت أو من هاجر إلى خارج تركستان حيث يعين الوف عديدة منهم في بعض البلاد الإسلامية • وجميعهم كذلك يتطلعون إلى اللحظة التي يتحقق لهم استقلال بلادهم وإعلاء شأن الإسلام فيها من جديد •

إن تركستان كانت ولا تزال تمثل جرحا نزيهه لايتوقف أو ينقطع في جسد الاستعمار الروسي سواء في عهد القياصرة أو تحت حكم الشيوعيين • ولن يتوقف شعب تركستان أبدا عن كفاحه ضد المستعمر الغاصب حتى يتحقق له حريته واستقلاله ، فدولة الباطل ساعة ، أما دولة الحق فهي إلى قيام الساعة •

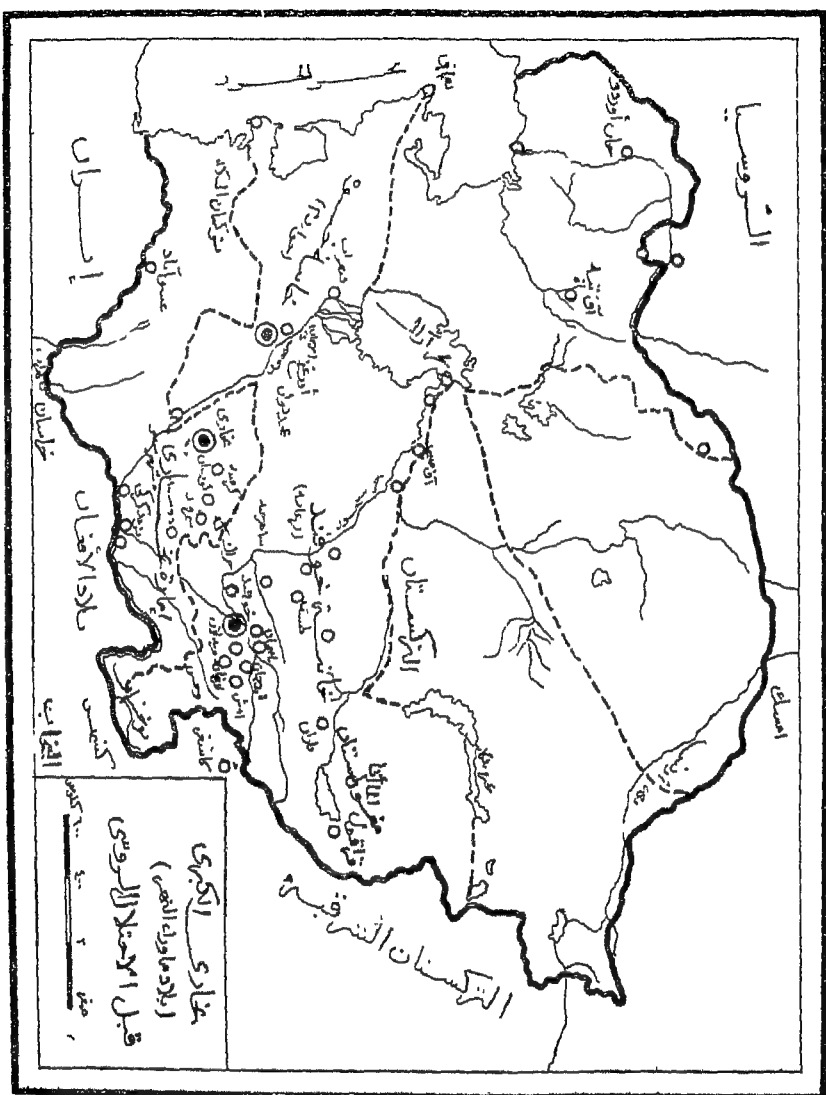
ولقد ظل أبناء الشعوب الإسلامية سنين طويلة لايملكون إلا التعبير عن آلامهم وأحزانهم لما يعانیه اخوانهم بتركستان ، إذ كانوا هم بدورهم يعيشون وطأة الاستعمار الأوروبي كذلك ويكابدون عسفه بهم وطغيانه •

وقد آن الاوان ، وقد تبدل الحال ، أن يلتفت الآن المسلمون — شعوبا وحكومات — التفاتا جديا إلى مايعانيه أولئك البواسل المؤمنون

عن مقال بجورنال التركستان السوفيتية — ١١ انا — العدد الخامس ص ١٠٢ بتاريخ مايو ١٩٥٨ •

ابناء تركستان — تلك البلاد التى لها تاريخها العريض فى خدمة الاسلام ، عقيدة وثقفة وحضارة — والنهوض به • وقد تعرت للناس جميعا كل ضلالات هؤلاء الماركسيين الشيوعيين وتكشفت لهم كذلك بجلاء ووضوح نوايا المستعمرين السوفييت وخططهم بأزاء العالم الاسلامى وشعوبه ، فهاهم يغزون بقواتهم الكثيفة وأسلحتهم الفتاكة أفغانستان تلك البلاد التى طالما وقفت لسنين طويلة قلعة تسامخة للاسلام فى قلب آسيا وهاهم يمارسون ارتكاب المذابح بغية افناء ذلك الشعب البطل المستمسك بعقيدته المناضل الصلب فى كل الازمان عن دينه وحرية •

وها هو المستعمر السوفييتى كذلك يشرع فى التسلل الى مناطق أخرى اسلامية فى آسيا وافريقية بدعوى امدادها بخبرائه من العسكريين والمدنيين أخذا بيدها وحماية لحريتها • وينتهى الحال بداهة الى ان تدور هذه البلاد فى فلكه ينتهب كل خيراتها ومواردها ويستعبد أهلها ويقضى على دينها ومعتقداتها مستعينا فى ذلك بصنائع له من ابنائها •



• هذه الحركة من وضع المرجح

فهرس أبجدي عام

١٢٩	أحمد جلابر	١٧٧	آيسكون
٤١٦	أحمد البراني	١٣٤	آذربجان
١١٩	أحمد الصد سليمان	٤٦٤ ، ٤٦١ ، ٤٦٠	آق مسجد
١١٢	أحمد بن اسماعيل الساماني	٣٦٤	آقجه
٢٦١	أحمد الكرمانى	١٣٩	آفسنر
٤٦٤ ، ٢٩٨ ، ٣٥٠	أحمد اليسوى	٢٨ ، ٢٦ ، ٢٣	آمل
٤٤	أخسيكت	٢٠١ ، ١٩٩ ، ١٩٧	أباقا
٣٠٨	أراسه	٢٨	أبرزى
٣٩٧	أرساي تركمان	٨٠	أبو جعفر الروانقى
٢٦	أرسلان خان	١٢٢	أبو الحارث مصور
١٥١	أرسلان كشا	٢٩٨ ، ٢٩٧	أبو الخير
٢٦٢	أرعون ساه	٣١٢ ، ٣٠١ ، ٢٩٩	
٢٢٩ ، ٢٢٦	أرمييه	٢٨٢ ، ٢٧٢	أبو سعيد ميرزا
١٣٣	أربى بغا	٢٩٧ ، ٢٧٦ ، ٢٧٥	
٢٥٤ ، ١٧٧	استرabad	١٨٩ ، ١٨٨	أبو سكون
١١٣	استداف الساماني	٣٨١ ، ٢٩٦	أبو العازى بهادرخان
٩٣	اسد بن عبد الله	٩ ، ٨ ، ٤٠٧	
٧٥	اسرى بن عبد الله	٤٠٠ ، ٣٩٦	أبو العيص خان
٣٨٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٩	اسكندر قلى	١١ ، ٧ ، ٦ ، ٤٠١	
١٣٥	اسكندر الممدونى	٢٧٣	أبوالقاسم باير ميرزا
٤٠ ، ٢٧	اسماعيل الساماني	١٢٢ ، ١٢١	أبو القاسم الساماني
١١٠ - ٩٣		٣٠٥	أبو المحسن ميرزا
٣٢٣ - ٣١٧	اسماعيل الصفدى	٧٧ ، ٤٠	أبو مسلم الحراساني
٣٣٠ ، ٣٢٩ ، ٣٢٨		٨١ ، ٧٩ ، ٧٨	
٢٩٦	اسن بغا	١٩٠	ابشكا
٢٧	أسوانه	١٣١	أبيورد
١٧٨	اسيكول	١٦٨ ، ١٥٨ ، ١٥٦ ، ٢٤	اترار
٣٦١ ، ٣٥ ، ٢٧	الانسر حانون	٣٠١ ، ٢٣٦ ، ٢٢٢	
٤١٠ ، ٤٠٦ ، ٤٠٤		١٤٩ ، ١٤٨	أئسن
٢٧ ، ٢١	الاصطخرى	١٤٤	اتوره
٣٧٨	اصفهان	٧٠	أبن الأثر
١١٣	الأطروش	٤٣٧	أخمايه
٤٢ ، ٣٩	أفراسياب	٣٩٢	أحمد الثانى

۱۴۹ ابل ارسلان	۳۵۹ اکبر ساء
۱۶۷ ابلكو	۳۰۹ الآجه سلطان
۲۳ ، ۲۲ ، ۱۲۰ . . . ابليكان	۱۶۷ الانكو
۱۳۰ ، ۲۹ ، ۲۸ ، ۲۵	الب ارسلان ۱۳۵ ، ۱۳۶ ، ۱۶۷
ب	۱۴۱ ، ۱۴۱ ، ۱۳۸
الباب ۸۱	الب قرا ۱۳۰
بابر (طهیرالدین محمد) ۲۵۳ ، ۲۸	البتکین ۱۱۷
۳۰۵ ، ۲۸۲ ، ۲۸۵ ، ۲۸۲	الجاینو خدا بنده ۱۹۹ ، ۱۹۸
۳۱۳ ، ۳۰۹ ، ۳۰۷ ، ۳۰۶	الف بیک ۲۷۲ - ۲۶۵
۳۴۷ ، ۲۹ ، ۴۰ ، ۲۸	الکو ۱۹۱ ، ۱۹۸
بابر نامه ۱۴ ، ۱۰	الله داد ۲۶۲
۲۹۳ ، ۲۸۲ ، ۲۸	الله علی ۴۳۷
بابو ۳	الپاس خواجه ۲۱۰
دارتولد ۲۱۹ ، ۵۴	امام قلی ۳۶۳ ، ۳۵
بابمر حبابه ۴۸۵	۳۷۰ ، ۳۶۹ ، ۳۶۸
بارمتی ۲۸	۳۷۵ ، ۳۷۲ ، ۳۷۱
باع جباران ۲۵۲	امت خان اساجلو ۴۴۴
باع شمال ۲۵۲	اندخوی ۳۹۷ ، ۴۶
باع بو ۲۵۲	انقره ۲۳۴
باع بهست ۲۵۲	انوشه خان ۳۸۵ ، ۳۷۳
بافی محمد خان ۳۶۶	اوتاکر فون شلتا ۱۶
باقی بوز ۳۷۷	اوجان ۲۲
بابوکه ۸۸	اورغنده ۱۹۰
بابرید الشانی ۲۳۵ ، ۲۳۴	اوروس ۲۲۳
نایسنفر مبرزه ۲۸۱ ، ۲۸۰	اورلاندو جیوفانی ۳۵۸
۲۸۵ ، ۲۸۳ ، ۲۸۲	اورنرج ۴۶۱ ، ۴۵۹
بنروشفسکی ۱۷۹	اورنکزیب ۳۹۱ ، ۳۷۸
بتی دولا کروا ۶	الاوزک ۸ ، ۲۵ ، ۳۰ ، ۱۴۲ ، ۱۴۹
بخاری ۲۴ ، ۲۳ ، ۸	۱۵۴ ، ۱۶۳ ، ۱۷۹ ، ۲۹۵
۳۳ ، ۳۱ ، ۲۶ ، ۲۵	- ۳۲۶ ، ۴۱۰ ، ۴۱۳ ، ۴۳۳
۹۶ ، ۷۳ ، ۳۷ ، ۳۵	اوزبک خان ۲۹۶
۱۱۰ - ۱۰۵ ، ۱۰۴ ، ۹۷	اوعرتسالی ۱۷۷
۱۷۲ ، ۱۷۱ ، ۱۷۰ ، ۱۴۹	اوسکای ۱۷۹ ، ۱۶۵ ، ۱۶۴
۲۸۳ ، ۲۰۴ ، ۱۸۳ ، ۱۸۰	۱۹۵ ، ۱۹۴ ، ۱۹۱
۴۳۷ ، ۴۲۷ ، ۴۰۹ ، ۳۳۹	اولجای ترکان خاتون ۲۰۸ ، ۲۰۹
السخاری ۱۰۶	اونغ خان ۱۶۲
بدخشان ۲۱۷ ، ۱۶۴ ، ۲۲	الوینفور ۱۲۷ ، ۶۷ ، ۲۴
بدیع الزمان بیقرا ۳۰۸	ایدی قوت ۱۶۴ ، ۱۶۳
۳۱۴ ، ۳۱۳	اراموف ۴۸۱
۲۶۸ ، ۲۶۵	ایرناق ۳۹۰

٥٤	بهرام الخامس	٤٦	برسبوليس
٣٧٧	بهرام سلطان	١٤١	بركيا روق
٢٩٤	بهزاد	٣١٦ ، ٣١٤	برندق
١٨٩	بيدو	٣٧	بروالة
٢٦٢	بير على تاز	٢٢٨	بروجرد
٢٦١ ، ٢٦٠ ، ٢٢٦	بير محمد	٢٤٦ ، ٢٤٧	بروصه
١٦	بيرك	٣٣٩	برهان خان
٤٥٩ ، ٤٤١ ، ١٣	بيرنز ، الكسنندر	١٨٨	بسغا
٤٥٩ ، ٤٣٧	بروفسكي	١٨٥	بغا بوشا
٤٦٢ ، ٤٦١ ، ٤٦٠		١٢٠	بجراحات
٤٢	البيروني	١٢٨	بعو (بوغو)
١٩٩ ، ١٨٩	بيسو	٨٣	بغى (فائدالمقنع)
١٥٥	بيشبالق	٤٧٤ ، ٤٤٢	بطرسبرج
٤٤ ، ٢٨ ، ٢٦	بيكند	٢٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٨	ابن بطوطة
٦١ ، ٥٥ ، ٤٩		٤٨ ، ٤٢ ، ٤١	بكتريا
٥	البيهقي	١٣٢	بكتغدي
		١٢٣	بكنوزن
		٦٤ ، ٢٩	بكر بن وائل
		٤٦١	بلارميرج
		١٣٤ ، ٤٨ ، ١٧ ، ١٥	بلخ
		٣٤١ ، ٣١٣ ، ١٧٦	
		٤٠٤ ، ٣٦٤ ، ٣٤٨	
		٢٣ ، ٢١	البلخي
		٣٤ ، ٣٣	
		٤٤ ، ٢٤	بناكت
		١٦٧ ، ١٥٥	
		٣٤	بنجشنيه
		٣٩	بندون
		٤٤٧ ، ٤٤٢	بونيف
		٤٥٠ ، ٤٤٩	
		٣٤	بودان سلطان
		٦٧	بوذا
		١٩٣ ، ١٩٢	بوراي
		١٩٥ ، ١٩٤	
		٢٧٤ ، ٢٧٣	بورغه سلطان
		٣٠١ ، ٢٩٩	
		١٨٨	بوري
		٢٣	بومخت
		٢٨٩	بهاء الدين النقشبندی
		٤١٦	بهاالبور

ت

٤٦٦	مانارينوف	٤٦١	بلارميرج
٢٠٦	تاج الدين العالم	١٣٤ ، ٤٨ ، ١٧ ، ١٥	بلخ
٣٢٩ ، ١٨٥	تاراب	٣٤١ ، ٣١٣ ، ١٧٦	
١٢٠ ، ١١٩	تاش	٤٠٤ ، ٣٦٤ ، ٣٤٨	
١٥٣	تابنكو	٢٣ ، ٢١	البلخي
٢١٨	تباجي	٣٤ ، ٣٣	
٢٢٣ ، ٢٢٢	تخمنش	٤٤ ، ٢٤	بناكت
٢٥٦ ، ٢٢٩ ، ٢٢٤		١٦٧ ، ١٥٥	
٣٧٤	تراي	٣٤	بنجشنيه
٢٤	تراز	٣٩	بندون
١٥٣	ترخان خاتون	٤٤٧ ، ٤٤٢	بونيف
٧٤ ، ٣٧	تركستان	٤٥٠ ، ٤٤٩	
٢٠٢ ، ١٩٢ ، ١٧٩ ، ١٥٤		٣٤	بودان سلطان
٤٦٠ ، ٤٥٩ ، ٤٣٢ ، ٣٠١		٦٧	بوذا
٣٧	تركمرود	١٩٣ ، ١٩٢	بوراي
١٩٩ ، ١٧٥	ترمذ	١٩٥ ، ١٩٤	
٢٧٧	ترنس ، ف	٢٧٤ ، ٢٧٣	بورغه سلطان
٦	تزنيكازن	٣٠١ ، ٢٩٩	
٤٦٧ ، ٤٦٦	تشرنايف	١٨٨	بوري
٢١١ ، ٢٠٩	تقلق تيمور	٢٣	بومخت
١٢٧	تقماق	٢٨٩	بهاء الدين النقشبندی
١٥١ ، ١٤٩ ، ١٥٠	تكش	٤١٦	بهاالبور

٤٧٧	جنوسيف	٦٥ ، ٦٣	تميم
١٦٥	حسيمور	٣٠٩	تنيل
٤٢٩	اجمسيديون	٣٨٣	سكر بيردي
٥١	جمكيت (جمولت) ٢٧	٢٦	نوائس
٤٦٤		١٣٩	نوتوش
١٥٠	جند	٢٠٧	تورغاي
٧٦	حلب	٢٠٧	نوزوكان تيمور
١٨٥	جنگ سان ناعو	٢٣٠	نوكل حانيم
١٨٥ ، ١٥٥	جندبر حان	٢٢٦	بهرس
١٨٣ - ١٦٢ ، ١٥٩		١٦٤ ، ٥٠ ، ٢٣	بيان سان
٤٠٦ ، ٢٥٩ ، ٢٤١		١٦٢	تيمورجي
٤٣٩	جوامرد علي بهادر	١٨٤ ، ٢٤ ، ١٠	سيمور ملك
٦٤ ، ٦٣ ، ١٦٢	حوبى	٢٥٨ ، ٢٥٧ - ٢٠٥	
١٦٧ ، ١٦٦ ، ١٦٤	جوجى	٤١٦ ، ٤١٢	سمور شاه الدراني
١٥٤ ، ١٠	الجوسى (عطا ملك)	٤١٩ ، ٤١٧	
١٩٦ ، ١٨٥ ، ١٥٦		٢٢٣ ، ١٦٨ ، ١٦٧	سمور ملك
٣١ ، ٢٣ ، ٢٢	جهارجوى	٣٣٥	تكل خان
١٠	جهانكشا		
٣٧٢	جهانكير		
٣١٢ ، ٣١٩	جين صوفى		

ث

بيفينوت ٦

ح

١٠٧	حاشد الصوفى
١٨٦	حيش عميد
٦٣ ، ٦٢	الحجاج
٧١	حسن بن اناس
١٦٦	حسن حاجى
٢٧٥	حسن على فره قبولو
٢٧٨ ، ٢٧٥	حسن بيغرا
٢٩٧ ، ٢٩٤ ، ٢٩٣	
٣١٣ ، ٣١١ ، ٣٠٨	
٩٤	حسين بن طاهر
٢١٨	حسن صوفى
٢٨٨	حسن كبرى
٢١٠ ، ٢٠٩ ، ٢٠١	حسين كرب
٢٢٠ ، ٢١٣ ، ٢١٢ ، ٢١١	
٨٣	حسين بن معاذ
٢٢٧	الحشاشون
٨٣	حشرى (قائد المقتنع)
٣١	حصار

ج

٦٤ ، ٤٥ ، ٢٣	جاح (حج)
٣٣٢	خالدرا
٣١٦	جان وفا بك
٣٣١ ، ٣١٧	جاني بك
٨٥ ، ٨٤	جبرائيل بن يحيى
٢١١ ، ٢١٠	الجنه
٢٢٠ ، ٢١٧	
٤٥٦	جراكجى
٣١٦	جرخان
٥٠	جستان
١٧٩ ، ١٦٥ ، ١٦٤	حغناى
٢٠٥ ، ١٩٥ ، ١٨٨ ، ١٨٣	
١٣٣ ، ١٣٢ ، ١٢٩	جعبر
١٤١ ، ١٣٥ ، ١٣٤	
٢١١	جكجك
١٧٨ ، ١٧٧	جلال الدين حورازمشاه
٤٠٥ ، ٢١٢ ، ٢٠٥	حلاير
٤٦٦	حلوشوفسكى

حیره آباد ۳۲۹	حمره الاصغهای ۴۲
حبوه ۱۳۱ ، ۱۴۷ ، ۳۶۳	حمزه سلطان .. ۳۰۳ ، ۳۲۶
۴۰۶ ، ۴۲۲ ، ۴۳۷	حمره طاهر ... ۹۲
۴۳۸ ، ۴۴۶ ، ۴۴۱	حمویه ۱۱۳ ، ۱۱۴
د	ابن حوقل .. ۲۱
داشکوف ۴۷۲	حیدر سلطان ... ۲۹۹ ، ۳۰۰
دامغان ۱۳۳	خ
دایشمیجه آوغلان ۲۰۲	خاتون ۵۷ ، ۵۸
دانیال بی ۴۰۷ ، ۴۰۹	۵۹ ، ۶۱ ، ۶۶
دبوسی ... ۲۸	خادم بی اتالیک ... ۳۸۸
دخمه ساهان ... ۱۵	حالد بن عبد الله ... ۷۵
درویس محمد نرخان ... ۲۸۱	خایبکه سلطان ... ۳۰۹
الدیفی ... ۴۲	خانیکوف ... ۱۳ ، ۴۴
دکتن ... ۲۸	خاوندشاه ... ۲۰۳
دلساد آغا ... ۲۱۷	حیلان ... ۲۲
دوست محمد خان ... ۴۴۲ ، ۴۵۲	خجنده ... ۲۴ ، ۲۵
۴۷۰	۴۴ ، ۱۶۸ ، ۱۸۰
دلکش ... ۲۳۱ ، ۲۵۱	خدات ۳۸ ، ۶۷
دندانان ... ۱۳۴	خداداد ۲۶۱ ، ۲۶۴
دوا بن بورق ... ۱۹۶ ، ۱۹۷	خدایار ۴۵۶ ، ۴۵۷
درابول (درفول) ... ۴۹ ، ۲۲۸	خراسان ... ۸ ، ۱۳
دی جویه ... ۳۱۳	۷۳ ، ۷۶ ، ۸۸
دیزی ۲۴ ، ۴۷۴	۱۳۰ ، ۱۳۱ ، ۱۳۲
و	۱۴۴ ، ۳۲۸ ، ۳۴۷
رادلوف ۳۳	خسرو سلطان ۳۴۷ ، ۳۷۵
رافع بن الیث .. ۷۳ ، ۹۰	خسرو شاه ... ۲۸۳ ، ۳۱۷
۹۱ ، ۹۳	الخشاب (یحیی) ۹ ، ۱۰۷
رافع بن هرمه ... ۱۰۰	۲۹۰ ، ۲۹۰ ، ۴۱۰
رامتن ... ۲۸ ، ۵۵	خلیل مرزا ... ۲۶۰ ، ۲۶۱
راولنسون ، هنری ... ۴۰۵	۲۶۲ ، ۲۶۴ ، ۲۸۶
ربود ... ۲۹	حمارتکین ... ۱۳۹
ربیع بن الحارث ... ۵۷ ، ۱۷۲	خواجه أحرار ... ۲۹۰
زعم بی أتالک .. ۳۹۶ ، ۴۰۰	خوارزم ... ۲۳ ، ۴۲ ، ۴۳
۴۰۱ ، ۴۰۶ ، ۴۰۷	۱۳۵ ، ۱۲۹ ، ۱۴۷
رحم براونجی ... ۳۷۳	۲۱۸ ، ۳۱۱ ، ۴۷۴
رحم قلی ... ۴۳۹	خواندمبر ... ۹
رضا قلی خان ... ۳۹۸ ، ۳۹۹	خوشنواز ... ۵۵
رنجیت سنگ ... ۳۳۹	خولم ۲۳
روما ۱۳۴ ، ۱۳۶	خوقند ۳۰۹
رومانوس دوجیتیس ... ۱۳۶	۴۳۲ ، ۴۳۳ ، ۴۳۹
رومانوف ۴۶۰ ، ۴۷۸	۴۴۴ ، ۴۴۸ ، ۴۶۹

رومانوفسکی ...	۴۷۴ ، ۴۶۷	سلجوق	۱۲۷ ، ۱۲۸ ، ۱۲۹
ربعیان ..	۴۳	سلطان علی	۳۰۳
ر		سلیم الأول	۳۳۲
ررادشت ...	۴۲ ، ۵۰ ، ۶۷	سلیمان ساه	۱۳۹
رردکرد	۵۴	سلیمان الصفوی	۳۹۱ ، ۳۸۴
زرفشان ..	۲۴ ، ۲۵	سلیمان بن عبد الملك	۶۹
	۴۴ ، ۳۳		۷۴ ، ۷۰
زربوی ..	۱۶۸	سمرقند	۱۳ ، ۸
زم ..	۲۳		۲۶ ، ۲۷ ، ۲۲
زندانی (زندین)	۲۶		۳۷ ، ۵۹ ، ۷۵
زنده هشتم ..	۲۱۴		۱۴۹ ، ۱۷۳ ، ۱۷۴
زیاد بن ابی سفیان	۵۷		۱۷۵ ، ۱۷۹ ، ۱۸۰
زیاد بن صالح	۸۰		۱۸۳ ، ۲۳۰ ، ۲۳۲
س			۲۵۱ ، ۲۵۷ ، ۲۸۲
سامان ..	۹۳		۳۰۳ ، ۳۰۵ ، ۳۰۶
السامیون	۶۴ ، ۷۲ ، ۲۱		۳۰۷ ، ۳۱۵ ، ۳۲۹
	۱۱۰ ، ۱۵۱		۴۲۶ ، ۴۷۶
ساوه ..	۲۳۴	سمان	۳۷۵
سبحانعلی خان	۱۴	سنتویغا	۳۷۵
	۳۷۷ ، ۳۷۸ ، ۳۸۰	سنجر	۴۶ ، ۱۳۹ ، ۱۴۰
	۳۸۳ ، ۳۸۷ - ۳۹۸		۱۴۲ ، ۱۴۴ ، ۱۴۸
سبزاور ..	۳۵۴	سویاش	۱۲۷
سبکتکین ..	۱۲۴ ، ۱۲۱	سویوتای	۱۶۴
ستودارت ..	۴۴۶ ، ۴۴۷	سودای	۱۶۴
	۴۴۹ ، ۴۵۱	سوربا	۴۰۸
سجیناکتن ..	۱۶۳	سوس ..	۴۶
سربان	۲۴	سولدز ..	۲۰۶ ، ۲۱۴ ، ۴۱۶
سربدار ..	۲۲۵	سونتای	۱۶۴
سرتاق ..	۱۶۸	السیین	۴۷
سریول ..	۳۱۵ ، ۴۷۸	السید برکه	۲۱۴ ، ۲۳۶
سعيد جلد توره	۴۲۲	سیدرافم	۲۱۴
سعيد الخرشى ..	۸۸	سیرام	۲۴
سغناق ..	۲۴ ، ۱۶۶	سیف الدین برلاس	۲۰۲
	۲۶۵ ، ۳۰۱		۲۰۸ ، ۲۱۹
سعيد بن عثمان ..	۵۸ ، ۵۹	سیمجور ..	۱۱۸
السکا ..	۴۷	سبونج خواجه سلطان	۳۰۳ ، ۳۱۶
سکجلیت ..	۳۸	ش	
السلامة ..	۲۴ ، ۲۹ ، ۱۴۵	شاد ملك	۲۶۱ ، ۲۶۲ ، ۲۶۳
	۱۵۱	الشاش ، أنظر : جاج	
		شامل (الشیخ)	۴۳۱

١٣٣ ، ١٣٢ ، ١٢٩ ...	٣٦٧	شاه بك كوكلاش ...
١٤١ ، ١٣٥ ، ١٢٤	٣٧٨	شاهجهان ...
٤٠ ...	٢٦٠	شاهرخ مبرز (السجورى)
٣٣٤ ، ٣٣٣ ...	٢٦٤	
٣٤٥ ، ٣٣٥	٤٥٧	شاهرخ بن نادر شاه ...
ظ	٤٢٣ ، ٤١٩ ، ٤١٨	شاهزمان
ظفرنامه ...	٤٥٧	شاهمراد
ع	٢٢٨	شاه منصور المظفرى
عامر بن عمران ...	٢٦٢	شهورعان
عباس الأكبر ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦	٤٦٦	سنروقه
٣٦٨ ، ٣٦٦ ، ٣٦٣	١٣	شجر تركى
عباس مبرز بن قسح على	٦	شردان
٤٣٨	٢٢٢ ، ٢٠٧	سرف الدين (نزدى)
عباس الثانى الصفوى ...	٧٩	شريك بن شيخ المهدي
٣٧٨	١٤٠ ، ١٣٧	سمس الملك
عبد الرحمن جامى ...	١٥ ، ١٤	سهبانى محمد خان
٢٨٧	٣٢٥ - ٢٩٥	
عبد الصمد	٢٨٨ ، ١٣ ، ١١	سهبانى نامه
٤٥٢ ، ٤٣٤	٣٥٧ ، ٣١٠ ، ٣٠٢	
عبد العزيز خان	٣٨	شهر كسور
٣٣٦	١٠٢	شهاب الدين العورى
٣٨١ ، ٣٨٠ ، ٣٧٧	٣١ ، ٣٩	شهر سبز ...
٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤	٤٥٦ ، ٤٠٩ ، ٢٠٦	
عبد الفلاح ميرزا ...	٤٣١	طاغستانى ص
٤٨٣	٣٨٨	صديق محمد خان
عبد الله بن جوداى ...	٤٢ ، ٢٨	الصفد ...
٦١	٦٤ ، ٦٠ ، ٥٩	
عبد الله خان ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠	١٨٤ ، ١٧٩	الصين
٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧	ط	
٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٨	٤٧٥	طاس كوبريك
٣٦٣ ، ٣٩٦ ، ٤٣١	١٣٧	طبا ...
عبد الملك السامانى ١١٦ ، ١١٧	٣٤٧ ، ١١٤	طبرسان
عبد المنعم خان ... ٣٤٥ ، ٣٤٨	٧٤ ، ٥٥ ، ٩	الطبرى
٣٧٤ ، ٣٥٢	٩١ ، ٨٧ ، ٧٦	
عبد الوصى بىك ...	٢٢٦	طخارسنان
٣٥٢	٩٤ ، ٢٥	طشقند
عبد الله خان ... ٣١٥ ، ٣٢٨	٢٦٠ ، ٢١٤ ، ٢١٠	
٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣	٤٣٩ ، ٣٧٠ ، ٣٤٧	
٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٥٨		
عبد الله بن زياد . ٥٧ ، ٥٨		
العراقى ...		
٨		
عربستان ...		
١٤٠		
ابن عربشاه ٢١٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤١		
٤١٠		
عرت كوتيبى ...		
٤٦٣		
عصام الدين بن عربشاه ..		
٣٥٦		
عقبه بن مسلم ...		
٨٤		

علاء الدين نرماشيرين .. ٢٠٠	قارسي .. ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١
علاء الملك الترمذي .. ١٥٧	١٧٥ ، ٢١١ ، ٣٧٨
علي بن أبي طالب .. ٧٨ ، ١٣٥	فازان .. ٢٠١ ، ٢٠٢
٣٦٤	قاسم سلطان ... ٢٢٧
علي الرضا ... ٣٤٢ ، ٣٤٣	قاسم شيخ عزيزان .. ٣٥٦
٣٤٦ ، ٣٧٤ ، ٤١٣	قایدو .. ١٩٢ ، ١٩٥ ، ١٩٧
علي سميرنوائي .. ٢٨٥ ، ٢٥٩	القائم ناصر الله .. ١٣٥
٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٣٤٥	المبجافا .. ٢٢٣ ، ٣٤٧ ، ٤٦٤
علي بن عيسى .. ٩١	فيلق اساج .. ١٥١
علي قلى شاملو .. ٣٤٢	فيلق سمور .. ٣٦٢
علي قوسيحي .. ٢٦٧	فيلق سلطان ... ٣٨٠
علي الهمداني .. ٢٥٥	فيله بن مسلم ٤٠ ، ٥٥ ، ٦١
عمر خان .. ٤٢٦	٦٢ ، ٦٣ ، ٦٧ -
عمر شيخ مبرزا .. ٢٧٧ ، ٢٨٧	٧١ ، ٧٤
عمر بن عبد العزيز .. ٧٤	قندر خان .. ٢٤ ، ١٢٩
عمرو بن اللث .. ٩٩ ، ١٠٠	فراجه .. ١٦٤ ، ٢٩٩
١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣	فراقول .. ٣١ ، ٤٤
عوسى حلابر .. ٢٢٦	١٥٠ ، ٢٨٩
غ	فراقورم .. ١٦٣ ، ١٩٠
عحدنوا .. ٣٣١	فراعبولو .. ٢٣٤
غسان بن عباد .. ٩٣	الفرغيز .. ٢٤
ف	القزاي .. ٣٦٩
فاهبان .. ٥٢	فرعان .. ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧
فائق .. ١٢٠ ، ١٢٣	الغسطينيه .. ١٣٧
فصح علي شاه .. ٤٣٨	فساله .. ٢٤٢
فرجاس .. ٢٨ ، ٢٩	قصابان .. ٢٩
فرخشه .. ٢٦ ، ٣٨	فطب الدين محمد
فرمانه .. ٢٣ ، ٢٥	خوارزمسياه .. ١٥٢
٧٧ ، ١٤٩ ، ٣٤١	١٥٤ ، ١٥٥
فريد الدين العطار .. ٣٨٣	قل بابا كوكلباش .. ٣٤٩
فريدون بك .. ٣٩٢	القلموف .. ٢٤ ، ٣٢٩ ، ٣٨١
الفصل بن سهل .. ٩٣	مندز .. ٢٣
فلورس ناسللي .. ٤٥٢ ، ٤٥١	قدهار .. ٣٩٨
الفواجا .. ٥٢	فمعراب .. ١٦٣ ، ١٧٥
فبجنكو .. ٣٣ ، ٣٢	٢١٨ ، ٤٣١
فروز .. ٥٥	فوبلاي .. ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢
فبكو فنش .. ٤٤١	قودانقوبليني .. ١٤٥ ، ٢٨٩
ق	قورحوك .. ٢٦٥
قاجار .. ٤١٠ ، ٤١٤ ، ٤٧٢	قوري ببيكم .. ٢٩٩

٢٥٦	..	لطف الله النيسابوري	٤٢٥	..	قوشیغی حاکم بای
١١٤	...	لیلی بن العمان	٤٣٤ ، ٤٢٧		قونجوق
١٩٧	١٩٧
٢٢٧	..	مازندران	٤٤٤ ، ٢٣١	..	کابل
٢١٠	، ٢٠٢ ، ١٨٤	المالی	٤٥٠ ، ٤٤٧		...
٤٠٩	، ٦	مالکولم	١٢٣ ، ٧٧	...	کاشغر
٢٢٣	...	مامای	١٥٥ ، ١٢٥		...
٩٣	...	المأمون العباسی	٤٧٦ ، ٤٧٥	...	کاوفا
١٢٢	...	مأمون بن محمد	٤٨٢ ، ٤٧٩		...
٥٠	...	ماناب	٤٥٠ ، ٤٤٩	...	کای (ج و)
٥٠	، ٤٩	مانیاک	٤٧٧ ، ٣١	..	ککه کورغان
٤٤٠	...	مابندورف ، فون	٣٢٨	..	ککوبچی خان
١٩١	...	مبارک بن هولاکو	٣٥٨ ، ٣٣٢		...
١٥٦	...	مجد الدین البغدادی	٢٧٦	...	کراپاج
١٨٨	...	مجد الدین الطیب	١٤٣	...	کرخان
٤٣٨	...	محمد أمین خان	١٥٣ ، ١٥٢ ، ١٤٧		...
٣١٤	...	محمد تیمور سلطان	١٦٤ ، ١٥٥ ، ١٥٤		...
٣٢٧	، ٣١٦	...	٢٣	...	کرکی
٢٩٧	، ٢٧٤ ، ٢٧٣	محمد حوکی	١٣٧	...	کرمان
٤٥٨	...	محمد حسن بك	٤٧٨ ، ٤٥٥ ، ٢٦		کرمینیه
٤١٢	...	محمد حسین بن بیروم خان	١٦٢	...	کرایت
٤٢	...	محمد حسین عز الدین لو	٢٧ ، ٢٣	...	کش
١٥	...	محمد صادقی میرزا	٢٥٠ ، ٢٠٦ ، ٢٩		...
٣٥٧	، ٢٨٨	محمد صالح	٥٣ ، ٥٢	...	الکسکوسان
٤٤٨	، ٤٣٥	محمد علی خان	٤٥٠ ، ٢٥٣ ، ٢٤٨		کلابجو
١٤٨	، ١٩١	محمد قطب الدین	٢٥٦	...	کمال الدین الحجندی
١٥	، ١٤	محمد مقیم خانی	١٠	...	کمال الدین عبد الرازق
٤٣١	، ٣٩٦ ، ٣٩٥	...	٢١٨	...	کنغ اوعلان
١٤	...	محمد یوسف منسی	١٦٤ ، ١٥٥	...	کوجلوک خان
٣٣٧	...	محمد ناز سلطان	٣٠٨	...	کوجوم سلطان
٣٨٨	...	محمود بن أتابک	٢٢٩	...	کوروجوک
٢٩٠	، ٣٨٩	...	٥٢	...	کوسماس
٤٤٢	...	محمود البانی	٤٦٦	...	کولسینکوف
١٨٥	...	محمود صانع الغرابیل	٤٤	...	کوهک
١٨٨	١٩٨	...	کبیک
٢٢	، ٩	محمود الغزنوی	٥١	...	کبخسرو
١٣١	، ١٢٩ ، ١٢٣	...	٨٢	...	کبردک
١٨٤	...	محمود بلواح	٢٤٨	...	کبستن قراسلطان
٣٥٦	...	محمود أعظم			
٣٧٨	...	مراد بحس			

ميرحوند .. ١٥٧ ، ١٦٩ ، ٢٠١	مرعاب .. ١٩٨
ميمنه .. ٣٠ ، ٣٩٦ ، ٤١٦	مرو .. ٢٦ ، ٧٣ ، ١٣١
ن	١٣٣ ، ١٨٠ ، ٢٧٥
نادر شاه .. ٣٩٦ ، ٣٩٧	٣٣٣ ، ٤١٠ ، ٤١١
٣٩٩ ، ٤٠٠	المستعصم .. ٩٣
ناسخ الواريخ .. ١١	مسعود بك .. ١٨٤ ، ١٨٥
النايمان .. ١٦٣	١٨٩ ، ١٩٣ ، ١٩٤
بحرى (م) .. ٤٤٠	مسعود الغزنوى .. ٩ ، ٢٢
نجم نانى .. ٣٣٠	١٣٢ ، ١٣٣
نجم الدين كبرى .. ٢٨٨	مسلم بن زياد .. ٦٠
نخشب : أنظر تارشى	مسلمانقى .. ٤٣٦ ، ٤٥٧
نخلى .. ٣٧٤	مسلمة .. ٧٥
الترشحي .. ١١ ، ٢٦ ، ٥٢	مسور بن أبى بكر الدرامى .. ٧٥
٥٣ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ١٤٠	٧٦
نسا .. ١٣١	مشهد .. ٣٥٤ ، ٤١٦
نسلرود .. ٤٤٣	مصطفى جاويش .. ٣٩١
نشأت (صادق) .. ٩٠	مطلع السعدين .. ١٠
نصر بن أحمد السامانى ٩٤ ، ٩٥	مظفر حسين كركان .. ٣١٤
٩٨	معاذ بن مسلم ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨
نصر الثانى السامانى	الأمير معصوم .. ١٥ ، ٤٠٥
(السعيد) .. ١١٣ ، ١١٥	٤٢١
نصر بن سيار .. ٧٦ ، ٨٨	معصوم بيردى .. ٤٢٨
٩٠ ، ٩٤	المقندى بالله .. ١٣٨
الامير نصر الله .. ٤٢٦	المقنع الخراسانى .. ١٣ ، ٤٠
٤٥٤ ، ٤٥٥	٨٠ - ٩٠
نظام الملك .. ١٤	الملنان .. ٢٣١
نظر محمد قلى ٣٦٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧	الملك الرحيم .. ١٣٥
٣٨٠ ، ٣٧٩ ، ٣٧٨	ملكشاه .. ١٣٧ - ١٤٢
نوح بن نصر .. ١١٥	منصور السامانى .. ١١٧ ، ١١٨
نور .. ٢٦ ، ٣٨	المنغيتيون .. ٢٢ ، ٢٧ ، ٤٠٥
١٧٠ ، ١٦٩	٤٢٣ ، ٤٣٧ ، ٤٧٨
نوشتكين غرجه .. ١٣٩ ، ١٤٧	منككو .. ١٨٩
نويان .. ١٦٥	منك كول .. ٢٢٩
نياز على بك .. ٤٠٩	مورتمان .. ٢١
نيبور .. ٦	موسكو .. ٢٢٣ ، ٢٢٩
نيشاپور .. ٢٨ ، ١٣٢	مهدى سلطان .. ٣١٦
١٨٠ ، ١٣٧	المهلب .. ٦٠
و	ميان كل .. ٣٠
وخش .. ٢٢ ، ٣٠	ميرانشاه .. ٢٢٣ ، ٢٢٥
وردانزى .. ٥٥ ، ٦٤ ، ٣٨١	٢٤٧ ، ٢٥٦ ، ٢٦٠
ورقة بن نصر .. ٦٢	

هشام بن عبد الملك . ٧٥ ، ٧٧	وكيع بن الاسود .. ٦٥ ، ٧١
هوالد (فون) ٤٦٩	ولي محمد خان .. ٣٦٧
الهند ٣٩٩ ، ٢٣١	ولي النعم ٤٣٢
هيون سانع ٥٢	الوليد بن عبد الملك .. ٦٩
	وندداد ... ٤١
ي	ووسين ١٦
يار محمد ٣٦٣ ، ٣٣٩	وولف يوسف ٤٥١
ناساول ٣٦٣ ، ١٩٨	ويبورث ٤٥٢
الباصا ٢١٥ ، ١٨١	
نرجار ٤٧٢ ، ٤٦٨	ه
نزيد بن عبد الملك ٧٥ ، ٧٧	هارون الرشيد ٩٠ ، ٩١
يريد بن المهلب ٧٤	هاسم بن حكيم (أنظر المفتح)
يعقوب بن الليث ٩٤	هامر ٦ .
يعقوب قوشجى ٤٨٢ ، ٤٧١	هانزاده ٢٤٨
اليمن ١٣٨	هيجر ١٩
ينكى كورعان ٤٧٥ ، ٤٥٤	هراء ٢٨٧ ، ٢٢٦
يوحس ١٩٥	٢٨٨ ، ٢٩٣ ، ٣١٣
بول ٥٢ ، ١٦	٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٤٤
بوليس ٤٠٠	هرمة ٩١
بوسى خان ٢٧٨	هزاراسب ٤٣٧ ، ٣١١

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٨٧ - ٢٩٥٢

